

تأريخ الأدب العربي

للمدارس الثانوية والعليا

تأليف

أحمد حسن الزين

عضو مجمع اللغة العربية

مزيدة ومنقحة

بآخر الكتاب ذيل لغوى يفسر ما غمض من الألفاظ والتراكيب

دار نهضة مصر للطبع والنشر
الفيجالة - القاهرة

الفهرس

مقدمة

سبعة

٣ أدب اللغة . تاريخ الأدب . فائدة تاريخ الأدب . تقسيم تاريخ الأدب . العرب ومواطنهم وطقانهم وقبائلهم المشهورة . أحوال العرب الاجتماعية والسياسية والدينية والعقلية الجاهلية

الباب الأول — العصر الجاهلي

١٣ الفصل الأول — نشأة اللغة العربية : اللغات السامية . اختلاف اللهجات وسببه

أطوار تهذيب اللغة العربية . الأسواق . أثر مكة وعمل قريش .

١٨ الفصل الثاني — النثر : تقسيم النثر . أنواع المأثور منه . الحكمة . الوصية . الخطبة

مميزات النثر الجاهلي . الخطابة ودواعيها . أسلوبها . عاداتهم فيها . أشهر الخطباء .

٢٠ قيس بن ساعدة الإبادي . حياته . أسلوبه . نموذج من كلامه .

٢١ عمرو بن معد يكرب الزبيدي . حياته . صفته ومترلته نموذج من كلامه .

٢٣ نماذج من النثر الجاهلي . الأمثال . الحكم . الخطب . الوصايا .

٢٨ الفصل الثالث — الشعر : تعريفه وأوليته . الشعر والعرب . أنواع الشعر وأغراضه .

سبب خلو الشعر العربي من القصص . الملاحم المشهورة . مميزات الشعر الجاهلي . الرواية

والمعلقات .

٣٣ نماذج من الشعر الجاهلي .

٤٥ الفصل الرابع — الشعراء الجاهليون وطقانهم . مكاتبتهم . من تكسب بالشعر منهم

تقسيمهم باعتبار الزمن والإجادة .

٤٦ امرؤ القيس : نشأته وحياته . شعره . نموذج منه .

٤٩ النابغة الذبياني : شعره ومميزاته » .

٥٢ زهير بن أبي سلمى : نشأته وحياته . شعره ومميزاته

نموذج منه

٥٦ الأحمسي : » » »

٥٨ عنزة العبسي : » » »

٦١ طرفة بن العبد : » » »

نموذج منه

٦٤ عمرو بن كلثوم : » » »

٦٦ الحارث بن حلزة : » » »

صفحة

- ٦٨ ليلى بن ربيعة : نشأته وحياته . شعره ومميزاته . نموذج منه .
٧١ حاتم الطائي : أخلاقه . شعره .
٧٥ أمية بن أبي الصلت :
٧٨ نشأة الخط في بلاد العرب ، البصرة والكوفة .
٧٩ جدول تسلسل المخطوط السامية .

الباب الثاني - عصر صدر الإسلام والدولة الأموية

٨٠ الفصل الأول - الأدب الإسلامي :

العوامل المؤثرة في الأدب الإسلامي
حال الجزيرة العربية قبيل الإسلام . معنى الجاهلية والإسلام . تغير العقيدة العربية
بالإسلام . ضنف الأثر الإسلامي في الأعراب ونتائجه . أثر الفتوح في حياة العرب . أثر
الخصومة السياسية في الأدب

٨٦ الفصل الثاني - مصادر الأدب الإسلامي :

(١) القرآن الكريم : أسلوبه . إعجازه . أغراضه ومعانيه . تأثيره . قراءاته
جمعه وتدوينه . قيس من نوره .

٩٥ (٢) الحديث : منزلته الدينية . قيمته النبوية والتاريخية . اختلافه من
القرآن في ذلك . الحديث والوضع . أثر الحديث على علمه
في الأدب والأسلوب . أسلوب الحديث .

٩٩ (٣) الشعر الجاهلي . (٤) الأدب الأجنبي .

١٠٢ الفصل الثالث - أنواع الأدب الإسلامي :

(١) الشعر : حاله في عهد النبوة . معركة الهجاء بين قريش والمسلمين . أثر الدين والحضارة
فيه . تحليل نهضة الشعر في العراق والحجاز على عهد بني أمية وبيان خطرهما وأثرهما
في الإنتاج العقلي للعرب . العصبية والثورة والحزبية وأثرهما في وفرة الشعر . تأثير الشعر
بالحياة الجديدة في معانيه وأغراضه . اختلاف مظاهر الحياة في العواصم العربية لاختلاف
الأحوال السياسية والاجتماعية . خصائص الشعر في العراق . الأخطل وجريروالفرزدق .
تحليل مذاهبهم في الهجاء . الشعر السياسي ومذاهبهم فيه . شعر القبيلة . شعر الخوارج

صفحة
١٣٧ نماذج من الشعر الأموي

١٣٧ الفصل الرابع — الشعراء وطبقاتهم :

١٤٦ الشعراء المخضرمون :

١٤٦ كعب بن زهير : نشأته وحياته . شعره . نموذج منه .

» الخنساء : حياتها ، وشعرها

» حسان بن ثابت : نشأته وحياته ، شعره

» الخطيب : » » » »

١٥٧ الشعراء الإسلاميون

١٥٧ عمر بن أبي ربيعة : نشأته وحياته . شعره . نموذج من شعره .

» الأخطل : » » »

» الفرزدق : » » »

» جرير : » » »

» الطرماح بن حكيم : » » »

١٧٦ (٢) النثر الخطيب .

الخطباء :

١٧٧ محمد رسول الله : مولده ونشأته وبعثته . فصاحته . أثر الحديث في اللغة والأدب .

١٨١ عمر بن الخطاب : نشأته وحياته . صفاته ومواهبه . نموذج من عهده وخطبه .

١٨٥ علي بن أبي طالب : » » » أخلاقه ومواهبه . نموذج من كلامه .

١٨٨ سبحان وائل : » » » نموذج من خطبه .

١٨٩ زياد بن أبيه : » » » أخلاقه ومواهبه . نموذج من كلامه . خطبته

البراء

١٩٢ الحجاج بن يوسف : » » » » » خطبه .

١٩٦ (٣) الكتابة : تدوين الدواوين . تأثر الأسلوب العربي بالأسلوب الفارسي .

الكتابة :

١٩٧ عبد الحميد بن يحيى : نشأته وحياته . أثره في الكتابة . أسلوبه . نموذج من نثره .

٢٠٠ نماذج النثر . الحكم . الخطب . الرسائل .

٢٠٤ — اللعن ونشوء العامية .

| | |
|------------------------|-----|
| صفحة | |
| التعوي | ٢٠٥ |
| العلوم في العصر الأموي | ٢٠٦ |
| الحط بعد الإسلام | ٢٠٧ |

الباب الثالث - العصر العباسي

| | |
|-----|--|
| ٢١٠ | خطره وأثره ومميزاته . اختلافه عن العصر الأموي . أثر الحضارة الآرية فيه . انتقال الخلافة إلى بني العباس على يد الفرس (هـ) |
| ٢١٢ | الفصل الأول - اللغة وأثر الفتوح والسياسة والحضارة فيها . ما اشتهر به العربية من الفارسية وغيرها . ضمها عند استيلاء الأحاجم على بغداد . |
| ٢٥١ | الفصل الثاني - الشعر : |

| | |
|--|--|
| | الكتابة : أثر الحضارة الفارسية فيها . اتساعها . أسلوبها . نزوعها إلى الإطناب والزخرف . سرعان الضعف إليها . طريقت الكتاب . طريقة ابن المقفع ، طريقة الجاحظ . طريقة ابن العميد . طريقة القاضي الفاضل ؛ |
| | الخطابة الخطباء : داود بن علي (هـ) شيب بن شبة |

| | |
|-----|--|
| ٢١٩ | منازج الشعر : التوقيعات . الخطب . الرسائل . المقامات |
|-----|--|

٢٢٦ الفصل الثالث - الكتاب

| | |
|-----|----------------------|
| ٢٢٦ | ابن الفصح |
| ٢٣٠ | الجاحظ |
| ٢٣٣ | ابن العميد |
| ٢٣٧ | الصاحب ابن عباد |
| ٢٣٩ | الخوارزمي |
| ٢٤١ | بديع الزمان الهمداني |
| ٢٤٥ | الحريري |
| ٢٤٧ | القاضي الفاضل |

٢٥٠ الفصل الرابع - الشعر

| | |
|--|---|
| | أثر الحضارة والسياسة في الشعر . أثر الحضارة في شكله ووزنه وغرضه ، أثر ترجمة العلوم في الشعر . الشعب السياسي والشعر . تعزيد الخلفاء للشعر : فجع هذا التعزيد وضرره . حالة الشعر في عهد السلاجقة . |
|--|---|

| | |
|-----|---|
| ٢٥٤ | منازج من الشعر العباسي : الحماسة . المدح . الرثاء : الهجاء . الوصف . الحكم والأمثال . الاعتذار والاستعطاف . |
|-----|---|

٢٦٣ الفصل الخامس - الشعراء المولودون :

٢٦٣ شعراء بغداد :

٢٦٣ بشار بن برد

٢٦٨ أبو الصاهية

٢٧٢ أبو نواس

٢٧٦ ابن الرومي

٢٨١ ابن المعتز

٢٨٥ الشريف الرضي

٢٨٧ الطغراني

٢٨٩ الشعراء في الشام : الشام في عهد بني أمية . العام في عهد بني حمدان

٢٩٠ أبو تمام

٢٩٤ البحتري

٢٩٧ للثني

٣٠٢ أبو فراس

٣٠٦ أبو العلاء المعري

٣١٢ الشعراء في اليونان : عبد الرحمن الداخل . سياسة الأمويين في الأندلس

غيرها في الشام . حضارة الأندلس وأثرها في الشعر . انتشار اللغة العربية في إسبانيا .

أثر الشعر العربي في الشعر الإنجليزى ، رأي الفرنج في الشعر العربي

٣١٦ نماذج من الشعر الأندلسي

٣٢١ ابن عبد ربه . العقد الفريد

٣٢٤ ابن هانيء الأندلسي

٣٢٩ ابن زيدون

٣٣٥ ابن حديس الصقلي

٣٣٩ ابن خفاجة الأندلسي

٣٤٢ لسان الدين بن الخطيب

الشعر والكتابة والموسم والفنون في عصر علي عهد الفاطميين :

٣٤٩ الشعراء في مصر

٣٥٠ كمال الدين بن التيمي

٣٥٤ ابن الفارض

٣٥٦ بهاء الدين زهير

- ٣٥٩ الفصل السادس — العلوم :
- الترجمة والتأليف : رق العلوم وانتشارها . أثر العرب فيها
- ٣٦١ العلوم الأردنية — علم الأدب :
- ٣٦٢ الأدباء . الأسمى
- ٣٦٣ أبو الفرج الأصبهاني . كتاب الأغاني
- ٣٦٥ علم النحو . الكوفيون والبصريون . منشأ الخلاف بينهم . النحو في مائة أمره
- ٣٦٧ النحاة
- ٣٦٧ سيويه
- ٣٦٨ السكسائي
- ٣٦٩ الفراء
- ٣٧١ ابن الحاجب
- ٣٧١ علم القنة . للمجبات
- ٣٧٢ الغويون . الخليل بن أحمد
- ٣٧٤ ابن دريد
- ٣٧٦ علوم البيان
- ٣٧٧ التاريخ . نشأته وتطوره
- ٣٧٨ مذهب العرب في التاريخ
- ١٧٨ ابن الأثير .
- ٣٧٩ العلوم الشرعية — علم الحديث :
- المحدثون . البخاري
- ٣٨٠ مسام بن الحجاج
- ٣٨١ علم الفقه
- الفقهاء . أبو حنيفة النعمان
- مالك بن أنس
- ٣٨٢ محمد الشافعي
- ٣٨٣ أحمد بن حنبل
- ٣٨٦ العلوم العقلية — الفلسفة :
- ٣٨٨ الفلاسفة
- ٣٨٩ ابن سينا
- ٣٩٠ الفزالي
- ٣٩١ ابن رشد

- ٣٩٤ الفصل السابع - القصص والمقامات في الأدب العربي :
قصة هنتر (ه) الحكايات ، ألف ليلة وليلة .
٣٩٧ الأمثال . كليله ودمنة
٣٩٩ المقامات وكتابها

الباب الرابع - العصر التركي

- ٤٠١ بعد سقوط بغداد . كيف خلفت القاهرة بغداد وقرطبة
٤٠٤ أعلام هذه المفازة . نوابغ هذه الفترة على الإجمال
٤٠٦ صفي الدين الحلبي
٤٠٧ ابن منظور
٤٠٩ أبو الفداء
٤١٠ ابن خلدون
٤١٣ عائشة الباعونية

الباب الخامس - العصر الحديث

- ٤١٦ الفصل الأول - نظرة عامة حالة مصر في أواخر القرن الثامن عشر ، غزو نابليون لمصر وأثره الأدبي ، أعمال محمد علي ، جهود إسماعيل في نشر الثقافة ، أثر الاحتلال الإنجليزي في التعليم
٤٢١ الفصل الثاني وسائل النهضة الحديثة :
٤٢١ المدارس . الجامعة الأزهرية . الجامعات المصرية . الطباعة . الصحافة . التمثيل .
الجامع الأدبية ، المجمع العلمي العربي بدمشق - مجمع اللغة العربية بالقاهرة
٤٢٩ الفصل الثالث - الشعر :

الكتابة - الفن القصصي والروائي

- ٤٣٣ الفصل الرابع : أساطين النهضة الحديثة في مصر والشام والعراق والمغرب
٤٣٧ الكتاب
٤٣٧ جمال الدين الأفقاني ؛ حياته وأعماله . نموذج من كلامه
٤٤١ الأستاذ الإمام محمد عبده . نشأته وحياته . صفاته وأخلاقه ؛ أثره في اللغة والأدب .
أثره في العلم والدين . نموذج من نثره
٤٤٦ الشيخ علي بوسف . نشأته وحياته . أخلاقه وفضله . أسلوبه وعلوه . نموذج من نثره
٤٥٤ إبراهيم الميوليحي . نشأته وحياته . أسلوبه . آثاره

| | صفحة |
|--|------|
| حفنى ناصف . نشأته وحياته . أخلاقه . نثره وشعره - مؤلفاته . نموذج من شعره | ٤٥٣ |
| باحثة البادية : نشأتها وحياتها . مكانتها وحياتها في العلم والأدب . نموذج من كلامها | ٤٥٦ |
| مصطفى لطفي المنفلوطى . نشأته وحياته . أخلاقه . أسلوبه . مؤلفاته وأدبه . مترجماته . نموذج من نثره | ٤٥٨ |
| عبد العزيز شوايش ... نشأته وحياته . أخلاقه . أسلوبه . مؤلفاته . نماذج من نثره | ٤٦٢ |

الأدباء

| | |
|--|-----|
| ناصرى اليازجى نشأته وحياته نثره وشعره . علمه ومؤلفاته . نموذج من كلامه | ٤٦٦ |
| أحمد فارس الهدايق ... » » » مؤلفاته . نموذج من كلامه | ٤٦٨ |
| بطرس البستاني ... » » » علمه وعمله | ٤٧٢ |
| إبراهيم اليازجى ... » » » أدبه وعلمه . نموذج من كلامه | ٤٧٤ |
| حزرة فتح الله ... » » » أخلاقه وعلمه . نموذج من كلامه | ٤٧٦ |

الخطابة والخطباء

| | |
|---|-----|
| عبد الله نديم نشأته وحياته . أخلاقه ومواهبه . نموذج من كلامه | ٤٧٨ |
| مصطفى كامل » » » . نموذج من خطبه | ٤٨١ |
| سعد زهلول » » » . منزله في الخطابة . نموذج من نثره | ٤٨٣ |

٤٨٨ الفصل الخامس . الشعر

الشعراء

| | |
|---|-----|
| عمود ساسى البارودى نشأته وحياته . شعره ومؤلفاته . نموذج من شعره | ٤٩٠ |
| إسماعيل صبرى » » » » | ٤٩٤ |
| أحمد شوقى » » » » | ٤٩٨ |
| محمد حافظ إبراهيم | ٥٠٧ |
| جميل صدق الزهاوى | ٥٠٦ |
| خاتمة في الاستعراق والمستعرقين . تاريخ الاستعراق ، أشهر المستعرقين | ٥١٠ |
| ذيل في تفسير الألفاظ الغريبة والتراكيب الغامضة | ٥١٥ |

تاريخ الأدب العربي

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

كتبنا هذا الكتاب على خير ما رجونا من التمهيص والتلخيص ، وحجزنا القلم عن وجهه ومرآة القول رحب ومجال البحث مستفيض ؛ فأجلنا على رغبتنا حال الأدب في العصور الخمسة ، ولا سيما في العصر العباسي وهو أرق عصور الإسلام ، ومشرق نور الحضارة ، ومهبط وحى العلم ، وريق شباب اللغة ، وقوقاً بالطالب عند درسه ، وترفيهاً منا عن نفسه ، واجتزاء ببسط الغرض ونهج السبيل ليعين فيها الناشئ البارئ بلفته مُسَدِّد الخطى مؤيد العزيمة ، حتى يقف على أطوار لسانه ، ويكشف عن أسرار بيانه . ولا نَكْذِبُ الله فقد كان لمنهاج التعليم في هذا البلد وزهاده الناشئين في الإفاضة ، أترقوى في هذا الإيجاز . فكلمتنا للمتعقب ، إذا رأى في هذا الموجز إجمالاً أو إغفالاً ألا يبسط بالكبير لسانه ، فإن هذا العلم في العربية وليد ، والبحث فيه طريف جديد . ونحن إنما كتبناه لناشئة الأدب لافحوله ، وألمنا فيه بأصوله لا بفصوله . كلمتنا للمتعلم ، إذا استوعاه بالدرس ، واستقرأه بالحفظ ، ألا يقف في الطلب عندَه ، وألا يَقْصِرَ عليه جهده ، فانما هو عجمالة لفنان وبلاغة صايدٍ وعلالة مشوق .

* * *

ذلك ما قدمنا به الطبعة الأولى لهذا الكتاب منذ خمسة وأربعين عاماً . وإنه ليثلج صدورنا أن نقول اليوم إن دراسة تاريخ الأدب في الديار المصرية وفي غيرها من الأقطار العربية ، قد أخذت تنشر وتتسع وتعمق ؛ فنهاجه تنقح وتعدل ، ومباحثه تحقق وتحلل ، ومدرسوه يتقصون في تفصيله ، ودارسوه يتبارون في تحصيله . لذلك نزعنا في هذه الطبعة إلى شيء من التعمق والبسط ، راجين أن يكون في هذا العمل بعض الغناء لشباب العرب في العراق ولبنان وشرقي الأردن والسعودية واليمن والجمهورية العربية المتحدة والسودان وليبيا وتونس والجزائر والمغرب

مقدمة

أدب اللغة

أدب اللغة ما أثيرَ عن شعرائها وكتّابها من بدائع القول المشتمل على تصور الأخيصة الدقيقة ، وتصوير المعاني الرقيقة ، مما يهذب النفس ويرقق الحس وبنقف اللسان . وقد يطلق الأدب على جميع ما صنّف في كل لغة من البحوث العلمية والفنون الأدبية ، فيشمل كل ما أنتجته خواطر العلماء وقراءح الكتاب والشعراء .

والآداب العربية أغنى الآداب جمعاء ؛ لأنها آداب الخليفة منذ طفولة الإنسان إلى اضمحلال الحضارة العربية . فما كانت لغة مُضرَ بعد الإسلام لغة أمة واحدة ، وإنما كانت لغة لجميع الشعوب التي دخلت في دين الله أو في كنفه . أودعوها معانيهم وتصوراتهم ، وأفضوا إليها بأسرار لغاتهم ؛ ثم جابت أقطار الأرض تحمل الدين والآداب والحضارة والعلم ، فصرعت كل لغة نازلتها ووسّعت علوم الأولين وآداب الأقدمين ، من يونان وفرنس ويهود وهنود وأحباش ، واستمسكت على عرّك الخطوب تلك القرون الطويلة ، فشهدت مصارع اللغات حولها وهي مرفوعة الرأس رابطة الجأش ترث نتاج القراءح وثمار العقول من كل أدب ونحلة ، فكانت لغات الأمم على اختلافها كالجداول والأنهار ، تتألف ، ثم تتشعب ، ثم تتجمع ، ثم تصب في محيط واحد هو اللغة العربية .

تاريخ الأدب

تاريخ الأدب علم يبحث عن أحوال اللغة وما أنتجته قراءح أبنائها من بليغ النظم والفن في مختلف العصور ، وعمّا عرض لها من أسباب الصعود والهبوط والدثور ، ويعنى بتاريخ الفاهين من أهل الكتابة واللسن ونقد مؤلفاتهم وبيان

تأثير بعضهم في بعض بالفكرة والصناعة والأسلوب^(١) .

ذلك تعريف تاريخ الأدب بمعناه الأخص ، أما تعريفه بمعناه الأعم فهو وصف مسلسل مع الزمن لما دون في الكتب وسجل في الصحف ونقش في الأحجار تعبيراً عن عاطفة أو فكرة ، أو تملأها لعلم أو فن ، أو تحليداً لحادثة أو واقعة . فيدخل فيه ذكر من نبغ من العلماء والحكماء والمؤلفين وبيان مشاربهم ومذاهبهم وتقدير مكائهم في الفن الذي تعاطوه ليظهر من كل ذلك تقدم العلوم جميعاً أو تأخرها .

فائدة تاريخ الأدب

لتاريخ الأدب الأثر البالغ في حياة الأمة . فإن المحافظة على اللغة وما فيها من ثمار العقل والقلب أحد الآساس التي يبنى عليها الشعب وحدته ومجده ونخوه . فإذا حرمت شعباً آدابه وعلومه الجليلة الموروثة فقطعت سياق تقاليد الأدبية والقومية حرمة قوام خصائصه ونظام وحدته ، وقدمته إلى العبودية العقلية وهي شر من العبودية السياسية ، لأن استعباد الجسم مرض يمكن دواؤه ، ويرجى شفاؤه ، أما استعباد الروح فموت للقومية التي لا يقدر على إحيائها طبيب .

(١) تاريخ الأدب بهذا المعنى عام حديث النشأة ، ابتدعه الإيطاليون في القرن الثامن عشر وظل مجهولاً حتى أشتد خلاته بالغرب ، فكان أول من نقله إليه المنفور له الأستاذ حسن توفيق العدل على أثر عودته من ألمانيا وقيامه بتدريسه في دار العلوم . أما العرب فقد توسعوا في تأليف كتب التراجم للأدباء والشعراء والعلماء وذهبوا في ذلك مذاهب شتى تدل على تميزهم في هذا النوع . ككتاب وفيات الأعيان لابن خلكان ، وفوات الوفيات للكتبي ، وبقية الوعاة للسيوطي ، ومعجم الأدياء لياقوت ، وتاريخ الحكماء للقفلي ، وكتاب الأغاني لأبي الفرج الأصفهاني ، وبقية الدهر للثعالبي ، ودمية القصر للباخرزمي ، وخرينة القصر للكاتب الأصفهاني ، وقلائد المقيان للفتح بن خاقان ، وفتح العليين للمعري ؛ ولا يمكن نسبة هذه الكتب إلى تاريخ الأدب كنسبة الحجارة إلى القصر المشيد ؛ لأنها أخبار مفردة غير مرتبطة لا تظهر ما بين الشعراء أو الكتاب من علاقة في الصناعة والفرس والأسلوب ، ولا تذكر ما عرا النظم والنثر من تحول ونقاب . وما نجده من ذلك في كتاب العمدة لابن رشيقي ، والمثل السائر لابن الأثير ، والمقدمة لابن خلدون ، والفهرست لابن النديم ، ليس إلا نبذاً يسيرة ولحاً وجيزة وردت مجترة لاصلة بينهما ولا رابط ، ولذلك أسباب سنذكرها عند الكلام على مذاهب العرب في التاريخ . راجع تفصيل ذلك في كتابنا : (في أصول الأدب) ، القاهرة سنة ١٩٥٠ .

تقسيم تاريخ الأدب

التاريخ الأدبي وثيق الصلة بالتاريخ السياسي والاجتماعي لكل أمة ، بل قل إن كليهما لازم للآخر مؤثر فيه ممد له . غير أن الأول إنما يسبق الثاني كما تسبق الفكرة العمل والرأى العزيمة : فكل ثورة سياسية أو نهضة اجتماعية إنما تعدها وتمدها ثورة فكرية تظهر أولاً على ألسنة الشعراء وأقلام العلماء لقوة الحس فيهم ، وصفاء النفس منهم ؛ ثم ينتقل تأثيرهم وتطورهم إلى سائر الناس بالخطابة والكتابة فتكون الثورة أو النهضة .

لذلك آثرنا أن نجارى كثرة كتابنا في تقسيم تاريخ أدابنا إلى خمسة أعصر على حسب ما نال الأمم العربية والإسلامية من التقلبات السياسية والاجتماعية وهي :
(١) العصر الجاهلي ، وابتدىء باستقلال العدنانيين عن اليمنيين في منتصف القرن الخامس للميلاد ، وينتهى بظهور الإسلام سنة ٦٣٢ م .

(٢) عصر صدر الإسلام والدولة الأموية ، وابتدىء مع الإسلام وينتهى بقيام الدولة العباسية سنة ١٣٢ هـ .

(٣) العصر العباسي ، ومبدؤه قيام دولتهم ومنتهاه سقوط بغداد في أيدي التتار سنة ٦٥٦ هـ .

(٤) العصر التركي ، وابتدىء بسقوط بغداد وينتهى عند النهضة الحديثة سنة ١٢٣٠ هـ .

(٥) العصر الحديث ، وابتدىء باستيلاء محمد علي على مصر ولا يزال .

العرب ومواطنهم وطبقاتهم وقبائلهم المشهورة

العرب أمة من الأمم التي اصطلح المؤرخون ^(١) على أن يسموها سامية

(١) أول من استعمل هذا الاصطلاح هو المؤرخ الألماني فردريك سلوسر في كتابه

(نسبة إلى سام بن نوح) وهي البابلية والأشورية والعبرانية والفينيقية والآرامية والحبشية . امتهدت هذه الشعوب في الأصل مهدياً واحداً نشأت فيه وتفرقت منه . وتعيين هذا المهدي لا يزال موضع الخلاف وموضوع البحث : فبعض يقول إنه العراق ، وبعض يرجح أنه جزيرة العرب ، وآخرون يزعمون أنه الحبشة . ومهما يكن الخلاف في مهد الساميين فقد نزحوا منه في غابر الدهر ، فسكن البابليون والأشوريون العراق ، والفينيقيون سواحل سورية . والعبرانيون فلسطين ، والأحباش الحبشة ، والعرب شبه جزيرتهم . وهي واقعة إلى طرف الجنوب الغربي من آسيا . ويحدها من الشمال سورية ، ومن الشرق الفرات ووجهة من المحيط الهندي أيضاً ، ومن الغرب البحر الأحمر . ثم يقسمها جبل السراة الممتد من اليمن إلى أطراف بادية الشام قسمين : غربياً وشرقياً ؛ فالغربي يهبط من سفح ذلك الجبل إلى شاطئ البحر الأحمر فيسمى الغور لانخفاضه أو تهامة حره والشرقي يصعد إلى أطراف العراق والسماوة فيسمى نجداً لارتفاعه ، وما فصل بين الغور ونجد يدعوونه الحجاز لحجزه بينهما . أما ما ينتهي به نجد في الشرق حتى يصل إلى الخليج العربي من بلاد اليمامة الكويت والبحرين وعمان فيسمى بالعروض لاعتراضه بين اليمن ونجد ؛ وما يمتد وراء الحجاز إلى الجنوب يسمى اليمن إما لوقوعه على يمين الكعبة ، وإما ليمنه .

وفي هذه الأقسام توزع الشعبان العربيان : شعب قحطان ، وشعب عدنان . فأما القحطانيون فسكنوا اليمن وكانت لهم فيه عمارة عظيمة وحضارة زاهرة . فلما نبت بهم سرابعه تمزقوا في البلاد ، فذهب من كهلان ثعلبة بن عمرو نحو الحجاز فغلب اليهود على يثرب ، وكان من أعقابه الأوس والخزرج . ثم احتل حارثة ابن عمرو وهو خزاعة ، الحرم . ومال عمران بن عمرو نحو عمان ، فبنوه أزد عمان . واستوطنت قبائل نصر بن الأزد تهامة وهم أزد شنوءة ؛ ووقف رواد جفنة بن عمرو بالشام فأقام بها هو وبنوه فكان منهم الغساسنة . ونزل بنو لحم بالحيرة ومنهم نصر

ابن ربيعة أبو المناذرة . وأما العدنانيون فسكنوا الحجاز وما يأسره إلى ريف العراق ، فأقامت بطون قريش في مكة وضواحيها ، وبطون كنانة في تهامة ، واحتلت ذبيان ما بين تيماء وحوران . وسكنت ثقيف الطائف ، وهوازن شرقي مكة ، ونزل بنو أسد شرقي تيماء وغربي الكوفة ، وبنو تميم بادية البصرة . واستوطنت قبائل تغلب الجزيرة الفراتية . وحلت سائر بكر بن وائل طول الأرض من اليمامة إلى البحر ، فأطراف سواد العراق فالأبلة ، فهيت .

والمؤرخون يرجعون العرب إلى ثلاث طبقات :

يائنة : وهم الذين درست أخبارهم وطمست آثارهم ، فلم يسجل لهم التاريخ إلا صفحات مشوهات لا تنفي ظناً ولا تثبت حقيقة . وأشهر قبائلهم : عاد وثمود وطسم وجديس . « فأما ثمودُ فأهلكوا بالطاغية ، وأما عادُ فأهلكوا بريح صرصر عاتية ^(١) » وأما طسم وجديس ففتنوا كما يزعمون في حادثة نسائية خرافية . وعاربة : وهم اليمانيون المنتمون إلى يعرب بن قحطان المذكور في التوراة باسم يارح بن يقطان . ويزعم العرب أنه أصل لسانهم ، ومصدر بيانهم ، وبذلك يفتخر حسان بن ثابت في قوله :

تعلمتُم من منطق الشيخ يعربُ أينا فصرتم مُعربين ذوى نفرٍ
وكنتم قديماً ما لكم غير عجمة كلامٌ وكنتم كالبهائم في القفرِ

ومن اليمانيين بطون حمير — وأشهرهم زيد الجمهور وقضاة والسكاسك . وبطون كهلان — وأشهرهم همدان وطىء ومدحج وكندة ولخم . ومن لحم بنو المنذر في الحيرة والأزد . ومن الأزد الأوس والخزرج في المدينة والفساسنة في الشام . وكانت لحمير السيادة على اليمن فمنهم الملوك والأقيال .

ثم مستعربة : وهم ولد اسماعيل عليه السلام ، نزل بالحجاز حوالي القرن

(١) قرآن كريم .

التاسع عشر قبل الميلاد ، ثم صاهر ملوك جرهم ، فكان له بنون وأعقاب ضلوا في مجاهل الزمن فلم يعرف التاريخ منهم على التحقيق إلا عدنان ، وإليه ينتهي عمود النسب العربي الصحيح . وأشهر قبائل هذه الطبقة ربيعة ومُضَر وأَمار وإياد . فمن ربيعة عبد القيس ، ومنها بكر وتغلب ابنا وائل . ومن مضر انشعبت قيس عيلان وبتون اليأس بن مضر . فأما قيس عيلان فأشهر بطونها هوازن وخطافان ؛ ومن خطافان عبس وذبيان ابنا بغيض . وأما أولاد اليأس فافترقوا ، فمنهم بطون تميم بن مر ، وهذيل بن مدركة ، وبنو أسد بن خزيمه ، وبتون كنانة بن خزيمه ، ومن كنانة قريش ؛ ثم انقسمت قريش إلى بطون شتى . فمنهم جُحجُوسهم ومخزوم وعبد الدار وعبد مناف . ثم كان من عبد مناف عبد شمس وبوقل والمطلب وهاشم ، ومن هاشم عبد المطلب : وبنوه عشرة منهم عبد الله أبو الرسول صلى الله عليه وسلم ، وأبو طالب والد علي رضي الله عنه ثم العباس . فالعلويون ينتسبون إلى علي ، والعباسيون إلى العباس . وأما الأمويون فليسوا من بني هاشم وإنما هم من بني عبد شمس أخيه . وإلى هذه الطبقة يرجع الفضل فيما نتكلم به من لغة ، وما نتجمل به من بيان ، وما ندرسه من أدب ، وما نعتقده من دين .

أحوال العرب الاجتماعية والسياسية والدينية والعقلية في الجاهلية .

إن لجو الإقليم أثراً طبيعياً قوياً في حياة أهله ، فهو الذي ينهج لهم سَنَنَ معاشهم ونظام اجتماعهم ، ويكون الكثير الغالب من أخلاقهم وطباعهم . والعربية شبه جزيرة جافة قاحلة قلما يجودها الغيث وتوانيتها العيون ؛ فهي لاتصلح للزروع الدورية ، ولاتلائم الحياة الحضرية . ومن ثمَّ كان أهلها بدواً^(١) بالفطرة يعيشون تحت الحيام على رعى الأنعام فيطعمون من لحمها ولبنها ، ويكتسبون

(١) يدل على أن الداوة حصيصة العرب و النصاريج القديم أم لفظ العرب يراد به في اللغات السامية مسمى الدو والنادبة

بصوفها ووبرها ، ويتتبعون بها مواقع القطر ورياض الأرض يُسيمونها فيها ، ويرددونها بين أوديتها وفيافيها ؛ إلا قريشا فنحضر والقيامهم على البيت الحرام ، وإيلافهم رحلة اليمن والشام ؛ وإلا القحطانيين لحظ ديارهم من الخصب والمطر ، ووفرة ما تغله أرضهم من الحب والتمر. فإذا أخلقت السماء وأحملت وجوه الأرض أكل بعضهم بعضاً بالإغارة والغزو . وجريرة ذلك عليهم فساد القلوب ودوام الحروب وذهاب الأمن وتشتت الألفة . ولم ينسكب الجاهليون بمثل الحرب والجدب ، فهم لذلك يتمدحون بالبأس والسماحة ، ويتبجحون باللسن والفصاحة ، ويؤثرون الذكر ويتدون^(١) الأنثى ، ويتكاثرون بالنفر العديد ، ويعتزون بالقرابة الواشجة .

ثم كان من إلفهم حياة الظعن والتجوال ؛ وتوزع همهم بين الجدل والقتال ، أن غلبت عليهم الحرية والمصيبة والوحشية ، فلم تكن لهم مدنية اجتماعية ولا حكومة سياسية ولا أنظمة عسكرية ولا فلسفة دينية . وإنما كان مجتمعهم مجتمع القبيلة والخيمة ، لا مجتمع الشعب والأمة ؛ والحكومة كانت لرؤساء العشائر يملكون بالإرث ويحكمون بالعرف ، فلم تكن أُلجُرَشِيَّة^(٢) كحكومة الإغريق ، ولا ملكية كحكومة المصريين والفرس : اللهم إلا في الحيرة والشام فقد كان لهم ملوك متوجون ولكنهم غير مستقلين : فاللخميون في الحيرة يتبعون الأكاسرة ، والغسانيون في الشام يتبعون القياصرة . وإذن فعانى الحضارة والرأى العام والأرستقراطية والديمقراطية والإقطاع لا ألقاها عند العرب والساميين جميعاً . والنظام العسكري حتى بعد الإسلام كان غير ثابت ولا منظم ، لأن المرءوسية

(١) لم يكن وأد البنات عاماً في جميع العرب وإنما كان خاصاً ببعض قبائل تمم وأسد ، يفعله من يفعل منهم خشية الفقر وإلى ذلك أشار الكتاب في قوله : (ولا تقتلوا أولادكم خشية إملاق نحن نرقيهم وإياكم) .

(٢) الأُلجُرَشِيَّة Oligarchie حكومة يعصر السلطان فيها يد بعض الأسر القوية .

والتجرد عن الشخصية — وهما الركنان الأساسيان في العسكرية — يضادان إعجاب العربي بنفسه واعتداده بشخصه. والدين كان دين بساطة وسذاجة وتقشف ، فلم يكن للعرب ما كان للأغريق من تعدد الآلهة وضخامة الهياكل وإقامة التماثيل ووفرة الأساطير وفلسفة العقائد ، وإنما كان بقية أثرية من دين إبراهيم جاءهم من وراء القرون عن طريق الوراثة مشوهة لتطاول العهد وتحكم الجهالة وعدم القرار ، محالت في نفوسهم إلى عبادة الأصنام وتعظيم الأوثان^(١) ونصبها على الكعبة تقريباً بها إلى الله على زعمهم . وهذه الوثنية كانت دين الكثرة من العرب . أما القلة فكان بعضها على اليهودية في اليمن وفي يثرب وما جاورها من أرض خيبر وتيماء ، وبعضها على النصرانية بنجران والحيرة وفي قبائل طيء والفساسنة بالشام .

أما الأسرة وهي نواة القبيلة فقد كان حالها أشبه بحال الأسرة المصرية الريفية اليوم : تتألف من الأبوين والأولاد والحفدة والرقيق . وكان سلطان الأب مطلقاً على أهله : يملك عليهم الموت والحياة والبيع والانتفاء ، وربما وأد ابنته خوف الفقر ، وانتفى من ابن أمته خوف العار . وكان للزوجة المكانة السامية الثانية في الأسرة ، يحلمها الزوج في نفسه ، ويشاركها في أمره ، ويتغنى باسمها في شعره ، ويفخر الابن بنسبته إلى أمه كما يفخر بنسبته إلى أبيه . وكان عقد الزواج هو الرباط الغالب بين الرجل والمرأة ، وللرجل وحده حق الطلاق ما لم يشترط عند العقد خلاف ذلك . ثم كان لهم أنواع أخرى من الزواج هي أشبه شيء بالساخفة لا يعقدها إلا أولو الدعارة من الشباب . ويقرب من هذه الأنواع رواج كانت تعقده السيوف والأسنة . وذلك أن أحدهما يلتقي رجلا معه ظعينة وليس من قبيلته ولا من أحلافها ، فينفاتلان ، فإذا قهره أخذها منه سبية واستحلها بذلك . وكانوا

(١) الصنم ما كان على صورة إنسان من حجر أو نعمة أو ذهب ، والوثن ما كان حجراً عفا من الصنمة .

يعددون بين الزوجات إلى حد غير معروف ، ويحلون التزوج من امرأة الأب ،
ويحرمون البناء بالبنت والأخت والعمة والخالة . أما علاقة أبناء الأسرة بأبناء
القبيلة فجماعها مدلول هذه الكلمة الجاهلية : (أنصر أخاك ظالماً أو مظلوماً)
على ما بين أبناء العم من تنافس وتباغض . ولكن الواحد للقبيلة والقبيلة للواحد .
وأما حالهم العقلية فقد كان التبابعة في اليمن والمناذرة والغساسنة في الشمال على
حظ من العلوم يدل عليه ما أقاموه من السدود ، وأحيوه من الأرض ، وعمره
من المدن . ولكن درجة رقيهم ، وحقيقة علومهم ، لا تزالان سرّاً مطويّاً في جوف
الأرض ربما كشف عنه التنقيب عن الآثار بعد قليل ^(١) .

أما العدنانيون فقد كسبتهم قوة الملاحظة ، وكثرة التجارب ، واضطرار
الحاجة ، طائفةً من العلم المبني على التجربة والاستقراء والوهم . فعرفوا الطب
والبيطرة والخيل لا تصالها بالحرب ؛ ولا حظوا الأنواء والنجوم والرياح لعلاقتها
بالسكلاء والغيث ، وليهتدوا بها في ظلمات البر والبحر ؛ وبرعوا في الأنساب والأخبار
والأشعار ، محافظة على عصبيتهم ، وتحديثاً بمفاخرهم ، وتحليداً لما آثرهم ؛ ومهروا
في الفراسة ^(٢) والقيافة ووصف الأرض ، لكشف الدّعي فيهم ، وطلب الهارب

(١) تدل الدلائل على أننا الآن في بدء عهد موفق لكشف آثار المتقدمين . فقد كان من
نتائج الحرب العالمية الأولى أن انبسط النفوذ الإنجليزي والفرنسي في بلاد العرب . وهب الأثريون
للؤرخون من رجالهم يفتقون عن آثار الشرق القديم في خرائب فلسطين وسورية ولبنان والعراق .
وقد بدت تباشر النجاح في كشف الأستاذ مونتيه الفرنسي لآثار جيبيل وهي أقدم
مدينة فينيقية .

(٢) الفراسة هي الاستدلال بالأمور الظاهرة على الأمور الخفية ، كالاستدلال بشكل المرء
ولونه وقوله على خلقه ، فيستدلون باتساع الجبين على الذكاء ، وبعرض القما على القباء ، وبضيق
العين على الشح ، وبغلظ الشفتين على الإسراف في الحب والبغض الخ .

والقيافة قسمان : قيافة الأثر ، وهي الاهتمام إلى الهارب بآثار قدمه . وقيافة البشر ،
وهي الاستدلال بهيئة الإنسان وشكل أعضائه على نسبه .

منهم . ثم قادم الجانب الروحي فيهم إلى الاعتقاد بالكهانة^(١) والعرافة والزجر ، ففرزوا إلى الكهان في أمراضهم ، واستفتوا العرافين في أغراضهم ، حتى ذهب الإسلام بكل ذلك .

وجملة القول أن المجتمع العربي خارج القبيلة كان مفككا من الجهات السياسية والاقتصادية واللغوية ، مرتبطاً من الجهات الخلقية والعقلية والأدبية . ولوساغ لنا أن نحكم على العرب بمقتضى لغتهم وأدبهم لوجدنا لهم نفوساً كبيرة وأذهاناً بصيرة وحنكة خبيرة ومعارف واسعة كوّنوا أكثرها من نتاج قرائحهم وثمار تجاربهم؛ فإن لغتهم وهى صورة اجتماعهم لم تدع معنى من المعانى التى تتصل بالروح والفكر والجسم والجماعة والأرض والسماء وما بينها إلا استوعبت أسماءه وربت أجزاءه^(٢) . ووضع اللفظ للشئ دليل على وجوده وعلمه . ولعمري ما يكون التمدن اللغوى إلا بعد تمدن اجتماعى راقٍ فى حقيقته وإن لم يرق فى شكله ، عام فى أثره وإن لم يعم فى أهله .

(١) الكهانة والعرافة مطالعة الغيب والإخبار بالحوادث الماضية والآتية وقد يخصصون السكاهن بعلم المستقبل . والعراف بعلم الماضى . وكانوا يزعمون أن لهم أنبأعاً من الجن يسترقون السمع ويأتونهم بالأخبار ، فاشتد إعتقاد العرب فيهم وكثر التجاؤم إليهم ، يستشيرونهم فى المصلات ، ويستقضونهم فى المحصومات ، ويستطبونهم فى العال ، ويستعرونهم فى الرؤى . ومن أشهرهم الكهنان شئ وسطيج ، والعرافق الأبلق الأسدى عراف نجد ورباح ابن عجلة عراف اليمامة .

والزجر هو الإستدلال بصوت الحيوان وحركته وحالته على الحوادث ، فكان الرجل يعمد إلى الطائر مثلا فيرميه بمحصاة أو يصيح به فإن ولاه فى طيرانه سامنه تفاعل به ، وإن ولاه مياسره تشاء منه ونظيره .

(٢) تجد الأمثلة على ذلك فى كتاب فقه اللغة للشمالى وكتاب الخصاص لابن سبده .

البَابُ الأوَّل

العصر الجاهلي

الفِصْل الأوَّل

نَسْأَةُ اللُّغَةِ العَرَبِيَّةِ

اللغة العربية إحدى اللغات السامية ، انشعبت هي وهن من أرومة واحدة نبنت في أرض واحدة . فلما خرج الساميون من مهدهم لتكثرت عددهم اختلفت لغتهم الأولى بالاشتقاق والاختلاط ، وزاد هذا الاختلاف انقطاع الصلة وتأثير البيئة وتراخي الزمن حتى أصبحت كل لهجة منها لغة مستقلة .

ويقال إن أحبار اليهود هم أول من فطن إلى ما بين اللغات السامية من علاقة وتشابه في أثناء القرون الوسيطة ، ولكن علماء المشرقيات من الأوربيين هم الذين أثبتوا هذه العلاقة بالنصوص حتى جعلوها حقيقة عامة لا إبهام فيها ولا شك .

والعلماء يردون اللغات السامية إلى الآرامية والكنعانية والعربية ، كما يردون اللغات الآرية إلى اللاتينية واليونانية والسنسكريتية . فالآرامية أصل الكلدانية والأشورية والسريانية ، والكنعانية مصدر العبرانية والفينيقية ، والعربية تشمل المصّرية الفصحى ولهجات مختلفة تكلمتها قبائل اليمن والحبشة . والراجح في الرأي أن العربية أقرب المصادر الثلاثة إلى اللغة الأم ، لأنها بانعزالها عن العالم سلمت مما أصاب غيرها من التطور والتغير تبعاً لأحوال العمران .

وليس في مقدور الباحث اليوم أن يكشف عن أطوار النشأة الأولى للغة العربية ، لأن التاريخ لم يسايرها إلا وهي في وفرة الشباب والنماء . والنصوص

الحجرية التي أخرجت من بطون الجزيرة لا تزال لندرتها قليلة الفناء ؛ وحدثت هذه الأطوار التي أتت على اللغة فوحدت لهجاتها وهذبت كلماتها معلوم بأدلة العقل والنقل ، فإن العرب كانوا أميين لا تربطهم تجارة ولا إمارة ولا دين ، فكان من الطبيعي أن ينشأ من ذلك ومن اختلاف الوضع والارتجال ، ومن كثرة الحل والترحال ، وتأثير الخلطة والاعتزال ، اضطراب في اللغة كالترادف ، واختلاف اللهجات في الإبدال والإعلال والبناء والإعراب ، وهنأت المنطق كمعجزة (١) قضاة ، وطمطانية حمير ، وفخفة هذيل ، وعننة تميم ، وكشكشة أسد ، وقطعة طيء ، وغير ذلك مما بعد بين الألسنة وأوشك أن يقسم اللغة إلى لغات لا يفهم أهلها ولا يتقارب أصلها .

ولغات العرب على تمددها واختلافها إنما ترجع إلى لغتين أصليتين : لغة الشمال ولغة الجنوب . وبين اللغتين بون بعيد في الإعراب والضمائر وأحوال الاشتقاق والتصريف ، حتى قال أبو عمرو بن العلاء : « ما لسان حمير بلساننا ولا لغتهم بلغتنا » . على أن اللغتين وإن اختلفتا لم تكن إحداها بمعزل عن الأخرى ، فإن القحطانيين جلوا عن ديارهم بعد سيل العرم — وقد حدث عام ٤٤٧م كما حققه غلازر الألماني — وتفرقوا في شمال الجزيرة واستطاعوا بهم من قوة ، وبما كانوا عليه من رقي ، أن يخضعوا العدنانيين لسلطانهم في العراق والشام ، كما أخضعوهم من قبل لسلطانهم في اليمن . فكان إذن بين الشعبين اتصال سياسي وتجاري يقرب بين اللغتين في الألفاظ ، ويحانس بين اللهجتين في المنطق ، دون أن تتغلب إحداها على الأخرى ، لقوة القحطانيين من جهة ، ولاعتصام العدنانيين

(١) المعجزة قلب الياء جها بعد العين وبعد الياء المشددة فيقولون في اراعى : راعج وفي كرسى : كرسج . والطمطانية جعل أم بدل أل في التعريف فيقولون في البر . أمير ، وفي الصيام : أمصيام . والقحفنة جعل الحاء هينا فيقولون : أهل الله العلال ، بدل : أهل الله الحلال . والنعنة لإبدال العين من الهززة إذا وقعت في أول الكلمة . فيقولون في أمان . همان . والكشكشة جعل الكاف شيئا في خطاب المؤنث فيقولون في عليك : عليش . والقطة حذف آخر الكلمة فيقولون يا أبا الحسا في الحسن .

بالصحراء من جهة أخرى . وتطاول الأمد على هذه الحال حتى القرن السادس للميلاد ، فأخذت دولة الحمير بين تدول وسلطانهم يزول بتغلب الأحباش على اليمن طوراً وتسلبت الفرس عليه طوراً آخر . وكان العدنانيون حينئذ على تقيض هؤلاء تنهياً لهم أسباب النهضة والألفة والوحدة والاستقلال ، بفضل الأسواق والحج ، ومنافستهم للحميريين والفرس ، واختلاطهم بالروم والحبشة من طريق الحرب والتجارة ، ففرضوا لغتهم وأدبهم على حمير الذليلة المغلوبة ، ثم جاء الإسلام فساعد العوامل المتقدمة على محور اللهجات الجنوبية وذهاب القومية اليمنية ، فاندثرت لغة حمير وأدبهم وأخبارهم حتى اليوم .

لم تتغلب لغات الشمال على لغات الجنوب فحسب ، وإنما استطاعت كذلك أن تبرأ مما جنته عليها الأمية والهمجية والبداوة من اضطراب المنطق واختلاف الدلالة وتعدد الوضع ، فتغلبت منها لغة قريش على سائر اللغات لأسباب دينية واقتصادية واجتماعية أهمها :

(١) الأوساوي : وكان العرب يقيمونها في أشهر السنة للبياعات والتسوق وينتقلون من بعضها إلى بعض ، فتدعوهم طبيعة الاجتماع إلى المقارضة بالقول ، والمفاوضة في الرأي ، والمباذلة بالشعر ، والمباهاة بالفصاحة ، والمفاخرة بالحامد وشرف الأصل فكان من ذلك للعرب معونة على توحيد اللسان والعادة والدين والخلق ، إذ كان الشاعر أو الخطيب إنما يتوخى الألفاظ العامة والأساليب الشائعة قصداً إلى إفهام سامعيه ، وطمعاً في تكثير مشايحيه . والرواة من ورثه يطرون شعره في القبائل وينشرونه في الأنحاء فتنشر معه لهجته وطر يقته وفكرته .

وأشهر هذه الأسواق عكاظ^(١) ومجنة وذو الحجاز . وأولاهن أشهر فضلاً

(١) عكاظ قرية بين نخلة والطائف . بينها وبين مكة ثلاث مراحل اتخذت سوقاً سنة ٥٤٠ هـ للميلاد ، ثم بقيت في الإسلام إلى أن نهى الخوارج سنة ١٤٩ هـ . ومجنة موضع أسفل مكة على أميال منها . وذو الحجاز بمعنى خلف هرات . وقد سبق الإغريق العرب إلى أمثال

وأقوى أثراً في تهذيب العربية . كانت تقوم هلال ذى القعدة وتستمر إلى العشرين منه ، فتند إليها زعماء العرب وأمرء القوم للمتاجرة والمنافرة ومفاداة الأسرى وأداء الحج . وكان كل شريف إنما يحضر سوق ناحيته لإعكاظ فإنهم كانوا يتوافدون إليها من كل فج ، لأنها متوجهٌهم إلى الحج ، ولأنها تقام في الأشهر الحرم ، وذلك ولا ريب سر قوتها وسبب شهرتها . وكان مرجعهم في الفصل بينهم إلى محكمين اتفقوا عليهم وخضعوا لهم فكانوا يحكمون لمن وضح بيانه وفصح لسانه .

(٢) أثر مكة وعمل قريش :

كان لموقع مكة أثر بالغ في وحدة اللغة ونهضة العرب ، لأنها كانت في النصف الثاني من القرن السادس محطاً للقوافل الآتية من الجنوب تحمل السلع التواجر من الهند واليمن فيبتاعها المكيون ويصرفونها في أسواق الشام ومصر . وكانت جواد مكة التجارية آمنة لحرمة البت ومكانة قريش ، فكان تجارهم يخرجون بقوافلهم الموقرة وعيرهم الدائر آمنين ، فينزلون الأسواق ويهبطون الآفاق فيستفيدون بسطة في العلم ، وقوة في النهم ، وثروة في المال ، وخبرة بأمر الحياة . وهي مع ذلك متجرة للعرب ومثابة للناس يأتون إليها من كل فج عميق رجالا وعلى كل ضامر ليقضوا مناسكهم ويشترؤا مرافقهم مما تنتجها أو تجلبه . ذلك إلى أن قريشاً أهاموا وأمرأها كانوا لمكانتهم من الحضارة وزعامتهم في الحج ، ورياستهم في عكاظ ، وإيلافهم رحلة الشتاء إلى اليمن ورحلة الصيف إلى حوران

== هذه المجامع باحثنا في الجمناسيوم الألبان البدنية الأولمبية التي كانوا يقيمونها كل أربع سنين كلا حجوا هيكل المشتري Jupiter في أولمبية . وكانوا يجرمون القتال على أنفسهم في أثناءها على نحو ما يفعل العرب في الأشهر الحرم . فلما استوثق لهم الأمر وتأييد الملك كانت عاقبة أمرها أن أصبحت أندية لإنشاد أشعارهم وعرض أفكارهم . ومن أثر ذلك إطلاق لفظ الجمناسيوم على دور التعليم في أوروبا وعلى الأخص في ألمانيا .

أشد الناس بالقبائل ارتباطاً ، وأكثرهم بالشعوب اختلاطاً . كانوا يختلطون بالحبشة في الجنوب ، وبالفرس في الشرق ، وبالروم في الشمال . ثم كانوا على أتمارة من العلم بالكتب المنزلة : باليهودية في يثرب وماجاورها من أرض خيبر وتيما ، وبالنصرانية في الشام ونجران والحيرة ؛ فتهيأت لهم بذلك الوسائل لتقافة اللسان والفكر . ثم سمعوا المناطق المختلفة ، وتدبروا المعاني الجديدة ، ونقلوا الألفاظ المستحدثة ، واختاروا لغتهم من أفصح اللغات ، فكانت أعذبها لفظاً ، وأبلغها أسلوباً ، وأوسعها مادة ^(١) ، ثم أخذ الشعراء يؤثرونها وينشرونها حتى نزل بها القرآن الكريم فأتتم لها الذيوع والغلبة .

(١) ذكر صاحب القصد الفريد أن معاوية قال يوم الجملائه أي الناس أفصح ؟ فقال رجل من السباط يا أمير المؤمنين ، قوم قد ارتفعوا من رثه العراق ، وتياسروا عن كشكشة بكر ، وتيامنوا عن غشغشة تغلب ؛ ليس فيهم غمضة قضاة ولا طمطانية حير . قال من هم ؟ قال : قومك يا أمير المؤمنين قريش .

الفصل الثاني

النثر

النثر أسبق أنواع الكلام في الوجود لقرب تناوله ، وعدم تقيده ، وضرورة استعماله . وهو نوعان : مسجّع إن التزم في كل فقرتين أو أكثر قافية ، ومرسل إن كان غير ذلك . وقد كان العرب ينطقون به معرباً غير ملحون لقوة السليقة ، وفعل الوراثة ، وقلة الاختلاط بالأعاجم . اللهم إلا هيئات المنطق فقد اختلفت لأسباب طبيعية في الترفيق والتفخيم والإبدال والإمالة . ولم يُعن الرواة من منشورهم على كثرته إلا بما علق بالذهن لفناسته وبلاغته وإيجازه ، كالأمثال والحكم والوصايا والخطب والوصف والأقاصيص .

فالمثل جملة مقتطعة من القول أو رسالة بذاتها تنقل عن وردت فيه إلى مشابهه بدون تغيير . وهذا النوع خاص بالعرب لانتزاعه من حياتهم الاجتماعية وحوادثهم الفردية ، كقولهم : وافق شَنْ طَبَقَةً . ولأمر ما جدد قَصِيرُ أنفه . ويداك أو كتنا وفوك نفخ . وقد تعاقب العلماء على جمعها وشرحها . وأشهر هؤلاء الميداني المتوفى سنة ٥١٨ هـ ، فقد جمع كتابه : [مجمع الأمثال] من نحو خمسين كتاباً ، وكاد يستوعب فيه المأثور من القديم والمشهور من الحديث ورتبه على حروف المعجم .

والحكمة قول رائع موافق للتحق سالم من الحشو . وهي ثمرة الحكمة ونتيجة الخبرة وخلاصة التجربة ، كقولهم : الخطأ زاد العجول . من سلك الجدد أمِن العثار . عيَّ صامت خير من عي ناطق .

والخطبة والوطنية كلتاها يزداد بها الترغيب فيما ينفع و عما يضر ، إلا أن الأولى

تكون على ملأ من الناس في المجمع والمواسم . والأخرى تكون لقوم معينين في زمن معين ، كوصية الرجل لأهله عند النقلة أو الموت .

مميزات النثر الجاهلي

يمتاز النثر في الجاهلية بجريانه مع الطبع ، فليس فيه تكلف ولا زُخْرُف ولا غلوٌ . يسير مع أخلاق البدوى وبيئته ، فهو قوى اللفظ ، متين التركيب ، قصير الجملة ، موجز الأسلوب ، قريب الإشارة ، قليل الاستعارة ، سطحيُّ الفِكرة . وربما تساوقت فيه الحُكم وأطردت الأمثال من غير مناسبة قوية ولاصلة متينة .

الخطابة

الخطابة كالشعر حُمْتُها الخيال وسُدَّها البلاغة . وهي مظهر من مظاهر الحرية والفروسية ، وسبيل من سبُل التأثير والإقناع . تحتاج إلى ذلاقة اللسان ، ونصاعة البيان ، وأناةِ اللهجة ، وطلاقة البديهة . والعرب ذوو نفوس حساسة وإباء ، وأولو غيرة ونجدة . فكان لهم فيها القدم السابقة والقِدْحُ المُعلَى . وقد دعاهم إليها ما دعا الأمم البدوية من الفخر بحسبها ونَجَارِها ، والذود عن شرفها وذمارها ، وإصلاح ذات البين بين الحيين ، والسفارة بين رؤوس القبائل وأقيالهم ، أو بين الملوك وعمالهم . وكانوا يدرّبون فتيانهم عليها منذ الحداثة ، ويحرصون على أن يكون لكل قبيلة خطيب يشدُّ أزرها ، وشاعر يرفع ذكرها . وربما اجتمع الصفتان في واحد .

أما أسلوبها فكان رائع اللفظ ، خلاب العبارة ، واضح المنهج ، قصير السجع ، كثير الأمثال . وهم إلى قصارها أميل لنسكهم . أعلق بالصدور وأذيع . ومن عاداتهم فيها الوقوف على نشر من الأرض أو القيام على ظهر دابة ،

ورفع اليد ووضعها ، والاستعانة على العبارة بالإشارة ، واتخاذ المحاصر بأيديهم ،
والاعتماد على الصفاح والرماح أو الإشارة بها .

وكانوا يحبون من الخطيب أن يكون حسن الشارة ، جهير الصوت ، سليم
المنطق ، ثبت الجنان . وأشهر خطبائهم في هذا العصر قس بن ساعدة الأيادي ،
وعمر بن كلثوم التغلبي ، وأكثم بن صيفي التيمي ، والحارث بن عباد البكري ،
وقيس بن زهير العبسي ، وعمر بن معد يكرب الزبيدي ، وحسبنا أن نترجم
لخطيبين من أعلامهم وقوفاً بالطلب عند الغرض من هذا المختصر .

الخطباء

قس بن ساعدة الأيادي

المتوفى سنة ٦٠٠ م

مبانيه : هو أسقف نجران وخطيب العرب وحكيمها وحكمها . كان يؤمن
بالله ويدعو إليه بالحكمة والموعظة الحسنة . ويقال إنه أول من خطب على شرف ،
واتسكا على سيف ، وقال في خطبه أما بعد . سمعه النبي صلى الله عليه وسلم في عكاظ
فأثنى عليه . ويروى أنه قال فيه : « رحم الله قساً ! إني لأرجو يوم القيامة أن
يبعث أمة وحده » . وكان يفتد على قيصر من حين إلى حين فيكرمه . ولكنه
صدف عن الدنيا وعاش على الكفاف يعبد الله ويعظ الناس حتى توفي سنة ٦٠٠ م ،
وقد عمر طويلاً .

أسلوبه : إن صح ما أثر عنه من النثر فقد كان أسلوبه مطبوعاً مسجوعاً ،
شديد الروعة ، متخير اللفظ ، قصير الفواصل . يعتمد فيه إلى ضرب الأمثال
واستنتاج العبر من مصارع الطفاة وظواهر الكون . وله شعر يجمع إلى الجزالة
رقة التعبير وقوة التأثير كما يتجلى ذلك فيما سنورده من كلامه .

قال من خطبته في سوق عكاظ :

أيها الناس ! اسمعوا وعوا ، إنه من عاش مات ، ومن مات فات ، وكل ما هو
آت آت . ليل داج ، ونهار ساج ، وسماء ذات أبراج ، ونجوم تزهـر ، وبحار تزخر ،
وجبال مرسة ، وأرض مُدحاة ، وأنهار مجرأة . إن في السماء لخبـراء ، وإن في الأرض
لهـبرا . ما بال الناس يذهبون ولا يرجعون ؟ أرضوا فأقاموا ؟ أم تركوا فناموا ؟
يامعشر إباد ، أين الآباء والأجداد ، وأين الفراغنة الشداد ؟ ألم يكونوا أكثر
منكم مالا وأطول آجالاً ؟ طعنهم الدهر بكلـكله ، ومزقهم بتطاوله .

في الذاهبين الأولي ن من القرون لنا بصائر
لما رأيت موارد الموت ليس لها مصادر
ورأيت قومي نحوها يسعى الأصاغر والأكابر
لا يرجع الماضي إلى ولا من الباقيـن غابر
أيقنت أني لا محـا لة حيث صار القوم صائر

ومن حكمهم : من غيرك شيئاً ففيه مثله . ومن ظلمك وجد من يظلمه . وإذا
نهيت عن الشيء فابدأ بنفسك . وكن عفاً العيلةً مشترك الغنى . ولا تشاور
مشغولاً وإن كان حازماً ، ولا جائعاً وإن كان فهماً ، ولا مذعوراً وإن كان ناصحاً .
ومن شعره قوله يرثي أخوين له وقد وقف على قبريهما بدير سمان :

خائلي هباً طالما قد رقدتما أجدد كما لا تقضيان كرا كما
ألم تعلماني أني سمان مفرد ومالي فيه من حبيب سوا كما ؟
أقيم على قبريكما است بارحاً طوال الليالي أو يحجب صدا كما
حرى الموت مجرى اللحم والعظم منكما كأن الذي يسقي العقار سقا كما !

فلو جُمِلت نفسٌ لنفسٍ وقايةً لجدتُ بنفسى أن تكون فدا كما
سأ بكي كما طول الليالي وما الذى يرد على ذى عولة إن بكا كما ا

عمرو بن معد يكرب الزبيدى

المتوفى سنة ٦٤٣ م

حياته : عمرو بن معد يكرب الزبيدى فارس المين وخطيب العرب وبطل القادسية ، ينتهى نسبه إلى قحطان ويكنى أبانور . لقي النبي صلى الله عليه وسلم لدى منصرفه من تبوك سنة تسع من الهجرة فأسلم هو وقومه ، ولكن قلبا شاب فى الجاهلية الجهلاء ، ورتع فى الدماء والأشلاء ، واستهتر فى اللهو والصهباء ، لا يقبل على الدين بإخلاص وصدق ، فارتد بعد إسلامه . ثم رجع إلى الحق وجاهد فى سبيل الله حق جهاده . ثم شهد القادسية وعمره على ما قيل عشر سنين ومائة ، فأبلى فيها بلاءً حسنًا . ثم توفى فى أواخر خلافة عمر بن الخطاب سنة ٦٤٣ م . صفته ومزله : كان قويًا بدينًا أ كولا ، وكان سيدًا مطاعًا وبطلا شجاعًا وخطيبًا شاعرًا ؛ يعد فى الطبقة الثانية من الشعراء ، وفى الأولى من الخطباء ، ويغلب فى شعره التحدث عن نفسه بالشجاعة . يقال إن النعمان بن المنذر أرسله فيمن أرسل من سرة العرب إلى أنوشروان بالمداين ليكون كلامهم بين يديه مصداقًا لدعواه فى العرب وافتخاره بهم وتفضيله اياهم فألقى هذه الخطبة :

إنما المرء بأصغريه : قلبه ولسانه ، فبلاغ المنطق السداد ، وملاك النجعة الارتياح ، وغفو الرأى خير من استكراه الفكرة ، وتوقيف الخبرة خير من إعتساف الخبرة . فاجتهد طاعتنا نافظك ؛ واكتظم بادرتنا بحامك ، وألن لنا كنفك يكن لك قيادنا . فإننا أناس لم يوقص صفاتنا قراغ مناقير من أراد لنا قضا ، ولكن منعنا جمانا من كل من رام لنا هغما .

ومن شعره قوله في أبي المرادي وقد توعدده :

أعاذلَ شِكْتِي بدني ورحي وكلُّ مُقَلَّصٍ سلس القياد
أعاذلَ إنما أفنى شبابي وقرح عاتق ثقل النجاد
تمناني ليلقاني أبيُّ ودِدْتُ وأبنا مني ودادي
ولو لاقينني ومعى سلاحي تسكشف شحم قلبك عن سواد
أريد حياته ويريد قتلى ! عَذِيرَكَ من خليلك من مُراد !
وقوله :

ليس الجمال بمئزر فاعلم وإن ردّيت بُردا
إن الجمال معادن ومناقب أورثن مجدا
أعددت للحدثان سا بفة وَعَدَاءَ عَلَنَدِي !
نهذاً وذا شطَبٍ يقدِّ البيض والأبدان قدا
كم من أخ لي صالح بوّأته بيديَّ لحدا
ما إن جزعت ولاهله ت ولا يرد بكاي رشدا
ذهبَ الذين أحبهم وبقيت مثل السيف فردا

نماذج من النثر الجاهلي

سورة الزمّال

قالت العرب في أمثالها :

(إذا سلمتِ الجلة فالنّيبُ هدْرٌ) أي إذا سلم ما ينتفع به ان لا ينتفع به .
(إن كنت ريحاً فقد لاقيت إعصاراً) يضرب للمدل بنفسه إذا مئى بمن هو أدهى منه .

(إنك لا تجنى من الشوك العنب) أى لا تجد عند ذى المنبت السوء جيلا .
(ذكرنى فوك حمارى أهلى) أصله أن رجلا خرج يطلب حمارين ضالاً له ،
فرأى امرأة فأعجبته ، فنسى الحمارين . فلما أسفرت
عن وجهها رأى فيها قبيحاً فقال هذا المثل .

(تجسأ لقمان من غير شبع) يضرب لمن يدعى ما ليس يملك .
(رمتنى بدائهما وانسلت) يضرب لمن يُعير الآخر بما يُعير هو به
(رب كلمة تقول لصاحبها دعنى) يضرب فى النهى عن الإكثار مخافة الإهجار
(أستر حسواً فى ارتقاء) يضرب لمن يريك أنه يعينك وهو يجر النفع
إلى نفسه . وأصله أن الرجل يؤتى باللبن فيظهر
أنه يريد الرغوة خاصة فيشربها وهو فى ذلك
ينال من اللبن .

(أوسعتهم سباً وأودوا بالإبل) .. أصله أن رجلاً أُغِيرَ على إبله فأخذت ، فلما
توارى المغيرون بها صدأ كلمةً وجعل يسبهم ، ثم
رجع إلى قومه فسألوه عن إبله ، فقال هذا المثل .
(أحسناً وسوء كيلة ؟ ..) يضرب لمن يجمع بين خصلتين مكر وهتين .
(قد يحمل العير من دعر على الأسد) يضرب لمن يأخذه الدهش والرؤع فحمله على
ما ليس من طبعه .

(قبل الرمى يُراش السهم ..) يضرب للاستعداد للأمر قبل نزوله .

من الحكم

ومن حكم العرب قولهم : مصارع الرجال تحت بروق الطمع . كلّم اللسان
أنكى من كلّم السنان . رب عجلة تهب ريثاً . العتاب قبل العقاب . التوبة

تفسل الحوبة . من سلك الجدد أمن العثار . أول الخزم المشورة . رب قول أنفذ
من صول. أنجز حرما وعد . أترك الشر يتركك . من ضاق صدره اتسع لسانه .
يدك منك وإن كانت شلاء . رب ملوم لا ذنب له . من مأمته يؤتى الخذر .

الخطب

قال هانيء بن قبيصة الشيباني لقومه يحرضهم ، وهو يدلك على مذهب
الجاهليين في النثر من تفكك المعاني وضعف ارتباط الجمل :

يامعشر بكر ! هالك معذور ، خير من ناج فرور . إن الخذر لا ينجي من
القدر ، وإن الصبر من أسباب الظفر . المنية ولا الدنيا . استقبال الموت خير من
استدباره . الطعن في ثغر النحور ، أكرم منه في الأعجاز والظهور . يا آل بكر ،
قاتلوا فما من المنايا بد ! .

وخطب عبدالمطلب عند سيف بن ذي يزن بعد انتصاره على الحبشة قال :
وإن الله تعالى أيها الملك أحلك محلا رفيعا ، بأذخا شامخا ، وأنبتك منبتا طابت
أرومته ، وعزت جرثومته ، ونبل أصله ، وبسق فرعه ، في أكرم معدن وأطيب
موطن . فأنت أبيت اللعن رأس العرب وربيعها الذي به تحصب ، وملكها الذي
به تنقاد ، وعمودها الذي عليه العماد ، ومقلها الذي إليه تلجأ العباد . سلفك خير
سلف ، وأنت لنا بعده خير خلف ، ولن يهلك من أنت خلفه ، ولن يخمل من
أنت سلفه . نحن أيها الملك أهل حرم الله وذمته وسدنة بيته ، أشخصنا إليك الذي
أبهجنا بكشف الكرب الذي فدحنا ، فنحن وفد التهنة ، لا وفد المرزنة .

صه الوصايا

أوصى زهير بن جناب الكلابي بنيه قال :

يابني قد كبرت سني ، وبلغت حرصا من دهري ، فأحكمتني التجارب ،

والأمور تجربة واختتار . فاحفظوا عني ما أقول وعوه . إياكم والخور عند المصائب ،
والتواكل عند النوائب ، فإن ذلك داعية للنغم ، وشماتة للعدو ، وسوء ظن بالرب
وإياكم أن تكونوا بالأحداث مغترين ، ولها آمنين ، ومنها ساخرين ، فإنه
ما سخر قوم قط إلا ابتلوا ، ولكن توقعوها ، فإن الإنسان في الدنيا غرض
تأوره الرماة . فمصر دونه ، ومجاوز لموضعه ، وواقع عن يمينه وشماله ، نعم لا بد
أن يصيبه .

وأوصت أعرابية ابنتها ليلة زفافها قالت :

أى بنية ! إن الوصية لو تركت لفضل أدب تركت لذلك منك . ولكنها
تذكرة للغافل ، ومعونة للعاقل . ولو أن امرأة استغنت عن الزوج لعنى أبويها ،
! وشدة حاجتهما إليها ، لكنت أغنى الناس .

أى بنية إنك فارقت الجو الذي منه خرجت ، وخلفت العش الذي فيه
درجت ، إلى وكر لم تعرفه ، وقرين لم تألفه . فاحلى عني عشر خصال تكن لك
ذخراً : اصحبيه بالقناعة ، وعاشريه بحسن السمع والطاعة ، وتعهدى موقع عينيه
فلا تقع عينه منك على قبيح ، ثم اعرفى وقت طعامه ، واهدئى عند منامه . فإن
حرارة الجوع ملهية ، وتفغيص النوم مبغضة . ثم اتقى مع ذلك الفرح أمامه
إن كان ترحاً ، والاكتئاب عنده إن كان فرحاً ، فإن الخصلة الأولى من التقصير ،
والثانية من التكدير . وكونى أشد الناس له إعظاماً ، يكن أشدهم لك إكراماً .
واعلمى أنك لا تصلين إلى ما تحبين حتى تؤثرى رضاه على رضاك ، وهواه على
هواك ، فيما أحببت أو كرهت . والله يخير لك .

وأوصت أعرابية ولدها قالت :

أى بنى ! إياك والنيمة ، فإنها تزرع الضغينة ، وتفرق بين الحبين . وإياك
والتعرض للعيوب فتتخذ غرضاً . وخليق ألا يثبت الغرض على كثرة السهام ،

وقلما اعتورت السهام غرضاً إلا كآمته حتى يهي^(١) ما اشتد من قوته . وإياك
والجود بدينك والبخل بمالك . وإذا هزرت فاهرز كريماً يأن لهزتك ، ولا تهزز
لثيماً فإن الصخرة لا ينفجر ماؤها . ومثل لنفسك مثال ما استحسنت من غيرك
فاعمل به ، وما استقبحت من غيرك فاجتنبه ، فإن المرء لا يرى عيب نفسه .
ومن كانت مودته بشره وخالف ذلك منه فعله ، كان صديقه منه على مثل
الريح في تصرفها . والفدر أقيح ما تعامل به الناس بينهم . ومن جمع الحلم
والسخاء فقد أجاد الحيلة ريطها وسربالها^(٢) .

(١) يهي : يضعف .

(٢) كل ثوب رقيق يشبه الملحفة . والسربال القميص .

الفصل الثالث الشعر

تعريفه وأوليه

الشعر هو الكلام الموزون المقفى المعبر عن الأخيلىة البديعة والصّور المؤثرة البليغة . وقد يكون نثراً^(١) كما يكون نظماً . والشعر أقدم الآثار الأدبية عهداً لعلاقته بالشعور وصلته بالطبع ، وعدم احتياجه إلى رقى في العقل ، أو تعمق في العلم ، أو تقدم في المدنية . واسكن أوليئته عند العرب مجهولة ، فلم يقع في سماع التاريخ إلا وهو محكم مُقَصَّد وليس مما يسوغ في العقل أن الشعر بدأ ظهوره على هذه الصورة الناصعة الرائعة في شعر المهلهل بن ربيعة وامرئ القيس ، وإنما اختلفت عليه العُصُر وتقلبت به الحوادث وعملت فيه الألسنة حتى تهذب أسلوبه وتشمبت مناحيه^(٢) . والمظنون أن العرب حَطَّوْا من المرسل إلى السجع^(٣) ومن السجع إلى الرجز ، ثم تدرجوا من الرجز إلى القصيد . فالسجع هو الطور الأول

(١) العرب يعرفونه بهذا المعنى كما عرفه العبران واليونان والفرنج فقالوا : « الشعر شئٌ تيمش به صدورنا فننقذه على ألسنتنا . وقال حسان لابنه : « شعر ورب السكمة » حين سمعه يصف زنبوراً اسمه بقوله : كأنه ملتف في بردى حبرة » فهم يطلقون الشعر على التمر المسجوع المشتمل على الميال المؤثر في الوجدان . وعلى هذا النحو سموا القرآن شعراً والرسول شاهراً .

(٢) بما يدل على أن الشعر قديم العهد قول امرئ القيس :

عوجا على الطلل القديم لعانا فيكى الديار كما بكى ابن حزام
وقول عنزة : هل غادر الشعراء من متردم وقول زهير :
ما أرانا نقول إلا معاراً أو معاداً من قولنا مكرورا

(٣) قال الباقلائي في كتابه إعجاز القرآن : إن العرب بدأوا بالثر وتوصلوا منه إلى الشعر وكان متورم عليه في الأصل بالاتفاق غير مقصود إليه فلما استحسنوه واستطابوه ورأوا الأسماع تألفه والنفوس تقبله تنميوه وتعلموه وتكلفوا له .

من أطوار الشعر توخاه الكهان مناجاة للآلهة ، وتقييداً للحكمة ، وتعمية للجواب ،
وفتنة للسامع . وكهان العرب ككهان الإغريق هم الشعراء الأولون ، زعموا
أنهم مهبط الالهام ، وأنبياء الآلهة ، فكانوا يسترحمونها بالأناشيد ، ويستلهمونها
بالأدعية ، ويخبرون الناس بأسرار الغيب في حمل مقفأة موقعة أطلقوا عليها اسم
السجع تشبيها لها بسجع الحمامة لما فيها من تلك النغمة الواحدة البسيطة .

فلما ارتقى فيهم ذوق الفناء ، وانتقل الشعر من المعابد إلى الصحراء ، ومن
الدعاء إلى الهداء ، اجتمع الوزن والقافية فكان الرجز^(١) .

ثم تعددت الأوزان بتعدد الألحان ، فكان للحماسة وزن ، وللغزل وزن ،
وللهزج وزن ، وهكذا إلى سائر الأوزان التي حصرها الخليل بن أحمد في خمسة
عشر وزناً^(٢) سماها بحوراً .

فأنت ترى أن الشعر مصدره الغناء ، وفي أخذهم السجع من هديل الحمامة ،
والرجز من إيقاع مشى الناقة ، ولفظ الشعر من (شير) العبرية بمعنى الترتيلة
أو التسبيحة ، وقولهم إلى الآن : أنشد الشعر بمعنى ألقاه ، ما يؤيد ذلك .

الشعر والعرب

العرب أشعر الساميين فطرة ، وأبلغهم على الشعر قدرة ، لاتساع لغتهم للقول ،
وملاءمة بيئتهم للخيال ، وصفاء قريحتهم ، وسذاجة معيشتهم ، وقوة عصبيتهم ،

(١) الرجز أول ما نظمه العرب للهداء : والغالب في الظن أنه مأخوذ من سير الجمل
وهزته ، لشدة الموافقة بين تقطيعه وخطوفه . ويزعم العرب أن أول من قاله مضر بن زارحين
سقط عن جمل فأنكسرت يده فخلوه وهو يقول : وايداه ! وايداه ! وكان من أحسن خلق
الله صوتاً ، فأصفت الإبل لآليه وجدت في السير . فقطعوا على هذا الوزن لحن الهداء وسمره
الرجز . ومن أمثله قول الراجز :

دع المطايا تنسم الجنوباً إن لها لنسباً عجيباً حنينها وما اشتكت لغوباً
يشهد أن قد فارقت حبيباً ما حامت إلا فتى كئيباً بسر مما أعلنت نصيباً
لو ترك الشوق لنا قلوباً إذن لآثارنا بهن النيبا إن الغريب يسعد الغريباً
(٢) زاد الأخفش عليه بحراً بعد ذلك سماه المتدارك .

وكال حريتهم ، وخلو جزيرتهم مما يصد الفكر عن التأمل ، ويعوق الذهن عن التفكير ، فهم بين الصحراء والسماء في فضاء من اللانهاية يملأ الذهن والنفس خيالاً وجلالاً وروعة . وهم فوق ذلك ذوو نفوس شاعرة ، وطباع ثائرة ، يستفزهم الرغبُ والرهبُ ، ويزدهيمهم الطرب والغضب ، فلم يتركوا شيئاً يجول في النفس أو يقع تحت الحس الا نظموه ، فكان الشعر ديوان علومهم وحكمهم ، وسجل وقائعهم وسيرهم ، وشاهد صوابهم وخطأهم ، ومادة حوارهم وسمرهم . وكانوا كلهم يروونه ، وجلهم يقرضونه عفو البديهة وفيض الخاطر^(١) حتى روى عنهم من الشعر الوجداني ما لم يرو عن أمة من أمم الأرض مثله . فلا بدع إذا كان الشاعر يعوهم ويرشدهم ، والبيت الواحد يقيمهم ويقدهم . والأمثال في التاريخ مستفيضة على تأثير الشعر في نفوسهم ومنزلة الشاعر من قلوبهم ، كحديث الأعشى مع الحلق وحسان مع بني عبد المدان ، والحطيئة مع بني أنف الناقة

أنواع الشعر وأغراضه

أنواع الشعر ثلاثة : شعر غنائي أو وجداني Lyrique وهو أن يستمد الشاعر من طبعه وينقل عن قلبه ويعبر عن شعوره . وشعر قصصي Eptque وهو نظم الوقائع الحربية والمفاخر القومية في شكل قصة ، كالإلياذة والشاهنامة . وشعر تمثيلي Dramatique وهو أن يعمد الشاعر إلى واقعة فيتصور الأشخاص الذين جرت على أيديهم وينطق كلا منهم بما يناسبه من الأقوال . وينسب إليهم

(١) هل أن من الشعراء من كانوا يروون وينقون فسموهم عبيد الشعر لذلك . كرهب وعدي بن الرفاع والحطيئة . قال هدي بن الرفاع :

وقصيدة قد بت أجمع بينها حتى أقوم ميلها وسنادها
نظر الثقف و حكعوب قناته حتى يقيم تقانه منأدها
وقال سويد بن كرام :
أبيت بأبواب القواني كأنها أصنادى بها سربا من الوحش نزعا

ما يلائمه من الأفعال . والفنائى أسبق هذه الأنواع إلى الظهور ؛ لأن الشعر أصله الغناء كما علمت . والإنسان إنما يشعر بنفسه قبل أن يشعر بغيره ، ويتغنى بعواطفه قبل أن يتغنى بعواطف سواه^(١) .

ولما كان الشعر مادته الخيال ، والخيال غذاؤه الحس ؛ والعربي لا يرى من المناظر غير وجوه البادية ، ولا يسمع من الأقاويص إلا البطولة والحرب ، ولا يعرف من الجمال إلا جمال المرأة ، أبدع في وصف ماشاهده من حيوان وسهل وجبل ، وأجاد التعبير عن عاطفة الحماسة يوم الخصومة والجدل ، وتفنن ماشاءه الحب في التشبيب والغزل . فالشعر العربي غنائى محض ، لا يعنى الشاعر فيه إلا بتصوير نفسه ، والتعبير عن شعوره وحسه . والعواطف تتشابه في أكثر القلوب ويكاد التعبير عنها يتفق في أكثر الألسنة . ومن ثم نشأ فيه التكرار ، وتوارد الخواطر ، والسرققة ، ووحددة الأسلوب ، وتشابه الأثر . وكان من الحق أن يقول زهير :

ما أرانا نقول إلا معارا أو معاداً من لفظنا مكروراً
أما الشعر القصصى والتمثلى فلا أثر لها فيه ، لأن مزاولتهما تقتضى الروية والفكرة ، والعرب أهل بديهة وارتجال ؛ وتطلب الإلمام بطباع الناس ، وقد شغلوا بأنفسهم عن النظر فيمن عداهم ؛ وتفننوا إلى التحليل والتطوير ، وهم أشد الناس اختصاراً للقول وأقلهم تعمقاً في البحث . وقد قل تعرضهم للأسفار البعيدة والأخطار الشديدة ، وحرمتهم طبيعة أرضهم ، وبساطة دينهم ، وضيق خيالهم ، واعتقادهم بوحداية إلههم ، كثرة الأساطير وهي من أغزر ينابيع الشعر القصصى ، فزخرت بحور الشعر العربي بالفخر والحماسة والمدح والهجاء والرائاء والعتاب والغزل

(١) حاه في كتاب تاريخ آداب اللغة العربية لزبدان ، وكتاب (في الأدب الجاهل) والمجمل في تاريخ الأدب العربي : أن الشعر القصصى أسبق من الفنائى ، وهو زعم لا مصدر له ولا دليل عليه . فإن العلماء يكادون يجعلون الفنائى أصلاً والقصصى والتمثلى شكلين من أشكاله .

والوصف والاعتذار والحكمة ، وخلا مع اتساعه وتشعب أغراضه من الملاحم المطولة^(١) التي تعلن للمفاخر القومية وتشيد بذكر الأبطال والفروسية كالإلياذة^(٢) لليونان ، والإنياد للرومان ، ومها بهازاته للهنود ، والشاهنامه للفرس .

مميزات الشعر الجاهلي

وعوثة الصحراء وخشونة العيش ، وحرية الفكر ، وطبيعة الجو ، وسذاجة البدو ، كل أولئك طبع الشعر الجاهلي بطابع خاص ومازه بسمه ظاهرة . فمن خصائصه الصدق في تصوير العاطفة ، وتمثيل الطبيعة ، فلا تجدد فيه كلفا بالزخرف ولا تكلفاً في الأداء ؛ فكثير لذلك الإيجاز ، وقل الجواز ، وندرت المبالغة . وضعفت العناية بسياق الفكر على سنن المنطق واقتضاء الطبع : فعلائق المعاني واهنة واهية ، ومساق الأبيات مفكك مضطرب . فإذا حذف أو قدمت أو أخرجت لا تشعر القصيدة بتشويه أو نقص ؛ وذلك لأن البدو بطبيعتهم يعوزهم النظر

(١) قال صاحب المثل السائر في معرض كلامه عن الإطالة وعجز الشاعر عنها : « لاني وجدت العجم يفضلون العرب في هذه النكسة . فإن شاعرهم يذكر كتابا مصفا من أوله إلى آخره شعراً وهو شرح قصص وأحوال . ويكون مع ذلك في غاية الفصاحة والبلاغة في لغة القوم كما فعل الفردوسي في نظم الكتاب المعروف بشاهنامه ، وهو ستون ألف بيت من الشعر يشتمل على تاريخ الفرس ، وهو قرآن القوم . وقد أجمع فصحاءهم على أنه ليس في لغتهم أفصح منه ، وهذا لا يوجد في اللغة العربية على اتساعها وتشعب فنونها ، وعلى أن لغة العجم بالنسبة إليها كقطرة من بحر » .

(٢) الإلياذة ملحمة يونانية نظمها هوميروس في حروب ماروادة ، وهي تمثل الحضارة اليونانية القديمة أسدق تمثيل . والإنياد L'énéide ملحمة نظمها فرجيل أكبر شعراء الرومان (٧٠ - ١٩ قبل الميلاد) فلد بها إلياذة هوميروس فأبدع . والمها بهازاته ملحمة هندية نظمها (فياسه) أحد كهان الهنود باللسان السنسكريتي قبل الميلاد بقرون يصف فيها الحروب التي نشبت بين البانفادس والسكروروس ؛ وهي تبلغ مائتي ألف بيت : والشاهنامه ملحمة فارسية نظمها الحسن بن إسحق الفردوسي المتوفى سنة ٤١١ هـ في تاريخ الأكامرة وأخبارهم ، ووصف الحرب التي اشتملت بين أهل إيران وأهل طوران . وقد نقلها إلى العربية ثرا الفتح بن علي البنداري الأصبهاني وقدمها إلى خزانة أحد الملوك الأيوبيين . وقد نشرها وقدم لها وأتمها وعلق عليها الدكتور عبد الوهاب عزام سنة ١٩٣٢ بالقاهرة .

الفلسفي فلا يرون الحوادث والأشياء إلا مجردة لا ينظمها سلك ولا تجمعها علاقة .
ومن ثم كانت وحدة النقد عند أدباء العرب البيت لا القصيدة . ومنها استعمال
الغريب ومثانة التركيب وجزالة اللفظ ؛ لتأثرهم بمظاهر الغلظة والقوة البادية
في طباعهم ونظام اجتماعهم . والابتداء بذكر الاطلال والديار ، لأنهم أهل خيام
ومضارب ، وألأف انتجاع وظعن ، فلا يكاد الشاعر يمر بمكان حتى يذكر عهداً
قضاء فيه ، وأحبة ترحلوا عنه . فتهيجه الذكرى فيحيييه ويبيكيه . والشعر الجاهلي
على الجملة كثير التشابه قابل التنوع يجري في حلبة واحدة من السماع والتقليد .

الرواية والملفات

المروى من الشعر الجاهلي على قصر عهده المعروف يقوت الجمع وتضيق عنه
الحفاظة . على أن كثيرين من رواته ذهبت بهم حروب الفتح فذهب معهم شطر
كبير منه . قال أبو عمرو بن العلاء : ما انتهى إليكم مما قالت العرب إلا أقله .
ولو جاءكم وافر الجاء كم علم وشعر كثير « ولكن هذه الكثرة متهمة وروايتها
مريبة ، فإن الشعر لم يدون إلا في أوائل القرن الثاني للهجرة . وإن في نقله على
الأسنة ، طوال هذه الأزمنة ، مظنة للتبديل والاختلاق والتزيد . وفيما روى
عن حماد الراوية وخلف الأحمر من عبثهما بالشعر وافتعالهما إياه مساع لهذا الظن .
ولعل القصائد التسع والأربعين التي جمعها أبو زيد القرشي في جمهرة أشعار العرب
أصح الشعر القديم رواية وأصدقها تمثيلاً لأسلوبه ومنهاجه . وأبعد هذه القصائد
مدى في الرواية ، وأوفرها حظاً من الحفظ والعناية ، والملفات أو اللذبات
أو الشموط . وهنّ على الرأي الغالب سبع قصائد يزعم جمهور المؤرخين أن العرب
اختارتها فسكرتها بماء الذهب على القباطي ، ثم علقها بالكعبة إعجاباً بابها وإشادة
بذكرها . وقد بقي بعضها إلى يوم فتح مكة وذهب بالبعض الآخر حريق أصاب
الكعبة قبل الإسلام : واصحابها هم امرؤ القيس ، وزهير بن أبي سلمى ، وطرفة
ابن العبد ، ولبيد بن ربيعة ، وعنترة بن شداد ، وعمرو بن كلثوم ، والحارث

ابن حازم . ومن الناس من ينسكّر تعليقها على الكعبة بغير دليل قائم ولا حجة مقنعة .
فمن المتقدمين أبو جعفر النحاس^(١) المتوفى سنة ٣٣٨ هـ ومن المتأخرين المستشرق
الألماني^(٢) نولدكي Noeldke على أن تعليق الصحائف الخطيرة على الكعبة
كان سنة في الجاهلية بقي أثرها في الإسلام . فمن ذلك تعليق قریش الصحيفة التي
وكدوا فيها على أنفسهم مقاطعة بني هاشم والمطلب لحايتهم رسول الله (ص) حين
أجمع على الدعوة ؛ وتعليق الرشيد عهدَه بالخلافة من بعده إلى ولديه الأمين
فالمأمون . فلم لا يكون الأمر كذلك في هذه القصائد مع ما علمت من تأثير الشعر
فيهم ومكانة الشعراء منهم ؟ على أن لهذا الأمر نظائر في أدب الإغريق ، فإن
القصيدة التي قالها بندار زعيم الشعر الفنائى يمدح بهاديا جوراس قد كتبوها بالذهب
على جدران معبد أثينا في لمنوس^(٣) .

نماذج من الشعر الجاهلي

قال امرؤ القيس :

وقد أغتدى ، والظيرُ في وُكناها لِفَيْثٍ من الرّسْمِ رائده خال
تَمامُهُ أطرافُ الرماحِ تَمامياً وجادَ عليه كلُّ أُسْحَمَ هطال
بِعِجْلِزَةٍ قد أترَزَ الجريُّ لحمَها كَمَيِّتٍ كأنها هراوةٌ منوال
دَعَرَتْ بها سِرْباً نقيّاً جلوده وأكرُعه وَشَى البرود من الخلال

(١) قال أبو جعفر النحاس في شرحه للمعلقات : واختلفوا في جمع هذه القصائد السبع ،
فقيل إن العرب كان أكثرهم يجتمع بمكافئ ويتناشدون الأشعار ، فإذا استحسن الملك قصيدة
قال هلقوها وأنتبوها في خزائني . وأما قول من قال إنها علقت في الكعبة فلا يعرفه أحد
من الرواة .

(٢) وضع الأستاذ نولدكي كتاباً في هذا الموضوع رجح فيه أن المعلقات منها المنتخبات ؛
وإنما سماها حاد الرواية بهذا الاسم تشبيهاً لها بالقلائد التي تعلق في النجور ؛ واستدل على ذلك
بأن من أسماها السموط ومن معاني السموط القلائد . وشايبه على هذا الرأي الأستاذ كليمان
هيار الفرنسي مؤلف كتاب الأدب العربي باقت .

(٣) انظر دائرة معارف لاروس في كلمة (بندار) :

كأن الصَّوَارَ إِذْ تَجَاهَدَنَ غَدْوَةً
فَجَالَ الصَّوَارَ ، وَاتَّقِينَ بِقِرْهَبِ
فَعَادَيْتُ مِنْهُ بَيْنَ ثَوْرٍ وَنَمِجَةٍ
كَأَنِّي بِفِتْنَاهِ الْجِنَاحِينَ لِقْوَةً
تَخْطَفُ خِزَّانَ الْأَنْعَمِ بِالضَّحَى
كَأَنَّ قُلُوبَ الطَّيْرِ رَطْبًا وَيَابَسًا
فَلَوْ أَنَّ مَا أَسْعَى لِأَدْنَى مَعِيشَةٍ
وَلَكِنَّمَا أَسْعَى لِمَحَدِّ مُؤَثَّلٍ
وَمَا الْمَرْءُ مَادَامَتْ حُشَّاشَةٌ نَفْسِهِ

وقال النابغة الذبياني من قصيدته التي يمدح بها النعمان ويعتذر إليه :

أَتَانِي - أَبَيْتَ اللَّعْنَ - أَنْكَ لُمْتَنِي
مَقَالَةٌ أَنْ قَدِ قَلْتُ : سَوْفَ أَنَالُهُ ،
لِعَمْرِي - وَمَا عَمْرِي عَلَيَّ بِهِيْنِ -
أَفَارِعُ عَوْفٍ ، لَا أَحَاوِلُ غَيْرَهَا
أَتَاكَ امْرُؤٌ مُسْتَبْطِنٌ لِي بَعْضَةَ
أَتَاكَ بِقَوْلِ هَلْهَلِ النَّسِجِ كَاذِبِ
أَتَاكَ بِقَوْلِ لَمْ أَكُنْ لِأَقُولِهِ
حَلَفْتُ فَلَمْ أَتْرِكْ لِنَفْسِكَ رِيبةً
بِمَصْطَحِبَاتٍ مِنْ لِصَافٍ وَثَبْرَةٍ
سَمَامًا تُبَارِي الرِّيحَ خَوْصًا عِيُونَهَا

وتلك التي تَسْتَكِ مِنْهَا الْمَسَامِعُ
وذلكَ مِنْ تَلْقَاءِ مِثْلِكَ رَائِعُ
لَقَدْ نَطَقْتُ بِطُلَا عَلَيَّ الْأَفَارِعُ
وُجُوهُ قُرُودٍ تَبْتَغِي مَنْ تَجَادِعُ
لَهُ مِنْ عَدُوٍّ مِثْلَ ذَلِكَ شَافِعُ
وَلَمْ يَأْتِ بِالْحَقِّ الَّذِي هُوَ نَاصِعُ
وَلَوْ كُئِبْتَ فِي سَاعِدِي الْجَوَامِعُ
وَهَلْ يَأْتِمُنُ ذُو أُمَّةٍ ، وَهُوَ طَائِعُ
يُرُونَ إِلَّا لَأَ ، سَيَّرُهُنَّ التَّنَادِعُ
لَهُنَّ رَزَايَا بِالطَّرِيقِ وَدَائِعُ

عليهنَّ شعثٌ عامِدُونُ لِحْجَتِهِمْ فَمَنْ كَأَطْرَافِ الْحَيِّ خَوَاضِعُ
 لَكَلْفَتِي ذَنْبِ امْرِئٍ ، وَتَرَكْتَهُ كَذَى الْعَرِّ يُكْوَى غَيْرُهُ وَهُوَ رَاتِعُ
 فَإِنْ كُنْتَ لِذَوِ الصُّغْنِ عَنِ مُكَذِّبٍ وَلَا حَلْفِي عَلَى الْبَرَاءَةِ نَافِعُ
 وَلَا أَنَا مَأْمُونٌ بِشَيْءٍ أَقُولُهُ وَأَنْتِ بِأَمْرٍ — لَا مَحَالَةَ — وَاقِعُ
 فَإِنَّكَ كَاللَّيْلِ الَّذِي هُوَ مُدْرِكِي وَإِنْ خِلْتُ أَنْ الْمَتَأَى عِنْدَكَ وَاسِعُ
 خَطَاطِيفُ حُبِّجْنِ فِي حِبَالٍ مَثْبُتَةٍ تُمَدُّ بِهَا أَيْدِي إِيْلَيْكَ نَوَازِعُ
 أَتَوَعَّدُ عَبْدًا لَمْ يَخُنْكَ أَمَانَةٌ وَيُتْرَكُ عَبْدٌ ظَالِمٌ وَهُوَ ضَالِعُ
 وَأَنْتِ رِبِيعٌ يُنْعِشُ النَّاسَ سَيِّبُهُ وَسَيْفٌ أُعِيرَتْهُ الْمَنِيَّةُ قَاطِعُ
 أَبِي اللَّهِ إِلَّا عَدْلُهُ وَوَفَاءُهُ فَلَا النُّكْرُ مَعْرُوفٌ وَلَا الْعُرْفُ ضَائِعُ
 وَتُسْقَى إِذَا مَا شُتَّتَ غَيْرَ مُصَرَّدٍ بَزُورَاءٍ فِي حَانَتِهَا الْمَسْكُ كَانِعُ
 وَقَالَ دُرَيْدُ بْنُ الصَّمَّةِ (١) فِي رِثَاءِ أَخِيهِ :

أَرْتِ جَدِيدُ الْحَبْلِ مِنْ أُمَّ مَعْبِدٍ بَعَاقِبَةٍ ، أُمَّ أَخْلَفْتُ كُلَّ مَوْعِدِ
 وَكَانَتْ ، وَلَمْ أَحْمَدُ إِيْلَيْكَ نَوَالَهَا وَلَمْ تَرْجُ مَنًّا رَدَّةَ الْيَوْمِ أَوْعِدِ
 كَأَنَّ حَمُولَ الْحَيِّ إِذْ مَتَعَ الضُّحَى بِنَاصِيَةِ الشَّحْنَاءِ عَصْبَةُ مِذْوَدِ
 أَوْ الْأَنْابُ الْعَمُّ الْمُحَرَّمُ سُوقُهُ بَكَابَةِ لَمْ يُخْبِطُ ، وَلَمْ يَتَعَضِدِ
 فَقَلْتُ لِعَارِضٍ وَأَصْحَابِ عَارِضٍ وَرَهْطِ بَنِي السُّودَاءِ وَالْقَوْمِ شُهَدَى
 عَلَانِيَةً : ظَنُّنَا بِالْأَنْبِيِّ مُدَجَّجِ سَرَاتِمُهُمْ فِي الْفَارِسِيِّ الْمُسَرَّدِ

(١) دريد بن الصمة شاعر فارس سيد ، أدرك الإسلام ولم يسل . قتل بنو غطفان أخاه عبد الله لأن دريداً أغار عليهم واستاق إليهم ، فنزل هبده الله في بعض الطريق ليقتسم الغنيمة . فنهاه دريد مخافة أن تلحق بهم غطفان المهوبة ، فأبى ؛ وبقي حتى أدركته الحميل فقتله عيس . وأراد دريد إنقاذه فلم يرض عنه ، وبقي دهره حزينا يرثيه حتى لامته في ذلك امرأته أم معبد فطلقها ، وقال فيها وفي رثاء أخيه القصيدة .

وقلت لهم: إن الأحاليف هذه
ولما رأيت الخيل قبلاً كأنها
أمرتهم أمري بمنعرج اللوى
فلما عصوني كنت منهم وقد أرى
وهل أنا إلا من غزية؟ إن غوت
دعاني أخي والخيل بيني وبينه
أخ أرضعتني أمه من لبانها
فجئت إليه والرماح تنوشه
وكنت كذات البوريمت فأقبلت
فطاعنت عنه الخيل حتى تنهت
قنال امرئ آسى أخاه بنفسه
تنادوا فقالوا: أردت الخيل فارساً!
قإن يك عبد الله خلى مكانه
ولا برماً إماماً الرياح تناوحت
وتخرج منه صيرة القر جزاة
كميش الإزار خارج نصف ساقه
قليل تشكیه المصيبات ذا كرم
ذا هبط الأرض الفضاء تزينت
وكم غارة بالليل واليوم قبله
سليم الشظى عبء الشوى شنج النسا

مطنبة بين الستار وهمد
جراذ يبارى وجهه الريح مفندي
فلم يستبينوا الرشد إلا ضحى الغد
غوايتهم أنى بهم غير مهتدى
غويت وإن ترشد غزية أرشد
فلما دعاني لم يجدنى بمعدد
يتدى صفاء بيننا لم يجدد
كوقع الصيصى فى النسيج الممدد
إلى قطع من جلد بوججد
وحقى علائى حالك اللون أسود
ويعلم أن المرء غير محمد
فقلت: أعبد الله ذلكم الردى؟
فما كان وقافاً ولا طائش اليد
برطب العضاء والضريع المنضد
وطول السرى درى غضب مهند
صبور على الضراء طلاع أنجد
من اليوم أعقاب الأحاديث فى غد
لرؤيته كالماتم المتابد
تداركها منى بسيد عمرد
طويل القرأ نهد أسيل المقلد

يفوتُ طويل القوم عَقْدُ عَدَّارِهِ
وكنْتُ كَأَنِّي وَائِقٌ بِمُصَدِّرِ
لَهُ كُلُّ مَنْ يَلْتَقِي مِنَ النَّاسِ وَاحِدًا
وَهَوْنٌ وَجَدِي أَنِّي لَمْ أَقُلْ لَهُ:
وقال علقمة بن عبدة التيمي^(١):

طحا بك قَلْبٌ فِي الْحَسَانِ طُرُوبُ
يَكْلِفُنِي لَيْكِي ، وَقَدْ شَطَّ وَلِيهَا
مُنْعَمَةٌ ، مَا يُسْتَطَاعُ كَلَامُهَا ،
إِذَا غَابَ عَنْهَا الْبَعْلُ لَمْ تُفَشِّ سِرَّهُ
فَلَا تَعْدِلِي بَيْنِي وَبَيْنَ مَعْمَرٍ
سَقَاكَ يَمَانٍ ذُو حَيٍّ وَعَارِضٍ
وَمَا أَنْتِ ؟ أَمْ مَا ذَكَرَهَا ؟ رُبْعِيَّةٌ
فَإِن تَسْأَلُونِي بِالنِّسَاءِ فَإِنِّي
إِذَا شَابَ رَأْسُ الْمَرْءِ أَوْ قَلَّ مَالُهُ
يُرْدَنَ ثَرَاءَ الْمَالِ حَيْثُ عَامِنَهُ
فَدَعُهَا وَسَلِّ اللَّهُمَّ عَنكَ بِجَسْرَةٍ
إِلَى الْحَارِثِ الْوَهَّابِ أَعْمَلْتُ نَاقِي
وقال عبد ينفوت الحارثي البجلي^(٢):

أَلَا لَا تَلُومَانِي كَفِي اللَّوْمِ مَا بِيَا
أَلَمْ تَعْلَمَا أَنَّ الْمَلَامَةَ نَفْعُهَا
فَمَا لَكُمْ فِي اللَّوْمِ خَيْرٌ وَلَا لِيَا
قَلِيلٌ ، وَمَا لَوْمِي أَخِي مِنْ شِمَالِيَا

(١) شاعر جاهلي من طبقة امرئ القيس ومعاصريه ، توفي قبل الإسلام بزمان طويل .
(٢) شاعر فارس من طرائق قومه ، أسمرتهيم الرباب يوم الكلاب وهو يوم بين تيم واليمن

فيا راكباً إمّا عرضتَ فبَلَّغْنُ
 أبا كَرِبٍ والأَيَّهَمَيْنِ كليهما
 جزى الله قومي بالكلاب ملامة
 ولو شئتَ نجَّيتني من الخليل نَهْدَةً
 ولكنني أحى ذِمَارَ أَبِيكُمْ
 أقول وقد شدُّوا لساني بِنِسْعَةٍ
 أمعشر تيم قد ملكتم فأسْجِحُوا
 فإن تَقْتُلُونِي تَقْتُلُوا بِي سَيِّدًا
 أحقاً عبادَ الله أن لستُ سامعاً
 وتضحك مني شيخَةٌ عبْشَمِيَّةٌ
 وقد علمت عرسي مليكة أنني
 وقد كنت نَحَارَ الحزور، ومُعْمِلَ الأ
 وأنحُرُ للشرب الكَرِيمِ مطيبي
 وكنتُ إذا ما الخليلُ شَمَّصَهَا القنا
 وعادية سَوَمَ الجراد وَزَعَمَهَا
 كَأَنِّي لم أركبُ جواداً ولم أقل
 ولم أسبُ الرِّقَّ الرويَّ ، ولم أقل
 وقال ذو الإصبع العدواي :
 لي ابنُ عمٍّ على ما كان من خُلُقٍ
 أزرى بنا أننا شالتُ نعامتنا
 ياعمرُو إلا تدعُ شتمِي ومنقَصَتِي
 ندامى من نجران أن لا تلاقيا
 وقيساً بأعلى حضرموت اليمانيا
 صريحهم والآخريين المواليا
 ترى خافها الخوَّ الجيادَ تواليا
 وكان الرماح يَخْتَطِفْنَ لمُحَامِيا
 أمعشر تيمم أطلقوا عن لسانيا
 فإن أخاكم لم يكن من بوأيا
 وإن تُطَلِّقُونِي تجربوني بماليسا
 نشيد الرِّعَاءِ المعزبين المتاليا
 كأن لم ترى قبلي أسيراً يمانيا
 أنا الليثُ معدوًّا على وعاديا
 مطيَّ ، وأمضى حيث لاحت ماضيا
 وأصدعُ بين القَيْدَتَيْنِ رداييا
 لبيقاً بتصرف القناة بنانيا
 بكفي وقد أنحوا إلى العواليا
 لخيلى : كرى نفسى عن رجاليا
 لأيسار صدق أعظموا ضوء ناريا
 مختلفان : فأقلبه ، ويقلبنى
 نفالنى دونه ، وختلته دونى
 أضربك ، حتى تقول الهامة : استقونى

لاه ابن عمك ! الا أفضلت في حسب
ولا تقوت عيالي يوم - مسغبة
إني لعمرك ما بابي بذى غلّق
ولا لسانى على الأذنّى بمنطلق
عفّ يؤوس إذا ما خفت من بلد
عنى إليك ، فما أمى برّاعية
كلّ امرىء راجع يوماً لشيئته
إنى أبى أبى ذو محافظه
وأنتم معشر زبد على مائه
فإن علمتم سبيل الرشد فانطلقوا
ماذا علىّ وإن كنتم ذوى رحى
لو تشرّبون دى لم يرو شاربكم
الله يعلمنى ، والله يعلمكم
قد كنت أوتيكم ثم نصحى ، وأمنحك
لا يُخرجُ الكره منى غير مأيمة
وقال الأفوه الأودى :

البيت لا يبتنى إلا له عمد
فإن تجمّع أوتاد وأعمدة
لا يصلحُ الناس فوضى لا سراة لهم
تهدى الأمور بأهل الراى ما صلحت
إذا تولى سراة الناس أمرهم
ولا عماد إذا لم تُرس أوتاد
وساكن بلفوا الأمر الذى كادوا
ولا سراة إذا جهّاهم سادوا
فإن تولّت فبالأشرار تنقاد
نمّا على ذلك أمر القوم فازدادوا

وقال ودّك بن مُميل المازني :

رويد بنى شيبان بعضَ وعيدكم
تلاقوا جياداً لا تحيد عن الوغى
عليها الحكمةُ الغرُّ من آل مازن
تلاقوهم فتعرفوا كيف صبرهم
مقاديم وصّالون في الرّوع خطوهم
إذا استنجدوا لم يسألوا من دعاهم
تلاقوا غداً خيلى على سفوان
إذا ماغدت في المازق المتدانى
ليوث طعان عند كل طعان
على ما جنت فيهم يد الحدان
بكل رقيق الشفرتين يمان
لأية حرب أم بأيّ مكان

وقال زهير بن أبي سُمي يمدح هَرم بن سنان :

وأبيضَ فيأض يدها غمامة
أخى ثقبه لا يهلك الخمر ماله
تراه إذا ما جتته متهللاً
على معتفيه ما تغب فواضله
ولكنه قد يهلك المال نائله
كأنك تعطيه الذي أنت سائله

وقال أبيض :

وفيهم مقامات حسان وجوههم
وإن جتتهم ألفت حول بيوتهم
على مكثريهم رزق من يعترهم
سعى بسدّهم قوم لكي يدركوهم
فما كان من خير أتوه فإنما
وهل يُنبت أخطى إلا وشيجه
وقال الأعشى يمدح الملق :
وأندية ينتابها القول والفعل
مجالس قد يُشفي بأحلامها الجهل
وعند المقلدين الساحة والبذل
فلم يفعلوا ولم يلبموا ولم يألوا
توارثه آباء آبائهم قبيـل
وتفرّس إلا في منابها النخل ؟

لعمري لقد لاحت عيون كثيرة
تشب لمقـرور بن بصطليانها
إلى ضوء نار باليفاع تحرق
وبات على النار الندى والخلق

رضيحي لبان ندى أم تقاسما بأسحج داج عَوْضُ لا تنفرك
تري الجود يجرى ظاهراً فوق وجهه كما زان متن الهنذواني رونق
يداه يدا صدق فكف مُبِيدَةٌ وكف إذا ماضن بالمال تُنفقُ

وقال تأبط شراً يمدح ابن عم له ويذمته بما يمدح به الجاهليون من الصفات:

إني لَمَهْدٍ من ثنائى فقاصدُ به لابن عم الصدق شمس بن مالك
أهزُّ به في ندوة الحى عِطْفُهُ كما هز عطفي بالهجان الأوارك
قليل التشكى للمهم يصيبه كثير الهوى شتى النوى والمسالك
يظل بمومة ويمسى بفسيرها جُحيشاً ويعرورى ظهور المهالك
ويسبق وفد الريح من حيث ينتحى بمخرق من شدّه المتدارك
إذا حاص عينيه كرى النوم لم يزل له كالى لا من قلب شيخان فاتك
ويجمل عينيه ربيثة قلبه إلى سلّة من حد أخلق صائك
إذا هزه في وجهه قرن تهلت نواجذ أفواه المنايا الضواحك
يرى الوحشة الإنس الأنيس ويهتدى بحيث اهتدت أم النجوم الشوابك
وقال عمرو بن الهذيل العبدى:

ولا ترّج خيراً عند باب ابن مسمع إذا كنت من حبي حنيفة أو عجل
ونحن أقننا أمر بكر بن وائل وأنت (بشاج) ماتمرُّ وما تحلى
وما تستوى أحساب قوم تُورثت قديما وأحساب نبتن مع البقل

وقال ليبيد بن ربيعة يرثى النعمان .
ألا تسألان المرء ماذا يحاول
أرى الناس لا يدرون ما قدر أمرهم
ألا كلُّ شيء ما خلا الله باطل
وكل أناس سوف تدخل بينهم

أنحب فيقضى أم ضلال وباطل؟
بلى ، كل ذى لب إلى الله واسل
وكل نعيم لا محالة زائل
دويهيّة تصفر منها الأنامل

وكل امرئ يوماً سيعلم غيبه
 إذا المرء أسرى ليلةً حال أنه
 فقولا له إن كان يقسم أمره
 فتعلم أنى لست مدرك ما مضى
 فإن أنت لم ينفكك علمك فانقسم
 وإن لم تجد من دون عدنان والداً
 وقال عدى بن زيد العبادي :

أيهما الشامت المعير بالده
 أم لديك العهد الوثيق من الأيا
 من رأيت المنون خلدن أم من
 أبين كسرى كسرى الملوك أبوسا
 وأبو الخضر إذ بناه وإذ دج
 شاده مرمرأ وجله كل
 وتبين رب الخورنق إذ أش
 سره حاله وكثرة ما يم
 فارعوى قلبه فقال وما غب
 ثم بعد الفلاح والملك والأمة م وارثهم
 ثم أصبحوا كأنهم ورق جف م فألوت به الصبا والدبور
 وقال امرؤ القيس في معلقته يصف الليل .

زليل كموج البحر أرخى سدوله
 فقلت له لما تمطى بصلبه
 ألا أيها الليل الطويل ألا أنجلي
 فيالك من ليل كأن نجومه
 على بأنواع الهوم ليبتلى
 وأردف أعجازاً وناء بكل كل
 بصبح ، وما الإصباح منك بأمثل
 بكل مغار القتل شدت بيدبل

وقال فيها يصف جواده :

وقد أعتدى والطير في وكفاتها
مكر مفرّ مقبل مدبر معاً
له أبطالا ظلي وساقا نمامة
وإرخاء سرحان وتقريب تتفل

وقال طرفة بن العبد يصف السفينة :

كان حدوج المالكية غدوة
عدولية أو من سفين ابن يامن
يشق حباب الماء حيزومها بها
كما قسم التراب المفايل باليد

وقال أبو صخرة البولاني :

فما نطفة من حبّ مزن تقاذقت
فلما أقرته اللصاب تنفست
بأطيب من فيها وما ذقت طعمه ،
ولكنني فيما ترى العين فارس

وقال الأعشى :

ماروضة من رياض الحزن معشبة
يضاحك الشمس منها كوكب شرق
يوماً بأطيب منها نشر رائحة

وقال المتلمس جرير بن عبد العزى من قصيدة :

وكنا إذا الجبار صعر خده
لدى الحلم قبل اليوم ما تفرع العصا
ولو غير أخوالى أرادوا نقيصتى
وما كنت إلا مثل قاطع كفه
فلما استقاد الكف بالكف لم يجد
يداه أصابت هذه حتف هذه
فأطرق إطراق الشجاع ولو يرى
أقنأ له من خده فتقوما
وما علم الإنسان إلا ليعلمها
جعلت لهم فوق العرانيين ميسما
بكف له أخرى فأصبح أجذما
له دركا في أن تبينا فأحجا
فلم تجد الأخرى عليها مقدا
مساغا لنايبه الشجاع لصمما

الفصل الرابع

الشعراء الجاهليون وطبقاتهم

كل قبيلة كانت تحرص على أن يكون لها شاعر وقائد وخطيب ، ولكن الشاعر كان أكرم عليها وأحب إليها من هذين . فكانت إذا نبغ فيها شاعر تصنع الولائم وتقيم الأفراح وتهنئها القبائل . وذلك لأن الشعراء يقودون قومهم بقولهم ، وينضحون عنهم يوم حفلهم ، ويخلدون ماثرهم على الدهور ، وينقشون مفاخرهم في الصدور ، لا يبتغون على ذلك جزاء ولا صلة . على أن نفرأ منهم تكبوا بالشعر ففض ذلك من أقدارهم ، وإن لم يفض من أشعارهم ، كالنابغة مع النعمان ، وزهير مع هرم بن سنان ، والأعشى مع الملوك والسؤدة^(١) . وكان لكل شاعر رابوة يلزمه ملازمة التلميذ لمعلمه . ينهج طريقه وينشر شعره . ونابغو الشعراء قضوا عهد الثقافة والمرانة في الرواية ، فكان امرؤ القيس رابوة أبي دؤاد الإيادي ، وزهير رابوة أوس بن حجر ، والأعشى رابوة المسيب بن علس .

والشعراء باعتبار الزمان أربع طبقات : جاهليون ، وهم من عاشوا قبل الإسلام أو أدركوه ولم يقولوا فيه شيئاً يذكر ، كامرئ القيس وزهير وأممية بن أبي الصلت وليبيد . ومخضرمون ، وهم الذين اشتهروا بالشعر في الجاهلية والإسلام ، كالخنساء وحسان بن ثابت . وإسلاميون : وهم الناشئون في الإسلام الباكون على سليقتهم في العربية ، وهم شعراء بني أممية . ومولدون : وهم الذين فسدت

(١) انتجع الأعشى أطراف البلاد بشعره حتى قصد ملوك العجم فأنابوه . وفي ذلك يقول :

وطوفت الدال آفاقه عمان وحصى وأوريشلم
أتيت النجاشي في أرضه وأرض النبيسط وأرس العجم

فيهم ملكة اللسان فعالجوها بالصناعة وهم شعراء بني العباس .

وهم باعتبار الإجابة في رأى النقاد ثلاث طبقات : امرؤ القيس وزهير والنابغة ، وهم رجال الطبقة الأولى . والأعشى ولبيد وطرفة ؛ وهم رجال الطبقة الثانية ؛ وعنترة ودريد بن الصمة وأميرة بن أبي الصلت ، وهم رجال الطبقة الثالثة . وهذا التقسيم لا يخلو من ضلال وتحكم ، لاختلاف الذوق وجهل القدماء بقواعد النقد .

امرؤ القيس

نشأته وهيبته

هو الملك الضليل ذو القروح جندح بن حجر الكندي ، ولد أثيل المنبت كريم الأبوة والأمومة : فأبوه سليل الملوك من كندة ، وملك بني أسد . وأمه أخت كليب ومهلل ابني ربيعة . فشب في حجر النعيم ودرح في مهد السراوة ؛ إلا أنه نشأ نشأة الغواة يعاقر الراح ويقازل النساء ويعشق اللهو ويقول الشعر . ثم أطلق لنفسه العنان في المجون ، وقعد عما تسمو إليه النفوس الكبيرة فطرده أبوه ، وكان أصغر أولاده . فخرج في زمرة من أخلاط العرب وذؤبانهم يرتادون الرياض والغُدُر . فإذا صادفوا غديراً خيموا عليه وطفقوا يلعبون ويعاقرون ويصيدون ؛ حتى إذا نضب الماء وذوى العشب تحولوا عنه إلى غيره . ولم تزل تلك حاله حتى بلغ دمون من أرض اليمن . وهناك أتاه نعي أبيه وقد قتله بنو أسد غيلة لاستبداده بهم وسوء سيرته فيهم . فقال امرؤ القيس : « ضيعني أبي صغيراً ، وحملني دمه كبيراً . لا صحو اليوم ولا سكر غداً . اليوم خمر ، وغداً أمر » ثم آلى ألا يأكل لحماً ولا يشرب خمراً ولا يدهن بدهن حتى يقتل من بني أسد مائة ويمز نواصي مائة . فلما أجنه الليل شام برقاً فقال :

أرقت لبرق بليل أهل يضىء سفاه بأعلى الجبل

أناي حديث فكذبته بأمر تززع منه القل
بقتل بني أسد ربه الأكل شيء سواء جلل

فلما كان من الغد استنجد أخواله بكراً وتغلب وسار إلى بني أسد فأوقع بهم .
ثم طلبوا أن يفدوه بمائة من وجوههم فأبوا ؛ فتخاذلت عنه بكر وتغلب . وطلبه
المنذر بن ماء السماء لموجدة كانت في نفسه على قومه ، وأمدته كسرى أنوشروان
بجيش من الأساورة فتفرقت جموعه خوفاً من المنذر . وسار هو في القبائل يطلب
النصر حتى سدت عليه وجوهه . فلجأ إلى السموم بن عاديا اليهودي فاستودعه
دروعه وطلب منه كتاباً إلى الحارث بن أبي شمر الفسائي ليوصله إلى قيصر . فلما
بلغ قيصر الروم وهو يومئذ جستنيان أكرم وفادته وطمع أن يكون امرؤ القيس
قوة له في العرب ، يربص له الأمور ويضعف نفوذ الأكرسة . فجهزه بجيش
وسيره ، ثم بدا له فأعاده . ونزلت بامرئ القيس علة جلدية فتقرح جسمه وتهدأ
لحمه . والمؤرخون يزعمون أنه لما فصل بالجنود دخل الطاح الأسد على قيصر فوسى
به وحمله عليه انتقاماً منه لقتله أباه . فبعث إليه قيصر بحلة وشي مسمومة وقد بلغ
أنقرة من بلاد الروم فأصابه ما أصابه . ويستدلون على ذلك بقوله :

لقد طمح الطاح من نحو أرضه ليلبسني من دانه ما نلبسنا
وبدلت قرحا داميا بعد صحة فيالك نعمي قد تحولت أبؤسا
فلو أمها نفس تموت سوية ولكنها نفس تساقط أنفسا

ولما غشيتته سكرة الموت قال : رب جفنة متعجزة ، وطعنة مسحنفرة ؛
وخطبة محبرة ، تبقى غداً بأنقرة ! ثم مات ودفن بجبل عسيب سنة ٥٦٠ م (١)

(١) من القلو أن تحدد التواريخ لوفيات الشعراء والمطباء من الجاهليين فإن القوم لم
يكرنوا على شيء من العلم بتاريخ ولا بغيره ، وإنما كانوا يؤرخون بموادتهم المعروفة .

شعره

نشأ امرؤ القيس نجدياً وإن كان يمينياً ، فترعرع بين بنى أسد في صميم
العرب الخَلص ، فسمع الأشعار ورواها ، وتطلعت نفسه إلى مساجلة الشعراء فقال
الشعر على حدائته سنه . وكان جزل الألفاظ كثير الغريب جيد السبك سريع
الخطير بديع الخيال بليغ التشبيه . وقد فتقت الأسفار والأخطار والمخالطة قريحته
فاستنبط المعاني الجديدة ، ونهج المذاهب الحديثة . وارتسمت في شعره مُحداثات
عصره فنسبت إليه لنبوغه وتفوقه وجاهه . فقالوا إنه أول من وقف على الأطلال
وبكى على الديار وشبَّ بالنساء ، وشبهن بالمها والظباء ، وأجاد وصف الليل
والخيل لإدمان ركوبه وكثرة أسفاره . وإنك لتجد في شعره صورة كاملة من
حياته وخلقه . ففيه عزة الملوك ، وتبذل الصملوك ، وعريضة الماجن ، وحمية
الثائر ، وشكوى الموتور ، ودلة الشريد . وهو باجماع الرواة زعيم الجاهليين
للأسباب التي مرت بك .

نماذج من شعره

من خير ما أثر عنه معلقته التي سارت في الناس مسير المثل . نظمها في حادثة
وقعت له مع ابنة عمه عنيزة ، ثم استطرد إلى وصف الليل ونعت الفرس وذكر
الحجون والصيد . قال في مطلعها :

قفانبك من ذكرى حبيب ومنزل بسقط اللوى بين الدخول فحومل
وقد مر شيء منها في النماذج . ومنها في الغزل :

| | |
|-----------------------------|-----------------------------|
| أفاطم مهلا بعض هذا التسدلل | وإن كنت قد أزمعت هجرى فأجلى |
| أغرك منى أن حبك قاتلى | وأنك مهما تأمرى القلب يفعل |
| وما ذرفت عينك إلا لتضربى | بسمميك في أعشار قلب مقتل |
| فإن كنت قد ساءت منى خليقة | فسللى ثيابى من ثيابك تنسل |
| تسلت عمایات الرجال عن الصبا | وليس فؤادى عن هواها بمنسل |

وقال من قصيدة يذكر فيها رحلته مع عمرو بن قميئة إلى قيصر :
إذا قلت هذا صاحب قد رضيته وقرت به العينان بُدلت آخراً
كذلك جدّي: لأصاحب واحداً من الناس إلا خانني وتغيراً
تذكرت أهلي الصالحين وقد أتت على جمل بنا الركاب وأعفراً
ولما بدت حوران والآل دونها نظرت فلم تنظر بعينيك منظراً
تقطع أسباب اللبانات والهوى عشية غادرنا حماة وشيزراً
بكي صاحبي لما رأى الدرب دونه وأيقن أنا لاحقان بقيصراً
فقلت له : لا تبك عينك إنما نحاول ملكاً أو نموت فنعذراً

النايعة الذيباني

نشأته وحياته

هو أبو أمامة زياد بن معاوية ، ولقب بالنايعة لأنه لم يقل الشعر حتى احتنك ، ثم فجىء الناس بشعر بذّ به الشعراء وكان له منه مادة لا تنقطع فشبّهوه بالماء النايغ . وهو أحد سَرَاةِ بنى ذبيان ومن ذوى مثالتهم ، ولكن تكسبه بالشعر غرض من قدره وطأطأ من إشرافه . اتصل بالنعمان بن المنذر فاستخلصه إليه وأسبغ نعمته عليه حتى أكل وشرب في آنية الذهب والفضة من جوائزه . وما زال النايعة يتبسّط على النعيم ، ويتفياً ظلّال الخفض ، حتى درج بالنعمة بينهما بعض حساده متذرعين إلى الوشاية بقصيدته في وصف المتجردة زوج النعمان . فوقرت السعاية في نفس الملك فتوعدمه ، فبجأ الشاعر بنفسه إلى الشام ولاذ بعمر بن الحارث الأصغر الفسائي ، فنزل منه في جناب مريع وأمن شامل ،

فزاد ذلك في حقد النعمان عليه لالتجائه إلى أعدائه ومنافسيه . وما زال النابغة عند بني غَسَّان يصلهم بالدر ويصلونه بالذهب حتى بلغه أن النعمان عليل ، فرجع يطلب الشفاعة إليه ، ويرجو البراءة عنده ، مقدماً بين يديه مع شفيعيه تلك القصائد الخالدة في الاعتذار ، فاستلَّت ما في نفس الملك وأحلَّتْه منه في المكان الأول ، وبقي في حال حسنة حتى أُرْعِشَه الكِبر وقيده الهرَم وسَمَّ الحياة وقال :

المراء يأمل أن يعيد ش وطول عيش قد يضره
تغنى بشاشته ويبقى بمدح حلو العيش مره
وتخونه الأيام حتى لا يرى شيئاً يسره
كم شامت بي لمن هلكت وقائسل : لله دره
وكانت وفاته في السنة الثامنة عشرة قبل الهجرة .

شعره

النابغة أحد فحول الشعراء الثلاثة الذين لا يشقُّ غبارهم ، ولا تلحق آثارهم ، وهم امرؤ القيس وهو زهير . ويمتاز من صاحبيه ببديع كنياته ، ودقيق إشارته ، وصفاء ديباجته ، وقلة تكلفه ، وموافقة شعره لهوى النفوس . ولهذا لم يفنَّ الناس بشعر أحد في الجاهلية وصدر الإسلام بمثل ما غنوا به من شعره . وقد أجاد في وصف ليل الخائف ، واعتذار الجاني ، ومدح المنعم ، إجادة لا يتعلق بهادرك ، إلا أنه كان يُقَوِّى^(١) في شعره ويقول : إن في شمري عاهة

(١) أقوى الشاعر إذا خالف بين القواي برفع بيت وجر آخر . كقول النابغة في قصيدة المنجدة

سقط النصب ولم ترد إسقاطه فتناولته واتقننا باليد
مغضب رخص حكأت بنانه هم بكاد من اللطافة بقصد

لا أدريها ؛ حتى سمع مغمياً يفنى بأبيات من شعره فيها إقواء ، ففطن إلى ذلك ولم يعد إليه . وقد عرف شعراء العرب له تلك المسكاة السامية في الشعر فقدموه في عكاظ واحتكموا إليه في الخصومات الأدبية فكان يقضى بينهم موفّق القضاء مطاع الحكم .

نموذج من شعره

قال من قصيدته في مدح عمرو بن الحارث الغساني :

| | |
|------------------------------|-------------------------------|
| كليني لهمّ با أميمة ناصب | وليل أقاسيه بطيء الكواكب |
| وصدر أراح الليل عازب هم | تضاعف فيه الحزن من كل جانب |
| على لعمر و نعمة بعد نعمة | لوالده ليست بذات عقارب |
| ومثت له بالنصر إذ قيل قد غزت | كتائب من غسان غير أشائب |
| إذا ما غزوا الجيش حلق فوقهم | عصائب طير تهتدى بعصائب |
| فهم يتساقون المنية بينهم | بأيديهم بيض رفاق المضارب |
| ولا عيب فيهم غير أن سيوفهم | بهن فلول من قراع الكتائب |
| لهم شيمة لم يعطها الله غيرهم | من الجود ، والأحلام غير عواذب |
| رفاق النعال طيب حُجزاتهم | يُحيون بالرّيحان يوم السباب |
| ولا يحسبون الخير لا شرّ بعده | ولا يحسبون الشرّ ضرباً لا زب |

زهير بن أبي سلمي

نشأته وحياته

نشأ زهير بن أبي سلمي بن ربيعة بن رباح المزني في أقارب أبيه من بني غطفان ، ولزم بشامة بن الغدير خال أبيه ، وكان رجلاً مقعداً عقيماً حكيماً قد اشتهر بسداد الرأي وجودة الشعر ووفرة المال ، فاغترف من شعره وتأثر بعلمه وحكمه ، وظهر ذلك جلياً فيما رضع به شعره من درر الحكمة . ولما مشى الحارث بن عوف وهرم ابن سنان المريان بالصلح بين عبس وذيبيان وأطفأ نار الحرب باحتمالها ديات القتلى عن الحيين ، وقد بلغت ثلاثة آلاف بعير ، استفزتة هذه الأريحية فمدحهما بمعلقته . ثم تابع مدحه لهرم بن سنان وأطنب في ذلك حتى أقسم هرم ألا يمدحه زهير ولا يسأله ولا يسلم عليه إلا أعطاه عبداً أو وليدة أو فرساً . فاستحيا زهير من كثرة ما كان يقبل منه ، وأصبح إذا رآه في مألأ من الناس قال عمو اصباحاً لإلا هراً ، وخيركم . استثنيت . وقال عمر بن الخطاب لبعض أولاد هرم : أشدني بعض مدائح زهير في أبيك ، فأنشده . فقال عمر : إنه كان ليحسن فيكم القول . فقال : والله ونحن كنا نحسن له العطاء . فقال عمر : قد ذهب ما أعطيتموه وبقي ما أعطاكم وكان زهير على جدته راحب الأناة راجح الحصاة شديد الرأي شديد الورع مؤثراً للسلم مؤمناً بالله واليوم الآخر . يشهد بذلك قوله في معلقته :

فلا تكتمنَّ الله ما في صدوركم ليخفي ومهما بُكتمنَّ الله يُعلم
يؤخرُ فيوضع في كتاب فيدخر ليوم حساب أو يعجل فيُنقم
وقد عمرَّ زهير حتى نيّف على المائة كما يؤخذ من قوله :

بدالي أني عشت تسعين حجة تباعاً وعشراً عشتها وثمانيا
وتوفى قبل الهجرة بإحدى عشرة سنة وقد أسلم ولده كعب وبجير .

شعره

بيت زهير عريق في الشاعرية : فأبوه وخاله ، وأختاه سلمى والخنساء ،
وولداه كعب وبجير ، من الشعراء المذكورين ، وذلك ما لم يكن لغيره . وهو كما
علمت أحد الثلاثة الفحول . وفي الناس من يفضله على امرئ القيس والنابغة ،
لأن شعره يمتاز بصدق اللهجة ، وخلوه من الحوشيِّ والتعقيد ، وبعده عن سخف
القول وهجر الحديث ، وجمعه الكثير من المعاني في قليل من الألفاظ . وهو واحد
من الشعراء في إجادة المدح وضرب المثل وإرسال الحكمة . وزهير من عميد الشعر
الذين تعاملوه ونقحوه . وله قصائد تعرف بالحوليات يزعمون أنه كان ينظمها
في أربعة أشهر ويهذبها في أربعة ، ثم يعرضها على خاصة الشعراء في أربعة ،
فلا ينشدها الناس إلا بعد حول .

تحليل موهبة لعاقته

موضوع معلقته كما علمت مدح الحارث بن عوف وهرم بن سنان المرثيين
على سعيهما بالصلاح بين عبس وذبيان . ولكنه افتتحها على عادة الجاهليين بالوقوف
على أطلال الأحبة وتحيتها ونعمها وتنشيم الذكريات من خلال آثارها ، فوقف
على الدمن البكم الدوارس من ديار أمِّ أوفى بمد أن أتى على عهد بها عشرون
سنة فلم يعرفها إلا بعد مشقة :

فلما عرفت الدار قلت لربها ألا عمُّ صباحاً أيها الربع واسلم

ثم تمثلت في خاطره طعائن الجبابب متحملات تغشيهن سدول صفيقة
النسيج ، وكلَّة وردية الحواشي ، فيتمبهن ببصره الحزين وقلبه الواله ، فيصف
ما سلكه من طُرُق وما نزلته من منازل حتى يبلغن المنزل الذي أردنه ،

وما أجمل أسلوبه في استحضار هذه الذكرى ، حتى لكأنها ماثلة للعيون
فلو تبصّر صاحبه قليلاً لراها :

تَبَصَّرُ خَلِيلِي هل ترى من ظمائن تَحْمَلُنَ (بالعلاء) من فوق (جرثم)
تَلَوْنَ بِأَمْطِ عَتَقِ اقِ وَكَلَّةً وِرَاءَ حَوَاشِيهَا مَشَاكِهِ الدَّمِ
بَكْرُنَ بَكُوراً وَاسْتَعْرَنَ بِسَحْرَةٍ فَهِنَ لَوَادِي الرِّسِ كَالْيَدِ فِي الفَمِ
وَفِيهِنَ مَكْهَى لِلصَّدِيقِ وَمَنْظَرٌ أُنِيقَ لَعِينِ النَّاطِرِ المَتَوَسِّمِ
فَلَمَّا وَرَدَنَ المَاءَ زُرْقًا جِجَامِهِ وَضَعَنَ عِصَى الحَاضِرِ المَتَخَيِّمِ

ثم انتقل على طريقة الاقتضاب إلى الرجلين اللذين حقنا بالصلح دماء
العشيرة فقال لهما :

يَمِينًا لَنِمَّ السَّيْدَانِ وَجَدْتُمَا عَلَى كَلِّ حَالٍ مِنْ سَحِيلٍ وَمَبْرَمِ
تَدَارَكْتُمَا عَبَسًا وَذَبِيانَ بَعْدَ مَا نَفَانُوا وَدَقُّوا بَيْنَهُمْ عِطْرَ مَنَشِمِ
وَقَدْ قَلَّمَا إِنْ نَدْرَكَ السَّلْمَ وَاسِعًا بِمَالٍ وَمَعْرُوفٍ مِنَ الأَمْسِ نَسْلَمِ
فَأَصْبَحَ يَجْرِي فِيهِمْ مِنْ تِلَادِكُمْ مَغَانِمَ شَتَى مِنْ إِفَالِ المَزْمِ

ثم قطع المدح مؤقتاً ليدعو الخصوم إلى السلم في لين ورفق ، ولكنه ذكر
الحرب فاشتد وأنكر ما تجر على الناس من أضرار وأضرار :

وَمَا الحَرْبُ إِلا مَا عَلِمْتُمْ وَذَقْتُمْ وَمَا هُوَ عِنْدَ الحَدِيثِ المَرْجَمِ
مَتَى تَبَعَثُوهَا تَبَعَثُوهَا ذَمِيمَةً وَتَضَرَّ إِذَا ضَرَبْتُمُوهَا فَتَضَرَّمِ
فَتَعْرَكُكُمْ عَرَكَ الرِّحَا بِثِفَالِهَا وَتَلْقَحُ كِشَافًا ثُمَّ تَحْمَلُ فَتَقْتَمِ
فَتُنَلِّلُ لَكُمْ مَا لَا تُغْلُ لِأَهْلِهَا قَرَى بِالعِرَاقِ مِنْ قَفِيْزٍ وَدَرَمِ

ثم عاد إلى رجليه فحضى في مدحهما على ما رأيا من صدع لم يحدثاه، ووصف
هم ابن ضمضم بالجناية وعزمه عليها :

وكان طوى كشعاً على مستكنة فلا هو أباها ولم يتجمع
وقال ساقضى حاجتى ثم أتقى عدوى بألف من ورأى ملجم
فشد ولم تفرع بيوت كثيرة لدى حيث ألت رحلها أم قشم
لدى أسد شاكى السلاح مُقذِفٍ له لِبَسِدٍ أظفاره لم تُقَلِّم
رعوا مارعوامن ظمئهم ثم أوردوا غماراً تسيل بالراح وبالدم
فقضوا منايا بينهم ثم أصدروا إلى كلاءٍ مُستَوْبِلٍ متوخمٍ
ثم غلبت عليه نزعته الإنسانية وطبيعته الفلسفية فوق موقف الحكيم يتبرم
بالحياة ويفكر في الموت ويعظ بالتجارب :

رأيت المنايا خبْط عشواء من تصب تمته ومن نُحْطِءٍ يعمر فيهرم
ومن هاب أسباب النساء يئانه ولو نال أسباب السماء يسلم
ومن يجمل المعروف من دون عرضه يفره ، ومن لا يتقى الشتم يشتم
ومن يجمل المعروف في غير أهله يمد حده ذماً عليه ويندم
ومهما تكن عند امرىء من خليقة وإن خالها تخفى على الناس تُعلم
وكائن ترى من معجب لك شخصه زيادته أو نقصه في التكلم
لسان الفتى نصف ، ونصف فؤاده فلم يبق إلا صورة اللحم والدم
وإن سفاه الشيخ لا حلم بعده وإن الفتى بعد السفاهة يحلم

الأعشى

نشأته وصيافته

هو أبو بصير ميمون بن قيس بن جندل أحد أمراء الشعر المتكسبين به القائلين في أكثر ضروبه . نشأ باليمامة في قرية تسمى منفوحة ، وثقف الشعر من طريق الرواية على خاله المسيب بن علس ، حتى إذا حصف عقله وارتاض لسانه ، انتجع أطراف البلاد وغشى أبواب الملوك بمدحهم ويستجديهم . وفد على بنى عبد المدان ملوك نجران فأكرموا ثوابه وأجزوا إعطائه ، واكتسب من خلاطهم إدمان القمار ، والتأثر ببعض الأفكار ، فظهر شيء من ذلك في شعره ولا سيما وصف الخمر . وطال عمر الأعشى حتى ابيضت عيناه من الكبر . وسمع بأمر الرسول صلى الله عليه وسلم فصنع في مدحه قصيدة وعزم الرحلة إليه بالحجاز ، فأوجس القرشيون خيفة من إسلامه : وقال لهم أبو سفيان : والله لئن أتى محمداً أو اتبعه كيهضرنَّ منَّ عليكم نيران العرب بشعره ، فاجمعوا له مائة من الإبل ، ففعلوا ، وأخذها الأعشى ورجع ؛ حتى إذا دنا من اليمامة سقط من فوق ناقته فدقت عنقه .

شعره

من الرواة وذوى البصر بالشعر من يجعل الأعشى رابعاً لأمريء القيس وزهير والنابة . ويقولون : أشعر الناس امرؤ القيس إذا ركب ، وزهير إذا رغب ، والنابة إذا رهب ، والأعشى إذا طرب . وهذا وإن كان موضعاً للخلاف يدل على مكانة الرجل . وفي الحق أنك تجد في شعره مالا تجد في شعر غيره من رونق الحسن ، وطلاوة الأسلوب ، والبراعة في وصف الخمر والإجادة مع الطول . . . وكان شعره جلبةً في السمع وروعة في النفس وأثر في الناس ، فسمى لذلك صنّاعة

العرب . ولقد أعز بشعره وأذل ؛ وقصته مع الخلق^(١) ، وفَرَقَ القرشيين من إسلامه يدلان على ذلك .

نموذج من شعره

من جيد شعره قصيدته اللامية التي عدها بعضهم من المعانيق ومطلعها :
ودّع هريرة إن الركب مرتحل وهل تطيق وداعاً أيها الرجل ؟
ومنها :

أبلغ يزيد بنى شيبان مألكة أبا ثبيتٍ أما تنفكُ تأكل
أست منهمياً عن نحت أثلتنا ولست ضائرها ما أطت الإبل
كناطحٍ صخرة يوماً ليوهنا فلم يضرها وأوهى قرنه الوعل
لقد زعتم بأنا لاقتلكم إنا لأمثالكم ياقومنا قتلُ
قالوا الطراد ، فقلنا تلك عادتنا ، أو تنزلون فإننا معشر نزلُ

ومن قصيدته التي أعدها مدح الرسول قوله :

ألم تفتمض عيناك ليلة أرميدا وبت كما بات السليم مسهداً
وما ذاك من عشق النساء وإنما تناسيت قبل اليوم خلة مهدياً
ولكن أرى الدهر الذي هو خائن إذا أصلحت كفاى عاد فأفسدا
شباب وشيبٌ وافتقار وثروة فله هذا الدهر كيف ترددا !

(١) الخلق رجل من مغورى العرب وفقرائهم ، كان أبا لثماني بنات هوالس لم يتقدم لخطبتهن أحد لكان أبين من الخول والفقير . فاقترحت عليه امرأته أن يضيف الأعمى عليه يعيد بذكره في شعره لئيبه . فأضافه ونحر له ناقة على فئره ، فدحه الأعمى بقصيدة بليغة مر شىء منها في النماذج وألندما في عكاظ فلم يرض عام حتى لم تبق جارية من بناته إلا وهى زوج لسيد كريم .

ومنها :

فأليت لا أرثي لها من كلاله ولا من وجى حتى تلاقى محمدا
متى ماتناخي عند باب ابن هاشم تراحي وتلقى من فواضله ندى
نبي يرى مالا يرون وذكره أغار لعمرى في البلاد وأنجدا
له صدقات ما تُقبُّ ونائل وليس عطاء اليوم يمنعه غدا

عنترۃ العبسى

نسأته وهياته

هو أبو المغلس عنترۃ بن عمرو بن شداد العبسى ، نَجَلَهُ أب شريف وأم حبشية تدعى زُبَيْبَةَ ، فهو من هُجَنَاء العرب وأغرَبْتَهُمْ ، فانتفى منه أبوه منذ ولادته على عادتهم في أبناء الإمام ، ولكنه نزع بنفسه عن حال العبودية ، وأخذ يروض نفسه على الطراد والفروسية حتى غدامسُ حرب وقائد كتيبة . وانفق أن بعض أحياء العرب أغاروا على عبس فاستاقوا إياهم ، وتبعهم العبسيون وعنترۃ فيهم . فقال له أبوه : كرتُ يا عنترۃ . فأجابه وهو يحقد عليه استعباده إياه : ألعبد لا يحسن الكرتُ ؛ وإنما يحسن الحلب والضرَّ . فقال : كرتُ وأنت حرٌّ . فسكرتُ وقاتل قتالا شديداً حتى هزم المنيرين واسترجع الإبل ، فاستلحقه أبوه . وأخذ اسمه منذ يومئذ يسير وذكره يطير حتى أصبح مضرب المثل في الإقدام والجرأة . وله في تعليل شهرته وشجاعته رأى حصيف لا بأس بذكره . قال له قائل : أنت أشجع الناس وأشدهم ، فقال له : لا . قال فماذا شاع لك هذا في الناس ؟ قال : كنت أقدمُ إذا رأيت الإقدام عزماً ، وأحجم إذا رأيت الإحجام حزماً ، ولا أدخل موضعاً لا أرى لى منه مخرجا . وكنت أعتد الضعيف الجبان فأضربه الضربة الهائلة يطير لها قلب الشجاع فأمنى عليه فأقتله .

قاد عنتره كتائب عبس في حرب داحس والغبراء فأحسن القيادة ، وبلغ
أوج السيادة . ثم تنفس به العمر حتى وهن عظمه ورق جلده وقتل حوالى
سنة ٦١٥ م .

شعره

لم يرو عن عنتره في حال رقّفه من الشعر جيد ولا ردى . لأن العبودية
ترين على القلوب وتطفىء ضرام العواطف ، فلما استلحقه أبوه وحالفه الفوز في حربه ،
واستولى حب عبلة على قلبه ، جاش الشعر في صدره وجرى على لسانه في الفخر
والحرب والحب ، وجاء بالمعجب المطرب . تجد لشعره حلاوة الغزل ومثانة الفخر ،
إلا أن أكثره مدخول النسب لا يمتُّ إليه إلا بتشابه الأسلوب والفرض . فن
شعره الذى لا دخل في أصله معلقته الرقيقة الفخمة التى نظمها دفاعاً عن شاعريته
وإثباتاً لفصاحته : فقد حدثوا أن رجلاً من عبس سابه فذكر سواده وأمّه . فقال
له عنتره : « إني لأحضرُ البأس ، وأوفى المغمم ، وأعف عند المسألة ، وأجود بما
ملكك يدى ، وأفضل الخطة الصماء » . فقال له الساب : « أنا أشعر منك .
فقال : ستعلم ذلك . ثم غدا على الناس بمذهبه المشهورة فقطع خصمه ونقض حكمه .

نموذج من شعره

قال من معلقته :

ولقد شربت من المدامة بعدما ركذ الهواجر بالمشوف الملم
فإذا سكرت فإننى مستهلك مالى ، وعرضى وافر لم يكلم
وإذا صحت فلا أقصر عن ندى وكأ علمت شمائلى وتكرمى
ومدجج كره الكماة نزاله لا مُعمن هرباً ولا مستسلم
جادت يداى لهُ بماجل طعنةٍ بمثقب صدق الكعوب مقوم

فشككت بلرمح الأسم ثيابه ليس الكريم على القنا بمجرم
فتركته جزر السباع يئسنيه يقضن حسن بنانه والمعصم
لما رأيتُ القومَ أقبلَ جمهم يتذامرونَ كررتُ غيرَ مذم
يدعون عنتر والرماح كأنها أشطان بئر في لبنان الأدهم
ما زلت أرميهم بثغرة نجره ولبانه حتى تسربل بالدم
فازوراً من وقع القنا بلبانه وشكا إلى بعبرة وتحمض
لو كان يدري ما المحاوره اشتكى ولسان لو علم الكلام مكلمى
ولقد شفى نفسى وأبرأ سقمها قيلُ الفوارس وبك عنتر أقدم!
والخيل تفتحم الغبار عوابساً ما بين شيطمة وأجرد شيطم
وقال أيضاً :

بكرت تحوفى الختوف كأننى أصبحت عن غرض الختوف بمعزل
فأجبتها إن المنية منهل لا بد أن أسقى بكأس المنهل
فأقنى حياءك لأبالك واعلمى أنى امرؤ ساموت إن لم أقتل
إن المنية لو تمثل مثلت مثلى إذا نزلوا بضنك المنزل
إنى امرؤ من خير عبس منصباً شطرى ، وأحى سائرى بالمنصل
وإذا السكتية أحجمت وتلاحظت أقيت خيراً من معم نحول
والخيل تعلم والفوارس أنى فرقت جمعهم بضربة فيصل
والخيل ساهمة الرجوه كأنما تسقى فوارسها تقيع الخنظل
ولقد أبيت على الطوى وأظله حتى أنال به كريم المائل

طرفة بن العبد

نشأته وحياته

نشأ طرفة بن العبد بن سفيان البكري يتيماً من أبيه ، فكفله أعمامه . فأهملوا تربيته وأساءوا أدبه . فشب ميالاً إلى الدعة والتبطل ، عاكفاً على اللهو والخمر ، مولعاً بالوقوع في أعراض الناس . وقد دعاه نزع الشباب أن يهجو الملك عمرو بن هند على اضطرابه إلى رصائه ، وافتقاره إلى حباؤه . فاحتقدها عليه عمرو وأضمر له سوء . حتى إذا جاءه مع خاله المتلمس يستجديان فضله - وكان المتلمس قد هجاه أيضاً - هش للقائهما يريد أن يؤمنهما ، وأمر لكل منهما بصلة وأحالهما بكتابين على عامله بالبحرين ليستوفياها منه . فلما كانا في طريقهما إلى العامل ، داخل المتلمس من الصحيفة وسواس وهمٌّ ، فالتس من يقرأها له فإذا فيها : « باسمك اللهم ، من عمرو بن هند إلى المكعبر ، إذا أتاك كتابي هذا مع المتلمس فاقطع يديه ورجليه ثم ادفنه حياً » فألقى الصحيفة في النهر ، ثم قال لطرفة : معك والله مثلها . فقال : كلا . ما كان ليكتب لي مثل ذلك . وأخذ وجهه حتى أتى العامل بالبحرين فقتله وعمره ست وعشرون سنة^(١) .

شعره

كان طرفة منذ الحداثة متوقد الذهن ، مضطرم الشعور ، حاد البادرة ؛ فنبغ في الشعر وعُد من نحوه وهو دون العشرين . ولكنه كعمرو بن كلثوم لم يشتهر إلا بمعلقتة . ولعله كان مكثراً وجهل الرواة أكثر شعره . يمتاز طرفة بصدق

(١) بدليل قول أخته الحرقن تربيته :

عددنا له ستا وعشرين حجة فلما توفاهما إستوى سيداً نلما
شعنا به لما رحونا إياه على خير حال لا وليد ولا فحما

الوصف ، والبعد عن الغلوفيه ، إلا أنه كان معقد التراكيب مبهم المعنى غريب اللفظ ، وتجذ ذلك كله وانحما في معلقته التي ابتدأها بالفضل ، واستطرد إلى وصف ناقته فوصفها بخمسة وثلاثين بيتاً من عيون الشعر ومبتكره ، ثم أمعن بعد ذلك في الفخر بنفسه ، وهي من أمتن الشعر وأبلغه ، وهالك تحليلها بإيجاز .

تحليل صورهز لمعلقته

ابتدأها طرفه بذكر أطلال (خولة) وتشبيهاً ببقية الوشم في ظاهر اليد ؛ ثم وقف بها وقفة قصيرة تخيل فيها قباب الحبيبية غداة ظعنها فوصفها وصفاً موجزاً ، ثم نعتها هي نعتاً جميلاً هاج في صدره المم فنجما من تذكاره واحتضاره على ناقة وصف أعضاءها وأوضاعها في إسهاب وإغراب وإجادة :

وإني لأمضي المم عند احتضاره بهوجاء مرقال تروح وتفتدى
تُبَارِي عتاقاً ناجياتٍ ، وأتبعْتِ وظيفاً وظيفاً فوق مورٍ مُعْبِدٍ
مُهَابِيَّةُ المثنون مُوجِدَةُ القرا بعيدة وخذ الرّحل موارة اليد
وَأَتَلَعُ نَهَاضٌ إِذَا صَعَدَتْ بِهِ كسكّانٌ بُوَصِيٍّ بدجلة مُصْعَدِ

ثم يفرغ لنفسه فيصفها باللهو في السلم وبالخطاطرة في الحرب فيقول :

إذا القوم قالوا : من فتى ؟ خلت أني عنيت فلم أكسل ولم أتبدل
ولست بجلال التلاع مخافة ولكن متى يسترفد القوم أرفد
فإن تبغني في حلقة القوم تلتقي وإن تلتمسنى في الحوانيت تصطد
وما زال تشرابي الخور ولدت وبيني وإنفاق طريقي ومُتَلَدِي
. أن تحامتنى العشيرة كلها وأفردت أفراد البعير للعبد
رأيت بني غرباء لا يفكرونني ولا أهل هناك الطراف المدد

ألا أيهدا الزاجرى أحصرَ الوغى وأن أشهد اللذات هل أنت مُخَلدِي؟
فإن كنت لا تستطيع دفع منيتي فدعى أبادرها بما ملكت يدي
ثم يعلن في صراحة وصدق أن غايته من الدنيا إنما هي الخمر والحب والنجدة ؛
ولولا هذه اللذات الثلاث ما رغب الحياة ولا رهب الموت .

ولولا ثلاث هن من عيشة الفقى لعمرك لم أحفل متى قام عُودِي
فمنهن سبق الماذلات بشرية كُسميت متى ما تُعلّ بالماء تزيد
وتقصير يوم الدجن والدجن معجب بهكفة تحت الخباء المعمد
وكرّى إذا نادى المضاف مُجَنَّباً كسيد الغضى ذى السورة المتورد

ثم بدعوه استمجاله اللذة ومبادرته اللهو وإتلافه المال واقتحامه الخطر انتهزاً
لفرصة الحياة واستمتاعاً بقصر العمر إلى نوع من الفلسفة في البخل والموت فيقول :

أرى قبرَ نَحَامٍ بخيل بماله كقبر غوىّ في البطالة مفسد
أرى الموت يعتام الكرام ويصطفى عقيلة مال الفاحش المتشدد
أرى العيش كنزاً ناقصاً كل ليلة وما تنقص الأيام والدهرُ ينفد
لعمرك إن الموت ما أخطأ الفقى لكما الطول المرخى وثنياه باليد
متى ما يشأ يوماً يقوده لحنفه ومن يك في جبل المنية ينفد
ويعضى الشاعر بعد ذلك زارياً على ابن عمه ، شاكياً من ظلم قومه ،
مفتخراً بحسن بلائه وقوة عزمه :

فألى أرائى وابن عمى مالكا متى أذن منه ينأ عنى وببهد
وظلم ذوى القربى أشد مضاضة على النفس من وقع الحسام المهند
أرى للموت أعداد النفوس ولا أرى بعيداً غداً ، ما أقرب اليوم من غدا

أنا الرجل الضربُ الذي تعرفونه خشاشُ كُرأس الحية المتوقد
إذا ابتدر القوم السلاح وجدتنى منيعاً إذا بليتُ بقائه يدي
فلو كنتُ وغلاً في الرجال لصرننى عداوةُ ذى الأصحاب والمتوحد
ولكن نفي عنى الرجال جراتى عليهم وإقدامى وصدقى ومحتدى
ستبدي لك الأيام ما كنت جاهلاً وبأيتك بالأخبار من لم تزود

عمرو بن كلثوم

نشأته وهبائه

نشأ عمرو بن كلثوم بن مالك التغلبي بالجزيرة الفراتية بين ذوى الحسب اللباب من تغلب ، وشبَّ على خلال العظماء عزيزَ النفس أبيض الضمير ذرِبَ اللسان . وما كاد يناهز الخامسة عشرة من عمره حتى كان طريقة قومه وقائد قبيلته . وكان قطعاً لرحا الحروب التي دارت بين بكر وتغلب من جرّاء البسوس وأبلى فيها البلاء الحسن حتى تصالح الحيان لآخر مرة على يد عمرو بن هند أحد ملوك الخيرة من آل المنذر . على أن أمَدَ ذلك الصالح لم يطل ، فاشقت العصا بين وجوههم ونزّت في رؤسهم الحفيظة ، وتلاحوا في محاسن عمرو بن هند ، فقام الحارث ابن حلزة شاعر بكر وألقى معلقته المشهورة فعطفت هوى الملك إلى قومه ، وكانت صلعه مع التغلبيين . فانصرف ابن كلثوم موغراً الصدر على ابن هند . وحدث بعد ذلك أن الملك قال لبعض خاصته : أنعلمون أحداً من العرب تأنف أمه من خدمة أمي ؟ فقالوا لا نعلمها إلا ليلي أم عمرو بن كلثوم ، فإن أباهما مهلهل ابن ربيعة ، وعمها كليب وائل ، وبعلمها كلثوم بن عتّاب فارس العرب ، وانها عمرو بن كلثوم سيد قومه . فأرسل عمرو بن هند إلى عمرو بن كلثوم يستزيه ويسأله أن يزيّر أمه أمه . فأقبل عمرو وأمه من الجزيرة في جماعة من تغلب

وأمر الملك برواقه فضرب ما بين الخيرة والفرات ، وأرسل إلى وجوه مملكته فحضروا . وكان عمرو بن هند قد أغرى أمه أن تستخدم ليلي بنت مهامل في قضاء أمر . فلما دخلت عليها الرواق واطمأن بها المجلس ، قالت لها : ناويلني الطبق . فأجابتها : لتقم صاحبة الحاجة إلى حاجتها . فلما ألحت صاحت ليلي : واذلاه ! فسممها ولدها فثار به الغضب وقتل ابن هند في مجلسه . ثم عاد توأماً إلى الجزيرة فأنشد قصيدته المعلقة . استهلها بذكر الحجر والغزل ، ثم وصف فيها أمره مع عمرو ابن هند ، وافتخر بنفسه وقومه . ولقد تجاوزتها الجامع وتناقلتها الألسنة وأكثر بنو تغلب من إنشادها وروايتها حتى قال فيهم الشاعر .

ألهى بنى تغلب عن كل مكرمة قصيدة قالها عمرو بن كلثوم
يفاخرون بها مذ كان أولهم يالرجال لشعر غير مسؤوم
وكانت وفاته في أواخر القرن السادس للميلاد .

شعره

عمرو بن كلثوم شاعر غمّر البديهة ، رائق الأسلوب ، نبيل الغرض ؛ إلا أنه مُقلٌّ . لم يتقلب في فنون الشعر فلم يرخ العنان لسليقته ، ولم يطع سلطان قريحته . وكل ما روى عنه معلقته وبعض مقطوعات لا تخرج عن موضوعها .

نموذج من شعره

قال من معلقته :

أبا هند فلا تعجل عاينا وأنظرنا نخبرك اليقينا
بأنا نورد الرايات بيضا ونصبرهن حمراً قد رويننا
ورثنا المجد عن عليا معد فطاعن دونه حتى يديننا

كأن سيوفنا منا ومنهم بخاريقٍ بأيدي لا عيننا
ألا لا يجهلن أحد علينا فنجهلَ فوق جهل الجاهلينا
بأى مشيئة عمرو بن هند تطيع بنا الوشاة وتزدرينا؟
فإن قناتنا يا عمرو أعتتْ على الأعداء قبلك أن تلينا
وقد علم القبائل من معدِّ إذا قُببٌ بأبطحها بُيننا
بأنا المطعمون إذا قدرنا وأنا المهلكون إذا ابتلينا
وأنا المانعون لما أردنا وأنا النازلون بحيث شينا
وأنا التاركون إذا سخطنا وأنا الآخذون إذا رضينا
ونشرب إن وردنا الماء صفواً ويشرب غيرنا كدرأ وطينا
إذا ما المملك سام الناس خسفاً أبينا أن نقر الخسف فينا
لنا الدنيا ومن أمسى عليها ونبطس حين نبطش قادرينا
ملاًنا البر حتى ضاق عنا وماء البحر نملأه سفينا
إذا بلغ النظام لنا صبيئاً تحر له الجبابر ساجدينا

الحارث بن حلزة

نشأته وحياته

هو أبو الظليم الحارث بن حلزة اليشكري البكري . كان في بني بكر
مكان عمرو بن كلثوم في بني تغلب . وقد اشتهر مثله بمهلقته التي يقال إنه ارتجلها
عقو الساعة في حضرة الملك عمرو بن هند يستدنى بها عطفه ، وينضح فيها عن
قومه . وكان من أمرها أن بكرأ وتغلب بعد أن وضعوا أسلحتهم أمام عمرو بن هند

على أن يأخذ من الفريقين رهائن ليقيد منها للمبغى عليه من الباغي ، تراشق الحَيان
بائهم^(١) ورمت تغلب بكرةً بالقدر ، وتدافع الفريقان إلى عمرو بن هند وتلاحوا
أمامه ، وكان هواه مع التغلبيين . فاستفز ذلك الحارث بن حلزة - وكان حاضراً -
فابتدأ قصيدته ابتداءً وأنشدها وهو متكئ على قوسه . فيقولون إن كفه اقتطعت
وهو لا يشعر من الغضب . وقد أجاد في مدح الملك حتى استولى على رأيه ، ومال
به إلى حزبه ، واستل من قلبه سخيمة غرسها تهور النعمان بن هرم زعيم قومه .
وعُمر الحارث طويلاً حتى زعم الأصمعي أنه أنشد هذه القصيدة وله من العمر
خمسة وثلاثون ومائة سنة .

شعره

كل ما بين أيدينا من شعره معلقته وبعض مقطوعات يسيرة لاتعلل شهرته
ولا تعين طبقته . فهو في هذا كما قلنا أشبه بطرفة وعمرو بن كلثوم . على أن
مطولته بلغت مكان الإعجاب لإحكام نسجها وتشعب فنونها ، وارتجالها في موقف
واحد . وقد قال أبو عمرو الشيباني . « لوقالها في حول لم يلم » ويقولون . إنه
أنشدها من وراء ستور لبرصه ، فأمر الملك برفعها استحساناً لها وتكرمة له .
بدأها بالغزل ثم وصف ناقته وعير التغلبيين مواقع ظهورها عليهم فيها ، وأتى على
كثير من أيام العرب ، ومدح عمرو بن هند ، وافتخر بقومه وحسن بلائهم عنده .

نموذج من شعره

قال من معلقته :

إن إخواننا الأرقام يعلو ن علينا في قبيلهم إخفاء

(١) وسبب هذه التهم أن الملك بعث في بعض حاجه بركب من تغلب فهلكوا . فادعت
تغلب أن فتيانهم نزلوا على ماء لبكر فشلوا عنه وجلوه على البداء فأتوا عطشاً . وعارضت
بكر بأنهم سقوهم وهدوهم الطريق فضلوا وهلكوا .

يخلطون البريء منأ بذى الذئب ولا ينفع الخلقى الخلاء
أيها الناطق المرّقى عنأ عند عمرو وهل لذك بقاء ؟
لا تخننا على غراتك إنا قبل ما قد وشى بنا الأعداء
فبقينا على الشنأة تنميب -نأ حصون وعزة قعساء
ملك مقسط وأفضل من يه شى ومن دون ما لديه الثناء
أبأ خطة أردتم فأدو ها إلينا تسعى بها الأملاء
فأتركوا الطيخ والتعاشى وإمأ تتعاشوا فى التعاشى اللأء
واذكروا حلف ذى الجاز وما قد م فيه العمود والكفلاء
واعلموا أننا وإياكم فى ما اشترطنا يوم اختلفنا سواء
أعلينا جناح كندة أن يه نم غازيهم وممأ الجزاء ؟
ومنها فى وصف التأهب للرحيل :
أجمعوا أمرهم عشاء فلماً أصبحوا أصبحت لهم ضوضاء
من مناد ومن مجيب ومن تصه مهال خيل خلال ذاك رضاء
ومنها :
لا يقيم العزيز بالبلد السم ل ولا ينفع الذليل النجاء
ليس ينجى موثلاً من حذار رأس طود وحرّة رجلاء
لبيد بن ربيعة

نشأته وحياته

هو أبو عقيل لبيد بن ربيعة العامرى . نشأ ربيب الندى والبأس . فأبوه ربيعة المعتزّين ، وعمه ملاعب الأسنّة فارس مصر . وسبب قوله الشعر أن الربيع

ابن زياد أمير عبس ، وهم أخواله ، دخل على النعمان بن المنذر فذكر بالسوء بنى عامر وهم قومه . فلما دخل العامريون على الملك وعلى رأسهم مُلاعب الأُسفة غضَّ منهم ، وذوى وجهه عنهم ، فنال ذلك من بنى عامر وشق عليهم . وكان لبيد يومئذ صغيراً فسألهم أن يشركوه في أمرهم فاستصغروه . ولما ألح في المسألة أجابوه : فوعدهم أن ينتقم لهم بهجاء الربيع حتى يحول بينه وبين مفادمة الملك . فقالوا له : إنا نبلوك . فقال : وما ذاك ؟ قالوا : نشتم هذه البقلة . وأمامهم بقلة دقيقة القضبان ، قليلة الورق ، لاصقة بالأرض ، تُدعى التَّربة . فقال : « هذه التربة لا تذكى ناراً ولا تؤهل داراً ، ولا تسر جاراً ؛ عودها ضئيل ، وخيرها قليل ، وفرعها قليل أقبح البقول مرعى ، وأقصرها فرعاً ، وأشدّها قلعاً » فأذنوا له فهجاء بأرجوزة مُقذّعة أولها : مهلاً أبيت اللعن لا تأكل معه : الخ .

فنفّر منه الملك ومقته وطرده وأكرم العامريين وأدناهم . قالوا وكان هذا أول ما اشتهر به لبيد . ثم أخذ يقول الشعر قصاره وطواله ، حتى ظهر الإسلام فأقبل على الرسول في وفد من قومه فأسلم ، وحفظ القرآن وهجر الشعر ، حتى زعموا أنه لم يقل بعد الإسلام إلا بيتاً واحداً وهو :

الحمد لله إذ لم يأتني أجلى حتى لبست من الإسلام سر بالاً
ولذلك عدّ جاهلياً وإن عمّر في الإسلام طويلاً .

ولما مُصرت الكوفة ذهب إليها في خلافة عمر وأقام بها حتى توفى في أول خلافة معاوية سنة ٤١ من الهجرة . وقد عاش كما قيل خمسا وأربعين سنة ومائة حتى قال بحق :

ولقد سئمتُ من الحياة وطولها وسؤالِ هذا الناس كيف لبيد

سُعره

كان لبيد ضافى الجود ، وافر اللب ، نبيل النفس ، جم المروءة ، مُشيع

القلب . فسالت أخلاقه وعواطفه في شعره ، وتمثلت معاني الثبل والكرم في نغره ؛ وجاء نظامه نغم العبارة ، منضد اللفظ ، قليل الحشو ، مزداناً بالحكمة العالية والموعظة الحسنة والكلم النوايع . ولعله أحسن الجاهليين تصرفاً في الرثاء وأقدرهم على تصوير عواطف الحزون الصابر بلفظ رائق وأسلوب مؤثر .

وأما معلقته فهي قوية الألفاظ متينة الأسلوب ، تصور حياة البادية وأخلاق البدو ، وتصف هوى النفوس الماجنة ومطمح القلوب الكبيرة .

بدأها بوصف الطلول وذكرى الحبيبة ، ثم أطال في وصف ناقته على نحو ما فعل طرفة ، ثم مضى يصف حياته وملذاته وجوده وبأسه حتى انتهى إلى الفخر بقومه ، وكل ذلك في صدق وإخلاص وقصد .

نموذج من شعره

قال في معلقته :

| | |
|------------------------------|-----------------------------|
| إنا إذا التقت الجامع لم يزل | منا ليزازُ عظيمة جشامها |
| ومقسّم يمطى العشيرة حقها | ومقدّمٍ لحقوقها هضامها |
| من معشر سنّت لهم آباؤهم | ولكل قوم سنّة وإمامها |
| لا يطبعون ولا يبور فعالمهم | إذ لا تميل مع الهوى أحلامها |
| فانفع بما قسم المليك فإنما | قسم الخلائق بيننا علامها |
| وإذا الأمانة قُسمت في معشر | أوفى بأوفر حفظنا قسامها |
| فبني لنا بيتاً رفيعاً سمكه | فسما إليه كهلمها وغلالمها |
| وهم السعاة إذا العشيرة أفضمت | وهم فوارسها وهم حكامها |
| وهم ربيعٌ للمجاور فيهم | والمرمات إذا تطاول عامها |

وقال يرثي أخاه إريد .

بلىنا وما تبلى النجوم الطوالع وتبقى الديارُ بعدنا والمصانعُ
وقد كنت في أكنافِ جارِ مَضِنَّةً ففارقني جارٍ بأربدٍ نافع
فلا جزع إن فرق الدهر بيننا فكل امرئٍ يوماً به الدهر فاجع
وما الناس إلا كالديارِ وأهلها بها يوم خآوها وراحوا بلاقع
وما المرء إلا كالشهابِ وضوئه يحور رماداً بعد إذ هو ساطع
وما المال والأهلون إلا ودائع ولا بد يوماً أن تردَّ الودائع
وما الناس إلا عاملانِ فعاملٌ يُتَبَّرُ ما بيني وآخر رافع
فمنهم سعيد آخذ بنصيبه ومنهم شقي بالمعيشة قانع
لعمرك ما تدرى الضوارب بالحصي ولا زاجراتُ الطير ما الله صانع

حاتمُ الطائي

نِسْأته وميَّاته

حاتم بن عبد الله بن سعد بن الحشرج الطائي توفي أبوه وهو وليد فنشأته أمه وكانت كثيرة المال ، نفّاحة اليدين بالنوال ، لا تليق مما تملك شيئاً . فحجج عليها إخوتها وحبسوها سنة عليها تذوق طعم البيّوس ، وتدرّك فضل الغنى . فلما أطلقوها وملكوها قطعة من مالها أتتها امرأة من هوازن مستجديّة فنحّتها إليها وقالت : مسنى من الجوع ما آليت معه إلا أمتع سائلاً شيئاً .

ربّته هذه الأم الوهوب ، فورّثته هذا الخلق وغذته بلبانه ، فشبَّ على الندى يهترُّ له ويفلّو فيه حتى بلغ منه حد السفه . فكان وهو غلام عند جدّه يُخرج طعامه ، فإذا وجد من يؤاكله أكل وإلا طرّحه . فسأه منه هذا التبذير فألقه

بالإبل ، فر به ذات يوم عبيد بن الأبرص وبشر بن أبي خازم والنايفة الذبياني وهم في طريقهم إلى النعمان فاستقروا ، فنحز لكل منهم بعيراً وهولاً يعرفهم. فلما تسموا له فرق فيهم الإبل وكانت قرابة ثلاثمائة ! وجاء جدّه مبتهجاً يقول له : « طوقتك مجد الدهر طوق الحمامة » وحدثه بما صنع ، فقال له : إذن لأساكنك . فقال : إذن لا أبالي . ثم قال من أبيات :

وإني لعفُّ الفقر مشترك الغنى وتارك شكل لا يوافقك شكلي
وأجمل مالي دون عرضي جنةً لنفسى وأستغنى بما كان من فضلي
وما ضرني أن سار سعدٌ بأهله وأفردني في الدار ليس معي أهلي

وفشا ذكر حاتم في الجود ، وجرت سماحته مجرى للثل ، وروى عنه في ذلك الأعاجيب وأكثرها من صرف الحديث ^(١) . وما سبيل الرواة في أخبار حاتم في الجود إلا سبيلهم في أشعار أمية في الدين ، وعنقرة في الحماسة ، وأبي العتاهية في الزهد ، وأبي نواس في الجون : يفتعلون الشيء من ذلك لغرض من الأغراض ثم يمزونه إلى من هو أشبه به من هؤلاء .

(١) نفس عليك من تلك الأخبار خيراً يسند إلى إحدى زوجتيه النوار أوماوية؛ ويمتاز ببلاغة تمبيره وحسن تصويره ، وهو أشبه شيء بقصيدة لجوجو في ديوانه (سير الدهور) عنوانها (الناس الفقراء) Les Pauvres gens وقد ترجمتها وكتابتها : (غنمات من الأدب الفرنسي) قالت الراوية :

« أصابتنا سنة اشعرت لها الأرض واغبر أفق السماء . وراحت الإبل حدبا حدابير ، وضنت المراضع على أولادها فما تبس بقطرة . وحلقت السنة المال وأيقنا بالهلاك . فانا لني ليلة صنر ببيدة ما بين الطرفين إذ تضاعف صبيتنا جوعاً : عبد الله وهدى وسفانة ، فقام حاتم إلى الصبيين وقت أنا إلى الصبية . فواقه ما سكتوا إلا بعد هدأة من الليل . وأقبل يطلبي بالحديث فعرفت ما يريد ، فنناومت . فلما تهورت النجوم إذا شيء قد رفع كسر البيت ثم عاد فقال . من هذا ؟ فقالت أنا حارثك فلانة . أنا أتيك من عند صبية يتعاونون هواء الذئب من الجوع . فما وجدت مولا لإهلك أبا عدى ! فقال احملهم فقد أشبعك الله وإياهم . فأقبلت المرأة تحمل إنثيين ويمشى جانبها أربعة كأنها نملة حولها رثالها فقام إلى فرسه فوجأ لبته بمدية ، نحر ؛ ثم كشف عن جلده ودفع المدية إلى المرأة فقال لها : شأنك . فاجتمعنا على اللهم لسوى وتأكل =

وكان حاتم كما قال ابن الأعرابي مظمراً . إذا قاتل غلب، وإذا سابق سبق ،
وإذا ضرب بالقداح فاز . وكان إذا أهل الشهر الأصم (رجب) - وكانت مصر
تمظمه في الجاهلية - نحر كل يوم عشرة من الإبل فأطعم الناس واجتمعوا إليه .
ثم بنى حاتم على النوار ثم على ماوية بنت عفزر إحدى بنات الملوك من
اليمين ، فولد له منهما عبدالله وسفانة وعدي ؛ وقد أدرك هذان الإسلام فأسلما .
ولم يزل حاتم على حاله في إطعام الطعام وإنهبا المال حتى مضى لسبيله
سنة ٦٠٥ م .

أضمرقة

كان حاتم على خلق عظيم قل من أوثقه في الجاهلية : كان طويل الصمت
رقيق القلب جم المروءة لم يقتل قط واحداً أمه ، ولم يظلم ضعيفاً من بني عمه :
فإني وحدتي ربّ واحدٍ أمّه أجرتُ فلا قتلٌ عليه ولا أسر
ولا أظلم ابن العم إن كان إخوتي شهوداً وقد أودى بإخوته الدهر
وقد وصفته سفانة ابنته يوم قامت بين يدي الرسول صلى الله عليه وسلم ترجو
أن يخلى عنها وهي سبيّةٌ قالت : كان أبي يفك العاني ويحیی الذمار ويقرى
الضيف ويفرج عن المسكروب ويطعم الطعام ويقشئ السلام ولم يرد طالب حاجة
قط . فقال لها الرسول (ص) يا جارية هذه صفة المؤمن ، لو كان أبوك إسلامياً
لترحمنا عليه . خلوا عنها فإن أباهما كان يحب مكارم الأخلاق .

== ثم جعل يعنى في المي يأتهم بيتاً بيتاً فيقول : هبوا أيها القوم اعليكم بالنار . فاجتمعوا
والنفع في ثوبه ينظر إلينا ، فوافقه ماذاق منه مضغة ولأنه لأحوج إليه منا . فاصبحنا وما على
الأرض من الفرس إلا عظم وحافر . . وموضع المشقة في هذا الصنيع أن حاتم كان يجود بكل
شيء ما عدا فرسه وسلاحه .

شعره

لاجرم أن اللسان ترجمان القلب ، والشعر مرآة الشعور . وما قدمناه لك من أخلاق حاتم تجده متمثلاً في شعره ، مؤثراً في قرّضه ؛ فلفظه سهل رقيق ، وأسلوبه محكم وثيق ، وغرضه سامٍ شريف ، على غير مانعٍ في شعراء البادية . ولذلك قال ابن الأعرابي : « جوده يشبه شعره » ومعنى ما يقول أنه غزير البحر فياض بالأمثال والحكم الداخلة في باب الجود والعذل فيه ، وجمال الذكر والحرس عليه . وما ترى من التفاوت في شعره إنما يرجع إلى كثرة المدسوس عليه والمنسوب زوراً إليه ، وهو من شعراء الطبقة الثانية . وقد جمع شعره في ديوان وطبع بليدني وبيروت .

نموذج من شعره

قال من قصيدته له :

| | |
|---------------------------------|--------------------------------|
| ويبقى من المال الأحاديث. والذكر | أماوىّ إن المال غاد ورايح |
| وإما عطاء لا ينهنه الزجر | أماوىّ إما مانع فبين |
| إذا حشرجت يوماً وضاق بها الصدر | أماوىّ ما يغنى الثراء عن الفقى |
| من الأرض لأماء لدى ولا خمر | أماوىّ إن يصبح صدأى بقفرة |
| وأن يدي مما بخلت به صفر | ترى أن ما أنفقت لم يك ضررى |
| فأوله شكر وآخره ذكر | أماوىّ إن المال إما بذلته |
| أراد ثراء المال كمان له وفر | وقد يعلم الأتوام لو أن حاتما |

وقال أيضاً :

تحلم عن الأذنين واستبق ودم
ولن تستطيع اللحم حتى تحلما

ونفسك أكرمها فإنك إن تهين
عليك فإن تلقى لها الدهر مكرما
أهين في الذي تهوى التلاد فإنه
يصير إذا مامت نهبها مقسما
قليلاً به ما يحمدنك وارث
إذا ساق مما كنت تجمع مغنما
متي ترق أضغان العشيبة بالأني
وكف الأذى يحسم لك الداء محسما
وعوراء قد أعرضت عنها فلم تضر
وذى أود قومته فقومما
وأغفر عوراء السكريم اذخاره
وأعرض عن شتم اللثيم تسكرما
ولن يكسب الصعلوك مجد اولاغنى
إذا هو لم يركب من الأمر معظما
لما الله صعلوكاً مناه وهمه
من العيش أن يلتقى لبوساً ومظما
ومن معانيه الجميلة قوله :

إذا كان بعض المال رباً لأهله فإني بحمد الله مالى معبّد

أمية بن أبي الصلت

نشأته وميانه

أبو عثمان أمية بن أبي الصلت الثقفي كان يمارس التجارة طوال عمره ،
فتارة إلى الشام وتارة إلى اليمن . وكان مفطوراً على التدين ، فلقى في بعض أسفاره
بعض القسيسين والرهبان فسمع شيئاً من الأسفار الأولى فالتمس الدين ولبس
المسوح وحرّم الخمر وشك في الأوثان وطمع في النبوة ، وقال في دين إبراهيم .
كل دين يوم القيامة عند الله إلا دين الحنيفة زور

فلما بعث الرسول صلى الله عليه وسلم سقط في يده وكفر به حسداً وقال :
إنما كنت أرجو أن أكونه . فنزل فيه قوله تعالى : (وَأَنْتَ عَلَيْهِمْ نَبَأٌ الَّذِي
آتَيْنَاهُ آيَاتِنَا فَانْسَلَخَ مِنْهَا فَاتَّبَعَهُ الشَّيْطَانُ فَكَانَ مِنَ الْغَاوِينَ) . ثم أخذ

يخرض على الرسول ويرثى قتلى أعدائه في واقعة بدر ، فنهى عن رواية شعره في ذلك . وكان إذا سمع الرسول شعره في التوحيد يقول : آمن لسانه وكفر قلبه . ثم فرّ أمية بابنته إلى أقصى اليمن وعاد إلى الطائف فعلقته هناك أوهاقُ المنية . وقد قال لما أخذته غشية الموت وأفاق منها : لمبيكاً لمبيكاً ! هأنذا لديكِ لآمال يفديني ، ولا عشيرة تنجيني ! إن تغفر اللهم تغفر جما ، وأمىٌ عبدك لا ألما ؟ ثم أقبل على من حضر وقال .

كل عيش وإن تطاول دهرأ منتهى أمره إلى أن يزولا
ليتني كنت قبل ما قد بدالى فى رءوس الجبال أرعى الوعولا
اجعل الموت نصب عينيك واحذر غوالة الدهر ، إن للدهر غولا

وأكثر تاريخ هذا الشاعر من زور الحديث وتلفيق الرواة .

شعره

انصرفت قريحة أمية إلى المعانى الدينية فاشتهر بها أمره ، واصطبغ بها شعره ، فوصف الله وجلاله ، وذكر الحشر وأهواله ، ونعت الجنة والنار والملائكة ، ونظم حوادث التوراة كخراب سدوم وقصة اسحق و ابراهيم ، وأدخل في الشعر معانى وأساليب ، وفي اللغة ألفاظاً وتراكيب ، لم يألفها الشعراء ولم يعرفها العرب بعض ذلك من العبرية وبعضه من محدثاته . فكان يسمى الله عز اسمه بالشطليط والتغرور ، والسماء بالصاقورة والحاقورة ، ويزعّم أن للقمر غلافاً يدخل فيه يوم الخسوف اسمه الساهور ؛ ولذلك كان اللغويون لا يجتجرون بشعره .

ومذهب ابن أبي الصلت في شعره لم يهد في عصره ، فنحله العلماء ماجاء على شاكلته ولم يعرفوا قائله . ورواة الشعر يمدونه في الطبقة الأولى ، ولكن ما بين أيدينا من شعره لا يؤيد هذا الرأي ، فإن أكثره قلق اللفظ سخيف

النسيج نأبي القافية ، إلا أن يكون الزمان قد عنى على أجوده . فقد قال الحجاج على المنبر : « ذهب قوم يعرفون شعر أمية ، وكذلك الدراس الكلام » .

نموذج من شعره

قال يعاتب ابناً له كان قد عقه :

غذوتك مولوداً ومُنْتِك يافعاً تُعَلِّبُ بما أجنى عليك وتنهل
إذا ليلة نابتك بالشجو لم أبت لشكواك إلا ساهراً أتأمل
كأنى أنا المطروق دونك بالذى طرقت به دونى ، فعينى تهمل
تخاف الردى نفسى عليك وإنى لأعلم أن الموت حتم مؤجل
فأما بلغت السنّ والغاية التى إليها مدى ما كفت فيك أو مل ،
جعلت جزأى غلظة وفضاظة ، كأنك أنت المنعم المتفضل

ومن قوله :

الحمد لله مُمَسَّانَا وَمُصْبِحَنَا بالحمد صبَّحنا ربى ومسَّانا
رب الخليفة لم تفسد خزانته مملوءة ، طَبَّقَ الآفاق سلطانا
ألا بى لنا منا فيخبرنا ما بعد غابتنا من رأس محيانا
وقد علمنا لو أن العلم ينفعنا أن سوف يلحق أحرانا بأولانا

نشأة الخط في بلاد العرب

الخط مظهر من مظاهر الحضارة ، وأثر من آثار الاجتماع والتجارة . لذلك كان أسبق الأمم إليه المصريون والفينيقيون . وأجهل الناس به البدويون ، فلم يعرفه العرب إلا في الجهة التي عرفتها الحضارة وارتقت فيها العمارة وهي اليمن . كان اليمنيون يستعملون خطأً يسمونه المسند باسم لغتهم ، يكتبونه حروفاً منفصلة ويزعمون أن الوحي نزل به على كاتب هود . ولكن المكتشفات الأثرية وعلم مقارنة اللغات أثبتت أن الخط الفينيقي مصدر الخطوط السامية ، وأن الآرامى والمسند بأنواعه^(١) مشتقان منه ، ومن الآرامى اشتق الخط النبطى فى حوران ، والسطرنجىلى السريانى فى العراق ، وهذان الخطان هما الأصلان للخط العربى ، فمن الأول تولد الشكل النسخى ، ومن الثانى تولد الشكل الكوفى ، وكان يعرف قبل الإسلام بالخيرى نسبة إلى الخيرة . وقد تعلم عرب الشمال الأول أثناء رحلاتهم إلى الشام ، وتعلموا الآخر من الأنبار : تعلمه بشر بن عبد الملك الكندى أخو أكيدر بن عبد الملك الكندى صاحب دومة الجندل ؛ وخرج إلى مكة فصاهر حرب بن أمية جد معاوية ، فعلمه جماعة من القرشيين فكثرت من يكتبه منهم . ولما مضرت الكوفة^(٢) وشاع استعماله فى الكتابة على مسجدها وقصورها ناله شيء من النظام والزخرف فسمى بالكوفى .

(١) أنواع الخط المسند هى الصفوى والثمودى والعباسى فى الشمال ، والحيرى فى الجنوب .
(٢) أمر بتصيرها الخليفة عمر حين رأى العرب قد أكتفت وجوههم وخذتتها وخومة المدائن ودجلة : أمر سعد بن أبى وقاص أن يرتاد العرب منزلاً برىاً بحرياً لا يحول بينه وبينهم فيه بحر ولا جسر . فوق اختياره على موضع الكوفة فعسكر به فى الحرم سنة ١٨ هـ . ثم أذن الخليفة أن يبني بيوتاً من القصب فأحرقته ، فأعاد بناءها باللبن من إذنه . وفى هذا العام نفسه بنيت الأبلية بالبصرة وقد نزلها المسلمون سنة ١٤ هـ ، فصار البليدان منذ يومئذ مركزين حربيين تجاريين لهما فى تاريخ الإسلام والأدب مكان ظاهر .

| | |
|-----------------------|---|
| عربی جدید | ا ب ج د ه و ز ح ط ظ ع ی ک ل م ن س ه ر و ف ی و م ر ن |
| عربی اوکروف | ا ب ج د ه و ز ح ط ظ ع ی ک ل م ن س ه ر و ف ی و م ر ن |
| نظمی | ا ب ج د ه و ز ح ط ظ ع ی ک ل م ن س ه ر و ف ی و م ر ن |
| حظر نیمیل | ا ب ج د ه و ز ح ط ظ ع ی ک ل م ن س ه ر و ف ی و م ر ن |
| فینیق | ا ب ج د ه و ز ح ط ظ ع ی ک ل م ن س ه ر و ف ی و م ر ن |
| آزای | ا ب ج د ه و ز ح ط ظ ع ی ک ل م ن س ه ر و ف ی و م ر ن |
| مصری العامه دیو طریق | ا ب ج د ه و ز ح ط ظ ع ی ک ل م ن س ه ر و ف ی و م ر ن |
| مصری الخاصه مصری طریق | ا ب ج د ه و ز ح ط ظ ع ی ک ل م ن س ه ر و ف ی و م ر ن |
| مصری مقدس شیروغلیق | ا ب ج د ه و ز ح ط ظ ع ی ک ل م ن س ه ر و ف ی و م ر ن |

الباب الثاني

عصر صدر الإسلام والدولة الأموية

الأدب الإسلامي

هوامله ، مصادره ، أنواعه ، طبائنه

تركنا العصر الجاهلي والجزيرة العربية يهدر جوفها من ضرم الحياة هدير
الجميم المكظوم . وزيد بجوفها الحجاز بعد ما خمد النشاط العربي في الجنوب
باستيلاء الفرس على اليمن ، وفي الشمال بإلغائهم إمارة اللخمييين في العراق ، فارتد
تيار النهضة العربية إلى الحجاز وتدفق في مدنه ، ولاسيما مكة ؛ لأن مكة يومئذ
كانت مثابة العرب لوجود البيت ، ومعقل العرب لاعتصامها بالصحراء من النفوذ
الأجنبي ، وجمع الثروة لوقوعها في طريق القوافل الآتية من الجنوب تحمل متاجر
الهند واليمن إلى الشام ومصر ؛ فهي سوق تجارية ومحجّة دينية يؤمها العرب من
أطراف الجزيرة يشترى منها السلع الأهلية والأجنبية ، ويقضون مناسك الحج ،
ويشهدون موسم عكاظ ، ويتذوقون في ظلال الأشهر الحرم — وهي الهدنة العامة
المقدسة — نعمة السلام ولذة الهدوء ، ويصلون بينهم ما قطعت أسنة الرماح في الغارات
والحروب . وكانت قریش قطب الرحال هذه الحركة الدينية والاقتصادية والاجتماعية
لولايتها على الكعبة ، ورياستها في عكاظ ، وزعامتها في التجارة ، وغناها من الإبلان ،
وتقلبها في البلاد ، وتمرسها في الأمور ، وصلتها بمختلف الشعوب ، فأخضعت العرب
لسلطانها بالدين والشرف والمال ، وفرضت عليهم لغتها وأدبها ، فكادت اللهجات
بفضائها تتحد ، والقلوب بدليلها تتجه نحو غاية واحدة . وكان اليهود في يثرب واليمن
فوق نشاطهم الصناعي والزراعي يشيرون أكل الربا وينشرون تعاليم التوراة

وأخبار النبوات . وكانت النساطرة واليعاقبة من المسيحيين يبشرون بالإنجيل ، ويدعون إلى الحياة الأخرى ، ويحملون معهم تأثير اليونان والرومان في الفلسفة والتشريع ، ويهيبون الأذهان لكلمة الله . وكان الشعراء ينتقلون من سوق إلى سوق ، ومن ماء إلى ماء ، ينشدون أهازيج الحماسة على أوتار العصبية ، فيؤرثون نار العداوة والخلاف بين القبائل من جهة ، ويذيعون وحدة الخلق والعادة واللغة من جهة أخرى ، ويمهدون للنفوس الرغيبة السجينة سبيل النهوض إلى الغاية التي يدعوهم إليها الله . ثم كان الأعراب في قفار البادية يفتك بهم الجهل والجدب والحرب ، ويعانون إلى ذلك عنف الكبراء ، وأثرة الشيوخ ، وفقد الأمن ، وتوزع الثروة على مقتضى السيادة والقوة . ناهيك بما يقاسونه في أرزاقهم من فحش الربا وأكل الشحنت وتطفيف الكيل وكلب الزمان . فكان من جرأء هذه المادّية القبيحة ، والطبيعة الشحيحة ، والنظام الفاسد ، أن تهيات الطبائع السليمة إلى حياة أرق ومثل أعلى مما هم فيه . ولكن العرب كما قال ابن خلدون : « أصعب الأمم انقياداً بعضهم لبعض ، للانغلة والأنفة وبعد الهمة والمنافسة في الرياسة ، فقلما تجتمع أهواؤهم . ومن أجل ذلك لا يحصل لهم الملك إلا بصيغة دينية من نبوة أو ولاية أو أثر من الدين على الجملة » . وكان ذلك فعلاً طريق الإصلاح الذي خرج منه العرب إلى العالم ليبلغوه الرسالة ويحكموه ، فقد كان ظهور الإسلام في ذلك الحين نتيجة محتومة لتلك الحال ، ونقضاً صريحاً لتلك الحياة . تعرف ذلك جلياً من تسمية القرآن للدين بالإسلام ولما قبله بالجاهلية . ففي تلك التسمية كل الفروق بين الحياتين والعقليتين في المبدأ والغاية ، إذ الجهل معناه السفه والحية والأنفة — وهى ملاك الأخلاق في الجاهلية ، والإسلام معناه السلام والتسامح والانقياد إلى الله — وهى قوام الدين الجديد الذى يقول : (وعباد الرحمن الذين يمشون على الأرض هوناً ، وإذا خاطبهم الجاهلون قالوا سلاماً) . وبمعنى ذلك قول عمرو بن الأهمم يفاخر الأحنف بن قيس ، وقد (م — ٦ — تاريخ الأدب العربى)

اجتمعاً للرياسة بين يدي عمر بن الخطاب : « إنا كنا وأنتم في دار جاهلية ، فكان الفضل فيها لمن جهل ، فسفكنا دماءكم ، وسبينا نساءكم ؛ وإنا اليوم في دار الإسلام والفضل فيها لمن حلم . فغفر الله لنا ولك » فغلب على الأحنف . فالإسلام إذن قد قلب العقلية العربية قلباً ، وشن على الجاهلية حرباً ، ورسم للاجتماع مثلاً أعلى يخالف ما ألفوه ، ويناقض ما عرفوه .

فالشجاعة ، والشهامة ، والكرم الموفى إلى السرف والتلف ، والتفاني في الإخلاص للقبيلة ، والقسوة في الانتقام ، والثأر ممن تعدى على النفس أو على الأهل بالقول أو بالفعل ، هي أصول الفضائل عند الجاهلية . أما الإسلام فقد جعل المثل الأعلى للإنسان الخضوع لله والانقياد لأمره ، والقناعة والتواضع ، ومجانبة التكاثر والتفاخر ، ثم الصبر . وقد قال الله تعالى : « إن أكرمكم عند الله أتقاكم » وقال الرسول صلى الله عليه وسلم في خطبة الوداع : « إن الله تعالى قد أذهب عنكم نخوة الجاهلية ونخرها بالآباء . كلكم لآدم ؛ وآدم من تراب . ليس لعربي على عجمي فضل إلا بالتقوى » فمات بذلك العصبية القومية والجنسية ، وأصبحت السيادة للدين لا للنسب ، والإخاء في الله لا في العصب . وهذا التغيير في العقلية يستلزم حتماً تغير ما يصدر عنها من فكر وتصوير وقول : فالشاعر الذي كان يستلهم شيطانه قصائد المفاخرة والمنافرة والهجاء ؛ والخطيب الذي كان يستقطر من لسانه سموم العداوة والبغضاء ؛ والفارس الذي كان يرتع ليله ونهاره في الدماء والأشلاء ؛ والرئيس الذي كان يعيش على امتياز الرؤساء ؛ والفني الذي كان يتجبر ويثرى بدماء الفقراء ، وقفوا جميعاً صامتين منصفين لدعوة الإسلام لا يقولون ولا يفعلون إلا ما يأمر به الله أو يقره الرسول . وأصبح القرآن والحديث دستور الأمة ، يسنان الشرائع ، ويرسمان الآداب ، ويهدبان الأخلاق ، ويُقرَّان في القلوب المشتركة المحرمة كلمة التوحيد وحقيقة البر ، ويضيفان نظماً جديدة للأسرة والأمة تغاير

ما كان عليه العرب من قبل ، وتسائر ما سيكونون عليه من بعد . فضاقت دائرة الشعر في عهد الرسول لموت العصبية وقوة الروح الدينية ، وانضوت الخطابة تحت لواء القرآن تدعو إليه ، وتقابل الوافدين عليه ، وتسير على هديه وتمتس من نوره . واقتضت الدعوة الكبرى نظام الرسائل فنشأت على نمط جديد . وقلّت الأمية لحاجة الدين إلى الكتابة وتشجيع النبي عليها بعد موقعة بدر ، ونقل الدواوين كلها إلى العربية . وأخذ المعادون للدين يمارضون القرآن ويجادونه ، والموالون له يحفظونه ويدارسونه . ودعا اتساع رقعة الإسلام إلى استنباط أصول الأحكام من مصادر الدين ، والاجتهاد بالرأى فيما لم يرد فيه نص . فتجلى صفاء العقيدة العربية ذات المنطق الموهوب فيما قضى به علي وعمر وزيد بن ثابت وعبدالله بن عباس وعبدالله ابن مسعود وأبي بن كعب ومعاذ بن جبل؛ وازدادت هذه الروح الفقهية المنطقية صفاء وجلاء بعد ذلك فيما شجر من الخلاف بين العلويين والأمويين والخوارج على أثر الخصومة بين علي ومعاوية .

على أن من العلو أن تقول إن تعاليم الإسلام قد بلغت إلى كل نفس وأثرت في كل قلب حتى يكون تغير العقلية العربية تاماً من كل وجه ، فإن ذلك إن صدق على السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار الذين أسلموا قبل الفتح لا يصدق على من أسلم من بعده ، ولا على الأعراب المتمردين بطبيعتهم على كل قيد من دين أو قانون أو سلطان ، فكانوا لجفائهم وغلظ قلوبهم أشد كفرًا ونفاقًا وأجدر ألا يعلموا حدود ما أنزل الله على رسوله . وكان من زعمائهم من يقبل على الإسلام كقيس بن عاصم ، لا على أنه الدين الحق ، ولكن على أن يكون له الأمر بعد الرسول . وقال النبي صلى الله عليه وسلم : « إن مثلي ما بعثني به الله من الهدى والعلم كمثل غيث أصاب أرضاً ، فكان منها طائفة طيبة قبلت الماء فأنبتت الكلأ والشب الكثير . وكان منها أجادب أمسكت الماء فنفع الله به الناس فشربوها وسقوا وزرعوا . وأصاب طائفة منها أخرى إنما هي

قيمان لا تمسك ماء ولا تنبت كلاً» . ومصدق هذا الحديث الكريم ثابت في بقاء البدو على نزعتهم الجاهلية من مهاجمة وحية شراب ، وحدوث الردة على أثر وفاة الرسول ، وشيوع الفناء والشراب والغزل في مدن الحجاز ، وانبعاث العصبية ونزاعها بين القحطانيين والعدنانيين ، وبين الهاشميين والأمويين ، واشتدادها في عهد بني أمية . وهذا يفسر لنا بقاء الشعر الأموي على نمط الشعر الجاهلي في طريقته وطبيعته دون أن يتأثر بروح الإسلام لا كثيراً ولا قليلاً ، إذ كان جمهور الشعراء إنما يصدر عن البادية ويعبرون عن نوازي العصبية في الأحزاب والقبائل .

* * *

لم يكن تأثير الإسلام في العقلية العربية والفنون الأدبية آتياً من جهة عقيدته وشريعته وروحه فحسب ، وإنما أثر فيها كذلك من جهة ما نشأ عنه من الفتوح والنزاع على الإمامة . فمن أثر الفتوح خروج العرب من جزيرتهم إلى الجهاد ، وانتشارهم في مختلف البلاد ، واستيلائهم على ممالك كسرى وقيصر ، وامتزاجهم بالأجناس المتعددة ، وتأثرهم بالمذنبات والعقليات المختلفة ؛ فقد فتحوا العراق وهو وارث حضارة قديمة وموطن أمم عظيمة ونجّل كثيرة ، ومصر وافية بالبصرة والكوفة . وفتحوا فارس وهي إحدى الدولتين اللتين حكمتا العالم القديم يومئذ وأثرتا في عقله وأهله . وفتحوا الشام وقد سادت فيه الثقافة الرومانية والديانة النصرانية بعد ما خاف فيه الفينيقيون والكنعانيون والمصريون واليونان والغسانيون آثاراً ظاهرة في العادات والاعتقادات والنظم ؛ وفتحوا مصر وهي مهد المدنية والفن ، ومجمع الحضارتين اليونانية والرومانية ، ومُلْتقى الفلسفتين الشرقية والغربية ؛ وفتحوا بلاد المغرب إلى جبل طارق ، ثم ما وراء النهر إلى كاشغر . وسكان هذه الممالك يرجعون إلى أصول سامية وحامية وآرية ، ويدينون بأديان سماوية وأرضية ، ويتكلمون بلغات فارسية وقبطية وعبرية وسريانية ويونانية

ولاتينية ، فأخضعهم العرب إخضاعاً مادياً وأدبياً وروحياً من طريق الفتح واللغة والدين ، وخضع العرب لهم خضوعاً عقلياً وجنسياً باقتباس مدنياتهم وعقليتهم وجنسياتهم من طريق المجاورة والمصاهرة والاسترقاق ، وكان من ذلك التفاعل هذا الامتزاج العجيب الذي تولدت منه العلوم الشرعية والفنون الأدبية والحضارة الإسلامية التي طبقت الأرض ومهدت لرقى الإنسان الحديث .

هذا أثر الفتوح . وأما أثر الخصومة في الإمامة فذلك الجدل العنيف بين الفرق الأربع التي نجمت عن الخلاف في الخلافة بين علي ومعاوية ، ذلك الجدل الذي اتسع به أفق الذهن العربي بالاحتجاج والاستنتاج ، إذ كان اعتماده على تأويل القرآن ، وافتعال الأحاديث ، واستخدام الشعر في إثارة العصبية وتخيير الرسائل في القضايا السياسية والوصايا الدينية ، وعقد المناظرات وإلقاء الخطب . ففي الحجاز حزب يؤيد ابن الزبير ، وفي الشام حزب يعضد بنى أمية ، وفي العراق الشيعة يدعون إلى بيت الرسول ، والخوارج ينكرون ويكفرون هؤلاء جميعاً ولكل حزب من هذه الأحزاب كما قلت رأى في الخلافة ، ونظر في الدين ، وحجة من الكتاب والسنة . وعدة من الخطابة والشعر . وحسبك أن تقرأ بعض جدلم في الطبري والعقد الفريد وشرح النهج لابن أبي الحديد والكمال للمبرد ، لتعلم أثر هذا الخلاف في عقلية العرب ، وأثر هذه العقلية في فنون الأدب . نستخلص مما تقدم أن أهم العوامل المؤثرة في الأدب الإسلامي هي : خود العصبية الجاهلية في عهد الرسول ، ثم استعمارها في عهد بنى أمية ، ونشوء الروح الدينية ، وتغير العقلية العربية ، وتحسن الأحوال الاجتماعية والاقتصادية ، وظهور الأحزاب السياسية ، واتساع الفتوح الإسلامية ، وتأثير الأمم الأجنبية بلغاتها وعاداتها واعتقاداتها وأدبها ، ثم أساليب القرآن والحديث ، والمأثور الصحيح من الشعر الجاهلي والأمثال . وقد أجملت القول في آثار هذه العوامل اعتماداً على تفصيلها حينما نعرض لسكل فن على حدة ، فلندع ذلك الآن ولننتقل إلى مصادر الأدب الإسلامي .

مصادر الأدب الاسلامى

نستطيع أن نحصر هذه المصادر فى القرآن ، والحديث ، والأدب الجاهلى ، وما نقل من الأدب الأجنبى .

١ - القرآن الكريم

القرآن أول كتاب دوّن فى اللغة العربية ؛ فدراسته ضرورية لتاريخ الأدب ؛ لأنه مظهر الحياة العقلية والحياة الأدبية عند العرب فى أواخر القرن السادس وأوائل القرن السابع للمسيح . وهو واضح النثر الفنى ومنبع المعانى والأساليب والمعارف التى شاعت فى أدب ذلك العصر . نزل بأسلوب بديع لا عهد للآذان ولا للأذهان بمثله ؛ فلا هو موزون مقفى ، ولا هو سجع يتجزأ فيه المعنى فى عدد من القمّر ، ولا هو مرسل يطرّد أسلوبه دون تقطيع ولا تسجيع ؛ إنما هو آيات مفصلة متزاوجة يسكت عندها الصوت ويسكن الذهن لاستقلالها بالمعنى وانسجامها مع روح القارىء ووجدانه . فلما سمعه العرب وهم زعماء القريظ وأمراء البيان أكرهه وأنكروه ، وعجزوا عن أن يردوه إلى نوع من أنواع الكلام المعروفة ؛ فقالوا مضطربين : إنه شعر شاعر أو فعل ساحر أو سجع كاهن . ووصفهم إياه بأنه نوع من هذه الأنواع التى تشترك فى فتنة العقل دليل على فمله القوى فى نفوسهم .

والقرآن باعباره كتاباً أحكمت آياته ثم فصّلت من لدن حكيم خبير ، لا يجرؤ النقد البيانى على أن يطير فى جنباته ، وبعباره معجزة الرسول تحدّى به العرب أن يأتوا بسورة من مثله ، تورع المسلمون عن أن يقلدوه فراراً من تهمة المعارضة ، وتزيتهاً لكلام الخالق أن يتشبه به كلام المخلوق . ومما لا ريب فيه أن بعض المشركين والمتنبئين قد عارضوه إبطالاً لحجته ، أو انتهاجاً لخطته ، على نحو ما ورد عن مسيلة : « يا ضفدع نقى ما تفقىن ، فلا الماء تكدرين ، ولا الشارب

تمنعين » ، ولكن الرواة أغفلوا ذلك إما تورعاً وإما ترفعاً ، كما فعلوا بمعارضة ابن المقفع والمتنبي وأبي العلاء إن صح أنهم فعلوا ذلك . وهناك طائفة من متأخري الكتاب حاولوا الجري على أسلوب القرآن إعجاباً به فاحركوا في النفوس غير السخر والضجر لنزولهم عن رتبته وعجزهم عن لحاقه فكفوا . ولذلك لم يكن تأثير القرآن كبيراً من جهة إحدائه مذهباً كتابياً يتبعه الناس ويدور عليه النقد . أما تأثيره القوي فكان في نقله النثر من تلك الجمل القصيرة المسجوعة المفككة إلى تلك الصور الأنيقة التي تقرأها في أحاديث الرسول وخطبه وكتبه ، وفي خطب الصحابة والتابعين ورسائلهم : جمل متزاوجة ، متناسقة ، متطابقة ، متبخيرة الألفاظ ، حسنة التأليف ، رائعة التشبيه ، منطقية الغرض ، تنفذ من العقل والقلب إلى الصميم . كذلك أثر في النثر بوضعه المثل للمعالجة القصص والوصف والاشتراع والجدل المنتج والموعظة الحسنة ، واستجدائه ألفاظاً وتراكيب وموضوعات لا يعرفها العرب ، فطلت آيؤه على طوال القرون قوة للخطيب وحلية للمنشئ ، برصع بها كلامه فتميز بطلاوتها ونفاستها كما تتميز اللؤلؤة الفريدة في عقد من الجزع .

أسلوبه

نزل القرآن منجّاً في نحو ثلاث وعشرين سنة على حسب ما يعرض من الحوادث ؛ منها ثلاث عشرة سنة في مكة نزل في خلالها ثلاث وتسعون سورة ، وعشرة بالمدينة بعد الهجرة نزل فيها إحدى وعشرون . هذه السور الأربع عشرة ومائة تختلف في موضوعها وأسلوبها باختلاف الزمان والمكان والحدث ، فكان من الحوادث والقضايا ما ينزل فيه الآية والآيات ، ومنها ما ينزل فيه السورة . وكان الصحابة يحفظون أو يكتبون ما ينزل كلاً على حدة ، فلم يكن القرآن إذ ذل خاضعاً لقانون التأليف من وحدة الموضوع ووحدة الأسلوب وعقد الأبواب على مقتضى الأغراض ، وإنما تجمّع على هذه الصورة ودون بعد وفاة الرسول تبعاً

لما كان يجده الكاتبون أولاً فأولاً محفوظاً في الصدور أو مسطوراً في الصحف. ثم رتب بوجه التقريب على حسب الطول والقصر لا على حسب تنزيله ولا على حسب موضوعه ، فتكررت بعض القصص لتأكيد الإنذار أو لتشابه الأسباب ، وتَشَتَّتْ وحدة الموضوع والأسلوب لنزوله متفرقاً في مكانين مختلفين وأزمان متراخية وأغراض متجددة ، وهو في ذلك يختلف عن التوراة والإنجيل .

تشمّل السور المكية - وهي ثلثا القرآن - على أصول الدين وتشمّل المدنية على أصول الأحكام . وأصول الدين جُماعها الإيمان بالله ورسوله واليوم الآخر ، والالتزام بالمعروف والانتفاء عن المنكر ؛ وهي أمور تتصل بالعاطفة والوجدان ؛ فالدعوة إليها والحث عليها يقتضيان الأسلوب الشعري القوي الموثق الفعال بالقلب بقصصه الواعظة ، وحكمه البالغة ، وأمثاله السامية ، ووعده الخالب ، ووعيده المخيف ، ولذلك تجد أسلوبها قصير الآى ، كثير السجع ، رائع التشبيه ، قوى المجاز . وأما أصول الأحكام من عبادات ومعاملات فهي موضوع السور المدنية ، والتعبير عنها يقتضى الأسلوب المحكم الجزل الهادى ؛ وهدوء البيان يستلزم طول الجمل ، وتفصيل الآى ، ووضوح الغرض . على أن القرآن لا يصطنع في التشريع أساليب الفقه ولا تعريفات القانون ، وإنما يسوق الأحكام في معارض الدعاية والهداية ، لأن قصده الأول إنما هو إعلان التوحيد وإظهار الدين ، وتطهير القلوب من أضرار الضلالة والجهالة والشرك ؛ ولأن الدولة الجديدة لم تكن في عهد الوحي من الاتساع وتشعب الاجتماع بحيث تطلب التشريع المفصل .

إعجازه

تناصرت الأدلة وانعقد الإجماع على أن القرآن معجز ، وإنما الخلاف في سبب إعجازه . فمن قائل إنه شرفُ الغرض ، وتنوع القصد ، والإخبار بالغيب . ومن قائل إنه الفصاحة الرائعة ، والمذهب الواضح ، والأسلوب الموثق

ونحن إلى هذا الرأي أميل . فإن القوم الذين تُحدُّوا به لم يكونوا فلاسفة ولا فقهاء حتى يكون معجزهم عن الإتيان بمثله معجزة ؛ إنما كانوا بُلغَاء مَصَادِعَ ، وخطباء مَصَاقِعَ ، وشعراء فحولاً . وفي القرآن من دقة التشبيه والتمثيل ، وبلاغة الإجمال والتفصيل ، وروعة الأسلوب ، وقوة الحجاج ، ما يُعجز طَوَّقَ البشر ، ويرى المعارضين بالسُّكَّات والخُصْر .

لغته

لغة قريش هي الأصل في لغة القرآن ، لأن النبي وُلد فيها وبُعث منها ، ولأن لغتها تفضل سائر اللغات بحلاوة الجرس ودقة الوضع وإحكام النظم ، وقبيلتها تشرف سائر القبائل بجوار البيت وسقاية الحاج وعمارة المسجد ، ولكنه نزل كذلك بلغة بني سعد بن بكر ؛ لأن الرسول (ص) استرضع فيهم ، وهي إحدى لغات المعجز^(١) من هوازن وأفصحها ، لقوله صلى الله عليه وسلم : أنا أفصح العرب بيد أي من قريش ، وأنى نشأت في بني سعد بن بكر .

وجاء في القرآن بعض ألفاظ من لغات عربية أخرى كقوله تعالى « لا يلبثكم من أعمالكم شيئاً » أي لا يفتقكم بلغة بني عيس . ثم وقع فيه من غير لسان العرب أكثر من مائة كلمة ترجع إلى لغات الفرس والروم والنبط والحبشة والعبران والسريان والقبط ، كالجبت والاستبرق والسندس والتسطناس والزنجبيل ، وقد صقلها العرب على لسانهم ، وأجروها على أوزانهم ، فصارت بذلك عربية .

أغراضه ومعانيه

علمت أن من القرآن منازل بمكة ومنه ما نزل بالمدينة . فالسكى من سورة يشتمل على أهم ما جاء الرسول من أجله : ففيه توحيد الله بذكر صفاته وتمجيد

(١) يقال لهؤلاء أيضاً هليا هوازن ؛ وهم سعد بن بكر ونصر بن معاوية ونقيف : وفيهم يقول أبو عمرو بن العلاء ، أفصح العرب هليا هوازن وسفلى تميم .

آياته ، وتأيد الرسول بتحدى المكابرين ، وضرب الأمثال بأحوال الغابرين ، ورفض الأوثان وما يتصل بها من عادات واعتقادات ، وإثبات اليوم الآخر وما يتعلق به من جنة ونار وتبشير وإنذار ، ثم الإذن لرسول الله أن يجاهد الشرك بالسيف .
وأما المدنى منها فيمتاز بوصف المعازى وذكر أسبابها ، وما يستفيده المؤمنون من نتائجها وأعقابها ، وسن الشرائع الدينية كالصلاة والزكاة والصوم والحج ، والاجتماعية كالأحوال الشخصية والمعاملات المدنية والحقوق الجنائية ، وما تستنبه من قصاص وحدود ، وفي كل ذلك ترى الألفاظ مؤتلفة مع المعانى ، والمعانى متفقة مع الأغراض ، اتفاقاً دونه الفن والمنطق وليس فوقه إلا قدرة الله

تأثيره

شغل المسلمون بالقرآن وفرغوا له ؛ فكان دعاءهم فى المسجد ، ونظامهم فى البيت ، ومنهاجهم فى العمل ، ودستورهم فى الحكومة . فسرى هديه فىهم مسرى الروح ونزل وحيه منهم منزلة الطبع ، وأثر فى ألسنتهم وأفئدتهم وأنظمتهم مالم يؤثره كتاب سماوى آخر فى أهله . فأما تأثيره فى اللغة وأدبها - وهو ما يعنيننا الآن ذكره - فبأنه خالط من القوم قلوباً قاسية فالأنها ، وطباعاً جافية فأرقها ، وأحلاماً طافية فأقرتها ، فسكسب ذلك اللغة عذوبة فى اللفظ ، ورقة فى التركيب ، ودقة فى الأداء ، وقوة فى المنطق ، وثروة فى المعانى ، ووسع دائرة اللغة باستحداثه الألفاظ الدينية كالصلاة والزكاة والقيام والركوع والسجود والوضوء والمؤمن والكافر الخ ، واقتضائه علوماً جديدة كالنحو والصرف والاشتقاق لدفع اللحن عنه ، والمعانى والبيان والبيدع لتقرير الإعجاز فيه ، وعلمى اللغة والأدب لتفسير غريبه وتوضيح مشكله ، والحديث والأصول والفقه والتفسير لاستنباط أحكام الشرع منه . وهو الذى ضمن بقاءها تلك القرون العديدة ، ونشرها فى مجاهل الأصقاع البعيدة ، مصداقاً لقول الله تعالى :
« إِنَّا نَحْنُ نَزَّلْنَا الذِّكْرَ وَإِنَّا لَهُ لَحَافِظُونَ » وحفظ القرآن يستلزم حفظ لفته .

قراءاته

لم يكن امتزاج اللغات ولا اتحاد اللهجات تاماً من كل وجه عند انبثاق نور الإسلام^(١)؛ وإنما بقي على نواحي الألسنة لُحُونٌ مختلفة كالفتح والإمالة، والإظهار والإدغام، والمد والقصر، وتحقيق الهمز وتخفيفه، وترقيق الحرف وتفخيمه، وضم الهاء والميم في نحو عليهم وإليهم. فلما نزل القرآن بلغة قريش وطبقتهم لم يستطع من عداهم من العرب أن يتغلبوا في الزمن اليسير على الفطرة اللغوية، واللهجة الأمية، فقرأوه بلحونهم وأقرهم^(٢) الرسول على ذلك تيسيراً للقراءة وتسهيلاً على الناس.

فلما اختيلت الألسنة، واضطربت السلائق، وزاغت القلوب بعد اتساع الفتوح وانتشار العرب وانشعاب الفرق، نشأ من جهلهم بالهجاء، ومن شدة اختلافهم في المنطق والأداء، ومن جرأة ذوى العاقل والمرء، قراءات لم تظاهرها العربية ولا صحة السند ولا رسم المصحف، فتجرد قوم في المائة الأولى لضبط القراءات وحصر وجوهها وتبيين مذاهبها، وجعلوها علماً كما فعلوا يومئذ بالحديث

(١) يدل ذلك على ذلك خطب الوفود الذين وفدوا على الرسول (ص) فقد بلم من اختلافها عن لغة قريش أن قال على (رضه) لرسول الله وقد سمعته يخاطب وفد بني نهد: يا رسول الله نحن بنو أب واحد ونراك تسكلم وفود العرب بما لم نفهم أ كثره ا فقال عليه الصلاة والسلام: أدبني ربي فأحسن تأديبي.

(٢) روى عن عمر بن الخطاب قال سمعت هشام بن حكيم يقرأ سورة الفرقان في حياة رسول الله (ص) فاستمعت لقراءته فإذا هو يقرأها على حروف كثيرة لم يقرئها رسول الله (ص) كذلك، فسكدت أساوره في الصلاة. فصبرت حتى سلم. فلما سلم لبنته بردائه. فقلت من أقرأك هذه السورة التي سمعتك تقرأها؟ قال: أقرأنيها رسول الله (ص) فقلت: كذبت فوأنه إن رسول الله (ص) هو أقرأني هذه السورة. فانطلقت به أقوده إلى رسول (ص) فقلت: يا رسول الله إنى سمعت هذا يقرأ سورة الفرقان على حروف لم تقرئها، وأنت أقرأني سورة الفرقان: فقال رسول الله (ص): أقرأها يا هشام. فقرأ عليه القراءة التي سمعته يقرأها فقال: هكذا أنزلت، ثم قال: أقرأ يا عمر. فقرأت القراءة التي أقرأني رسول الله (ص) فقال: هكذا أنزلت، ثم قال: إن هذا القرآن نزل على سبعة أحرف فأقرأوا ما تيسر منها والمراد بالأحرف اللغات التي تختلف بها لهجات العرب.

والتفسير . واشتهر من هؤلاء ومن الطبقة التي وليتهم سبعة تنسب إليهم القراءات إلى اليوم وهم : أبو عمرو بن العلاء (١٥٤) وعبد الله بن كثير (١٢٠) ونافع ابن نعيم (١٦٩) وعبد الله بن عاصم (١١٨) وعاصم بن بهدلة الأسدي (١٢٨) وحزمة بن حبيب الزيات (١٥٦) وعلي بن حمزة الكسائي (١٨٩) وتلك هي سبع القراءات المتفق على حتمها إجماعا . وهناك ثلاث قراءات تليها في الصحة والتواتر وهي قراءة أبي جعفر المدني (١٣٢) وقراءة يعقوب بن اسحاق الحضرمي (١٨٥) وقراءة خاف بن هشام . وما سوى هذه العشر فشاذا .

صمعه وتدوينه

نزل القرآن منجما كما قلنا في ثلاث وعشرين سنة لوقائع موجبة وأحوال داعية . وأعلن ختامه في السنة العاشرة من الهجرة قبل وفاة الرسول بثلاثة أشهر ، وبعد أن رتبت آياته وتمت سوره ؛ إلا أنها لم تجتمع في مصحف واحد في حياته ، وإنما توفي رسول الله والقرآن إما مسطورا في السُّبب والخاف والأكتاف ، وإماما مذكور على السنة الصحابة . ولما قتل من قرائه سبعون في غزوة اليمامة ، فزع المسلمون وأشفق عمر أن يذهب القرآن بذهاب حُفَاظِهِ ، فتنهدم إلى أبي بكر في جمعه . فتردد الخليفة وقال : « كيف أفعل أمراً لم يفعله رسول الله ولم يعهد إلينا فيه عهداً ا » فإزال عمر يداوره حتى أقنعه . وعهد بذلك إلى زيد بن ثابت أحد كتبة الوحي وصاحب العريضة الأخيرة على الرسول ، لجمعه من السطور والصدور . وكتبه صحفاً أودعت عند أبي بكر وعند عمر من بعده . ثم كانت هذه الصحف في خلافة عثمان عند حفصة بنت عمر زوج النبي . فلما اتسعت رقعة الدولة وانتشر القراء في الأرض اختلفوا في قراءاتهم اختلفاً في لهجاتهم ، ونفر بعضهم على بعض بحسن قراءته وصدق روايته ؛ نفى عثمان أن يختلفوا في دلالاته كما اختلفوا في تلاوته ، فأمر زيد بن ثابت وعبد الله بن الزبير وسعيد بن العاص وعبد الرحمن بن الحارث

ابن هشام ، فمسخوا تلك الصحف في مصحف واحد ورتبوا سورته على الطول والقصر ، واقتصر وافية على لغة قريش لنزول القرآن بها ، وأمر عثمان الناس أن يكتبوا مصاحف من هذا المصحف ، وبعث في كل أفق بواحد منها ، وكانت سبعة فأرسلها إلى مكة والشام واليمن والبحرين والبصرة والكوفة وحبس بالمدينة واحداً ، وهو مصحفه المسمى بالامام ، ثم أمر بجمع ما عدا ذلك فأحرق .

قبس من نوره

قال الله تعالى : « أَتَا مُرُونَ النَّاسَ بِالْبِرِّ وَتَنَسَوْنَ أَنْفُسَكُمْ لَعَسَى أَنْ تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَكُمْ . كَمْ مِنْ فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ . قَوْلٌ مَعْرُوفٌ وَمَغْفِرَةٌ خَيْرٌ مِنْ صَدَقَةٍ يَتْبَعُهَا أَذَى . وَمَثَلُ الَّذِينَ يُنْفِقُونَ أَمْوَالَهُمْ ابْتِغَاءَ مَرْضَاتِ اللَّهِ وَتَثْبِيتهَا مِنْ أَنْفُسِهِمْ كَمَثَلِ جَنَّةٍ بِرَبْوَةٍ أَصَابَهَا وَابِلٌ فَآتَتْ أُكُلَهَا ضِعْفَيْنِ فَإِنْ لَمْ يُصِبْهَا وَابِلٌ فَطَلَّ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ . لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تَحِبُّونَ . وَلَوْ كُنْتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانْفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ . إِنْ يَنْصُرْكُمْ اللَّهُ فَلاَ غَالِبَ لَكُمْ وَإِنْ يَخْذُلْكُمْ فَمَنْ ذَا الَّذِي يَنْصُرُكُمْ مِنْ بَعْدِهِ . مَنْ يَعْمَلْ سُوءًا يُجْزَ بِهِ وَلاَ يَجِدْ لَهُ مِنْ دُونِ اللَّهِ وَلِيًّا وَلاَ نَصِيرًا . قُلْ لاَ يَسْتَوِي الْخَبِيثُ وَالطَّيِّبُ وَلَوْ أَعْجَبَكَ كَثْرَةُ الْخَبِيثِ . مَا عَلَى الْمُحْسِنِينَ مِنْ سَبِيلٍ . إِنْ اللَّهُ لاَ يُغَيِّرُ مَا يَقُومُ حَتَّى يُغَيِّرُوا مَا بِأَنْفُسِهِمْ . قُلْ كُلُّ يَعْمَلُ عَلَى شَاكِلَتِهِ . لِلَّهِ الْأَمْرُ مِنْ قَبْلُ وَمِنْ بَعْدُ . مَا جَعَلَ اللَّهُ لِرِجَالٍ مِنْ قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ . وَلاَ يَحِيْقُ الْمَكْرُ السَّيِّئُ إِلاَّ بِأَهْلِهِ . إِنَّمَا بَغْيَكُمْ عَلَيَّ أَنْفُسِكُمْ ؛ فَمَنْ نَكَثَ فَإِنَّمَا يَنْكُثُ عَلَى نَفْسِهِ ، وَمَنْ أَوْفَى بِمَا عَاهَدَ عَلَيَّهِ اللَّهُ فَسَيُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا . وَلاَ تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلاَ السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذِ الَّذِي بَيْنَكَ

وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ . كُلُّ نَفْسٍ ذَائِقَةُ الْمَوْتِ . كُلُّ نَفْسٍ بِمَا
كَسَبَتْ رَهِينَةٌ . تَحْسَبُهُمْ جَمِيعًا وَقَلُوبُهُمْ شَتَّى . كُلُّ حِزْبٍ بِمَا لَدَيْهِمْ
فَرِحُونَ . وَإِذَا رَأَوْا يَتَذَكَّرُ أَلْسِنَتُهُمْ ، وَإِنْ يَقُولُوا تَسْمَعُ لِقَوْلِهِمْ
كَأَنَّهُمْ خَشَبٌ مُسْتَنْدَةٌ ، يَحْسَبُونَ كُلَّ صَيْحَةٍ عَلَيْهِمْ . فَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ
ذَرَّةٍ خَيْرًا يَرَهُ ، وَمَنْ يَعْمَلْ مِثْقَالَ ذَرَّةٍ شَرًّا يَرَهُ . وَقَضَى رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا
إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ، إِنَّمَا يُبَلِّغُنَّ عِنْدَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا
فَلَا تَقُلْ لَهُمَا آفٌ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُلْ لَهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا . وَأَخْفِضْ لَهُمَا
جَنَاحَ الدَّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُلْ رَبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا . رَبُّكُمْ أَعْلَمُ
بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ إِنْ تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا . وَآتِ
ذَا الْقُرْبَى حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تَبْذُرْ تَبْذِيرًا . إِنْ الْمُبْذِرِينَ
كَانُوا إِخْوَانَ الشَّيَاطِينِ وَكَانَ الشَّيْطَانُ لِرَبِّهِ كَفُورًا . وَإِمَاتُكُمْ عَنْهُمْ
أَبْتِغَاءَ رَحْمَةٍ مِنْ رَبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُلْ لَهُمْ قَوْلًا مَيْسُورًا . وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ
مَغْلُولَةً إِلَى عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَحْسُورًا . إِنْ رَبُّكَ
يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ إِنَّهُ كَانَ بِعِبَادِهِ خَبِيرًا بَصِيرًا . وَلَا تَقْتُلُوا
أَوْلَادَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَاقٍ نَحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِبَائِكُمْ ، إِنْ قَتَلْتُمْ كَانُوا خَطِئًا
كَبِيرًا . وَلَا تَقْرُبُوا الرِّثْمَ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا . وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ
الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَنْ قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِرِثْمِهِ سُلْطَانًا
فَلَا يُسْرِفُ فِي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنْصُورًا . وَلَا تَقْرُبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي
هِيَ أَحْسَنُ حَتَّى يَبْلُغَ أَشُدَّهُ ، وَأَوْفُوا بِالْعَهْدِ إِنْ الْعَهْدُ كَانَ مَسْئُولًا .
وَأَوْفُوا بِالْكَيْلِ إِذَا كَيْلْتُمْ وَزِنُوا بِالْقِسْطِ الْمُسْتَقِيمِ ، ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ
تَأْوِيلًا . وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِ عِلْمٌ ، إِنَّ السَّمْعَ وَالْبَصَرَ وَالْفُؤَادَ كُلُّ

أُولَئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْئُولًا . وَلَا تَمْسِرُ فِي الْأَرْضِ مَرَحًا إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ الْأَرْضَ
وَلَن تَبْلُغَ الْجِبَالَ طُولًا . كُلُّ ذَلِكَ كَانَ سَيِّئُهُ عِنْدَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا .

٢ - الحديث

الحديث هو قول رسول الله أو حكاية فعله أو حديث الصحابة عنه . فهو في المنزلة الثانية من كتاب الله فيما يتعلق بالدين والثقافة ، وأغزر ينابيع التشريع في العبادات والحقوق ، وأقوم طريق يؤدّي إلى فهم القرآن : بوضوح إشكاله ، ويفصّل إجماله ، ويقيد إطلاقه ، ويخصّص عمومه . والأحاديث التي صحت عن رسول الله قليلة ، ولكنها موسومة بطابع البيان والإلهام والعبقريّة ، لنشأته في قريش . واسترضاعه في بني سعد وهي أفصح القبائل العربية ، وتضلعه من لغة القرآن واطلاعه على لغة العرب ، وقدرته الفطرية على ابتكار الأساليب العالية ، ووضع الألفاظ الجديدة لما استحدثت من المعاني الدينية والفقهية ؛ ولكن قيمتها اللغوية ودلالاتها التاريخية لا تسموان إلى مكان القرآن في ذلك ، لأن القرآن كان يدوّنه عند نزوله كتبة الوحي ، وكونه كلام الله جعل الاحتفاظ بنصه فرضاً على المسلمين ، « فمن بدله بعد ما سمعه فإنما إثمه على الذين يبدلونه » . أما الحديث فلم يدون إلا حوالي منتصف القرن الثاني للهجرة ، وكان قبل ذلك إنما يروى من الذاكرة ، والذاكرة كثيراً ما تحون ، فناله من تفسير الكلمات واختلاف الروايات أكثر مما نال الشعر الجاهلي . وزاد في ذلك أن العلماء أجازوا رواية الحديث بالمعنى لاستحالة المحافظة على اللفظ في نقله مشافهة طوال هذه السنين . وقامت الخصومات السياسية ، ونجمت الفرق الدينية ، فاستجاز أولو الأهواء الكذب على الرسول ، فوضعوا ألوف الأحاديث تأييداً لدعوتهم وترجيحاً لنزعتهم . واستباح قوم وضع الأحاديث الموافقة لمبادئ الدين وقواعد الفضيلة . وحببتهم أن الناس لا يأخذون إلا بنص الكتاب أو مأثور السنة ؛ فملأوا

الكتب بأحاديث الترغيب والترهيب وتعدوا ذلك إلى وضعها في فضائل الأشخاص والمدن والسور لدعوة سياسية أو نزعة عصبية أو غاية دينية ، كالأحاديث الموضوعية في فضل قريش على العرب ، وفضل العرب على المعجم ، وتفضيل بعض الصحابة على بعض ، والمنقولة في بعض التفاسير في فضائل السور تزعيماً للناس في دراسة القرآن حين هوا عنه بالفقه والسير . ومن طريق الوضع أدخلوا في الحديث طائفة كبيرة من الحديث المأثورة عن العرب ، والآراء المنقولة عن المعجم ، فأثرت في الخطابة والجدل والشعر تأثيراً غير قليل .

كان عمر وبعض الصحابة لا يرون التوسع في رواية الحديث اتقاء لخطر الوضع وحرصاً على كتاب الله أن يجر هذا الوضع إلى الاختلاف فيه أو الانشغال عنه . وقد قال عمر اقرطبة بن كعب ولمن حوله من الصحابة حين خرجوا إلى العراق : إنكم تأتون أهل قرية لهم دوى بالقرآن كدوى النحل ، فلا تصدوهم بالأحاديث فتشغلوهم . جودوا القرآن وأقلوا الرواية عن رسول الله (ص) . ونظن أن ذلك الخوف هو الذي صرفه أيضاً عن الإشارة يجمع الحديث كما أشار بجمع القرآن حتى لا يكون بجانب كتاب الله كتاب آخر يشاركه العناية ؛ فقد روى الزهري عن عروة بن الزبير أن عمر أراد أن يكتب السنن واستشار أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم فأشار عليه عامتهم بذلك ، فلبث شهراً يستخير الله في ذلك شاكاً فيه . ثم أصبح يوماً وقد عزم الله له فقال : إني كنت قد ذكرت لكم من كتابة السنن ما قد علمتم ، ثم تذكرت فإذا ناس من أهل الكتاب من قبلكم قد كتبوا مع كتاب الله كتباً فأكبوا عليها وتركوا كتاب الله ، وإني والله لا ألبس كتاب الله بشيء .

فكان من جرأ ذلك الخوف هذه الفوضى التي شوهدت جمال الدين ، وموهت حقائق التاريخ ، وساعدت على نشر الفتنة ، ولم يفتنوا إلى درئها إلا حين استفحل الشر وانتشرا الأمر وأصبح الطب لدائها مستحيلاً .

ليس من همّ الأديب أن يعنى عناية الفقيه والنحوى والنحوى والمؤرخ بما نال الحديث من اختلاف وتبديل ، ولا بما نال المحدثين من جرح وتعديل ، فإن الأدب إنما يعتبر الأحاديث صادقها وكاذبها مذهباً من مذاهب القول ومصدراً من مصادر المعنى لها الأثر البالغ فيه . وليس من شك في أن الوضعيين كانوا يقلدون أسلوب الرسول ويتوخون استعمال كلماته واصطلاحاته ، حتى لا يتجدد بين أكثر الأحاديث إلا فرق ما بين صدق النسبة إلى الرسول وكذبها . هذا من جهة الشكل ، أما من جهة الموضوع فإن الأحاديث الصحيحة كانت طريق العلم والإرشاد ، والأحاديث الموضوعة كانت طريق الرأى والاجتهاد ؛ لأنها آراء فردية اجتهادية نسبها أصحابها إلى الرسول لتحل من قلوب الناس محل الثقة ، فكانت طريقاً لبسط الفقه ، وتهذيب الخلق ، ونشر الثقافة ، ونشوء الرأى الجهد بجانب السنة الصحيحة في التشريع .

أسلوب الحديث

الحديث كما يدل عليه اسمه لا يخرج عن هذا النوع العادى للمألوف الذى يملأ كل مجلس ويتناول كل موضوع . ومن مستلزماته عدم التحضير وقلة التفكير واختلافه باختلاف المقامات والأحوال ؛ ولكن أحاديث الرسول وإن كانت فيض الخاطر وعفو البديهة ، يبدو عليها أثر الإلهام وسمّة العبقرية وطابع البلاغة . وأسلوبها أقرب إلى أسلوب عصر النبوة منه إلى أسلوب القرآن ، وإنما يمتاز بإشراق ديباجته واتساق عبارته وتساقق ألفاظه وقفره لأداء معنى واضح معين ، ومطابقة مدلوله لمقتضى الحال ، وملاءمة لغته للغة المخاطب . وأشد ما يكون ذلك ظهوراً حين يخاطب الوفود ، فالرسول يستعمل الغريب ، ويلتزم السجع ، ويذكر ألفاظاً من مهجور اللغات تبعاً لما جرى على لسان الوافدين عليه : من ذلك حديثه مع طهفة بن أبي زهير النهدي ، ومع قميط بن عامر بن المنتفق ، وذلك من حسن أدبه وسمو بلاغته وقوة تأثيره (١) .

(١) أنظر المقدم الفريد ص ١٨١ ج ١ .

أما أكثر الأحاديث فإن عليها رواء الطبع وجمال النبوة ورواق الفصاحة. وللرسول قدرة عجيبة على التشبيه والتمثيل وإرسال الحكمة وإجادة الحوار، وتلك ميزة الرسل من قبل ولا سيما المسيح، لأن المرسلين في مقام المعلمين، وأنجح ما يكون في التعليم طريقة التمثيل والمحاورة، كقوله عليه السلام: « إن المُنْبِتَ لأَرْضاً قَطَعَ ولا ظَهَرَ أبقي . المؤمن هينٌ لئن كالجمل الأنف إن قيد انقاد، وإن أُنبِخ على صخرة استناخ أصحابي كالنجوم، بأيهم اقتديتم اهتديتم لو توكلتم على الله حقَّ توكله لرزقكم كما يرزق الطير : تغدو خصاصاً وتروح بيطانا . مثل المؤمن كالنحلة ، لا يأكل إلا طيباً ولا يطعم إلا طيباً . إنكم لن تسمعوا الناس بأموالكم فسمعوا بأخلاقكم . المؤمن آلف مألوف . ولا خير فيمن لا يألف ولا يؤلف . إنَّ أحبكم إلى وأقربكم مني مجالس يوم القيامة ، أحاسنكم أخلاقاً ، المواطنون أكنافاً ، الذين يأفون ويؤلفون . وإن أفضلكم إلىَّ وأبعدكم مني مجالس يوم القيامة ، الثرثارون المتشدقون المتفهبون . إياكم وخضراء الدَّمْن : المرأة الحسنة في المنبت السوء . المرأة كالضلع إن رُميت قوامها كسرتها . الناس كلهم سواسية كأسنان المشط . جنة الرجل داره . إن قومًا ركبوا سيفينة فاقتمسوا ، فصار لكل رجل منهم موضع ، فنقر رجل منهم موضعه بنأس ، فقالوا له ما تصنع ؟ قال هو مكاني أصنع فيه ما أشاء . فإن أخذوا على يده نجا ونجوا ، وإن تركوه هلك وهلكوا » .

وأثر الأسلوب النبوي فاش في كلام الصحابة وخطبهم ، وعلى الأخص في أسلوب من اشتد خلاطهم به وأكثر روايتهم عنه، كالإمام عليّ وأبي هريرة. فمن قول الإمام عليّ كرم الله وجهه : « ألا وإن الخطايا خيل شمسُ حمل عليها أهلها وحملت لجمها فتقعحت بهم في النار . وإن التقوى مطايا ذلَّ حمل عليها أهلها وأعطوا أزمها فأوردتهم الجنة . حق وباطل ، ولكلَّ أهل . شغل من الجنة

والنار أمامه . ساعٍ سريعٍ نجا ، وطالبٍ بطيءٍ رجا ، ومقصرٍ في النار هوى .
اليمين والشمال مَضَلَّةٌ ، والطريق الوسطى هي الجادَّةُ » .

وأما أبو هريرة فأكثر الناس حديثاً عن الرسول حتى بلغ ما رواه أربعة
وسبعين وثلاثمائة وخمسة آلاف ، أكثر لفظها وأسلوبها له وإن كانت جارية
على أسلوب السنن . وقد ارتاب بعض الصحابة في كثرة ما روى فقال :
« إنكم تزعمون أن أبا هريرة يكثر الحديث عن رسول الله ، والله الموعود .
كفت رجلاً مسكيناً أخدم رسول الله على ملء بطني ، وكان المهاجرون يشغلهم
الصَّفَقُ في الأسواق ، وكان الأنصار يشغلهم القيام على أموالهم ؛ وكنت أزم
رسول الله فأشهد إذا غابوا ، وأحفظ إذا نسوا ! » .

٣ — الشعر الجاهلي

وجد الفخر في القرآن الكريم والحديث الشريف خطة جديدة ومنبعاً
فياضاً فجعلهما دليلاً ومدده ، ومضى في طريق الاستقلال والاكتمال والتطور .
وانتقل الشعر إلى الإسلام مع العرب فلم يجد منه قبولاً حسناً ولا صدرراً رحيباً ،
مخافة من عصبية وجاهليته على وحدة المسلمين وألفة العرب ، فظل ينافق
كالأعراب وهواه كله في البادية ، ينتزع منها أخيلته وطرقه وصوره . وإذن
لا نستطيع أن نفهم الشعر الإسلامي إلا بالرجوع إلى منبئه ومشرعه ، وقد ألمبنا
بالشعر الجاهلي إمامة تفنيناً عن استئناف البحث فيه ، فلننتقل إلى المصدر الرابع وهو :

٤ — الأدب الاجنبي

تقع جزيرة العرب بين مدينتين من أعظم مدينيات العالم وهما : مدينة الفرس
في شرقها ، ومدينة الرومان في غربها ، وبينها وبينهما اختلاط من قديم الزمن

خلف بعض الآثار في اللغة والأدب من طريق التبادل المادى والمعنوى ؛ ولكن هذا الاختلاط أصبح بمد أن فتحهما الإسلام امتزاجاً شديداً تداخلت به اللغات والأفكار والعقائد حتى صار مورداً فياضاً من موارد الأدب ؛ فقد دخل القوم في دين الله ، ودخل كثير من سباياهم في بيوت العرب ، واضطروا إلى تعلم العربية والتكلم بها ، ولكن هؤلاء وأمثالهم لم يغيروا إلا ألسنتهم ، أما أحيائهم وتصوراتهم وتعبيراتهم فقد ظلت على الجملية الأولى : يفكرون بالفارسية أو الرومية ، ويتكلمون أو يكتبون بالعربية ، ولغاتهم مرسومة القواعد ، وآدابهم واضحة المناهج ، وحضاراتهم مشرقة الجوانب ؛ فلم يكن بد من تأثر الآداب العربية بالآداب الأعجمية والعقلية الآرية ، وأظهر ما يكون هذا التأثير في اللغة والتشريع والأخلاق والشعر والرسائل والقصص .

فاللغة قد اتسعت مادتها بما اقتبسته من الألفاظ الفارسية للتعبير عما لم يعرفه البدو في تدوين الدواوين ، وتنظيم الحكومة ، وسياسة الملك ، ومقتضيات الحضارة ، من أداة وطعام وزينة ، ووضعت قواعدها على منهج النحو السرياني ، وقام على ضبطها وبسطها الأعاجم . وقد عقد السيوطى في كتابه المزهرف فصلاً لما أخذه العرب من الفارسية والرومانية والسريانية والقبطية ، ولكن اللغويين خلطوا في ذلك لجهلهم بهذه اللغات ، فنسبوا إلى بعضها ما ليس منها . وغالى الفرس في رد أكثر المعربات إلى لغتهم عصبية أو جهالة ، حتى زعموا أن الرسول تكلم بالفارسية ، ورووا في ذلك حديثين أحدهما قوله : إن جابرا صنع لكم سوراً ، أى ضيافة والآخر قوله . العنبدو ، والتريك : أى في تناو لها مشنى وفرادى . وذلك في تحقيق العلماء لأصله . وقد ذكر الجاحظ في البيان والتبيين أن أهل المدينة عرفوا ألفاظاً من قوم من الفرس نزلوا فيهم ، فيسمون البطيخ : خربز ، والسميط أى المنتوف الصوف : رُوذَق . وإن أهل الكوفة يسمون المسحاة بال ، والسوق : بازار ، وذلك كله فارسي . وقد حكى أبو مهدي الأعراى بعض ألفاظ أعجمية كانت فاشية

للعهد فأنكرها ، وذكر منها على سبيل المثال قوله :

يقولون لى شنبذ ولست مشنبذاً طوال الليالى ما أقام ثبير
ولا قائلًا زودًا ليعجل صاحبي ويشتان فى قولى على كبير
ولا تاركًا لحنى لأتبع لحنهم ولو دار صرف الدهر حيث يدور

والتشريع تأثر فى تفاصيله بفقهاء الرومان ، والأخلاق اعتمدت كثيراً على ما نقل من حكم اليونان عن طريق السريان ، والشعر والذثر قد أخذ يتعاطاها جماعة من الموالى ، كزياد الأعجم ، وأبى العباس الأعمى ، وموسى شهوات ، وإسماعيل بن يسار من الشعراء ؛ وسالم مولى هشام ؛ وتلميذه عبد الحميد بن يحيى ، وصديقه ابن المقفع من الكتّاب . وقد قال أبو هلال العسكري : « من تعلم البلاغة بلغة من اللغات ثم انتقل إلى لغة أخرى أمكنه فيها من صنعة الكلام ما أمكنه فى الأولى . وكان عبد الحميد الكتّاب قد استخراج أمثلة الكتّابة التى رسمها من اللسان الفارسى فحوّلها إلى اللسان العربى » .

وأما القصص ، وهو هنا حكاية التفسير والأثر والخبر تعليماً وموعظة ، فقد شابه شىء مما كانوا يسمونه العلم الأول . ويريدون به ما أخذوه من أخبار الأمم وأحوال الأنبياء ، والنذر الأولى عن أسلم من أهل الكتّاب ، كعبد الله بن سلام الذى أسلم عند هجرة النبي إلى المدينة ، وكعب الأحمق الذى أسلم فى خلافة عمر ؛ أو من الموالى كوهب بن منبه أحد الأبناء الذين عاشوا فى اليمن فعرفوا أخبار اليهود ، واتصلوا بالحبشة فعرفوا أخبار النصارى . وكان هو يعرف اليونانية . فاتسع بذلك علمه ، وكان أول من صنف قصص الأنبياء فى الإسلام . ثم طاووس ابن كيسان التابعى ، وموسى بن سيار الأسوارى . وقد قال الجاحظ فى موسى هذا إنه من أعاجيب الدنيا : كانت فصاحته بالفارسية فى وزن فصاحته بالعربية ، وكان يجلس فى مجالسه المشهور فيقعد العرب عن يمينه والفرس عن يساره ، فيقرأ الآية

من كتاب الله ويفسرها للعرب بالعربية ، ثم يحول وجهه إلى الفرس فيفسرها لهم بالفارسية ، فلا يُدرى بأى لسان هو أبين .

وتأثير أدب اللوالمى فى أدب العرب أكبر وأظهر من تأثير أدب اليونان والرومان فيه ؛ لأن اليونان والرومان لم يدخلوا فى الدين ولا فى العربية حتى يكون تأثيرهم مباشراً ؛ بل ظلوا مستقلين غير متصلين إلا بمقدار الصلات الاقتصادية . والعرب لعرب عهدهم بالبداوة وجهلهم باللغات ، واشتغالهم بالفتوح والخصومات ، وتعصبهم لأدابهم لم يفكروا فى نقل شىء من أدب هؤلاء وأولئك . وأما الفرس فقد انتقلوا إلى العرب ذاتاً ومعنى ووطناً ، فاندمجوا فيهم وامتزجوا بهم وأثروا بأنفسهم فى دينهم ولغتهم من غير طلب ولا وساطة . وانصرف العرب إلى سياسة الملك وقيادة الجند وأقصوا عنهما اللوالمى ، فعكف هؤلاء على تحصيل العلوم الشرعية واكتساب الفنون الأدبية ، فكان منهم رواة الحديث ، وحلمة الفقه ، وكتبة الدواوين ، وقالة الشعر ، وعلماء النحو واللغة ، وبذلك اتصلوا بسببنا ، وفى أدبهم فى أدبنا ، كما تفنى شأيب المطر فى عباب المحيط .

أنواع الأدب الإسلامى

الشعر

الشعر فى عهد الرسول :

ظهر الإسلام وقد تحكم فى حياة العرب جاهلية قاسية وعقلية جافية وعصبية مفرقة فكان الشعر مظهر هذه الصفات وباعثها . فلما أعلن الرسول الحرب على هذه الأخلاق تمهيداً لألفة القلوب ووحدة العرب ، كان من الطبيعى أن ينبغى الإسلام رأسه إليه ، وألاً يشجع الناس عليه ؛ فى القرآن : « وَالشعراء يتبعهم الغاؤون . وما علمناه الشعرَ وما ينبغى له » ، وفى الحديث . « لأن

يمتلىء جوف أحدكم قيحاً حتى يرى خيراً له من أن يمتلىء فيه شعراً» ، فازور جانب المسلمين عن قرض الشعر وروايته ، على علمهم بأن الدين لم يكرهه على إطلاقه ، وإنما كره منه ذلك النوع الذي يمزق الشمل ويشير دفاثن القلوب . ثم شغل الإسلام العرب جميعاً بالدعوة العظمى : فمن مؤيد ومن معارض واشتدت الخصومة بين الرسول وبين قريش ، فحردوا عليه الأسيئة والألسنة ، ولكن شعراء العرب وقفوا موقف الحياد والترصص ينتظرون نتيجة المعركة بين التوحيد والوثنية ، وبين الديمقراطية والأرستقراطية ، وبين محمد وقريش . فلم ينامر في الخصومة إلا الشعراء القرشيون ، وقد كانوا قليلاً قبل الإسلام لشواغل الحضارة والتجارة ، فصاروا كثيراً بعده لدواعي النزاع والمعارضة . بدأهذه الحملة منهم عبد الله بن الزبير وعمر بن العاص وأبوسفيان ، فأذوا الرسول وأتباعه بقوارص المهقاء ، فهاج ذلك من شاعرية المسلمين وودوا لويأذن لهم الرسول بمساجلتهم ؛ فما هو إلا أن قال لهم . « ماذا يمنع الذين نصرنا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بأسلحتهم ؟ » حتى نهض للقرشيين نفر من الصحابة ، فيهم حسان بن ثابت وكعب بن مالك وعبد الله بن رواحة ، وشبوها حرباً كلامية جاهلية لم يهاجم المهاجمون فيها بفضائل الوثنية ، ولم يدافع المدافعون بفضائل الاسلام ، حتى تقول إن الشعر قد خطا في مذاهب الفن خطوة جديدة ، بل كانوا يتهاجون على النمط المعروف من الفخر بالأنساب والتبجح بالسؤدد . يدل على ذلك قول الرسول لحسان : « اذهب إلى أبي بكر فهو أعلم بمثالب القوم » ، وقوله : « كيف تهجو قريشاً وأنا منها ؟ » فقال : « أسلك كما أسل الشعرة من العجين » .

فليس من شك في أن الشعر ظل على عهد الرسول جاهلياً . فلما خضعت قريش وسائر العرب للدين الجديد بعد لأى ، خرس الألسنة اللاذعة وفر الشعر الجاهلي ثانياً إلى البادية . وانصرف المسلمون إلى حفظ القرآن ورواية

الحديث وجهاد الشرك ، تخفّت صوت الشعر لقلّة الدواعى إليه ، فما كان يظهر إلا الحين بعد الحين في صادق المدح والثناء . وتساهل الرسول في سماعه حتى أناب عليه ، وحتى قال فيه : « إن من البيان لسحرا وإن من الشعر لحكمة » .

الشعر في عهد الراشدين :

تلك كانت حالة الشعر في عهد النبوة ، وأما حاله بعدها فأقل شأناً وأحط مكانة لذهاب المعارضة ولشدّة الخلفاء في تأديب الشعراء ، وانصراف هم العرب إلى الفتوح . ولـسكن الدين قد بدأ يفعل في النفوس ، ومظاهر الحضارة قد أخذت تؤثر في الأذهان ، فظهر أثر ذلك ضئيلاً في شعر المخضرمين ككعب بن زهير والحطيئة ومَعْن بن أوس والنابغة الجعدي ، ولكنه أثر لا يتعدى بعض الألفاظ الإسلامية كالمعروف والمنكر والصلاة والزكاة والجنة والنار والمهاجرين والأنصار . ولذلك نرى من المبالغة جعل المخضرمين طبقة ممتازة ؛ فإن شعرهم استمرار للمذهب الجاهلي لم يتأثر بالإسلام إلا تأثراً عرضياً كضعف الأسلوب في شعر حسان ، أو قلّة الإنتاج في قريحة ليبيد ، أو كثرتة في الحطيئة والنابغة الجعدي مثلاً . والأشبه بالحق أن نقرر ما أشرنا إليه من قبل ، وهو أن الشعر العربي ظل في الجاهلية والإسلام واحداً في مظهره وجوهره ونوعه حتى أواخر عهد بني أمية . والتأثير الذي ناله من الموالى والسياسة والحضارة والدين لم يعطفه إلى طرق جديدة وإمما وسع في معانيه ومناحيه ، فقوّى بمض أغراضه كالهجاء ، وميز بعضاً آخر كالغزل . وهل يمكن التجديد في الشعر وجل الشعراء إنما يأتون من البادية ، والخلفاء يتعصبون للبادية ، والرواة والأدباء واللفويون يطلبون اللغة والشعر في البادية ؟ فصلاً عن أن العرب بطبيعتهم يميلون إلى التقليد ويحلون القديم المأثور من سُودد وخلق وأدب : فليس من سبيلنا أن نتكلف البحث العقيم في القرن الأول عن مذهب شعري جديد يصح أن يكون أساساً لأدب عربي

جديد ، فإن مذهب عمر بن أبي ربيعة لا يختلف عن مذهب امرئ القيس إلا في المعاني الخضرية ؛ ومذهب جرير والفرزدق في الهجاء لا يختلف عن مذهب الحطيئة والشماخ إلا في المعاني السياسية . فلنقتصر الجهد إذن على تحليل نهضة الشعر في العراق والحجاز على عهد بني أمية وبيان خطرهما وأثرهما في الإنتاج العقلي للعرب .

* * *

كانت القحطانية والمدنانية ، والعلوية والبكرية ، والهاشمية والأموية ، والعروبة والشعوبية ، تضطرم في نفوس المسلمين اضطرام البركان قبيل أن يثور . ولكنها كانت تضعف حيناً وتشتد حيناً تبعاً لسياسة القائم بالأمر ونظام حكمه ؛ فالقبائل كانت تنزل منازلها في البلاد على هذه الفكرة ، والبصرة والسكوفة تخططان على هذه الفكرة ، والخلاف ينجم في فارس والشام والعراق والأندلس من هذه الفكرة ، وكلها تدور على الزعامة والإمامة ، فمن كان سيداً في الجاهلية يريد أن يكون سيداً في الإسلام ! كأن العرب لم يفهموا من الدين الجديد إلا أنه طريق إلى السلطان وسبيل إلى الغلبة والثروة والحكم ليس غير . ولعلك تذكر أن بعضاً من شيوخ القبائل كقيس بن عاصم والأحنف بن قيس كانوا يعرضون على الرسول أن يدخلوا في دين الله لأعلى أنه الدين الحق ، بل ليكون لهم الأمر من بعده !

ظلت هذه الروح العصبية مكظومة في عهد الشيخين لأخذها الأمور بالحزم والعدل ، ولانصراف العرب إلى المنعم عن طريق الجهاد والفتح . فلما ولي الأمر عثمان وهنت اليد انصرفه فسندتها يد أخرى ، وتشتت الرأي فلم يصدر عن الخليفة وحده ، وحكم آله الناس بعصبيتهم الأموية لا بقوميتهم العربية . وكان المسلمون يومئذ قد أفادت عليهم الفتوح والمغانم الثراء إلى حد البطر ؛ فاستيقظت الفتنة وقامت الثورة وانتهت بمقتل عثمان ، وتجددت الخصومة على أثر ذلك بين علي ومعاوية .

وقتل الإمام فتخرج الأمر وانشقت العصا . وانصرف العرب عن جهاد العدو إلى جهاد أنفسهم باللسان والسيف . وتفرقوا أحزاباً وشيعاً ببعضها الدين وبعضها الدنيا . ففي الشام حزب يشايح بنى أمية ، يريض لهم الأمر ويمكنهم في الملك . وفي الحجاز حزب يناصر ابن الزبير ، يؤيده في دعواه وينصره في دعوته . وفي العراق حزب يشايح أهل البيت ويطلب لهم بحقهم في الخلافة . وهناك حزب ديمقراطي ينسكركم الأحزاب ويكفر الزعماء ويقول بالشورى في الخلافة . وفي هذه الأحزاب الأربعة توزعت أهواء المسلمين وآراؤهم إلا طائفة قليلة لظمت الحيات وأرجأت الحكم بين المختلفين إلى قضاء الله يوم الدين وهم المرجئة . واتصلت بين الأحزاب الخصومة ، وأعنف فيها الخصوم ؛ ولسكن معاوية ، بعد أن تم له الأمر كان يصانع معارضيه بالدهاء والعطاء والإغضاء والحزم ، حتى استوثق له الأمر طيلة حياته إلا من جهة الخوارج . فلما مات أفاق خصومه من خدر سياسته فزعزعوا عرشه ؛ حتى إذا وهى أدركه مروان وبنوه فسندوه واقتعدوه . وفي زمن عبد الملك اشتدت المعارضة واستعرت الحروب ، وكثر المطالبون بالخلافة ، وانبسط سلطان العرب ، وزخرت موارد الفنى ، واكتمل شباب الجيل الذى نشأ فى الإسلام ، واغتذى بثمر الفتوح ، واستمتع بجمال الحضارة ، واختلط بأنماط شتى من الناس ، وساهم بيده ولسانه فى هذه الفتن ، فبلغ الأدب العربى غاية ما قدر له أن يبلغ . فهل يمكن أن يظل الشعر بنجوة عن هذه الحياة الصاخبة ، والعصبية الغالبة ، والأحزاب المتحاربة ، والأهواء المتضاربة . والشعر العربى ربيب الخصومة والجدل ، تبعته الحزبية ويقويه الهراش وتوحيه شياطين الفرقة ؟ الواقع أنه كان وقود هذه الفتن ولسان هذه الأحزاب ، يصطنعونه كما نصطنع نحن الصحف اليوم ، فيناضل عن زعمائه ، ويدافع عن آرائه ، ويصطنع بصيغة العقيدة التى يدعو إليها وينافح عنها . وإذا علمت أن العرب جميعاً ساهموا فى هذه الخصومات ، وأن أكثرهم يقول الشعر وخصوصاً فى هذه الأزمان ، وأن الأمويين استمالوا بالمال هوى الشعراء ، وأوقدوا

بينهم نار التنافس والهجاء ، وأن الشعر أصبح صناعة متميزة يعيش عليها بعض الناس ، أدركت سبب وفرة الشعر وكثرة الشعراء في عصر عبد الملك ، إذ بلغ عدد الفحول المائة . وليس من شك في أن الشعر وإن حافظ على طريقتيه وطبيعته قد تأثر بهذه الحياة الجديدة تأثراً ظاهراً في معانيه وأغراضه ، ولكن هذه الحياة لم تكن كلها نزاعاً سياسياً ولا جدالاً دينياً حتى يقف تأثره عند هذا الحد ، وإنما كان لها مظاهر أخرى يحسن أن نشير إليها قبل أن ندل على آثارها في الشعر.

نظرة عامة

في العراق :

كان من الطبيعي أن تختلف مظاهر هذه الحياة في العواصم العربية لاختلاف الأحوال السياسية والاجتماعية فيها . فالعراق كان منذ القدم منبج الخواطر العربية لخصبه ونمائه ، ووفرة ظله ومائه . وقد لاذ العرب قبل الإسلام بأطرافه وأريافه واللسان واليد فيه للفرس فأنشأوا إمارات المناذرة . فلما فتحوه في عهد عمر نزحوا إليه وأنشأوا على حدود البادية البصرة والسكوفة . وكان في العراق ميراث وفر من العلم والأدب والدين خلفته الأمم الغابرة ، ولم يوث العراق ما أوتيت مصر من قوة الهضم والتمثيل حتى يحيل سكانه إلى جنسية واحدة وعقلية واحدة ، فانطبعت الأهواء فيه على الفرقة ، والنفوس على التنافر . وأتى إليه العرب بالمصيبة اليمنية والنزارية ، ووقعت فيه الأحداث الإسلامية الجلى كواقعة الجمل ومصرع الأئمة والقادة ، وما نجم عن ذلك من قيام الشيعة والخواارج ، واشتداد المعارضة لبني أمية ، واستحكام الخلاف بين البصريين والسكوفيين في السياسة والدين والعلم ، فكانت البصرة عثمانية ، والسكوفة بعد استقرار الإمام على بها علوية ، والجزيرة الفراتية إما نصرانية وإما خارجية ، لأنها مسكن ربيعة وهم كما قال الأصمعي رأس كل فتنة . ومن ربيعة بنو تغلب الذين قال فيهم الإمام علي : « يا خنازير العرب !

والله لئن صار هذا الأمر إلى لأضعن عليكم الجزية . فكان الشعراء العراقي صورة لهذه الحياة النائرة المتنافرة ، فهو قوى عنيف يكثر فيه الهجاء والفخر ، وتتلون فيه المصيبة القبليّة ألوانا شتى من التحزب للمكان والعقيدة والجنس ، وتتقلب فيه النزعات الجاهلية على التعاليم الإسلامية ، وتفغذيه نفحات بدوية وصلات أموية ، فيزدهر وينتشر حتى يشغل كل لسان ويحتل كل مكان ويعبر عن كل مبدأ .

في الحجاز .

والحجاز منبع الإسلام كان أشبه بينابيع النهر . يفيض منه الماء الصافي في سكون ورفق ، حتى إذا بعد مجراه اعترضته الشلالات وتقسّمته التيارات ، فتكدر نميره واشتد هديره ، وتوزعت الجداول والأفنية ، فبعضه في سباح الأرض ، وبعضه في الرياض ، فروى بعضاً وأغرق بعضاً . انتقلت منه الخلافة والمعارضة والعلم إلى العراق والشام وبقي هو كما كان وكما هو الآن يقبل المال والمهونة من كل قطر . واقتضت سياسة الأمويين أن يعتقلوا فيه شباب الهاشميين فلا يتركونه إلا بإذن ، وسلطوا عليهم الترف ، وشغلهم بالمال عن الملك ، وخلوا بينهم وبين الفراغ ، وقد ورثوا مع ذلك عن آبائهم المجاهدين مغانم الفتح من أموال ورقيق ، وفي أهل الحجاز ملاحظة ظرف ووداعة نفس ولطافة حس وفصاحة لسان ومحبة لهو ، فتبسطوا على النعيم ، وعكفوا على اللذة ، وقطعوا أيامهم بالمناداة والمنادمة ، وذهبوا في حياة اللجون كل مذهب . ووصل الحج بينهم وبين الحسان والقيان ، واستهوت هذه الحال المغنين فوفدوا إلى مكة والمدينة من أقطار الدولة حتى اجتمع منهم في وقت واحد كما يقول أبو الفرج الأصبهاني « ابن سُرَيْج ، والفريض ، ومعبّد ، وحنين ، وابن محرز ، وجميلة ، وهيت ، وطوؤيس ، والدلال ، وبرد الفؤاد ، ونومة الضحى ، ورحمة ، وهبة الله ، ومالك ، وابن عائشة ،

وابن طنبورة ، وعزة الميلاء ، وحبابة ، وسلامة ، وبليلة ، ولذة العيش ، وسعيدة ،
والزرقاء ، وابن مسجح « وحتى غلب الغناء على أعمال الناس وميولهم ، فقد
حدث الإمام مالك عن نفسه قال : نشأت وأنا غلام أتبع المغنين وأخذ عنهم ،
فمالت لى أمى : يا بنى إن المغنى إذا كان قبيح الوجه لا يلتفت إلى غنائه ، فدع
الغناء واطلب الفقه فإنه لا يضر معه قبيح الوجه . فتركت المغنين واتبعت الفقه
فبلغ الله بى عز وجل ما ترى » . من ذلك شاع الحب فى مدن الحجاز ورقت
عواطف بنىه ، فسلكوا بالشعر مسالك الغزل الحضرى الرقيق الصادق ، حتى
كاد هذا الفن لافتنانهم فيه يبتدىء بهم وينتهى إليهم .

فى الشام :

وأما الشام فكان بنجوة من الثورات النفسية والأزمات السياسية لخضوعه
لبنى أمية وإخلاصه لهم وانصرافه إلى تأييدهم ، فلا هو مضطرب العواطف
كالهجاز ، ولا هو مضطرب الأهواء كالعراق . وقد أمن الخلفاء جانبه فتركوه
لشأنه دون أن يثيروا عصبته بخلاف ، أو يهيجوا طاعيته لمغرم ، فبقى الشعر من
جراه ذلك راكداً فى نفوس أهله لا يبعثه باعث ، ولا يتوفر على دراسته وروايته
باحث . وأكثر ما كان فيه من ذلك إنما كان يقدر إليه من العراق والحجاز
مع الشعراء الذين يجذبهم سخاء القصر أو دهاؤه ، والأدباء الذين يطلبهم الخلفاء
من البصرة كلما أعضلتهم مسألة فى اللغة والنحو والأدب .

خصائص الشعر فى العراق

لعل الشعر العراقى الإسلامى أصدق ما يصور حياة البادية وأصح ما يعبر عن
نفسية العرب ؛ فإنه وإن كان كما قلنا استمراراً للشعر الجاهلى يصدر عن دوافعه
وينبع من منابعه - أنقى جملة وأبين علة وأصلح نسبة ، لقربه من عصر التدوين

واتصاله بأسباب السياسة وأحداث التاريخ : وهو مظهر لتلك الحياة المدنية الأولية التي هيأها الإسلام للعرب لأول مرة : فحمل من الأشتات وحدة ظاهرها الجماعة والألفة ، وباطنها المداوة والفرقة ؛ فهو مهاجاة بين الأفراد ، ومساجلة بين الأحراب ، ومفاخرة بين القبائل ، ومدح للزعماء والخلفاء . وهذه الموضوعات بطبيعتها تقتضى اللفظ الجزل والأسلوب الرصين والعروض الطويل والصور البدوية ، وتعتمد في الهجاء على مثالب الآباء من جبن وبخل وقلة وذلة ، وفي المدح والفخر على ذكر أيامهم الدامية الماضية وما ظفر فيها أسلافهم من الغلب والسلب . فالهجاء في هذا العهد بأنواعه الخاصة والعامة يكاد يكون مظهره العراق ، لتكالب القبائل المتعادية عليه ، وظهور المذاهب المتباينة فيه ، وغلبة البداوة والأنفة والبطر على أهله ؛ فشعراؤه يبتدئون به ويفتنون فيه ويعيشون عليه ، وهو ينتحل الأسباب المختلفة ، ويرتدى الأنواع المتعددة ، فيكون شخصياً وقبلياً ووطنياً ودينياً وسياسياً ، ولسكنه في الواقع إنما يصدر عن باعث واحد هو العصبية الموروثة والأحقاد القديمة وقد نبئت المرعى على دمن الثرى وتبقى حزازات النفوس كما هيا

المرُضطل :

فقاتل هذا البيت غياث بن غوث الأخطل صوت الجزيرة ولسان التغلبيّة ، وأديب النصرانية وشاعر الأموية ، كان أول ما غرزم به من الشعر الهجاء . هجا امرأة أبيه وهو صغير ، وهجا كعب بن جعيل شاعر تغلب فأهمله وهو يافع ، وعلق به لقب الأخطل منذ شب لسفاهته . ثم مضى يقرض الشعر فيما يشجر من الخصومة بينه وبين الناس ، أو بين قبيلته وبين القبائل ، حتى كان بين يزيد ابن معاوية وهو وليّ العهد وبين عبد الرحمن بن حسان الأنصاري تقاؤل وجدل ، فطلب من كعب بن جعيل أن يهجو الأنصار ، فتخرج أن يذم قوماً آووا رسول الله ونصروه ، وقال له : أدلك على الشاعر الفاجر الماهر (يريد الأخطل)

فهجا الأخطل الأنصار بالفلاحة واللؤم والخمر ، وفضل عليهم قريباً في قصيدته
الرائية ، وكاد يُشفى من ذلك على الخطر لولا عون يزيد . وبالغ الأمويون
في إيثاره وإكرامه ، وأمعن هو في النفع عليهم ، ففاضل الزبيريين بعد الأنصار ،
ووقف للقبائل القيسية فهنتك عنها حجاب الشرف قبيلة قبيلة بقصيدته التي مطلعها :
ألا يا اسلمى يا هندُ هندَ بنى بكر . وإن كان حَيًّا نا عِدِّي آخر الدهر
لناصبتها الأمويين العدا من جهة ، ولاقتحامها الجزيرة على قومه من جهة
أخرى . ثم ختم حياته بمالأة الفرزدق ومهاجاة جرير . والأخطل وإن كان
شديد التمسك بنصرانته على وثيق صلته بالخلفاء ، لم يشذ عن طبيعة العرب
في التدين ؛ فقد قال الأب لامس اليسوعى في فصل كتبه عنه : « إن أثر
النصرانية في دين الأخطل ضئيل ، ونصرانته سطحية ككل العقائد الدينية عند
البدو » ، فهو يُدمن الخمر في حمى الدين ، ويكثر الهجاء في حمى الخليفة ، ويهاجم
القبائل في حمى تغلب ؛ ولكن هجاءه كان عنيف اللفظ لا يركب فيه متن الشطط
ولا يتجاوز به حدود الخلق .

الفرزدق :

وأبو فراس همام بن غالب الفرزدق الدارمي ثم التميمي نشأ كذلك بالبصرة
على قول الهجاء مع شرف أسرته وغنى قبيلته وعزة نفسه ؛ فكان يهجو بني قومه
لحدة طبعه وشراسة خلقه ، فيشكونه إلى أبيه فيضربه . ثم لج في هجاء الناس
حتى استعدوا عليه زياداً وإلى العراق لمعاوية ، فطلبه فقراً منه في مدن العراق
وقبائله ثم لجأ إلى المدينة أخيراً واستجار بوالها سعيد بن العاص من زياد فأجاره .
فلما مات زياد عاد الشاعر إلى وطنه فشارك فيما وقع فيه من حروب وفتن بعد موت
معاوية ويزيد ، حتى منى بمهاجاة جرير فشفلت فكره وملأت عمره وصقلت
مره . وظلت هذه المهاجاة أربعين سنة ونيفاً كان منها للناس مشغلة ، وللشواس

مهزلة . وللأدب العربي ثروة ضخمة من الشعر لا تخلو على سفاقتها وبذاءتها من جمال وحكمة .

مهرير :

وكان جرير بن عطية الخنفي التميمي قد قال الشعر كصاحبيه في الحداثة الباكرة ، وقاله مثلهما في الهجاء ، ولسكنه بدأ بالرجز على نحو ما يكون من الرعاة وهو منهم . وكان خمول عشيرته وضعة أسرته وفقير أبيه وحدة خلقه من العوامل التي ساعدت الطبع على نبوغه في الشعر وتفوقه في الهجاء . وكان أول من نازله وأخفمه غسان السليطي حين هجا قومه ، فاستغاث السليطي بالبعيث فأغاثه وهجا جريراً ، فنقض جرير قوله بالهجاء اللاذع ، ففاضل عنه الفرزدق لموجدة في نفسه على جرير ؛ وتمهاجى الشعاران التميميان من أجل ذلك . وفضل الأخطل الفرزدق على جرير إما لدفاعه عن قيس ، وإما لرشوة محمد بن عمير إياه ، فهجاء جرير . ثم نبجد الهجاء من كل مكان حتى نصب له من الأقران ثمانون شاعراً ظهر عليهم جميعاً إلا الفرزدق والأخطل فإنهما ثبتا له ونازعا الغلبة . وانشعب الناس في أمر جرير والفرزدق شعبتين تناصر كل منهما أحد الشعارين . وكان بين الفرزدقين والجريريين ما بين العلويين والأمويين ؛ يطلب كل منهم الغلبة لصاحبه بالدعاية والنسكاية والرغبة والرهبية والخلف ، يقوم الأولون بالمر بدواً الآخرون بمقبرة بنى حصن ، وقد وقف الشعاران كلٌّ بين أتباعه وأشياعه يشدهم شعره وهم يكتبونه ، والرواة ينشرونه ؛ والأدباء والأمراء يتناولون ما يروى بالموازنة والنقد والحكم ، والأنصار يحاولون رشوة الشعراء واستمالة العلماء ليحكموا لصالحهم على خصمه ؛ فقد روى صاحب الأغاني أن أحدهم تبرع بأربعة آلاف درهم وبقرص لمن يفضل الفرزدق على جرير . وليس أدل على اهتمام الناس بأمرهما واختلافهم في الحكم على شعرهما من أن يتهادن الجيشان المتقاتلان ساعة ليحكم أحد الخوارج الأدباء بين رجلين

من رجال المهلب تنازعا في أمر جرير والفرزدق . فقد ذكر ابن سلام أن رجلين تنازعا في عسكر المهلب في جرير والفرزدق وهو بإزاء الخوارج ، فصارا إليه فقال لا أقول فيهما شيئا ، وكره أن يعرض نفسه لشرها ، ولكن أدلكما على من يهون عليه سخطهما : عبيد بن هلال ، وهو يومئذ في عسكر قطارى بن الفجاءة ، فأتيا فوقها حيال المعسكر فدعواه فخرج يجر رحمه ، وظن أنه دعى إلى المبارزة ، فقال له : أفرزدق أشعر أم جرير ؟ فقال : عليكما وعليهما لعنة الله ا فقالا : نحب أن نخبرنا ثم نصير إلى ما تريد . فقال من يقول :

وطوى القيادة مع الطراد بطونها طى التجار يحضر موت برودا
قالا : جرير . قال : هو أشعرهما .

وهناك طائفة أخرى من شعراء العراق كعبيد الراعى وأبي النجم العجلي والراجز اتخذوا من الشعر ظفراً ونابا مزقوا بهما الأعراض وأشاعوا هجر القول في الناس ، ولكن أحدهم لم يبلغ من سطوة الشعر ونباهة الذكر ما بلغ جرير والفرزدق والأخطل ، لأنهم كما قال أبو عبيدة : « أعطوا حظاً من الشعر لم يعطه أحد في الإسلام : مدحوا قوماً فرفعوهم ، وذموا قوماً فوضعوهم ، وهجأهم قوم فردوا عليهم فأنهضوهم ، وهجأهم آخرون فرغبوا بأنفسهم عن جوابهم فأسقطوهم » .

مذهب الأخطل والفرزدق وجرير في السجاء :

مذهبهم في الهجاء هو المذهب المتبع والطرز الغالب . على أنهم يتفاوتون فيه تفاوتهم في الطبقة والبيئة والطبع .

فالأخطل سيد في قومه ، كريم في نسبه ، نبيل في نفسه ، يعاقر الخمر ويجالس الملوك ويحترم الدين ويحتمل في سبيله ضرب الأسقف وأذى السجن وإن كان لا يتمدد ولا يتزهّد . ومن أجل ذلك كانت لغته في الهجاء كما ذكرنا من قبل لغة

الخاصة ، لا يسف إلى القبيح ولا يستعين بالخاى ، وإنما يهاجم القرن فى صفات
الرجولة فىنبى عنه الكرم والبأس والمجد والصدق كقوله فى تيم :

وكنى إذا لقيت عبيد تيم وتيا قلت أيهما العبيد !
لثيم العالمين يسود تياً وسيدهم وإن كرهوا مسود
وكقوله فى كليب بن يربوع :

بش الصحاب وبش الشرب شربهم إذا جرى فيهم المزاء والسكر
قوم تناهى إليهم كل مخزبة وكل فاحشة سببت بها مضر
الآكون خيث الزاد وحدهم والسائلون بظهر الغيب ما الخبير
وأقسم المجد حقاً لا يخالفهم حتى يخالف بطن الراحة الشعر

ولعل الخش هجائه قوله فى قوم جرير :

قوم إذا استنبح الضيفانُ كلمهم قالوا لأهمهم بولى على النار
فتمنع البول شحاً أن تجود به ولا تجود به إلا بمقدار
والخبز كالعبر الهندى عندهم والقمح خمسون أردباً بدينار

فترى أنه حتى فى إقذاعه وإيجاعه لا يتدلى إلى ذكر المثالب الخاصة والمعائب
الفردية ، وإنما يهاجم قبيلة الخصم كلها فى قياس بينها وبين قبيلته فى السمو إلى
المعالى والسبق إلى الغايات ، وفى ذلك يجد بلاغه ومدده ، فلا يضطر اضطرار
جرير إلى ذكر الصفات لتماماً للغاية الدنيئة من أقرب طريق . أنظر إلى قوله
لجرير :

يا ابن المراغة إن عمى اللذا قتل الملوكة وفككا الأغلالا
وأخوهم السفاخ ظمناً خيله حتى وردن جبي الكلاب نهالا

فانفق بضأنك يا جرير فإنما منتك نفسك في الخلاء ضلالا
ممتك نفسك أن تسكون كدارم أو أن توازي حاجبا وعقالا
وإلى قوله له :

ولقد شددت على المراغة سرجها حتى نزعت وأنت غير مجيد
وعصرت نطقها لتسدرك دارمًا هيات من أمل عليك بعيد
وإذا تعاضمت الأمور لدارم طأطأت رأسك عن قبائل صيد
وإذا عددت بيوت قومك لم تجد بيتًا كبيت عطارد ولبيد

فإذا نظرت إلى ذلك وجدت أن هجاءه أقرب ما يكون إلى المنافرة والفخر .
ومن الواضح أن هذا الهجاء العفيف المترفع وإن أمض لا يجرى مع هجاء جرير
في ميدان ، ولا يستوى وإياه عند العامة في ميزان ، فكيف إذا اجتمع إلى ذلك
خمود الشيخوخة في الأخطل وحدة الشيبية في جرير ؟ إن جريراً نفسه قد عنل
وناء خصمه عنه في آخر الشوط بكبر سنه ، فقد قال : « أدركته وله ناب واحد ،
ولو أدركته وله نابان لأكلني » . وقال في قصيدته النونية التي هجأها الأخطل
على أثر تفضيله الفرزدق عليه :

جارت مطلع الرهان بنا به روق شبيته وعمره فان
وإذا استثنينا هجاء الأخطل لجرير وجدنا أشهر أهاجيه إنما قالها في أغراض
قومية أو سياسية . ومن تلك الأهاجي المأثورة قصيدتان تلخصان مذهبه وتصوران
فنه : الأولى في هجاء القبائل القيسية ومطلعها :

ألا يا اسلمى ياهند هند بنى بكر وإن كان حيئنا عدى آخر الدهر

والأخرى في مدح عبد الملك بن مروان وذم خصومه ومطلعها :

خف القطين فراحوامتك أو بكروا وأزعجتهم نوى في صرفها غير

ومنها :

بنى أمية إني ناصح لكم فلا يبين منكم آمناً زفر
فإن مشهده كفر وغائلة وما يُغيب من أخلاقه وعمر
إن العداوة تلقاها وإن كنت كالعرُ يكن حيناً ثم ينتشر
أمية قد ناضلت دونكم أبناء قوم هم آووا وهم نصروا
وقيس عيلان حتى أقبلوا رقصاً فبايعوك جهاراً بعد ما كفروا
ضحوا من الحرب إذ عضت غواربهم وقيس عيلان من أخلاقها الضجر

والأخطل لنصرايته لم يستطع أن يتخذ من الإسلام سبباً للفخر ولا مادة للهجاء ، فأكتفى بذكر مناقب آبائه ومثالب أعدائه . على أنه يستغل أحيانا بعض ما أنكر الإسلام فيهجو به وإن كان هو يستبيحه : كقوله في الأنصار يرميهم بشرب الخمر .

قوم إذا هدر العصير رأيتهم حمراً عيونهم من المسطار
وكقوله في كليب بن يربوع .
بشر الصحاب وتسر التبر شرهم إذا جرت فيهم المزاء والسكر

أما الفرزدق فهو كالأخطل في الذؤابة من قومه ، إلا أنه كان صريح العداوة فلا يورى ، فاحتس الدعابة فلا يحتشم ، شديد الدعارة فلا يتعفف ، حاد البادرة فلا يتلطف ؛ فهو في هجائه يدكر العورات ، ويعلن الحزريات ، بألفاظها العارية وأسماؤها الصريحة حتى ليستحي الشاب أن ينشدها ، بله الفتاة الخفيرة . وما أظن البداوة وضيق الخلق وسلاطة اللسان ونجور النفس هي كل الأسباب التي أوجدت هذا الهجاء السوقي الوقيع ، فإن الحطيطه ومن سبقه على اتصافهم بهذه الأوصاف

لم يسفوا هذا الإسفاف ، فلا بد أن يكون لحياة العراق في ذلك العهد أثر قوى في ذلك . فالخلق العربي القوى قد هت أو اصره باتصال البدو بالحضر واختلاط العرب بالعجم ؛ والوازع الديني قد ضعف بتغلب الأحزاب وضعف العصبية ؛ والسلطان السياسى يغمص جفنيه ، ويضحك مِلء شذقيه ، من هذه المهازل التى يمثلها الشعراء والقبائل بالبصرة . أقول القبائل لأن القبيلة كانت من وراء شاعرها تحتمل لانتصاره بالمال والقتال والرعاية . وربما يأتى كل رجل منهم بالبيتين والثلاثة فيردد بها الشاعر كما فعلت تيم في مهاجاة شاعرها عمر بن لجأ الجريز . وكان أغش الهجاء هجاء الفرزدق في جرير ، فهو يرمى قومه بضعة النسب ، وضعف الحيلة ، وأتخاذ الغنم ، ورعى الإبل ، وإتيان الأتن ، ويفتن في هذه المعانى افتناناً عجيباً : يرددها في كل قصيدة على صور مختلفة وأساليب شتى ، ولا يتحرج أحياناً من افتعال الحوادث المضحكة إمعاناً في السخر من المهجو والنيل منه . وهذا غاية ما وصل إليه الهجاءون وأهل التنادر في عصور الترف والخلاعة . وأدهى من ذلك أن يقذف خصمه بنوع من السباب الدنى الذى لا يعتمده هو ولا يصدقاه الناس ، إنما يعمد إليه مبالغة في التحقير والتشهير على نحو ما يعمل الرعاع في الطبقات الوضيعة ، وذلك ما لم نعهده في الهجاء من قبل ، إذ كان الشاعر يرى جهة المحاسن في المرء فيمدح ، أو جهة المساوىء فيه فيذم ، وهو في كلتا الحالين صادق .

وقد يتبدل الفرزدق في الهجاء إلى الدرك الذى لا تسيغه رجولة ، فينقض رثاء جرير (١) لامرأته بهجائها المقذع ، دون أن يرمى للميت حرمة ولا للمرأة كرامة ، كقوله :

كانت منافقة الحياة وموتها خزى علانية عليك وعار
فلئن بكيت على الأتان لقد بكى جزعاً غداة فراقها الأعمار

(١) وهى القصيدة التى مطلعها .

لولا الحياة لهاجنى استعمار ولزرت قبرك والحبيب يزار

تبكى على امرأةٍ وعندك مثلها قعساء ليس لها عليك خِمار
وليكفينك فقدَ زوجتك التي هلكت موقعةً الظهور قصار
إن الزيارة في الحياة ولا أرى ميتاً إذا دخل القبور يُزار

ورأى الفرزدق في المرأة يدل على جفاء طبع وسوء أنفة ، وربما دل أيضاً على منزلتها في المجتمع العربي في ذلك العهد . ولا نستنبط ذلك من قوله في زوجة جرير فقد يكون للخصومة بمض الأثر في سوئه ، وإنما نستنبطه من قوله في زوجته هو حين ماتت :

يقولون زُر حدراء والترب دونها وكيف بشيء وصله قد تقطعا
ولست وإن عزت على بزائر تراباً على مرموسه قد تضعضعا
وأهون مفقود إذا الموت ناله على المرء في أصحابه من تقنعا
يقول ابن خنزير بكيت ولم تسكن على امرأة عيني إخال لتدمعا
وأهون رزء لامرئ غير عاجز رزية مرتج الروادف أفرعا

على أن طبيعة المهاجاة مع جرير ، وشهوة الغلبة عند العامة ، ونفاد المعاني في الهجاء على طول المدة ، وبلادة الحس وهوان النفس باعتماد الدم ، قد دعت الفرزدق كما دعت جريراً إلى التدرج في الإقذاع والبذاء ، حتى خرج شعرهما في النقائض على قوته وجودته عن الحد المألوف بين السئلة . ولكن الفرزدق مع تبذله كان يصيخ أحياناً إلى وازع الدين لتشييعه فيتوب عن قرض الشعر ، ويكف عن هجاء الناس ، ويقيد نفسه ليحفظ القرآن ويقول :

ألم ترني عاهدت ربي وأنتي كَبِينَ رتاج قائماً ومقام
على قسم لا أشتم الدهر مسلماً ولا خارجاً من في سوء كلام
أو يسفجيب إلى داعي الشرف لحسبه فيصدر في الهجاء عن طبع أبي ونفس

كريمة ، فقسمو معانيه وتعف ألفاظه ، كقوله في معاوية وقد حبس عنده مالاً
لأحد أعمامه بعد وفاته :

أبوك وعمى يامعاوى أورثنا ترانا فيحتاز التراث أقاربه
فما بال ميراث الخلتات أخذته وميراث حرب جامد لك ذائبه
فلو كان هذا الأمر في جاهلية علمت من المرء القليل حلايبه
إلى أن يقول :

وما ولدت بعد النبي وأهله كئلى حصان في الرجال يقاربه
وكم من أب لى يامعاوى لم يزل أغر يبارى الريح ماזור جانبه
نمته فروع المالكين ولم يكن أبوك الذى من عبد شمس يخاطبه

* * *

أما الطامة الكبرى فهي جرير ، لأنه كان مرسل العنان مطاق اللسان
لا يعوقه قيد ولا تكبجه شكيمة . فلاحه صاحب سياسة كالأخطل ، ولصاحب
نحلة كالفرزدق ، ولا وارث مجادة كالإثنين ، وإنما كان سوقياً ترعية رزقه الله
حدة الذهن ورقة الأسلوب وخبث اللسان ، وزاده المراس صلابة عود ، وغزارة
فكر ، ومتانة شعر ، وسهولة قافية ، فبلغ بالهجاء الفردى والقيل غايته في الإقذاع
والإقناع والقوة . وربما كان أول من أكره الشعر على قبول الأساليب العامة
المتبدلة في الهجاء كذكر العورات وهتك المحارم ، فاضطر خصومه إلى أن
يكلموه باصطلاحه ، ويقاتلوه بسلاحه ، وأصبح بعده الهجاء في العراق لا يفعل
في النفوس إلا مشوباً بهذا القدر . وما مهاجاة بشار وحامد إلا صورة من هجاء
جرير والفرزدق .

كان جرير لعاميته وبيئته ، وللأسباب التي ذكرناها من قبل في معرض

الكلام عن الفرزدق ، يصطنع في المحماء أساليب الدهماء ، فيعير الأخطل بالقلف والخزير والشكر ؛ ويقذف البيث في أمه وهي أمة سجستانية ؛ ويهاجم الفرزدق في جدته فيتهمها بجير القين ، وفي أخته جمن فيرميها بابتذال بنى مفقر إياها على إثر حادثته مع ظمياء بنت طلحة حفيدة قيس بن عاصم ، ويشهر بقومه في إخفار عمرو بن جرموز لذمتهم في قتل الزبير ، ثم يتسقط عيوبه الصغيرة وهفواته الدنيا فيجسمها بالمبالغة والتزئد ، كضربته النابية للرومي ، وزيجته القالية من نوار . وكان الفرزدق يذهب في مجائه مذهب الفخر بأبائه ، فيعدد أيامهم الظافرة ، ويحدد مفاخرهم الغابرة ، فلا يستطيع جرير مجاراته في هذا المضمار فيعمد إلى نقض الفخر الصلِّف بالسخرية اللاذعة والنقش الموجع . وإذا أخذ جرير هذا المآخذ لا يقيم له . اقرأ على سبيل المثال قصيدة الفرزدق التي مطلعها :

إن الذي سمك السماء بنى لنا بيتاً دعأته أعز وأطول
تجده يقول بعد هذا البيت :

بيتاً زُرارة محتبٍ بفنائهِ ومجاشع وأبو الفوارس نهشل
لا يحتجى بفناء بيتك مثلهم أبداً إذا عُدَّ الفعال الأفضل
فيجيبه جرير في نقيضته لها :

أخرى الذي سمك السماء مجاشعاً وبنى بناءك في الحضيض الأسفل
بيتاً يحمم قينكم بفنائهِ دنساً مقاعده خبيث المدخل
قتل الزبير وأنت عاقدُ حبوة تباً لحبوتك التي لم تحلل
وإفاك غدركُ بالزبير على مئى ومجراً جعثنكم بذات الحمل
بات الفرزدق يستجير لنفسه وعجان جعثن كالطريق المعمل
ويقول الفرزدق :

حلل الملوك لباسنا في أهلنا والسابغاتِ إلى الوغى تتمرّبل

فيجيبه جرير :

لا تذكروا حلل الملوك فإنكم
ويقول الفرزدق :

أحلامنا تزن الجبال رزاة
فادفع بكفك إن أردت بناءنا
خالى الذى غصب الملوك نفوسهم
إنا لنضرب رأس كل قبيلة
فيجيبه جرير :

كان الفرزدق إذ يعوذ بخاله
وانفر بضبة إن أمك منهم
أبلغ بنى وقبان أن حلومهم
أذرى بحلمهم الفياش فأنتم
ويقول الفرزدق :

وهب القصائد إلى النوابع إذ مضوا
ثم يمضى يعدد الشعراء الفحول و يقول :

دفعوا إلى كتائبهم وصية
فورثهن كأنهن الجنادل

فيجيبه جرير :

أعددت للشعراء سماً ناقماً
لما وضعت على الفرزدق ميسمى
فسقيت آخرم بكأس الأول
وصفى البعيث جدعت أنف الأخطل
ويعد شعر مرقش ومهلل
حسب الفرزدق أن يسب مجاشع

فأنت تلاحظ أن جريراً يرغب في الطريق السهل ، ويطفيء حرارة الجلد ببرودة المزل ، ويقابل الكهنيّ المهاجم في سلاحه ولأتمته ، وهو في ثوب المهرج وبزّته وضحكته .

ولجرير قدرة بارعة على تتبع الخصم في حياته الخاصة والعامة ، فيتسقط أخباره ، ويتلقت حوادثه ، ثم يعلنها في شعره تشهيراً به وفضيحة له :

يتزوج الفرزدق من حدراء بنت زريق بن بسطام على حكم أبيها ؛ فيقول جرير :

يازيق قد كنت من شيبان في حسب يازيق ويحك من أنكحت يازيق
أنكحت وبلك قينا في استه حمم يازيق ويحك هل بارت بك السوق
يارُب قائلته بعمد البناء بها : لا الصهر راض ولا ابن القين معشوق

فيقبل أهلها عليه ويقولون له : ماتت ، كراهة أن يهتك أعراضهم جرير .
فيأبى جرير إلا أن يعلن الحقيقة في قوله :

وأقسم ما ماتت ولكنما التوى بحدراء قوم لم يروك لها أهلا
ويمبث الفرزدق في المدينة عبث الشباب ويعترف بذلك في قوله .
ها دلتني من ثمانين قامةً كما انقض باز أقم الریش كاسره

فيقول له جرير :

تدليت تزني من ثمانين قامة وقصرت عن باع العلا والمكارم
ويضرب الروميّ في حضرة سليمان بن عبد الملك فينبو عنه سيفه فيقول له جرير :

بسيف أبي رغوان سيف مجاشع ضربت ولم تضرب بسيف ابن ظالم
ومثل هذه الأخبار لطرافتها وجدتها تعلق بالنفوس وتسير على الألسنة ،

كصحف الأحزاب تجعل من حياة خصومها اليومية مادة لجدالها ، وموضوعاً لنقدتها ونضالها . وجريير لطول ما تمارس بالهجاء وغامر في الخصومة لأذع السخرية ، فاحش الدعابة . مر التهكم ، ومن ذلك كان يتصور الفرزدق ويمتقع لونه كلما وردت المربد قصيدة لجريير . وأى تهكم أمضّ وآلم من مثل قوله :

يا تَيْمُ إن بيوتكم تيمية قُفس العمد قصيرة الأطناب
قوم إذا حضر الملوك وفودهم نُتِفَت شواربهم على الأبواب
وقوله :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربعاً أبشر بطول سلامة يا مربع !
وقوله :

والتغليبي إذا تنحّض للقرى حك استه وتمثل الأمثالا
وقوله :

فَخَلَّ الفخر يا ابن أبي خلود وأدّ خراج رأسك كل عام
لقد علقت يمينك رأس ثور وما علقت يمينك باللجام

وكان الهجاء كان في جريير غريزة يرمى الناس عنها لأدنى سبب وعلى غير معرفة ، فقد دخل على الوليد بن عبد الملك وعنده عدى بن الرقاع العاملي ، فقال له الخليفة : أتعرف هذا ؟ قال : لا يا أمير المؤمنين . فقال : هذا رجل من عاملة . قال جريير : التي يقول فيها الله : (عاملة ناصبة تصلي ناراً حامية) ، ثم قال بيتاً قبيحاً ورد عليه عدىُّ بمثله فوجاه جريير بقصيدة منها ذلك البيت المشهور :

وابن اللبون إذا ما نُزِّيَ في قرآن لم يستطع صولة البُزَل القناعيس

ولعل ذلك راجع إلى ميل في طبع أمه إلى هذا الضرب من البذاء والإيذاء فاشتبهت أن تراه فيه ، حتى صُورت لها تلك الأمنية في الحلم ، فرأت وهي حامل

به أن حبلاً نزل منها فصار يثب على الناس فيخنقهم واحداً بعد واحد . فلما تأولت رؤياها قيل لها إنك تلدين ولداً يكون شديد الهجاء والبلاء على الناس والشعراء ، فسمته لذلك جريراً . وسواء أرات أمه هذه الرؤيا أم افترتها ؛ فقد كان لها ولا ريب أثر قوى في توجيه قريحته منذ طفولته .

وهجاء جرير على الجملة ضعيف الفخر لبعده مستقاه فيه ، وما استطاع الفرزدق أن يمجزه إلا في مشواره ، فهو يقول له بحق :

غلبتكَ بالمفْقَأِ والمعْنَى وبيت المحتبى والخافقات

يريد بالمفقأ أو المفقىء قوله :

ولست ولو فقت عينك واجداً أبالك إن عد المساعى كدارم

وبالمعنى قوله :

وإلك إن تسمى لتدرك دارماً لأنت المعنى يا جرير المكلف

وبالمحتبى قوله :

يبتساً زرارة محتب بفنائه ومجاشع وأبو الفوارس نهشل

وبالخافقات قوله :

وَأبن تُقْصَى المالكات أمورها بحق وأين الخافقات اللوامع

والفرزدق يريد بهذه الأبيات الإشارة إلى القصائد التي تضمنتها وهى من

عيون شعره ومنتين فخره .

وضعف جرير في الفخر إنما يرجع إلى الموضوع لا إلى الأسلوب ، فإنه أجمل خصوصه صياغة ، وأوفرهم بلاغة ، وأرقهم لفظاً ، وألطفهم مدخلا ، وأكثرهم فتناً . ولسهولة شعره وقلة غريبه نفق عند العامة والشعراء ، دون الرواة والعلماء . وهجاء هؤلاء الأقران الثلاثة إذا استثنينا منه المعانى الجديدة واللهجة الشديدة والتصوير البارع ، لم يخرج عن سمت الهجائين الفحول كالخبل القريعى ، وحسان

ابن ثابت ، والحطيئة ، في الابتداء بوصف الطلل والفضل ، والاعتماد على المفاخرة
والمناقرة ، وتلمس العيوب من خبايا الماضي ، والانتقال المقتضب من معنى إلى
معنى . وأشد ما يعيب هجاء جرير والفرزدق كثرة التكرار ، فإن كلا الزجلين
إنما يهجو صاحبه بطائفة من الحوادث والصفات ذكرناها من قبل ، فلاتراه
يسدل عنها ، ولا يكاد يزيد عليها ، وإنما يرددها في كل قصيدة أو نقيضة
في أساليب شتى وقواف مختلفة . فإذا قرأنا لكل واحد منهما واحدة منهن
لا يضيرنا بعدها ألا نقرأ غيرها . كذلك إذا ألمنا بهجاء الأخطل والفرزدق وجرير
فقد ألمنا بسائر الهجاء في هذا الطور ، لأنه مصنوع من مادته ومضروب على مثاله .
على أن أساليب شعراء العراق في الهجاء الحزبي تختلف عنها في الهجاء
الفردى ، فبينما هم في هذا لا يترفعون عن الهجو ولا يتورعون عن الكذب تراهم
في ذلك يذهبون مذهب الجاهليين ، فيفاخرون بالنسب ، ويتكاثرون بالعدد
والمال ، ويؤثرون اللفظ الشريف والأسلوب العف ، بيد أنهم يفلون في الفخر
حتى ليجعلونه في الدين والحكم والعلم والموطن .

قال أعشى همدان وهو من أنصار ابن الأشعث :

اكسع البصرى إن لاقيته إنما بكسع من قل وذل
واجمل الكوفي في الخليل ولا تجعل البصرى إلا في النفل
وإذا فاخرتمونا فاذكروا ما فعلنا بكم يوم الجمل
بين شيخ خاضب عُثْونَه وفتى أبيض وضاح رِفْل
جاءنا يخطر في سابغة فذبحناه ضحى ذبح الحمل
وعفونا فنسيتم عفونا وكفرتم نعمة الله الأجل
ومن هجائه السياسى الدينى قوله مرتجزاً فى الحجاج :

شعلت نوى من داره بالإيوان إيوان كسرى ذى القرى والريحان

إن ثقيفاً منهم الكذابان كذابها الماضي وكذابٌ ثان
أمكن ربي من ثقيف همدان إنا سمونا للكفور الفتان
حين طغى بالكفر بعد الإيمان بالسيد الفطريف عبد الرحمن
سار بجمع كالذي من قحطان فقل لحجاج وليّ الشيطان
يثبت لجمع مذبح وهمدان فإنهم ساقوه كأس الذيفان

وملحقوه بقري ابن مروان

وهذا النوع من الهجاء قليل النفوق والبقاء ، كثير النفاق والرياء ، لطمع الشعراء في حياء الخلفاء وإيثارهم في الغالب سلامة البدن على سلامة العقيدة . وليس الهجاء الحزبي إلا صورة من صور الشعر السياسي الذي نفق في هذا العصر . وما نزع بهذه التسمية أن الإسلاميين قد وقعوا على مذهب في الشعر جديد القصد والغاية ، فإن مساجلة الخصوم بالشعر كانت مألوفاً في عصر الجاهلية مشروعة في عهد النبوة ؛ إنما نقصد بالشعر السياسي طائفة من المعاني الجديدة استوحتها خواطر الشعراء من اختلاف الأحزاب في الرأي ، وتنازع الزعماء على الحكم . جاءت هذه المعاني الجديدة على النهج القديم في صور مختلفة ، نستطيع أن نردها إلى أربع :

١ - في صورة اللدح المشوب بالتحريض والتعريض كقول أبي العباس الأعمى :

| | |
|-----------------------|----------------------------|
| أبني أمية لا أرى لكم | شبهاً إذا ما التفت الشيعُ |
| سعة وأحلاماً إذا نزعت | أهل الخلوم فضرها النزع |
| أبني أمية غير أنكم ، | والناس فيما أطمعوا طمعوا . |
| أطمعتمو فيكم عدوكمو | فما بهم في ذاكم الطمع |
| فلو أنكم كنتم لقومكم | مثل الذي كانوا لكم رجعوا |
| عما كرهتم أو لردهم | حذر العقوبة ، إنها نزع |

وكقول الكميته :

بنى هاشم رهط النبي فإني بهم ولهم أرضى مراراً وأغضب
خفضت لهم منى جناحي مودة إلى كنف عطفاه أهل ومرحب
وأرعى وأرعى بالعداوة أهلها وإنى لأوذى فيهم وأؤنب

وكفة الأمويين في هذا الباب أرجح ، لما تجمع لهم من الترغيب في المال ،
والترهيب بالملك ، والتليق لهوى النفوس ، فدحهم ونصرهم أكثر الشعراء
في عصرهم ، إما دفعاً لشهرهم ، وإما طمعاً في خيرهم ، حتى الذين شايعوا خصومهم
من الزبيريين والملويين لم يستطيعوا حبس لعابهم عن عطايا القصر .

٢ — وفي صورة الهجاء كامر ، وكما قال أعشى ربيعة لعبد الملك :

آل الزبير من الخلافة كالتى عجل النتائج بحملها فأحالها
أو كالضعاف من الحمولة حملت مالا تطيق فضضيت أحالها
قوموا إليهم لا تناموا عنهم كم للفتوة أطلتم إهمالها
إن الخلافة فيكمو لا فيهم مازلتم أركانها وثمالها
أمسوا على الخيرات قفلا مغلقاً فانهب بيمنك فافيتتج أقفالها

٣ — وفي صورة اقتراح لسياسة واستطلاع لرأى ، كقول مسكين الدارمي ،
وقد أوعز إليه معاوية أن يقترح البيعة من بعده لابنه يزيد ليعلم رأى قومه
في ذلك .

إليك أمير المؤمنين رحاتها تنير القطا ليلا وهن هجود
ألا ليت شعري مايقول ابن عامر ومروان أم ماذا يقول سميد

بنى خلفاء الله مهلاً فإيماً بيوتها الرحمن حيث يريد
إذا المنبر القربى خلاه ربُّه فإن أمير المؤمنين يزيد
فلما أتم إنشاده قال له معاوية : نغظر فيما قلت يامسكين ونستخير الله .
ومثل ذلك حدث من عبد الملك ، فقد أراد أن ينقل ولاية العهد من أخيه
عبد العزيز إلى ابنه الوليد ، فأمر النابغة الشيباني أن يقترح ذلك في حضرة
الغاس فقال :

لابنك أولى بملك والده ونجم من قد عصاك مطرَح
داود عدل فاحكم بسيرته تم ابن حرب فإيهم نصحوا
وهم خيار فاعمل بسنتهم واحيَ بخير واكده كما كدهوا
فابتسم عبد الملك ولم يتكلم ، فعلم الناس أن ذلك أمره .

٤ - ثم في صور جدل في رأى أو بيان لمذهب ؛ فن الجدل السياسى ما وقع
بين كعب بن جعيل والنجاشى في المفاضلة بين على ومعاوية ، فقد قال كعب ؛

أرى الشام تكره ملك العرا ق وأهل العراق لهم كارهينا
وكل لصاحبه مبغض يرى كل ما كان من ذلك ديننا
وقالوا علىُّ إمام لنا فقلنا رضينا ابن هند رضينا
وقالوا نرى أن تدينوا لهم فقلنا لهم لا نرى أن نديننا
وكلُّ يسر بما عنده يرى غث ما فى يديه سمينا
وما فى علىِّ بمســــــــــــتعتب ينال سوى ضمه المحدثينا
وليس براض ولا ساخط ولا فى النهاية ولا الأمرينا
ولا هو ساء ولا هو سرّ ولا بد من بعد ذا أن يكوننا

فلما بلغ ذلك الإمام علياً أمر النجاشي أن يجيبه فقال :

دَعَنْ مَعَاوِي مَا لَمْ يَكُونَا لَقَدْ حَقَّقَ اللَّهُ مَا تَحَذَرُونَا
أَتَاكُمْ عَلِيٌّ بِأَهْلِ الْعِرَاقِ وَأَهْلَ الْحِجَازِ فَمَا تَصْنَعُونَا ؟
يُرُونَ الطَّعْمَانَ خِلَالَ الْمَجَاجِ وَضَرَبَ الْفَوَارِسَ فِي النَّقْعِ دِينَا
هُوَ هَزَمُوا الْجَمْعَ جَمْعَ الزَّبِيرِ وَطَلَّحَةَ وَالْمَعْشَرَ النَّكَثِينَا
فَإِنْ يَكْرَهُ الْقَوْمَ مَلِكَ الْعِرَاقِ فَقَدِمْنَا رَضِينَا الَّذِي تَكْرَهُونَا
فَقُولُوا لِكَعْبِ أَخِي وَأَثَلِ وَمَنْ جَعَلَ الْفَتْحَ يَوْمًا سَمِينَا :
جَعَلْتُمْ عَلِيًّا وَأَشْيَاعَهُ نَظِيرَ ابْنِ هِنْدٍ أَلَا تَسْتَحُونَا ؟
ومن البيان المذهبي قول كثير عزة يشرح عقيدة الشيعة في الإمامة :

أَلَا إِنَّ الْأَئِمَّةَ مِنْ قُرَيْشٍ وَوَلَاةَ الْحَقِّ أَرْبَعَةٌ سِوَاءِ :
عَلِيٍّ وَالثَّلَاثَةِ مِنْ بَنِيهِ هُمْ الْأَسْبَاطُ لَيْسَ بِهِمْ خِفَاءُ
فَسَبَطٌ سَبَطُ إِيمَانٍ وَبِرٍ وَسَبَطٌ غَيْبَتُهُ كَرِبَاءُ
وَسَبَطٌ لَا يَذُوقُ الْمَوْتَ حَتَّى يَقُودَ الْخَيْلَ يَقْدِمُهَا الْوَأَاءُ
تَغِيبُ لَا يَرَى فِيهِمْ زَمَانًا بَرَضُوى عِنْدَهُ عَسَلُ وَمَاءُ

وكقول ثابت قطنه ، وهو من شعراء الأمويين ، يفصل مذهب الإرجاء :

يَا هِنْدُ فَاسْتَمِعِي لِي إِنْ سِيرْتِنَا أَنْ نَعْبُدَ اللَّهَ لَمْ نَشْرِكْ بِهِ أَحَدًا
نَرْجِي الْأُمُورَ إِذَا كَانَتْ مَشْبَهَةً وَنَصَدِّقُ الْقَوْلَ فِيمَنْ جَارَ أَوْ عِنْدَا
الْمُسْلِمُونَ عَلَى الْإِسْلَامِ كَالْهَمِّ وَالْمَشْرُكُونَ اسْتَبَوْا فِي دِينِهِمْ قَدَا
وَلَا أَرَى أَنْ ذَنْبًا بَالِغٌ أَحَدًا فِي النَّاسِ شَرَكًا إِذَا مَا وَحَدُوا الصِّمْدَا
إلى أن قال :

كل الخوارج مخط في مقالته ولو تعبد فيما قال واجتهدا
أما عليّ وعثمان فإنهما عبدان لم يشركا بالله مذ عبدا
الله أعلم ما قد يحضران به وكل عبد سيليقي الله منفردا

هذه جملة المعاريض التي عرضت بها المعاني السياسية . ولعلك تلاحظ من
هذه الأمثلة أنها في الغالب مهلهلة النسيج ، نابية القافية ، بادية التكلف ، تشبه
من بعض الوجوه نظم المتون في الشعر التعاليمي . وعلّة ذلك أن اتصالها بالوجدان
ضعيف ، وأن أكثرها إنما يصدر عن طبع مكره ، أو شعور ممالق ، أو قرينة
كافية . والفرق بين شعر الأخطل والفرزدق وجريير ، وبين شعر هؤلاء الذين
ذكرنا كالفرق بين من يمبر عن شعوره وحسه ، ويدافع عن قبيله ونفسه ، وبين
من يتصل لسانه بقلب غير قلبه ، ويدفعه طمعه إلى ممالأة حزب غير حزبه .

على أن من شعراء الأحزاب من قالوا الشعر عن عقائد دينية ، وعواطف
نفسية ، ونوازع عصبية ، فكان لشعرهم جمال الإخلاص وروعة اليقين وقوة
الحقيقة ، أولئك هم شعراء الشيعة والخوارج . فحق علينا ونحن في مقام البحث
في شعراء العراق أن نديم النظر ساعة في أشعارهم ، لنستشف من خلالها صور
مذاهبهم وأفكارهم

شعر الشيعة :

ورث عليّ بن أبي طالب بحكم مولده ومرباه مناقب النبوة ، ومواهب الرسالة ،
وبلاغة الوحي ، وصراحة المؤمن ، وبسالة المجاهد ، فأجمع الناس على إجلاله
وكادوا يطبقون على حبه . حتى من كتب عنه من الأروبيين قد شاركوا المسلمين
في هذه الماطفة ؛ فقد قال فيه السكاتب الإنجليزي كارليل : « أما ذلك الفتي
عليّ فلا يسمعك إلا أن تحبه . ركب الله في طبعه النبل منذ الحداثة ، وتجلّى
في خلاله السكرم طوال عمره ، ثم طبعه على العمل ونفاذ الهمة وصراحة البأس ،

وآتاه سر الفروسية وجرأة الليث ، وكل أولئك في رقة قلب وصدق إيمان وكرم فعال تليق بالفروسية المسيحية . ثم سار علىّ في خصومته وخلافته وسياسته علىّ ضوء هذه الأخلاق ، فما قارف الأثرة ، ولا حاول الفرقة ، ولا راقب الفرصة ، ولا أثار العصبية ، ولا استخدم المال ، وإنما أخلص النية للعمرين ، ومحض النصيحة لعمان ، وأعذر بالحجة لمعاوية . ولكن دنيا الفتوح كانت قد أخذت علىّ عهده تتجاهل دين البساطة والزهد ، ولم تعد السياسة الدينية وحدها فادرة على كبح النفوس المفتونة بمال معاوية في الشام ، وثرأ الرافدين في العراق ، فانتشر أمره وانصدت خلافته ، ثم قتل مظلوماً في محرابه ؛ فكان بحياه ومماته تاريخاً دائماً للفضيلة المعذبة والنفس المطمئنة الشهيدية . ثم ورث بنيه وأهليه ذلك العزم الناثر وهذا المجد العائر ، قدب الموت للحسن سرأ في كأس مذعوفة ، وقتل الحسين فتلة لا يزال يردد من هولها الدهر .

وتلاحقت الفواجع الأموية فصرع زيد وقتل يحيى ، وافتتحت المنايا الرواصد في اختلاج بنى علىّ ، وهم يقابلون هول الفوائل الظاهرة والباطنة بالشجاعة والصبر والاحتساب ، حتى أسفرت حول وجوههم طفاوة من التنزيه والتقديس وتخللت محبتهم قلوب المسلمين ، ولا سيما الشيعة ، فإن ندمهم على خذلانهم إياهم ، وألمهم لما رأوا من اضطهادهم وأذاهم ، رفعاً في نفوسهم ذلك الحب حتى أشرفابه على مقام العبادة . ثم ظهر ذلك الحب في صور من العقائد : فقالوا بالوصية ، وجعلوا الإمامة من أصول الدين ، وحصروها في علىّ وبنيه ، وطعنوا في إمامة الشيخين . ولم يتهبأ لهم السلطان ، ولم تسعفهم القدرة ، فاعتمدوا على استمالة القلوب وترقيتها بالبكاء والندب ، وتصوير الآلام ، وإعلان الفضائل ، فاصطبغ شعرهم بالحزن العميق ، والرثاء النائح ، والمدح المبتهل ، والعصبية الحاقدة . على أن هذه الخصائص لم تكن واضحة في شعر أوائل الشيعة وضوحها في شعر الأواخر منهم : فإن تغفلل الفكرة في أصل العقيدة ، وتنسكيل الحاكمين بآل البيت ،

واضطهاد الولاة للشيعة ، إنما تدرجت قسوةً وقوةً مع الزمن ، فضلاً عن قلة شعراء الشيعة في هذا العصر لإفساد الأمور بين الضمائر بالحديد والذهب ، فشرعوا بدأ ولاء صادقاً ، ومدحاً خالصاً ، وهجاء مرأً ، ثم اشتد فصار مفاضلة جريئة ، ومعارضة شديدة ، ومناقشة فقهية ، ودعاية حزبية . ولعل ذلك يتجلى لك فيما ذكرناه وفيما سنذكره من الأمثلة . فن التعمير عن العاطفة القوية الساذجة قول أبي الأسود الدؤلى :

يقول الأردلون بنو قشير طوال الدهر لا تنسى عليا
بنو عبد النبي وأقربوه أحبُّ الناس كلهم إليا
أحبهم كحب الله حتى أجيء إذا بُعثت على هويأ
فإن يك جهم رشداً أصيبه ولست بمخطيء إن كان غيأ

ومن المدح والمفاضلة قول أيمن بن خزيم الأسدى :

نهاركم مكابدة وصوم وليلكم صلاةً واقترأ
أجمعكم وأقواماً سواء وبينكم وبينهم الهواء ؟
وهم أرض لأرجلكم وأنتم لأرؤسهم وأعينهم سماء

ومن الهجاء قول ابن مفرغ الحميرى :

ألا أبلغ معاوية بن صخر مغلغلة من الرجل اليماني
أتغضب أن يقال أبوك عفٌّ وترضى أن يقال أبوك زانى ؟
فأشهد إن رحمتك من زياد كرحم الفيل من ولد الأتان
وأشهد أنها ولدت زياداً وصخر من سُميَّة غير داني

وقول عبد الله بن هشام السلولى في يزيد بن معاوية :

حُشِينا الفيظ حتى لو شربنا دماء بنى أمية ما روينأ

لقد ضاعت رعيتكم وأنتم تصيدون الأراب غافلين
ومن المناقشة الجدلية قول الكميت في الخلافة :
يقولون لم يورث ولولا تراثه لقد شَرَكْت فيه بجيل وأرحب
ولا انتشلت عضوين منها يُجَابِرُ وكان لعبد القيس عضو مؤرَّب
فإن هي لم تصلح لحي سواهمُ إذن فذوو القربى أحق وأقرب
فيالك أمراً قد تشتت جمعه وداراً ترى أسبابها تتقضب
تبدلت الأشرار بعد خيارها وجُدَّ بها من أمة وهي تلعب ا
ويكاد الكميت بن زيد الأَسدي بقصائده الهاشميات يكون الشاعر الفذ
لبنى هاشم ؛ فقد مدحهم واحتج لهم ودافع عنهم بلسان صادق واعتقاد خالص
ونفس جريئة وقريحة سمحة . ولما أهدر هشام بن عبد الملك دمه لجأ على
ما أرجح إلى التقيّة في شعره على عادة الشيعة ، فقال من كلمة يمدحه فيها .

فألآن صرتُ إلى أمّية والأُمور إلى المصاير

يا ابن العقائل للعقا ئل والجحاحجة الأُخاير

من عبد شمس والأكا بر من أمية فالأكاير

لكم الخلافة والإلا ف برغم ذى حسد وواغر

ومهما يقل الكميت فإن عاطفة شعراء الشيعة ستظل كما قلنا مكظومة بالطمع
والخوف حتى تنبجس في عهد بنى العباس نفثات غيظ ، وحسرات حزن ، وعبرات
ألم في شعر السيد الحميري ، ودعبل الخزاعي ، وديك الجن ، ومطيع بن إلياس ،
وأبي الشيص ، والبسكوك ، وأضرابهم .

شعر الخوارج :

وأما الخوارج - وجهرتهم من البدو الجفاة والسذج - فقد قام أمرهم على

الصلابة في الرأي ، والمكابرة في القول ، والاشتطاط في الحكم ، والتشدد في الدين ، والغلو في العبادة ، والقسوة في المعاملة ، والاعتماد على الحرب . شايعوا علياً وآزروه حتى قبل التحكيم ، فقالوا له : حَكَمْتَ الرجال ولا حكم إلا لله ! ثم خرجوا عليه وأبوا أن يرجعوا إليه إلا إذا أقر على نفسه بالكفر ، ونقض ما عاهد معاوية عليه . فأبى عليهم ما سألوا ، وأوقع بهم يوم النهروان ، فزاد ذلك في حنقهم عليه وخلافهم له ، فائتمروا به واغتالوه . واستعرضوا أعمال الخلفاء وعقائد الناس ، نخطأوا بعضاً وكفروا بعضاً . ثم ذهبوا إلى أن الخلافة تصح في غير قريش وفي غير العرب ، وأن العمل جزء من الإيمان ، فحرصوا كل الحرص على أداء الشعائر واجتناب الكبائر ، ولاذوا بكور الجبال يدعون جهراً إلى مذهبهم دون موارد ولا تقية ولا هوادة ؛ فكانوا في الدين كما قال صاحبهم أبو حمزة الشاري : « أنضاء عبادة وأطلاق سهر . قد أكلت الأرض أطرافهم ، واستقلوا ذلك في جنب الله . فإذا كان الجهاد ورعدت الكتيبة بصواعق الموت ، استخفوا بوعيد الكتيبة لوعيد الله ، ومضى الشاب منهم قدماً حتى اختلفت رجلاه في عنق فرسه ، وتخضبت بالدماء محاسن وجهه ، فإذا أنفذه الرمح جعل يسمى إلى قاتله ويقول : « وعجلت إليك رب لترضى » .

وكانوا مع هذا الورع الشديد والخشية البالغة يقسون على مخالفيهم ، فلا يرحمون ضعف المرأة ، ولا براءة الطفل ، ولا شيخوخة الهرم ، ولا وشائج الرحم ؛ لأنهم - كما ظنوا - باعوا أنفسهم وأموالهم لله بأن لهم الجنة ، فقطعوا أسباب الحياة ، وأماتوا عواطف الدنيا ، وقتلوا وقتلوا في سبيل هذا المذهب وتلك الغاية . وهم لصراحة بداوتهم ، وشدة عصبيتهم ، وخلوص عقيدتهم ، وما تقتضيه دعوتهم من إدمان الحجاج والمناظرة أسلس الناس منطقاً ، وأروعهم كلاماً ، وأمتنهم شعراً . ولكن الشعر كان عندهم في المحل الثاني من الخطابة ، اقيام أمرهم على الإقناع والجدل بآيات الله وأحاديث الرسول ؛ وغناء الشعر في ذلك قليل . فإذا ما برز الخارجي

للخصم ، أو هجم على الموت ، أو وقع في الأسر ، جاشت نفسه بمتين الرجز ،
أورصين القصيد ، يضمه وصفه للحرب ، وولمه للقتال ، وزهده في الحياة ،
واستخفافه بالموت ، وشوقه إلى الشهادة ، وظمأه إلى الجنة ، في لفظ جزل
وأسلوب قوى ، قلما يدور شعرهم على غير ذلك . فمن الرجز قول ابن أم حكيم :

أحمل رأساً قد سئمت حمله وقد مللت دهنه وغسله

الآفتى يحمل عنى ثقله ا

ومن القصيد قول معاذ بن جوين يحرص قومه وهو أسير :

ألا أيها الشارون قد حان لأمرى شرى نفسه لله أن يترحلا
أقم بدار الخاطئين جهالة وكل امرىء منكم يصاد ليقتلا
فشدوا على القوم العداة فإنها أقامتكم للذبح رأيا مضللا
ألا فاقصدوا يا قوم للغاية التي إذا ذكرت كانت أبر وأعدلا
فياليتنى فيكم على ظهر ساج شديد القصيرى دارعا غير أعزلا
فيأرب جمع قد فلت ، وغارة شهدت ، وقرن قد تركت مجذلا
وقول الطرماح بن حكيم :

لقد شقيت شقاء لا انقطاع له إن لم أفره فوزه تنجى من النار
والنار لم ينج من هيبها أحد إلا المنيب بقلب المخلص الشارى
أو الذى سبقت من قبل مولده له السعادة من خلاقها البارى
وقوله :

وأسمى شهيداً ثاويًا فى عصابة يصابون فى فيج من الأرض خائف
فوارس من شيبان ألف بينهم تُقى الله نزالون عند الزواحف

إذا فارقوا دنياهم فارقوا الأذى وصاروا إلى ميعاد ما في المصاحف
وكقول قطري بن الفجاءة في يوم دولاب :

فلم أرى يوماً كان أكثر مقصماً يمج دماً من فائظ وكليم
وضاربة خدأً كريماً على فتى أغر نجيب الأمهات كريم
أصيب بدولاب ولم تك موطناً له أرض دولاب ودير حيم
فلو شهدتنا يوم ذاك وخيلنا تبيح من الكفار كل حريم
رأت فتية باعوا الإله نفوسهم بجنات عدن عنده ونعيم

وقليلاً ما يجادل الخوارج بالشعر ويقارعون بالهجاء، لاعتمادهم في الجدل على
الخطابة، وفي القراع على السيف . ومن هذا القليل قول بعضهم في الجدل
وقد هزم أربعون منهم ألفين لابن زياد :

ألقا مؤمن فيما زعتم ويقتلكم بأسك أربعونا
كذبتم ليس ذلك كما زعتم ولكن الخوارج مؤمنونا
هي الفئة القليلة قد علمتم على الفئة الكثيرة ينصرونا

وقول عمران بن حطان في هجاء الإمام :

لله در المرادى الذى سفكت كفاء مهجة شر الخلق إسانا
أمسى عشية غشاه بضربته مما جناه من الآثام عُريانا
وما حمله على ذلك إلا أنه من القعدة لضعفه عن الحرب لكبر سنه
لجاهد بلسانه .

نماذج من الشعر الاموى

قال قَطْرَىُّ بن الفجاءة :

أقول لها وقد طارت شعاعا من الأبطال ويحك لن تراعى
فإنك لو سألت بقاء يوم على الأجل الذى لك لم تُطاعى
فصبراً في مجال الموت صبراً فما نيلُ الخلود بمستطاع
ولا ثوب البقاء بثوب عز فيطُوى عن أخى الخلع اليراع
سبيل الموت غايةُ كل حى فداعيه لأهل الأرض داع
ومن لا يُمتبِطُ بسأم ويهرمُ وتُسلمه المنون إلى انقطاع
وما للمرء خيرٌ في حياة إذا ما عدَّ من سَقَط المتاع

وقال عبد الله بن قيس الرقيبات في قريش :

حبذا العيش حين قوى جميعٌ لم تفرق أمورها الأهواء
قبل أن تطمع القبائل في ما لك قريش وتشتت الأعداء
أيها المشتعى فناء قريش بيد الله عمرها والفناء
إن تودع من البلاد قريش لا يكن بعدهم لحي بقاء

وقال الحطيئة يمدح بفيض بن لأمى :

تزور امرأً يؤتى على الحمد ماله ومن يؤت أثمان الحماد يُجمد
يرى البخل لا يبقى على المرء ماله ويعلم أن البخل غيرُ محمَّد
كسوب ومِتلاف إذا ما سألته تهلل فاهتز اهتزاز المهند
متى تأنه تمشو إلى ضوء ناره تجد خير نار عندها خيرُ موفد

وقالت الخنساء :

دلّ على معروفه وجهه ——— بُورك هذا هادياً من دليل !
تحسبه غضبان من عزه ذلك منه خلق ما يحول
ويلمة مسعراً حرب إذا ألقى فيها وعليه السليل !
وقال السكيت^(١) الأسدَى يمدح مسleme بن عبد الملك :

فما غاب عن حلم ولا شهد الخنا ولا استمذب العوراء يوماً فقالها
وتفضل أيمان الرجال شماله كما فضلت يميني يديه شمالها
وما أجم المعروف من طول كرهه وأمرأ بأفعال الندى وافتعالها
ويبتذل النفس المصونة نفسه إذا ما رأى حقاً عليه ابتذالها
بلونك في أهل الندى ففضلتهم وباعك في الأبواع قدماً فطالها
فأنت الندى فيما ينوبك والسدى إذا الخود عدت عقبه القدر مالها
وقالت ليلى الأخيلية تثرى توبة :

لعمرك ما بالموت عاراً على الفتى إذا لم تصبه في الحياة المعاري

(١) هو السكيت بن زيد الأسدَى ولد سنة ٦٠ هـ بالكوفة ونشأ في قومه بني أسد فلما نزلت اللغة وثقف الأدب وعلم الأنساب وشاهد الأهراب وتلقى أخبار العرب عن جدتهين له أدركتا الجاهلية ، ثم قال الشعر وهو صغير ولكنه كان يخشى أن يديه حتى أنشد الفرزدق شيئاً منه وسأله حكاه فيه أينسره أم يطويه ، فأمره بإذاعته فأذاعه . ونظم قصائده الهاشميات يظهر فيها تشبهاً لأولاد علي ويحتج لهم ويدافع عنهم . ولما نالهم بالأدنى حكيم السكابي شاعر البماينة هجاء السكيت وهجاء البماينة جماء ؛ فغضب خالد بن عبد الله القسري والى العراق وكان يمانياً فسمى به إلى هشام وأسماه شعره في ذم بني أمية ومدح بني هاشم فأمره بقتله فسجنه ، ففر السكيت من سجنه حتى لحق بالشام ولاذ بقبر معاوية بن هشام فأمنه الخليفة وعفا عنه . ولبت السكيت على مدح بني هاشم وذم البماينة فأثار المصيبة بين العدنانيين والتحصانيين وأرث المداوة السكائنة في صدور الأميين ، فانتسخت الهوة وتفرقت السكامة ودامت هذه الفتنة حتى أواسط الدولة العباسية ، وكانت وفاة السكيت سنة ١٢٦ هـ .

وما أحد حتى وإن عاش سالماً
فلا الحى مما أحدث الدهر مُعْتَبَ
وكل جديد أو شباب إلى بلى
وكل قريفي ألفةٍ ليتفرق
فلا يُبْعِدَنَّكَ اللهُ ياتوب هالكاً
فآليت لا أنفك أبكيك مادعت
وقال أبو ذؤيب الهذلي يرثى بنيه
الخمسة وقد هاجروا إلى مصر فهلكوا
في عام واحد :

أمنَ المنون وربها تتوجع
قالت أمامة ما لجسمك شاحباً
فأجبتها إرثى لجسمى إنه
أودى بنى فأعقبوى حسرة
فالعين بعدهم كأن حِداقها
فغيرت بعدهم بعيش ناصب
سبقوا هوى وأعنفوا لهوهم
ولقد حرصت بأن أدافع عنهم
وإذا المنية أنشبت أظفارها
وتجلدى للشامتين أريهم
حتى كأنى للحوادث مروّة
وقال جرير يرثى ابنه :

كيف العزاء وقد فارقت أشبالى
قالوا نصيبك من أجر فقلت لهم

غارقتني حين كف الدهر من بصرى وحين صرت كعظم الرمة البالي
وقال مالك بن أسماء في الهجاء :
لو كنت أحمل خمراً يوم زرتكم لم ينكر الكلب أنى صاحب الدار
لكن أتيت وريح المسك يقمى وعبر الهند أذكيه على النار
فأنكر الكلب ريحي حين أبصرني وكان يعرف ريح الزق والقار
وقال آخر :
أقول حين أرى كعباً ولحيته لا بارك الله في بضع وستين
من السنين تولاهها بلا حسب ولا حياء ولا قدر ولا دين
وقال عبد الرحمن بن الحكم :
لما الله قيساً قيساً عيلان إنما أضاعت ثنور المسلمين ووات
فشاول بقيس في الطعان ولا تكن أخاها إذا ما المشرفية سلّت
وقال الطرّمّاح يهجو بني تميم :
تميم بطرق الثوم أهدي من القطا ولو سلسكت سبيل المكارم ضلّت
ولو أن برغوثاً على ظهر نملة يهكر على صنيّ تميم لوات
وقال حندج بن حندج المري يصف ليل صول :
في ليل صول تناهى العرض والطول كأنما ليسله بالليل موصول
لا فارق الصبح كفي إن ظفرت به وإن بدت غرة منه وتمجيل
يساهر طال في صول تملله كأنه حية بالسوط مقتول
متى أرى الصبح قد لاحت مخايله والليل قد مزقت عنه السراويل
ليل تخير ما يتحط في جهة كأنه فوق متن الأرض مشكول

نجومه رُكِّدٌ ليست بزائلة كأنما هن في الجو القناديل
ما أقدر الله أن يذني على شحط من داره الحزن من داره صول
الله يطوى بساط الأرض بينهما حتى يرى الربيع منه وهو مأهول

وقالت الخنساء تصف سباقاً كان بين أبيها وأخيها :

جارى أباه فأقبلا وهما يتعاوران ملاءة^(١) الحضر
حتى إذا نزت القلوب وقد نزت هناك العذر بالعذر
وعلا هتاف الناس أيهما ؟ قال الجيب هناك لا أدرى
برزت صحيفة وجهه والده ومضى على غلوائه يجرى
أولى فأولى أن يساويه لولا جلال السن والكبر
وهما وقد برزا كأنهما صقران قد حطّا إلى وكر

وقال الفرزدق يصف ذئباً صادفه أثناء سفره فأطعمه من زاده :

وأطلس عسال وما كان صاحباً دعوت لنارى موهيناً فأتانى
فلما أتى قلت أذن دونك إننى وإياك فى زادى لمشتركان
فبت أفدُّ الزاد بينى وبينه على ضوء نار مرة ودخان
وقلت له لما تكشر ضاحكاً وقائم سيني من يدي بمكان
تعش فإن عاهدتني لا تخونني نكن مثل من ياذبُ يصطحبان
وأنت امرؤ ياذب والنذر كفتما أخيين كانا أرضعا بلبان
ولو غيرنا تبعت تلتمس القرى رماك بسهم أو شياة سنان

(١) الملاءة : الفبار ، والحضر : العدو الشديد .

وقال بعض الحجازيين يصف حال امرأته عندما علمت بزواجه من غيرها :

خبروها بأننى قد تزوجت فظلت تكاتم الغيظَ سرّاً
ثم تقالت لأختها ولأخرى جزعاً : ليته تزوجَ عشراً !
وأشارت إلى نساء لديها لا ترى دونهن للسرى سترأ :
مالقلبي كأنه ليس منى وعظامى كأن فيهن فترأ ؟
من حديث نما إلى فظيعٍ خِلْتُ في القلب من تلظيه جمرأ

وقال عروة بن أدبنة في الغزل :

إن التي زعمت فؤادك ملها خلقت هواك كما خلقت هوئى لها
بيضاء باكرها النعم فصاغها بلباقه فادقها وأجلها
حجبت تحيتها فقلت لصاحبي : ما كان أكثرها لنا وأقلها !
وإذا وجدت لها وساوس سلوة شفع الضميرُ إلى الفؤاد فسلمها

وقال جميل بن معمر .

وإني لأرضى من بُشينةً بالذى لو ابصره الواشى لقرتْ بلبله
بلا ، وبألا أستطيع ، وبالمى ، وبالأمل المرجو قد خاب آمله
وبالنظرة العجلى ، وبالحول تنقضى أواخره لا نلتقى وأوائله

وقال أيضاً :

وما زلتُ يا بنت حتى لو انى من الشوق أستبكي الحمام بكى ليا
إذا خدرتُ رجلى وقيل شفاؤها دعاء حبيب كنت أنت دعائياً
وما زادنى النأى المفرق بعدكم سلواً ولا طولُ التلاقي تقاليا
ولا زادنى الواشون إلا صباية ولا كثرة الناهين إلا تماديا

لقد خفت أن ألقى المنية بفتنة وفي النفس حاجات إليك كما هيا
وقال يزيد بن الطَّثْرِيَّة .

بنفسى من لو مر برّد بنانه على كبدي كانت شفاء أنامله
ومن هابنى فى كل أمر وهِبْتُهُ فلا هو يعطينى ولا أنا سائله
وقال قيس بن ذَرِيح :

فإن يحجبوها أو يحلّ دون وصلها مقالة واش أو وعيد أمير
فلم يمنعوا عينيّ من دائم البكا ولم يذهبوا ما قد أجن ضميرى
وقال كثير من قصيدة يذكر فيها هجران عزة وسلوانه :

وما كنت أدري قبل عزة ما البكا ولا موجعات القلب حتى تولتِ
وكانت لقطع الحبل بينى وبينها كفاذرة نذراً فأوفت وحلت
ولم يلق إنسان من الحب مبيعةً تعمّ ولا غشاء إلا تجلّت
أريد الثّواء عندها وأظنها إذا ما أطلنا عندها المسكّ ملت
فما أنصفت ، أما النساء فبغضت إلىّ ، وأما بالنوال فضنت
يكلفها الغَيْرانُ ^(١) شتمى وما بها هوانى ، ولسكن للمليك استذلت
هينئاً مريئاً غير داء مُحَامِرِ لعزة من أعراضنا ما استحلّت
فوالله ما قاربت إلا تباعدت بهجر ولا أكثرت إلا أقلت
فإن تكن العُتْبَى فأهلاً ومرحباً وحقّت لها العتبي لدينا وقلّتِ
وإن تكن الأخرى فإن وراءنا مفادح لو سارت بها العيسُ كَلَّتِ

(١) زوجها .

أسئى بنا أو أحسنى لا مَؤمَّةَ لدينا ولا مَقْلِيَّةَ إن تَقَلَّتْ
فما أنا بالدَّاعى لعِزَّةِ بالجوَى ولا شامت أن نعلُ عِزَّةَ زلت
فلا يحسب الواشون أن صِبا بقی بعِزَّةَ كانت غمِرة فتجَلَّتْ
فوالله ثم الله ما حلَّ قبلها ولا بعدها من خُلَّةٍ حيث حَلَّتِ
فيا عجباً للقلب كيف اعترافه وللنفس لما وُطِنَتْ كيف ذلتْ
وإنى وهيامى بعِزَّةَ بعدما تَخَلَّيتُ مما بيننا وتَحَلَّتْ
لكالمرتبجى ظلَّ الغمامة كلها تبوأ منها المِقيَلِ اضمحلتِ
فإن سأل الواشون فيمَ هجرتها فقلُّ نفسُ حر سُلِّيتُ فنسَلتْ
وقال جرير على لسان يزيد :

فأنت أبى مالم تكن لى حاجةٌ فإن عرضت أيقنت أن لا أباليا
وإنى لمغرور أعللُ بالمنى ليلالى أرجو أن مالك مالياً
بأى نجادٍ تحمل السيف بعدما قطعت القوى من محمل كان باقياً ؟
بأى سنان تطعن القوم بعدما نزعْتَ سناناً من قناتك ماضياً ؟
وقال مالك ابن أسماء يعتذر :

لكل جواد عثرة يستقيها وعثرة مثلى لا تقال مدى الدهر
فهينى يا حجاج أخطأت مرة وجُرت عن المثلى وغنيتُ بالشعر
فهل لى إذا ماتبت عندك توبة تدارك ما قد فات فى سالف العمر ؟
وقال الخطيئة :

أتنى لسان فكذبها وما كفت أحسبها أن تُقالا
بأب الوشاة بلا حُرمة أتوك فراموا لديك الحالا

فجتتك معتذراً راجياً
فلا تسمعن بي مقال العدى
لعفوك أرهب منك النكالا
ولا تؤكلى هديت الرجالا
فإنك خير من الزبرقان
وقال حسان بن ثابت :

المال يَفشى رجالاً لا طَبَّاحَ بهم
أصون عرضي بمالي لا أدنسه
كالسيل يفشى أصولَ الدندن البالي
لا بارك الله بعد العرض في المال
أحتال للمال إن أودى فأجمعه
ولست للعرض إن أودى بمحتال
الفقر يُزرى بأقوام ذوى حسب
ويقتدى بلثام الأصل أنذال
وقال كُمَيْرٌ :

ومن لا يُغْمِضَ عينه عن صديقه
ومن يتتبعُ جاهداً كل عثرة
وعن بعض ما فيه يمت وهو عاتب
يقبضها ولا يسلم له الدهر صاحب
وقال كعب بن زهير .

لو كنت أعجب من شيء لأعجبني
يسعى الفتى لأمر ليس يدركها
سعى الفتى وهو مخبوء له القدرُ
والنفسُ واحدة والمهمُّ منتشرُ
فالمرء ما عاش ممدوداً له أمل
لا ينتهى العمر حتى ينتهى الأثر
وقال النابغة الجعدي :

ولا خير في حلِم إذا لم تكن له
ولا خير في جهل إذا لم يكن له
بوادِرُ تحمى صفوه أن يكدرأ
حلِيم إذا ما أورد الأمرَ أصدرا

الشعراء وطبقاتهم

نبغ في هذا العصر على قصره زهاء مائة شاعر كان لهم السهم الربيح في نهضة العرب الدينية والسياسية والاجتماعية ، لقوة الدعاية في الشعر ، وتأثير الفصاحة في العرب ، وشدة العصبية في الولاة . وشعرهم وإن سار على منهاج الجاهلية أسى خيالاً واقرب منالاً وأوثق مبنى وأغزر معنى من المتقدمين ؛ لتأثرهم بالدين والحضارة كما علمت ، وهم إما محضرمون ككعب بن زهير والخنساء وحسان بن ثابت والخطيئة ؛ وإما إسلاميون كعمر بن أبي ربيعة والأخطل وجريير والفرزدق والسكيت والطرمّاح وكثير وذى الرمة . وكلهم صريح العربية ، صحيح اللغة ، فصيح اللهجة ، في الشعر والنحو حجة .

وأشهر هؤلاء الشعراء كما ذكرنا من قبل ثلاثة منوا بداء السياسة ، وشهوة المنافسة ، فزقوا ستائرهم وفرقوا عشائرهم ، وأشاعوا هجر القول في الناس ، ولم يتعرض لهم أحد إلا افتضح ؛ وهم جريير والفرزدق ولأخطل . وقد انقطعوا للشعر والتكسب به ، والتف حول كل منهم طائفة تفتخر به وتنتصر له . ويكاد الناس لا يختلفون إلا فيهم ، ولا يعقدون التفاضل إلا بينهم .

الشعراء المخضرمون

كعب بن زهير

المتوفى سنة ٣٤ هـ

نشأته وهيبته

هو أبو عقبة كعب بن زهير بن أبي سلمى المزني . نشأه أبوه على الأدب والحكمة فشبّ فصيحاً شاعراً . ولما ظهر الإسلام خرج هو وأخوه بجير إلى

رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ثم بداله فتأخر وتقدم بجير ، فسمع كلام رسول الله وأسلم . فمضت كعب لإسلامه ونهاه ، وهجاء وهجا رسول الله معه بأبيات يقول فيها :

ألا أبلغنا عنى بجيراً رسالةً فهل لك فيما قلت ويحك هل لك ؟
سقاك بها المأمون كأساً رويّةً فأهلك المأمون منها وعلكا
فقارفت أسباب الهدى واتبعته على أىّ شئٍ وبى غيرك دلكا
على مذهب لم تُلّفِ أمّا ولا أباً عليه ولم تعرف عليه أخا لك
فإنّ أنت لم تفعلْ فليستَ بأسف ولا قائلٍ إما عثرتَ لَمّا لك !

فأهدر الرسول دمه ، وأرجف الناس بقتله . وأشفق عليه أخوه فنصحته بالإسلام والتوبة والمثول بين يدى الرسول يطلب رضاه وعفوه ، فلما استيأس كعب من الجير والنصير جاء إلى المدينة ، وتوسل بأبي بكر إلى الرسول . ودخل في الإسلام ، ومدحه بلايته المشهورة ، فعفا عنه وأمنه وخلع عليه برّدته ؛ فما زالت في أهله حتى اشتراها معاوية منهم بأربعين ألف درهم ، وتوارثها الخلفاء الأمويون فالعباسيون حتى آلت مع الخلافة إلى بنى عثمان .

شعره

نشأ كعب في روضة الشعر وباحة القريض فرسخت فيه ملكته ، وتجلت في صغره شاعريته . فأخذ يقرضه وهو دون المراهقة . فنهاه أبوه مخافة أن يروى عنه ما لا خير فيه فيلزمه عاره . فكان كعب يأبى أن ينتهى ، ويلجأ أبوه في منعه حتى امتحنه امتحاناً شديداً طمأنه على نضج قريحته وسلامة طبعه ؛ فتركه لنفسه فتقحم أبوايه ، وسلك شعابه ، وأنى منه بالجيد الرصين والرائق المعجب . وأوشك أن يسامى أباه لولا غرابة في ألفاظه ، وتعقيد في تراكيبه ، وقصور في مطولاته ؛

ومن كل ذلك برى أبوه . ومما يدل على مكانة كعب وقيمة شعره أن الخطيئة .
وهو من نابهي الشعراء توسل إليه أن ينوّه بذكره في شعره حتى يشتمه ، فقال :
فَمَنْ لِقَوَائِي شَانَهَا مِنْ يَحْوِكُهَا إِذَا مَامَضَى كَعْبٌ وَقَوْزٌ جُرُولٌ (١)
كفيتك لا تلتقي من الناس واحداً تنخّل منها مثل ما ننخّل

نموذج من شعره

من عيون شعره مشوّبته التي مدح بها الرسول ، ومطلعها :
بانت سعادٌ قلبي اليوم متبولٌ مُتَمِّمٌ لِمَآئِرِهَا لَمْ يُفَدَّ مَكْبُولٌ
ومنها :

وقال كلُّ خليل كنت آمله لا ألهيّنك إني عنك مشغول
فقلت خلوا سبيلي لا أبالكُمُ فكلّ ما قدرّ الرحمن مفعول
كل ابن أنثى وإن طالت سلامته يوماً على آلهٍ حذاءٍ محمول
أنبت أن رسول الله أوعدني والوعد عند رسول الله مأمول
مهلاً هداك الذي أعطاك نافلةً الُ قرآن فيها مواعظاً وتفصيل
لا تأخذني بأقوال الوشاة ولم أذنب وقد كثرت في الأقاويل
ومن قوله :

السامع الذم مُربك له ومُطعم المأكول كالآكل
مقالة السوء إلى أهلها أسرع من متخدر سائل
ومن دعا الناس إلى ذمه ذموه بالحق وبالباطل

(١) جرول : اسم الخطيئة .

الخنساء

المتوفاة سنة ٥٢٤ هـ

حياتها

هي السيدة تَمَاضِر بنت عمرو بن الشريد السلمية . والخنساء لقب غلب عليها .
نبئت في دوحة الشرف ، وازدهرت في روضة الفضل ، فكان أبوها وأخواها
معاوية وصخر سادات سليم من مضر . وكانت بارعة الجمال والأدب فخطبها
شريد بن الصمة سيد هوازن ومارس جشم ، فردته وآثرت التزوج في قومها ،
ولما قوَّض الدهر ركني بيتها بموت أخويها معاوية وصخر جزعت عليهما أشد
الجزع ، وبكتهما أحرَّ البكاء ، ورتبهما بأبلغ الرثاء ، ولاسيما صخر لما بلتته من
كثرة إحسانه ، وشدة حنانه ، وقوة جنانه . ثم وفدت في قومها على الرسول
صلى الله عليه وسلم فأسلمت ، وأنشدته فاهتز لشعرها واستزادها بقوله : هيه
يا خنساء ! وكان في الظن أن تنهيه الخنساء بعد إسلامها دموع الجزع على أبيها
وأخويها تعزيباً بالدين وعزوفاً عن سنة الجاهلية ، إلا أن وجدها على صخر كان
وراء الصبر وفوق العزاء ؛ فلم تنزل تبكيه وترثيه حتى ابيضت عيناها من الحزن .
وكانت تقول : كنت أبكي له من النار ، وأنا اليوم أبكي له من النار . على أن
السن والزمن والدين ما زالت بهذه الكبد القريحة حتى اندملت ؛ فوجدت
الخنساء في شيخوختها آسياً من رَوْح الله ومواسياً من فضله ؛ فتقبلت مصرع
بنيتها الأربعة صابرة محتسبة وقد حرضتهم على القتال في حرب القادسية فاستشهدوا
جميعاً . فلم تزدد على أن قالت : الحمد لله الذي شرفني بقتلهم ، وأرجو أن يجمعني
بهم في مستقر رحمته . ثم توفيت بالبادية عام ٥٢٤ هـ .

شعرها

ليس في شواعر العرب قبل الإسلام وبعده من تفوق الخنساء في رصانة شعرها ، ورقة لفظه ، وحلاوة جرسه ، ولربما ضارعت في هذه الصفات الشعراء الفحول . ويرى النابغة وجريرو وبشار أنها أفضل من الرجال ، لما في شعرها من قوة الرجولة ورقة الأنوثة . وقد غلب في شعرها الفخر والثناء . أما الفخر فلأن أباهما أمثلُ فومه ، وأخويها خيرا مضر ؛ وأما الرثاء فللجميعتها فيهم وطول وجدها عليهم . والأسى يُدق الشعور ، ويرق العاطفة ، ويفتق القريحة في الرجل ، فكيف به في المرأة ؟ وكانت لا تقول إلا البيتين أو الثلاثة قبل مقتل أخويها ، فلما قتلا فاض الدمع من عينيها ، والشعر من قلبها ، فأنت في رثائها بالمعجب المعجز . وظلت الخنساء في شعرها بدوية جاهلية ، فلم تتأثر بالاسلام كثيراً ولا قليلاً .

نموذج من شعرها

قالت تبنى أخاها صخرًا :

| | |
|--------------------------|---------------------------|
| أعينيَّ جودا ولا تجمدا | ألا تبكيان لصخر الندى ؟ |
| ألا تبكيان الجريء الجميل | ألا تبكيان الفتى السيدا ! |
| رفيعَ العمد طوبيل النجبا | دِ ساد عشيرته أمردا |
| إذا القومُ مدوا بأيديهمُ | إلى المجد مد إليه يدا |
| فقال الذي فوق أيديهمُ | من المجد ثم انتمى مُصعدا |
| يحمله القوم ما علمهم | وإن كان أصغرهم مولدا |
| وإن ذُكر المجد ألقيته | تأزر بالمجد ثم ارتدى |

وقالت ترثيه أيضاً :

ألا يا صخرُ إن أبكيتَ عيني فقد أضحكنتني زمناً طويلاً
دَفعتُ بك الخطوبَ وأنت حي فن ذا يدفع الخطب الجليلاً ؟
إذا قَبِحَ البكاء على قنيسل رأيت بكاءك الحسن الجميلاً

وقالت ترثى وتفنخر :

تعرّفتني الدهر نهساً وحزاً وأوجعي الدهر قرعاً وغمزاً
وأفنى رجالي فبادوا معاً فأصبح قلبي بهم مستفزاً
كأن لم يكونوا حمى يُتقى إذا الناسُ في ذاك من عزّ بزاً
وخيلٍ تكدّسُ بالدارعين وتحت العجاجة يجمز ججزاً
ببيض الصفاح وسمر الرماح فبالبيض ضرباً وبالسمر وخزاً
جززنا نواصي فرسانها وكانوا يظنون ألاّ نُجزاً
ومنّ ظنّ من يلاقي الحروب بألا يُصاب فقد ظن عجزاً
نعف ونعرف حق القرى وتتخذ الحمد ذخراً وكنزاً
ونلبس في الحرب نسج الحديد وفي السلم نلبس خزاً وبزاً

ومن قولها :

إن الزمان وما يفنى له عَجَبٌ أبقى لنا ذنباً واستؤصل الراس
إن الجديدين في طول اختلافهما لا يفسدان ولكن يفسد الناس

حسانُ بنُ ثابت

المتوفى سنة ٥٤ هـ

نشأته وهيبته

هو أبو الوليد حسان بن ثابت الأنصاري ، ولد بالمدينة ونشأ في الجاهلية ، وعاش على الشعر ، فكان يمدح المناذرة والفساسنة ويتقبل صلاتهم . ولكنه بالغ في مدح آل جفنة من ملوك غسان وأكثر من انتجاعهم فأغذقوا عليه العطايا ، وملأوا يديه بالنعيم ، ولم ينكروه بعد إسلامه وتنصرهم ، فجاءته رسلكم تترى بالهدايا من القسطنطينية . ولما هاجر رسول الله إلى المدينة أسلم حسان مع الأنصار وانقطع إلى مدحه والنصح عنه . وذلك أن الرسول حينما اشتد عليه أذى قريش بالهجاء قال لأصحابه : ما يمنع الذين نصرؤا الله ورسوله بأسلحتهم أن ينصروه بألسنتهم ؟ فقال حسان : أنا لها ؟ وضرب بلسانه الطويل أرنية أنفه وقال : والله ما يسرنى به مقول ما بين بصرى وصنعاء ! والله لو وضعتة على صخر لفلتقه ، أو على شعر لخالقه ! فقال له النبي : كيف تهجوهم وأنا منهم ؟ فقال : « أسلك منهم كما نسل الشعرة من العجين » . فقال : اهجم ومعلك روح القدس . فهجاء قالمهم وأبكمهم ووقعب كلماته منهم موقع السهام في غسق الظلام ؛ فاشتهر بذلك ذكره ، وارتفع قدره ، وعاش ما عاش موفور الكرامة مكسفي الحاجة من بيت المال ، حتى توفي سنة ٥٤ للهجرة بالغا من العمر مائة وعشرين سنة ، وقد كف بصره في أعقاب أيامه .

شعره

كان حسان في الجاهلية شاعر أهل المدن ، وفي البمثة شاعر النبوة ، وفي الإسلام شاعر اليمانية . وكان يثلب في شعره الفخر والحماسة والمدح والهجاء ،

وكلها أغراض تقتضى اللفظ الفخم والأسلوب القوي ، فبدأ عليه أثر من الحوشية والوحشية ذهب بمجيء الإسلام . ثم سكنت عوامل الشعر في نفسه بسماحة الدين وموت الأحقاد وتقدم السن ، فما كانت تتحرك إلا زياداً عن النبي ودفاعاً عن الأنصار من حين إلى حين . ولسكن كثيراً من شعره في هذا الطور كان خشيباً ، فكثرت به السَّقَط ، وقلت فيه الجزالة ، وغلبت عليه السهولة ، فرأى الأصمعي أن شعره لم يقوَ إلا في الشر ، فلما جاء الإسلام بالخير ضعف . وهو في شعره يضارع ابن كلثوم في الفخر بقومه والمباهاة بنفسه ، مع أنه كان جباناً مخلوع القلب .

نموذج من شعره

قال في الهجاء :

| | |
|------------------------|--------------------------|
| ألا أبلغ أنا سفيان عني | مفانلةً فقد برّح الخفاء |
| بأن سيوفنا تركتك عبداً | وعبد الدار سادتها الإماء |
| هجوتَ محمداً فأجبت عنه | وعند الله في ذلك الجزاء |
| أتهجوه ولست له بكفاء؟ | فشركا لخيركما الفداء |
| لنا في كل يوم من معدٍ | سبابٌ أو قتال أو هجاء |
| لساني صارمٌ لا عيب فيه | وبحري لا تكدره الدلاء |
| فإنّ أبي ووالدتي وعرضي | لعرض محمد منكم وقاء |

وأقبل على الرسول وفد من تميم يفاخروه وعليهم الزبرقان بن بدر ، فلما أنشدوه أمر حساناً أن يجيبهم فقال :

إن الذنائب من فيهرٍ وإخوتهم
قد بينوا سنة للناس تُتبع
قوم إذا حاربوا ضروا عدوهم
أو حاولوا النفع في أشياعهم فعموا

سجية تلك فيهم غير مُحدّثة
لا يرفع الناس ما أوهت أكتفهم
إن كان في الناس سباقون بعدهم
أعفة ذُكرت في الوحي عنهم
لا يفخرون إذا نالوا عدوهم
إن الخلائق فاعلم شرها البدع
عند الدفع ولا يوهون ما رقعوا
فكل سبق لأذى سبقهم تبّع
لا يطبّعون ولا يزرى بهم طمع
وإن أصيدوا فلا خور ولا جزع

وقال يمدح جيلة بن الأيهم :

لله درُّ عصابة نادتهم
يمشون في الحلل المضاعف نسجها
والخالطون فقيرهم بغيرهم
أولاد جفنة حول قبر أبيهم
يسقون من ورد البريص عليهم
يسقون درياق الرحيق ولم تكن
بيض الوجوه كريمة أحسابهم
فلبثت أزماناً طوالاً فيهم
يوماً بجلق في الزمان الأول
مشى الجلال إلى الجلال البزل
والمشفقون على الضعيف المرمل
قبر ابن مارية الكريم المفضل
بردى يصفق بالرحيق السلسل
تدعى ولا تدهم لنقف الخنظل
شم الأنوف من الطراز الأول
ثم ادركت كأنني لم أفعل

ومن قوله :

وإن امرأ يمسى ويصبحُ سالماً
من الناس إلا ما جنى لسعيد
وقال أيضاً :

رُبَّ علم أضاعه عدم الما
ما أبالي أنب بالخرن تيس
ل وجهل غطى عليه النعيم
أم لحاني بظهر غيب لثيم

الخطيئة

المتوفى سنة ٥٥٩ هـ

نسأته وهباته

هو أبو مليكة جرؤل بن أوس العبسي ، وُلد في بني عبس دَعِيَا لا يُعرف له نسب ، ولا يصله بالشرف سبب . فشب محروما مظلوما مذموما لا يجد مدداً من أهله ، ولا سنداً من قومه ؛ فاضطر إلى الشعر يجلب به القوت ويدفع به العُدوان وينتقم به لنفسه من بيئة ظلمته وطاردته . واصطاحت عليه عوامل الشر فجعلت منه صورة للذليلة ، فكان كما وصفه الأصمعي سيء الخلق ، دنيء النفس ، فاسد الدين ، سُئولا ، مُلْحَفًا ، جشعًا ، كثير الشر ، قَلِيل الخير ، بخيلاً ، دمياً ، قصيراً ، رث الهيئة ، متدافع النسب في القبائل . وقد بلغ من لؤمه أن هجأه وامراته وبنيه حتى نفسه . فلما جاء الإسلام أسلم ثم ارتد ثم عاد مزعزع العقيدة ، فلم يستطع الدين أن يرفع هذه النفس الوضيعة ، ولا أن يُفل هذا المقول الجريء البذيء ، فمرَّج لسانه في أعراض الناس واشتدت وقيعته فيهم . حتى الزبرقان ابن بدر صاحب رسول الله وعامل عمر بن الخطاب لم يعصمه منه إكرامه جواره وإحسانه إليه ، فالأبفيض بن عامر خصمه عليه ، ومدح بني أنف الناقة وذم الزبرقان ، فاستمدى عليه أمير المؤمنين عمر ، فخبسه ، واستشفع إليه بشعره فأطلقه وحذره هجاء الناس . فقال : إذن يموت عيالي جوعاً . هذا مكسبي ومنه معاشي . فاشترى منه الخليفة أعراض المسلمين بثلاثة آلاف درهم . فكف حتى مات عمر ثم عاد إلى طبعه ، ولبث على تلك الحال حتى أسكته الموت سنة ٥٥٩ هـ .

شعره

الخطيئة شاعر متين الشعر ، غزير البحر ، رائق الأسلوب ، شرود القافية ،

متصرف في فنون القول ، من مديح وهجاء ونسب ونحو . ولولا خساسة طبعه ، ودناءة طمعه ، وقبح تبذله ، لمافضاه في المحضرمين أحد ، فإنك لاتكاد تجد في شعره ما يكثر في شعر غيره من سخافة في النسيج ، أو ركاكة في اللفظ ، أو نبؤ في القافية ، ولكن شرف الكلام بشرف قائله .

والخطيئة كزهير معدود في عبيد الشعر الذين رووا فيه ونقحوه . وقد يؤثر عنه قوله : « خير الشعر الحولى المنقح المحكك . » . وقلما تجد في هجائه على مرارته فحشاً أو هجراً ، حتى عمى على أمير المؤمنين عمر قوله في هجاء الزرقان :

دَعِ المكارم لاترحلْ لبُعَيْتِها واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى
فلم يظن إلى موضع الهجاء فيه لدقته حتى دله عليه حسان .

نموذج من شعره

قال يهجو الزُّرْقَانَ بن بدر وقد زعم أنه أساء جواره فتحول عنه إلى بغيض :

| | |
|----------------------------------|------------------------------|
| والله ما معشرٌ لاموا امرأً جنباً | في آل لأى بن شماس بأ كياس |
| ما كان ذنبَ بغيض لا أبالكم | في بأئس جاء يحدو آخر الناس ا |
| وقد مدحتكم عمداً لأرشدكم | كيا يكون لكم متحى وإمراسى |
| لما بدالى منكم عيب أنفسكم | ولم يكن لجروحي فيكم آسى |
| أزمت بأسا مبيناً من نوالكم | ولن يرى طارداً للحر كاللياس |
| جارّ قومٍ اطلالوا هون منزله | وغادروه مقيا بين أرماس |
| ملوا قراه وهرته كلابهم | وجرحوه بأنياب وأضراس |
| دع المكارم لاترحلْ لبُعَيْتِها | واقعد فإنك أنت الطاعم الكاسى |
| من يفعل الخير لا يعدم جوازيه | لايذهب العرف بين الله والناس |

وقال في المدح :

يسوسون أحلاماً بعيداً أناتها وإن عضبوا جاء الحفيظة والجند
أقلوا عليهم لا أبا لأبيكم من اللوم أوسدوا المكان الذي سدوا
أولئك قوم إن بنوا أحسنوا البنأ وإن عاهدوا أوفوا وإن عقدوا شدوا
وإن كانت النعماء فيهم جزوا بها وإن أنعموا لا كدروها ولا كدوا
مطاعين في الهيجا مكاشيف للذجي بنى لهم آباؤهم وبني الجند
ويعذلني أبناء سعدٍ عليهم وما قلت إلا بالذي علمت سعد

الشعراء الاسلاميون

عمر بن أبي ربيعة

٢٣ — ٩٣ هـ

نسأته وصباته

هو أبو الخطاب عمر بن أبي ربيعة القرشي المخزومي . ولد بالمدينة ليلة مات عمر بن الخطاب ، فكان يقال ، أي حق رُفع ، وأي باطل وضع أم شبل في نعمة أبيه عبد الله عامل الرسول والخلفاء الثلاثة من بعده . وكان سريراً غنيا ، فتقلب عمر في أعطاف النعيم ، ورتع في رياض الترف ، وخلا ذرعه من معالجة الأمور ، ففرغ للشعر وقاله وهو صغير ، فما أبه له أحد من فحوله كجرير والفرزدق . ومضى وهو يروض قوافيه ويستعطف أبيه حتى ارتاض له وأسلم . فقال جرير وقد سمع رأيته التي مطلعها :

أمن آل نعم أنت غادٍ فبكر غداة غدٍ أم راحٍ فمهمج

« مازال هذا القرشي يهذى حتى قال الشعر » . وسلك ابن أبي ربيعة إلى الشعر طريقاً غير مألوفة ولا معروفة ؛ فقصره على وصف النساء وتزاورهن ومداعبة بعضهن لبعض بلقظ رشيق وأسلوب مبتكر ، فأولع به المغنون والظرفاء ، وشُغِفَ به القيان والندماء ، وكثر غناء الناس به وروايتهم له حتى ضجَّ الغِيُّرُ والزهاد وقال ابن جرير : « ما دخل العواتق في خدورهن شيء أضر عليهن من شعر ابن أبي ربيعة » ولم يقف شره عند ذلك ، وإنما كان يتعرض للحواجِّ فيشيب بالعقائل والأميرات ، ويصفن طائفاتٍ مُحَرِّماتٍ ، فزهدت كرائم الأسر في أداء هذه الفريضة خشية منه . وأولو الأمر يتعمدون هذا الجهل بالحلم رعاية لأسرته ، ونحراً بشاعريته ، وترقباً لتوبته . ولكن الخليفة عمر بن عبد العزيز لم يسعه الصبر على تماديه في الجون ، وإمعانه في الجمالة ، فنفاه إلى دَهْلِكَ إحدى جزر البحر الأحمر بين بلاد اليمن والحبشة ، وقد كانت منفي لبني أمية ، ولم بعد إلا بعد أن أقسم أنه يقلع عن صبوته ، ويخلص إلى الله في توبته . ولعل بلوغه العمرين قد أعانته على البر بقسمه ، فزهد وتنسك ومن الناس من يقول إن عمر كان عفيفاً يصف ولا يقف ، وبحوم ولا يرد ؛ ويذكرون أنه لما مرض مرضه الأخير جزع أخوه الحارث عليه جزعاً شديداً ، فقال له عمر : أحسبك إنما تجزع لما تظنه بي . والله ما أعلم أني ركبت فاحشة قط . فقال : ما كنت أشفق عليك إلا من ذلك ، وقد سرَّيت عني .

شعره

لشعر ابن أبي ربيعة نَوَاطَةٌ في القلب ، وروعة في النفس ، لسهولته وأناقة لفظه ، وحسن وصفه ، وشدة أسره ، وقرب فهمه ، وملاءمته لهوى النفوس في نعت الجمال ووصف المرأة . وقد ساعده نسبه ونشبهه وشبابه وترفه على أن يقول في ذلك ما لم يجرؤ أحد على قوله ؛ فسلك في الغزل مسلك القصص : يصف

النساء ويحكى حديثهن ومداعبتهن ويذكر أمره معهن . فبهر الناس حتى حملهم على الإقرار لقريش بالشعر ، وقد كانوا ينكرونه عليها . وبرع الشعراء حتى قال جرير : « هذا والله الذى أرادته الشعراء فأخطأته وتعلت بوصف الديار ! » - على أنك لا تجد فى شعره ما تجد فى شعر جميل وكثير من الشعور العميق والوصف الدقيق للحب ، وإنما هو تبع نساء يسره أن يخالطنه ويخادثنه ويتجمل لهن دون أن يفتح قلبه لواحدة منهن ؛ اللهم إلا أمره مع الثريابنت على ابن عبد الله بن الحارث فإنه يشبه أن يكون حياً .

نموذج من شعره

قال من قصيدة فى التشبيب :

| | |
|-------------------------------|------------------------------|
| تحنّ إلى نعم فلا الشمل جامع | ولا الحبل موصول ولا أنت مقصر |
| قنى فانظري أسماء هل تعرفينه | أهذا المغيرى الذى كان يذكر ؟ |
| أهذا الذى أطريت نعتاً فلم أكن | وعيشك أنساه إلى يوم أقبر |
| لئن كان إياه لقد حال بعدنا | عن العهد والإنسان قد يتغير ! |
| رأت رجلاً أما إذا الشمس عارضت | فيضحي وأماً بالعشى فيحصر |
| أخاسفر جوّاب أرض تقاذفت | به فلوات فهو أشعث أعبر |
| قليلاً على ظهر المطيئة ظلّه | سوى ما يقى منه الرداء المحبر |
| وأعجبها من عيشه ظلُّ غرفة | وربان ملثف الخدائق أخضر |
| ووال كفاها كل شيء يههما | فليست لشيء آخر الليل تسهر |
| وليلة ذى دوران جشمى الكرى | وقد يحشم الهول الحب المغرر |
| وبت رقيباً للرفاق على شفا | ولى مجلس لولا الليانة أوعر |

فقلت أباديهم فإما أفوتهم
فلما فقدت الصوت منهم وأطفئت
وغاب قير كنت أرجو غيوبه
ونفضت عنى النوم أقبلت مشية الـ
فحييت إذ فاجأتها فتوألت
وقالت وعضت بالبنان : فضحتنى !
أريتك أن هنا عليك ألم تخف
فلما تقضى الليل إلا أقله
أشارت لأختيها آعينا على فتى
فأقبلتا فارتاعتا ثم قالتا :
يقوم فيمشى بيننا متنكراً
فكان مجتئى دون من كنت أتى
فلما أجزنا ساحة الحى قلن لى :
وقلن أهذا دأبك الدهر سادراً
إذا جئت فامنح طرف عينيك غيرنا
هنيناً لبعل العامرية نشرها

ومن قوله :

ألا ليت أنى يوم تقضى منيتى
وليت طهورى كان ريقك كله
ألا ليت أم الفضل كانت قرينتى
لث الذى ما بين عينيك والغم !
وليت حنوطى من مشاشك والدم
هنا أو هنا فى جنة أو جهنم

وكتب إلى الثريا وهي باليمن :

كُتبت إليك من بلدي كتابَ مؤلِّهِ كَدِ
كُتِيبَ واكفِ العَيْفِي ن بالحِصْرَاتِ منفردِ
يُورِّقُه لَهيبِ الشُّوقِ ق بين السَّعْرِ والسَّكِيدِ
فَيُمْسِكُ قَلْبَه بِيَدِ ويمسح عينه بِيَدِ

الأخطل^(١)

المتوفى سنة ٥٩٥ هـ

نُسأته وحياته

هو أبو مالك غِيَاثُ بن غوث التَّمَلُّجِي : نشأ بالجزيرة الفراتية في قومه بني تغلب على النصرانية كأكثر أهل هذه القبيلة . وفجع في أمه وهو صغير ، فربته زوجة أبيه فأساءت تربيته . فشب سليط اللسان خبيث النية مدمناً للخمر . وبدت بواكير شعره منذ الحداثة ، فهاجى كعب بن جَعِيلَ شاعر تغلب فأخبله وهباً ذكره يسير . ولما طلب يزيدُ بن معاوية وهو وليّ العهد من كعب بن جَعِيلَ أن يهجو الأنصار ليعرض عبد الرحمن بن حسان لأخته في شعره ، خشى الأنصارَ ودله على الأخطل رجاء أن يفتكوا به ، فكان ذلك سبباً في صعود نجمه وذيوع اسمه . فإنه اتصل بيزيد وهجا الأنصار فغضبوا ، وشكوه إلى معاوية فحكّمهم فيه ، فطلبوا قطع لسانه . ولكن يزيد ترضاهم فغفوا عنه . وعرف له خلفاء بني أمية هذه الليد فقدموه وأكرموه ، وبخاصة عبد الملك بن مروان ، لأنه استعان به على قبائل قيس وشعرائها لما ألتهم أعداءه من آل الزبير ، فسئل عليه

(١) راجع صفحة ١١٨ ، ١٢١ ، ١٢٢ ، ١٢٣ ، ١٢٤ .

حجابه ، ووطأ له جنابه ، وأغدق عليه عطاءه ، وسماه شاعر الخليفة: وبلغ من دالة الأخطل على عبد الملك أنه كان يجيئه وعليه جبة خز وفي عنقه صليب ذهب وحيثه تنفض خمراً فيدخل عليه بغير إذن . أما دخوله في المهاجاة بين جرير والفرزدق ، فسببه أنه عرض بتفضيل هذا حينما سئل أيهما أشعر . فلما بلغت حكومته جريراً غضب وهجا الأخطل بأبيات منها :

يا ذا الفباوة إن بشرأ قد قضى ألا تجوز حكومة النشوان

فرد عليه الأخطل في شيء من الضعف لتقدم سنه وفتور طبعه . وقد اعترف بذلك جرير في قوله لابنه : « أدركته وله ناب واحد ، ولو أدركته وله نابان لأكلني » وما زال الأخطل أثيراً عند بني أمية حتى أقصاه عمر بن عبد العزيز . وكان يعيش حيناً في دمشق وحيناً في بلاده الجزيرة ، وتوفي في أول خلافة الوليد سنة ٩٥ بالعم من العمر سبعين سنة .

شعره

الأخطل أحد الثلاثة السابقين المتقدمين في هذا العصر ، وهم جرير والفرزدق وهو . وقد اتفق الناس على أنهم أجود معاصريهم شعراً وأسيروهم ذكراً ، ولكن اختلفوا في أيهم أشعر لإخوته . والحق أن لكل منهم مزية وميزة .

فالأخطل ممتاز بإجادة المدح ، ونعت الخمر ، وقلة البذاء في الهجاء ، وسلامة قصائده الطوال من اللفظ والسقط ، ومرود طبعه على الروية والتنقيح : فقد يلبث في بعض مدائحه سنة . وربما بلغت قصيدته تسعين بيتاً فيقتصر منها بعد التهذيب على الثلث . وأبت عليه طبيعته المرححة أن يقول في الرثاء ؛ فلم يؤثر عنه منه إلا أربعة أبيات في رثاء يزيد بن معاوية ، وهو سبب شهرته وأصل نعمته . وكان نفوراً بنفسه ، لا يرى فوقه أحداً إلا الأعشى ، ولذلك كان يجري على أسنانه .

نموذج من شعره

قال يمدح عبد الملك بن مروان :

أبدى النواجد يوماً عارم ذكر
نفسى فداء أمير المؤمنين إذا
خليفة الله يُستسقى به المطر
الخائض الغمرة الميمون طائرهُ
ما إن يوازى بأعلى نبتها الشجر
في نبتة من قریش يعصمون بها
إذا أَلَمَّتْ بهم مكروهة صبروا
حُشدٌ على الحق عيافو الخنا أنفُ
ولا يُبينُ في عيدانهم خور
لا يستقلُّ ذوو الأضغان حربهم
وأوسع الناس أحلاماً إذا قدروا
شُمسُ العداوة حتى يستقاد لهم
قلّ الطعام على العافين أوقرتوا
هم الذين يبارون الرياح إذا
تمت فلا منةٌ فيها ولا كدر
بنى أميسة نعامكم مجللةٌ
وقال يهجو الأنصار :

كالجحش بين حارة وحرار
وإذا نسبت ابن الفريرة خلته
بالجزع بين صليصل وصرار
لعن الإله من اليهود عصابةً
حرراً عيونهم من المسطار
قوم إذا هدر العصير رأيهم
وخذوا مساحيكم بنى النجار
خلوا المسكارم لستم من أهلها
واللؤم تحت عائم الأنصار
ذهبت قریش بالمفاخر كلها

ومن قوله :

طول الحياة يزيد غير خبال
والناس همهم الحياة ولا أرى
ذخراً يكون كصالح الأعمال
وإذا افتقرت إلى الذخائر لم تجد

الفرزدق^(١)

المتوفى سنة ١١٠ هـ

نسأته وهجائه

هو أبو فراس همام بن غالب التميمي . كانت ولادته ونشأته بالبصرة ، فدرج في عش الأدب وشب في ربوع الفصاحة . وأخذ أبوه يرويه الشعر ويملئه القريض حتى تفتقت عنه قريحته ، وانطلق به لسانه ؛ فقدمه ذات يوم إلى أمير المؤمنين عليّ بعد واقعة الجمل مفتخراً بمجودة شعره على صفه . فقال له عليه السلام أقرئه القرآن فهو خير له . فارتسمت هذه الكلمة في ذهن الفرزدق حتى كبر ، فصمم على حفظ القرآن ، فقيده نفسه وأقسم ألا يفك حتى يحفظه ؛ وبرّ بيئته . ثم اتصل بولادة المصريين فناهم بالمدح والهجاء ، وأجازوه بالإدناء والإقصاء . ومدح خلفاء الأمويين بالشام ولا سيما عبد الملك فوصلوه ولكنهم لم ينفق عندهم لتشيمه لآل عليّ . وكان الفرزدق معاصراً لجرير وكان بينهما تنافس وتحاسد . فما كاد يحدثهم الهجاء بين جرير وبين شاعر آخر اسمه البعيث حتى وقف الفرزدق في صف البعيث وآزره . ففاظ ذلك جريراً فهجا الفرزدق ، ورد عليه هذا . فاستطار بينهما الهجاء عشر سنين ، ففتق ذهنيهما ، وأحدّ لسانيهما ، ونمى فيهما قوة المبادهة والمجادلة ، وصدق النظر . وانشعب الناس في أمرهما شعبتين ، تناصر كل منهما أحد الشعارين . وجعل أحد أشياع الفرزدق أربعة آلاف درهم وفرسألن يغلبه على جرير ، وكان الفرزدق فاجراً ، فاحش النطق ، خبيث الهجاء ، ضعيف الدين ، قاذفاً للمعصنات ، يأوى إلى ركن شديد من شرف حسبه ، وكرم نسبه . فاستعان بكل رذائله وفضائله على جرير فما هزمه ولا أسقطه .

(١) راجع صفحة ١١٩ ، ١٢٤ ، ١٢٥ ، ١٦٠ .

ثم كانت له مواقف محمودة في الذود عن آل عليّ تجلت فيها صراحته وشجاعته ، كموقفه يوم التقى بهشام بن عبد الملك في الحج ، وسمعه يقول حينما رأى علي بن الحسين في موضع التجارة من الناس : (من هذا ؟) تجاهلاً لأمره ، وغضاً من قدره . فشق ذلك على الفرزدق ، فأجابه بقصيدته التي مطلعها :

هذا الذي تعرف البطحاء وطأته والبيت يعرفه والحلّ والحرم

فجسه هشام ثم أطلقه بعد هجائه إياه . وتوفي الفرزدق بالبصرة سنة ١١٠ هـ وقد شارف المائة .

شعره

كان الفرزدق نفوراً بأصله مدلياً بأهله ، ولوعاً بتعداد مآثر آبائه حتى أمام الخلفاء ، فقلب شعره في الفخر ؛ ولغة الفخر تقتضي الألفاظ الضخمة ، والأساليب المفعمة ، والكلم الغريب ، وذكر أيام العرب وأنسابهم ، واحتذاء البادين في أساليبهم . لذلك أعجب به الرواة ، وفضله النحاة ، وقالوا : لولا شعر الفرزدق لذهب ثلث العربية . على أنه طالما تألم من صلابته شعره ؛ وتمنى أن تكون له رقة جريز لعهره ، وجريز صلابته لظهره . وفي ذلك تأييد منه لحكم الأخطل عليهما بقوله : الفرزدق يفتح من صخر ، وجريز يغرف من بحر .

والفرزدق بعد ذلك في الهجاء مقذع ، وفي الوصف مبدع ، وفي المديح وسط ، وفي الرثاء متخلف .

نموذج من شعره

إذا اغبرَّ آفاقُ السماء وكشفت بيوتاً وراء الحى نكباه حَرَجُفْ
وأصبح مُبَيَّنُّ الصقيع كأنه على سَرَوَاتِ القَيْبِ قطنٌ مندَفُفْ

ترى جارنا فيه بخير وإن جنى
وكننا إذا نامت كليب عن القرى
لنا العزة القساء والمدد الذى
ترى الفاس إن سرنا يسرون خلفنا
وإنك إذ تسمى لتدرك شأونا
وقال أيضاً :

ومستمنح طاوى المصير كأنما
دعوت بجمراء الفروع كأنها
وإنى سفية النار للمبتنى القرى
إذا مت فأبكيه بما أنا أهله
وكم قائل مات الفرزدق والندى !

ومن قوله فى مدح على بن الحسين :

هذا الذى تعرف البطحاء وطأته
هذا ابن خير عباد الله كلمهم
وليس قولك (من هذا) بضائره
إذا رأته قريش قال قائلها
يُغضِي حياءً وَيُغضِي من مهابته
يكاد يمسكه عرفان راحته
ينشق نور الهدى عن نور غرته
من معشر حُبهم دين وبغضهم

والبيت يعرفه والحل والحرم
هذا التقى النقى الطاهر العلم
العرب تعرف من أنكرت والمعجم
إلى مكارم هذا ينتهى الكرم
فما يكلم إلا حين يتسم
ركن الحطيم إذا ما جاء يستلم
كالشمس ينجاب عن إشراقها القم
كفر وقربهم منجى ومعتصم

ومن أبياته السائرة قوله :

فيا عجباً حتى كليبٌ تشبني كأن أباه نهل أو مجاشع
وقوله :

وكنا إذا الجبار صعرّ خده ضربناه حتى تستقيم الأخادع
وقوله :

ترجى ربيع أن يجيء صمارها بجزر وقد أعيا ربيعاً كبارها
وقوله :

قوارص تأتيني وتمتقرونها وقد يملأ القطرُ الإناء فينعيم
وقوله :

أحلامنا تزن الجبال رزاة وتخالنا حيناً إذا ما نجهل
وقوله :

ترى كل مظلوم إلينا قراره ويهرب منا جهده كل ظالم

(١)
جرير

المتوفى سنة ١٩٠ هـ

نسأته وهياته

هو أبو حرزة جرير بن عطية الخلفي التيمي . ولد باليمامة لسبعة أشهر ،
ونشأ بالبادية ، فشبّ فصيح اللسان صحيح الوجدان مطبوع القريحة على الشعر .
ولما آانس في نفسه القدرة على قرضه ، والجرأة على عرضه ، ورد البصرة موطن
الفرزدق ينتجع الكرماء ، ويمتدح الكبراء ، ويمتار لأهله . فازدهاه ما رأى
على الفرزدق من حُلل النعمة ومظاهر الجاه بفضل الشعر ، وهو تيمي مثله ، فدب
في قلبه ديب الحسد له ، واشتبهى أن يساويه في حسن حاله ، ووفرة ماله .

فتولدت من تنافسهما وتزاحمهما أسباب المهاجرة بينهما . وأراد جرير أن يراه
 قرنه عن كَثَبٍ ، فترك البادية واستوطن البصرة وغشى المربد^(١) . ودخل في كنف
 الحجاج فحسن موقعه عنده ، وطارت مداًئحه فيه ، حتى بلغت عبد الملك فنفسه
 على الحجاج . وأحس الوالي رغبة الخليفة فأوفده مع ابنه محمد إلى دمشق ، فلما
 دخل جرير على عبد الملك استأذنه فأبى ، وقال له بلهجة العاتب الحنق : إنما
 أنت للحجاج ! فما زال يتوسل إليه ، ويتحمل بالناس عليه . حتى أنشده قصيدته
 التي مطلعها :

أنصحوأم فؤادك غير صاح عشية همّ صحبك بالرواح ؟
 فلما وصل إلى قوله منها :

ألستم خير من ركب المطايا وأندى العالمين بطون راح ؟
 تبسم عبد الملك وقال : كذلك نحن ومازلنا كذلك . وأجازه بمائة لقحة
 وثمانية رعاء ؛ وأصبح جرير بعد هذه القصيدة وهمود الأخطل آخر الشعراء عند
 الخلفاء ولا سيما عمر بن عبد العزيز ، ولكن زلفاه لدى القصر أشعلت نار الغيرة
 في قلوب مناظره ، فشنوا عليه حرب الهجاء ، وأرثت هذه الحرب أغراض
 السياسة ، وتحريض الفرزدق ، وضيق خلق جرير ، وحب الناس لمشاهد
 الخصومة ؛ فنصب لجرير من هؤلاء الأقران ثمانون شاعراً ظهر عليهم جميعاً^(٢)

(١) لا يريد سوق من أسواق البصرة كانت تعرف بسوق الإبل ثم عمرها الناس واتخذوها
 في زمن بني أمية منتدى للشعر والخطابة ، فألفت فيه حلقات المناشدة والمفاخرة ، ومجالس الأدب
 والمذاكرة وأنها الشعراء والأشراف والرواة وطبقات شتى من الناس كل يوم المنارة والمحاكاة
 وتأريث نار الخصومة بين الشعراء ، وكان لفعولهم فيها حلقات خاصة أشهرها حلقة الفرزدق والرامس .
 (٢) ظفر جرير بهؤلاء جميعا باسائه ، فلا هو ذو نسب كريم يمدد بالفخر . ولا ذو عزة
 قوية تساعد بالهيبه ، وهذا سر تفوقه وسبب تفضيله ، روى صاحب الأغاني أن رجلا قال
 لجرير من أشعر الناس ؟ فقال له : ثم حتى أعرفك من هو ، ودخل به بيت أبيه عطية وقد
 أخذ عترة فاعتقلها وجعل يمس ضرعها ، فصاح به : أخرج بأيت ؟ فخرج شيخ دميم رث
 الهيئة وقد ساله ابن العز على لحيته ، فقال جرير : أعرف من هذا الرجل ؟ قال الرجل لا ؛ قال هذا
 أبي ، كان يشرّب من ضرع العنز مخافة أن يسمع صوت الحلب فيطلب منه لبن . وإن أشعر
 الناس من فاجر بهذا الأب ثمانين شاعرا وفاض عليهم .

إلا الفرزدق والأخطل فإنهما نازعاها الغلبة وتبعا له . ودامت هذه المهاجاة سجالاتا
بينهم حتى توفي الأخطل ، ففرغ جرير للفرزدق وكانت بينهما النقائض^(١)
المشهورة التي لهج بها الناس ، وشغل بها الشعراء ، ثم بدا للفرزدق أن يكف ،
فكف وتنسك حتى مات . فضى جرير لسبيله بمداه ببضعة أشهر ودفن باليمامة
سنة ١١٠ هـ .

شعره

برىء جرير من خبث الأخطل وسُكره ، ومن جفاء الفرزدق وفجره ،
وتجمل بصفاء الطبع ، ورقة الشمور ، ونقاء الجيب ، وصحة الدين ، وحسن الخلق ،
فظهر أثر ذلك كله في شعره ، فامتاز بطلاوة الأسلوب ، وحلاوة الغزل ، ومرارة
الهجاء ، وإجادة الرثاء ، وحسن التصرف في جميع فنون الشعر . فكان بذلك
أظهر في سماء الشعر ، وأقرب إلى صفة الشاعر ، وأكثر أشياء من الأخطل
والفرزدق . فإن الأول لم يُجد إلا في المدح والهجاء والخر ، والثاني لم ينبغ
إلا في الفخر .

نموذج من شعره

قال يهجو الفرزدق :

لقد ولدت أمُّ الفرزدق مُقرِّفاً فجاءت بوزارٍ قصير القوام
بوصِّل حَبْلِيه إذا جَنَّ ليله ليرقى إلى جاراته بالسَّلام
تدلَّيتَ تزني من ثمانين قامة وقصرتَ عن باعِ العليِّ والمكارم
هو الرجس يأهل المدينة فاحذروا مداخل رجس بالخبيثات عالم

(١) سميت بذلك لأن أحدهما يقول القصيدة لينقضها عليه الآخر متقرفاً في ذلكهما التزمه
صاحبه من الوزن والغاية .

لقد كان إخراج الفرزدق عنكم
طهوراً لما بين المصلى وراقم^(١)
ومن جيد قوله فيها :

تعالوا نحاكمكم وفي الحق مقنع
فإن قريش الحق لم تتبع الهوى
أذكركم بالله من ينهل القنا
وكنتم لنا الأتباع في كل موقف
إذا عدت الأيام أخزيت دارما
وما زادني بعد المدى تقض مرة
إلى الغر من أهل البطاح الأكارم
ولم يرهبوا في الله لومة لائم
ويضرب كبش الجحفل المتراكم ؟
وريش الذنابي تابع للقوادم
وتخزيك يا ابن القين أيام دارم
ولا رق عظمى للشروس المواجم

ومن قوله يمدح عمر بن عبد العزيز :

إننا نرجو إذا ما الغيث أخلفنا
نال الخلافة إذ كانت له قدرا
أذكر الجهد والبلوى التي نزلت
مازلت بعدك في دار تعرفني
لا ينفع الحاضر المجهود بديننا
كم بالمواسم من شعناء أرملة
يدعوك دعوة ملهوف كأن به
من يعدك تكفي فقد والله
من الخليفة ما نرجو من المطر
كما أتى ربه موسى على قدر
أم تكفي بالذي بلغت من خبري
قد طال بعدك إصمادي ومنجدري
ولا يجود لنا بادٍ على حضر
ومن يتيم ضعيف الصوت والبصر
مسا من الجن أو رزء آمن البشر
كالفرخ في العش لم ينهض ولم يطر

ومن أبياته التي تفرد بها قوله في الغزل :

إن الميون التي في طرفها حور
قتلنا ثم لم يمين قتلنا

(١) رالم حصن من حصون المدينة .

بصر عنّ ذا اللب حتى لا حراك به وهن أضعف خلق الله إنسانا
وقوله في الفخر :

إذا غضبت عليك بنو تميم حسبت الناسَ كلهمُ غضابا
وفي الهجاء :

نفض الطرف إنك من نمير فلا كمباً بلغت ولا كلابا
وفي التهم :

زعم الفرزدق أن سيقتل مربماً أبشر بطول سلامة يامرغ ؟
ومن جيد نغمه قوله :

إن الذي حرم المكارم تغلبا جعل الخلافة والتبوة فينا
مُضَرَّ أبي وأبو الملوك ، فهل لكم ياخزر تغلب من أب كائنا ؟
هذا ابن عمي في دمشق خليفة لو شئت ساقكم إلى قطينا

ويقال إن عبد الملك لما بلغته هذه الأبيات قال : ما زاد ابن المرارة على أن
جعلني شُرطياً . أما إنه لو قال : لو شاء ساقكم إلى قطيناً ، لسقتهم إليه !

الطَّرِمَّاحُ بْنُ حَكِيمٍ

المتوفى سنة ١٠٠ هـ

نشأته وحياته

نشأ الطَّرِمَّاحُ بْنُ حَكِيمٍ الطَّائِي بِدِمَشْقٍ فِي النِّصْفِ الْأَخِيرِ مِنَ الْقَرْنِ الْأَوَّلِ .
وَوَجَدَ فِي الشَّامِ غَفْلاً مِنَ الْأَغْفَالِ حَتَّى بَلَغَ حَدَّ الرِّجَالِ فَانْتَقَلَ إِلَى السُّكُوفَةِ مَعَ مَنْ
وَرَدَهَا مِنْ جُنُودِ بَنِي أُمِيَّةٍ ، وَنَزَلَ فِي تَيْمِ اللَّاتِ بْنِ ثَمَلَةَ . وَكَانَ فِيهِمْ شَيْخٌ مِنْ

الشعراء^(١) الأزارقة له سمت وهيئة ، فكان يجالسه و يلابسه ؛ فوقفه على عقيدته ودعاه إلى طريقته ، فقبلها واعتقدتها أشد اعتقاد وأصح حتى لقي الله عليها . ثم عرف الكميّ بن زيد الأسدي ، فساها الوفاء ، وتقاسما الهبة ، وتمكنت بينهما الألفة على اختلاف ما بينهما في النسب والمذهب والبلد . فالطرماع قحطاني شامي خارجي ، والكميت عدناني كوفي شيعي . وقد سأل بعض المناس الكميّ عن سر هذا الاتفاق مع شدة هذا الاختلاف فأجاب : « إنما اتفقنا على بفض العامة » وهذا الجواب تصديق أو تطبيق للمثل اللاتيني القائل : « كل الشعراء أرسقراطيون^(٢) » . وعاش الطرماع عيش الشعراء على فضل الأغنياء بمدح من يعطيه ويهجو من يمنعه ، وهو مع ذلك عزيز النفس ، شريف الطبع ، بعيد الهمة لم يقف الممال على حبه إياه مواقف الضراعة والهوان . دخل هو والكميت على محمد بن يزيد المهدي ، فجالس لهما ودعاها ، فتقدم الطرماع لينشد ، فقال له : أنشدنا قائماً . فقال : « كلا والله : ما قدّرُ الشعر أن أقوم له فيحط مني بمقامي وأحط منه بضراعتي ، وهو عمود الفخر ، وبيت الذكر لماثر العرب » فقيل له : تنحّ ودع الكميّ ، فأنشد الكميّ قائماً فأمر له بخمسين ألف درهم ، فلما خرج شاطرها الطرماع وقال له : أنت أبا ضيبية أبعدهمة ، وأنا أطف حيلة .

وكان الطرماع مع اعتداده بأمره وإعظامه لقدره ، معجباً بشعره فخوراً به . سمع هو وصاحبه الكميّ أبياتاً من ذي الرثمة ، وكان معاصراً لهما ، فضرب

(١) الشعراء : الخوارج ، وهم طائفة من كانوا مع الإمام في حرب صفين ، حمّاه على قبول التصكيم بينه وبين معاوية فقبله ، ولكن التصكيم جرى على غير الحق فأباه ؛ فخرجوا عليه وقالوا له لم حكمت الرجال ؟ لا حكم إلا لله ، وكبار فرق الخوارج ست : الأزارقة ، والتجدات ، والصفرية ، والمجاددة ، والأباضية ، والمعالبة ، والباقر فروعهم ، وكلهم يجمعون على البراءة من عثمان وعلى ؛ ويقدمون ذلك على كل طاعة ، ويكفرون أصحاب الكبائر ، و يرون الخروج على الإمام إذا خالف السنة أمراً واجباً . ويزيد الأزارقة الذين يلتمس إليهم الطرماع تكفيره على تصويب فعل ابن ملجم عاتله ، وقد هلوا حتى كفروا الصحابة وسائر المسلمين ، وصاحبهم هو نافع بن الأزرق .

(٢) Oal Profanum vulgus ét arceo

الكهيت صدر الطرماح وقال : « هذا والله الديباج لانسجى ولا نسجك الكرايس » فقال الطرماح : « لن أقول ذلك ولو أقررت بجودته » .

وكان الطرماح رغيب العين يشره إلى المال ، ويتشوف إلى الغنى ويقول :
أُنخترِي رَيْبَ المنون ولم أنلْ من المال ما أعصى به وأطيع ؟
فدأب في سبيله وجدَّ في تحصيله ، ودعا الله ألا يموت حتف أنفه بل يموت
ميتة الجاهدين أو المجاهدين ، فيكون شهيد الدنيا أو شهيد الدين .
وفي ذلك قوله :

وإني لقتاد جوادى وقاذِفٌ به وبنفسى العام شتى المقاذف
لأكسب مالا أو أوول إلى غنى من الله يكفينى عِدات الخلائف
فيارب إن حانت وفاتى فلا تكن على شرِّ جمع^(١) يُعلَى بخضر المطارف
ولكن قبرى بطنُ نسر مقيله بجو السماء في نسور عواكف
وأمسى شهيداً ثاوياً في عصابة يصابون في فوج من الأرض خائف
فوارس من شيبان ألف بينهم تقى الله نزالون عند التراجف
إذا فارقوا دنيا همو فارقوا الأذى وصاروا إلى ميعاد ما في المصاحف
ولكن الله لم يستجب دعاءه فمات على فرش واهل في نعش .

شعره

نشأ الطرماح نشأة حضرية ، فما عرف البادية ولا لابس البدو . ولكنه عاش في الكوفة وألمَّ بالبصرة فسمع الرواة والنحاة فيهما يؤثرون الأدب الجاهلى ويقدمون الشعر البدوى ، لأنه موضع الشاهد ، وموطن الغريب ، فولد ذلك فيه

(١) المرجم : النعش .

وفي السكيت حب الغريب وتكلف الحوشى ؛ فكان يتسقطه من الأعراب
ويتلقطه من الرُّجَّاز ، ويستعمله فلا يقع به في مكانه . قال العجاج : كان
الطرماح والسكيت يسألاننى عن الغريب فأخبرها به ثم أراه في شعرها وقد
وضعا في غير موضعه . فقيل له : ولم ذلك ؟ فقال : لأنهما قرويان يصنغان
مالم يريا . ومن ثمّ كان الأصمى وأبو عُبَيْدة يعيبان شعرها في الإسلاميين ،
كما عابا شعر عدى بن زيد وأمّية بن أبى الصلت في الجاهليين . وإنك لترى
أثر هذا الميل ظاهراً في شعره ، فبينما يأتيك بالأبيات الرقيقة الأنيقة العذبة ،
إذا به يرميك بالأبيات الغريبة البعيدة الفجّة ، فيشوه شعره ويكدر بحره . وقد
سئل بن الأعرابي عن ثمانى عشرة مسألة من شعر الطرماح فلم يعرف منها
واحدة ! على أنه معدود في الفحول من الشعراء الإسلاميين ، وله مذهب
معروف في الهجاء يركب له المبالغة في تصغير شأن المهجور وتحقير أمره فكأنما
يوحى إليه . وكان السكيت وهو معاصره ومعاشره يُقرئ له بالنبوغ في نواح
كثيرة من نواحى الفضل ، فقد أنشد يوماً قول الطرماح :

إذا قُبِضَتْ نفس الطرماح أخلقت عرى المجد واسترخى عنان القصائد
تقال : إى والله ! وعنان الخطابة والرواية والفصاحة والشجاعة .

نموذج من شعره

الطرماح من أصحاب الملححات ، وملحمته تترك التفاوت بين السهل للطبيعى
والوعر المتكلف ، ومطلعها :

قلّ في شطّ نهر وان اغتماضى ودعانى هوى العيون المراض
فتطربت للصبأ ثم أوقه ت رضاً بالتقى وذو البر راضى
وأرانى المليك رشدى وقد ك: ت أخا عنجبيّة واعتراض
غير ما ربيّة سوى ريق الغرة (م) ثم ارعويت بمد البياض

ومنها :

وجرى بالذى أخاف من البين (م) لعين تنوض كل مناض
صيدحي الضحي كأن نساء حيث تجتث رجله في أباض
سوف تدنيك من ليس سبتنا ة أمارت بالبول ماء الكراض
فهي قوداء أنفجت عضداها عن زحاليف صيف ذى دحاض
ويقول في آخرها .

إننا معشر شمائلنا الصب ر إذا الخوف مال بالأخضاض
نصره للذليل في ندوة الحى مرأيب للثأى المنهاض
لم يفتننا بالوتر قوم وللضيم رجال يرضون بالإغاض
فسلى الناس إن جهلت وإن شئت قضى بيننا وبينك قاضى
ومن قوله :

لقد زادنى حبا لنفسى أنى بفيض إلى كل امرىء غير طائل
وأنى شقى باللاثام ولا ترى شقيا بهم إلا كريم الشائل
ومن قوله يهجو بنى تميم :

لو حان ورد تميم ثم قيل لها حوض الرسول عليه الأزد لم ترد
أو أنزل الله وحيا أن يعذبها إن لم تعد لقتال الأزد لم تعد
لا عز نصر امرىء أضحي له فرس على تميم يريد النصر من أحد
لو كان يخفى على الرحمن خافية من خلقه خفيت عنه بنو أسد

النثر

الخطابة

كان ظهور الإسلام بالدعوة العظمى من أهم الأسباب التي بلغت بالخطابة غاية كمالها ، وجعلت الأمر في أيدي رجالها . فإن الدعوة إلى الدين ، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، وقع الفتن ، ورد البدع ، وتحميس الجند ، كل أولئك من أغراض الخطابة . وكان لها من آي القرآن وحججه ممين لا ينضب ، ومدد لا ينفد . ولما اختلف المسلمون بعد مقتل عثمان وتعددت الفرق رقت الخطابة رقيماً عظيماً ، لاعتماد كل حزب عليها في نشر نجاته . وتأيد دعوته .

وأهم ما يميزها في هذا العصر عن ذنوبه ألقاظها ، ومتانة أسلوبها ، وقوة تأثيرها واقتباسها من القرآن وانتهاجها منهجه في الإرشاد والإقناع ، وابتدائها بحمد الله والصلاة على رسوله .

وظل العرب على ما ألفوه في الجاهلية من لوث العمامة واتخاذ المخصرة والوقوف على نشز من الأرض ، والخطبة من قيام ، إلا الوليد بن عبد الملك فإنه خطب وهو جالس .

وجملة القول أن ليس في عصور اللغة عصر زها بالخطابة وحفل بالخطباء . كهذا العصر لانصراف العرب عن الشعر إليها ، واعتمادهم في الدين والسياسة عليها . أشهر خطبائه الرسول صلى الله عليه وسلم ، والخلفاء الراشدون ، وسحبان وائل ، وزياذ بن أبيه ، والحجاج بن يوسف ، وقطري بن الفجاءة .

محمد رسول الله

صلى الله عليه وسلم
مولده ونسأته وبعثته

وُلد سيدنا محمد بن عبد المطلب بن هاشم القرشي في مكة صباح اليوم التاسع أو الثاني عشر من شهر ربيع الأول ، لأول عام من حادثة الفيل ، أو اليوم العشرين من شهر أبريل سنة ٥٧١ للميلاد ، في مهد اليتم والعُدْم ، فقد استوفى أبوه ظم حياته حين كان هو جنيناً . ولم يكذب بحبول السادسة من عمره حتى استأثر الله بأمه ، فحضنه جده سنتين حضانة إعزاز ومحبة . ثم أوصى به قبل وفاته إلى أبي طالب شقيق أبيه ، فكفله على رقة حاله وكثرة عياله . ولوجرى الأمر على منهاج الطبيعة لشب محمد على أخلاق اليتامى وعادِ الجاهلية ، ولكن الله تولى تأديبه وتهذيبه ، فكلمه بالعقل الرجيع ، واخلق السجيج ، والنفس الرضية ، والحياة الوقور ، والحلم الرقيق ، والصبر المطمئن ، والصفح الجميل ، واللسان الصادق ، والذمة الوثيقة ، والجأش القوي ، والفؤاد الجميع . ثم طهره من أرجاس الوثنية ، فلم يشرب الخمر ، ولم يأكل مما ذبح على النُصْب ، ولم يشهد للأوثان عيداً ولا حفلاً ، وسمت نفسه الكبيرة على حدائتها إلى ابتغاء الرزق بحيلته وكده ، فتصرف في التجارة على عادة قومه حاسراً لها عن ساقه ويده . وشاعت له في الناس فضائل الصدق والحذق والأمانة ، فطلبت إليه السيدة خديجة بنت خويلد إحدى عمات القرشيين وغنياتهم أن يتجر في مالها ، فسافر إلى الشام مع خادمها ميسرة فنجحت سفرته وربحت صفقة . ثم ارتد إلى مكة فهز من عطف السيدة ما رأت من جزالة الرج وأمانة الراج فخطبته إلى نفسها ، وهي في سن الأربعين وهو في حدود الخامسة والعشرين ، فرضى زواجها ، وخطبها عمه إلى عمها ، وكان لها من جليل الأثر في الإسلام سهم ربيع . ثم مضى الرسول يضرب في الآفاق إلى الأسواق يكسب لأهله ، وينسى

(م - ١٢ تاريخ الأدب العربي)

ثروة زوجه ؛ ونفسه عازفة عن مُتَع الحياة ، صادفة عن لذاعة العيش ، فلم يطمع في ثراء ولم يطمح إلى منصب ، بل كان يُحلى ذرعه من صوارف الدنيا اللبالي الطوال فيمتكف في غار حراء يتعبد ويتأمل ، وينجيه بروحه الصافي اللطيف إلى الملأ الأعلى حتى أوحى إليه في هذا الغار بالرسالة والمعجزة وعمره يومئذ أربعون سنة قمرية وستة أشهر . فانقلب إلى زوجه مضطرباً فطمأنته وقالت له : والذي نفس خديجة بيده لا يخرجك الله أبداً ! إنك لتصل الرحم ، وتصدق الحديث ، وتؤدى الأمانة ، وتحمل الكَلِّ ، وتقوى الضيف ، وتمين على نوائب الحق . وقرأ الوحي مدة ، ثم نزل على قلبه الروح الأمين بقول الله تعالى : (يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ قُمْ فَأَنْذِرْ وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ) فقام بأعباء الرسالة والتبليغ ثلاث حجج في طي الخفاء . ثم أمر أن يصدع بالدعوة ، فعالن بهاتريشاً وسقته أحلامها ، وعاب أصنامها ، فكاشفوه بالعداء ، وقصدوه بالإيذاء ، ونصبوا له الحبائل ، وتربصوا به الدوائر ، وهو يتلقى كل ذلك بِجُنَّةِ الصبر وعدة الإيمان ، ومن ورائه عمه أبو طالب يذود عنه ويحميه ، وزوجه السيدة خديجة توأسيه وتقويه ، حتى سلخ على هذه الحال الشديدة عشر سنين . وفي السنة العاشرة من رسالته فجمه الموت في ذلك العم النبيل ، وفي تلك الزوجة الفاضلة في يومين متقاربين ، فاشتد عليهما حزنه ، وخرج بعدها في مكة مقامه . فانتوى الهجرة بالمسلمين إلى المدينة — وقد أسلم فيها كثير من الأوس والخزرج — فأحس المشركون منه هذا العزم فأنتمروا به ليقتلوه . ولكنه خرج ليلة اجتماعهم على قتله هو وصديقه أبو بكر إلى المدينة تسكئوهما عين لا تنفوق وقوة لا يقام لها بسبيل . فبلغها يوم الجمعة الثاني عشر من شهر ربيع الأول سنة ٥٣ من مولده ، وهو يوافق اليوم الرابع والعشرين من سبتمبر سنة ٦٣٢ م . فكانت هذه الهجرة المباركة مبدأ لعوكلته وانذار دعوته وتمام نصرته . واستمر يجاهد المشركين : يجادلهم بالقرآن ، ويجالدهم بالسيف ، حتى انحسر العمى وانجاب الشرك ، وعلت شمس التوحيد في أفق الوجود . وحينئذ نزل قول الله تعالى : (الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ

وَيَنْكُمُ وَأَتَمَّتْ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيْتُ لَكُمْ الْإِسْلَامَ دِينًا) فلم يأت على نزول هذه الآية الكريمة ثلاثة أشهر حتى مرض الرسول بالحمى ولحق عليه الصلاة والسلام بالرفيق الأعلى يوم الإثنين ١٣ من ربيع الأول سنة ١١ هجرية ، ٨ من يونيو سنة ٦٣٢ ميلادية .

صفة

وصفه بعض من رآه قال . كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نفماً يتلألأ وجهه تلاًلأ القمر ليلة البدر ، أطول من المربوع^(١) وأقصر من المشدب ؛ عظيم الهامة ، رجل الشعر ، إن انفرت عقيقته فرق وإلا فلا يجاوز شعره شعمة أذنيه إذا هو وفره ؛ أزهر اللون ، واسع الجبين ، أزجّ الحواجب سوابغ من غير قرن ، بينهما عرق يدُرُّه الغضب ، أفنى العينين له نور يعاوه ، ومحسبه من يتأمله أشمّ ؛ كثّ اللحية ، أدهج ، سهل الخدين ، ضليع اللقم ، أشنب مفلج الأسنان ، دقيق المسرّبة ، كأن عنقه جيد دمية في صفاء الفضة ؛ معتدل الخلق بادناً متماسكا سواء البطن والصدر ، بعيداً بين المنسكبين ، ضخم الكراديس ، أشعر الذراعين والمنسكين وأعلى الصدر ، طويل الزندين ، رحب الراحة ، شثن الكفين والقدمين ، سائل الأطراف ، سبّط العصب ، خصان الأخصيين ، مسيح القدمين ينبوعهما الماء . إذا زال زال ثقلاً ، ويخطو تكفوفاً ، ويمشي هوناً . ذريع المشية ، إذا مشى كأنما ينحط من صبب ، وإذا التفت التفت جميعاً ، خافض الطرف ، نظره إلى الأرض أطول من نظره إلى السماء . جل نظره الملاحظة ، يسوق أصحابه ويبدأ من لقيه بالسلام . وكان صلى الله عليه وسلم متواصل الأحران دائم الفكرة طويل السكوت ، يفتح الكلام ويختمه بأشداقه ، ويتكلم بحوامع الكلم ؛ دمثاً ليس بالجانف ولا الممين . إذا أشار أشار بكفه كلها ، وإذا تمجّب قلبها ، وإذا تحدّث

(١) أنظر شرح هذا كله في آخر الكتاب .

اتصل بها فضرب بإبهامه اليمى راحته اليسرى ، وإذا غضب أعرض وأشاح ،
وإذا فرح غَضَّ طرفه . جُلَّ ضحكته التبسم ، ويفتر عن مثل حب الغمام ٥ .

فصاحته

تقلب رسول الله صلى الله عليه وسلم في أخلص القبائل منطقاً وأعذبها بياناً؛
فولده في بنى هاشم ، ونشأ في قريش ، واسترضع في بنى سعد . فكان أفصح
العرب لساناً بالفطرة . وقد حدث بذلك عن نفسه فلم يُزَيَّف حديثه ولم يُدفع
قوله . وفصاحة الرسول أشبه بالإلهام والقيض ، فلم يعانها ولم يتكلفها ولم يرتض
لها ، وإنما أسلمت له الألفاظ وأسمحت له المعاني فلم يندد في لسانه لفظ ، ولم
يضطرب في أسلوبه عبارة ، ولم يعزب عن علمه لفة ، ولم يندب عن خاطره فكرة
وكان كلامه كما قال الجاحظ : الكلام الذى قل عدد حروفه وكثر عدد معانيه ،
وجلَّ عن الصنعة ونزه عن التكلف . استعمل المبسوط في موضع البسط ،
والمقصور في موضع القصر ، وهجر الغريب الوحشى ، ورغب عن المهجين الشوقى ،
فلم ينطق إلا عن ميراث حكمة ، ولم يتكلم إلا بكلام قد حُفَّ بالعصمة ، وشُدَّ
بالتأييد ، ويسر بالتوفيق . ثم لم يسمع الناس بكلام قط أعم نفعاً ، ولا أصدق
لفظاً ، ولا أعدل وزناً ، ولا أجمل مذهباً ، ولا أكرم مطلباً ، ولا أحسن موقعاً ،
ولا أسهل مخرجاً ، ولا أفصح من معناه ، ولا أبين عن خواء ، من كلامه
صلى الله عليه وسلم .

أثر الخبر في اللغة والأدب^(١)

أما أثر هذه البلاغة الروحية والفصاحة النبوية في اللغة وآدابها فأبين من أن
يُبَيَّن ، فإنه عليه الصلاة والسلام قد اجتمع له ما لم يجتمع لغيره من قوة الطبع

(١) راجع صفحتى ١٠٨ و١٠٩ .

وصفاء الحس ومحض السليقة وثقوب الذهن وتمكن اللسان ومؤازرة الوحي ، فكان يقتضب ويتجوز ويشتق ، وينهج المذاهب البيانية ، ويرتجل الأوضاع التركيبية ، ويضع الألفاظ الاصطلاحية ، فيصبح ما أمضاه من ذلك حسنة من حسنات البيان ، وسراً من أسرار اللسان ، يزيد في ميراث اللغة ، ويرفع من قدر الأدب . كقوله عليه الصلاة والسلام : مات حَتَفُ أَنفِه^(١) . الآن حى الوطيس . هُدنة على دَخَن . يا خيل الله اركبي . لا ينتطح فيها عنزان . وقوله لحادى النساء رويدك ! رفقاً بالقوارير . وقوله في يوم بدر : هذا يوم له ما بعده . ناهيك بما استحدثه عليه الصلاة والسلام من أساليب الدين وألفاظ الشريعة مما لم يأت به الكتاب .

عمر بن الخطاب

نشأته وهيبته

ولد أبو حفص عمر الفاروق بن الخطاب القرشى بعد مولد الرسول صلى الله عليه وسلم بثلاث عشرة سنة ، ونشأ نشأة الفتيان من قريش ، فرعى الماشية صغيراً ، ومارس التجارة والحرب كبيراً ، ثم أخذ نفسه بثقافة الأشراف من قومه ، فتعلم الكتابة ، وتقلب في التجارات بين اليمن والحبشة جنوباً ، والشام والعراق شمالاً حتى نغم أمره وعظم قدره . واشتهر في الناس ببلاغة اللسان ، وثبات الجنان ، وقوة الشكيمة ، ومضاء العزيمة ، فجعلت له قريش السفارة بينهم وبين قبائل العرب في السلم والحرب . ولما جاء الإسلام عارضه وناهضه . وليج في الخصومة والإنكار على متبعية ، والمسلمون يومئذ لا يزيدون على خمسة وأربعين رجلاً وثلاث عشرة

(١) روى عن هل بن أبي طالب رضى الله عنه أنه قال : ما سمعت كلمة فريية من العرب إلا وسمعتها من رسول الله (ص) . وسمته يقول : مات حنف أنفه وما سمعتها من حربى قبله : فوردتها إذن في لامية السموع الشهوره دليل هل أن هذه التصيدة منهولة كلها أو بعضها .

امرأة يجتمعون سرّاً في دار الأرقم المخزومي ، فكان الرسول صلى الله عليه وسلم يدعو الله أن يعز الإسلام به أو بأبي جهل ، فاختره الله لهذه السعادة ، وشرح صدره للشهادة . وذلك أنه دخل على ختنه يؤنبه ويعذبه على إسلامه . فدَحَّتْه أخته وأخرجت له صحيفة فيها آيات من سورة طه ، فلما قرأها تعظمت في صدره وقال : **أمن هذا فرّت قريش ؟ ثم سأل أبن الرسول ؟ فقيل له في دار الأرقم . قال عمر : « فأتيت فضربت الباب فاستجمع القوم . فقال لهم حمزة : مالكم ؟ قالوا عمر ! قال : وعمر ! افتحوا له فإن أقبل قبلنا منه ، وإن أدبر قتلناه . فسمع ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فرج ، فتشهدت ، فكبر أهل الدار تكبيرة سمعها أهل مكة . قلت يا رسول الله أسنا على الحق ؟ قال بلى ! قلت : فقيم الاختفاء ؟ فخرجنا صفيين أنا في أحدهما وحمزة في الآخر حتى دخلنا المسجد . فنظرت قريش إلىّ وإلى حمزة فأصابتهم كآبة شديدة . فسماني رسول الله صلى الله عليه وسلم الفاروق يومئذ . »**

كان ذلك وسنه ست وعشرون سنة والأذى قد اشتد بلاؤه بالمسلمين فاحتمل منه نصيبه ، وعادى في الله صديقه ونسيبه ، حتى تسلّل المؤمنون لوأذا إلى المدينة فارتين من العذاب والفتنة . فلم يشأ عمر الجريء الباسل أن يخفى هجرته ، وإنما تقلد سيفه وتنكّب قوسه وأتى الكعبة ، وأشراف قريش بفنائها ، فطاف وصلى ، ثم أقبل عليهم وقال : **« شأهت الوجوه ا من أراد أن تشكله أمه وييتّم ولده وترمل زوجته فليلقني وراء هذا الوادي ا »** فلم يتبعه أحد .

ولم يزل مع رسول الله الصاحب الأمين يؤيده بسنانه ولسانه ، ويرى له الرأي فيقره القرآن في بعض الحوادث ، حتى قبض الرسول واختلف الأنصار والمهاجرون فيمن يكون الخليفة ، فأيد هو أبا بكر حتى تمت له البيعة . وقام منه في خلافته مقام المستشار المؤمن والقاضي العدل ، حتى حضر الموت أبا بكر فلم يجد غيره من يعهد إليه بالخلافة فتولاها بقوة المؤمن المخلص ، وعزيمة القوى الشجاع ،

وحكمة الشيخ المجرب ، وحكمة العمري الأريب ، ووضع يده على ملكوت كسرى وقيصر ، وطفق وحده وهو في قلب الصحراء الجديبة يدبره ويسوسه . فيولى الولاة ، ويختار القضاة ، وينصّب القواد ، ويحرك الأجناد ، ويبعث الأمداد ، ويرسم الخطط ، ويخطط المدن ، ويسن السنن ، ويقسم النىء ويقم الحدود ، مما ينوء بالحكومات ويلتوى على المجالس . وكل ذلك في سداد رأى وثقوب ذهن وبعد نظر ومضاء عزم . وكل ذلك وهو يفترش الغبراء ، ويعايش الدهماء ، ويتدثر بالشوب الخلق ، ويأتمم بالخل والزيت ولا تزيد نفقته من بيت المال على درهمين في اليوم . ولا تزال خلافته مثلاً من المثل العليا في النظام والعدل والأمن . ولكن عمر الذى أراضى الله والناس بعدله وفضله ، لم يرض عبداً مجوسياً اسمه لؤاؤة ، إذ نصح له أن يحسن إلى مولاه المغيرة بن شعبه ، وألا يستكثر عليه درهمين في اليوم يؤديهما إليه ، وهو نجار نقاش وحداد ، فاحتقد عليه هذه النصيحة ، ودب إليه في الفلوس وهو قائم يصلى بالناس في الفجر فطمعه بخنجر ذى نصلين طمناتٍ كانت سبب موته . وذلك ليلة الأربعاء لثلاث بقين من ذى الحجة سنة ٤٣ هـ .

صفاته ومواهبه

كان أمير المؤمنين عمر طويلاً جسيماً ، أبيضاً شديداً الحمرة ، أصلعاً أشيباً ، خفيف شعر العارضين ، أصهب طرف السبال كبيره . وكان رفيقاً رقيقاً إلا إذا وجب الحق فلا تأخذه فيه هواده . وقلّ من سلم من كبار الصحابة وأشرف القبائل من درته (عصاه) . وكان مُحَصِّدَ الرأى ، مُحَكِّمَ الحيلة ، مُوثِقَ الحجة ، شديد الورع ، طاهر اليد ، واسع العلم ، حافل الخاطر بالحكمة ، بارع الفقه في الدين ، إذا ذكرتَ علياً ببلاغة اللسان ذكرتَه هو ببلاغة العقل . وحسبك أن تقرأ له عهوده وكتبه للقضاة والولاة والقادة فترى منه الفقيه المجتهد ، والإدارى

الحازم والسياسى المحنك ، وكل ذلك دون تلقين ولا وحى ولا اقتداء ، وإما هو فضل الله يؤتیه من يشاء .

نموذج من عمره وخطبه

ذلك عهده إلى أبى موسى الأشعري حين ولاه القضاء ، وقد اعتبره جمهور من القضاء أساساً للنظام وقاعدة للأحكام وما أجدره بذلك !

بسم الله الرحمن الرحيم . من عبد الله عمر أمير المؤمنين إلى عبد الله بن قيس ، سلامٌ عليك . أما بعد فإن القضاء فريضة محكمة وسنة متبعة . فافهم إذا أدلى إليك فإنه لا ينفع تكلمٌ بحق لا نفاذه . آس بين الناس فى وجهك وعدلك ومجلسك ، حتى لا يطعم شريف فى حيفك ، ولا يياسَ ضعيف من عدلك . البينة على من ادعى واليمين على من أنكر . والصلح جائز بين المسلمين إلا صلحاً أحل حراماً أو حرم حلالاً . لا يمنعك قضاء قضيته اليوم فراجعت فيه نفسك وهديت فيه لرشدك أن ترجع إلى الحق فإن الحق قديم ، ومراجعة الحق خير من التماذى فى الباطل . القهم القهم فيما تلجلج فى صدرك مما ليس فى كتاب ولا سنة . ثم اعرف الأشباه والأمثال فقس الأمور عند ذلك ، واعمد إلى أقربها عند الله وأشبهها بالحق . واجعل لمن ادعى حقاً غائباً أمداً ينتهى إليه ، فإن أحضر بينته أخذت له بحقه وإلا استحللت عليه القضية ، فإنه أنفى للشك وأجلى للعمى . المسلمون عدول بعضهم على بعض إلا مجلوداً فى حد ، أو مجرباً عليه شهادة زور ، أو ظنيماً فى ولاء أو نسب ، فإن الله تولى منكم السرائر ودرأ بالبينات والأيمان . وإياك والخلق والضجر والتأذى بالخصوم والتنكر عند الخصومات ، فإن الحق فى مواطن الحق يعظم الله به الأجر ويحسن به الذخر ؛ فمن صحت نيته وأقبل على نفسه كفاه الله ما بينه وبين الناس . ومن تخلق للناس بما يعلم الله أنه ليس من نفسه شأنه الله ، فما ظنك بثواب غير الله فى عاجل رزقه وخزائن رحمته ؟ والسلام .

ومن خطبة له رضى الله عنه :

أيها الناس ! إنه أتى على حين وأنا أحسب أن من قرأ القرآن إنما يريد الله وما عنده . ألا وإنه قد خيّل إلى أن أقواماً يقرءون القرآن يريدون ما عند الناس . ألا فأريدوا الله بقراءتكم وأريدوه بأعمالكم ، فإنما كنا نعرفكم إذ الوحي ينزل ، وإذ النبي صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا ، فقد رفع الوحي وذهب النبي عليه السلام ، فإنما أعرّفكم بما أقول لكم : ألا فمن أظهر لنا خيراً ، ظننا به خيراً وأئمننا به عليه ، ومن أظهر لنا شراً ظننا به شراً وبغضناه عليه .

أقدعوا هذه النفوس عن شهواتها فإنها طلمعة . وإياكم ألا تقدعوها تنزع بكم إلى شرّ غاية . إن هذا الحقّ ثقيلٌ مرى ، وإن الباطل خفيفٌ وبي ، وترك الخطيئة خيرٌ من معالجة التوبة .

على بن أبي طالب

المتوفى سنة ٤٠ هـ

ولد أمير المؤمنين على بن أبي طالب قبل الهجرة بإحدى وعشرين سنة ، وربى مع الرسول في بيته تحفيقاً عن أبيه . ولما بعث النبي صلى الله عليه وسلم بالرسالة كان على مرافقاً ، فأمن به وشب على حبه ، وتغلغل أصول الدين في قلبه ، وخططر بنفسه في سبيل الرسول ليلة هجرته ، وأبلى البلاء الحسن في تأييده ونصرته ، وشهد الغزوات كلها إلا تبوك فقد خلفه النبي فيها على أهله . فلما لحق الرسول بربه كان على يرى أنه أحق بخلافته لمكانته من شرف القرابة والصحبر . فلما بايع المسلمون أبا بكر وقام بعهد من بعده عمر ، وأخطأته الشورى إلى عثمان ، فلوصل الجرة ثم سالمها ، متحاملاً في كل ذلك على نفسه . وقتل عثمان فبايعه الناس في الحجاز ، وامتنع معاوية وأهل الشام معه غضباً لمقتل عثمان وقعود على عن القتل .

وكان ما كان من الفتنة التي حَلَّت العُقَد ، وأوهنت العُرَى ، وقسمت المسلمين إلى طائفتين تعادتا واقتتلتا حيناً من الدهر . ثم قرت السيوف في الأغماد دون أن يستوثق الأمر لأحد الرجلين . واثمتر ثلاثة من الخوارج بزعماء هذه الفتنة الثلاثة : معاوية وعمرو بن العاص وعلي . فكان أمير المؤمنين نصيب ابن ملجم ، فقتله غيلة بمسجد الكوفة سنة ٤٠ هـ وقد مضى على خلافه أربع سنين وتسعة أشهر إلا أياماً .

أضواء ومواهب

كان عليّ كرم الله وجهه قوى العضل صادق البأس شجاع القلب لا يبالي أوقع على الموت أم وقع للموت عليه . وكان حُجَّة في الفقه ، قُدوة في الورع ، شديد الشكيمة في الحق ، قوى الثقة بالنفس ، لا يعرف الهوادة في الدين ولا المرونة في الدنيا ؛ فكانت هذه الخلال الكريمة من أنصار معاوية الداهية في الخلاف عليه . ولا نعلم بعد رسول الله فيمن سلف وخلف أفصح من علي في المنطق ، ولا أبلّ ريقاً في الخطابة . كان حكماً تنفجر الحكمة من بيانه ، وخطيباً تندفق البلاغة على لسانه ، وواعظاً ملء السمع والقلب ، ومرتسلاً بعيد غور الحجة ، ومتكلماً يضع لسانه حيث شاء . وهو بالإجماع أخطب المسلمين وإمام المنشئين ، وخطبه في الحث على الجهاد ، ورسائله إلى معاوية ، ووصفه الطاووس والخفاش والدنيا ، وعهده للأشتر النخعي إن صح ذلك ، تعدن معجزات اللسان العربي ، وبدائع العقل البشري . وما نظن ذلك قد تهباً له إلا لشدة خلطه للرسول وميرآته منذ الحداثة على الخطابة له والخطابة في سبيله .

نموذج من كلامه

كلام أمير المؤمنين يدور على أقطاب ثلاثة . الخطب والأوامر ، والكتب والرسائل ، والحكم والمواعظ . وقد جمعها على هذا النسق الشريف الرضي

في كتاب سماه (نهج البلاغة) لأنه كما قال بحق : « يفتح لناظر فيه أبوابها ،
ويقرب عليه طلاها ، فيه حاجة العالم والمتعلم ، وبغية البليغ والزاهد ، ويضيء
في أثنائه من الكلام في التوحيد والمدل ماهو بلال كل غلة ، وجلاء كل شبهة »
والصحيح أن أكثر ما في هذا الكتاب منجول مدخول .

فمن خطبه عليه السلام وقد قام إليه رجل من أصحابه فقال : نهيتنا عن
الحكومة ثم أمرتنا بها فلم ندر أي الأمرين أرشد . فصفق عليه السلام إحدى
يديه على الأخرى ثم قال : هذا جزاء من ترك العقدة ! أما والله لو أني حين
أمرتكم بما أمرتكم به حملتكم على المكروه الذي يجعل الله فيه خيراً ، فلن
استقمتم هديتكم ، وإن اعوججتم قومتمكم ، وإن آيتم تداركتكم ، لكانت
الوثقى . ولكن بمن وإلى من ؟ أريد أن أذوى بكم وأنتم دائئ ، كدناش الشوكة
بالشوكة وهو يعلم أن ضلها معها . اللهم قد ملت أطباء هذا الداء الدوى ،
وكلت النزعة بأشطان الركي ! أبين القوم الذين دُعوا إلى الإسلام قبلوه ،
وقرأوا القرآن فأحكموه ، وهيجوا إلى القتال فو لهوا وله اللقاح إلى أولادها ،
وسلبوا السيوف أغادها ، وأخذوا بأطراف الأرض زحفاً زحفاً ، وصفافاً ،
بعض هلك ، وبعض نجا ، لا يبشرون بالأحياء ، ولا يمزون بالموتى . مره
العيون من البكاء ، تُخص البطون من الصيام ، ذبل الشفاء من الداء ، صفر
الألوان من السهر ، على وجوههم غبرة الخاشعين . أولئك إخواني الذاهبون
فحق لنا أن نظماً إليهم ونعص الأيدي على فراقهم .

إن الشيطان يسئى لكم طرقة ، ويريد أن يحل دينكم عقدة عقدة ،
ويعطيك بالجماعة الفرقة . فاصدقوا عن نرغاته ونفثاته ، واقبلوا النصيحة ممن
أهداها إليكم واعقلوها على أنفسكم .

ومن كلام له عليه السلام :

إلا وإن الخطايا خيل شمسٌ حجل عليها أهلها ، وخُلست لجمها فقصحت بهم

في النار . وإن التقوى مطايا ذُلُّ سُجِّلَ عليها أهلها ، وأعطوا أزمتهما فأوردتهم الجنة . حقُّ وباطل ، ولكلِّ أهل . فلئن أمر الباطل فقديماً فعل ، ولئن قلَّ الحق فلربما وعل ، ولقلما أدبر شيء فأقبل . شُغِلَ مِنَ الجنة والنار أمامه . ساعٍ سريعٍ نجياً ، وطالبٌ بطيء رجا ، ومقصر في النار هوَى ، اليمين والشمال مضلة ، والطريق الوسطى هي الجادة ، عليها باقى الكتاب وآثار النبوة ، ومنها منفذ السنة ، وإليها مصير العاقبة

سحبان وأثل

المتوفى سنة ٥٥٤ هـ

نشأته ومبانيه

نشأ سحبان بن زفر بن إباد في الجاهلية بين قبيلة وأثل من ربيعة ، ثم دخل في الإسلام عند ظهوره ، واتصل ب معاوية ، فحسُنَ موقعه لديه ، واعتمد في يوم الكلام عليه . وكان سحبان خطيباً عَمَرَ البديهة ، قوى العارضة ، متصرفاً في فنون الكلام ، كأنما يتلو عن ظهر قلبه . وبه يُضرب المثل في كل ذلك .

قدم على معاوية وقد من خراسان فطلب سحبان فلم يجده في منزله . فاقتضب من حيث كان وأدخل عليه . فقال له معاوية : تسكلم . فقال : أحضر والى عصا . قالوا وما تصنع بها وأنت بحضرة أمير المؤمنين ؟ قال : ما كان يصنع بها موسى وهو يخاطب ربه . فضحك معاوية وأمر له بها . فلما جاءته ركلها ولم ترق في نظره ، فجاءوه بعصاه ، وخطب من صلاة الظهر إلى أن حان وقت العصر ما تنحج ولا سعل ولا توقف ولا تلسكاً ولا ابتداءً في معنى وخرج منه وقد بقي فيه شيء . فما زالت تلك حاله حتى دهش منه الحاضرون . فأشار إليه معاوية بيده فأشار إليه سحبان : لا تقطع على كلامي ا فقال معاوية : الصلاة ! قال

هي أمامك ! نحن في صلاة وتحميد ، ووعده ووعيد . فقال معاوية ! أنت أخطب العرب ، قال سبحانه : والعجم والجن والإنس . وهذه الحادثة تدل على قوته وجبرأته وغزارة بحره ، ومعرفته لقدره . ولكن المأثور من خطبه قليل في جانب شهرته . ولعل خلوه من الجاه والرياسة ، وبعده عن الأحزاب والسياسة ، وطول خطبه ووحدة موضوعها صرف الرواة عنه . كانت وفاته في خلافة معاوية سنة ٥٥٤ .

نموذج من خطبه

إن الدنيا دار بلاغ ، والآخرة دار قرار . أيها الناس فخذوا من دار تمركم ، إلى دار مقرم ، ولا تمسكوا أستاركم ، عند من لا تخفى عليه أسراركم ؛ واخرجوا من الدنيا قلوبكم ، قبل أن تخرج منها أبدانكم ، ففيها حياتكم ، ولنغيرها خلقتم ، إن الرجل إذا هلك ، قال الناس ماترك ؟ وقالت الملائكة ما قدم ؟ فقدموا بعضاً يكون لكم ، ولا تخلفوا كلاً يكون عليكم .

زياد بن أبيه

المتوفى سنة ٥٥٣ هـ

نسأته وحياته

كان للحارث بن كلدة الثقفي طبيب العرب أمةً بغيٌّ تدعى سميةً ، وعبد رومي يسمى عبيداً . فزوّج العبد من الأمة . فولدت على فراشه زياداً في السنة الأولى من الهجرة ! وقد ضربت فيه بعرق أشبٍ فنشأ أريباً أديباً . ولم يكد أمر المسلمين يتسع ويتسق حتى دلت عليه كفايته ، فاستكتبه أبو موسى الأشعري والى البصرة من قبل عمر ، فتجلى نبوغه وظهر حذقه . ثم تقلبت به الأمور في عهد عمر حتى شاء أن يعزله عن عمله « لا لخيانة ولا لعجز ، وإنما كره

أن يحمل على الناس فضل عقله « على أن عمر كان يستكفيه المهم من أموره فيكفيه غير عاجز ولا مقصر . وخطب بين يديه يوماً في حضرة المهاجرين والأنصار خطبة لم يسمعوا مثلها . فقال عمرو بن العاص : لله در هذا الغلام ! لو كان أبوه من قريش لساق العرب بعصاه . وبلغ من إعجاب أبي سفيان به أن اعترف بعد إسلامه لعليّة قريش وفيهم عليّ أن زياداً ابنه ، اشتملت عليه أمه منه وهو مشرك ، ولكن خوفه من عمر منعه أن يلحقه بنسبه . ولما تولى الخلافة أمير المؤمنين عليّ وجد في زياد اليد المصرفة ، والرأى الجميع ، واللسان الذرب ، فاستعمله ، فراض له الأمور ، وسد الثغور ، وأحكم السياسة . وحاول معاوية أن يستميله إليه فأعياه حتى قتل عليّ ، فرأى أن يستخلص مودته باستلحاقه بنسب أبيه وادعائه أخاً له ، فصار يدعى بعد ذلك زياد بن أبي سفيان . ولكن كثيراً من الناس لا يعترف له بهذا النسب ، ثم ولاء معاوية المصريين ، وهو أول من جمعه فكان يقيم في البصرة ستة أشهر وفي الكوفة مثلها . كانت وفاته بالطاعون سنة ٥٥٣ .

أضراسه ومواهبه

كان زياد من ذوى الأحلام الوافرة والأذهان الحاضرة واللسان الفتيق ، قال فيه الشعبي : ما سمعت متكلماً على منبر قط تكلم فأحسن إلا أحببت أن يسكت خوفاً من أن يسيء إلا زياداً ؛ فإنه كلما أكثر كان أجود كلاماً .

وزياد من أقوى العمدة التي قام عليها عرش بني أمية . رمى به معاوية وجوه القتل فلم الشعث وشدت السلطان ، واشتد في العقوبة ؛ فأخذ بالظنة ، وعاقب على الشبهة ، وقتل المعلن ، واستصلح المسرّ ، وخافه الناس خوفاً شديداً حتى أمن بعضهم بعضاً ، وحتى كان الشيء يسقط من يد الرجل والمرأة فلا يعرض له أحد حتى يأتيه صاحبه فيأخذه ، ولا يفلق أحد بابه . وهو أول من أعلن الحكم العرفي

في الإسلام بخطبته المعروفة بالبراء^(١) وهي التي خطبها حين قدم البصرة .

نموذج منه كلامه : خطبته البراء

أما بعد فإن الجهالة الجهلاء ، والضلالة العمياء ، والغىّ المؤفى بأهله على النار ما فيه سفهاؤكم ، ويشتمل عليه حلامؤكم . من الأمور التي يَنْبَتُ فيها الصغير ، ولا يتحاشى عنها الكبير ، كأنكم لم تقرأوا كتاب الله ، ولم تسمعوا ما أعد الله من الثواب الكريم لأهل طاعته ، والعذاب الأليم لأهل معصيته ، في الزمن السرمدي الذي لا يزول . إنه ليس منكم إلا من طرفت عينه الدنيا . وسدت مسامعه الشهوات ، واختار القانية على الباقية ، ولا تذكرون أنكم أحدثتم في الإسلام الحدث الذي لم تُسبِقوا إليه ، من ترككم الضعيفَ يقهر ، والضعيفة المساوبة بالنهار لاتنصر ، والعدو غير قليل ، والجمع غير مفترق . ألم يكن منكم نُهاةٌ يمنعون الغواة عن دليج الليل وغارة النهار ؟ اقربتم القرابة ، وباعدتم الدين . تعتدرون بغير العذر ، وتفغضون على النُكر ، كل امرئ منكم يرد من سفهيه صنع عن لا يخاف عاقبة ولا يرجو معاداً ! ما أنتم بالحلماء ، ولقد اتبعتم السفهاء ، فلم يزل بكم ما ترون من قيامكم دونهم حتى انتهكوا حرّم الإسلام ، ثم أطرقوا وراءكم كُنُوساً في مكائس الريب ، حرام على الطعام والشراب حتى أسوئها بالأرض هدماً وإحراقاً . إني رأيت آخر هذا الأمر لا يصلح إلا بما صلح به أوله : لين في غير ضعف ، وشدة في غير عنف ، وإني لأقسم بالله لآخذنّ الولي بالمولي والمقيم بالظاعن ، والمطيع بالماصي ، والصحيح بالسقيم ، حتى يلقى الرجل أخاه فيقول : أنجُ سعدٌ فقد هلك سُميد ، أو تستقيم قناتكم . إن كذبة الأمير بَلقاء مشهورة ، فإذا تعلقتم على بكذبة فقد حلت لكم معصيتي ، فإذا سمعتموها مني فاغتمزوها في واعلموا أن عندي أمثالها ، من تُبِّ منكم عليه فأناض من لماذهب

(١) سميت كذلك لأنه لم يمد الله فيها إلا بالبراء للفظوة المشهورة .

من ماله . فإياي ودلج الليل فإني لا أوتى بمدج إلا سفكت دمه . وقد أجتكم في ذلك بمقدار ما يأتي الخبز الكوفة ويرجع إليكم ، وإياي ودعوى الجاهلية ، فإني لا أجد أحداً دعا بها إلا قطعت لسانه . وقد أحدثتم أحداثاً لم تكن ، وقد أحدثنا لكل ذنب عقوبة . فمن أغرق قوماً أغرقناه ، ومن أحرق قوماً أحرقناه . ومن نقب قلباً نقبنا عن قلبه . ومن نبش قبراً دفناه فيه حياً . فكفوا عن أيديكم وألسنتكم أ كفف عنكم يدي ولساني . ولا تظهر من أحدكم ريبة بخلاف ما عليه عامتكم إلا ضربت عنقه . وقد كان بيني وبين قوم إحنٌ فجعلت ذلك دبراً أذني وتحت قدمي . إني لو علمت أن أحدكم قد قتل الشلث من بغضي لم أكشف له قناعاً ، ولم أهتك له سترًا ، حتى يبدى لي صفحته ، فإذا فعل ذلك لم أناظره . فاستأنفوا أموركم . وأعينوا على أنفسكم ، فربّ مبتئس بقدمنا سيئس ، ومسرور بقدمنا سيبتئس .

أيها الناس إنا قد أصبحنا لكم ساسة ، وعنكم ذادة ، نسوسكم بسلطان الله الذي أعطانا ، ونذود عنكم بفيء الله الذي خولنا ، فلنا عليكم السمع والطاعة فيما أحببنا . ولكم علينا العدل فيما ولىنا . فاستوجبوا عدلنا وقيمتنا بمناصحتكم لنا . وأيم الله إن لي فيكم لصرعى كثيرة ، فليحذر كل منكم أن يكون من صرعى!

الحجاج بن يوسف

٤١ - ٨٩٥

نشأته وحياته

ولد أبو محمد الحجاج بن يوسف الثقفي سنة ٤١ في مهد الخول والفقر . فزاول مع أبيه تعليم الصبية بالطائف ؛ إلا أن نفسه الرغبية الطامحة ربأت به عن الضعة فلقت إليه بذكائه رَوْحَ بن زنباع الجذامي ، أحد أعوان عبد الملك بن مروان

فجعله في شُرطته . ورأى الخليفة انحلال عسكره فشكا ذلك إلى رَوْح بن زنباع فدلّه على الحجاج ، فقلده إمرة الجند فسلكهم في النظام وردمهم إلى الطاعة . ثم اشهر أمره ونبه ذكره بقيادة الجنود إلى عبد الله بن الزبير ، وقد دعا إلى نفسه بالحجاز ، فحاصره بمكة ثم قتله وأزال ملكه . فثبتت كفايته وسمت مكانته في نفس عبد الملك ، فولاه العراق وهو يضطرب بفتنة الشيعة ، ويضطرم بثورة الخوارج ، فسفهم عسفاً شديداً أذل أعناقهم ، وطأطأ إشرافهم ، وعاد بهم إلى حظيرة الجماعة يتعز في أشلائهم ، ويخوض بهم في دمائهم .

وبقي طول حياته بالعراق دِعامةً للملك عبد الملك وابنه الوليد يضبطه ويبسطه حتى طبق ما بين الشام والصين . ثم مات بواسط سنة ٩٥ هـ .

أضطرقة ومواهب

كان الحجاج طامحاً إلى السلطان والمجد ، فسلك إليهما سبيل الظلم والقسوة ، وتذرع لنيئلهما بالفصاحة والقوة ، ورزقه الله من طلاوة اللسان وقوة الجنان القسط الأوفر ، فانتهى أمره إلى السلطان القاهر والكلمة النافذة . قال له عبد الملك يوماً : كل امرئ يعرف عيوب نفسه ، فصف نفسك ولا تخف عني شيئاً . فقال : « أنا لجوج حقود حسود . ومتى كانت هذه الصفات في متسلط أهلك الحرث والنسل إلا أن يدين له الناس ويدلوا » وكان فصيحاً قوياً الحججة لا يكاد يعده في ذلك أحد من أهل زمنه . قال مالك بن دينار : « ما رأيت أحداً أبين من الحجاج : إنه كان ليرقى المنبر فيذكر إحسانه إلى أهل العراق وصفحته عنهم وإساعتهم إليه حتى لأحسبه صادقاً وأظنهم كاذبين » مع أنه قتل منهم بالصبر مائة وعشرين ألفاً ، وتوفى وفي سجنونه منهم خمسون ألف رجل وثلاثون ألف امرأة .

نموذج من خطبه

لما قدم الحجاج أميراً على العراق دخل المسجد مُعْتَمِّاً بعمامة قد غطى بها
أكثر وجهه ، وصعد المنبر وهو مثقل سيفه مُتَنَسِّك قوسه ، ومكث ساعة لا يتكلم .
فقال الناس بعضهم لبعض : قبح الله بنى أمية إذ تستعمل مثل هذا على العراق !
وهمَّ عُمَيْرُ بن ضائء البرجمي أن يرحمه ، فذمعه الناس حتى يروا عاقبة أمره . فلما
رأى الحجاج عيون الناس إليه حسر اللثام عن فيه ونهض فقال :

أنا ابن جلا وطلاء الثنايا متى أضع العمامة تعرفوني

يا أهل الكوفة ! إني لأرَى رءوساً قد أينعت وحن قطافها ، وإني
لصاحبها ! وكأني أنظر إلى الدماء بين العائم والآحى !

هذا أوان الشد فاشتدّي زيم قد لفظ الليل بسواق حطّم
ليس براعى إبل ولا غنم ولا مجزار على ظهر وضم

قد لفظ الليل بعصلي أروع خراج من الدويّ
مهاجر ليس بأعرابي

قد شمّرت عن ساقها فشدّوا وجدت الحربُ بكم فجدّوا
والقوسُ فيها وترٌّ عرْدٌ مثلُ ذراع البكر أو أشدّ

لا بدّ مما ليس منه بدّ !

إني والله يا أهل العراق ما يُقَعِّعُ لي بالسنان ، ولا يُغْمِزُ جانبي كتغماز
التين . ولقد قررتُ عن ذكاه ، وفدّشتُ عن تجربة . وإن أمير المؤمنين .
أطال الله بقاءه ، نثر كفائته بين يديه فمعجم عيدانها فوجدني أمرّها عوداً

وأصلبها مكسراً فرماكم بي . لأنكم طالما أوضعتكم في الفتنة ، واضطجعتكم في مراقدة الضلال .

والله لأحزمنكم جزم السلمة ، ولأضربكم ضرب غرائب الإبل؛ فإنكم لكأهل قرية كانت آمنة مطمئنة يأتيها رزقها رغداً من كل مكان ، فكفرت بأنعم الله فأذاقها الله لباس الجوع والخوف بما كانوا يصنعون . وإنى والله ما أقول إلا وفيت ، ولا أهم إلا أمضيت ، ولا أخلق إلا فرئت . وإن أمير المؤمنين أمرني بإعطائكم أعطياتكم وأن أوجهكم إلى محاربة عدوكم مع المهلب بن أبي صفرة . وإنى أقسم بالله لا أجد رجلاً تخلف بعد أخذ عطائه بثلاثة أيام إلا ضربت عنقه .

الكتابة

كان أولياء العرب في الصدر الأول كتباً بالطبع يُملون أو يكتبون ما يريدون بأسلوب مُوجز ولفظ فصيح . فلما امتدَّت ظلال الخلافة وفاضت موارد الفِء اضطرتهم ضبط ذلك إلى إنشاء الدواوين فدونها عمر . ثم عهد الخلفاء بالكتابة فيها إلى العرب والموالي والمُعربين . وظلت كتابة الخراج في الأقاليم بلغة أهل مصر : ففي العراق وفارس بالفارسية ، وفي الشام بالرومية ، وفي مصر بالقبطية . حتى حذقها من العرب طائفة صالحة سدوا حاجة الدواوين ^(١) فحوّلت كلها إلى العربية في عهد عبد الملك بن مروان وابنه الوليد ^(٢) .

ثم ثقلت أعباء الدولة على الخلفاء فاتخذوا نواميس من كتاب العرب وأدباء الموالى ، وفي هؤلاء مَنْ وقف على أنظمة الفرس والروم فوضعوا للرسائل قيوداً وحدوداً أو شكت أن تصير بها صناعة .

أما أساؤها فكان جزل الألفاظ ، نغم التراكيب ، واقفاً عند الغرض ، خالياً من التطويل والتجميل والمبالغة ، جارية فيه الضمائر على قانون الوضع ، فلا تستعمل ضمائر الجمع في كلام المتكلم وخطاب الواحد . وكانت تُبدأ بالبسملة وقولهم : من فلان إلى فلان ، أما بعد . أو إني أحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . وتختتم بالسلام ، أو بقولهم : والسلام على من أتبع الهدى . فلما ولي الخلافة الوليد ابن عبد الملك أمر بتجويد القرايطيس ، وتفخيم الخطاب ، وألا يكتب بمثل ما تكاتب به السوقة . وجرى العمل على ذلك من بعده ، حتى استخلف

(١) المراد بالدواوين هنا دواوين الخراج لأن دواوين الجند ودواوين الرسائل كانت تكتب بالعربية منذ وضعت .

(٢) نقل ديوان الخراج في العراق صالح بن عبد الرحمن في ولاية الحجاج ، ونقله في الشام أبو ثابت سليمان بن سعد كاتب الرسائل في خلافة الوليد بن عبد الملك ، وأما في مصر فأوله من واه ابن يربوع الفزاري الحمصي في خلافة الوليد بن عبد الملك أيضاً :

عمر بن عبد العزيز ، ثم يزيد بن عبد الملك ، فحملهما الورع ومقتُ البدعة على الرجوع بالكتابة إلى نهج السلف .

على أن نظام الكون وطبيعة الناس في هذا العهد أبيضاً هذا الجمود ، فناء عبد الحميد الكاتب فأسهب في الرسائل ونمقها ورققها وأطال التحميدات في أولها وتبعه في ذلك سائر الكتاب . وجملة القول أن الفتر في أربعين سنة خطافي سبيل الكمال بفضل الدين والفتوح خطوة واسعة ، فانقل من السجعات القصيرة المفككة ، والمعاني العامة الجملة ، إلى هذا الأسلوب المحكم الفير ، المطرد السياق ، المختلف الغرض ، العميق الأثر ، كما ترى في رسائل الإمام عليّ وخطبه وهو تقدم سريع لم يظفر بمثله الشعر .

الكتاب

عبد الحميد بن يحيى

نسأته ومبائه

نشأ أبو غالب عبد الحميد بن يحيى بالشام من سلالة غير عربية ، ونسب إلى بنى عامر نسبة ولائية . ثقف الكتابة على سالم مولى هشام بن عبد الملك وكاتب سره ، ثم أخذ يمارس تعليم الصبية يجوب إلى ذلك البلد بعد البلد حتى علم بمكانته مروان بن محمد فاستكتبه أيام ولايته على أرمينية فكتب له ونفق عنده وتأكدت بينهما المودة . فلما جاء البشير بمبايعة أهل الشام لمروان بالخلافة سجد لله شكراً وسجد أصحابه إلا عبد الحميد . فقال له مروان : لم لا تسجد ؟ فقال : ولم أسجد ؟ أعلى أن كنت معنا فطرت عنا ؟ فقال : إذن تطير معي . قال : الآن طالب السجود . وسجد . فاتخذ مروان كاتب دولته . ولما هاله خفوق الألوية السود ودنو أبي مسلم وتتابع الفشل قال لعبد الحميد : قد احتجت أن تصير مع

عدوى ، وتظهر العذر بي ، فإن إعجابهم بأدبك ، وحاجتهم إلى كتابتك :
توجههم إلى حسن الظن بك . فإن استطعت أن تنفعني في حياتي ، وإلا لم تعجز
عن حفظ حرّمي بعد مماتي . فقال له عبد الحميد : إن الذي أشرت به عليّ أنفع
الأميرين لك وأقبحهما بي ، وما عندي إلا الصبر حتى يفتح الله عليك أو أقتل
معك ، وأنشد :

أسيرٌ وفاء ثم أظهر غَدرةً فمن لي بعذر يوسع الناس ظاهره ؟

ومكث معه حتى قتل مروان بمصر ، فلجأ إلى صديقه عبد الله بن المقفع بالبحرين
ففاجأه الطلب وهو في بيته . فقال الذين دخلوا عليهما : أيكما عبد الحميد ؟ فقال
كل منهما : أنا . مخافة على صاحبه . وأوشك الجند أن يقتلوا ابن المقفع لولا أن
صاح بهم عبد الحميد قائلاً : ترفقوا بنا فإن لكل منا علامات ، فوكلوا بنا
بعضكم ولئيمض البعض الآخر إلى من وجهكم فيذكر له تلك العلامات ففعلوا
وأخذ عبد الحميد فقتل سنة ١٢٢ هـ .

أمره في الكتابة

كانت الكتابة قبل عبد الحميد حديثاً مكتوباً لا ترجع إلى نظام ، ولا تحور
إلى فن ولا تعد في الصناعات الشريفة . فلما تقلدها كانت الحال داعية والنفوس مهيأة
إلى فن من الكتابة جديد ، فإن تشب أطراف الدولة ، وبدؤت بحضارة ، وزهو
النثر والخطابة ، ودنو العربية من الفارسية ، وتخرّج عبد الحميد على سالم مولى
هشام ، وصلته الوثيقة بابن المقفع ، كانت سبباً في ظهور هذا النمط الجديد في أسلوب
عبد الحميد . فقد نوع الخطاب موافقةً لحال المخاطب ، وأوجز وأطنب مراعاةً لمقتضى
الحال ، وتقنن في البدء والختام مطابقةً للغرض ، وأطال التعميدات في صدور
الرسائل ، وسار على أثره المترسلون فأصبحت الكتابة صناعة محررة الأصول
مميزة الفصول مبيّنة القواعد .

أسلوب

أسلوب عبد الحميد عذب المورد صافي الديباجة ، يسبي المشاعر ويفعل بالألباب فعل السحر . وقد عرف الناس له ذلك حتى إن أبا مسلم الخراساني أبي أن يقرأ الكتاب الذي كتبه إليه عن لسان مروان يستجابه به ويستميله ، ثم أحرقه إشفاقاً على نفسه من تأثيره ؛ وكتب على جُذاة منه إلى مروان :

محا السيفُ أسطارَ البلاغةِ وانتحى عليك ليوثُ الغابِ من كل جانب

مُؤزج من نثره

كتب إلى أهله وهو منهزم مع مروان :

أما بعد ، فإن الله تعالى جعل الدنيا محفوفة بالسكره والسرور ، فمن ساعده الحظ فيها سكن إليها ، ومن عضته بناها ذمها ساخطاً عليها ، وشكاهامستزيداً لها ، وقد كانت أذقتنا أفوايقَ استجليناها ثم جمحت بنا نافرة ، ورحمتنا مولية ، فمُلح عذبها ، وخشن لينها ، فأبعدتنا عن الأوطان ، وفرقتنا عن الإخوان ، فالهدار نازحة ، والطير بارحة . وقد كتبت الأيام تزيدنا منكم بعداً ، وإليكم وجداً ؛ فإن تنم البلية إلى أقصى مدتها يكن آخر العهد بكم وبنا . وإن يلحقنا ظفر جارح من أظفار عدونا نرجع إليكم بذل الإسار ، والذل شرجار . نسأل الله تعالى الذي يعز من يشاء ويذل من يشاء ، أن يهب لنا ولكم ألفة جامعة ، في دار آمنة ، تجمع سلامة الأبدان والأديان ، فإنه رب العالمين وأرحم الراحمين .
وقال من وصيته للكتّاب ، وفيها دلالة على أن الكتابة صارت صناعة ، وأن الكتّاب أصبحوا جماعة .

..... وإياكم والكبرِ والسُّخفِ والعظمة ، فإنها عداوة مجتلبة من غير إحنةٍ ، وتحابُّوا في الله عز وجل في صناعتكم وتواصوا عليها بالتى هي أليق لأهل

الفضل والعدل والنبل من سلفكم . وإن نبا الزمان برجل منكم فاعطفوا عليه
وواسوه حتى يرجع إليه حاله ، ويثوب إليه أمره . وإن أقعد أحداً منكم الكبر
عن مكسبه ولقاء إخوانه فزوروه وعظموه وشاوروه واستظفروا بفضل تجربته
وقديم معرفته .

وكتب في التوصية بشخص : حقّ موصل كتابي عليك كحقه عليّ ، إذ جعلك
موضعاً لأمله ، ورآني أهلاً لحاجته . وقد أنجزت حاجته ، فصدق أمله .

نماذج من النثر

الحكم

من حكم أبي بكر رضي الله عنه قوله :

صنائع المعروف تقي مصارع السوء . الموت أهون مما بعده وأشد مما قبله .
ثلاث من كنّ فيه كنّ عليه : البغي والنكث والمكر .

ولم ير رضي الله عنه : من كتم سره كان الخيار في يده . مرّ ذوى القربايات
أن يتزاوروا ولا يتجاوروا . أشكوا إلى الله ضعف الأمين وخيانة القوى .
وقال على كرم الله وجهه : رأى الشيخ خير من جلد الغلام . الناس أعداء
ما جهلوا . قيمة كل امرئ ما يحسن .

الخطب

خطب الرسول صلى الله عليه وسلم ذات يوم فحمد الله بما هو أهله ثم أقبل
على الناس فقال :

أيها الناس ! إن لكم معالم فاتموا إلى معالمكم . وإن لكم نهاية فاتموا
إلى نهايتكم ؛ فإن العبد بين مخافتين : أجل قدمضى فلا يدري ما الله فاعلٌ به ،

وأجل باق لا يدري ما لله قاض فيه . فليأخذ العبدُ من نفسه لنفسه ، ومن ديناه
لآخرته ، ومن الشبيبة قبل الكبر ، ومن الحياة قبل المات . فوالذى نفسُ محمد
بيده ، ما بعد الموت من مستعقب ، ولا بعد الدنيا من دار ، إلا الجنة والنار .
وقام أبو بكر يوم السقيفة وقد اختلف المهاجرون والأنصار في أمر الخلافة

لحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

أيها الناس ! نحن المهاجرين أول الناس إسلاماً ، وأكرمهم أحساباً ،
وأوسطهم داراً ، وأحسنهم وجوهاً ، وأكثرهم ولادة في العرب . وأمسهم رحماً
برسول الله صلى الله عليه وسلم . أسلمنا قبلكم ، وقدمنا في القرآن عليكم ،
فقال تبارك وتعالى : (والسَّابِقُونَ الأولون مِنَ المهاجرينَ والأنصارِ والذين
أتبعوهم بإحسانٍ) فنحن المهاجرون وأنتم الأنصار ، إخواننا في الدين وشركاؤنا
في الفىء ، وأنصارنا على العدو . آوئتم وواسيتم فجزاكم الله خيراً ؛ فنحن الأمراء
وأنتم الوزراء . لاتدين العرب إلا لهذا الحى من قريش . فلا تنفَسوا على
إخوانكم المهاجرين ما منحهم الله من فضله .

وصعد معاوية منبر المدينة فحمد الله وأثنى عليه ثم قال :

يا أهل المدينة ! إني لأحب أن تكونوا خلقاً كخلق العراق : يعيبون
الشيء وهم فيه . كل امرئ منهم شيعة نفسه . فاقبلونا بما فينا . فإن ما وراءنا
شرٌّ لكم ، وإن معروف زماننا هذا منكرُ زمان مضى ، ومنكرُ زماننا
معروف زمان لم يأت . ولو قد أتى فالرتقُ خير من الفتق ، وفي كلِّ بلاغ ، ولا
مقام على الرزية .

وخطب الحجاج أهل العراق بعد دير الجحاجم قال :

يا أهل العراق ! إن الشيطان قد استبطنكم فخالط اللحم والدم والعصب
والمسامع والأطراف والشغاف ، ثم مضى إلى الأبخاخ والأصمخ ، ثم ارتفع

فعمشش ، ثم باض وفرّخ ، فحشاكم نفاقاً وشقاقاً . وقد اتخذتموه دليلاً تتبعونه ، وقائداً تطيعونه ، ومؤمراً تستشيرونه . فكيف تنفعكم تجربة ، أو تعظكم وقعة ، أو يحجزكم إسلام ، أو يردكم إيمان ؟ ألستم أصحابي بالأهواز ، حيث رمت المكر وسعيتم بالمدر ، وظننتم أن الله يخذل دينه وخلافته ، وأنا أرميكم بطرفي وأنتم تتسللون لواءاً ، وتنهزمون سراعاً . ويوم الزاوية ! وما يوم الزاوية ! بها كان فشلكم وتنازعكم وبراءة الله منكم ونكوص وليه عنكم ، إذولتكم كالإبل الشوارد إلى أوطانها ، النوازع إلى أعطانها ، لا يسأل المرء منكم عن أخيه ، ولا يلوى الشيخ على بنيه ، حتى عضكم السلاح ، وقصمتمكم الراح ! ويوم دير الجاجم ! وما دير الجاجم ؟ بها كانت المعارك والملاحم ، بضرب يزيل الهام عن مقيله ، وبذهل الخليل عن خليله . يا أهل العراق ! أهل الكفريات والفدرات ، والثورة بعد الثورات ! إن أبعثكم إلى ثغوركم علمتم وخنتم ، وإن أمنتم أرجفتكم ، وإن خفتكم نافقتكم ، لا تذكرون خشية ، ولا تشكرون نعمة . هل استخفكم ناكث واستغفواكم غاو واستنصركم ظالم واستعضدكم خالع إلا وثقتموه وآويتموه ونهصرتموه ورضيتموه ؟ هل شغب شاغب أو نعب ناعب إلا كنتم أشياءه وأنصاره ؟ ألم تنهكم المواعظ ؟ ألم تزجركم الوقائع ؟

ثم التفت إلى أهل الشام فقال : يا أهل الشام ! إنما أنا لكم كالظلم الذاب عن فراخه ، ينفي عنها المدر ؛ ويبعد عنها الحجر ، ويكنها من المطر . يا أهل الشام أنتم أجنة الرداء ، وأنتم العدة والنطاء !

الرسائل

كتب أبو عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ينصحانه :

من أبي عبيدة بن الجراح ومعاذ بن جبل إلى عمر بن الخطاب ، سلام عليك ،

فإننا نحمد إليك الله الذي لا إله إلا هو . أما بعد فإننا عهدناك وأمر نفسك لك منهم ، فأصبحت وقد وليت أمر هذه الأمة أحرها وأسودها ، يجلس بين يديك الصديق والعدو ، والشريف والوضيع ، ولكل حصة من العدل . فانظر كيف أنت يا عمر عند ذلك . وإننا نحذرك يوماً تغنوا فيه الوجوه ، وتجبُّ له القلوب ، وتقطع فيه الحجج ، بحجة ملك قهرهم بجهوته والخلق داخرون له ، يرجون رحمته ويخافون عقابه . وإننا كنا نتحدث أن أمر هذه الأمة يرجع في آخر زمانها أن يكون أخوانُ العلانية أعداء السريرة . وإننا نعوذ بالله أن تُنزل كتابنا سوى المنزل الذي نزل من قلوبنا ، فإننا إنما كتبنا إليك نصيحة لك والسلام .

وكتب عبد الله بن معاوية بن عبد الله بن جعفر إلى بعض إخوانه يعاتبه :

أما بعد فقد عاقبني الشك في أمرك عن عزيمة الرأي فيك . وذلك أنك ابتدأتني بلطف من غير خبرة ، ثم أعقبته جفاء من غير جريرة ، فأطمعني أولئك في إخائك ، وأياسني آخرك من وفائك . فلا أنا في اليوم مجمع لك أطراحاً ، ولا أنا في غد وانتظاره منك على ثقة . فسبحان من لو شاء كشف بإيضاح الرأي في أمرك عن عزيمة الشك فيك ، فاجتمعنا على ائتلاف ، أو افترقنا على اختلاف ، والسلام .

الوصايا

أوصى عليّ بن أبي طالب ولده الحسن قال :

احفظ عني أربعاً وأربماً لا يضرك ما عملت معهن : أغنى الغنى العقل ، وأكبر الفقر الحق ، وأوحش الوحشة العُجب ، وأكرم الحسب حسن الخلق .

يا بني ! إياك ومصادقة الأحمق ، فإنه يريد أن ينفعك فيضرك . وإياك ومصادقة البخيل ، فإنه يبعد عنك أحوج ما تكون إليه . وإياك ومصادقة الفاجر ، فإنه

يبيعك بالتافه . وإياك ومصادقة الكذاب ، فإنه كالسراب يقرب عليك البعيد ،
ويبعد عنك القريب .

وأوصى قيس بن عاصم الملقى بنيه عند احتضاره قال :

يا بني احفظوا عنى ثلاثا ، فلا أحد أنصح لكم منى : إذا أنا مت فسودوا
كباركم ، ولا تسودوا صغاركم ، فيحقر الناس كباركم وتهونوا عليهم .
وعليكم بحفظ المال ، فإنه منبئة للكريم ، ويستغنى به عن اللئيم . وإياكم
والمسألة فإنها أحسن كسب الرجل .

اللحن ونشوء العامية

كان من أثر الأسواق والحج وزعامة قريش أن توحدت في الجاهلية لغات
العرب ، وتمثلت لهجاتها في لغة قريش ؛ فلم يبق إلا بعض اللحن على أطراف
المنطق . فلما جاء الإسلام ، ونزل بها القرآن ، وكان من بنيتها النبي الكريم
والقائمون بالأمر بعده ، تمت لها الغلبة . فحضعت لها الألسنة ، وهويت إليها
الأفئدة ، وأصبحت لسان النبوة والملك ، ولغة الحضارة والعلم ، في أقطار المسلمين
كافة . ولما كان الإسلام انقلاباً عظيماً له تأثيره في الأخلاق والطباع ، وتغييره
في السياسة والاجتماع ، لم يكن للغة بد من الخضوع له والتأثر به ، فاستعنت مادتها
وتشعبت أغراضها بالتعبير عن عقائد الدين ، وأنظمة الملك ، ومقتضيات الحضارة ،
ومصطلحات العلوم . وتهذبت ألفاظها ورقت أساليبها بما أثر في طباع القوم من
بلاغة القرآن ، وبشاشة الإسلام ، وجمال المدنية ، وتنوع المناظر الحضارية^(١) .
ثم كان من أثر الإسلام في حياة العرب أيضاً أن محا العصبية ، وأزال

(١) الحضارتين الفارسية والرومية السهم الأوفر في تهذيب اللغة وإصلاحها أيام الأمويين ،
فقد اتخذ المسلمون نضائد الحرير وسطور الديباج وزادت حاجاتهم ومرافقهم فزادت معها
الألفاظ ، ورقت حواشيتها برقة للعيشة ورفاهتها .

الفوارق الاجتماعية وغير مقاييس السيادة فجعلها بالتقوى والعبادة ، وجمع شتات القبائل على عقيدة واحدة ، وضم نَشْرَهُم تحت راية جامعة . ثم خرج بهم من شبه الجزيرة إلى جهاد الشرك بالقرآن والسيف ، فأوطأهم ديار كسرى وقيصر ، وأوغل بهم في الأرض نصراً وفتحاً حتى ركزوا أعلامهم في أقصى الشرق وأدنى الغرب . ومنذ يومئذ لم تمد العربية لفة إقليم واحد ولا لسان شعب واحد ، وإنما انحدرت مع الإسلام من بوادي الحجاز ومجد إلى حواضر البصرة والكوفة ودمشق وبغداد وقرطبة ومصر . واستفاضت على ألسنة المسلمين^(١) أحرم وأسودم ، والتعربين أدنام وأبدم ، وليس في مقدور هؤلاء بطبيعة الخلق أن ينطقوا بها كأهلها ، فارتضخوا أنواعاً من اللكنة ، وأحدثوا أوضاعاً من الخطأ ، علفت بألسنة المتضيقين من العرب والفاشئين منهم بين الموالي . ولذلك ظهر اللحن في الحواضر والمدن دون البادية ، فقد بقيت اللفة على خلوصها فيها حتى آخر القرن الرابع . بدت أعراض هذا الداء منذ زمن الرسول (ص) ثم أخذ يستفحل كلما توفرت أسبابه حتى فشا في الدولة الأموية فشواً تناول الخلفاء والخاصة . وخيف منه على القرآن فوضعوا له النحو والشكل والإعجام والنقط . على أن كل ذلك لم يعصم اللفة ولم يصد عنها عادة اللحن ، فأمن العامة في التبصيف والتحريف حتى جعلوا اللفة لفتين : لفة الكتابة ولفة المحادثة كما هي الآن .

النحو

يروى المؤرخون أن أبا الأسود الدؤلي المتوفى سنة ٦٩ هـ هو واضع مبادئ النحو ،

(١) قال ابن خلدون : « ولما هجر الدين اللغات الأجمية وكان لسان القامنين بالدولة الإسلامية هجياً هجرت كلها في جميع ممالِكها ؛ لأن الناس تبع لسلطان وعلى دينه . فصار استعمال اللسان العربي من شطائر الإسلام وطاعة للعرب . وهجر الأمم لغاتهم وألسنتهم في جميع الأقطار والممالك وصار اللسان العربي لسانهم حتى رسخ ذلك لفة في جميع أمصارهم وصارت الألبسة الأجمية دخيلة فيها وغريبة » .

وأن السبب الذي حداه إلى التفسكير فيه هو نشوء اللحن وهجوم العجمة. وذكروا في ذلك أنه دخل يوماً على زياد بن أبيه وهو إلى المراقين ، فقال له : « أصلح الله الأمير ! إلى أرى العرب قد خالطت هذه الأعاجم ففسدت ألسنتهم . أفأذن لي أن أضع لهم ما يقيمون به كلامهم ؟ » فأبى عليه ذلك زياد ثم عاد فأمره بما نهاه عنه ، لأنه سمع اللحن بأذنه من رجل دخل عليه يقول : « أصلح الله الأمير . توفي أبانا وترك بنون . . . » فوضع أبو الأسود باب التعجب ثم باب الفاعل والمفعول ، وأخذ كلما سمع لحنه وضع القاعدة التي تصلحها . ثم تناول منه أدباء البصرة والكوفة فكلوه وفضلوه كما سذك ذلك بعد . والغالب في ظننا أن أبا الأسود لم يضع النحو والنقط من ذات نفسه وإنشائه ، وإنما يرجح أنه ألم بالسريانية (وقد وضع نحوها قبل نحو العربية) أو اتصل بقساوستها وأخبارها فساعده ذلك على وضع ما وضع . وعلى أية حال فإن أولية النحو لاتزال مجهولة .

العلوم في العصر الأموي

لم تكن نفوس العرب مهيأة بعد إلى العلم ، ولا عقولهم ناضجة للبحث فيه ؛ وإنما توزعتهم عواطف الدين وشواغل الفتح ونوازع الأدب ، فاكتفوا منه بالضروري الموروث كالتب والنجوم . حتى إذا هالهم اللحن ودهمتهم العجمة ، وتشعبت عليهم الأفضية ، وضعوا النحو لضبط القرآن ، والتفسير لحل مشكله ، والفقهاء لاستنباط الأحكام منه ، ودونوا الحديث خوفاً من ضياعه أو افتعاله .

واقتضت حنكة معاوية وحكمة خلفائه أن يستعينوا في تأييد ملكهم وتثبيت حكمهم بتجارب الماضين وأخبارهم^(١) ، فألف عبيد بن شربة كتاب

(١) ذكر المسعودي أن معاوية كان يجلس لأصحاب الأخبار في كل ليلة من العشاء إلى ثلث الليل ، فيقصون عليه أخبار العجم والعرب وسياستهم في رعائهم ومكائدهم في حروبهم ثم ينام ثلث الليل ويقوم فتأنيه فلان مرثيون وعندهم كتب قد وكلوا بحفظها وقرائتها ، فيقرأون عليه ما بها من سير الملوك وأخبار الحروب وأنواع السياسة .

الملوك وأخبار الماضين لمعاوية ؛ وربما كتب غيره غيرَه ، ولكن شيئاً من ذلك لم يأتنا علمه . أما ترجمة العلوم الأجنبية فلم تعنِ أحداً في هذا العصر ، اللهم إلا خالد ابن يزيد حفيد معاوية ، فقد قيل إنه انصرف إلى العلم بعد فشله في الملك ، واستقدم جماعة من مدرسة الإسكندرية علموه الكيمياء وترجموا له شيئاً منها . وجملة القول في هذا العصر أن كان فيه نُضج الآداب الجاهلية ، ونشوء العلوم الإسلامية ، وبداية النقل من العلوم الأجنبية .

الخط بعد الإسلام

جاء الإسلام وما يكتب من العرب غير بضعة عشر رجلاً من قريش وبعض أهل المدينة وتجار اليهود . فلما كتب الله النصر للمسلمين على قريش في يوم بدر وأخذَ بعض كتابهم أسرى ، قبل الرسول صلى الله عليه وسلم من هؤلاء أن يفتدى كل منهم نفسه بتعليم عشرة من أطفال المسلمين الكتابة ، فكثرت سواد الكتّاب من أهل المدينة . وشاعت الكتابة بعد ذلك في العرب إطاعةً لأمر الرسول ، ورغبة في كتابة القرآن ، وطمعاً في دخول الدواوين ، وانتشرت معهم في الأقطار المفتوحة :

وكان الخط في أول أمره خالياً من الإعجام والشكل ، حتى فشا اللحن وخيف منه على القرآن ، فضبط أبو الأسود الدؤلي في زمان معاوية وأواخر الكلام في المصاحف بالنقط ؛ فجعل علامة الفتحة نقطة من فوق الحرف ، وعلامة الكسرة نقطة من أسفله ، وعلامة الضمة نقطة بين يديه . واستعمل الناس هذه النقط وكتبوها بمداد مخالف . فلما تغيرت أشكال الخط ، وتشابهت أوضاع الحروف ، فالتبس الجسيم^(١) بالحاء ، والذال بالذال ، والسين بالسين ، أمر الحجاج نصر بن

(١) من أمثال ذلك أن هجوزاً جاءت الفرزدق وقالت له : إنى استجرت بقبر أبيك . فقال لها : ما شأنك ؟ قالت : إن تميم بن زيد خرج بائس في ولافة لعين ولا كاسب على سواه .

عاصم ويحيى بن يعمر تلميذى أبى الأسود فوضعا الإعجام بالمداد الذى تكتب به الكلمة تمييزاً للحروف بعضها من بعض . ثم جاء بعد ذلك الخليل بن أحمد وضع الشكل على هذا النمط المعروف ، فحل نقط أبى الأسود^(١) .

وفى العصر العباسى ناله ما نال كل شىء فيه من النمو والتقدم . فقد تنافس الكتّاب فى تجويده ، وتفننوا فى تنويعه . وخالفوا بين أوضاعه فى بغداد وأوضاعه فى الكوفة ، باختراع الأقلام المختلفة كالقلم المرصع ، وقلم النساخ ، والقلم الرياضى (نسبة إلى مخترعه ذى الرياضين الفضل بن سهل) . ثم تعددت تلك الأقلام وتنوعت حتى نبتت أشكال الكوفى على عشرين شكلا . أما الخط النسخى فقد كان مستعملاً بين الناس فى غير الكتابة الرسمية حتى جاء أبو على محمد بن مقلة المتوفى سنة ٣٢٨ فوجود هذا الخط ونمقه حتى تميز من أصله بالحسن والجودة ، واستعمل فى كتابة المصاحف وأدخل فى الدواوين . وجاء بعده على بن هلال المتوفى سنة ٤١٣ فزاد فى تهذيبه وتحسينه حتى حل محل الكوفى . ثم تنوع الخط النسخى إلى عدة أقلام (كالطومار) وعرض قطته أربع وعشرون

فقالت : وما اسم ابنك ؟ خنيس . فكنت لى تميم :

تميم بن زيد لا تكونن حاجتى بظهور فلا يعيا على جوابها
وهب لى خنيساً واحسب فيه منة لعمرة أم لا يسوغ شرابها
فشك تميم فى اسم الرجل (خنيس) واستقرى أسماء رجاله فوجد ستة أسماءهم بين خنيس
وحنيش وحنيس الح فوجههم إليه .

(١) اقتضرت الأمم السامية فى خطوطها على رسم الحروف الساكنة دون الصوتية ، فلا يكتبون (نسر) (ناصارا) كما يفعل اليونان والرومان والأمم الأوربية الآن ، ودلوا فى مؤتلف الزمن على الأحرف المحذوفة من الكلمة بنقط فوق الحرف أو تحته على نحو ما فعل أبو الأسود فى الخط العربى . ولكن الخليل بن أحمد إن صح أنه واضع الشكل المعروف لم يستعمل النقطة فى الدلالة على الحركات . وإنما استعمل الحروف الصوتية المحذوفة وهى الألف والواو والياء ، فاختصر من الألف الفتححة ، ومن الواو الصلحة ، ومن الياء الكسرة . فالحركات كما قال الإمام الرازى أبعاض للصوتيات . أما العلامات الأخرى كالمد والوصلة والشدة فقد وضعت فى العصر العباسى بعد زمن الخليل . وهى رءوس كلمات تؤدى معانيها ؟ فالمد (م) من (مد) ، والوصلة (ص) من (صل) ، والشدة (ش) من (شد) .

شعرة من شعر البرذون . أو ثلاثة ملليمترات ، (والثلاثين) وعرضه ملليمتران ،
(والنصف) وقياسه ملليمتر ونصف . (والثلاث) وعرضه ملليمتر واحد . ثم تتدرج
الأقلام في الدقة ، فيجىء خفيف الثلث ، فاللؤلؤ ، فالتوقيع ، فالقاع ، فالحقوق ،
فالغبار ، وهو أدقها ، وبه كانت تكتب بطائق الحمام الزاجل ونحوها . ولا يزال
الخط العربي يتنوع ويتفرع خضوعاً لنظم الطبيعة في النشوء والرقى . وكثير من
الأمم التي استضاءت بنور الإسلام واستعزت بلغته يكتب به ، كالفارسية
والأفغانية والأردية واللغات الإفريقية .

على أن اقتصار العرب في خطهم على رسم الحروف الساكنة دون الصوتية
قد أوقع القارىء في لبس شديد ، فإن الكتاب قد برموا بالشكل وضاقوا به
فذكروه فأصبح القارىء إذا رأى أمامه لفظ (علم) مكتوبة مثلاً لا يدري كيف
يقراءه إلا إذا فهم المقصود منه في سياق الكلام . فهو يقرأ : عِلْمٌ أو عُلِمَ أو عِلْمٌ
أو عِلْمٌ أو عِلْمٌ أو عِلْمٌ . ولذلك يدعو كثير من المصلحين اليوم إلى إصلاح الخط
العربي ، حتى غلا بعضهم فدعا إلى إتخاذ الحروف اللاتينية كما فعلت تركيا بعد
سقوط الخلافة . وقد رصد مجمع اللغة العربية بالقاهرة جائزة قدرها ألف جنيه لمن
يبتكر طريقة للخط العربي تكمل نقصه وترفع قصوره فجاءته من أكثر البلدان
الشرقية والغربية طرق شتى نيفت على الألف ، ولسكنها لم تصب الغرض الذي
نصبه المجمع ، فألف في عام ١٩٥٩ لجنة من بعض أعضائه ومن ذوى الاختصاص
بوزارة التربية والتعليم في الجمهورية العربية المتحدة فلبت الأمر على جميع وجوهه
ثم اتفقت على بقاء الخط كما هو وأوصت باتباع الشكل كاملاً في كتب التعليم
الابتدائي ثم يقل بالتدرج في المراحل المتعاقبة حتى يقتصر منه على شكل
ما يشكل من الكلمات ، وبرأيها أخذ المجمع .

الباب الثالث

العصر العباسي^(١)

خطره وأثره ومميزاته

عصر الدولة العباسية هو عصر الإسلام الذهبي الذي بلغ فيه المسلمون من العمران والسلطان ما لم يبلغوه من قبل ولا من بعد. أثمرت فيه الفنون الإسلامية، وزهت الآداب العربية، ونقلت العلوم الأجنبية، ونضج العقل العربي فوجد سبيلاً إلى البحث ومجالاً للتفكير. وملك هذه الدولة ينمون إلى العباس عم النبي صلى الله عليه وسلم، اتزعوا الخلافة قسراً من يد الأمويين بمعونة الفرس، وأقاموا عرشها بالعراق، وتبوأه منهم سبعة وثلاثون خليفة في خمسة قرون وبعض القرن، حتى ثل ذلك العرش هلاكاً سنة ست وخمسين وستائة، وما زالت حضارة الدولة وآدابها تهبط بهبوطها، حتى سقطت بسقوطها.

وتختلف هذه الدولة عن الدولة الأموية بأحوال سياسية وعمرانية كان لها الأثر الظاهر في أدب اللغة: فالدولة الأموية كانت عربية خالصة، تعصبت للعرب ولغتهم وآدابهم، وجعلت قاعدتها دمشق على حدود بلادهم. وكان جنودها وقوادها وكتابها وسائر عمالها من العرب، فلم يحدث في أدب اللغة تأثير إلا ما اقتضاه التحضر واتساع العمران.

(١) ينسب هذا العصر إلى العباسيين على وجه من التقلب لبقوة أثرهم فيه ومبلغ نفوذهم منه؛ ولكن السلام فيه يتناول العباسيين في بغداد، والبهيميين في فارس، والمحمدانيين في الشام، والفاطميين في مصر والقرب. والأمويين في الأندلس.
إلا أن هذه الأصقاع على تباينها وتناوبها إنما كانت قائم بهدى بغداد. وتستمد منها فليس لها في الغالب أدب مستقل، ولذلك لا نذكرها إلا لتمامها.

أما الدولة العباسية فقد اصطبفت بصيغة فارسية ، لأن الفرس هم الذين أوجدوها^(١) وأيدوها ، فاتخذت قصبها بقداد أقرب الأمصار إلى بلادهم ، وأطلق الخلفاء أيدي الموالي في سياسة الدولة فاستقلوا بشؤونها ، واستبدوا بأموارها ، وكالوا للعرب من الحقارة والمهانة صاعا بصاع . فضعفت العصبية العربية ، وعلا صوت الشعوبية ، ونتج من ذلك دخول العناصر الفارسية والتركية والسريانية والرومية والبربرية في تكوين الدولة ، وتمازجهم بالتزاوج والتناسل ، واختلاط المدنية الآرية بالمدنية السامية ، ولكل منهما لغة وأخلاق وعادات واعتقادات أثرت في الأخرى . ناهيك مما امتازت به هذه الدولة من إطلاق الحرية في الدين ، وتمدد الفریق^(٢) ، وشيوع المقالات المختلفة في الإلحاد والسياسة ، وتكاثر الجوارى والغلمان ، والاسترسال في الخلاء والمجون ، والتأنق في الطعام واللباس ، والتنافس في البناء والرياش . وكل ذلك له أثر بين في اللغة وآدابها سنجمله فيما يلي من هذه السطور .

(١) كانت موقعة الزاب بين الحراسانيين ومروان بن محمد ردأغير حاسم على موقعة القادسية بين العرب والفرس ، فإن بنى ساسان الدين طأطأ الفتيح من إشرافهم ، وخطم الأمويون بالذل أنوف إشرافهم ، لم يستطيعوا أن يرضوا الأمور لهم ، ولأن يعبدوا السلطان فيهم ؛ لأن العرب طبعهم بطابعين قوين لا يزولان أبدا الدهر . وها الدين واللغة ، ذوقوا من الأمر عند التآمر من هدية الأمويين ، بنقل الملك منهم إلى العباسيين ، وأخذوا يجركون أيدي الخلفاء بما يريدون وبنو العباس يعرفون لهم تلك اليد ، ويحتملون منهم هذه الدالة ، حتى خشى طغيانهم أوجه المنصور فكفكفهم بقتل أبي مسلم . ثم مالبت أن تعاد هذا الطغيان فامتد واشتد في عهد الرشيد فاستأصله بقتل البرامكة . ولكنه انتعش ثانية بالخلاف بين الأخوين الأمين والمأمون وما استتبهم من الحرب بين المنصرين العربي والفارسي ، حتى بالغ تامله في عهد بنو بويه ، فلم يخضد شوكته ويقال شباه إلا بنو سلجوق من الترك . على أن نورد في الأدبي والعقل كان أوسع وأعمق من أن يكسر منه هذا الفشل السياسي ، فظهور أثره في اللغة والأدب والعقيدة والفلسفة والأخلاق وكان من هذا الأثر أولا ، ومن أثر العناصر الأخرى ثانياً ، هذه الحضارة العباسية والمدنية الإسلامية التي مازت الطب من الخبيث ، ووصات العالم القديم بالعالم الحديث .

(٢) نجت في الأمة الإسلامية من غير أهل السنة فرق كثيرة يكفر بعضها بعضاً ، وانشعبت كل فرقة إلى فرق متعددة ترى كل واحدة منها الحق معها دون الأخرى . ومن أشهر هذه الفرق المعتزلة وهم عشرون فرقة ، والشيعة وهم اثنتان وعشرون ، والخوارج وهم سبع فرقة وكل أولئك منهم جبرية ومنهم مشبهة ، ولكل شعبة لقب تعرف به .

الفصل الأول

اللغة وأثر الفتح والسياسة والحضارة فيها

فتتح العرب في أواخر الدولة الأموية أكثر المعروف حينئذ من الدنيا القديمة ، قامتد ملكهم من الهند والصين شرقاً ، إلى جبال بيرانس غرباً ، وانبسط سلطانهم على تلك الشعوب ، واستولى دينهم على الأفتدة ، ولغتهم على الألسنة ، فتعربت هذه الأمم المختلفة ، وامتزجت تلك العناصر المتباينة ، وسارعوا إلى تعلم اللغة والتكلم بها تقريباً من الفاتح ، واستدرار اللرزق ، وتفقه في الدين ، فكثرت اللحن وسرت عدواه إلى البادية وقد كان قاصراً على الحضارة . وبقي داء العجمة يستفحل بين العامة والصناع بالرغم من محاربة الأئمة وأولى الأمر لهذا الوباء يتدوين علوم اللسان وتقبيح العامية ومقت المتكلمين بها ، حتى نشأ في كل إقليم لغة عامية مؤلفة من العربية ومن لغة الإقليم الوطنية .

وقد اتسعت دائرة اللغة بما اقتضاه تمدد الدولة ونقل العلوم عن الفارسية والهندية واليونانية من المصطلحات العلمية والألفاظ الإدارية والسياسية (١)

(١) لقد كثرت تلك الألفاظ الموصومة والمقولة حتى اضطروا إلى أن يضعوا لها بعدئذ معجمات خاصة بها ككتاب التعريفات للجرجاني (٨١٦هـ) وكشاف اصطلاحات المور للتهانوي (١١٥٨هـ) وهذا الكتاب والذي قبله من خير ما يستعان به على وضع المصطلحات العلمية الحديثة . فن الألفاظ الموصومة لديوان الحراج مثلاً : (الحسرى) للبيرات الذى لا وارث له (والإقطاع) للأرض التى يعطها السلطان رجلاً فتعير له رقتها ، (والطعمة) ضيعة تدفع إلى رجل مدى حياته فيعمرها ويؤدى عشرها ، (والتربكة) ما يترك للرجل من خراج سنه . ومن الألفاظ المقولة : السكوز والحرة والأبرق والطشت والحوان والطق والحز والديباج والياقوت والفيروز والياور والكمك والفالوذج والفلفل والزنجبيل والترجس والنسرين والملك والعبير والبستان والقرمز والحوز والاوز والدولاب والطلسان والفرسخ الخ عن الفارسية . والبقدونس واليزفون والمصطكى والقيراط والأنبيق والصابون والهبولى والفلسفة والمفتطيس والإقليم والقانون عن اليونانية .

والاقتصادية والمنزلية . وكان لدار الحكمة التي أسأها المأمون الفضل الأكبر في تهذيب الكتب المترجمة وتوحيد الأسماء المعربة . ثم رقت الألفاظ لانفاس القوم في الحضارة ، وإخلاقهم إلى الترف ، وإيثار الموالى للكلم السهل والأسلوب البين ، لأنهم حذقوا اللغة بالدراسة والصنعة ، لا بالتلقين والطبع .

واقترنت العربية من الفارسية غير الألفاظ كثير أمن الأساليب ، كالتبجيل في الخطاب ، والاحتشام مع المخاطب ، وإسناد الشيء إلى الحضرة والجناب والمجلس ، وإحداث الألقاب والنعوت للخلفاء والوزراء والكتاب والقواد ، كالسفاح والمنصور والرشيد وذى الرياستين وركن الدولة الخ ، والإسهاب في المهود والرسائل ، وتأدية المعنى الواحد بألفاظ كثيرة وبجمل مترادفة ، وغير ذلك مما زان اللغة من جهة وشأها من جهة أخرى .

وما زالت اللغة تتسع وتدمو باتساع الملك وتقدم العلم ونمو الحضارة ، وتنتشر وتسمو في حمى الدين وظل الخلافة وسلطان العرب ، حتى خلافة المتوكل على الله سنة ٢٣٢ إذ استفحل أمر الأتراك الذين جلبهم المعتصم من التركستان فأخذوا يغالبون العرب ، ويواثبون الفرس ، ويغتصبون السلطان . وكان الأمر للموالى بعد غلبة المأمون وهم شيعة نجاء المتوكل فمصد الأتراك ونصر السنة . فتقاتل المنصران ، وتماضل المذهبان ، وابتغى كل منها الفلج والفوز بقهر العرب وكبت الخلفاء ، حتى ذهب جلال الخلافة من النفوس ، وزالت هيبتها من القلوب ، فاستشرف ولادة الأطراف إلى الاستقلال ، وبدأ بنو بويه^(١) فوضعوا أيديهم سنة ٣٣٤ هـ على شؤون الدولة في بغداد . وامتد نفوذهم إلى جل الممالك الشرقية

(١) بنو بويه ثلاثة إخوة أنجبهم سياد ، فخالفهم السعادة وخطبتهم السيادة ، فتقبلوا في المناصب ، وتدرجوا في الحكم ، حتى اقتسموا بينهم ملك العراقين العجمي والعربي وفارس والجزيرة ، فكان عماد الدولة أبو الحسن علي ، وهو أكبرهم ، صاحب فارس ، وركن الدولة أبو علي الحسن وهو أوسطهم ، صاحب مرق المجمع . وممن الدولة أبو الحسين أحمد ، وهو أصغرهم ، ملك العراق والأهواز وصاحب الأمر والنهي في بغداد . وقد دام الملك فمهم وفي بينهم سن سنة ٣٢٢ إلى سنة ٤٨٨ هـ

الإسلامية ، فأخذ سلطان العرب والعربية يتراجع في الشرق ، وهبَّ أحفاد الأكَسرة وأبناء الدهاقين يستردون مجد أجدادهم ، ويطاردون اللغة ونفوذها من بلادهم . وطلبوا إلى شعرائهم من أمثال الدقيقي والفردوسي أن يحددوا مفاخر الأسلاف بتأليف المنظومات القصصية والأناشيد القومية . ومن العجيب أن تم لهم ذلك سريعاً ، فإن المتنبي وهو من رجال القرن الرابع يقول وقد زار شعب بوان من بلاد الفرس :

مغانى الشَّعب طيباً في المغانى بمنزلة الربيع من الزمان
ولكنَّ الفتىَّ العربىَّ فيها غريبُ الوجه واليد واللسان
ملاعب جِنَّةٍ لو سار فيها سليمانٌ لسار بترجمان

ثم اقتدى بالفُرس في ذلك الأتراك والأكراد . ولكن العربية بقيت في حِمى القرآن تدافع سيل الفارسية والتركية الجارف ، وقد عزَّز النصر من أهلها ، حتى غلب التتار على بغداد فغلبت على أمرها وخضعت لقانون الطبيعة القاهر ، بعد ما خلقت في تلك البلاد شرائع وعلومًا وآدابًا لم تقو على محوها الأيام .

الفصل الثاني

النثر الكتابة

الإنشاء مظهر العقل، ومرآة الخاطر، يتأثر بما ينال المدارك والمشاعر من عوامل الحضارة، ونتائج العلم، وظواهر العمران.

ولقد كان لذلك الانقلاب العباسي أثرٌ عظيم في العقول والميول ظهر على أقلام الكتابين وألسنتهم. فقد استنبطوا عيون المعاني. وتخيروا شريف الألفاظ، مما لم يكن حوشياً ولا سُوقياً، وفتحوا أبواب البديع، وعُنُوا بالتمسيق والتنسيق. ولما استبحر العمران، وطما بحر الخراج، واتسع نطاق الدولة، لم تمد الكتابة مقصورة على الدواوين وإنشاء الرسائل كما كانت في الدولة الأموية، بل تعدتها إلى أغراض شتى، كالتصنيف والترجمة، والمقالات والمقامات، والعهود، والوصف، والمناظرة، وإنشاء الكتب في الإهداء والاستهداء، والتعارف قبل اللقاء، والشكر والعتاب والتعازي والتهاني والاستعطاف، وغير ذلك من المعاني الحضرية التي لم يعهد أكرها من قبل.

وحلت الكتابة محل الخطابة في قمع الأهواء، وردع الأعداء، وإطفاء الفتن، وتأليف القلوب. ثم تنوع الكتاب بتنوع الدواوين: فكان منهم كتاب الخراج والنققات، وكتاب المظالم والقضاء، وكتاب الجيش والشرطة، وكتاب الضياع والإقطاع، وكتاب الرسائل، وهؤلاء هم أساطين البلاغة وأستاذو البيان، وموضوع أدب اللغة؛ لأن كتابة غيرهم لا تعتمد على فن ولا تقوم على ذوق.

وظلت الكتابة في أول العصر العباسي على أسلوب عبد الحميد من الميل إلى الإيجاز^(١) والقصد في الغلو والتنميق ، ولا سيما في الرسائل والتوقيعات ، فإن النظر فيها أكثر ما يكون للخلفاء والوزراء ، عنهم تصدر ، وإليهم ترد . وكان جعفر بن يحيى يقول في إثارة الإيجاز : « إن استطعتم أن تجعلوا كتبكم كلها توقيعات فافعلوا » .

فلما نزع العرب إلى الترف ، وزاد اختلاطهم بالفرس ، أخذوا يتأنقون ويطيلون . وازداد ذلك بتراخي الزمن حتى خرجوا عن أساليب القدماء ، وعاقبوا الجمل على المعنى الواحد ، ورأوا ذلك التكرار أبلغ للمعنى ، وأوقع في النفس . وانتقدوا مذهب الإيجاز في صدر الإسلام وبعده كقول يزيد لمروان وقد تملكنا في بيئته : « أراك تقدم رجلا وتؤخر أخرى فاعتمد على أيهما شئت » فقال ابن قتيبة في أدب الكاتب . « إن هذا لو قيل الآن لم يأت بالتأثير المطلوب . والصواب أن يطيل ويكرر ، ويُعيد ويُبدىء ، ويحذر وينذر » . ثم مالوا إلى الازدواج والسجع ، وتضمنين الأشعار والأمثال . وكل ذلك جار مجرى الطبع لحسن التصرف في المعنى وقلة التكلف في اللفظ .

فلما ضعفت الخلافة وقام بالأمر غير أهله ، سرى الضعف إلى الكتابة ، فجهد أربابها الغرض منها ، ومالوا إلى زخرف القول وتدبيح اللفظ بأنواع البديع ، وأوغلوا في ذلك حتى سمجت مبانيهم وفسدت معانيهم ، فكانت مموهة الظاهر مشوّهة الباطن ، كسيف من الخشب في غمد من الذهب . وليتهم وقفوا بهذا الأسلوب عند الرسائل والعهود ، بل خرجوا به إلى تصنيف الكتب وتدوين العلوم ، كتاريخ العتبي والفتح القدسي .

وكتاب هذا العصر أربع طبقات نبغَت كل طبقة في عصر من عصوره

(١) أسلوب عبد الحميد موجز لذا ووزن بما استحدث بعده من الأساليب ، ومطلب إذا ووزن بما قبله .

الأربعة^(١)؛ فالطبقة الأولى إمامها ابن المقفع . وطريقته تنوع العبارة، وتقطيع الجملة، والمزاوجة بين الكلمات، وتوخي السهولة، والعناية بالمعنى، والزهد في السجع^(٢). وقد حدث البلاغة فقال: «هي التي إذا سمعها الجاهل ظن أنه يحسن مثلها». وقال لبعض الكتاب: «إياك وتنبع الوحشي من الكلام طمعاً في نيل البلاغة فإن ذلك هو العيب الأكبر». وقال لآخر: «عليك بما سهل من الألفاظ مع التجنب لألفاظ السفلة». ومن رجال هذه الطبقة يعقوب ابن داود، وجعفر بن يحيى، والحسن بن سهل، وعمرو بن مسعدة، وسهل بن هرون، والحسن بن وهب.

والطبقة الثانية إمامها الجاحظ. وطريقته أشبه بالطريقة الأولى في سهولة العبارة وجزالتها، وإنما تمتاز بتقطيع الجملة إلى فقرات كثيرة مقلّدة أو مرسلّة، وزيادة الإطناب في الألفاظ والجل، والاستطراد، ومزج الجدل بالهزل لدفع سامة القارئ، وتحليل المعنى واستقصائه، وتحكيم العقل والمنطق، والاعتراض بالجل الدعائية. ومن رجال هذه الطبقة ابن قتيبة والمبرد والصولي.

والطبقة الثالثة إمامها ابن العميد وطريقته أعلق بالنفس وأملك للوجدان لأنها شعر لا يعوزه إلا الوزن. وهي أشبه بالطريقة^(٣) الاتباعية عند الفرنج لتقيدها بقيود لا بد من مراعاتها وتغلبها على سائر الأساليب.

(١) يقسم العصر العباسي إلى أربعة أعصر تبعاً لأحواله السياسية والاجتماعية، فالعصر الأول من ابتدائه إلى خلافة المتوكل سنة ٢٣٢. والثاني من خلافة المتوكل إلى استقرار الدولة البويهية في بغداد سنة ٣٣٤. والثالث من تغلب البويهيين إلى دخول السلاجقة بغداد سنة ٤٤٧ والرابع من دخول السلاجقة بغداد إلى سقوطها في أيدي التتر سنة ٦٥٦.

(٢) قال ابن أبي الإصبع في تحرير التعبير: قد كان المتقدمون لا يمحنون بالسجع جملة، ولا يقصدونه بته إلا ما أنت به الفصاحة و أثناء الكلام، واتفق من غير قصد ولا اكتساب وإن كانت كاليهم متوازنة، وألفاظهم متناسبة، ومعانيهم ناصعة، وعباراتهم رائعة، وفصولهم متقابلة. وتلك طريقة الإمام على عليه السلام ومن اقتفى أثره من فرسان الكلام كابن المقفع وسهل بن هرون والجاحظ وغير هؤلاء من العلماء والبلغاء.

(٣) آثرنا أن نترجم Ecole Classique بالطريقة الإبتاعية و Ecole Romantique

بالطريقة الإبتاعية؛ فإن الإبتاع والإبتداع أقرب الألفاظ دلالة على معنى هذين المذهبين. وهذا الرأي أخذ بمجم اللغة العربية.

فمن قيودها السجع القصير ، والجناس ، وتضمن المُلح من التاريخ والعلوم ، والاستشهاد بالنظم في غضون النثر ، والتوسع في الخيال والتشبيه ؛ مع إجادة المعنى وسلامته . ومن رجالها الصاحب بن عباد ، والوزير المهلبى ، والحوارزمى ، والبديع ، والصابى ، والشعالجى . ومن آثار هذه الطبقة المقامات .

والطبقة الرابعة إمامها القاضى الفاضل . وطريقته مؤسسة على أصول الطريقة الثالثة من توخى السجع والبديع ، إلا أنه غالى في التورية والجناس حتى أصبحت الكتابة في عهده صناعية محضاً . ألفاظ منمقة تحمها معنى غثٌ وخيال ضئيل . ومن رجالها ابن الأثير صاحب المثل السائر ، والكاتب الأصبهاني .

على أن عقيدة الكتاب أن استظهار المأثور من المنثور هو عُدَّة الثقافة وسبيل التفوق كانت تخالف بين الأفلام ، وتباعد بين الأساليب ، فتمدت مذاهب الكتابة في العصر الواحد ، فتجد في عصر الجاحظ من يقلد ابن المقفع كابن عبد ربه . وفي عصر ابن العميد من يقلد الإمام عليا كالشريف الرضى . وليكن المعاصر بن بالرغم من ذلك يخضعون لأحوالهم السياسية والاجتماعية ، فيكون لإنشائهم طابع خاص يميزهم من باقى العصور .

الخطابة

كان للخطابة في صدر هذا العصر مكانةٌ في النفوس وسلطان على القلوب ؛ لاعتماد القوم عليها في توطيد الملك ، وتحميس الجند ؛ واستقبال الوفود . وكان للخلفاء الأوابين ودعاتهم فيها الشأن الرفيع والشأو البعيد ، كالمنصور والمهدى والرشيد والمأمون وداود^(١) بن علي وخالد بن صفوان

(١) لفا داود بن علي بن هبة بن عباس مع إخوته الاثنين والعشرين في قرية الحيمة من أعمال عمان . وهى منقأ أبيه في عهد الوليد بن عبد الملك ، فالتبس العلم من أبيه واكتسب الفصاحة من خلطه قبائل اخم وغسان وقيس . ثم شهر بالشجاعة والأناة وصلابة الرأي وحرية

وشيب (١) بن شيبية .

فلما استوثق الأمر لبني العباس وقام الموالي بسياسة الدولة وقيادة الجيش ، وقلّ النضال باللسان واللسان ، ضمفت الخطابة لضعف القدرة عليها ، وقلة الدواعى إليها ، وحلت الرسائل والنشورات محلها في دفع العظام وسل السخائم . وقصرت على خطب أجمع والعديد والزواج . على أن الخلفاء أنفسهم ما برحوا يخطبون الناس ويؤمنونهم إلى عهد الخليفة الراضى . فلما غل بنو بويه أيديهم وحصروهم في دورهم عهدوا بالخطابة والإمامة إلى الكفاة من العلماء ؛ فنفي في آخر هذا العصر طائفة من الأدباء شُهِروا بهذا النوع من الخطابة : كالخطيب البغدادي والخطيب التبريزي . ولما استعجم المسلمون وملك العبيُّ ألسنة الوعاظ فلم يستطيعوا إنشاء الخطب في الموضوعات المختلفة ، عمدوا إلى استظهار خطب أسلافهم كابن نباتة المصرى ، وأخذوا يرددونها فوق المنابر من غير فهم لمعناها ، ولا علم بمغزاها . ودرجوا على هذه الحال الخزية تلك القرون الطويلة حتى أدركتها عوامل النهضة المصرية الحديثة فرقاها قسم الوعظ والإرشاد بالجامعة الأزهرية .

نماذج النثر

التوقيعات

التوقيعات هي ما يعلقه الخليفة أو الأمير أو الوزير أو الرئيس على ما يقدم

== الفكر وقوة المنطق فولاه أبو العباس عام بيعته الكوفة وسوادها ثم أضاف إليه في تلك السنة ولاية الحجاز واليمن واليمامة فوطد الملك لبني العباس في تلك الأصقاع ، ونسكل بمن وجد فيها من بني أمية ثم استقر قراره بالمدينة بعد موسم الحج ، فأدركت منيته فيها شهر ربيع الأول سنة ١٣٣ هـ (١) نشأ شيب بن شيبية بن عبد الله النقرى التميمي في البصرة على خير ما نشأ عليه الرجال من العزة والأرجحية والتواضع والشفقة ، وابتدأ منذ اليقوع بمحو الكلام ويهيب بالخطب في حلوة وسهولة وعضوية ، وما زال يزداد حتى صار في كل موقف يبلغ بقليل الكلام ما لا يبلغه الخطباء المصاقم بكثيره ، سمعه عمه خالد بن سهوان خطيب نعيم ذات يوم يخطب قومه ، فقال له : يا بني لقد نعى إلى نفسى إحسانك في كلامك ، فأنا أهل بيت ما نشأ فينا خطيب إلا مات من قبله . فقال له شيب : بل يفتيك الله وبجهاى مدائك . وكان شيب من خاصة النصور قبل خلافة بويه وها وبقيت له هذه الخطوة لدى ولي عهده المهدي ، فسكان من خطائمه الأذنين حتى توفي سنة ١٧٥ هـ .

إليه من الكتب في شكوى حال أو طلب نوال . وميزتها الجمع بين الإيجاز والجمال والقوة . وقد تكون آية أو مثلاً أو بيت شعر . مثالها :

وقع السفاح في كتاب لأبي جعفر وهو يجارب ابن هُبَيْرَةَ بواسط . إن حملك
أفسد علمك ، وتراخيتك أثر في طاعتك . نخذلي منك ، ولك من نفسك .

وقع أبو جعفر المنصور في كتاب عبد الحميد صاحب خراسان : شكوت
فأشكيناك ، وعتبت فأعتبناك ، ثم خرجت على العامة ، فتأهب لفرار السلامة .
ووقع إلى صاحب مصر حين كتب يذكر نقصان النيل : طهرَّ عسكرك من الفساد ،
يعطك النيل القياد . ووقع في كتاب أتاه من صاحب الهند بخبره أن جنداً شغبوا
عليه وكسروا أفعال بيت المال : لو عدلت لم يشغبوا ، ولو وفيت لم ينهبوا .

وقع هرون الرشيد إلى صاحب خراسان ؛ داو جُرحك لا يتسع . ووقع
في نكبة جعفر بن يحيى : أنبتته الطاعة وحصدته المعصية .

وقع المأمون إلى الرستمي في قصة من تظلم منه : ليس من المروءة أن تكون
أنتك من ذهب وفضة ، وغريمك خاو ، وجارك طاو . ووقع في قصة متظلم
من أبي عيسى أخيه : (فإذا نفخَ في الصورَ فلا أنسابَ بينهم يومئذٍ
وَلَا يَنْسَاءُ لُونُ) . وكتب إليه إبراهيم بن المهدي : إن غفرت فبفضلك ، وإن
أخذت فبعدلك . فوقع في كتابه : القدرة تذهب الحفيظة ، والندم جزء من
التوبة . وبينهما عفو الله ، ووقع في رقعة مولى طلب الكسوة : لو أردت
الكسوة للزمت الخدمة ، ولكنك آثرت الرقاد فخطك الرؤيا .

وقع جعفر بن يحيى في قصة محبوس : العدل أوثقه ، والتوبة تطلقه . ووقع
في كتاب رجل شكاً إليه بعض عماله : قد كثر شاكوك ، وقلَّ شاكروك ،
فإما اعتذرت ، وإما اعتزلت .

ووقع في قصة مستمنح قد أعطاه مراراً : دَعِ الضرع يدبر لغيرك كما دَرَّ لك .

الخطب

خطب المنصور بعد قتل أبي مسلم قال :

أيها الناس : لا تخرجوا من أنس الطاعة إلى وحشة المعصية ، ولا تُسرثوا غش الأئمة ؛ فإنه لم يسر أحد قط منكراً إلا ظهرت في آثاره ، وأفلتت لسانه ، وأبداها الله لإمامه ، لإعزاز دينه وإعلاء حقه . إنا لن نبخسكم حقوقكم ، ولن نبخس الدين حقه . إن من نازعنا عروة هذا القميص أجزّناه خبيء هذا الغمد . إن أبا مسلم بايعنا وبايع الناس لنا على أن من نكث فقد أباح دمه ، ثم نكث بنا فحكنا عليه حكمه على غيره ، ولم تمنعنا رعاية الحق له من إقامة الحق عليه . ومن خطبة لعبد الملك بن صالح الهاشمي بعد أن خرج من السجن يذكر فيها ظلم الرشيد إياه :

والله إن الملك شيء ما بويته ولا تمنيته ، ولا قصدت إليه ولا ابتغيته . ولو أردته لكان أسرع إلى من السيل إلى الخدور ، ومن النار إلى يابس العرفج . وإني لما أخذت بما لم أجن ، ومستول عمالاً أعرف . ولكن الله حين رآني للملك قنأ ، وللخلافة خطراً ، ورأى لي يداً تنالها إذا مدت ، وتبلغها إذا بسطت ، ونفساً تكمل لخصالها ، وتستحقها بخلالها . — وإن كنت لم اختر تلك الخصال ، ولا اصطنعت تلك الخلال ، ولم أترشح لها في سر ، ولا أشرت إليها في جهر ، وراها تحن إلى حنين الوالدة ، وتميل إلى ميل الملوك ، وخاف أن تنزع إلى أفضل منزع ، وترغب في خير مرغب ، عاقبني عقاب من قد سهر في طلبها ، ونصب في التماسها . وتفرد لها بجهد وتهيأ لها بكل وسعه ، فإن كان إنما حبسني على أني أصلح لها وتصلح لي ، وأليق بها وتليق بي ، فليس ذلك بذنب فأتوب منه ، ولا تطاولت إليه فأحط نفسي عنه . وإن زعم أنه لا صرف لعقابه ، ولا نجاة من عذابه ، إلا بأن أخرج له من الحكم والعلم ، والحزم والعزم ، فكما لا يستطيع

للضيق أن يكون حافظاً ، كذلك لا يستطيع العاقل أن يكون جاهلاً ، وسواء عليه أعاقبني على عقلي أم عاقبني على طاعة الناس لي . ولو أردتها لأعجلته عن التفكير ، وشغلته عن التدبير ، ولم يكن لما كان من الخطب إلا اليسير . ومن الجهود إلا القليل !

وخطب داود بن عليّ يوم بيعة أبي العباس على منبر الكوفة قال :

شكراً شكرياً ! إنا والله ما خرجنا لنحقر فيكم نهراً ، ولا لنبني فيكم قصراً . أظنّ عدوّ الله أن لن نقدر عليه أن رُوخى له من خطامه ، حتى عثر في فضل زمامه ؟ فالآن حيث أخذ القوسَ باريها ، وعاد القوسَ إلى النزعة ، ورجع الملك إلى نصابه . في أهل بيت النبوة والرحمة ، أمينَ الأسود والأحمر . ولكم ذمة الله . لكم ذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم . لكم ذمة العباس . لا وربّ هذه البنية — وأوماً بيده إلى الكعبة — لا نهيج منكم أحداً .

وخطب شبيب بن شيبه يعزى المهدي يوم توفيت ابنته قال .

أعطاك الله يا أمير المؤمنين على مارزئتَ أجراً ، وأعقبك صبياً ، ولا أجهد الله بلاءك بنعمة ، ولا نزع منك نعمة . ثواب الله خير لك منها . ورحمة الله خير لها منك ، وأحقُّ ماصبرَ عليه ما لا سبيل إلى رده !

الرسائل

كتب أحمد بن يوسف إلى إبراهيم بن المهدي في هدية استقلها :

بلغني استقلالك لما أطفنك . ولذي تحن عليه من الأوس سهل علينا قلة

الحشد لك في البر ، فأهدينا هدية من لا يحشم ، إلى من لا يفتنم .

وكتب في تهنئته بابلاله من مرض :

قد أذهب الله وصَبَ لعملة ونصبها ، ووفر أجرها وثوابها ، وجعل فيها من

إرغام العدوِّ بعقبها ، أضافَ ما كان عنده من السرور بأولها .

وكتب محمد بن عبد الملك الزيات عن لسان الخليفة لأحد العمال :

أما بعد : فقد انتهى إلى أمير المؤمنين كذا فأنكره ، ولا تخلو من إحدى منزلتين ليس في واحدة منهما عذر يوجب حجة ، ولا يزيل لأئمة : إما تقصير في عملك دعائك إلى الإخلال بالحزم والتفريط في الواجب ، وإما مظاهره لأهل الفساد ومداهنة لأهل الريب . وأية هاتين كانت منك ، محلة للفكر بك ، وموجبة للعقاب عليك ، لولا ما يلقتاك به أمير المؤمنين من الأناة والنظرة ، والأخذ بالحجة ، والتقدم في الإعذار والإنذار ، وعلى حسب ما أقليت من عظيم للعترة يجب اجتهادك في تلافى التقصير والإضاعة . والسلام .

وكتب أبو الفضل بن العميد إلى أبي عبد الله الطبري :

كتابي وأنا بحال لو لم ينقص منها الشوق إليك ، ولم يرتق صفوها النزوع نحوك ، لعددها من الأحوال الجميلة ، وأعددت حظي منها في النعم الجميلة ، فقد جمعت فيها بين سلامة عامة . ونعمة تامة ، وحظيت منها في جسمي بصلاح ، وفي سمي بنجاح ؛ لكن ، ما بقي أن يصفولي عيش مع بعدى عنك ، ويخلو ذرعى مع خلوي منك ، ويسوغ لي مطعم ومشرب مع انفرادي دونك . وكيف أطعم في ذلك وأنت جزأ من نفسي ، وناظم لشمل أنسى . وقد حُمت رؤيتك ، وهدمت مشاهدتك . وهل تسكن نفس متشعبة ذات انقسام ، وينفع أنس بيت بلا نظام . قرأت كتابك - جعلني الله تعالى فداك - فامتلات سروراً بملاحظة خطك ، وتأملت تصريفك في لفظك . وما أقرظهما ، فكل خصالك مقرر عندى . وما أمدحهما ، فكل أمرك ممدوح في ضميري وعقدي . وأرجو أن تكون حقيقة أمرك موافقة لتقديرى فيك ، فإن كان كذلك وإلا فقد غطى هوك وما ألقى على بصرى .

المقامات

المقامة الحرزية لبديع الزمان الهمداني

حدثنا عيسى بن هشام قال : لما بلغتُ بي الغربةُ بابَ الأبوابِ ، ورضيتُ من الخنيفة بالإياب ، ودونه من البحر وثَّابٌ بغاربه ، ومن السفن عسَّافٌ براكبه ، استخرتُ الله في القفول ، وقعدت من الفلك ، بمثابة المهلك . ولما ملكنا البحرُ وجن علينا الليل ، غشيتنا سحابة تمد من الأمطار حبالا ، وتحوذُ من الغيم جبالا . بريح ترسل الأمواج أزواجاً ، والأمطار أفواجاً ، وبقينا في يدِ ألحينٍ ، بين البحرين ، لا نملكُ عدَّةً غير الدعاء ، ولا حيلة إلا البكاء : ولا عصمة غير الرجاء . وطويناها ليلة نافية ، وأصبحنا نتباكي وننشاكي ، وفينا رجل لا يخضلُ جفنه ، ولا تبتل عينه ، رخيُّ الصدر منشرحه ، نشيط القلب فرحهُ . فمجبنا والله كل العجب . وقلنا له ما الذي آمنك من العطب ؟ فقال : حرز لا يفرق صاحبه . ولو شئت أن أمنح كلامكم حرزاً لفعلت . فكلُّ رُغبٍ إليه ، وألح في المسألة عليه . فقال لن أفعل ذلك حتى يعطيني كل واحد منكم ديناراً الآن ويعدني ديناراً إذا سلم . قال عيسى بن هشام : فنقدناه ما طلب ، ووعدناه ما خطب ، وآبت يده إلى جيبه فأخرج قطعة ديباج ، فيها حقة عاج ، قد ضمن صدرها قاعاً ، وحذف كل واحد منا بواحدة منها . فلما سامت السفينة ، وأحلتنا المدينة ، اقتضى الناس ما وعدوه ، فنقدوه . وانتهى الأمر إلىَّ فقال دعوه . فقلت لك ذلك ، بعد أن تعلمني سرَّ حالك . قال : أنا من بلاد الإسكندرية . فقلت . كيف نصرك الصبر وخذلنا ؟ فأنشأ يقول :

وبك لولا الصبر ما كُفِّت
ت ملأت الكيس تبراً
لن ينال المجد من ضا
ق بما يفشاه صدرا

ثم ما أعقبني الساعة ما أعطيتُ ضُراً
بل به أشتد أزرأً وبه أجبر كسراً
ولو أني اليوم في الفرقي لما كلفت عذراً

ومن المقامة البغدادية للحريري على لسان عجزوز مستجدية :

إعلموا يا مآل الآمل ، وثمال الأرامل ، أني من سرّوات القبائل ، وسرّيات
العقائل ، لم يزل أهلي وبعلي يحلون الصّدر ، ويسرون القلب ، ويُمطون
الظهر ، ويولون اليد . فلما أردى الدهرُ الأعضاد ، وفجّع بالجوارح الأكباد ،
وانقلب ظهراً لبطن ، نبا الناظر ، وجفا الحاجب ، وذهبتِ اليمين ، وفقدت
الراحة ، وصلّد الزند ، ووهنتِ اليمين . وضاع اليسار ، وبانت المرافق ،
ولم يبق لنا ثنية ولا ناب . فذ اغبرّ العيش الأخضر ، وازورّ المحبوب الأصفر
اسودّ يومى الأبيض ، وابيض قودى الأسود ؛ حتى رثى لى العدو الأزرق ،
فخبذا الموت الأحمر !

الفصل الثالث

الكتاب

ابن المقفع

المتوفى سنة ١٤٢ هجرية

نشأته وميادته

عبد الله بن المقفع كاتب فارسي الأصل عربي النشأة . ولد حوالي سنة ست ومائة للهجرة ، ونشأ بالبصرة على ما ينشأ عليه أبناء اليسار ، وكان والده داؤويه المجوسي يتولى خراج فارس للحجاج بن يوسف ، فاحتج من مال السلطان شيئاً ، فضر به الحجاج حتى تقفعت يده فلقب بالمقفع . وربى عبد الله منذ طفولته على النمط الإسلامي ، وأولع بالعلم وهو فارغ القلب من هموم العيش ، فنبغ وهو يافع في الكتابة باللغتين الفارسية والعربية ، فاستسكته في عهد بني أمية داود بن عمر بن هبيرة ، وفي عهد بني العباس عيسى بن علي عم المنصور ، وعلى يديه أسلم . قال له ذات يوم : « قد دخل الإسلام في قلبي وأريد أن أسلم على يدك » ، فطلب إليه عيسى أن يغدو عليه بين القواد ورءوس الأجناد ليكون إسلامه مشهوداً . ثم حضر معه المائدة عشية ذلك اليوم فجعل يأكل ويزمزم على عادة المجوس . فلما كلمه عيسى في ذلك قال : « كرهت أن أبيت على غير دين » ثم غدا عليه فأعلن إسلامه ، وتسمى عبد الله واكتنى أبا محمد ، وقد كان اسمه من قبل روزبة .

وقد قيل إنه أسلم ابتغاء عرض الدنيا . ورُمى بالإلحاد لمعارضته القرآن ،

وترجمته كتب الزنادقة ، وتمثله حينما مر على بيت نار المجوس ببيتى الأحوص :
يا بيت عاتكة الذى أتمزّلُ حذر العدى وبه الفؤاد موكل
إنى لأمنحك الصدودَ وإننى قسما إليك مع الصدود لأتميل
وبقى ابن المقفع فى خدمة عمى المنصور عيسى وسليمان حتى كانت حادثة الأمان
الذى كلف أن يكتبه عن لسان المنصور لعمه عبد الله ، فإنه تشدد فيه على الخليفة
بمثل قوله : « ومتى غدر أمير المؤمنين بعمه عبد الله ففساؤه طوالق ، ودوا به
حُبْسٌ ، وعبيده أحرار ، والمسلمون فى حِلٍّ من بيعته » فوجد المنصور عليه
وأوعز بقتله إلى سفیان بن معاوية المهلبى أمير البصرة ، وكان يضظفن على ابن المقفع
لسخره منه واستخفافه به فى حضرة وجوه البصرة . فقد قالوا إنه كان كبير
الأنف ، فكان كلما دخل عليه ابن المقفع قال : (السلام عليكما) يعنى سفیان وأنفه .
فاهتبل الأمير هذه الفرصة وقتله حرقاً بالنار بالغاً من العمر ستاً وثلاثين سنة .

أضيقه وعلمه

كان ابن المقفع ذكى القلب فصيح المنطق ضليعاً فى أدب العرب والفرس
« مقدّمًا^(١) فى بلاغة اللسان والقلم والترجمة واختراع المعانى وابتداع السّير .
وكان يتعاطى الكلام^(٢) ولا يحسن منه لا قليلاً ولا كثيراً » .

وقد قيل : لم يكن للعرب بعد الصحابة أذكى من الخليل ، ولا كان فى العجم
أذكى من ابن المقفع . وقد اجتمع هذان الصديقان لأول مرة . فكثما يتحدثان
ثلاثة أيام ثم افترقا فقيل للخليل كيف رأيت عبد الله ؟ فقال ماشئت من علم
وأدب ! إلا أن علمه أكثر من عقله . وقيل لعبد الله كيف رأيت الخليل ؟ فقال
ماشئت من علم وأدب ! إلا أن عقله أكثر من علمه . وقد سئل ابن المقفع : من
أدبك ؟ فقال نفسى : كنت إذا رأيت من غيرى حسناً أتيتُهُ ، وإن رأيت قبيحاً

(٢) علم التوحيد ،

(١) هذا رأى الجاحظ فيه من رسالته فى المعادين .

أبيته . وكان في سائر أحواله عفيفاً أديباً وفيماً لأصحابه . وأمره ^(١) مع عبد الحميد
الكتاب شهيد بذلك .

شعره وشعره

ابن المقفع إمام الطبقة الأولى من الكتاب . وقد استخلص من الأسلوب
الفارسي والعربي طريقة في الكتابة عرفت به وأخذت عنه . وقد فصلنا ذلك
في أثناء كلامنا عن النثر في هذا العصر فارجع إليه . أما شعره فقليل جيد ، روى
صاحب الحماسة منه قوله في رثاء يحيى بن زياد :

رُزِينَا أَبَا عَمْرٍ وَلَا حَيَّ مِثْلَهُ فَلَا رَيْبُ الْحَادِثَاتِ بَيْنَ وَقَعِ
فَإِنْ تَكُنْ قَدْ فَارَقْتَنَا وَتَرَكْتَنَا ذُو خَلَّةٍ مَا فِي انْسِدَادِهَا طَمَعِ
فَقَدْ جَرَّ نَفْعًا فَقَدْ نَالَكَ أَنْ نَا أَمِنَّا عَلَى كُلِّ الرِّزَايَا مِنَ الْجَزَعِ

مترجماته ومؤلفاته

ابن المقفع مترجم قدير لا تلمح في ترجمته أثر العجمة ، وتكاد لا تفرق
بين نقله ووضع . وكتابه كايلة ^(٢) ودمنة إذا صح أنه مترجم لا يزال مثلاً للترجمة
الصحيحة البليغة . وهو كما قال القفطي أول من اعتنى في الملة الإسلامية بترجمة
الكتب المنطقية لأبي جعفر المنصور ، فترجم كتب أرسطو الثلاثة في المنطق .
وكتاب إيساغوجي أفر فور يوس الصوري ؛ نقلها عن ترجمة بالفارسية لأنه لم يعرف
غيرها على الأرجح : ونقل كتاب التاج في سيرة أنوشروان . وألف كتابي الأدب
الصغير والكبير في الأخلاق ، وكتاب البيئمة في طاعة السلطان .

نموذج من شعره

قال : لا يؤمنك شرّ الجاهل قرابةً ولا جواراً ولا إلفاً ، فإن أخوفاً

(١) قد مر بسط ذلك في ترجمة عبد الحميد بن يحيى الكتاب .
(٢) أنظر ما كتب من كايلة ودمنة في باب الكلام من القصص .

ما يكون الإنسان لحريق النار أقرب ما يكون منها . وكذلك الجاهل إن جاورك أنصبك، وإن ناسبك جنى عليك، وإن ألقتك حمل عليك مالا تطيق ، وإن عاشرك آذاك وأخافك ؛ مع أنه عند الجوع سبَّع ضار ، وعند الشبع ملك فظ ، وعند الموافقة في الدين قانداً إلى جهنم : فأنت بالهرب منه أحق منك بالهرب من سم الأسود ، والحريق الخوف ، والدين الفادح ، والداء العياء .

وقال أيضاً : « إن استطعت أن تُنزل نفسك دون غايتك في كل مجلس ومقام ومقال ورأى وفعل فافعل . فإن رفع الناس إياك فوق المنزلة التي تحطُّ إليها نفسك ، وتقرَّبهم إياك في المجلس الذي تباعدت عنه ، وتعظيمهم من أمرك مالم تعظم ، وتزيينهم من كلامك مالم تزين ، هو الجمال . »

وقال أيضاً . كان لي أخ أعظم الناس في عيني . وكان رأس ماعظمه في عيني صغرُ الدنيا في عينه . كان خارجاً من سلطان بطنه ، فلا يشتهي مالا يجد ولا يكثر إذا وجد . وكان خارجاً من سلطان لسانه ، فلا يتكلم بما لا يعلم ، ولا يمارى فيما علم . وكان خارجاً من سلطان الجهالة ، فلا يتقدم أبداً إلا على ثقة بمنفعة . وكان أكثر دهره صامتاً ، فإذا قال بذي القائلين . وكان ضعيفاً مستضعفاً ، فإذا جد الجِدُّ فهو الليث عادياً . وكان لا يدخل في دعوى ، ولا يشارك في مراء ، ولا يدلى بحجة حتى يرى قاضياً فهماً وشهوداً عدولاً . وكان لا يلوم أحداً فيما يكون العذر في مثله حتى يعلم ماعذره . وكان لا يشكو وجعه إلا عند من يرجو عنده البرء ، ولا يستشير صاحباً إلا أن يرجو منه النصيحة . وكان لا يتبرم ولا يتسخط ولا يتشكى ولا يتشهى ، ولا ينتقم من العدو ولا يغفل عن الولي ، ولا يخص نفسه بشيء دون إخوانه من اهتمامه وحيالته وقوته .

فمليك بهذه الأخلاق إن أطقها ، وإن تطيق ، ولكن أخذ القليل خير من ترك الجميع .

الجاحظ

المتوفى سنة ٢٥٥ هجرية

نشأته ومبائه

ولد أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ بالبصرة ونشأ بها وهي يومئذ مهد العلم ومنتدى الأدب ، فأكبَّ على الدرس وجد في التحصيل وأخذ عن جهاذة اللغة والرواية كالأصمعي وأبي عبيدة . وتخرج في علم الكلام على أبي إسحق النظام أحد المعتزلة فأخذ بمقالته ، ونصر الاعتزال بكتابه . وصاحب فئة من كتاب العرب ومترجمي الفرس فنقل عنهم واستفاد منهم ، وأُغرمَ بالمطالعة إغراماً شديداً فلم يقع في يده كتاب إلا استتم قراءته ، واستوعب مادته . وكان يكتري حوانيت الوراقين ويعتكف فيها للدرس والمطالعة حتى أحصى مسائل العلوم ، واستبطن دخائل الفنون ، وأصبح في الأدب منقطع القرين .

قضى أكثر عمره في مسقط رأسه عاكفاً على التأليف مرعى الجانب ، مكفى الحاجة ، أثيراً لدى الولاة ، مكرماً عند الوجوه ، بما يؤف من الرسائل ويصنف من الكتب . ثم كان ينتجع بغداد في عهد المأمون والمعتصم والواثق والمتوكل ؛ وانقطع بعد ذلك إلى محمد بن عبد الملك الزيات طول وزاراته الثلاث؛ ثم استقر بالبصرة بعد نكبة الوزير . وأصيب بالفالج النصفى في عاقبة عمره . وطال عليه المرض وتبلغت به العلة حتى قبضه الله إليه سنة خمسة وخمسين ومائتين وقد شاف المائة .

صفاته وأخلاقه

كان أبو عثمان دميم الخلقه جهّم الوجه جاحظ العينين «ومن ذلك لقبه» ؛ حتى قيل إن الخليفة المتوكل سمع بمنزلته من العلم والفهم فاستقدمه إليه بسرّ من رأى

ليؤدب ولده . فلما رآه استبشع منظره و صرفه بعشرة آلاف درهم . وكان في الجاحظ دُعابة وِجاجة واستخفاف بالعادات المرعية والآداب الوضيعة ، ولكنه كان لطيف الروح ذكي الفؤاد فكّه المحاضرة صادق المواساة .

علمه وأدبه

ليس في مقدور هذا القلم العاجز الموجز أن يصف للقارىء ما نابغة العرب وفلتير الشرق من الأثر في الأدب . وبحسبنا أن نقول إنه تميز من أُناده بفزارة العلم ، وقوة الحجّة ، واستقصاء البحث ، وشدة المعارضة ، وبلاغة القول ، وإنه تبهر في علم الكلام وخلطه بفلسفة يونان ، وانفرد دون المتكلمين بمذهب في التوحيد شايعه عليه كثير منهم فسُموا بالجاحظية . وشارك في سائر العلوم وكتب فيها كتابة محقق ضليع . وهو أول عالم عربي جمع بين الجدو والمزله ، وتوسع في المحاضرات وأكثر من التصنيف وكتب في الحيوان والنبات والأخلاق والاجتماع .

نثره وشعره

نقل الجاحظ الكتابة إلى طور جديد في الأسلوب والغرض ، ونهج المترسلين والمصنفين طريقة في الإنشاء ذكرناها في معرض الكلام عن الكتابة فلا نعيد فيها القول . وقد قال فيه البديع : إن كلامه بعيد الإشارة ، قريب العبارة ، قليل الاستعارة . وهذا الحكم وإن كان شديداً يطابق الحق أحياناً . أما شعره فلا روعة له ولا جمال فيه . وقد نزع في نظمه إلى الاتباع لا إلى الابتداع ، وهو قليل منشور في ثنايا الرسائل والكتب كقوله للوزير ابن عبد الملك :

بدا حين أنرى لإخوانه فقلل منهم شبابة العدم
وأبصر كيف انتقال الزمان فبادر بالعرف قبل الندم

وقوله :

لئن قدّمت قبلي رجالاً فطالما مشيت على رسلى فكنت المقدما

ولسكن هذا الدهر تأتي صروفه فتبرم منقوضاً وتنقض مُبرماً

مؤلفاته

كتب الجاحظ تربي على مائتي كتاب ، وهي كما قال الأستاذ ابن العميد ؛ « تعلم العقل أولاً والأدب ثانياً » ولم ينشر منها إلا كتاب البيان والتبيين في الأدب والإنشاء والخطابة ، وكتاب الحيوان وهو أقدم كتاب عربي في موضوعه ، وكتاب المعاسن والأضداد ، وكتاب البخلاء ، وديوان رسائله .

مثال من نثره

قال يعاتب صديقاً له . « والله يا قليب لولا أن كبدي في هواك مقروحة ، وروحي بك مجروحة ، لساجلتك هذه القطيعة ، وماددتك حبل المصارمة ، وأرجو الله أن يدلّ صبري من جفائك ، فيردك إلى مودتي وأنفُ القلي راغم ؛ فقد طال العهد بالاجتماع ، حتى كدنا ننناكر عند اللقاء » .
وقال في رسالة التبريع والتدوير وهي من أبلغ رسائله :

قد اعتدنا في معصيتك والخلاف على محبتك ، مرة بالمزاح ، ومرة بالنسيان ، ومرة بالانكال على عفوك . وعلى ما هو أولى بك . والجملة أنا لو اعتمدنا ، ثم أصرنا ، ثم أنكرنا ، لسكان في فضلك ما يتعمده ، وفي كرمك ما يوجب التغافل عنه . فكيف وإنما سهونا ثم تذكرونا ، واعتذرنا ثم أظنينا ؟ فإن تقبل فحظك أصبت ، وانفسك نظرت . وإن لم تقبل فاجهدك جهدك ، ولا أبق الله عليك إن أبقيت ، ولا عفا عنك إن عفوت . وأقول كما قال أخو بني منقور :

فا بقیاً علی ترکستانی ولسکن خفتما صدر النبال

والله لئن رميتني ببجيلة لأرمينك بكنانة . ولئن نهضت بصالح بن عليّ لأنهضنّ بإسماعيل بن عليّ . ولئن صلّيت عليّ بسليمان بن وهب لأدمعتك بالحسن ابن وهب . وأنا أرى لك أن تقبل العافية ، وترغب إلى الله تعالى في السلامة .

واحذر البغيّ فإن مصرّعه وخيم ، واتق الظلم فإن مرعاه وبيل . وإياك أن تتعرض
لجرير إذا هجا ، وللفرزدق إذا نخر ، ولهرثمة إذا دبر ، ولقيس بن زهير إذا مكرّ ،
ولالأغلب إذا كرّ ، ولطاهر إذا صال . ومن عرف قدره عرف قدر خصمه ، ومن
جهل نفسه لم يعرف قدر غيره . وعليك بالجمادّة ودع البنيّات . فإن ذلك أمثل
لك . وأنت والله تعلم علم الاضطرار ، وعلم الاختيار ، وعلم الأخبار ، أنى أظهر منك
حرباً ، وألطف كيداً ، وأكثر علماً ، وأوزن حلماً ، وأخف روحاً ، وأكرم
عيناً ، وأقل غشاً ، وأحسن قدماً ، وأبعد غوراً ، وأجل وجهاً ، وأنصح ظرفاً ،
وأكثر ملحاً ، وأنطق لساناً ، وأحسن بياناً ، وأجهر جهمارة ، وأحسن شارة ،
وأنت رجل تشدّ من العلم ، وتذتف من الأخبار ، وتموّه نفسك ، وتعزّ من
قدرك ، وتمهياً بالثياب ، وتذنبل بالمراكب ، وتتحبب بحسن اللقاء ؛ ليس عندك
إلا ذلك . فلم تراحم البحر بالجداول ، والأجسام بالأعراض ، ومالا يتناهى
بالجزء الذى لا يتجزأ ؟ ومن يعدلّ بين القنّاة والسكرّة ؟ وبين رحى الطحان
وبين سيف يمان ؟ وإنما يكون التمثيل بين أتم الخيرين ، وأقص الشرّين ،
وبين المتقاربين دون المتفاوتين . فأما الخل والعسل ، والحصاة والجبل ، والسم
والغذاء ، والفقر والغنى ، فهذا مما لا يخطىء فيه الذهن ، ولا يكذب فيه الحس .

أبن العميد

المتوفى سنة ٣٦٠ هـ

نُسأته وهيبته

أبو الفضل محمد بن الحسين المعروف بابن العميد فارسى الأصل من أهل
مدينة (قم) . كان أبوه مترسلاً بليغاً يتولى الكتابة لنوح بن نصر السامانى
ملك بخارى ، فنشأه على الأدب ودرّبه فى الكتابة ، وغذاه بالعلم ، فبرع

في الإنشاء والترسل ، وتوسع في الفلسفة والنجوم ، حتى سمي بالأستاذ ولقب بالجاحظ الثاني .

ولما استكملت عُدَّتَه ، واستحصدت قوته ، غادر بخارى إلى بلاد الجبل من ملك آل بويه ؛ فتقلد الأعمال في دولتهم . وما زال يَنتقل في مدارج الرقي ، ويتوقل في معارج الشرف ، حتى وزرَ لركن الدولة بن بويه سنة ثمان وعشرين وثمانائة ، فاضطلع بأعباء الوزارة ، وقام بشئون الدولة ، وجرى على منهج ابن برمك في الجود ، فانتجعه الشعراء وقصده العلماء من بغداد والشام ومصر فكان هو والصاحب بن عباد والوزير المهلبى روحاً لهضة العلم وقطبا لدائرة الأدب في ذلك العصر . وقد كان المتنبي على مكانته يجله ويتبببه ، وله فيه مدائح مشهورة منها قصيدته التي مطلعها :

بادِ هَوَاكَ صَبْرَتْ أُمٌ لَمْ تَصْبِرَا وَبُكَاءُكَ إِن لَمْ يَجْرُدْ مَعَكَ أَوْ جَرَى
وَيَقُولُ فِيهَا :

مَنْ مَبْلُغُ الْأَعْرَابِ أَنَى بَعْدَهَا شَاهَدْتُ رَسَطًا لَيْسَ وَالْإِسْكَندَرَا
وَمَلَّتْ نَحْرَ عِشَارِهَا فَأَضَافَنِي مِنْ يَنْحَرِ الْبَدْرِ النَّضَارِ لَمَنْ قَرَى
وَسَمِعْتُ بَطْلِيمُوسَ دَارِسَ كَتَبِهِ مَتَمَلِّكًا مَتَبَدِّيًا مَتَحَضِرَا
وَلَقَيْتُ كُلَّ الْفَاضِلِينَ كَأَنَّمَا رَدَّ الْإِلَهَ نَفُوسَهُمْ وَالْأَعْصَرَا

ولسكن ابن العميد كان قليل الحظ من العافية ألحَّت عليه الأوصاب وتناوبه القولنج والنقرس حتى استعز الله به سنة ستين وثمانائة ،

نثره وشعره

عصر ابن العميد عصر تأنق وزخرف ، وعهد خيال وشعر ، فهده طبعه إلى استحداث أسلوب جديد متناسب الفقر أنيق الديباجة ، بديع الوشى ، طبع على غراره مشايعوه لموافقته ذوق العصر . ولمكانة الوزير من

الفضل . إلا أنه كان أرق معاصريه طبعاً ، وأقلهم سجماً ، وأكثرهم نثراً للشعر وتلميحا للأمثال ، وتضميناً للحكم ، ولا يضارعه في أكثر ذلك على ما أرى إلا البديع ، وكان ابن العميد متفنناً في فنون الكتابة ، متفوقاً في ضروب الرسائل ، حتى شاعت فيه الكلمة المأثورة : « بُدئت الكتابة بعبد الحميد ، وختمت بابن العميد » .

أما شعره فيغلب فيه الحسن ويرويه ماء الطبع ؛ إلا أنه على الجملة أخف وزناً من نثره .

مُخَارِصٌ مِنَ كَلَامِهِ

قال من رسالته إلى ابن بلكا عند استعصائه على ركن الدولة :
كتابي وأنا مُترجح بين طمع فيك ويأس منك ، وإقبال عليك وإعراض عنك . فإنك تدل بسابق حُرمة ، وتمت بسالف خدمة ، أيسرها بوجب رعاية ويقتضى محافظة وعناية ، ثم تشفعهما بحادث غول وخيانة ، وتنبعهما بآنف خلاف ومعصية : وأدنى ذلك يحبط أعمالك ، ويمحق كل ما يُرعى لك . ولا جرم أنى وقفت بين ميل إليك ، وميل عليك ، أقدم رجلاً لصدملك ، وأؤخر أخرى عن قصدك ، وأبسط بدأ لاصطلامك واجتياحك ، وأئني ثانية لاستبقائك واستصلاحك ؛ فقد يغرب العقل ثم يؤوب ، ويعزب اللب ثم يثوب ، ويذهب الحزم ثم يعود ، ويفسد العزم ثم يصلح ، ويضع الرأي ثم يُستدرك ، ويسكر المرء ثم يصحو ، ويكدر الماء ثم يصفو .

ومنها : وزعمت أنك في طرف من الطاعة بعد أن كنت متوسطها . وإذا كنت كذلك فقد عرفت حالها ، وحلبت شطريها ؛ فنشدتُك الله إلا ما صدقتني عما سألتك . كيف وجدت مازلات منه ، وكيف تجد ما صرت إليه ؟ ألم تكن من الأول في ظل ظليل ، ونسيم عليل ، وريح بليل ، وهواء غدي ، وماء روي ،

ومهاد وطىّ ، وكنّ كنين ، ومكان مكين ، وحصن حصين ، عززت به بعد
الذلة ، وكثرت بعد القلة ، وارتفعت بعد الضعة ، وأيسرت بعد المعسرة ،
وأثريت بعد المثربة ؟ . . ففيمَ الآن أنت من الأمر ؟ وما العوضُ عما عددت ،
وأتخلفَ مما وصفت ؟ وما استفدتَ حينَ أخرجت من الطاعة نفسك ، ونفضت
منها كفك ، وغمست في خلافها يدك ؟ وما الذى أظلّك بعد انحسار ظلها عنك ؟
أظلُّ ذو ثلاث شُعَب ، لا ظليل ولا يفتى من اللهب ؟ قل نعم كذلك .

ومرّها : تأمل حالك وقد بلغت هذا الفصل من كتابي فستنكرها . والمس
جسدك وانظر هل يُحسُّ ؟ واجسُسْ عرقك هل ينبض ؟ وفتش ما حنا عليك
هل تجد في عرضها قلبك ؟ وهل حلّى بصدرك أن تظفر بفوت سريح ، أو موت
مريح ؟ ثم قس غائب أمرك بشاهده ، وآخر شأنك بأوله .

ومن شعره قوله لبعض إخوانه .

| | |
|--------------------------------|----------------------------|
| قد ذبتُ غيرَ حَشَّاشَةٍ وذِماء | ما بين حرّاً هوى وحرّ هواء |
| لا أستفيق من الغرام ولا أرى | خِلوا من الأشجان والبرحاء |
| وصروف أيام أقنَ قيامتى | بنوى الخليط وفرقة القرناء |
| وجفاء خيل كنت أحسب أنه | عوى على السراء والضراء |
| أبكى ويضحكه الفراق ولن ترى | عجباً كحاضر ضحكك وبكائى |

ومنها :

| | |
|--------------------------|---------------------------|
| من يشف من داء بأخر مثله | أثرتُ جوانحه من الأدواء |
| لا تفتنم إغضائى فلعلمها | كالعين تغضيها على الأعداء |
| واستبق بعض حشاشتى فلعلنى | يوماً أقبك بها من الأسواء |
| فلئن أرحت إلى عازب بلوتى | ووجدت في نفسى نسيم عزاء |
| لأجهزّن إليك قبحَ تشكر | ولأنثرنّ عليك سوءَ ثناء |
| ولأعضلنّ مودتى من بعدها | حتى أزوجها من الاكفاء |

الصاحب بن عباد

٣٢٦ - ٣٨٥

نشأته وحياته

وُلد كافي الكفاة أبو القاسم إسماعيل الصاحب بن عبّاد بطالقان من أعمال قزوين ، ودرس على ابن فارس اللغوي ، واتصل بابن العميد شابًا فأخذ عنه ؛ واشتدت صحبته له فلقب من أجل ذلك بالصاحب . وزرّ لمؤيد الدولة ابن بويه بعد أن قُتل أبو الفتح بن العميد^(١) وزيره ، فدبر أمره وسدّ ثغوره . ولما ملك نخر الدولة بعد أخيه استعفى الصاحب ، فقال له : « لك في هذه الدولة من إرث الوزارة ، مالنا فيها من إرث الإمارة . فسبيل كل منا أن يحتفظ بحقه . فاتسع سلطان الصاحب وعم إحسانه ، وغرس للأدب جنانًا ناضرة ، وشار للعلم ربوعًا عامرة . وقصد حضرته الأدباء والعلماء والمتكلمون والمصنفون يتعرضون لمنحه ، ويتنافسون في مدحه ، وهو يرشدهم بنقده ، ويعينهم برفده ، حتى ازدهر الأدب في عهد بني بويه بفضلله ازدهاراً قلَّ أن يصادفه في عهد آخر .

وكان للصاحب ولعٌ بجمع الكتب وشغف بمطالعتها . وكان مجاسه لا يخلو من أديب يحاضر ، ومتكلم يناظر ، وناشيء يروي ويستفيد . وعاش الصاحب ما عاش مبعجلاً مفضلاً نافذ الأمر مطاع الإشارة . فلما مات أغلقت له أبواب الري واجتمع الناس على باب قصره ينتظرون جنازته وفيهم نخر الدولة وقوادؤها في خير ملابسهم . فلما خرج نعشه من الباب صاحوا بأجمعهم صيحة واحدة وقبلوا الأرض . ودفن بأصبهان .

(١) هو علي أبو الفتح ذو الكفائين ابن العميد بن أين الفضل بن العميد الذي تقدم ذكره . خاف أباه على الوزارة لركن الدولة بن بويه حتى توفي فوزر لولده مؤيد الدولة فغير عليه لبعض الأسباب فقتله .

نُثره

سار الصحاح على نهج ابن العميد وأرنب عليه في الحلية اللفظية ولا سيما في السجع والجناس ، حتى قيل فيه : « لورأى سجمة تنحلُّ بموقعها عروة الملك ، ويضطرب بها حبل الدولة ، لما هان عليه أن يتخلى عنها » ومنزلته بعد البديع وقبل الخوارزمي . وله ذوق سليم في صوغ الشعر ونظر صادق في نقده . ولم تعفهُ تكاليف الوزارة ولا مظاهر الإمارة عن التأليف ، فصنف في اللغة كتاب المحيط في سبعة مجلدات ، وكتاب الإمالة ، والكشف عن مساوىء المتنبي ، وغير ذلك : وأكبر فضله في تشجيع الأدباء وتنشيط العلماء وإذكاء شُعلة الأدب .

نموذج من كلامه

كتب إلى القاضي أبي بشر الجرجاني حين وروده باب الرّسى وافداً عليه :

تحدثت الركابُ بسير أروى إلى بلد حططتُ به خيامي

فكدتُ أطير من شوق إليها بقادمة كقادمة الحمام

أحقُّ ما قيل أمرُ القادم ، أم ظنُّ كأماني الحالم ؟ لا والله بل هودرك العيان ،
وإنه ونيل المنى سيّان . فرحباً أيها القاضي راحلتك ورحلتك ، بل أهلاك
وبكافة أهلك ، وبأسرعة ما فاح نسيم مسراك ! ووجدنا ريح يوسف من
ريّاك ؟ فحثُّ المطىُّ نزل غلتي بسقياك ، وترح علاتي بلقياك . وقص على يوم
الوصول لنجعله عيداً مشرفاً ، ومنتخذه موسماً ومعرفاً ورُدّ الغلام ، أسرع من
رجع الكلام ، فقد أمرته أن يطير على جناح نسر ، وأن يترك الصبا
في عقال وأسر .

سقى الله داراتٍ مررتَ بأرضها فأدّتك نحوى بإزيادُ بن عامر

أصائلَ قُربٍ أرتجى أن أنالها بلقياك قد زحزحن حرّ الهواجر

الخوارزمي

٣٠٣ - ٣٨٣ هـ

نُسأته ومبأته

هو أبو بكر محمد بن العباس الخوارزمي ، أصل آبائه من طبرستان وولد بخوارزم ، ثم فارقها وهو فتى السن ابتغاء للعلم والتماساً للرزق ، فجاب الأقطار وتقلب في خدمة كثير من الملوك والأمراء . ولقى سيف الدولة وخدمه بالشام ثم مضى على غلوائه في الاضطراب والاغتراب : فورد بخارى ونيسابور وسيجستان حتى وافى الصاحب بن عباد بأصبهان ، فأكرم مثواه ثم زوده بكتياب إلى عضد الدولة بشيراز فنجحت سفرته ، وربحت تجارته ، وصدر عنه بمال جم وخير كثير فاستوطن نيسابور واقتنى بها ضياعاً وعقاراً ، وعاش قرير العين ناعم البال بين مجالس الدرس ومجالس الأنس حتى منى في آخر زمانه بمساجلة البديع الهمداني ومناظرته . فانخذل انخذالاً شديداً ، ونالت منه هذه النكبة فاعتلت صحته ، وخدمت شهرته ، ولم يحل عليه الحول حتى علقه حمامه سنة ثلاث وثمانين وثلثمائة

صنلته في الأدب والكتابة

رؤى عن الخوارزمي مارؤى عن أنداده من سرعة الحافظة وقوة الذاكرة ، وشهر بذلك حتى قيل : إنه قصد الصاحب بن عباد بأرجان ، فلما وقف ببابه ذهب الحاجب إلى الصاحب وقال . إن بالباب أديباً يستأذن في الدخول . فقال الوزير قل له : قد ألزمت نفسي ألا يدخل عليّ إلا أديب يحفظ عشرين ألف بيت من شعر العرب « فقال أبو بكر للحاجب : ارجع إليه وقل له : هذا القدر من شعر الرجال أم من شعر النساء ؟ فلما أخبر بذلك الصاحب قال : هذا أبو بكر الخوارزمي !

وكان الخوارزمي مع ذلك إماماً في اللغة والأنساب ، عالماً بأشعار العرب وأخبارها ، واقفاً على أسرار اللسان وخواص التراكيب . وهو في النثر من طبقة ابن العميد . وكثير من الناس يفضله على الصاحب . ولكنه يتخلف أحياناً أفلاً يحور إلى ذوق ، ولا يرجع إلى سليقة . أما شعره فبين الرديء والجيد .

مختار من كلامه

من فضوله المختارة قوله : الرجال حصون يبنها الإحسان ، ويهدمها الحرمان ، وتبلغ بثمرها البرّ واليسر ، ويمحقها الجفاء والكبر . وإنه لا مال إلا برجال ، ولا صالح إلا بعد قتال . والجهان مقتول بالخوف . قبل أن يُقتل بالسيف ، والشجاع حي وإن خانه العمر ، وحاضر وإن غيبه القبر . ومن طلب المنية هربت منه كل الهرب ، ومن هرب منها طلبته أشد الطلب . وقال :

أ كبرُ من الأسير من أسره ثم أعتقه ، وأشجع من الأسد من قيده ثم أطلقه . وأكرم من النبات الزكي من زرعه ، وأكرم من الكريم من اصطنعه . لاصيد أعظم من إنسان ، ولا شبكة أصيد من لسان ، وشتان بين من اقتنص وحشياً بجبالته ، وبين من اقتنص إنسياً بمقاتلته ا
ومن أجود شعره قوله :

مضت الشبيبة والحبيبة فالتقى دمعان في الأجفان يزدحمان
ما أنصفتني الحادثات ، رمينى بمودعين وليس لي قلبان
وقوله :

قلت للعين حين شامت جمالا في وجوه كواذب الإيماض
لا يغرّتك هذه الأوجه الفرّ (م) فيارب حية في رياض
وقد ذم أحد خلفاء بني العباس قال :

مالي رأيت بني العباس قد فتحوا من الكسّى ومن الألقاب أبواباً؟

ولقبوا رجلا لو عاش أولهم ما كان يرضى به للقصر بوابا
قلّ الدراهم في كفى خليفتنا هذا فأنتق في الأقوام ألقابا
وقال في الحكم :

لا تصحب الكسلان في حالاته كم صالح بفساد آخر يفسد
عدوى البليد إلى الجليد سريعه والجر يوضع في الرماد فيخمد
وقال يرثى ركن الدولة :

ألست ترى السيف كيف انثلم وركن الخلافة كيف انهدم ؟
طوى الحسن بن بويه الردى أيدرى الردى أى جيش هزم
فصيح اللسان بديع البيان رفيع السنان سريع القلم
إذا تم شيء لا بدا نقصه توقع زوالا إذا قيل تم

بديع الزمان الهمداني

المتوفى سنة ٣٩٨ هـ

نسأته وحياته

أبو الفضل أحمد بن الحسين ولد بهمدان ونشأ بها . وتعلم العلم باللغتين الفارسية والعربية ، ولم يترك أديباً في همدان إلا استفد ما عنده . ثم غادرها إلى صاحب ابن عباد فازداد من معارفه وعوارفه . وقصد جرجان فأقام في أكناف الاسماعيلية واختص بأبي سعيد محمد بن منصور . وفي سنة ٣٨٣ يم نيسابور فتجلت فيها عبقرته ، وذاعت بين الناس شهرته ، وأملى بها أربعمائة مقامة . ثم تصدى لمناظرة أبي بكر الخوارزمي ، وكان أسن منه وأشهر . وجرت بينهما مكاتبات أفضت إلى مناظرات . وغلب هذا قوم وذلك آخرون . وساعد البديع شبابهُ ولسانه وحاجته إلى الظهور ، فظهر على الخوارزمي ظهوراً أطار ذكره ورفع قدره عند الملوك والرؤساء . وأجاب قرنه داعي ربه ، فخلا له الجو ، وابتمس له الدهر ،

وتنقل في حواضر فارس منتجعاً أمراءها ، حتى ألقى عصاه بهرات وصاهر أحد وجهائها وعلماؤها ، وعاش بها رخيّ البال متسق الحال إلى أن ناداه ربه فلباه سنة ٣٩٨ .

واختلف في موته فقيل مات مسموماً ، وقيل مات بالسكتة وعُجل بدفنه فأطاق في جدّته ، وسمع صوته بالليل فنبشوا عليه فوجدوه قد مات قابضاً على لحيته من هول القبر .

أهلوفه وسواهبه

كان البديع مقبول الصورة ، خفيف الروح ، ناصع الظرف ، ذكي القلب ، قوى الحافظة . حدث التاريخ عنه أنه كان ينظر في أوراق من كتاب لم يعرفه نظرة واحدة ثم يؤدي ما فيها لا يخرم منه حرفاً . وأنه كان يقترح عليه إنشاء رسالة في معنى غريب فيخرج منها عفو الساعة والجواب عنها فيها . وربما ابتداء بآخر سطر من الرسالة وانتهى بها إلى أولها فيخرجها بلفظ مرتبط ومعنى متسق . وكان يترجم ما يقترح عليه من الشعر الفارسي إلى الشعر العربي فيجمع بين الإبداع والإسراع .

نثره وشعره

نثر البديع يستهوى القلوب ويملك الشعور ، وكله من قبيل الشعر المنثور . وللصناعة تأثير فيه ؛ إلا أنه مع ذلك جار مجرى الطبع ، لم يفسده تكلف ، ولم يبهمه تعمق . وقد جمع كلامه بين متانة اللفظ ورشاقة المعنى وجمال العبارة ودقة التخيّل . وقد تصرف هذا السكاتب في فنون الترسيل ، وتفان في ضروب الرسائل حتى كان بحقّ فارس الطريقة العميدية وابن مجدّتها .

وله شعر رقيق لم يبلغ من الجودة مبلغ نثره ، لأن الجمع بين حسن النظم وحسن النثر قلما يتفق لأحد .

مقامات

المقامات^(١) حكايات قصيرة تشتمل كل واحدة منها على حادثة لا تستغرق غالباً أكثر من مقامة (جلسة) وتنتهي بعبظة أو مُلحة . ولحسن الديباجة وأناقة الأسلوب فيها الحل الأول . والبديع أول من أجاد هذا النوع . والمظنون أنه حاكي بالمقامات الأحاديث الأربعين لابن دريد المتوفى سنة ٣١٠ . وقد كتب أربعمائة مقامة في السكذبة وغيرها ، نحلها أبا الفتح الاسكندري على لسان عيسى بن هشام . ولم يعثروا منها إلا على ثلاث وخمسين مقامة شرحها الأستاذ محمد عبده . أسلوبها طليّ شهي ، إلا أن قصرَ حكاياتها وتقارب الخيال فيها يبعدها عن الكمال . ولابديع غير المقامات ديوان رسائل ومجموعة شعر وكلام مطبوع .

مختار من كلامه

قال من رسالة : والله لولا يذّ تحت الحجر ، وكبدّ تحت الخنجر ، وطفل كفرخ يومين قد حبّب إلى العيش ، وسلب من رأسى الطيش ، لشمخت بأنفى عن هذا المقام . ولسكن صبراً جميلاً والله المستعان .

وقال من رسالة أخرى : وجدتك تعجب أن يحمد لثيم فضل صنيعك . تحفض عليك يرحمك الله ! إن الذى تعجب منه يسير ، فى جنب ما يحمد من الناس كثير . إن الله خلق أقواماً وشقّ لهم أبصاراً وآتاهم بصائر ، ففاصوا بها على عرق الذهب فقصدوه ، ولم يزالوا بالنجم حتى رصدوه ، واحتالوا للطائر فأنزله من جو السماء ، وللحوت فأخرجه من الماء ، ثم جحدوا مع هذه الأفكار الفائضة والأذهان النافذة صانهم : فقالوا أين وكيف ؟ حتى رأوا السيف . فلم تعجب إن جحدوا فضلاً ليست الأرضُ بساطه ، ولا الجبال سباطه ، ولا السماء فسباطه ، ولا الليل رباطه ، ولا النهار صراطه ، ولا النجوم أشراطه ، ولا النار سباطه ... ؟

(١) اقرأ ما كتبناه عن المقامات بعد ذلك فى باب المقامات والقصص .

وكتب إلى بعض أصدقائه يحذره :

لملك ياسيدي لم تسمع بيتي الناصح حيث قال :

اسمع نصيحة ناصح جمع النصيحة والمقّة
إياك واحذر أن تكون من الثقات على ثقة

صدق والله وأجاد . فلثقات ، خيانة في بعض الأوقات . هذه العين ترى
السراب شراباً ، وهذه الأذن تسمع الخطأ صواباً ، فلست بمعذور ، إن وثقت
بمحدور ، وهذه حال السامع من أذنه ، الواثق بعينه . وأرى فلاناً يكثر غشيانك
وهو الذي دخلته ، الرديء نحلته ، السيء وصلته ، الخبيث جعلته . وقد قاصمته
في أزرك ، وجعلته موضع شرك . فأرني موضع غلطك فيه ، حتى أريك موضع
تلافيه . ما أبد غلطك عن غلط إبراهيم عليه السلام ! إنه رأى كوكباً ، ورأيت
تولبا . وأبصر القمر ، وأبصرت القدر . وغلط في الشمس ، وغلطت في الرسم !
أظاهرة غرك ، أم باطنه شرك ؟

ومن قوله في أبي القاسم ناصر الدولة :

غضّي جفونك يا ربا ض فقد فتلت الحور غمزا
واقئ حياءك يا ربا ح فقد كدرت الغصن هزا
وارفق بجفونك يا غما م فقد خدشت الورد وخزا
خلع الربيع على الربى وربوعها خزا وبزا
ومطارفا قد نقشت فيها يد الأمطار طرزا

ومنها :

وكان أمطار الربيع إلى ندى كفيك تغزى
يا أيها الملك الذي بمساكر الآمال يغزى
خلقت يداك على العدى سيفاً وللاعافين كنزا
لازلت يا كنف الأمية ر لنا من الأحداث حرزا

الحريري

٤٤٦ — ٥٥١٦

نسأته وهيبته

محمد القاسم بن علي البصري عربي صميم من بني حرام . ولد بقرية يقال لها لمشان ، ونشأ بالبصرة وتخرج على فضلائها . وكان في أول أمره يبيع الحرير أو يصنعه فللقب بالحريري . وصرفه عن ذلك شغفه بالعلم وولوعه بالأدب ، فجدد في الدرس والتحصيل حتى سمت منزلته واستطارت شهرته في وقوفه على أساليب العرب وحفظه لأخبارهم وأشعارهم . فقربه الأمراء وأمه الأدباء يستفيدون من علمه ويستزيدون من أدبه .

صفاته وأهله

كان الحريري دميماً قصيراً بخيلاً قذر الثوب مولعاً بنصف لحيته عند التفكير . فمأضه الله من ذلك برائع أدبه ، ورقيق مانحه ، وسعة صدره ، واعترافه بالحق لأهله . ولذلك كان الحديث عنه خيراً من النظر إليه . سمع بشهرته رجل غريب فجاءه بتلقى عنه الأدب ، فلما رآه استزرى شكاه ، وفهم الحريري منه ذلك فلما التمس منه أن يملئ عليه قال له اكتب :

ما أنت أولُ سارِ غرّه قمرٌ ورائدٌ أعجبته خُضرة الدمن
فاختر لنفسك غيري إنني رجلٌ مثل المعيدى فاسمع بي ولا ترني
فججل الرجل وانصرف .

نثره وشعره

الحريري كاتب مكثر وشاعر مقل كالبيديع . وهو من ساقية أتباع ابن العميد ومن الممهدين لظهور الطريقة الفاضلية بالقصد إلى البيديع ، والمبالغة في الصنعة ،

والإفراط في تدبيج اللفظ ، والتفريط في جانب المعنى ، حتى تراءت معانيه من خلال ألفاظه عليقة ضئيلة كالعروس المسلولة جملوها بالأصباغ وأثقلوها بالفلائل والحلى . وشعره كثره في السكف بالبديع والعناية باللفظ . وضع منه كثيراً في ثنايا المقامات وجمع في ديوان خاص .

مؤلفاته

له من المؤلفات كتاب درة الغواص في أوهام الخواص ، انتقد فيه أهل عصره في خروجهم عن حدود العربية في بعض الألفاظ والتراكيب . وكتاب ملحة الإعراب في النحو ، وديوان رسائل ، ثم المقامات وهي أجود آثاره .

مقاماته

له خمسون مقامة نحلها أبا زيد الشروجي على لسان الحارث بن هام ونسجها على منوال البديع . جمع فيها من اللغة والأمثال والأحاجي ما لا غاية بعده . فهي ديوان مُنتع للألفاظ العربية ، والنوادر اللغوية ؛ والصناعة اللفظية ، ولعل ذلك هو السبب في عناية الأدباء من العرب والفرنج بها وانتشارها بينهم . فقد ترجمها أكثر من عشرين مستشرقاً من الفرنسيين والألمان والإنجليز . وطبعت بالإنجليزية في لندن سنة ١٨٥٠ ، وباللاتينية في هسبرج سنة ١٨٣٢ ، ونقلت إلى الفارسية سنة ١٢٦٣ ، ثم إلى التركية وطبعت بالآستانة . ولا تزال تدرس في بعض جامعات أوروبا بالشرح الذي وضعه لها رأس المستشرقين سافسترداسي سنة ١٨٢٢ .

عموبها

يفتقدتها أدباء الفرنج في قصرها ، ووحدة مفزاها ، وأن المؤلف لم يُعن فيها بتصوير الحكايات على نحو ما أنه الفرنج واليونان قديما ، وإنما صرف همه إلى تحسين اللفظ وتزيينه . وأدباء العرب يقولون إنها تكاد لا تخرج عن خيال

متكرر في صور مختلفة ، وإن في إنشائها تكلفاً لا تسمح به طبيعة البدوي الذي قيلت على لسانه .

سبب وضعها

سبب وضع المقامات أن الحريري كان جالساً بمسجد بني حرام بالبصرة ، فدخل المسجد شيخ ذو طمرين عليه أهبة السفر ، رث الحال ، فصيح المقال . فسأله الحاضرون : من أين الشيخ ؟ فقال : من سروج . فاستخبروه عن كنيته ، فقال أبو زيد . فأنشأ الحريري المقامة الحرامية وعزاها إلى أبي زيد وجعل الراوي فيها الحارث بن همام مريداً نفسه . أخذاً بالحديث المأثور : كلكم حارث وكلكم همام . واشتهرت تلك المقامة حتى بلغ خبرها شرف الدين وزير المسترشد بالله ، فأعجب بها وأشار على الحريري أن يضم إليها سواها فأتمها خمسين .

فخار من كلامه

قال يشكر أحد الوزراء : دعاء العبد للوزير دامت جدوده سعيدة ، وسموده جديدة ، وعلياؤه محسودة ، وأعداؤه محسودة ، دعاء من يتقرب بإصداره ، على بعد داره ، ويقصر عليه ساعاته ، مع قصور مسعاته . وشكره للانعام الذي أوصله إلى التجميل والتأميل ، وجمع له بين التنويه والتنويل ، شكر من أطلق من أسره ، وأذيق طعم الليسر بعد عسره . ولو نهضت به القدمان ، وأسعده عون الزمان ، لتقدم اعتمار الباب للعمور ، وأسرع إليه إسراع العبد المأمور ، ليؤدي بعض حقوق الإحسان ، ويقراً بحف الشكر باللسان . ولسكن أنى ينهض المقعد ؟ ومن له بأن يصعد فيسعد ؟

ومن شعره في الحكم قوله :

لا تترز من تحب في كل شهر
فاجتلاء الهلال في الشهر يوم
غير يوم ولا تزده عليه
ثم لا تنظر العيون إليه

وقال أيضاً :

لا تقعدن على ضرٍ ومَسْفَبَةٍ لكي يقالَ عزيزُ النفسِ مصطبر
وانظر بمينيك هل أرضٌ مُعْطَلَةٌ من النباتِ كأرضِ حَفَّهَا الشجرُ ؟
فعدتْ عما تشير الأغيبياءُ به فأىُّ فصلٍ لعود ما له ثمر ؟
وارحل ركابك عن ربيعِ ظمئتْ به إلى الجنبِ الذي يهيمُ به المطر
واستنزل الرميَّ من دَرِّ السحابِ فإنَّ بُلَّتْ يداكُ به فليهنك الظفرُ

القاضي الفاضل

المتوفى سنة ٦٩٥ هـ

نشأته وهيبته

ولد أبو علي عبد الرحيم البيسانى بمدينة عسقلان من بلاد فلسطين ، وأخذ العلم عن أبيه بهاء الدين على قاضى عسقلان . ثم ورد مصر فى أواخر الدولة الفاطمية ليتعلم الكتابة فى الديوان ، وذهب إلى الإسكندرية فدخل ديوان ابن حديد قاضيا . ومالبت أن ظهر فضله ودل عليه نبوغه ، فقدم القاهرة وكتب فى ديوان الظافر . ولما قامت الدولة الأيوبية استوزره صلاح الدين بن أيوب فساس ملكه خير سياسة . ثم وزر من بعده لولده العزيز ثم لأخيه الملك الأفضل . وتوفى سنة ٦٩٥ بالقاهرة .

صُورته فى الكتابة

كان من طبيعة منصب القاضى الفاضل أن يخالط الكتاب فى الأصقاع المختلفة ويقف على المذاهب الكتابية المتباينة فى الشام والعراق ومصر . فجزته المحاكاة والمفاضلة وقوة الشخصية إلى استحداث طريقة جديدة بناها على أصول طريقة ابن العميد ومازها بالإغراق فى التورية والجناس ، حتى أصبحت الكتابة فى عهده

كما ذكرنا من قبلُ طلاء خدِّ أعما من زخرف اللفظ على هيكل بالٍ من المعنى .
السقيم . بهرت هذه الطريقة العقيمة العيون السكيلة والقرايح الناضبة فافتناها
عُباد الصنعة من أشباه الكتّاب ، وورّطوا أنفسهم فيما لاغناء فيه ولا رجح منه .
وظل هذا المذهب غاشياً على العيون ، رائثاً على القلوب ، حتى عصرنا الحديث
فزال على التدريج بتأثير ابن خلدون وتقليد الآداب الفرنجية .

نموذج من كلامه

كتب هذه الرسالة إلى صلاح الدين يشفع لخطيب عيذاب في توليته خطابة
الكرك وهي :

أدام الله السلطان الملك الناصر وثبته ، وتقبلَ عمه بقبول صالح وأثبتته ،
وأخذ عدوه قائلًا أو بيته ، وأرغم أنفه بسيفه وكتبته .

خدمة المملوك هذه واردة على يد خطيب عيذاب . ولما نبا به المنزل عنها ،
وقلّ عليه المرفق منها ، وسمع هذه الفتوحات التي طبّق الأرض ذكرها ، ووجب
على أهلها شكرها ، هاجر من هجير عيذاب وملحها ، ساريًا في ليلة أملٍ كلها
نهارًا فلا يسأل عن صبحها . وقد رغب في خطابة الكرك وهو خطيب ، وتوسل
بالمملوك في هذا اللتمس وهو قريب ، ونزع من مصر إلى الشام وعن عيذاب
إلى الكرك وهذا عجيب . والفقر سائق عنيف ، والمذكور عائل ضعيف ،
ولطف الله بالخلق بوجود مولانا لطيف ، والسلام .

الفصل الرابع

الشعر وأثر السياسة والحضارة فيه

لقد كان أثر هذا الانتقال الاجتماعي في خواطر الشعراء أبلغ منه في نفوس الكتاب ؛ فإن أولئك بالخلفاء الصق ، ونفوسهم بالترف والمدنية أعاق . وهم المنادمون على الشراب ، والفاكهون في السمير . ضاق مضطربهم في السعي فأتسع متقلّبهم في الخيال ، وغلت أيديهم بالكسل عن العمل فاشتغلت أفئدتهم بالفكر وانطاعت أسنتهم بالقول . ولم يجدوا العيش ميسوراً بالتأليف لصعوبة النسخ والنشر ففرغوا لصوغ الشعر في ضروبه المختلفة . ووجدوا من الخلفاء والأمراء مؤازراً ، ومن الحضارة والطبيعة ناصراً ، ومن القرية والسليقة مؤاتاة ، فجالوا في الشعر جولة لم تتوفر أسبابها لأسلافهم ، ونقلوه من البوادي المجربة ، والأخيلية المظنّبة إلى الرياض الناضرة ، والقصور الشاهقة ، والمناظر الموقنة . على يد زعيم المولدين بشار .

ولقد عرضت لشعر عوارض أثرت في أسلوبه ومعانيه وأغراضه وأوزانه . فأما التأثير في أسلوبه ، فبهجر الكلمات القريبة ، وعذوبة التركيب ووضوحه ، واستحداث^(١) البديع والاستيكتار منه ، وترك الابتداء^(٢) بذكر الأطلال إلى

(١) ظهر البديع هل لقة في شعر مسلم بن الوليد ومن بعده حتى جاء أبو تمام فقصده إليه وابن المعتز فأفاض فيه .

(٢) أول من كسر هذا القيد مطيع بن إيس أو أبو نواس على الأرجح يدل على ذلك

مثل قوله : صفة الطاول بلافة القسدم فاجعل صفاتك لابنه السكرم
وقوله : يبكي على طلال الماضين من أسد لادر درك قل لي من بنو أسد
لاجنف دمر الذي يبكي على حجر ولاصفا قلب من يصبو إلى وتد
وقوله : يارب ، شفلك إن هناك في حقل لاناقي فيك لو تدرى ولا جلي

وصف القصور والعمور والغزل ، والإغراق في المدح والهجاء ، والإكثار من التشبيه والاستعارة ، والحرص على التناسب^(١) بين أجزاء القصيدة ، ومراعاة الترتيب في التركيب .

وأما في معانيه فبتوليد المعاني الحضرية ، واقتباس الأفكار الفلسفية ، إذ أكثر شعراء هذا العصر ولدان جنسيتين ، ورضاع لغتين وأديين . وربائب حضارتين مختلفتين . ولهذا اللقاح من الأثر في الفكر والعقل ما يملل لك وفرة المعاني الجديدة في شعر بشار وأبي نواس وأبي العتاهية وابن الرومي . ثم نقل العرب علوم اليونان وغيرهم فكان لهذا النقل فضل على الشعر في معانيه لاقى فنونه ، لأنهم لم يترجموا إلا كتب العلم والحكمة ، ولم يحفلوا بشعر اليونان وقصصهم ، ولا بشعر اللاتين وخطبهم ؛ تعصباً لأدبهم وإيثاراً لشعرهم ؛ فلم تؤثر الترجمة في الشعر إلا بما دخله من الخواطر الفلسفية والسياسية والآراء العلمية في شعر أبي تمام والمتنبي وأبي العلاء وأضرابهم .

وأما في أغراضه فبالبالغة في نعت الخمر ومجالسها ، ووصف الرياض والصيد ، وغزل المذكر ، والمجون ، والوعظ ، والزهد ، والأخلاق ، والفلسفة ، وضبط العلوم كالنحو وغيره .

وأما في أوزانه ، فبالإكثار من النظم في البحور القصيرة ، وابتداع أوزان أخرى ، كالمستطيل والممتد وهما عكس الطويل والمديد ، والموشح^(٢) والزجل ،

(١) جاء في زهر الآداب عن الحاتمي قوله : مثل القصيدة مثل الإنسان في اتصال بعض أعضائه ببعض ، فتح اتصال واحد من الآخر وبإينه في صحة التركيب غادر الجسم ذا طاعة تتغون عاصنه وتضيق معاملة . وقد وجدت حذاق المتقدمين وأرباب الصناعة من المحدثين يحتمسون في مثل هذه الحال حتى يقع الاتصال وتأت القصيدة في تناوب صدورها وأعجازها كالرسالة البليغة والخطبة الوجزة ... وهنا مذهب اختص به المحدثون لتوقد خواطرهم واطفأ أفكارهم...
(٢) أول من ابتدع لشعراء الموشح مقدم بن معافر من شعراء الأمير ابن عبد الله للرواني ، (وهم ينظموه أسباطاً أسباطاً ؛ وأفضاناً أفضاناً ، ويكثر من أعاريضها المختلفة ، ويسمون للمتعدد منها بيتاً واحداً . ويلتزمون قوافي تلك الأفضان وأوزانها متتالياً فيما بعد إلى آخر القطعة ، وأكثر ما انتهى عندهم إلى سبعة أبيات . ويشتمل كل بيت على أفضان =

والدوبيت^(١) والمواليا . وكذلك في الثقافية كالمُسمَط^(٢) والمزْدُوج .
ولما انفرط عقد الخلافة ، وتمددت حواضر الدولة ، باستقلال الولاية في فارس
والشام ومصر والمغرب ، وجد الشعر في غير بغداد ملاذاً وحيى ؛ فانتقل إلى تلك
الأمصار فصادف من أمثال بنى بويه وآل حمدان أ كفاً سمحة ، وصدوراً رحيبة ،
وربوعاً خصبة ، فازداد ابتكاراً وانتشاراً وكثرة . ولنظرة عَجَلِي في فهرس اليتيمة
للشعالي^(٣) تكفيك لتعلم أثر ذلك التشعب السياسي في نهضة الشعر ، إذ كان
الأمراء يتقيلون الخلفاء في تقريب الشعراء وتعزيب الأدباء ، والشعر والعلم كالأيت

عندهما بحسب الأغراض وللذاهب . ثم نسج أهل الأمصار على منوال الموشح ، ونظموا مثله =
بلمتهم الحضرية من غير التزام إهراب ، وسموا هذا النوع بالزجل . وأول من أبدعه أبو بكر
ابن قزمان الأندلسي ...) أنظر مقدمة ابن خلدون .
(١) الدوبيت : مأخوذ من الفارسية بدليل اسمه وسمى بذلك لأنه ينظم بيتين بيتين ،
(ودو بالفارسية اثنان) وهو مشهور عند الفرس بالرباعي ووزنه : فعلن متفاعلن فعلن
فعلن كقول بعضهم :

قد أفسم من أحبه بالبارى أن يبعث طيفه مع الأسحار
يانار أشواقى به فانقدى ليلاً ففساه يهندي بالنار
أما المواليا فأول من نظمه بعض صنائع البرامكة بعد نكبتهم . فكانوا ينوحون عليهم
به ويكثر من قولهم (ياموالى) فعرف بهذا الاسم وهو مشهور بين عامة مصر .
(٢) المسمط هو أن يبتدىء الشاعر ببيت مصرح ثم يأتي بأربعة أقصمة على غير لافيته ،
ثم يعيد قسماً على قافية البيت الأول . وربما خلا من البيت المصرح وكان على أقل من أربعة
أقصمة كقول القائل .

غزال هاج لي شجنأ فبت مكابداً حزناً حميد القلب مرتهنأ بذكر اللهو والطرب
أما المزدوج فهو أن يؤتى بشطرين من قافية ، ثم بأخرين من أخرى ، كقول أبي العتاهية
حسبك مما تبتفيه القوت ما أكثر القوت لمن يموت
إن الشباب حجة النصابى روائح الجنة في الشباب

(٣) هو أبو منصور عبد الملك بن محمد بن إسماعيل الثمالي ولد بني ساجور وهكف على
تحصيل العلم والأدب حتى انتهت إليه الزعامة فيها ، وهو خاتمة المرسلين في العصر العباسي
وأكثر الأدباء آثاراً وأغزرهم مادة . وهو يجرى على طريقة ابن العميد في المنثر والشعر .
وله مؤلفات كثيرة في الأدب ، أهمها بقية الدهر ، وهي أربع مجلدات جمع فيها مختار المنثور
والمنظوم لأدباء عصره مع ذكر تراجمهم ، وكتاب فقه اللغة في دلائق الألفاظ المترادفة ، وكتاب
سر العربية ، وسحر البلاغة ، ومن غاب عنه المطرب . وتوفي سنة ٤٢٩ .

لا يزهوان إلا في ظل ملك أو أمير^(١) .

وما زال الشعر على حاله من العناية بالألفاظ ، والإصابة للاغراض ، والافتنان في المعنى ، حتى تجرّم القرن الخامس للهجرة ، فذهب معه جمال الشعر العربي من الشرق ، وقد تأثيره في النفوس ، لذهاب المعصدين له من بنى بويه ، وقلة الراغبين فيه من آل سلجوق^(٢) ، واستشعار النفوس لذل الغلبة والقهر بتوالي الفتن والحزن ، فانصرفت الخواطر إلى التصوف والأدعية ، وعيّت القرأح عن التوليد والابتداع ، فجلا الشعراء معاني الأقدمين في حلل مهلهلة النسيج مُنَمَّعة الوشئ ، وأخذوا يتعلمون بالبديع ، ويملّون في المجاز والكفائية ، ويقلدون العجم في إغراقهم ومهاواتهم الملوك^(٣) والأمراء ، ولا سيما المتأخرون منهم ، حتى أصبح غرض الشعر عندهم إنما هو الكذب والاستجداء فقالوا : « أعذب الشعر أ كذبه » . ثم كان مآل الشعر في هذا العصر كما آل الذرف فيه سواء بسواء .

(١) قال أسامة بن معقل : كان السفاح راغباً في الخطب والرسائل يصطنع أهلها وينبئهم عليها ، غففت ألب رسالة وألب خطبة طلباً للخطوة عنده فنلتها . وكان المنصور بعده معنيا بالأخبار والأخبار وأيام العرب يدنى أهلها ويجزيهم عليها ، فلم يبق شيء من الأخبار والأخبار إلا حفظته طلباً لقرية منه فظفرت بها . وكان موسى مفرماً بالشعر يستغص أهله ، فاتركت بيتاً نادراً فآخرأ ، ولاشمرأ ولا نسيباً سائرأ إلا حفظته . وأعاني على ذلك طلب الهمة في هو الحال . ولم أر شيئاً أدهى إلى تعلم الأدب من رغبة الملوك في أهلها وصلاتهم هاها ، ثم زهد هرون في هذه الأريمة فأاسيتها حتى كآني لم أحفظ حنبا شيئاً .

(٢) أسرة من الترك تنسب إلى جدما سلجوق . تألبوا على الدولة العباسية وهي في انحلالها ونهايتها فاستولوا على ملكها واستقلوا به استقلالا فعليا سنة ٤٤٧ هـ .

(٣) تشجيع الخلفاء والأمراء للشعراء بالجوائز والعطايا كان له ضرر في خفض الشعر كما كان له نفع في رفعة ؛ وذلك لأن الشعراء الذين ما كانوا يجدون السبيل إلى الرزق إلا بالخطوة لدى الملوك والأمراء ، اضطروا إلى قول الشعر وإن لم تدفعهم شهوة إلى قوله . فكدوا الضامر وأجهدوا الطبع ؛ لجأوا بالشعر الكاذب للتسكف ، ونزلوا عن استقلالهم الشخصي وهو أرفع محاسن النفس إلى حضيض التملق الدنيء والنفاق السافل . ذلك أن الطمع في صلات السكبراء دفع كثيراً من ضعفاء السابفة في الشعر إلى قرضه فأنوا منه بالحفير التافه ، وكان ذلك من الأسباب التي ساعدت على انحطاطه .

وأنت إذا أخذت الشعر العربي كله بنظرة واحدة فعرضت تاريخه كما تعرض
تاريخ السكان الحى وجدته قد تطور في موضوعه تطور الأمة العربية ، وقطع معها
مراحل الحياة الإنسانية ؛ فهو في الجاهلية أنغام صبي ، وحماسة فتوة وعواطف
أثرة ، وفي الإسلام أناشيد جهاد ، وثوران عصبية ، وأطماع حياة . ثم استبحار
شبابه واكتمل في صدر الدولة العباسية ، فظفر في شعر بشار وأبي نواس
وأضرابهما عبث شباب ، وأغانى طرب ، ومظاهر ترف . ثم عض على نواجذ
الحلم واكتهل في أوساطها فبدأ في شعر ابن الرومي وأبي تمام والمتنبي وأمثالهم
دروس تجربة ، ونتائج حكمة ، وخواطر فلسفة . ثم أدركه الهرم في أواخرها فظفر
في شعر المتأخرين تمويه صنعة ، وخرف شيخوخة ، ومعالجة روح . أما ولادته
وطفولته فلم يدركهما التاريخ ولم يدخلها في علمه .

نماذج من الشعر العباسي

الحماسة

قال أبو فراس الحمداني :

| | |
|---------------------------|---------------------------|
| ولما ثار سيف الدين مُرنا | كما هيجت آساداً غضابا |
| أسنته إذا لاقى طمانا | صوارمه إذا لاقى ضرابا |
| دحانا والأسنة مُشرعاتُ | فكنا عند دعوته الجوابا |
| صنائع فاق صانعها ففاقت | وعرس طاب غارسه فطابا |
| وكنا كالسهام إذا أصابت | صرامها فرامها أصابا |
| فلما اشتدت الهيجاء كنا | أشدَّ مخالباً وأحدَّ نابا |
| وأمنع جانباً وأعزَّ جاراً | وأوفى ذمة وأقلَّ عابا |
| إذا ما أرسل الأسماء جيشاً | إلى الأعداء أرسلنا ككتابا |

وقال أبو الطيب المتنبي :

عش عزيزاً أو مُتْ وَأنت كريمٌ
بين طمن القفا وخفق البنود

خرءوس الرماح أذهب للغيـ ظ وأشقى لغل صدر لخرقود
لا كما قد حبيت غير حميد وإذا مت مت غير فقيد
فاطلب العز في لظى ودع النذل (م) ولو كان في جنان الخلود

المرح

قال أبو تمام :

بمهدى بن أصرم عاد عودي إلى إيراقة وامتد باعى
سعى فاستنزل الشرف اقتساراً ولولا السعى لم تكن المساعى
ونعمة مُعتف يرجوه أحلى على أذنيه من نغم السماع
جعلت الجود لألاء للساعى وهل شمس تكون بلا شعاع؟
ولم يحفظ مضاع الجهد شىء من الأشياء كالمال المضاع
ولو صورت نفسك لم تزدها على ما فيك من كرم الطباع

وقال المتنبي :

قوم بلوغ الغلام عندهم طمن نحر الكمأة لا الحلم
كأنما يولد الندى معهم لا صفر عاذر ولا هرم
إذا تولوا عداوة كشفوا وإن تولوا صنيعة كتموا
تظن من كثرة اعتذارهم أنهم أنعموا وما علموا
إن برقوا فالخوف حاضرة أو نطقوا فالصواب والحكم
تشرق أعراضهم وأوجهم كأنها في نفوسهم شيم
أعيدكم من صروف دهركم فإنه في الصكرام متهم

وقال ابن الرومي .

كان مواهبه في المحسو ل آراؤه عند ضيق الحيل
فلو كان غيتاً لم البلاد ولو كان سيفاً لكان الأجل
ولو كان يعطى على قدره لأغنى النفوس وأفى الأمل

السراء

قال الحسين بن مطير يرثى معن بن زائدة :

ألمّا على معن وقولاً لقبره سقتك الفوادي مرّ بعا ثم مرّ بعا
فيا قبر معن أنت أول حفرة من الأرض خُطت للسماحة مضجعا
ويا قبر معن كيف واريت جوده وقد كان منه البر والبحر متراعا
بلى قدوسمت الجود والجود ميمت ولو كان حيا ضقت حتى تصدعا
فتى عيش في معروفه بعد موته كما كان بعد السيل تجراه مرّعا
ولامضى معن مضى الجود وانقضى وأصبح عرّنين الكارم أجدعا

وقال محمد بن عبد الملك الزيات يرثى زوجته :

ألا من رأى الطفل للفارق أمه بعيد الكرى عيناه تنسكبان ؟
رأى كل أم وابنها غير أمه يببتان تحت الليل يفتحيان
وبات وحيدا في الفراش يحنه بلابل قلب دائم الخفقة-ان
فلا تلحياني إن بكيت فإنما أداوى بهذا الدمع ما تريان
فهبني عزمت الصبر عنها لأنني جليد ، فمن بالصبر لابن ثمان ؟
ضعيف القوى لا يطلب الأجر حسبة ولا يأتسى بالناس في الحدّان
فلم أر كالأقدار كيف تصيبني ولا مثل هذا الدهر كيف رمان
أعيني إن لم تسعدا اليوم عبرتي فبئس إذن ما في غد تعدانى

وقال المتنبى يرثى أخت سيف الدولة :

طوى الجزيرة حتى جاءني خبر فرزت فيه بآمالى إلى السكذب
حتى إذا لم يدع لي صدقه أملا شرقت بالدمع حتى كاد يشرق بي

السرءاء

قال مسلم بن الوليد .

أما السراء فدق عرضك دونه والملاح عنك كما علعت جليل
فأذهب فأنت طليق عرضك إنه عرض عززت به وأنت ذليل

وقال أبو تمام :

كم نعمة لله كانت عنده فكأنها في غربة وإسار
كسيت سباب لؤمه فتضاءلت كتضاؤل الحساء في الأطمار
وقال ابن الرومي :

يَهْتَرُ عَيْسَى عَلَى نَفْسِهِ وليس بيباق ولا خالد
فَلَوْ يَسْتَطِيعُ لِتَقْتِيرِهِ تنفس من منخر واحد

وقال المتنبي في كافور الإخشيدي :

أَكَلَا اغْتَالَ عَبْدُ السُّوءِ سَيِّدَةَ أو خانة فله في مصر تمهيد ؟
صَارَ الْخَصِيُّ إِمَامَ الْآبِقِينَ بِهَا فالحر مستعبد والعبد معبود !
نَامَتِ نَوَاطِيرُ مِصْرَ عَنْ ثَعَالِبِهَا حتى بشمن وما تغنى المناقيد
العَبْدُ لَيْسَ لِحَرْ صَالِحٍ بِأَخٍ لو أنه في ثياب الحر مولود
لَا تَشْتَرِ الْعَبْدَ إِلَّا وَالْمِصْرَ مَعَهُ إن العبيد لأنجاس مناكيد
مَنْ عِلْمُ الْأَسْوَدِ الْخَصِيُّ مَكْرُمَةٌ؟ أقومه البيض أم آباؤه الصيْدُ؟
أَمْ أذْنُهُ فِي يَدِ الْخِطَّاسِ دَامِيَةٌ أم قدره وهو بالفاسين مردود ؟
وَذَاكَ أَنْ الْفَحُولَ الْبَيْضَ عَاجِزَةٌ عن الجميل فكيف الخصية السود ؟
وقال ابن لئلك :

وعصبة لما توسطتهم صارت على الأرض كالثمام
كأنهم من سـ — — — وه أفهامهم لم يخرجوا بعد إلى العالم
يضحك إبليسُ سروراً بهم لأنهم عارٌّ على آدم

الوصف

قال البحترى من قصيدته في وصف إيوان كسرى :

صنّت نفسي عما يدسّ نفسي وترفعت عن جدّا كل جيبس
وتماسكت حين رزع عنى الله رُ التماساً منه لتعسى ونكسى
بلغت من صباية العيش عندي طعفتها الأيام تطيف بخس

وكان الزمان أصبح محمو
 واشترأى العراق خُطة غبنٍ
 ولقد رابنى نبو ابن عمي
 وإذا ما جُفيت كنت حريباً
 حضرت رجلي المموم فوجه
 أنسلي عن الحظوظ وآسي
 ذكرتهم الخطوب التوالى
 وهم خافضون في ظل عال
 مُغلق بابهُ على جبل القيد-
 حلال لم تكن كأطلال سُدَى
 ومساع لولا الحُجابه منى
 نقل الدهر عهدهن عن الج
 فكان الجرماز من عدم الآن-
 لو تراء علمت أن الليالى
 وهو ينيك عن عجائب قوم
 وإذا ما رأيت صورة أنطا
 والمنايا موائل وأنو شر
 وعراك الرجال بين يديه
 من مشيح يهوى بعامل رمح
 تصف العين أنهم جدُّ أحياء
 يفتلى فيهم ارتياجى حتى
 قد سقانى ولم يُصرِّد أبو النو
 من مُدام تقولما هي نجم
 وراها إذا أجدت سروراً

لا هواه مع الأخص الأخص
 بعد بيى الشأم بيعة وكس
 بعد اين من جانبيه وأنس
 أن أرى غير مُصبح حيث أمسى
 ت إلى أبيض المدائن عَنسى
 لجل من آل ساسان دَرَس
 ولقد تُذكر الخطوب وتُنسى
 مشرف يُحسُرُ العيون ويحسى
 ق إلى دارتى خِلاط ومكس
 في قفار من البسابس مُلس
 لم تطعها مَسْماة عنس وعبس
 دة حتى غدون أنضاء لُبس
 س وإخلاقه بَدِيَّة رمس
 جعلت فيه مآتماً بعد عرس
 لا يُشاب البيان فيهم بلبس
 كية ارتعت بين روم وفرس
 وان يزجى الصفوف تحت الدرّفس
 في خفوت منهم وإغماض جرس
 ومُليح من السنان بترس
 ء لهم بينهم إشارة خرس
 تتقراهم يدي بلبس
 ث على العسكرين شربة خلس
 أضواً الليل أو مُجاجة شمس
 وارتياحاً للشارب المعصى

أفرغت في الزجاج من كل قلب
وتوهت أن كسرى أبرزه
حلم مطبق على الشك عيني
وكان الإيوان من عجب الصن
يتظنى من الكتابة إن يب
مرعجاً بالفراق عن أنس ألف
عكست حظه الليالي وبات أ
فهو يبدي تجلداً وعليه
لم يعينه أن بز من بسط اليد
شمخيراً تملو له شرفات
لابسات من البياض فأتب
ليس بذرى أصنع إنس لجن
غير أى أراه يشهد أن لم
فكأنى أرى المراتب والقو
وكان الوفود ضاحين حسرى
وكان القيان وسط المقاصد
وكان اللقاء أول من أم
خمرت للسرور دهرأ فصارت
فلها أن أعينها بدموع
ذاك عندي وليست الدار دارى
غير نعى لأهلها عند أهلى
أيدوا ملكنا وشدوا قواه
وأعانوا على كتاب أربا
وأراني من بعد أكلف بالأه

فهى محبوبه إلى كل نفس
ز معاطى والبليهد أنسى
أم أمان غيرن ظنى وحدسى
مة جوب في جنب أرعن جاس
د لعيني مصيح أو ممسى
عز أو مرهفاً بتظليق عرس
مشتري فيه وهو كوكب نحس
كلكل من كلال كل الدهر مرسى
باج واستل من ستور الدمقس
رفعت في رهوس رضوى وقُدس
صر منها إلا غلائل برس
سكنوه أم صنع جن لإنس
يك بانيه في الملوك ينكس
م إذا ما بلغت آخر حسى
من وقوف خلف الزحام وخنس
ر يرجمن بين حو ولمس
س ووشك الفراق أول أمس
للمزى رباعهم والتأسى
موقفات على الصباة حبس
بأقرب منها ولا الجنس جنسى
غرسوا من زكاتها خير غرس
بكاة تحت الستور خمس
ط بطعن على النحور ودعس
راف طراً من كل سينخ وأس

وقائت إحدى شواعر الأندلس تصف وادى آش :

وقانا لفحةً الرمضاء واد سقاه مضاعف ألفيث العميم
حللنا دوحه فحنا علينا حفو المرضعات على الفطيم
وأرشفنا على ظمأ زلالا الذ من المدامة للمديم
تروع حصاه حالية العذارى فتمس جانب العقد العظيم
يصد الشمس أنى واجهتنا فيحجبها ويأذن للنسيم

الحكم والامثال

قال بشار بن برد :

إذا كنت في كل الأمور معاتباً صديقك لم تلق الذى لا تعاتبه
فميش واحداً أوصل أخاك فإنه مقارف ذنب مرة ومجانبه
إذا أنت لم تشرب مراراً على القذى ظمئت، وأى الناس تصفو مشاربه
وقال مسلم بن الوليد :

حسبى بما أبدت الأيام تجربةً سعى على بكأسيتها الجديدان
دلت على عيبها الدنيا وصدقها ما استرجع الدهر مما كان أعطاني
ما كنت أدخر الشكوى لحادثة حتى ابتلى الدهر أسرارى فأشكاني
وقال أبو العتاهية :

الصمت أجمل بالفتى من منطلق فى غير حيينه
لا خير فى حشو الكلام م إذ اهتديت إلى عيونه
كل امرىء فى نفسه أعلى وأشرف من قرينه
وقال أبو تمام :

من لى بإنسان إذا أغضبته وجهت كان الحلم ردُّ جوابه
وإذا طربت إلى المدام شربت من أخلاقه وسكرت من آدابه
وتراه يصنى للحديث بقلبه وبسمه ولعله أدرى به ا

وقال البحتري :

وَبَرْتُ الْقَوْمَ ثُمَّ ظَنَنْتُ فِيهِمْ ظَنُونًا لَسْتُ فِيهَا بِالْحَكِيمِ
فَمَا خُرِقُ السَّفِيهِ وَإِنْ تَمَدَّى بِأَبْلَغِ فَيْكَ مِنْ حَقْدِ الْحَلِيمِ
مَتَى أَحْرَجْتَ ذَا كَرَمٍ تَحْطَى إِلَيْكَ بِيَعُضِ أَخْلَاقِ اللَّثِيمِ

وقال ابن الرومي :

عَدُوكَ مِنْ صَدِيقِكَ مُسْتَفَادٍ فَلَا تَسْتَكْثِرَنَّ مِنَ الصَّحَابِ
فَإِنَّ الدَّاءَ أَكْثَرَ مَا تَرَاهُ يَحْوِلُ مِنَ الطَّعَامِ أَوْ الشَّرَابِ
وَمَا اللَّجْبُجُ لِلْمَلَاخِ بِمُرَوَّاتٍ وَتَلْقَى الرَّيَّ فِي النَّطْفِ الْعَذَابِ

وقال المتنبي :

إِنَّا لِنَى زَمَنِ تَرَكَ التَّقْبِيحَ بِهِ مِنْ أَكْثَرِ النَّاسِ إِحْسَانَ وَإِجْمَالَ
لَوْلَا الْمَشَقَّةُ سَادَ النَّاسَ كَلْهَمُ الْجُودِ يَفْقَرُ وَالْأَقْدَامُ قِتَالَ
وَإِنَّمَا يَبْلُغُ الْإِنْسَانَ طَاقَتَهُ مَا كُلُّ مَاشِيَةٍ بِالرَّحْلِ شِمَالِ
ذَكَرَ الْفَتَى عَمْرَةَ الثَّانِي ، وَحَاجَتَهُ مَا قَاتَهُ ، وَفَضُولَ الْعَيْشِ أَشْمَالِ

الاعتذار والوسعطف

قال علي بن الجهم يعتذر للمتوكل :

عَفَا اللَّهُ عَنْكَ أَلَا حَرَمَةٌ تَجُودُ بِعَفْوِكَ أَنْ أَبْعِدَا
لَئِنْ جَلَّ ذَنْبٌ وَلَمْ أَعْتَمِدْ لِأَنْتَ أَجَلٌ وَأَعْلَى يَدَا
أَلَمْ تَرِ عِبْدًا عَادَا طَوْرَهُ وَمَوْلَى عَفَا وَرَشِيدًا هَدَى ؟
وَمُفْسِدٌ أَمْرٌ تَلَا فَيْتَهُ فَمَعَادُ فَاصْلِحْ مَا أَفْسَدَا
أَقْلَبْتُ أَقَالَكَ مَنْ لَمْ يَزَلْ يَقِيمُكَ وَيَصْرِفُ عَنْكَ الرَّدَى

وقال البحتري :

فَدَيْنَاكَ مِنْ أَى خُطْبِ عَرَى وَنَائِبَةِ أَوْشَكْتَ أَنْ تَنُوبَا

وإن كان رأيك قد حال فيّ
أكذبُ نفسي بأن قد سخطت
ولو لم تكن ساخطاً لم أكن
أصبح وريدي في ساحتك
وما كان سخطك إلا الفراق
ولو كنت أعرف ذنباً لما كا
سأصبرُ حتى ألقى رضا
أراقبُ رأيك حتى يصحَّ

وأوليتني بعد بشر قطوبا
وما كنت أعهد ظني كذوبا
أذم الزمان وأشكو الخطوبا
طرقاً ومرعأى محلاً جديبا
أفاض الدموع وأشجى القلوبا
نَ خالجنى الشكَّ فى أن أتوبا
كَ إمَّا بَعِيداً وَإِمَّا قَرِيباً
وأنظر عطفك حتى يشوبا

وقال سعيد بن حميد :

لم آت ذنباً ، فإن زعمت بأن
قد تطرف الكفُّ عين صاحبها

أتيت ذنباً ، ففبر مُعتمد
فلا يرى قطعها من الرشد

ومن قصيدة المتنبي يستعطف بها سيف الدولة لبني كلاب بعد أن ظفروهم؟

طلبتهم على الأمواء حتى
يهز الجيش حولك بجانبيه
وكيف يتم بأسك في أناس
ترفق أبها المولى عليهم
ولأنهم عبيدك حيث كانوا
وعين الخطئين هم وليسوا
وما جهلت أياديك البوادي
وكم ذنب مؤلده دلال
وجرم جرهُ سفهاء قوم

تخوف أن تفنشه السحاب
كما نفضت جناحها العقاب
تصيبهم فيؤلمك المصاب ؟
فإن الرفق بالجاني عتاب
إذا تدعو لحادثة أجابوا
بأول معشر خطئوا فتأبوا
ولكن ربما خفي الصواب
وكم بعد مؤلده اقتراب
وحل بغير جارمه العقاب

الفصل الخامس

الشعراء المولدون

كان الشاعر في الجاهلية لسان دفاع ، وخامى ذمار ، ومسجل محامد ؛
وفي الدولة الأموية كان داعية دين ، ودعامة ملك ، وناشر مذهب ، ومؤيد فرقة ؛
وفي الدولة العباسية كان نديم خليفة ، وسير أمير ، وأليف كأس ، وصرير غانية .
وكان أكثر شعراء بغداد في صدر هذا العصر من الموالى الذين أطاعوا العرب
كرها ، واعتقدوا الإسلام رياء ، فهاجموا الأخلاق بالخلاعة والمجون ، وأذاعوا
في الناس الزندقة والشك ، ولكنهم أذاعوا كذلك الآراء الحرة ، والمعاني
المبتكرة ، والأخيلة البديعة ، والأوصاف الدقيقة ، والمذاهب الجديدة ، والعقريات
المأثورة ، كطبيع بن إلياس ، وحماد مجرد . وحسين بن الضحاك ، وبشار بن برد ،
ووالبة بن الحباب ، وأبي نواس ، ومسلم بن الوليد ، وأبان بن عبد الحميد ، وأبي
العتاهية ، وأبي دلامة ، ومروان بن أبي حفصة ، وعباس بن الأحنف ، وهلى
ابن الجهم ، ودعبل الخزاعي ، والعسكوك .

شعراء بغداد

بشار بن برد

المتوفى سنة ١٦٧

نسأته ومبائه

هو بشار بن برد بن رجوخ العقيلي بالولاء كنيته أبو معاذولة المرعث
لأنه كان في أذنيه رُعثة ، « والرُعثة القرط » . أصل أبيه من فرس طخارستان

من سبي المهذب بن أبي صفرة ، وهبه لامرأة من بنى عقيل فتزوجته ونسب إليها . ولد بشار بالبصرة ونشأ في بنى عقيل مولعاً بالاختلاف إلى الأعراب المحييين ببادية البصرة ، حتى شب فصيح اللسان صحيح البيان من الاسكنة والخطأ ، ولذا كان آخر من يحتج الفحاة بشعرهم من الشعراء . فلما بلغ مبلغ الرجال انتجع الخلفاء والأمراء بالمدح ، وكاد يعيش في ظلال الشعر وادع النفس رغد العيش لولا تمديه بالهجاء ، وتعرضه للنساء ، وهتكه ستر الحشمة ، حتى نغم الناس ذلك منه ، وتمنوا موته صوتاً للمذارى وغيره على الخدرات . قال مالك بن دينار . « ما شيء أذعى لأهل هذه المدينة إلى الفسق من أشعار هذا الأعمى الملحد » ، ودخل فريق من الغُير على المهدي فأسمعوه قصيدة من غزله ، فقال : « بمثل هذا الشعر تميل القلوب ويلين الصعب » وأمر به ، فلما جاء قال له : « والله لئن قلت بعد هذا بيتاً واحداً في تشييب لآتين على روحك » ، فكان بشار بعد ذلك إذ أراد الغزل ذكر أن الخليفة منعه من كيت وكيت ويزكر ما يريد من اللهو وحديث النساء .

ولما توقع بشار وتهتك ، ولم يردعه تهديد المهدي له ، ولا زراية الناس عليه ، سعى به ثانية إلى الخليفة ورأى عنده بكل نقيصة . وصادف ذلك أن بشار أمدح المهدي فلم يجزه لميله عنه وتميره عنيه ، فهجاه بأبيات منها .

بنى أمية هُجُوا طال نومكم إن الخليفة يعقوب بن داود
ضاعت خلافتكم يا قوم فالتسوا خليفة الله بين الزق والعود
وبلغ الخليفة ذلك ، فدعا صاحب شرطته وأمره أن يضربه بالسوط ، فضر به

حتى مات سنة ١٦٧ ، وقد أوفى على السبعين

صفته وأخلاقه

ولد بشار أكمةً فما رأى الدنيا قط . على أنه كان يشبه الأشياء بعضها ببعض في شعره فيأتي بما لا يقدر عليه البصراء ، كقوله :

كأن منار النقع فوق رءوسنا وأسيافنا ليل تهوى كواكبها

وكان ضخم الجنة ، مفرط الطول ، مجدور الوجه ، جاحظ الحدقتين ، قد
تفشاها لحم أحمر ؛ فكان أفتح الناس عَمَى وأفظمهم منظراً . قالت له امرأة
ذات يوم : لا أدري لِمَ يهابك الناس مع قبح صورتك ؟ فأجابها : ليس
من حسنه يهاب الأسد . ودخل عليه أحد الأدباء يوماً وهو نائم في دهنيزه كأنه
جاموس ، فقال له : يا أبا معاذ ، من القائل :

إن في بُردى حسماً ناحلاً لو توكت عليه لانهم دم

قال : أنا . قال : من القائل أيضاً :

في حُلتي جسم فتى ناحل لو هبت الريح به طاحا

قال : أنا قال : فما حملك على هذا الكذب ؟ والله إنى لأرى أن لو بعث الله

الرياح التي أهلك بها الأمم الخالية ما حركتك من موضعك ا

وكان بشار متوقد الذكاء ، حاضر الجواب ، صادق الحس ، بذيء اللسان ،
كثير المجون ، مغموز الدين ، يؤمن بالرجمة ويصوب رأى إبليس في تقديم النار
على الطين وإبائه للسيجود لآدم في مثل قوله :

الأرض مظلمة والنار مشرقة والقار معبودة مذ كانت القار

وكان إذا أراد الإنشاد صفق بيديه وتنحنح وبصق يميناً وشمالاً ثم يشد ا

شعره

قال بشار الشعر وهو ابن عشر سنين ، فما بلغ الحلم إلا وهو طائر الصيد فيه .
وقد أدرك جريراً وجاه وقال : مجوت جريراً فاستصغرنى وأعرض عني ، ولو
رد على لكنت أشعر للناس . وأول ما تكلم فيه من أنواع الشعر الهجاء لأن
سوقه كانت نافقة أيام ولد . وطرق كل باب من أبواب الشعر التي فتحت قبله ثم

زاد عليها. ورواة الشعر ونقدته متفقون على أنه زعم طبقة المولدين^(١) ، وأسبقهم إلى الجون البذى والنزل الرقيق ، وأول من جمع شعره بين جزالة البدو ورقة الحضر ، وأن شعره هو الحد الأوسط بين الشعر القديم والحديث . فهو في المولدين كأمريء القيس في الجاهليين ، والبارودي في المحدثين ، وكان الأصمعي يشبهه بالأعشى والنابغة لسلامة شعره من الخلل وخلوه من الحوشى والتعقيد. وقد شهد له الجاحظ بالتبريز في سائر مناحى القول وفنون الكلام فقال: « كان بشار خطيباً صاحب منظوم ومنثور ومزدوج وسجع ورسائل . وهو من المطبوعين أصحاب الإبداع والاختراع المتفنين في الشعر ، القائلين في أكثر أجناسه وضرابه ». ولسلامة شعر بشار وطلاوته أولع به شبان البصرة وخلعواؤها ، وافتن به نساؤها ؛ فسكن يذهبن إليه ، وينعمن بحديثه ، ويتغنن بشعره . فهوى جارية مسهن تسمى عبدة ، شهرها بشعره حتى صار له معها أخبار طائفة وأشعار سائرة .

عيوب شعره

لا يتسنى لباحث أن يعرف ما ينتقد به عليه ؛ لأن شعره لم يدون فذهب به الزمان ، ولم يبق من اثني عشر ألف قصيدة إلا قطع مختارة منتثرة في الكتب^(٢) وكل ما يعلم من عيوبه خروجه في شعره عن الحد المألوف من الجون ، وتسكيله القافية إذا أعوزته بألفاظ لاحقيقة لها ، وتبذله في شعره أحياناً فيميل عن الشعر الجزل إلى الركيك السهل كقوله في جاريته :

ربابة ربة البيت تصب الخلل في الزيت

لها عشر دجاجات وديك حسن الصوت

(١) المولدون أو المحدثون هم الشعراء الذين فسدت فيهم ملكة اللسان فمالجوها بالصناعة كشعراء العصر العباسي . ويميزهم في شعرهم توليد الماني ، ودقة الأفراس ، ورقة الألفاظ وجمال الصنعة ، لأنهم أقل من سابقهم أسرا وفحولة ، وأكثر صنفاً وكلفة .
(٢) اختار له (الخالديان) طائفة حسنة من شعره ثم شرحها تحت عنوان (المختار من شعر بشار) وقد طبع بالقاهرة سنة ١٩٣٥ م .

وقوله :

إن سلمى خلقت من قصب قصب السكر لا عظم الجمل
وإذا أدنيت منها بصلا غلب المسك على ریح البصل
ولكنه كان يعتذر عن مثل الأول بأن له حالا تقتضيه ، وعن مثل الثاني
بأنه قاله في صباه .

نموذج من شعره

من قوله في الغزل :

يزهدني في حب عبدة معشر قلوبهم فيها مخالفة قلبي
فقلت دعوا قلبي وما اختاروا رضى فبالقلب لا بالعين يبضردو الحب

وقوله :

يا قوم أذنى لبعض الحى عاشقة والأذن تمشق قبل العين أحيانا
قالوا بمن لا ترى تهذى ؟ فقلت لهم الأذن كالعين توفى القاب ما كانا

وقوله :

لم يطل ليلي ولكن لم أنم ونفى عنى السكرى طيف ألم
نفسى يا عبد عنى واعلمى أننى يا عبداً من لحم ودم
إن فى بردى جيسا ناحلا لو توكأت عليه لانهدم
ومن أبياته السائرة قوله :

هل تعلمين وراء الحب منزلة تدنى إليك ، فإن الحب أقصانى

وقوله :

أنا والله أشتهى سحر عينيـ ك وأخشى مصارع العشاق

وقال وهو يدل على اعتقاده بالجبر :

طبعتم على ما فى غير نخبير هواى ، ولو خبرت كنت المهذبا
أريد فلا أعطى ، وأعطى ولم أورد وقصر على أن أنال المغنيا

ومن قوله في الوصف والحماسة :
إذا الملكُ الجبارُ صرَّ خدَّهُ
مَشِينًا إليه بالسيوف نعاتبه
وأرْعَنَ يغشى الشمسَ لَوْنُ جديده
وتَحَبَّسُ أبصارَ الكفاةِ كتائبه
تفصُّ به الأرضُ الفضاءَ إذا غدا
تزاحمُ أركانَ الجبالِ منَّا كبه
ركبنا له جَهْرًا بكلِّ مثقف
وأبيض تستسقى الدِّماءُ مضاربه
كأن مَنارَ النقعِ فوق رءوسنا
وأسيافنا ليل تهاوى كواكبها

أبو العتاهية

١٣٠ - ٢١١ هـ

نَسَائِهِ وَهَيَاتِهِ

هو إسماعيل بن القاسم بن سويد وكنيته أبو إسحاق ولقبه أبو العتاهية. ولد
بمدين التمر قرية بالحجاز ونشأ في الكوفة على صناعة أهله ، وكانوا باعة جِرَار .
فجعل يصطنعها ويحملها في قفص على ظهره متنقلا في شوارع الكوفة يبيعهما .
إلا أنه مع ذلك كان ولوعاً بالقريض ، نزوعاً إلى الأدب ، يقول الشعر على
سجيته من غير أن يجهد نفسه فيه . وربما حدث ببعض الحديث فيأتي موزوناً
مقفى فيظنه الناس نثراً وهو شعر . ومنشأ ذلك تمكن الشاعرية منه ورسوخها فيه ،
حتى إنه كان يقول عن نفسه « لو شئت أن أجعل كلامي كله شعراً لفعلت » .
ومما يؤيد أن الشعر كان فيه سليقة لاصناعة ، أنه كان يجمل العروض جملاً
تاماً ؛ وله أوزان لاتدخل فيه ، ولا تجرى في مجاريه . ولما سمع به متأدبو الكوفة
وفتيانها كانوا يذهبون إليه في مصنعه ويستنشدونه فينشدهم أشعاره ، فيأخذون
ما تكسر من الخزف فيكتبونها فيه . وهكذا بدأ أبو العتاهية يصنع الشعر في أتونه
خزفاً ، ثم مال بث أن صنعه درا تقلدته الأمراء والكبراء ، وجرى ذكره مجرى
المثل ، فانتقل الخزاف من بين الطين والماء ، إلى مجالس الشعراء ودواوين الخلفاء .

وفد إلى بغداد حاضرة العلم والأدب في أول خلافة المهدي ومدحه فحظي لديه واختلط ببعض جواريه فعشق منهن جارية تسمى عتبة ، أكثر فيها الغزل حتى هم المهدي أن يهبها إياه لولا ضراعتها وكراهتها له . فألهاه عن ذكرها بالمال الكثير ، فكان يأخذ المال ولا يفتر عن ذكرها في شعره حتى في مدائح له^(١) . وكل ذلك كما قيل تصنع وتخلق ليذكر بذلك . فلما توفي المهدي واستخلف الهادي ، تغيرت أخلاق الشاعر فلما عن ذكر عتبة ، وأخذ في التزهيد والتخشن ، وأقبل على درس مذاهب المتكلمين وبعض الفرق ، فكان يأخذ بكل وقتا ثم ينصرف عنه إذا سمع طاعناً عليه . ولم يأت عصر الرشيد حتى أضرب عن الغزل وقصر قوله على التزهيد في الدنيا والتذكير بالموت . ثم عرضت له حال امتنع فيها عن قول الشعر ألبتة . فأرغمه الرشيد عليه فأبى ، فضر به ستين عصا وسجنه ولم يطلقه حتى رجع إلى قول الشعر . وكان بعد ذلك لا يفارقه في حضر ولا سفر ، وأجرى عليه وظيفة مقدارها خمسون ألف درهم غير الجوائز منه ومن أمرائه . واتصلت شهرته بالآفاق وتغنى بشعره المغنون وتناجى به الزهاد وسائر الناس على اختلاف طبقاتهم ، وعنى العلماء والرواة بجمع شعره ، ولم تنزل تلك حالة مدة الرشيد والأمين وأكثر أيام المأمون حتى مات سنة ٢١١ .

صفته وأخلاقه

كان أبو العتاهية أبيض اللون أسود الشعر له وفرة جعدة وهيئة حسنة . وكان لبق اللسان مذبذب الرأي مفسكاً ممثلاً العقيدة لاضطرابه في الآراء وتلونه في التلجج ، مقتراً على نفسه وأهله مع وفرة ماله وحسن حاله . وكان بعض الناس ينسبه إلى إنكار البعث محتجاً بأن شعره إنما هو في ذكر الموت والنفاد دون ذكر النشور والمعاد . وعلى الجملة فالندارس لحياة الرجل يراه مضطرب المزاج غريب الأخلاق مذبذباً في نسبه وحببه وعلمه وعقيدته .

(١) زهر الآداب ص ٢٠٠ .

شعره

كان هذا الشاعر غزير البحر ، لطيف المعاني ، سهل الألفاظ ، كثير الافتتان قليل التكلف ، إلا أن شعره كثير الساقط المرذول . وأجوده ما قاله في الزهد والأمثال . ولقد قال الأصمعي : « إن شعر أبي العتاهية كساحة الملوك ، يقع فيها الجواهر والذهب والتراب والنوى » وذلك حق ؛ لأنه كان يرسل الشعر لإرسالا على المبدئية من غير تعمل ولا تفتيح . على أنه في الطبقة الأولى من المولدين كبشار وأبي نواس ، وهذا كان يفضل على نفسه . ويمتاز أبو العتاهية بقلّة تكلفه وسهولة ألفاظه حتى كادت تخرج إلى حدّ الابتذال . وحبته في ذلك أنه يرى إلى العظة والزهد فينبغي أن يكون شعره مفهومًا لدى الناس على السواء . وهو الذي نهج للشعراء مناهج الزهد والعظات فاقتفوا أثره فيها . ولقد طرق أبواب الشعر فأجاد ، إلا أن تفوقه ونبوغه إنما هو في الحكم وضرب الأمثال . وله أرجوزة جمعت أكثر من أربعة آلاف مثل . أما غزله فخيره ما قاله في عتبة . وأحسن مدائح ما قاله في المهدي والرشيد . ولقد صان لسانه عن الهجاء إلا ما كان بينه وبين عبد الله بن معن ، فإنه قال فيه من غير فحش ولا هجاء :

فصغ ما كنت حليت به سيفك خلخـالا
وما تصنع بالسيف إذا لم تكُ قتالا ؟
ولو مدّ إلى أذنيـه كفيه لما نالا
أرسي قونمك أبطالاً وقد أصبحت بطلا

درر صدره

من قوله في الغزل :

عيني على عتبة منبهة
بدمعها المنسكب السائل

أخرجها اليم إلى الساحل
سواحراً أقبلن من بابل
ماذا تردون على السائل ؟
قولاً جميلاً بدل النائل
حُشاشة في بدنٍ ناحِل
من شدة الوجد على القاتل!

وكلّ غصن جديد فيهما بالي ؟
كم بدم موتك أيضاً عنك من سالي !
من لذّة العيش يحكي لمعة الآل
ماشدت من عبر فيها وأمثال
أو لا ، فما حيلة فيهٍ لختال

ومن قوله للرشيده وقد سجنه لإضرابه عن الغزل :

وما كنت توليني لملك تذكر
ووجهك من ماء البشاشة يقطر
إلى بها في سالف الدهر تنظر

ولو تسترت بالأبواب والحرس
لكلّ مدرع مناً وميترس
إن السفينة لا تجرى على اليبس

فكلّم بصيرُ إلى ذهاب
أتيت وما تميف وما تحابي
كما هجم المشيب على الشباب

كأنها من حسنها درّة
كان في فيها وفي طرفها
بسطت كفي نحوكم سائلًا
إن لم تنيلوه فقولوا له
لم يُبق مني حبها ما خلا
يا من رأى قبلي قتيلًا بكى
وقال للمهدى وقد توفيت ابنته :

ما للجديدين لا يبلى اختلافهما
يا من سلا عن حبيب بعد ميته
كأنّ كلّ نعيم أنت ذائقه
لا تلعبن بك الدنيا وأنت ترى
ما حيلة الموت إلا كلّ سالحة

تذكر أمين الله حتى وحرمتي
لياليّ تدنى منك بالقرب مجلسي
فمن لي بالهين التي كنت مرّة
ومن قوله يعظ الرشيد :

لا تأمن الموت في طرف ولا نفس
واعلم بأن سهام الموت قاصدة
ترجو النجاة ولم تسلك مسالكها
وقال :

لدوا للموت وابنوا للحرب
الآ ياموت لم أر منك بدءًا
كانك قد هجمت على مشيبي

أبو نواس

١٤٥ - ١٩٩ هـ

نشأته وحياته

هو الحسين بن هانيء بن عبد الأول الحكمي . يكنى بأبي نواس لأن خلفا الأحرار كان له ولاء باليمن ، وكان من أميل الناس إلى أبي نواس فقال له : أنت من أشرف اليمن فتكنّ بأسماء الذوين (وهم الملوك الذين تبتدأ أسماؤهم بذو) ثم أحصى أسماءهم فقال : ذو جدن وذو وزن وذو نواس . فاختر ذانواس فكاناه بها ، فغلبت على كنيته الأولى وهي أبو علي . ولد بقرية من قرى الأهواز ونقل إلى البصرة ونشأ بها . ثم انتقل إلى بغداد وتوفي فيها . كان أبوه من جند مروان ابن محمد آخر خلفاء بني أمية . ولما توفي لم يجد أبو نواس من يعوله ، فالتجأ إلى عطار يشتغل عنده . ولما كان مولعاً بالعلم مشغولاً بالأشعار والأخبار ، فكان كثيراً ما يفتش أندية العلماء ، ويحضر حوار الشعراء ، ويترنم بالنظم . وقد سمع بذكر والبة بن الحباب وشهرته في الشعر فكان يود لو يتصل به ليأخذ عنه . فانفق أن مر والبة هذا بالمطار الذي كان يعمل عنده أبو نواس فتوسم فيه اللدكاء والفضة وتوقد الدهن . فقال له إني أرى فيك مخايل أرى ألا تضعيها ، وستقول الشعر فاصحبي آخر جك ، فقال له ومن أنت ؟ قال : أنا والبة بن الحباب . فقال له . نعم أنا والله في طلبك ، ولقد أردت الخروج إلى الكوفة لآخذ عنك . فسار أبو نواس معه ، وقدم بغداد وقد أربى على الثلاثين ، وهناك صحب الشعراء ودرس على العلماء حتى أصبح من أشعر أهل عصره وأغزرهم علماً وأنبههم اسماً . وتأدى

خبره إلى الرشيد فأذن له في مدحه فمدحه واتصل به ونفق^(١) عنده . وبلغ من دالة أبي نواس عليه أنه كان يمر به بنو هاشم والقوآد والكتاب فيحيونه وهو متسكىء ممدود الرجل فلا يتحرك لأحد منهم . وكان يقصد عمال الولايات فيمدحهم ومن هؤلاء الخصيب عامل مصر ، فقد مدحه بقصائد رواها عنه المصريون دون العراقيين . ثم انقطع بعد ذلك إلى محمد الأمين فنادمه ومدحه ، وثبت عنده ما يوجب سجنه فسجنه مدة ، ولم يلبث بعد إطلاقه أن مات سنة ١٦٩ ببغداد .

صفاته وأهله

كان أبو نواس جميل الصورة ، خفيف الروح ، حلو الحديث ، حاضر البديهة فصيح اللسان ، مدمنا للخمر ، كثير الهزل والمجون ، جامعا لأشتات الصفات التي يجب أن تكون في القديم ، مستخفا بأموال الدين . وله مع الشعراء مناقضات كثيرة . ونوادره المجونية مجموعة في كتاب خاص غير ديوانه طبع منه جزؤه الأول في القاهرة ؛ إلا أن أكثر هذه النوادر وتلك الأشعار المجونية مدسوس عليه ، لأن جل أشعاره في ذكر الله ووصف الخمر وما يتبع ذلك ، وليس هذا مذهب المعاصرين له ولا المتأخرين عنه ، فألحق الناس بشعره كل ما وجدوه من جنسه ولم يعرفوا قائله . وأكثر أخباره مع جاربية شاعرة تسمى جنان قد هويها وكلف بها .

ضربته في الشعر

كان أبو نواس ضليعا في اللغة راويا للشعر والأخبار ، حتى قيل إنه لم يقل الشعر إلا بعد أن حفظ شعر ستين امرأة خلاف الرجال . وقد قال فيه الجاحظ ما رأيت أحدا كان أعلم باللغة من أبي نواس ولا أفصح لهجة منه مع حلوة

(١) قالوا إنما حصل على مكانته عند الرشيد لأنه كان يبكر إليه فيسأل خواصه القصص عما جرى له مع الجوارى ، ثم ينشده أشعاراً تطابق ذلك .

ومجانبة استكراه . ولج أبواب الشعر كلها ، إلا أنه امتاز من كل الشعراء بنعش مجونه ، وصراحة قوله ، وصدقه في تصوير خليقته وبيئته ، ووصفه الخمر وصفاً « لو سمعه الحسانان ^(١) لهاجرا إليها وعكفا عليها » وأقل شعره مدائح ، وأكثرها في الرشيد وولده الأمين . ويعد أبو نواس ثانياً بشار في منزعه لفظاً ومعنى ، وكثيراً ما ضرب على وتره ، حتى قال الجاحظ : « بشار وأبو نواس معناهما واحد والعبدان اثنتان : بشار حل من الطبع بحيث لم يتسكف قولاً ولا تعب في عمل شعر ، وأبو نواس حل من الطبع بحيث يصل شعره إلى القلب بغير إذن .»

وكان أبو نواس مشهوراً بالتنقيح ، يعمل القصيدة ويتركها ليلتها ثم ينظر فيها فيحذف أكثرها ويقتصر على الجيد منها ، ولهذا قصر أكثر قصائده . وهو على رفته ومجونه جزل الألفاظ ، نغم الأسلوب ، كثير الغريب ولقد ابتدع في الشعر أشياء أنكرها عليه العقلاء ، وأخذها عنه الشعراء ، كاستهتاره في الفجور ، واسترساله في المجون ، ونقله الغزل من أوصاف المؤنث إلى أوصاف المذكر . ولا ريب أن هذه الطريقة التي شرعها هذا الشاعر الماجن كانت جنافية على الأدب ، ووصمة في تاريخ شعر العرب .

درس من قصائده

قال في الخمر :

مازالت أستلُّ رُوحَ الدِّنِّ في لَطْفٍ وأستقي دَمَهُ من جوفِ مجروحِ
حتى انثيت ولي روحان في جسدي والدِّنُّ منطرحِ جسماً بلا روحِ
وقال أيضاً :

مُعْتَمَّةٌ صاغَ المزاجُ لرأسها أكاليلَ دِرِّ ما لمنظومها سلاكِ
جرت حركات الدهر فوق سكونها فذابت كذوب التبر أخلصه السبكِ

(١) الحسن البصري وابن سيرين .

وقد خفيت من لطفها فكأنها بقايا يقين كاد يذهبها الشك
وقال في وصف شاربها :

ومستطيل على الصهباء باكرها في فنية باصطباح الراح حذاق
فكل شيء رآه ظنه قدحاً وكل شخص رآه ظنه الساق
وقال في وصف الكأس :

ودار نداهى عطلوها وأدلجوا بها أثرٌ منهم جديدٌ ودارس
مساحب من جرّ الزقاق على الثرى وأضغاثُ رِيحانٍ جنيٍّ ويابس
حبست بها صحنى فجددتُ عهدهم وإني على أمثال تلك الحابس
تدارُ علينا الراحُ في عسجديةٍ حببها بألوان التصاوير فارس
قرارتها كسرى ، وفي جنباتها مهماً تدرّيها بالقسى الفوارس
فلاخمر مازرت عليه جيوبها وللعاء ما دارت عليه القلانس
وقال في عاقبة الجهالة :

ولقد نهزتُ مع الغواة بدلوهم وأسمتُ سرح اللهو حيث أساموا
وبلغت ما بلغ امرؤٌ بشبابه فإذا عُصارة كلِّ ذلك أئامُ
وقال في مدح الخصيب أمير مصر :

تقول التي من يديها خفٌ حملى عزيز علينا أن نراك تسير
أما دون مصر للنفى متطلبٌ بلى إنَّ أسباب النفى لكثير
فقلت لها واستعجلتها بوادى جرت فجرى في إثرهنّ عبرُ
دعيني أكثر حاسديك برحلة إلى بلد فيه الخصيب أمير
فتى يشتري حسن الثناء بماله ويعلم أن الدائرات تدور
فما جازه جود ولا حل دونه ولكن يسير الجود حيث يسير
وقال في وصف الدنيا :

ألا كل حى هالك وابن هالك وذو نسب في الهالكين عريق

إذا امتحن الدنيا ليبي^١ تكشفت له عن عدو^٢ في ثياب صديق
ومن أبياته التي يتمثل بها :
قوله :

لا أذود الطيرَ عن شجرٍ قد بلوتُ المرَّ من ثمره
وقوله :

ليس على الله بمسئسكِر أن يجمع العالم في واحد
وقوله :

صار جدا ما مزحت به رُبَّ جد ساقه اللعب

ابن الرومي

٢٢١ - ٢٨٤ هـ

نَسْأَةُ وَصِيَانَةٍ^(١)

أبو الحسن علي بن العباس بن جرجيس مولى عبید الله بن علي رومي الأصل ولد ببغداد وفيها نشأ وتأدب حتى شعر ونبغ . ثم قضى حياته كأكثر الشعراء في انتجاع السراة والولاية . وقد حمل الناس بلسانه على بره وتكبرته ، إمارغبة وإما رهبة .

كان ابن الرومي شرهاً كما يظهر من غضون شعره . وله أشعار كثيرة في الطعام والشراب . وكان شديد الطيرة يغلو فيها ويحتج لها ويقول : إن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب الفأل ويكره الطيرة ، وأنه مر برجل وهو يرّحل ناقه له ويقول : (ياملعونة) ، فقال لا يصحبنا ملعون . وأن علياً رضي الله عنه كان لا يفزو غزاة والقر في العقرب . وكان يزعم أن الطيرة موجودة في الطباع ، وهي

(١) حياة ابن الرومي لا تزال سراً مكتوماً في ضمير الزمان فلم يترجم به أحد ترجده وافية . وقد ذكر الأستاذ كلبيان هيار (Cl Hart) أن أبا عثمان شهيد الخادمي من علماء سيف الدولة كتب ترجمته مفصلة ، ولكن أين هي ؟

في بعضهم أظهر ، وأن الأكثر في الناس إذا لقي ما يكرهه قال : على وجه من
أصبحت اليوم ؟ قال على بن المسيب : « دخل علينا ابن الرومي يوم مهرجان
سنة ٢٧٨ وقد أهدى إلى عدة من الجوارى القيان ؛ وكانت فيهن صبية حولاء
وعجوز في إحدى عينيها نكتة . فتطير من ذلك ولم يظهر لى أمره ، وأقام باقى
يومه لا يخرج . فلما كان بعد مدة يسيرة سقطت ابنتى من بعض السطوح ، وجفاه
القاسم ابن عبيد الله فجعل القينتين سبب ذلك وكتب إلى يقول :

أيها المتحفي بحول وعُور أين كانت عفاك الوجوه الحسان ؟
قد لعمري ركبت أمراً مهيناً ساءنى فيك أيها الخُلصان
فتحك المهرجان بالحوال والعو ر أرانا ما أعقب المهرجان
كان من ذاك فقدك ابنتك الحرّة مصبوغةً بها الأكامان
وتجاف مؤتمل لى جليل لِح فيه الجفاء والمجران
قف إذا طيرة تلمتلك وانظر واستمع ثمّ ما يقول الزمان
خبر الله أن مشامة كانت لقوم وخبر القرآن

وبلغ من تطير ابن الرومي أنه كان يقيم الأيام لا يخرج من داره إذا قرعت
أذنه صبيحة اليوم كلمة سيئة . وله فى ذلك أخبار غريبة مع الأخفش . وكان هذا
الشاعر فاحش الهجوم شديد حتى خشيه الكبراء والوزراء لذلك . وكان أبو الحسن
القاسم بن عبيد الله وزير المعتضد لا يفتأ حذراً منه خائفاً من هجائه ، ولا يكاد
يصدق أنه يسلم من لسانه . وكان هذا الوزير شريفاً سفاكاً للدماء ، فلدس عليه
من سمه فى أكلة وهو حاضر . فلما أحس ابن الرومي بالسم قام ، فقال له الوزير :
لى أين ؟ فقال لى الموضوع الذى بعثت بى إليه ! فقال له سلم على والدى . فقال
ليس طريقى على النار . ولحق بمنزله فأقام به أياماً . وكان الطبيب يتردد عليه فزعم
أنه غلط فى بعض العقاقير ، فقال وقد سأله نفظويه النعوى وهو يجود بنفسه :
غلط الطبيب على غلطة مؤرد عجزت موارده عن الإصدار

والناس يَلْحَوْنَ الطيب وإنما غلط الطيب إصابة الأقدار

شعره

كان في الناس من يعير ابن الرومي جنسيته ، وينتقص لأجلها شاعريته ؛
كما يؤخذ من قوله :

كم عائب كل شيء وكل ما فيه عيب
قد تحسن الروم شعراً ما أحسنه العريبُ
يامنكر الجسد فيهم أليس منهم صهيب ؟^(١)

ولسكن هذه الجنسية كان لها الأثر الأظهر والفضل الأكبر في نبوغه، فإنه جمع إلى تعمق الآريين في الفكر ، تفوق الساميين في الخيال ؛ وضم إلى دقة الروم في التصوُّر ، قوة العرب في التصوير . فامتاز بتوليد المعنى واستقصائه حتى لا يترك فيه بقية لغيره . ومن ثم طالت قصائده من غير تكرير ولا سقط . ولعلنا رأينا شاعراً يسلم على الطول وتتساوى أجزاء قصيدته في الحسن والقوة . ولا بن الرومي براعة نادرة في وصف الشيء وتشبيهه ، وقدرة غريبة على العتاب والهجاء ، لما كان يمتنى به من جفاء الأصدقاء ، وإعراض الكبراء ، لحدة طبعه وضيق خلقه . وهو في منزلة أبي تمام والبحترى ، وربما فضلهما أحياناً ؛ لأنه قال في كل فنون الشعر المعروفة (وزاد عليها زيادة لو وزعت على عشرة شعراء لأحاطهم منازل الفحول) .

على أنه يسفُّ أحياناً فيطلب صحة المعنى ولا يبالي حيث وقع من هُجْنة اللفظ وخشونته . ولو أنه نشأ نشأة عبد الله بن المعتز لما كان له معه ذكر في باب التشبيه والملح ؛ فإن ابن الرومي أعلى كعباً منه في الشعر ، ولسكن علمه بالمشبهات دون علم الملوك وقد قال له بعض معاصريه يلومه لم لا تشبه كتشبهيات ابن المعتز ؟

(١) صهيب بن سنان بن مالك الرومي صحابي جليل ، وهو أول من أسلم من الروم .

فقال له : أنشدني من قوله الذي استعجزتني عن مثله . فأنشده قوله في الهلال :
أنظر إليه كزورق من فضة قد أنقلته حمولة من عنبر ؟
فقال له زدني . فأنشده قوله في الأذريون ، وهو زهر أصفر في وسطه نخل أسود :
كَأَنَّ أَذْرِيونَهُـا غِبَّ سَمَاءِ هَامِيَةٍ
مِـدَاهِنٌ مِّنْ ذَهَبٍ فِيهَا بَقَايَا غَالِيَةٍ

فصاح واغوثاه الا يكلف الله نفساً إلا وسعها . ذاك إنما يصف ماعون بيته
لأنه ابن خليفة ، وأنا أى شيء أصف ؟ ولكن انظر إذا وصفت ما عرف أين يقع
قولى من الناس . فهل لأحد قط مثل قولى في قوس النعام :

وقد نشرت أيدي الجنوب مطارفا من الجود كفاً والحواشي على الأرض
يطرزها قوس السحاب بأخضر على أحرر في أصفر إثر مبيض
كأذيال خودٍ أقبلت في غلائل مُصَبَّغَةٌ والبعض أقصر من بعض
وقولى في صانع الرقاق :

ما أنس لا أنس خبازاً مررت به يدحو الرقاقة مثل المصح للبصر
ما بين رؤيتها في كفه كرهة وبين رؤيتها قوراء كالقمر
إلا بمقدار ما تنسحاح دائرة في لجة الماء يلقي فيه بالحجر

نموذج من شعره

من قوله ، وقال ما سبقني أحد إلى هذا المعنى .

آراؤكم ووجهكم وسيوفكم في الحادثات إذا دجّون نجوم
منها معالم للهدى ، ومصباح تجلو الدجى ، والأخريات رجوم
ومن معانيه المخترعة قوله :

وإذا امرؤ مدح امرأ لنواله وأطال فيه فقد أراد هجاءه
لوم يقدر فيه بُعد المستقى عند الورود لما أطال رشاءه
وكان هو يطيل .

وقوله :

توددتُ حتى لم أجدُ متودداً
كأني أستدني بك ابن حنيفة^(١)
وأفنت أقالمي عتاباً مُردداً
إذا النزع أدناه من الصدر أبعدا

ومن بدائع قوله في الشباب :

رأيتُ سواد الرأس واللهم تحته
فلما اضمحل الليل زال نعيمه
كليل وحلم بات رائيه ينعم
فلم يبقَ إلا عهده المتوهم

وقوله من قصيدة يصف الشمس في الأصيل :

وقد رنقت شمس الأصيل ونفّضت
وودعت الدنيا لتتقضى نجبها
على الأفق الغربيّ ورساً مزعزعا
وشوّل باقي عمرها فنشمعها
ولاحظت النّوار وهي مريضة
كما لاحظت عوآده عينُ مدنف
وظلّت عيون النّور تحضلُ بالندى
يراعينها صوّراً إليها روانيا
وقد وضعت خدّاً إلى الأرض أضرعا
توجّع من أوصابه ما توجعا
كما اغرورفت عين الشجى لتدعما
ويلحظن الحافظاً من الشجو خُشعاً
كأنهما خلاّ صفاء تودعا
من الشمس فاخضرا خضراً مشعشعا
وغنى مغنى الطير فيه وسجعا
كما حشّحت النشوان صندجاً مشرعاً
على شدوات الطير ضرباً موقعا

(١) ابن حنيفة كناية عن القوس .

ابن المعتز

٢٤٩ — ٢٩٦

نشأته وحياته

هو أمير المؤمنين أبو العباس عبد الله بن الخليفة المعتز ، ولد في بيت الملك وموئل الخلافة ، وربى في باحة النعيم وموطن الجلالة ، فنشأ نبيل النفس دقيق الحس ، قوى الشعور بالجمال ، ولوعاً بالأدب والموسيقى . تأدب على شيوخ الأدب في عصره كالمبرد وثعلب ، وشارك في أكثر العلوم العقلية والعقلية ، وشغله الأدب والطرب واللعب عن دسائس القصر ومطامع الخلافة فكان كما وصف نفسه .

قليل هموم القلب إلا للذة ينعم نفساً آذنت بالتنقل
فإن تطلبه تقتنصه بحانة وإلا بيستان وكرم مظلل
ولست تراه سائلاً عن خليفة ولا قائلاً من يعزلون ومن بلى
ولا صائحاً كالعير في يوم لذة يناظر في تفضيل عثمان أو على

إلا أن جماعة من شيعته لما رأوا ضعف المقتدر واستبداد المالك وسوء سياستهم خلعوه وبايعوا ابن المعتز فما تبوأ العرش إلا يوماً وليلة ، لأن أنصار المقتدر لم يشاءوا التسليم راضين . فتجزبوا وحاربوا أعوان ابن المعتز فشتتوهم ، وأعادوا المقتدر إلى دسته . واختفى الخليفة الشاعر في دار الجصاص الجوهري ، فتحموا عليه الدار واعتقلوه . ودفعه المقتدر إلى مؤنس الخادم فخنقه وسلمه إلى أهله ملفوفاً في كساء .

شعره

لنشأة ابن المعتز أثر ظاهر في شعره . فهو رقيق اللفظ ، سهل العبارة ، صافي الأسلوب ، لركة طبعه وسهولة خلقه ، وصفاء خاطره . وهو بليغ الاستعارة

رائع التشبيه ، دقيق الوصف ، لدقة حسه ، ولطف شعوره ، وامتلاء ذهنه بروائع الجمال وبدائع الخيال ورونق الحضارة . وكان يقول الشعر لإرضاء لنفسه وتصويراً لحسه ، فبريء من كذب المدح ولؤم الهجاء ، وانصرف إلى وصف الطبيعة ومجالس الأنس ومطاردة الصيد ومراسلة الإخوان . وله ولمع بالبدیع في حسن صوغ وقلة تكلف . ونثره لا يقل عن شعره في نقاء الأسلوب وجودة اللفظ ودقة التخيل .

مؤلفاته

لابن الممتز كتاب البديع^(١) ، وهو أول مصنف في هذا الفن ، جمع فيه سبعة عشر نوعاً منه . وكتاب مكاتبات الإخوان بالشعر ، وكتاب الجوارح والصيد ، وكتاب أشعار الملوك ، وكتاب طبقات الشعراء ، وكتاب الزهر والرياح ، وتصانيف أخرى أغلبها مفقود . وقد طبع ديوانه بالقاهرة في جزأين .

نموذج من شعره

كن جاهلاً أو فتجاهلْ تفرَّ
للجهل في ذا الدهر جاء عريض
والعقل محروم يرى ما يرى
كأ ترى الوارث عين المريض
وقال :

أقتلا هي بصرف عفار
واتركا الدهر فما شاء كانا
إن المكروه لدعة هم
فإذا دام على المرء هانا
وقال :

ونسيم يبشر الأرض بالقط
ر كذيل الغلالة المبلول
ووجوه البلاد تنتظر الغيب
ث انتظار الحب رجع لرسول
وقال :

أعاذلّ قد كبرت على العتاب
وقد ضحك المشيب على الشباب

(١) نشره عام ١٩٣٥ الأستاذ أغناطيوس كراتشوفسكي المتشرف الروسي وقد صدره
ببحث باللغة الإنجليزية عن الكتاب والنسخة التي نقل عنها ، وذيله بترجمة لابن الممتز بأن فيها
من أمر الكتاب في الأدب العربي .

رددت إلى التقي نفسي فقرت
وقال في مقبرة :

وسكان دار لاتزاور بينهم
كأن خواتياً من الطين فوقهم
وقال :

كم حاسد حنق على بلا
متضاحك نحوى كما ضحكت
وقال :

انظر إلى حُسن هلال بدا
كنجبل قد صيغ من فضة
وقال :

قلبي وثاب إلى ذا وذا
يهيم بالحسن كما ينبغى
وقال :

من لى بقلب صيغ من صخرة
جرحت خديه بلحظى فسا
وقال :

ولقد قضت نفسي مآربها
ونهار شيب الرأس يوقظ من
وقال :

وإني على إشفاق عيني من البكا
كما حللت عن ماء برد طريدة
وقال أيضاً وإشارته إلى الديك :

كما رُدَّ الحسامُ إلى القِراب

على قرب بعض في المحلّة من بعض
فليس لهم حتى القيامة من فضّ

جرمٍ فلم يضررني الحنقُ
نار الذبالة وهي تحترق

يهتك من أنواره الحنديسا
يحصد من زهر الدجى نرجسا

ليس يرى شيئاً فيأباه
ويرحم القُبْحَ فيهواه

في جسد من لؤلؤ رطبٍ
برحت حتى اقتص من قلبي

وقضيتُ غياً مرة ورشدُ
قد كان في ليل الشباب رقد

لتجرح منى نظرة ثم أطرق
تمد إليه جيدها وهي تفرق

صفق إما ارتياحة لسفأ الفج سر وإما على الدجى أسفا
ويقال إن له هذا الموشع المشهور، ولا ندرى إن كان ابتدعه أم اتبع
فيه الأندلسيين :

أيها الساقى إليك المشتكى ا قد دعوناك وإن لم تسمع

ونديم همت فى غرته
وبشرب الرّاح من راحته
كلما استيقظ من سكرته
جذب الكأس إليه واتكى وسقانى أربعا فى أربع

مالعنى عشيت بالنظر ا
أنكرت بعدك ضوء القمر
وإذا ماشئت ، فاسمع خبرى :
عشيت عيناى من طول البكا وبكى بعضى على بعضى معى ا

غصن بان مال من حيث التوى
مات من يهواه من فرط الجوى
خفق الأحشاء موهون القوى
كلما فكر فى البين بكى ويحهُ ا يبكى لما لم يقع ا

ليس لى صبر، ولا لى جلد
ياقومى عدلوا واجتهدوا ا
أنكروا شكواى مما أجد
مثل حالى حقه أن يشتكى ؟ كد اليأس وذل الطمع ا

كبد حرّى ، ودمع يكفُ
يذرف الدمع ولا يندرف
أيها المعرض عما أصف !
قد نما حبي بقلبي وزكا لا تقل في الحبّ إني مدعى

الشريف الرضى

٣٥٩ — ٤٠٤ هـ

نسأته ومبائه

وُلِدَ أبو الحسن محمد بن الحسين الموسوى ببغداد ، ونشأ في حجر والده ،
وَدَرَسَ العلم في طفولته ؛ فبرَع في الفقه والفرائض ؛ وفاق في العلم والأدب ،
وقال الشعر وعمره لا يزيد على عشر سنين . فلما بلغ التاسعة والعشرين من عمره
خلف أباه في نقابة الطالبين سنة ٣٨٨ هـ ، ثم ضمت إليه مع النقابة سائر الأعمال
التي كان يليها أبوه ، وهي النظر في المظالم والحج بالناس .

وبقى في هذه الأعمال حيناً من الدهر حتى تغير عليه الخليفة القادر لآتهامه
عنده بالميل إلى العلويين الفاطميين بمصرفه عنها ، فعاش عيش القانع الشريف
حتى قبضه الله إليه في المحرم من سنة ٤٠٤ هـ ودفن بداره في الكوخ .

صفته وأهله

كان الشريف أبي النفس على الهمة ، سمّت به عزيمته إلى معالي الأمور
فلم يجد من الأيام معيها عليها وكان عفيفاً لم يقبل من أحد صلة ولا جائزة ؛
حتى بلغ من تشده في العفة أن رد ما كان جارياً على أبيه من صلوات الملوك
والأمراء ، واجتهد بتوبويه أن يحملوه على قبول صلواتهم فما استطاعوا .

شعره

نهج الرضى فى شعره منهج الأقدمين من الشعراء فى جزالة اللفظ ونخامة المعنى . وشعره أشبه بشعر البحترى^(١) إلا أنه غلب فى الفخر والحماة ، وتنزه عن عبث الوليد ومجونه . قال الثعالبي : « وهو أشعر الطالبيين من مضى منهم ومن غبر على كثرة شعوائهم المفلتين . ولو قلت إنه أشعر قریش لم أبعده عن الصدق » ثم قال بعد ذلك : « ولست أدرى فى شعراء العصر أحسن تصرفاً فى المراثى منه » . وكان على مكانته فى الشعر راسخ القدم فى الكتابة ، بعيد الشأو فى الترسل . ولو كان حقاً ما يقال من أن له يداً فى نهج البلاغة لما تردد منصف فى الحكم بأنه أكتب الكتاب فى العربية ؛ لأن نهج البلاغة هو فى المحل الثانى من كتاب الله وحديث رسوله بلاغة وبيانا :

مؤلفاته

ألف هذا الشاعر فى معانى القرآن كتابا يدل على تضلعه فى النحو واللغة وأصول الدين ، وكتابا آخر فى مجازات القرآن . وله مجموعة رسائل وديوان شعر ؛ ثم كتاب نهج البلاغة وهو ما جمعه من كلام أمير المؤمنين على بن أبى طالب . ومن الناس من يميل إلى أن أكثر هذا الكتاب من صنع الشريف ؛ لما فيه من التعرض للصعابة بالأذى والهجر ، ولأن ما فيه من فلسفة الأخلاق ، وقواعد الاجتماع ، ودقة الوصف ، وتكلف الصنعة ، ليس فى إمكان ذلك المصر ولا فى طبعه . والظاهر أن الشريف جمع كل ما نسب إلى الإمام وفيه الصحيح والمشوب .

(١) نجد مثالا لذلك إذا وازنت بين قصيدة الشريف فى مدح الفادر بالله وبين قصيدة البحترى فى مدح الماتوكل وقد أتينا فى ترجمة كل منهما بقائمة من قصيدته .

نموذج من شعره

قال من قصيدة له في مدح القادر بالله واستعطافه وقد رسم فيها خطى البحترى
في مدح المتوكل :

لله يومٌ اطلعتك به العسلا علماً يزاول بالعيون ويرشقُ
لما سمت بك عزة مومسوقة كالشمس تبهر بالضياء وتومق
وبرزت في بُرد النبي وللهدى نوراً على أسرار وجهك مشرق
وكان دارك جنةً حصابؤها الجا دىً أو أنماطها الاستبرق
في موقف تغضى العيون جلالةً فيه ويعثر بالكلام المنطق
وكانما فوق السرير وقد سما أسدً على نشآت غاب مطرق
والناس إما راجع متهيب مما رأى ، أو طالع متشوق
مالوا إليك محبة فتجمعوا ورأوا عليك مهابة فتفرقوا
وطعنت في غرر الكلام بفيصل لا يستقل به السمان الأزرق
وغرست في حب القلوب مودة تزكو على مرّ الزمان وتورق
وأنا القريب إليك فيه ودونه ليدى عدوك طود عز أعطق
عطفاً أمير المؤمنين فإننا في دوحة العلياء لا تتفرق
ما بيننا يوم الفخار تفلوت أبداً ، كلانا في المعالي معرق
إلا الخلافة ميزتك فإننى أنا عاطل منها وأنت مطوق

الطغرائى

المتوفى سنة ٥١٣ هـ

نشأته وحياته

هو العميد أبو إسماعيل الحسين بن علي المعروف بالطغرائى نسبة إلى مهنته أول
حياته . فقد كان يكتب الطغراء (الطرة) في أعلى الكتب بخط خاص فيها نعوت

السلطان وألقابه . وُلد بأصبهان من أسرة فارسية ثم تقلب في ظل آل سلجوق حتى وُزر للسلطان مسعود السلجوق بالموصل ، وصار ينعت بالأستاذ ويلقب بالمشي . فلما نشبت الحرب بين السلطان مسعود وبين أخيه السلطان محمود بالقرب من همدان وكانت النصره لثانئهما أخذ الطفرأى أسيراً ، ثم أغراه وزيره نظام الدين بقتله ، ومالآه عليه بعض حسدته من رؤوس الكتاب فرماه عنده بالإلحاد فقتل ظمأ سنة ٥١٣ .

شعره

شعر الطفرأى عامر الأبيات ، متين القافية ، مختار اللفظ ، يغلب فيه الفخر والحكمة . ونثره من طبقة شعره في إحكام الصنعة وحصانة الأسلوب . وله ديوان شعر كبير أكرهه في مدح السلطان سميد بن ملك شاه ونظام الملك . وخير ما فيه قصيدته اللامية المشهورة بلامية المعجم ، وهي من عيون الشعر ومختاره . قالها ببغداد يندب الزمان ويشكو الإخوان أثناء عطلة له من العمل . وقد أفردها العلماء بالشروح ما بين كبير وصغير . قال في مطلعها :

أصالة الرأي صانفتني عن الخطل وحلية الفضل زانفتني لدى العطل
مجدى أخيراً ومجدى أولاً شرعٌ والشمس رأد الضحى كالشمس في الطفّل
ومنها :

حب السلامة يثني همّ صاحبه عن المعالي ويفرى المرء بالسكسل
فإن جنحت إليه فاتخذ نفقاً في الأرض أو سلماً في الجو فاعتزل
ودع غمار الملا للمقدمين على ركوبها واقتنع منهن بالبلل
رضا الدليل بخفض العيش مسكنة والعزُّ تحت رسم الأيتقِ الدلل
وقال وقد رزق مولوداً على كبر : هذا الصغير الذي وافى على كبر
أقر عيني ولكن زاد في فكري

سبع وخمسون لو مرت على حجر
ومن قوله في الفخر:

أبي الله أن أسمو بغير فضائل
وإن كرمت قبلي أوائل أسرتي
وما المال إلا عارة مستردة
إذا لم يكن لي في الولاية بسطة
ولا كان لي حكم مطاع أجزه
فأعذر إن قصرت في حق مجتد
أأكفي ولا أكفي؟ وتلك غضاضة
من الحزم ألا يضجر المرء بالذي
إذا جلدى في الأمر خان ولم يُعن
ومن يستين بالصبر نال مراده

إذا ما سما بالمال كل مسود
فإني بحمد الله مبدأ سوددى
فهلا بفضل كاثرونى ومحتدى
يطول بها باعى وتسطو بها يدى
فأرغم أعدائى وأكبت حسدى
وأمن أن يعتادنى كيد معتدى
أرى دونها وقع الحسام المهند
يعانيه من مكروهة فكان قد
مريرة عزمى ناب عنه تجلدى
ولو بعد حين . إنه خير مسعد

الشعر والشعراء في الشام

كانت دمشق في عهد الأمويين حاضرة الخلافة ، وقاعدة الملك ، ومقر الجند ، ومقل الإسلام ، ومناط الأمل . فشغلها أدب السيف عن أدب القلم ، وألهاها عن حمل الكتاب حمل العلم ، وخلجتها خوالج الرياسة والسياسة عن رواية الأدب وقرض الشعر ، فتخلت عنهما للعراق والحجاز ، فزخرت مدنها بالشعراء ، وغصت مجالسهما بالأدباء . وقد علمت كيف كان أثر معاوية وأخلاقه في إذكاء هذه النهضة .

فلما أдал الله العباسيين من الأمويين والفرس من العرب ، وبغداد من دمشق ، فترت حركة الأدب في الشام ، فما كان يصدر عنها ولا يرد إليها، حتى تملك بنو حمدان في القرن الرابع على حلب ، وهم كما قال الثعالبي : ملوك وأمراء أسنتهم للفصاحة ، وأيديهم للسماحة ، وسيف الدولة مشهور بسيادتهم ، وواسطة

قلادتهم « وهو أديب بارع وشاعر مطبوع وملاك مُدَّح ؛ فوطاً كنفه للأدباء والشعراء والعلماء ، حتى (ليقال إنه لم يجتمع بباب أحد من الملوك بعد الخلفاء ما اجتمع ببابه من شيوخ الشعر ونجوم الدهر ، وإنما السلطان سوق يجلب إليها ما يفتق لديها) .

والطريقة الغالبة على أهل الشام في الشعر هي طريقة البحتري في إثارة اللفظ الجزل، والأسلوب الفصيح السهل، دون تعمق في المعنى، ولا إفراط في الإيجاز. وقد سمع الثعالبي عن صاحب بن عباد أنه كان يُعجب بها، وينهل من أدبها. وَرَوَى هُوَ أَيْضاً عَنِ الْخَوَارِزْمِيِّ أَنَّهُ قَالَ : « مَا فَتَقَ قَلْبِي ، وَشَحَذَ فَهْمِي ، وَصَقَلَ ذَهْنِي وَأَرْهَفَ حِدَاسَانِي ، وَبَلَغَنِي هَذَا الْمَبْلَغَ إِلَّا تَلَّكَ الطَّرَائِفُ الشَّامِيَّةُ ، وَاللَّطَائِفُ الْحَلِيبِيَّةُ ، الَّتِي عَلِقَتْ بِحَفْظِي ، وَامْتَزَجَتْ بِأَجْزَاءِ نَفْسِي ، وَغَضِنَ الشَّبَابُ رَطِيبَ » .

وكفى الشام فخرأ أن أعادت إلى العرب في أبي تمام والبحتري والمتنبي وأبي فراس وأبي العلاء سبق الشعر بعد أن غلبهم عليه متعربو الفرس وأبناء الملوال في صدر هذا العصر .

وستقتصر على الترجمة بهؤلاء الناضجين منهم ، فإن الإحاطة بهم، والكشف عن مفاحي أدبهم ، لا يتسع لها صدر هذا المختصر .

أبو تمام

١٨٨ — ٢٣١

نُسُأَتُهُ وَهَيْبَاتُهُ

وُلِدَ حَبِيبُ بْنُ أَوْسِ الطَّائِيُّ بِقَرْيَةِ يُقَالُ لَهَا جَامِسٌ مِنْ أَعْمَالِ دِمَشْقَ . ثُمَّ انْتَقَلَ أَبُوهُ إِلَى دِمَشْقَ يَحْتَرِفُ الْحَيَاكَةَ وَهُوَ مَعَهُ فِي خِدْمَتِهِ . فَلَمَّا تَرَعَّرَعَ غَادَرَهَا إِلَى مِصْرَ فَسَكَنَ بِسُقَى الْمَاءِ بِجَامِعِ عَمْرٍو وَيَسْتَقِي مِنْ أَدَبِ عِلْمَائِهِ . وَلَمْ يَزَلْ يَحْفَظُ

الأشعار ويحاكي الشعراء فيصافه التوفيق مرة ويخطئه أخرى ؛ حتى بلغ من الشعر مبلغا لم يزاحمه فيه أحد من أهل عصره . وقد سار به شعره إلى أسواق الأدب في أنحاء البلاد ، فعادر مصر يفشى منازل الكرماء ويتفيا ظل النعمة . فأقبل عليه عشاق الأدب والمدح إقبالا لم يُبق لغيره مجالا ، حتى لم يستطع أحد من الشعراء أن يكسب درهما بالشعر في حياته . ثم اتصل بأحمد بن المعتصم ومدحه فأجازه بولاية بريد الموصل فوليه عامين ثم مضى لسبيله قبل أن يتم الأربعين .

صفاته وأهله

كان أبو تمام أسمر اللون طويل القامة فصيحاً حلوا الكلام فيه متممة بسيرة . وكان ذكي الطبع حاضر البديهة قوى الذاكرة . قيل : إنه كان يحفظ أربعة عشر ألف أرجوزة غير القصائد والمقطوعات . وكتابا الحماسة ونحو الشعر ناطقان بذلك . ويدل على فطنته وسرعة خاطره أنه لما أنشد أحمد بن المعتصم قصيدته السينية التي يقول في مطلعها :

ما في وقوفك ساعة من باس تقضى ذمام الأربيع الأدراس
ووصل إلى قوله فيها :

إقدام عمرو في سماحة حاتم في حلم أحنف في ذكاء إياس
قال أبو يوسف الكندي الفيلسوف وكان حاضرا : الأمير فوق من وصفت .
وما زدت على أن شبهته بأجلاف العرب . فأطرق أبو تمام قليلا ثم قال على البديهة :
لا تنكروا ضربى له من دونه مثلا شرودا في الندى والباس
فأله قد ضرب الأفل لنوره مثلا من المشكاة والنبراس

ولما أخذت منه القصيدة لم يجدوا فيها هذين البيتين فمجبوا . وقال الفيلسوف للخليفة : مهما يطلب فأعطه ، فإن فكره يأكل جسمه كما يأكل السيف المهمد غمده ، ولا يعيش كثيرا : فولاه بريد الموصل .

شعره

أبو تمام رأس الطبقة الثانية من المولدين . جمع بين معاني المتقدمين والمتأخرين ، وظهر والحضارة راقية ، والعلوم مترجمة ، فخصف عقله ولطف خياله بالاطلاع عليها . واستنبط من ذلك طريقته التي آثر فيها تجويد المعنى على تسهيل العبارة فكان أول من أكثر من الاستدلال بالأدلة العقلية والسكنايات الخفية ولوأفضى ذلك إلى التعميد . وكأنه لما رأى أن سلاسة اللفظ فاتته أراد أن يجرد ذلك الكسر فتوخى الجناس والمطابقة والاستعارة ، فسلم له بعض واعتل عليه بهض ، فصار كالكلب في صفقة البدر . ومع هذا قد سلم له من كلامه جملة لم يحم حولها السابقون وقصر عنها اللاحقون : معان مبتكرة ، وألفاظ متخيرة ، ضمنها من الأمثال والحكم ما زاد في ثروة الأدب العربي ، ومهد لمن خلفه الطريق فسلكها المتنبى وأبو الملاء إلى حكمهم وأمثالهم . ولغلبة الحكمة عليه قيل : « أبو تمام والمتنبى حكيان ، والشاعر البحتري » ، وقد كثر اختلاف الناس فيه ؛ فمنهم من تعصب له وأفرط حتى فضله على كل سلف وخلف . ومنهم من عمد إلى جيده فطواه ، وإلى رديته فرواه . ولكن لسان المدح كان أغاب ، فقد فضله من الرؤساء والعظماء مالا قبل للطاعنين عليه بهم . قال محمد بن عبد الملك الزيات وقد مدحه بقصيدة شاعرة : « يا أبا تمام إنك لتتحلى شعرك من جواهر لفظك وبديع معانيك ما يزيد حسناً على بهي الجواهر في أجياد السكواعب . وما يدخر لك شيء من جزيل المكافأة إلا ويقصر عن شعرك في الموازاة » .

وقد جمع شعره في ديوان طبع مراراً . وله غيره كتابا الحماسة وفحول الشعراء جمع فيهما عيون الشعر وغرره في الجاهلية والإسلام . وقد أحسن في الاختيار جد الإحسان حتى قيل إنه في اختياره أبلغ منه في شعره .

نموذج من شعره

من أبدع قصائده قوله .

غدت تستجير الدمع خوف نوى غد وعاد قتاداً عندها كلُّ مرقد
وأثقلها من غمرة الموت أنه صدود فراق لا صدود تعمد
فأجرى لها الإشفاق دمماً مورداً من الدم يجرى فوق خد مورد
ويقول فيها في الحث على الاغتراب ؛ ولو تأملت وجدته يتوخى الطباقي
في كل بيت :

ولكنني لم أحوِ وفرّاً مجمماً ففرت به إلا بشمل مبدد
ولم تعطني الأيام نوماً مسكناً الذُّ به إلا بنوم مشرد
وطول مقام المرء في الحى مُحَقَّقٌ لذي حاجته فاغترب تتجدد
فإني رأيت الشمس زيدت محبةً على الناس أن ليست عليهم بسرمد

ومن قوله :

نقل فؤادك^(١) حيث شئت من الهوى ما الحب إلا للحبيب الأوّل
كم منزل في الأرض يألفه الفتى وحنينه أبدأ لأول منزل

وقال في رثاء محمد بن حميد الطوسي :

كذا فليجلّ الخطب وليقدح الأمر فليس لعين لم يفيض ماؤها عذر
توفيت الآمال بعد محمد وأصبح في شغل عن السفر السقر
ألا في سبيل الله من عطلت له فيجأ سبيل الله وانثغر الثغر
فتى كلما فاضت عيون قبيلة دماً نحككت عنه الأحاديث والذكر
فتى دهره شطران فيما ينوبه ففي بأسه شطر وفي جوده شطر

(١) من مجيب توارد الحواطر أن هذا المعنى بعينه سار به مثل فرنسي وهو :

L'homme revient toujours

A ses premiers amours

فقي مات بين الطعن والضرب موتةً تقوم مقام النصر إذ فاته النصر
وما مات حتى مات مضربُ سيفه من الضرب واعتلت عليه القنا السمر
تردّي ثياب الموت حمراً فما دجا لها الليل إلا وهي من سندس خضر

وقال في المدح :

حَوْلٌ ، لافعاله مرتعُ الدّم (م) ولا عرضه مَرَّاحُ الميوب
سُرْحُ قوله إذا ما استمرت عقدةُ العيِّ في لسان الخطيب
لا مُعْنَى بكل شيء ولا كلُّ (م) عجيب في عينه بعجيب
ليس يَعْرِى عن حُلَّةٍ من طراز ال مدح من راجزٍ بها مُستثيب
وإذا كَفُّ راعبٍ سلبته راح طَلَقًا كالكوكب المشبوب
مامهاتُ الحِجَالِ مسلوبة أظ رفُ حسنا من ماجد مسلوب
واجدٌ بالخليل من بُرحاء الش وق وجدانَ غيره بالحييب
كلُّ شعب كنتم به آل وهب فهو شعبي وشعب كل أديب
إن قلبي لكم لكابد الحرِّ ي وقلبي لغيركم كالقلوب

وقال أيضا :

إذا حركته هزةُ المجد غيرت عطاياها أسماء الأمانى الكواذب
يرى أقبح الأشياء أوبة أمل كسته يدُ المأمول حلة خائب
وأحسنَ من نورٍ تفتحه الصبا بياض العطايا في سواد المطالب

البحثري

٢٠٦ — ٢٨٤ هـ

نسأته وهياته

أبو عبادة الوليد بن عبيد الله الطائي عربي صميم ولد بمنبج (بين حلب

والفرات) سنة ٣٠٦ ونشأ في البادية بين قبائل طيء وغيرها فقلبت عليه فصاحة العرب . ثم خرج إلي بغداد فلقي أبا تمام ولزمه حتى تخرج عليه واقتبس طريقته في البديع . وروى عن كثير من العلماء كأبي العباس المبرد وظل صنيعته لأبي تمام يردد صداه ، ويترسم خطاه ، وحبيب يرشده ويمضده لأنه طأى مثله ، حتى قال له يوماً : « أنت والله يا بني أمير الشعراء غداً بعمدي » ، فصدق الله نبوءته . وأصبح البحترى بعد وفاة أبي تمام سائر الشعر طائر الذكر إماماً في الأدب والقريض . وأقام بالعراق في خدمة المتوكل والفتح بن خاقان وزيره إلى أن قتلا على مشهد منه ، فرجع بعدئذ إلى منبج . وكان يختلف أحياناً إلى سراة بغداد « وسراً من رأى » فيمدحهم حتى مات سنة ٣٨٤ .

صفاته وأهله

كان البحترى على أدبه وفضله ورقته من أوسخ خلق الله ثوباً وأجلمهم على نفسه وغيره . وكان من أبفض الناس إنشاداً : يتشادق ويتزاور في مشيته جانباً أو القهقري ، ويهز رأسه مرة ومنكببيه أخرى ، ويشير بكفه ويقف عند كل بيت ويقول : أحسنت والله ! ثم يقبل على المستمعين قائلاً : ما لكم لا تقولون أحسنت ؟ هذا والله ما لا يحسن أحد أن يقول مثله . ولكنه كان منصفاً يمتدح بالفضل لأهله ولا يدعى ما ليس له . قال له بعض الناس وقد سمع شعره : أنت أشعر من أبي تمام . فقال : ما ينفعني هذا القول ولا يضر أبا تمام . والله ما أكلت الخبز إلا به ، ولوددت أن الأمر كما قالوا ، ولكني والله تابع له ، آخذ منه لائذ به ، نسيمي يركد عند هوائه ، وأرضي تنخفض عند سمائه !

شعره

ترسم البحترى خطو أبي تمام في الشعر ومضى على أثره في البديع ، إلا أنه أجاد في سبك اللفظ على المعنى « وأراد أن يشعر فقنى » كما قال فيه ابن الأثير

واستمد معانيه من وحى الخيال وجمال الطبيعة لا من قضايا العلم والمنطق ، فأعاد للشعر ماذهب من بهجته وروعته . وإلى ذلك أشار المتنبي بقوله : « أنا وأبو تمام حكيان ، والشاعر البحترى » ، ثم صارت له طريقة خاصة في الجزالة والعدوابة والفصاحة امتاز بها من أستاذه ومدربه ، نهجها معاصروه ومن جاء بعدهم من الشعراء وعرفت بطريقة أهل الشام . وقد تصرف أبو عبادة في فنون الشعر إلا في الهجاء ، فإن بضاعته فيه نزره وجيده منه قليل . ويقال إنه أحرق هذا النوع قبل موته وهو الأرجح ولم يسلم شعره من الساقط الفث لكثرتة ، وإنما يمتاز بالإجادة في المدح والقصد فيه ، والقدرة على تصوير أخلاق المدوح ، والإبداع في وصف القصور الفخمة والأبنية العجيبة ، كوصف إيوان كسرى^(١) وبركة المتوكل ، وقصر المعتز بالله . وقصائده تكاد لا تخلو من افتتاح بالفزل . وقد جمع شعره أبو بكر الصولي ورتبه على الحروف . وله غيره كتاب معاني الشعر وحاسة البحترى . وهي كحاسة أبي تمام ، إلا أنها تمتاز بكثرة أبوابها وخلوها مما تنبو الأسماع عنه ؛ وقد طبعت في بيروت .

نموذج من شعره

من قوله في وصف بركة المتوكل :

| | |
|------------------------------------|-----------------------------|
| تنصَّبُ فيها وفودُ الماء مُعجَلَةً | كالخيل خارجة من حبل مُجريها |
| كأنما الفضة البيضاء سائلة | من السبائك تجرى في مجاريها |
| إذا علتها الصبَا أبدت لها حُبكا | مثل الجواشن مصقولا حواشيها |
| فحاجب الشمس أحيانا يضاحكها | وريق الغيث أحيانا يبكيها |
| إذا النجوم تراءت في جوانبها | ليلا حسبت سماء رُكبت فيها |

وقال يمدح الخليفة المتوكل ويهينه بعيد الفطر :

(١) قصيدة البحترى في وصف إيوان كسرى من بدائع الشعر العربي الخالد ، ولذلك أوردنا أكثرها في التماذج .

بالبِرِّ صمت وأنت أفضل صائم
فانعم بيوم الفطر عينا إنه
أظهرت عزّ الملك فيه بجحفل
فانجيل تصهل والفوارس تدعى
والأرض خاشعة تميد بتعلمها
والشمس طالعة توقد في الضحى
حتى طلعت بنور وجهك فأنجلي
فافتنّ فيك الناظرون فأصبح
ذكروا بطلعتك النبيّ فهللوا
حتى انتهيت إلى المصلّى لابسا
ومشيت مشية خاشع متواضع
فلو أن مشتاقا تكلف فوق ما
أبديت من فصل الخطاب بحكمة
ووقفت في بُردِ النبيّ مذكراً
ومن قوله في الطيف :

إذا ما الكرى أهدى إلىّ خياله
إذا انتزعت من يديّ انتباهة
ولم أر مثليّنا ولا مثل شأننا
شفيّ قربه التبريح أو نفع الصدى
حسبت حبيباً راح منى أو غدا
نمدّب أيقاظاً ونعم هجدا

المتنبي

٣٠٣ — ٥٣٥٤

نسأته وهياته

أبو الطيب أحمد بن الحسين المتنبي ولد بالكوفة من أبوين فقيرين . كان

أبوه سقاء بالكوفة . ثم سافر به وهو صغير إلى الشام متنقلا من البادية إلى الحاضرة يسلمه إلى المسكاتب ، ويردده في القبائل ، ويخايله نواطق بفضله ، ضوامن لمُججحه ، حتى توفي أبوه وقد ترعرع الشاعر ونال حظله من علوم الالفه والأدب فأخذ يضرب في الأرض ابتغاء للرزق واكتسابا للمجد .

وكان المتنبى منذ نشأته كبير النفس على الهمة طموحا إلى المجد . بلغ من كبر نفسه أن دعا إلى بيعته^(١) بالخلافة وهو لئذ العود حديث السن . وحين كاد يتم له الأمر تأدى خبره إلى والى البلدة فأمر بحبسه . فكتب إليه من السجن قصيدة منها :

أمالِكَ رِقٍ وَمِنْ شَأْنِهِ هَبَاتُ اللَّجَيْنِ وَعَتَقَ الْعَبِيدِ
دَعْوَتِكَ عِنْدَ انْقِطَاعِ الرَّجَاءِ وَالْمَوْتُ مَنِي كَحَبْلِ الْوَرِيدِ
دَعْوَتِكَ لَمَّا بَرَأَنِي الْبَيْلِي وَأَوْهَنَ رَجُلِي تَقْلُ الْحَدِيدِ
تَعَجَّلْ فِيَّ وَجُوبَ الْخُدُودِ وَحَدْسِي قَبْلَ وَجُوبِ السُّجُودِ^(٢)

فأطلقه . ولكن حب الرياسة لم يزل متمكنا من قلبه إلى أن أخلق بُرد شبابيه وتضاعفت عقود عمره . وفي سنة ٣٢٣ ادعى النبوة في الشام وفتن شرذمة من الناس بقوة أدبه وسحر بيانه . ولما سئل عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : إنه بشر بمجيبى وأخبر بنبوتى . فقال : لا نبيُّ بعدى ، وأنا اسمى في السماء . (لا) . وصنف كلاما عارض به القرآن . فلما اشتهر أمره قبض عليه لؤلؤ أمير حمص نائب الأخشيدية ، فأوثقه ثم أطلقه بعد أن استتابه . وتفرق عنه أصحابه . فطفق يتجشم أسفارا أهد من آماله ، ولا زاد إلا صبره ، ولا عدة إلا بأسه . كما يتجلى ذلك في مثل قوله :

وحيد من الخللان في كل بلدة إذا عَظُمَ المطلوب قل المساعد
وقوله :

(١) اليتيمة ١ س ٧٩ .

(٢) يريد : إنى سبى لم أبلغ الحلم فيجب على السجود ، فكيف تجب على الحدود ؟

ضاق صدرى وطال في طلب الرزق ق قيايى وقل عنه قعودى
أبدأ أقطع البلاد ونجمى فى نحوى وهمتى فى سعود
ولم يزل هكذا حتى اتصل بأبى العشاء والى أنطاكية من قبيل سيف الدولة
وامتدحه ، فأكرم مثواه وقدمه إلى سيف الدولة وعرفه بمنزلته من الشعر والأدب .
فضمه الأمير إليه وحسن موقعه عنده ، فسلمه إلى الرواض فعملوه الفروسية والطاراد .
حتى لا يفارقه فى الحرب ولا فى السلم . وأنعم وطابه ودرت له أخلاف الدنيا على
يده ، حتى كان من قوله فيه :

تركت الشرى خلفى لمن قل ماله وأنعت أفراسى بنعك عسجدنا
وقيدت نفسى فى هواك محبة ومن وجد الإحسان قيذاً تقيداً
ولم يزل معه فى حال حسنة حتى حدثت بينهما جفوة ففارقه ^(١) إلى مصر
فى سنة ٣٤٦ . ومدح كافوراً الإخشيدى وأبا شجاع . وأقام فى مصر ردحاً من الزمن
يرقب الفرصة من كافور فيصعد المجد على كاهله . فإى أغنى منذ حين وتشرب
أبا المسك ، هل فى الكأس فضل أناله فإى أغنى منذ حين وتشرب
وقال :

وهل نافعى أن تُرفع الحجب بيننا ودون الذى أمّلت منك حجاب
وفى النفس حاجات وفيك فطانة سكوتى بيان عندها وخطاب
حتى أوجس كافور منه خيفة ، لتماليه فى شعره وطموحه إلى الملك ، فزوى عنه
وجهه ، فهجاه وقصد بغداد . ولم يمدح الوزير المهلبى لأنه كان يترفع عن مدح غير
الملك ، فشقى ذلك على الوزير فأشلى عليه شعراء بغداد فنالوا من عرضه ومن
شعره : ولكنهم لم يجهم ، وذهب قاصداً أرجان لزيارة الفضل بن العميد فسكتب
إليه الوزير صاحب بن عباد يستزيه بأصبهان طامعاً أن يمدحه فلم يقم له وزكاً ،
وأّم عضد الدولة بشيراز . فأوغر عليه قلب صاحب وأخذ يتبعه هفواته ، وهو أعلم

(١) أثر هذا الفراق فى أبى الطيب فاضطرب أمره وتراجع شعره . ولما هوت فى آخر
أيامه على ذلك قال : قد تجاوزت فى قولى ، وأعفيت طبيى ، واغتنمت الراحة منذ فارت آل حمدان .

الناس بحسناته — وثنى عليه هو وأشياعه حرباً قلمية ، وألقوا الكتب في نقده ورموه بالسرقه والخروج عن الأساليب العربية ، وهو لا يأبه لهم ذهاباً بنفسه وإعجاباً بشعره .

* * *

ولما حصل عند عضد الدولة أسبغ عليه نعمته ووصله بثلاثة آلاف دينار وخيول وثياب ؛ ثم دس عليه من يسأله : أين هذا العطاء من عطاء سيف الدولة؟ فقال له : هذا أجزل إلا أنه متكلف ، وسيف الدولة كان يعطى طبعاً . ففضب عضد الدولة من ذلك . ويقال إنه جهز عليه فاتكاً الأسدى فى قوم من بنى ضبة ، فعرض له بانصافية من سواد بغداد واقتتلا . فلما رأى الدائرة عليه هم بالفرار . فقال له غلامه : لا يتحدث الناس عنك بالفرار وأنت القاتل :

الخيل والليل والبيداء تعرفنى
والسيف والرمح والقرطاس والقلم
فقاتل حتى قتل هو وولده وغلامه فى أواخر رمضان من سنة ٥٣٥٤ هـ .

شعره

المتنبى شاعر من شعراء المعانى ؛ وفق بين الشعر والفلسفة ؛ وجعل أكثر عنايته بالمعنى ؛ وأطلق الشعر من القيود التى قيده بها أبو تمام وشيعته ، وخرج به عن أساليب العرب التقليدية . فهو لإمام الطريقة الابتداعية^(١) فى الشعر العربى . ولقد حظى فى شعره بالحكم والأمثال ، واختص بالابداع فى وصف القتال ، والتشبيب بالأعرابيات ، وإجادة التشبيه ، وإرسال المثالين فى بيت واحد ، وحسن التخلص ، وصحة التقسيم ، وإبداع المديح ، وإيجاع الهجاء . وأخص ما يميز المتنبى

(١) الابتداعية كما قلنا من قبل ترجمة معنوية لكلمة *Romantique* لأن أهل هذه الطريقة من الألمان والإنجليز والفرنسيين قد خرجوا على الطريقة الانباعية *Classique* بابتداع أسلوب جديد انتشر فى أوروبا بمد عناء طويل ونضال عنيف بين أرباب الطريقتين . وإن فى خروج ابن الطائى المتنبى وابن هانئ الأندلسى وابن العلاء المعرى وأضرابهم على أساليب العرب المتخصصة وإطلاقهم الشعر من قيود الصناعة ما يشبه تلك الطريقة .

بروز شخصيته في شعره ، وصدق إيمانه برأيه ، وقوة اعتداده بنفسه ، وصحة تعبيره ،
عن طبائع النفس ومشاكل الناس وأهواء القلوب وحقائق الوجود وأنراض الحياة ؛
ولذلك كان شعره في كل عصر مدداً لكل كاتب ، ومثلاً لكل خاطب .

عيوب شعره

بيت المتنبي يضيق أحياناً بمعناه فيفسر فهمه ، وتبعد غايته منه فيطيش سهمه .
وقد بلغ من إهماله اللفظ أن وقع في بعض المساوئ ، كاستكراه اللفظ ، وتعقيد
المعنى ، واستعمال الغريب ، وقبح الطالع ، ومخالفة القياس ، وكثرة التفاوت
في شعره ، والخروج في المبالغة إلى الإحالة ، كقوله :

ولا الضعف حتى يبلغ الضعف ضعفه ولا ضعف ضعف الضعف بل مثله ألف

وقوله :

أنى يكون أبا البرايا آدم وأبوك والنقلان أنت محمد^(١)

وقوله :

لو لم تكن من ذا الورى الذمك هو عقت بولد نسلها حواء
والاستشهاد على كل ذلك يخرج بنا إلى التطويل فارجع إلى يتيمة الدهر للشعالي .

نموذج من شعره

قال يشكو الزمان :

لم يترك الدهر من قلبي ولا كبدى شيئاً تقيمه عينٌ ولا جيد
ياساقبي^١ أخرت في كؤوسكما أم في كؤوسكما همٌ وتسويد ؟
أصخرة أنا ؟ مالى لا تغيرنى هذى المدام ولا تلك الأناشيد ؟
إذا أردت كميت الخمر صافية وجدتها وحبيب النفس مفقود .

(١) تقديره : أنى يكون آدم أبا البرايا وأبوك محمد وأنت النقلان .

ماذا لقيت من الدنيا ؟ وأعجبها
وقال يتفلسف :

نحن بنو الموت فما بالنا
تبخل أدينا بأرواحنا
فهذه الأرواح من جوّه
لو فكر العاشق في منتهى
لم يُرَقِرَنَّ الشمس في شرقه
يموت راعى الضأن في جهله
وربما زاد على عمره
وغاية المفرط في سامه

وقال :

نصيبك في حياتك من حبيب
رمانى الدهرُ بالأرزاء حتى
فصرت إذا أصابنى سهام
وهان فما أبالى بالرزايا
وقال :

محبّ الناسُ قبلنا ذا الزمانا
وتولوا بنفصة كلهم من
ربما تحسن الصنيع لياليه
وكأنا لم يرَضَ فينا بريب الده
كلما أنبتَ الزمانُ قناة
ومرّاد النفوس أصغر من أن
غيرَ أن الفتى يلاقى المنايا
ولو أن الحياة تبقى لحي
وعنهم من أمره ما عانا
ه وإن سرَّ بعضهم أحيانا
ه ولكن تكدر الإحسانا
ر حتى أعانه من أعانا
رُكب المرء في القناة سنانا
تتعدى فيه وأن تتفانى
كالخات ولا يلاقى الهوانا
لعدونا أضلنا الشجانا

وإذا لم يكن من الموت بُدٌّ فمن العجز أن تموت جباناً
وقال أيضاً :

زودينا من حسن وجهك ماداً م لحسن الوجوه حالّ تحول
وصلينا نصلك في هذه الدنيا يا فإن المقام فيها قليل

أبو فراس الحمداني

٣٢٠ — ٣٥٧ هـ

نشأته ومبائه

هو أبو الحارث بن أبي العلاء ابن عم سيف الدولة . ولد بمنبج ورُبِّي في حجر
النعمان بين أئمة الملك وعزة السلطان . فنشأ على خلال العطاء شجاعاً أبي النفس
سليم الطبع ، كريم الخلق ، جامعاً بين أدبي السيف والقلم . وكان سيف الدولة
ممجباً بحماسة مؤثراً له على سائر قومه ، فاصطنعه لنفسه ، واصطحبه في غزواته ،
واستخلفه في أعماله ؛ فكان الدرّة الفريدة في تاج سيف الدولة ، يقود جيوشه
في الحرب ، ويرأس كتابه في السلم . وكان النصر حليفه في كل وقائمه ، فالت
إليه القلوب ولهجت بذكره الألسن ، وانطلق لسانه برائع الشعر في الفخر والحماة
ووصف الحروب ، حتى خانة الفوز فأسره الروم في بعض المواقع وهو جريح قد
أصابه سهم بقي نصله في فخذه ، فسجنوه بخرشنة ، ثم نقلوه إلى القسطنطينية .
وتعذرت المفاداة فلبث في الأسر أربع سنين ظهرت فيها أشعاره الروميات ملأى
بعواطف الحب والحنين إلى أهله وأحبابه ، ممثلة ما يكن صدره من لوايح الشوق
لأمة المعجوز وابنته الوحيدة ، وعوامل الحب لسيف الدولة . ولم يزل أبو فراس
يعالج مرارة الأسر وحرارة الشوق حتى تنوظر في الهدنة والأسرى فأطلقه الروم
بعد أن أكرموه وبجلوه .

« ولما خرج قمر البيان من سِراره ، وأطلق أسد الحرب من إيساره » ، لم تمهله المنية أن يسترد ما ذهب من شبابه أيام عذابه . فتوفى سيف الدولة وخلفه ولده أبو المعالي ابن أخت أبي فراس ؛ فأراد الأمير الشاعر أن يضم إليه مدينة حمص فأبى عليه ذلك أبو المعالي ، وجرت بينهما معركة قتل فيها أبو فراس وهو لدن العود غض الإهاب .

صفاته وأهله

كان أبو فراس كما قدمنا بطالا ألبيا سخيا معجبا بشعره وبنفسه ، كثير الفخر بأصله وقومه ، عزوفا عن الشراب والجون ؛ فبرىء شعره من كل ذلك وانطبع أخلاقه فيه . وهو القائل :

لئن خلق الأنام لحسنو كأس ومزمار وطنبور وعود
فلم يخلق بنو حمدان إلا مجد أو لبأس أو لجود

شعره

شعر أبي فراس على مثال الشعر القديم متانة وأسلوباً ، إلا أن عليه رُواء الطبع ، وسمة الظرف ، وعزة الملك . ولم تجتمع هذه الخلال قبله إلا في شعر عبدالله ابن المعتز . وكان الصاحب بن عباد يقول . « بديء الشعر بملك وختم بملك » يعنى امرأ القيس وأبا فراس . وقد تصرف هذا الشاعر في أغلب فنون الشعر فأجاد ، إلا أن منزلته في الفخر والاستعطاف والعتاب أعلى ، وروميته أجمل وأدل على فضله ؛ فإن مثله لا يزكو به أن يمدح أميراً ، أو يهجو صغيراً ، أو يذيل مصون شعره بين الشراب والجون ، فقد علمنا كيف نشأ وأين درج . وله غزل رقيق تتضاءل فيه عزة الملك أمام سلطان الحب ، فيكون أتم جلالاً وأشد روعة . وزعم الثعالبي أن المتنبي كان يشهد له بالتبريز ويتجافى جانبه (فلا ينفري لمباراته ، ولا يجترىء

على مجاراته ، وإنما لم يمدحه ومدح غيره من آل حمدان تهيئاً له وإجلالاً
لا إغفالاً) ، وهو زعم لا يطمئن عليه القلب ، ولا يقول به من عرف المتنبي .

نموذج من شعره

قال وقد سمع حمامة تنوح على شجرة بالقرب من سجنه بالقسطنطينية :
أقول وقد ناحت بقربي حمامة أيا جارتا لو تشعرين بحالى
معاذ الهوى ماذقت طارقة النوى ولا خطرت منك الهموم ببالي
أيا جارتا ما أنصف الدهر بيننا تعالى أقاسمك الهموم تعالى
تعالى ترى روحاً لدى ضعيفة تردد في جسم يعذب بالى
أحمل محزون الفؤاد قوادم على غصن نأى المسافة على ؟
أضحك مأسور وتبكي طليقة ويسكت محزون ويندب سالى ؟
أقد كنت أولى منك بالدمع مقلة ولكن دمعى فى الحوادث غالى
ومن قصيدة له إلى سيف الدولة يستعطفه :

بن يثق الإنسان فيما ينوبه ومن أين للجر الكريم حجاب ؟
وقد صار هذا الناس إلا أفلهم ذئاباً على أجسادهن ثياب
تغابت عن قوم فظنوا غباوة بفرق أغباناً حصى وتراب
إلى الله أشكو أننا بمنازل تحكم فى آسادهن كلاب
تمر اللبالي ليس للنفع موضع لدى ولا للمعتفين جناب
ولا شدلى سرج على متن ساج ولا ضربت لى بالعرء قياب
ستذكر أيامى ندير وعامر وكعب على علاتها وكلاب
أنا الجار لازدى بطيء عليهم ولا دون مالى فى الحوادث باب
ومنها :

ومازت أرضى بالقليل محبة لديه وما دون الكثير حجاب
وأطلب إبقاء على الود أرضه وذكري منى فى غيرها وطلاب

كذلك الودادُ المحض لا يرتجى له ثوابٌ ولا يُخشى عليه عقاب
وقد كنت أخشى المهجر والشمل جامع وفي كل يوم لقيمةً وخطاب
فككيف وفيما بيننا ملك قيصر وللبحر حولي زخرةٌ وعُباب !
أمن بعد بذل النفس فيما تریده أثاب بمرِّ العتب حين أثاب ؟
فليتك تحلو والحياة مريرة وليتك ترضى والأنام غضاب !
وليت الذي بيني وبينك عامر وبينى وبين العالمين خراب !
إذا صح منك الود فالكل هين وكل الذي فوق التراب تراب

أبو العلاء المعري

٣٦٣ — ٤٤٩ هـ

نسأته وصيانه

هو أحمد بن عبد الله بن سليمان التنوخي نسبة إلى تنوخ إحدى قبائل اليمن .
ولد هذا الفيلسوف الحكيم بالمعرة من أبوين شريفين . فقد كان أبوه من أفاضل
العلماء وجده قاضياً بالمعرة . فلما بلغ الرابعة من عمره أصيب بالجدري فذهب
ببصره عيونه وابيضت اليمنى ؛ فنشأ ضريباً لا يعرف من الألوان إلا الحمرة لأنهم
ألبسوه ثوباً معصفراً وهو مريض فكان هذا اللون أول ما عرف وآخر ما رأى .
ولما أدرك سن التعلم أخذ أبوه يلقنه علوم اللسان العربي فتعلمها . وتلمذ بعد ذلك
لنفر من علماء بلده فضم إلى صدره ما حوته صدورهم . ولم ير بعد ذلك فيمن حوله
من سبقه إلى علم ، أو اختص دونه بفهم ، فأنشئ إلى بيته وقد ناهز العشرين
من عمره ، وأخذ بدرس اللغة والأدب وينقب عن دقائق اللسان وخواص التركيب
حتى تفوق في ذلك وبلغ منه ما لم يبلغه أحد . وفي سنة ٤٣٩٢ هـ غادر المعرة إلى
بلاد الشام . فزار مكتبة طرابلس ، وعاج على اللاذقية ، وكان بها دير للرهبان
فنزله وأقام بين أهله حتى درس المهديين القديم والجديد . وبعد أن طوف في

بلاد الشام عزم الرحلة إلى بغداد مبعث العلم ومستقر العلماء ليدرس الحكمة اليونانية والفلسفة الهندية . وما أحس بمقدمه البغداديون حتى تقاطروا إلى لقائه طمأن إلى أدبه . فأقام بينهم يأخذون عنه العلم والآداب و يبحث هو في علوم الفلسفة حتى جرى فيها شوطا بعيدا . ووجد أبو العلاء في بغداد بيئة صالحة وأرضاً كريمة لبحث المسائل وغرس المبادئ . فأخذت آراؤه تظهر وتذيع . وانصلت أسبابه هناك بجماعة من الفلاسفة الأحرار كانوا يجتمعون كل جمعة في دار أبي أحمد عبدالسلام بن الحسن البصرى أحدهم فأثر خلاطها في عقله وأدبه . وما كادت علاقته تتوثق بالبغداديين حتى فوجيء على بمد المزاريبى أمه ، وكان أونو قد توفى قبلها ، فوجد عليهما وجدًا شديدا ، ونالت منه هذه الفازلة . وكان الأمرء والدهماء قد أخذوا يرتابون في عقيدته ويشكون في أمره ، فاضطربت حياته ، واختلقت أطواره وأعوز المشفق والنصير . فنظر إلى العالم بمنظار أسود ، وقرر في نفسه العزلة والخروج عن الدنيا . وعاد إلى المعرفة سنة ٤٠٠ م فاعتقل عن الناس إلا عن تلاميذه . وسعى نفسه رهن الحبسين : العمى والمنزل . وظل عاكفا على التعليم والتأليف عازفا عن ملذات الحياة لا يأكل الحيوان ولا ما ينتج منه ، قانما من الطعام والحلوى بالعدس والتين . ومن المال بثلاثين ديناراً موقوفة عليه في كل عام ، راضيا من اللباس والفراش بغليظ القطن وحصير البردى . وحرّم على نفسه الزواج ضمنا بنسله على لؤم الناس وبؤس الحياة . ولم تزل تلك حاله حتى استأثر به الله سنة ٤٤٩ م ، وقد أوصى أن يكتب على قبره هذا البيت :

هذا جناه أبى عليّ (م) وما جنيت على أحد^(١)

ولمات ووقف على قبره زهاء ثمانين ومائة شاعر فيهم الفقهاء والمحدثون والمتصوفون .

صواهب وعقيدته

كان أبو العلاء إنسى^١ الولادة وحشى الغريزة كما وصف نفسه ؛ رقيق القلب

(١) انظر ترجمته مفصلة في كتاب (ذكرى أبى العلاء) للدكتور طه حسين . أو كتاب

(أبو العلاء وما إليه) للراجكوتى . طبع بالقاهرة .

سخيا وفيها ، قامعا لشهواته ، سىء الظن بالناس ، شديد الخذر منهم ، قوى -
الذاكرة ، سريع الحفظ ، وقد روى عنه فى ذلك الأعاجيب ؛ فزعموا أنه كان
يحفظ ما يفهم وما لا يفهم . وقد قال الشعر لإحدى عشرة سنة . ولم يمنع ذهاب
بصره من إجادة التشبيه ومشاركة المبصرين فى ألعابهم : فقد كان يجيد لعب
النرد والشطرنج ويدخل فى كل باب من أبواب الهزل والجد .

وقد اختلف الناس فى عقيدته ، فمنهم من قال إنه ملحد يرى رأى البراهمة .
وغيرهم يقول : إن شعره ككلام الصوفية له باطن وظاهر . وبعضهم يقول : إن
هذه الأشعار الضالة مدسوسة عليه من أعدائه . وأكثر الناس يرجح أنه كان
شاكاً ، فتارة يثبت وأخرى ينفى ، ولذلك كثر التناقض فى شعره ^(١) .

شعره

ينقسم شعر أبى العلاء إلى قسمين : شعر الشباب ويجمعه سقط الزند؛ وشعر
الكهولة وقد وعته اللزوميات . فأما شعره فى الشببية فبكثير المبالغة ، واضح التقليد
بين التكلف ، قلده فيه المتنبي واستمد منه أ كثر معانيه ، واستخف بقواعد
اللغة ، وجارى شعراء عصره فى البديع . بيد أنه استعمل الغريب وأكثرت فى شعره

(١) فبينما يقول مثلا :

| | |
|------------------------------------|---------------------------|
| عجبت لكسرى وأشباعه | وغسل الوجوه بسول البقر |
| وقول النصرى إله يضام | ويظلم حياً ولا ينتصر |
| وقول اليهود إله يحب | رشاش الدماء ورييح القتر |
| وقوم أموا من أقصى البلاد | لرى الجار واثم الحجر |
| فوا عجيباً من مقالاتهم | أيهمى عن الحق كل البشر ؟ |
| وهفت الخنية والصارى ما هتدت | ويهود حارث والحوس مضلة |
| اننان أهل الأرض : ذوهقل بلا | دين ، وآخر دين لاعقل له |
| ضحكنا وكان الضحك متايفامة | وحق لسكان البرية أن يبكوا |
| تحطمنا الأيام حتى كأننا | زجاج ولكن لايماد له سبك |
| إذ به يقول : خلق الناس للبقاء فضلت | أمة يحسبونهم للنقاد |
| إنما ينقلون من دار أعما | ل إلى دار شقوة أو رشاد |

من اصطلاحات العلوم ، وقال في أكثر أغراض الشعر إلا في الخمر والمجون والصيد والهجاء . وقد سلم له في هذا الطور جملة من القصائد المختارة في الرثاء والمدح والفخر . وأما شعره في السكولة فقليل المبالغة والتكلف ؛ قد عارض فيه المتقدمين من العرب ، فأثر اللفظ الجزل والأسلوب البدوي ، وركب القوافي الصعبة ، والتزم ما لا يلزم ، وتشدد في اتباع القياس ، وأكثر من البديع والجناس ، وأودع شعره في هذا الطور فلسفته وآراءه . ولكنه حشاه بالألفاظ الغريبة والتراكيب الغامضة كأنما خاف شر الناس على تلك الثمرات الفكرية فحاطها بأشواك من الكلمات حتى لا يمتد إليها بنان ولا يتذوقها لسان . وقد ابتدع في شعره مناجاة الحيوان كحياورة الديك والحمامة ، ومناظرة الذئب والشاة . وهو أحكم الناس بعد أبي الطيب . ويختص بدوره بالخيال الدقيق ، وتصريف القول في الفلسفة والاجتماع وأخلاق البشر وأنظمة الحكومات والقوانين والأديان ، وهو واحد الشعراء في هذه السبيل .

نثره

نثر أبي العلاء كشعره ، يختلف في كهولته عنه في شبابه . فقد كان كثير المبالغة ، مقعاً بالغريب ، متكلف السجع ، كثير الاصطلاحات العلمية . ثم حكم فلسفته في نثره فقلت المبالغة ، وفاضت الجمل بالمعاني . ولم تخل كتابته من غموض يعنى القارىء وتطويل بمله ؛ فربما كتب الرسالة إلى بعض أصدقائه فيمعن فيها ويستطرد حتى تكون كتاباً ضخماً غريب المسائل كثير الفوائد .

مؤلفاته

أكثر مؤلفاته ذهبت بها ربح الحروب الصليبية ، فلم يبق إلا سقط الزند ، واللزوميات ، والدرعيات ، والفصول والغايات ، وديوان رسائله ، ورسالة الملائكة ،

رسالة الغفران ، وهي شديدة الشبه بالملهاة الإلهية لدانتي^(١) ، والفردوس المفقود ملتن^(٢) لأنه تخيل رجلاً صعد إلى السماء ووصف ما شاهده هناك ، وانتقد فيها الشعراء والرواة والنحاة بأسلوب روائى بديع . ثم عبث الوليد . وهو شرح ديوان البحترى وقد طبع في دمشق . وقد فقد كتاب الأبيك والقصون في مائة مجلد ، وهو دائرة معارف في العلم والأدب ؛ ومعجز أحمد ، وهو شرح ديوان المتنبي ؛ وذكرى حبيب ، وهو شرح ديوان أبي تمام ، وغير ذلك كثير .

نموذج من شعره

قال ينعى على الحكام استبدادهم بالرعية وعيبتهم بمصالحها :
مُلٌّ للقَامِ فكم أعاشر أمة أمرت بغير صلاحها أمرؤها
ظلموا الرعية واستجازوا كيدها وغدّوا مصالحها وهم أجراؤها

وقال في أحكام الحظ وأوهام الحياة :

تباركت أنهارُ البلاد سوانح بعذب وخُصّت بالملوحة زمزم ا
هو الحظ ، غيرُ البيدِ ساف بأنفه خزاحى وأنف العود بالذل يخزم
توهمت خيراً في الزمان وأهله وكان خيالاً لا يصح التوهم
فما النور نوراً ولا الفجر جدول ولا الشمس دينار ولا البدر درهم

ومن قصيدة له في الرثاء :

صاح ا هذى قبورُنا تملأ الرُحَّ بَ فأين القبورُ من عهد عاد ؟
خفف الوطء ما أظن أديم ال أرض إلا من هذه الأجساد
وقبيحٌ بنا وإن بصدّ العم د هوانُ الآباء والأجداد

(١) دانتي (Dante) زعيم الشعر الإيطالى وحبيب بياتريس (Beatriz) ومنشئ الملهاة الإلهية (La divine Comedie) ولد سنة ١٢٦٥ وتوفى سنة ١٣٤١ م .
(٢) ملتن (Milton) شاعر انجليزى شهير كان ناموساً لكرموبل فلما مات تضعف أمره وخل ذكره ، ثم كيف بصره ، فكان يمل على زوجته وابنتيه فصبته الخالدة الفردوس المفقود (le paradis perdu) وهي ركن من أركان الشعر الانجليزى وإحدى روائع الجيال البشرى . ولد سنة ١٦٠٨ وتوفى سنة ١٦٧٤ .

سر إن اسطمت في الهواء رُوَيْدًا
رُبَّ لَحْدٍ قَدْ صَارَ لِحْدًا مَرَارًا
فاسأل الفرقدين عن أَحْسَا
كم أقاما على زوال نهار
تعبت كلها الحياة فما أء
إن حزناً في ساعة الموت أضعا
لا اختيالا على رُفات العباد
ضاحكاً من تزامم الأضداد
من قبيل وآنسا من بلاد
وأنارا لِمُدْجٍ في سواد
جب إلا من راغب في ازدياد
فُ سرور في ساعة الميلاد
وقال ينعي على المتزهدين المرأين من أهل الدين :

رُوَيْدُكَ قَدْ غَرِرْتَ وَأَنْتِ حَرٌّ
يُجْرَمُ فِيكُمْ الصَّبَاءُ صُبْحًا
يقول لكم غدوت بلا كساء
إذا فعل الفتى ما عنه يَنْهَى
بصاحب حيلة يعظ النساء
ويشربها على عَمْدٍ مساء
وفي لذاتها رهن الكساء
فمن جهتين لاجهة أساء
وقال :

يحسن مرأى لبنى آدم
ما فيهم بَرٌّ ولا ناسكُ
أفضل من أفضلهم صخرة
وكلهم في الذوق لا يعذبُ
إلا إلى نفع له يجذب
لا تظلم الناس ولا تكذب
وقال :

خفٌ دَنِيًّا كَمَا تَخَافُ سَرِيًّا
وَالصَّلَالُ الَّتِي تَخَافُ رِداها
صال ليث الشرى بظفر وناب
شرها في الرءوس والأذنان
وقال :

عجبي للطبيب يُلحد في الخا
رُبَّ رُوحٍ كَطَائِرِ القفص المس
لقى من بعد درسه التشرىحا
يجون ترجو بموتها التشرىحا

الشعر والشعراء في الأندلس

أفلت صقر قریش من شرك السفاح ونجا بنفسه وأهله إلى الأندلس . وكان الملك فيها يومئذ يضطرب بالخلاف بين المضرية واليمينية ؛ والبلاد تنتظر من يلمها من شتات ، ويحييها من موات ، ويحميها من فرقة ؛ فكان عبدالرحمن الداخل هو الرجل الموعود والإمام المنتظر . فاستولى عليها سنة ١٣٨ هـ بمعونة اليمينية . ونشر علم بني أمية في قرطبة بعد ما طوته المسوودة في دمشق . وتعاقد على عرشها من أولاده وحفدته تسعة عشر خليفة في أربعة وثمانين ومائتي عام ، حتى أصابهم داء الأمم ففترقوا وتمزقوا ، وأحل ملكهم إلى دويلات صغيرة عرف أصحابها بملوك الطوائف ، كبنى جهور في قرطبة ، وابن عباد في اشبيلية ، وابن الأفطس في بطليوس .

وكانت سياسة الأمويين في الغرب غير سياستهم في الشرق ، فقد كانوا في دولتهم الأولى يترفعون عن خلط الموالى ، ويعززون بمصيبة الجنس ، فأصبحوا في هذه الدولة مدنيين ، يمدون إلى القوط أسباب الاتصال بهم ، ويمهدون لهم سبل الاندماج فيهم ، صنع بنى العباس في أبناء الفرس . فكان من نتيجة هذا الارتباط وأثر هذا الاختلاط أن حدث في الأندلس ما حدث في العراق من امتزاج الجنسية السامية بالجنسية الآرية ، ونضج العقلية العربية ، واستعمار النهضة الأدبية ، وازدهار الأندلس بحضارة إسلامية مادتها من الشرق وبنائها^(١) من العرب ، لأن أوربا يومئذ كانت تحبط في دياجير الجهالة ، وترسف في أغلال الأمية ، فاقنبت الأسيان ثقافة العرب فاعتقدوا دينهم ، وتكلموا لغتهم ، وتعلموا أديبهم ، وهجروا اللاتينية

(١) أما حضارة الإسلام في بغداد فكانت من صنع الفرس والسرمان والهنود ، لأن العرب كانوا يومئذ وراث بدواة وجمالة ، وهؤلاء كانوا وراث ملك وحضارة وفلسفة وعلم ، فانتقل كل أولئك إلى الإسلام بانتقالهم إليه .

وآدابها حتى أنسوها ، وحتى جأر بالشكوى من هذه الحال كاهن^(١) قرطبة .
ولكن القسيسين أنفسهم لم يستطيعوا الوقوف بنجوة من هذا السيل فجر فهم
جرفاً حتى اضطروهم إلى نقل كتب الدين إلى اللغة العربية .

وكان الأمويون وعرب الأندلس لا ينفكون ملتفتين إلى الشرق موطن
الجنس والدين واللغة والأدب والحضارة فيسيرون على ضيائه ، ويستمدون من
زعمائه وعلمائه ، ويحذون في سياستهم وإدارتهم حذو العباسيين ؛ فشيء المدارس
الجامعة ، وأنشأوا المكاتب العامة ، ونشطوا حركة التأليف ، وأذكو نهضة الأدب ،
ورفعوا مجد الفنون ، وعقدوا مجالس المناظرة والسامرة والغناء . بلغت الأندلس
من ذلك كله الحظ الوفور في عهد عبد الرحمن الثاني (٢٠٦ - ٢٣٨ هـ) وبلغت
أوج سلطانها وغاية عمرانها وتمازج بنائها في عصر أمير المؤمنين عبد الرحمن الثالث
(٣٠٠ - ٣٥٠) وابنه الحكم ، وهو عصرها الذهبي الذي بلغت فيه من السطوة
والقوة والثروة والوحدة والحضارة والعمارة والفن والأدب ما كادت تضارع به بغداد ،
وما أدهشت به المؤرخ دوزي حتى قال : « إن عبد الرحمن الناصر أولى أن يكون
من ملوك العصر الحديث لا من ملوك القرون الوسطى » . وهكذا كانت حضارة
الإسلام تشع في بغداد وقرطبة في وقت واحد فتبدد دياجير الشرق وتكشف
بجاهيل الغرب ، ولكن تمام الشيء مبدأ نقصانه : فلم تكد خلافة الحكم
ابن الناصر تنتهي حتى دب في خلافة بني مروان ديب البلى والهرم ، وآل سلطانها
إلى ملوك الطوائف فاضطلموا به قليلاً ثم أوهن كواهلهم داء الانقسام وفساد النظام .
وغاداهم المرابطون من البربر فقوضوا أركانهم ، ونازعوهم سلطانهم ؛ وراوحهم

(١) قال هذا السكاهن ما ملخصه عن كتاب تاريخ العرب في إسبانيا للدوزيج ص ١٠٣ .
لنا نحب أن نقرأ الشعر والقصص وندرس الدين والفلسفة في اللغة العربية فنتمتع لغة هذبة الألفاظ
بليغة الأداء جميلة الإنشاء ، ولا تكاد تجد فينا من يقرأ الكتب المقدسة باللغة اللاتينية ،
وشبابنا الأذكاء جميعاً لا يعرفون غير لغة العرب وآدابهم . وكلما قرأوا كتبها ودرسوا آدابها
أعجبوا بها ، فإذا حدثهم عن كتاب من الكتب اللاتينية سحروا منه وقالوا إن الفائدة منه
لا تساوي التعب في قراءته . وهكذا نسي المسيحيون لغتهم ، وجعلوا كتابتها وبلاغتها . وحذقوا
اللسان العربي حتى يكتبونه نثرًا ونظماً بأهلوب أئبق ، وتصوير دقيق ، يفوقون فيه العرب أحياناً

الفرنج متسكانيين فاستلبوا الملك من أيديهم مدينة بعد مدينة ، حتى تمت الهزيمة وعم الجلاء بفرار أبي عبد الله محمد بن علي من غرناطة سنة ٨٩٨ هـ وكان ذلك آخر عهد العرب والعربية بالجزيرة .

ذلك مجمل من القول في حال العرب بالأندلس سقناه إليك تمهيداً لما سنلُبه إماماً من وصف شعرهم وذكر نفر من شعرائهم .

وليس من غرضنا أن نعرض هنا لدراسة الشعر الأندلسي فنفصله ونحلله ، وإنما هي لمعة وجيزة تكشف عن مناهجه ومناحيه ، وتبين تأثير البيئة والطبيعة فيه . فقد وجد الشعراء العرب في أوروبا ما لم يجدوه في آسيا من الحياة المتنوعة ، والجواء المتغيرة ، والمناظر المختلفة ، والأمطار المتصلة ، والتمائل الجميلة ، والأدواح الظليلة ، والأنهار الروية ، والسهول الغنية ، والجبال المؤزرة بعيم النبات ، والمروج للمطرزة بألوان زهر ؛ فصفت أذهانهم ، وسما وجدانهم ، وعذب بياضهم ، ووسعوا دائرة الأدب ، وهذبوا الشعر فتأنقوا في ألفاظه ، وتنوَّقوا في معانيه ، ونوعوا في قوافيه ، وتفننوا في خياله ، ودبجوه تديبج الزهر ، وسلسلوه سلسلة النهر ، وأكثروا من نظمه في البحور الخفيفة القصيرة ، حتى ضاقت أوزان العروض عما تقتضيه رقة الحضارة ورقى الغناء . فاستحدثوا الموشح باللغة الفصحى ، ثم تطور عند انحطاط الأدب واضمحلال أمر العرب إلى الزجل باللغة العامية .

وصرفوا الشعر في أغراض شتى كالملاح والغزل والرثاء والدعاء والزهد والتصوف والفلسفة والمراح والمجون وطالجوا سياسة الاجتماع ، ونظموا حوادث التاريخ ، وأبدعوا ما شاء الإبداع في الوصف : فوصفوا الأبنية والتمائيل والقصور والبرك والنوافير والنواعير والحدايق والمروج والأودية والأديرة والأنهار والأشجار والرياح ومجالس الطرب ؛ وكل ذلك في حلاوة لفظ ورقة أسلوب ودقة صنعة . إلا أن شعرهم على الجملة جار مجرى الشعر المشرق ، فلم يتعد حدوده ولم يكسر قيوده إلا بمقدار ما ذكرناه لك من ابتداء الموشح وتنويع القافية ؛ وذلك لاعتقادهم أنه هو الأصل الذي يُرجع إليه ، والقالب الذي يضرب عليه . ولئن صح من بعض الوجوه ما يتقول به أدباء الفرنج من أن الشعر العربي

تصنع في اللفظ ، وتعمل في الشكل ، وليس فيه خيال رائق ، ولا شعور صادق^(١) فلن يصح هذا القول بحال في شعراء الأندلس . فإنهم عبروا عن عواطفهم ، وترجموا عن مشاعرهم ، بلفظ جيد وأسلوب أنيق ، فطافوا^(٢) على قرائهم بأكواب من ذهب فيها ما تشبیهه الأنفس . وإنك لترى في وصفهم مناظر الطبيعة وتصويرهم وجوه الأرض مشابهة لأشعار الفرنج . واقتدأخذ الفرنسيون والأسبان عن عرب الأندلس غير العلم والموسيقى وفن العمارة ، ضروراً بشئ من الشعر ، كالمدهج والهجاء والغزل ، كما أخذوا عنهم القافية ، وكانوا من قبل يكتبون باتحاد الحروف الصوتية الأخيرة (assonance) غير ناظرين إلى ما بعدها^(٣) .

ولو طال على الأندلسيين الأمد في الحضارة ، وتعاقت أطوار الرقي على اللغة وآدابها لأتوا بأبلغ مما جاء به روسو وهو جو ولا مرتين وأصرا بهم . ولكن فاجأهم الانقسام ، وداهمم الخصام ، فانشقت عصاهم ، وانفصمت عراهم ، ونضبت قرائحهم وأمحلّت عقولهم ، وذهبوا كأمس الدائر ، سنة الله في خلقه . ولن تجد لسنة الله تبديلاً .

(١) على أن من منصفى كتاب الفرنج من نقض هذا الحكم كالاستاذ جول لومتر (Jules Lemaitre) (١٨٥٣ — ١٩١٤) إذ يقول في مقدمته لكتاب حديقة الزهور لواصل باشا « إن الشعر العربي على جلته أتق شعر هرفه العالم بما حوى من العواطف الرقيقة ؛ وهو أقرب الأشعار الى معاني الرجولة والشرف والحياة الصحيح والإيمان القوى » .

(٢) إشارة الى من شبه معاني الشعر العربي في وحدتها وتنوع ألفاظها بتمراب من نوع واحد - بقى بآنية مختلفة ، فمنها الذهب والفضة والبلور والخزف .

(٣) كان التروبادور (les Iroubadours) وهم شعراء جنوب فرنسا في القرون الوسطى ، ينتقلون من قصر الى قصر منتجين الأمراء والوجهاء بالمدح ، وكانت أعمارهم خلواً من القافية فاقتبسوها من عرب الأندلس بطبيعة الجوار والخلاط ، كما اقتبسوا في النظم أنواع الغزل والمدح والهجاء ، وفي النثر القصص والأمثال والملح . وإنما خني ذلك الأثر العربي في الأدب الفرنسي الحديث لأن الغلبة كانت لأهل الشمال ولانهم أويل (Oil) ولشعراهم التروبير (les trouveres) .

وقال لويس فياردو (Louis Viardot) في الجزء الثاني من كتاب تاريخ العرب والبربر في اسبانيا : « كان الشعر الفرنسي على مثال الشعر الأسباني المأخوذ عن الشعر العربي لا هن اليوناني ولا هن الروماني ، لأنهم لم يبقوا على هذا ولا ذلك قبل القرن الرابع عشر حتى يقدوه ... وقد أخذنا صناعة الشعر والقوافي من العرب . وهذه الصناعة جاءتنا من الأندلس عن طريق مرسيبيا وطولون مع التجار الاسبان الذين كانوا يقدون اليهما . . . »

نماذج من الشعر الأندلسي

قال أبو الفضل بن شرف القيرواني :

مظَلَّ الليل بوعْدِ الفَلَقِ وتشكَّى النجمُ طولَ الأرقِ
ضربت ريح الصَّبَا مسك الدجى فاستفاد الروض طيب العبقِ
وَأَلاحَ الفجرُ خَدَّ خَجِلا جالَ من رَشحِ الندى في عَرِقِ
جاوز الليل إلى أنجمه فتساقطن سقوط الورقِ
واستفاض الصبح فيها فيضة أيقن النجم لها بالفرقِ
فأنجلى ذاك السَّنَا عن حلك وأمحي ذلك الدجى عن شفقِ
يأبى بعد الكرى طيفُ سرى طارقاً عن سكن لم يطرقِ
زارني والليل ناع سدّقه وهو مطلوب بباقي الرمقِ
ودموع الطل تمريها الصَّبَا وجفون الروض غرقِ الحدقِ
فتأبى في إزار ثابت وتثنى في وشاح قلقِ
وتجلى وجهه عن شعره فتجلى فآقَ عن غسقِ
سهب الصبح دجى ليلته فبما الخدَّ ببعض الشفقِ
سلبت عيناه حدّى سيفه وتجلى خدّه بالرونقِ

وقال ابن حمديس الصقلي يصف ديراً وراهبة تبيع الخمر .

وراهبة أغلقت ديرها فسكنا مع الليل زوارها
هدانا إليها شذى قهوة تذيع لأنفك أسرارها
طرحت بميزانها درهمي فأجرت من الدن دينارها
تفرس في شمس طيها مجيدُ الفراسة فاخترها
فتى دارس الخمر حتى درى عصير الخمر وأعصارها
يعدُّ لما شئت من قهوة سديها ويعرف خمارها
وعدنا إلى هالك أطلعت على قضب البان أقمارها
يرى ملك اللهو فيها المهموم تشور فيقتل نوارها

وقد سكنت حركات الأسي قيانُ تحرك أوتارها
فهذى تعانق لى عودها وتلك تقبل مزمارها
وراقصة لقطت رجلها حابَ يد نقرت طارها
وقُضِب من الشمع مصفرة تريك من النار نوارها
كان لها عمداً صنفقت وقد وزن العدل أقطارها
إلى أن قال :

ذكرت صقليةً والأسي يهيج للنفس تذكارها
ومنزلة للتصاىي خلت وكان بنو الظرف عمّارها
فإن كنت أخرجتُ من جفة فإني أحدث أخبارها
ولولا ملوحة ماء البكا ء حسبت دموعى أنهارها
وقال ابن هانىء يصف أكولاً :

ياليت شعرى ، إذا أوى إلى فمه
كأنها --- وخيث الزاد يضرهما ---
تبارك الله ما أمضى أسنته
كان بيت سلاح فيه مختزنٌ
أين الأسنان أم أين الصوارم أم
كأنما الحمل المشوى فى يده
لف الجداء بأيديها وأرجلها
وغادر البط من منق وواحدة
يختمض الرز من قرن إلى قدم
كأنما كل ركن من طبائمه
كأنما فى الحشا من حمل معدته
قوموا بنا فلقد ريعت خواطرننا
نصحتكم ، نخذوا من شذقه وزراً
أحلقه لهوات أم ميادين ؟
جهنم ، قذفت فيها الشياطين
كأنما كل فك منه طاحون
مما أعدته للرسل الفراعين
أين الخناجر أم أين السكاكين
ذو النون فى الماء لما عضه النون
كأنما افتستهن السراحين
كأنما اختطفهن الشواهين
وللابلاعيم تطريب وتاجين
نار ، وفى كل عضو منه كانون !
قرنفل وجراريش وكون
وجاذبتنا أعنتها البراذين
أولا ، فأنتم سويق فيه مطحون

وقال المعتمد بن عباد صاحب أشبيلية وقد دخل عليه في سجنه بنائه يوم عيد في أطمار بالية بعد أن سلمه ابن تاشفين ملكه وسجنه بأغمت :

فيا مضي كنت بالأعياد مسرورا فساءك العيد في أغمت مأسورا
تري بناتك في الأطمار جائعة يفزان للناس ما يملكن قاطميرا
يطأن في الطين والأقدام حافية كأنها لم تطأ مسكاً وكافورا
أفطرت في العيد لا عادت إساءته فكان فطرك للأكباد تفتطيرا
قد كان دهرك إن تأمره ممتلا فردك الدهر منهياً ومأمورا
من بات بعدك في ملك يسر به فإنما بات بالأحلام مغرورا

وقال ابن دراج القسطلی من قصيدة يصف وداعه لزوجته وولده الصغير :

ولما تدانت للوداع وقد هفا بصبري منه أنة وزفير
تناشدني عهد المودة والهوى وفي المهدي مفوم النداء صغير
عبي بمرجوع الجواب، ولفظه بموقع أهواء النفوس خبير
تبوأ ممنوع القلوب ومهدت له أذرع محفوفة ونحور
وطار جناح البين بي وهفت بها جوائح من ذعر الفراق تطير
ولو شاهدتني والهواجر تلتظي على ودرقاق الشراب ينور
أسلط حر الهاجرات إذا سطا على حروجهي والأصيل هجير
وأستنشق الفكباء وهي لوافح وأستوطي الرمضاء وهي تفور
وللموت في عين الجبان تلون وللذعر في سمع الجريء صغير
لبان لها أنى من البين جازع وأنا على مض الخطوب صبور

وقال الوزير ابن زيدون وهو سجين :

ما على ظني باس يجرح الدهر وياسو
ربما أشرف بالمرء على الآمال ياس
ولقد ينجيك إغفا ل ويرديك احتراس
والحاذير سهام والمقادير قياس

وَلَكُمْ أَجْدَى قَمُودٌ وَلَكُمْ أَكْدَى التَّمَّاسِ !
وكذا الحكم : إذا ما عز ناس ذل ناس
وبنو الأيام أخبسا فُ سَرَاةٌ وَخِساس
نلبس الدنيا ، ولكن متعةٌ ذاك اللباس
يا أبا حفص وما سا واك في فهم إياس
من سنا رأيك لى فى (م) غَسَقَ الخُطْبِ اقتباس
لا يكنْ عهدك وَرَدًا إن عهدى لك آس
وأدر ذكرى كاسًا ما امتطت كفك كاس
واغتنم صفو الليالى إنما العيش اختلاس
ما ترى فى معشر حا لوا عن العهد وخصاوا؟
أذُوبٌ هامت بلجمى فانتهابٌ وانتهاس
كلهم يسأل عن حا لى ، ولذئب اعتباس
إن قسا الدهر فللما من الصخر انجاس
ولئن أمسيت محبو سًا فللغيث احتباس
ويُفتُ المسك فى التر ب فيسوطاً ويُداس

ومن أجود موشحاتهم قول ابن بقی :

خذ حديث الشوق عن نفسى وعن الدمع الذى همسا

ما ترى شوقى قد وقدا

وها دمعى واطردا

واغتندى قلبى عليك سدى !

آه من ماء ومن قبس بين طرفى والحشا جُما !

بأبي ريم إذا سفرا

أطلعت أزرارهُ قرأ

فاحذروه كلما نظرا

فبالحافظ الجفون قسى أنا منها بمض من صرعا

وقال بمضمهم

ما المـوـلـه من سكره لا يفيق

يا له سكرانا !

من غير خمر . ما للكثيب المشوق

يندب الأوطانا

هل تستعاد ، أيا مننا بالخليج

وليالينا

أو يستفاد ، من النسيم الأريج

مسك دارينا

وادي يكاد ، حسن المكان البهيج

أن يحيينا

ونهر أظله دوح عليه أنيق

مورق فيندان

والمساء يجرى وعأم وغريق

من جى الريحان

ومن موشح ابن سهل الإسرائيلي :

هل درى ظبي الحمى أن قد حى قلب صب حله عن مكنس

فهوفى حر وخفق مثل ما لعبت ريح الصبا بالقبس

يابدوراً أطلعت يوم النوى غرراً تسلك في نهج الفرد

ما لقلبي في الهوى ذنب سوى منكم الحسنُ ومن عيني النظرُ

أجتنى اللذات مكلومَ الجوى والتذاذى من حبيبي بالفكر
كلما أشكوه وَجداً بَسِما كالرُّبى بالعارض المنبجس
إذ يقيم القَطْرُ فيه مأتماً وهى من بهجتها فى عرسُ

* * *

غالبٌ لى غالبٌ بالتؤده بأبى أفديه من حاف رقيق
ما رأينا مثل ثغر نَضَدَه أفتحواناً عُصِرَت منه رحيق
أخذت عيناه منه العربده وفؤادى سكرُهُ ما إن يُفريق
فاحم الجمّة معسول اللّمي أكحل اللحظ شهيّ اللّس
وجهه يتلو الضحى مبتسماً وهو من إعرّاضه فى عبس

شعراء الأندلس

أبن عبد ربه

٢٤٦ — ٥٣٢٨

نسأته وحياته

هو أبو عمر أحمد بن محمد بن عبد ربه الأموى بالولاء ، لأن جده كان مولى
لمشام بن عبد الرحمن الداخل ثانى خلفاء الأمويين بالأندلس . ولد هذا الكاتب
الشاعر بقرطبة ونشأ بها ، ثم تخرج على علماء الأندلس وأدبائها وامتاز بسعة الاطلاع
فى العلم والرواية ، وطول الباع فى الشعر والكتابة . قال ياقوت فى معجمه : « وكان
لأبى عمر بالعلم جلاله وبالأدب رياسة وشهرة مع ديانة وصيانة ، واتفقت له أيام
وولايات للعلم فيها نفاق ، فساد بعد الخمول ، وأثرى بعد الفقر ، وأشير إليه بالفضل ،
إلا أنه غلب عليه الشعر » ثم أصيب فى أعقاب عمره بالفالج . وتوفى سنة ٣٢٨ هجرية

شعره

أكثر شعر ابن عبد ربه وأجمله في الوصف والغزل . وهو أشبه بشعر ابن زيدون في الجمع بين روعة الشرقيين وجزالة النظم ، ورقة الغربيين وسلاستهم . وهو أكثر ترديداً لأخبار المشاركة وأصح تقليداً لأشعارهم . وقد اتصلت شهرته بهؤلاء فرووا شعره ، ورددوا ذكره ، وشهدوا له بالتقدم والإجادة . روى ابن الخطيب أن الوليد الأندلسي لما حج عرّج في منصرفه على مصر ، فلقى بها أبا الطيب المتنبي في جامع عمرو بن العاص ، فأفاض في الحديث ملياً ، ثم قال المتنبي : ألا تشدني للمليح الأندلسي ؟ يعني ابن عبد ربه . فأنشده الوليد شيئاً من شعره ، فصفق له واستمعه ثم قال : « يا ابن عبد ربه لقد تأتيك العراق حبوا ! » وكفى بشهادة المتنبي دليلاً على فضل الرجل وعلو كعبه . وابن عبد ربه من الشعراء المكثرين . فقد رأى الحميدى من شعره عشرين جزءاً ونيفاً من جملة ما جمع للحكم بن عبد الرحمن الناصر أكثرها بخطه . وقد زين كتابه العقد الفريد بكثير منه في كل معنى . وقال في مقدمته : « وحليت كل كتاب منها بشواهد من الشعر تجانس الأخبار في معانيها ، وتوافقها في مذاهبها وقرنت منها غرائب من شعري ليعلم الناظر في كتابنا هذا أن لغربنا على قاصيته ، وبلدنا على انقطاعه ، حظاً من المنظوم والنثور » .

وهو من السابقين إلى اختراع الموشحات ، وله طبع في الشعر القصصي وهو قليل في العربية . من ذلك أرجوزته في تاريخ عبد الرحمن الناصر صاحب الأندلس في عصره ، ولكنها إلى الشعر التعليمي (Didactique) أقرب منها إلى الشعر القصصي (Epique) لجفافها وضعف خيالها وبمدها عن قواعد الملحمة ، وهي منشورة في الجزء الثاني من العقد الفريد .

ولما تناهت به السن وأرغشه الكبر ، ألق عن صبوته ، وأخلص لله في توبته ، ونظم أشعاراً كثيرة سماها بالمحصات لأنه نقض كل قطعة قالها في الغزل

واللهو ، بقطعة من بحرهما ورويها في الموعظة والزهد ولم يكتب ابن عبد ربه
بنبوغه في الشعر وتفوقه في النثر ، فأراد أن يدل على براعته في التأليف أيضاً ،
فصنف كتاباً في الأدب سماه العقد الفريد .

العقد الفريد

وهو كتاب من أمهات كتب الأدب ، جامع لشتيت الفوائد ومنثور المسائل
في الأخبار والأنساب والأمثال والشعر والعروض حتى الطب والموسيقى . وقد
استوعب خلاصة ما دُوِّن من كتب الأصمى وأبي عبيدة والجاحظ وابن قتيبة
وغيرهم . ولم يقتصر على المأثور عن العرب بل وشئ كتابه بما ترجم عن اليونان
والفرس والهنود من ضروب الحكمة والموعظة والملح . وقد تأنق في تبويبه وتفنن
في ترتيبه ، قسمه إلى خمسة وعشرين كتاباً في موضوعات شتى بدأ كلامها بمقدمة
بليغة من إنشائه تبين الغرض منه ؛ وسمى كل كتاب بجوهرة من جواهر العقد
كالؤلؤة والفريدة والزرجدة والجمانة والمرجانة والياقوتة والجوهرة الخ .

ومن الغريب أن المؤلف وهو أندلسي لم يشر إلى الأندلس ولا إلى أهلها
بكلمة ، اللهم إلا إلى نفسه ا حتى إن صاحب بن عباد لما سمع بهذا الكتاب حرص
حتى حصل عليه . فلما تصفحه قال : « هذه بضاعتنا ردت إلينا . ظننت أن هذا
الكتاب يشتمل على شيء من أخبار بلادهم ، فإذا به يشتمل على أخبار بلادنا .
لا حاجة لنا به ، ثم رده » . والكتاب في ثلاثة مجلدات تزيد صفحاتها على ألف
صفحة وقد طبع بالقاهرة أخيراً في خمسة مجلدات .

نموذج من شعره

قال في الغزل :

يا لؤلؤا يسبي العقول أنيقا ورشاً بتقطيع القلوب رقيقاً
ما إن رأيت ولا سمعت بمنته درأ يعود من الحياء عقيقاً

وإذا نظرت إلى محاسن وجهه
يا من تقطع خصره من رقة
أبصرت وجهك في سناه غريقا
وقال في موقف الوداع :

ودعنى بزورة واعتناق
وبدت لى فأشرق الصبح منها
ثم نادى متى يكون التلاقى !
يا سقيم الجفون من غير سقم
بين تلك الجيوب والأطواق
إن يوم الفراق أفظع يوم
بين عينيك مصرعُ العشاق
ليتنى متى قبل يوم الفراق !
وقال فى وصف رمح وسيف :

بكلّ ردّينى كأن سناه
تقاصرت الآجال فى طول منته
شهاب بدافى ظلمة الليل ساطع
وذى شطّب تقضى المنايا لحكمه
وعادت به الآمال وهى لجانع
يسلّل أرواح الحكمة انسلاله
وليس لما تقضى المنية دافع
وأخر شعر قاله قوله :

بليت وأبلىتنى الليالى بكرّها
ومالى لأبلى لسبعين حجةً
وصرفان للأيام معتوران
ولست أبالى من تباريح علتى
وعشر أتت من بعدها سنتان
إذا كان عقلى باقياً ولسانى

ابن هانىء الأندلسى

٣٢٦ - ٥٣٦٣

نشأته ومبائه

ولد أبو القاسم محمد بن هانىء الأزدى الأندلسى بأشبيلية فى زهرة العهد الأموى .
وفى أوج عصره الذهبى ، وفى حكم الملك الناصر . وكانت أشبيلية إذ ذاك أخصب
بلاد الأندلس علماً وأدباً ، فنشأ بها ودرس الأدب العربى على النمط المألوف .

يومئذ من السماع والحفظ والإنشاد والمحاكاة ، وأبوه هانيء يعضده ويرشده لأنه هو نفسه أديب يعيش على الأدب ويتكسب بالشعر . واستهوى شاعرنا ما عليه طائفة الشعراء من النعمة والثراء فسلك سبيلهم وتبع دليلهم ، حتى اتصل بصاحب أشبيلية فنال حظوته وكسب محبته . وكانت ثمار الحضارة الأندلسية من السرف والترف واللهو قد بدت في ذلك الحين ، فقفط ابن هانيء منها باليدين ولم يجد له رادعاً من خلق ولا وازعاً من دين . وأخذ بشيء من مذاهب الفلاسفة ، والأندلسيون على نقيض الشرقيين يمتنون البدعة وينصرون السنة وينكرون الفلسفة ويصدون عن البحث في الدين ، فتألب أهل أشبيلية عليه ، وكادوا يصلون بالأذى إليه . وأتهموا الملك بمشايسته على رأيه ، فأشار عليه أن يغيب ريثما تهدأ نائرة القوم وينسونه . فرحل إلى عدوة المغرب وعمره ست وعشرون سنة ، فلقى القائد جوهرراً فأخ مصر المعز فمدحه . وأخصب زرع آماله فوصله الجند الميمون بالمعز لدين الله العبیدی فاصطفاه إليه وأغدق إحسانه عليه . ولما خرج المعز يريد مصر بعد أن فتحها جوهر وراض له الأمر فيها شيعه ابن هانيء وتخلف عنه لياخذ عياله وماله ثم يلحق به إلى مصر . فلما كان في طريقه إليها عرج على برقة ونزل في ضيافة رجل من أهلها ، فأقام عنده يقصف ويلهو ، حتى أمعن ذات يوم في الشراب فسكر سكرة أفضت به إلى سكرة الموت . فقيل إن نداماه من أهل ضيافته عربدوا عليه وقتلوه ، أو إنه خرج من الدار وهو سكران طافح فصرعته الخمر في الطريق فمات ، وعمره ست وثلاثون سنة . فلما بلغ المعز وفاته أسف عليه وقال : « هذا الرجل كنا نرجو أن نفاخر به شعراء الشرق فلم يُقدِّر لنا ذلك » .

أخبره

كان ابن هانيء ماجناً خليع العذار صاحب لهو ونخر . وكان ذكي الفؤاد فكفه الأخلاق جم الأدب صريح القول والفعل لا يبالي أين يقع ذلك من الناس

ومصداق تلك الصفات فيه مجاهرته بأراء تنسكرها بيئته ، وترفضها طبقتة ، ومبالغته في شعره إلى حد الكفر ، والشاعر دون الفيلسوف أحرص الناس على رضا الناس . ناهيك بميئته الداعرة التي قل أن ماتها رجل .

شعره

ابن هانيء على رأى الجمهور أمير شعراء الأندلس غير مدافع . وفي هذا الرأى على إطلاقه إجحاف بأمثال ابن زيدون . على أن شعره من الطبقة العالية التي تجمع بين سلاسة التفسكير ، وسلامة التعبير ، ومعالجة كثير من مسائل الحياة وأحوال الاجتماع وخوارج النفس . وقد اطلع^(١) على شعر المتنبي وهو معاصره فأعجب بأسلوبه ومذهبه وسار على منهاجه وأتم بهديه : فهو مثله يذهب في الشعر مذهب الفلاسفة ، وينثر في ثنايا مدحه الحكم والأمثال، ويتخذ من حياته الخاصة مورداً لشعره ، ويكثر من ذكر الحرب والقوة والغلب ، ويجيد وصف ما يراه ويسمعه إجادة نادرة ، ولذلك سموه متنبى الغرب على عادة المغاربة من حب التشبيه بفحول المشاركة . ولكن بين الرجلين من التفاوت والبعد ما بين الوجه والبدر ، والعزيمة والدهر ، والكرم والبحر ، في هذه التشابيه المعروفة . فشتان بين ما يصدر عن طبع وبين ما يصدر عن تقليد . وكأن هذه الموازنة أثارت سخطاً أبى العلاء ، وعصبية للمتنبي شديدة كما تعرف ، فقال في ابن هانيء : « ما أشبهه إلا برحا تطحن قروناً لأجل القمعة التي في أفاظه » ومن يدري ؟ فلو أن الله نسا في أجل ابن هانيء فلم تأخذه المنون عبطة لأحكمته السن وصقلت شعره التجارب وكان للتاريخ فيه رأى آخر .

(١) يؤيد ذلك قصيدته الرائية التي كتبها إلى رجل زعم أنه لقي المتنبي وقرأ عليه شعره . فاستناره ابن هانيء الديوان فأعاره إياه ثم أساء معاملته في تقاضيه :

| | | |
|-----------|----------------------------|---------------------------------|
| ومطلبها : | تنبيهه للثنى فيكم هصرأ | ولو أرادكم في شعره كقرأ |
| ومنها : | تهم عليه بمرآه وخلتكم | لم تدركوا منه لاعتبأ ولا أثرا |
| ومنها : | أريتموني مثالا من روايتكم | كاعجبى أن لا ينصح الحيرا |
| ومنها : | فلو رأى ما دهان في كتابكم | وما دهى شعره فيكم لا شعرا |
| ومنها : | أهرتموني قفيساً منه في آدم | فن لسكم أن تماروا البعث والنظرا |

أما الأغراض التي قال فيها فالمدح وهو معظم شعره ، والغزل ولا يقوله إلا ابتداءً لتصيد أو ابتغاء لتقليد ؛ والرثاء والوصف وهو فيهما مقل مجيد . وقد شغله ما شغل المتنبي عن الطبيعة وأسرارها ومناظرها فلم يكن لها في شعره غير حظ ضئيل .

نموذج من شعره

قال من قصيدة في الرثاء وهي من أجود شعره :

| | |
|--------------------------|----------------------------|
| إنا وفي آمال أنفسنا | طول وفي أعمارنا قصرُ |
| لنرى بأعيننا مصارعنا | لو كانت الألباب تعتبر |
| مما دهانا أن حاصرنا | أجفاننا والغائب الفكر |
| وإذا تدبرنا جوارحنا | فأكلهنَّ العينُ والنظر |
| لو كان للألباب ممتحن | ما عدَّ منها السمعُ والبصر |
| أيُّ الحياة ألدَّ عيشتها | من بعد علمي أنني بشر |
| خرست لعمر الله ألسنتنا | لما تكلم فوقنا القدر |

ومنها :

| | |
|-------------------------|----------------------------|
| وإذا صحبت العيش أوله | صفواً ، فهينٌ بعمده الكدرُ |
| وإذا اتهميت إلى مدى أمل | دركا ، فيومٌ واحدٌ عمرُ |
| وتحسِرُ عيش أنت لابسه | عيشٌ جنى ثمراته الكبرُ |
| ولكل حلبة سابق أمدُ | ولكل ههنةٍ واردٍ صدرُ |
| وحدود تعمیر المعمران | يسمو صعوداً ثم ينحدر |
| والسيف يبلى وهو صاعقة | وتنال منه الهام والقصر |
| والمرء كالظل المديد ضحى | والنوء يحسره فينحسر |

ويقول في ختامها :

غرض ترامي في الخطوب ، فذا قوس ، وذاسهم ، وذاوتر
فجزعت حتى ليس بي جزع وحذرت ، حتى ليس بي حذر
وقال في الغزل :

امسحوا عن ناظري كحل السهادِ وانفضوا عن مضجعي شوك القتادِ
أو خذوا مني ما أعطيتُم لا أحب الجسم مسلوب الفؤادِ
هل تجيرون محباً من هووى؟ أو تفسكون أسيراً من صفاد؟
أسأوا منكم من هجركم قلما يساو عن الماء الصوادي !
إنما كانت خطوب قيضت فعدتنا عنكم إحدى العوادي
فعلى الأيام من بعدكم ما على الظلماء من لبس الحداد
لا مزار منكم يدنو سوى أن أرى أعلام هضب أو نجاد
قل تنوبل خيال منكم يطبى بين جنوف ومهاد
لم يزدنا القرب إلا هجرة فرضينا بالتنان والبعاد
وإذا شاء زمان رابنا بريقيب أو حسود أو معادي

ومن قصيدة له يمدح جوهرأ ويصف جيشه وهو ذاهب إلى فتح مصر .
رأيت بعنبي فوق ما كنت اسمعُ وقد راعنى يوم من الحشر أروعُ
غداة كان الأفق سدَّ بمثله فعاد غروب الشمس من حيث تطلع
فلم أدر إذا سلمت كيف أشيعُ ولم أدر إذ شيعت كيف أودعُ
وكيف أخوض الجيش والجيش بجلة وإنى بمن قاد الجيوش لمولعُ
فلا عسكر من قبل عسكر جوهرٍ تحبُّ المطايا فيه عشراً وتوضعُ
وقال في المدح :

أبى العوالى السمرية والسيو ف المشرفية والعديد الأكثر

مَنْ مِنْكُمْ الْمَلِكُ الْمَطَاعُ كَأَنَّهُ
القائد الخليل العتاق شوازيًا
شعث النواصي حشرة آذانها
تنبو سنابكهن عن عفر الثرى
جيش تقدمه الليوث وفوقه
ويقوده الليث الفضنفر معلماً
في فتية صداداً الدروع عبيهم
لا يأكل السرحان شلواً طعينهم
قوم يبيت على الحشايا غيرهم
وتظل تسبح في الدماء قباهم
فخياضهم من كل مهجة خالع
حتى من الأعراب إلا أنهم
وقوله في وصف الخليل :

وصواهل ، لا الهضب يوم مفاها
عرفت بساعة سبقها ، لا أنها
وأجل علم البرق عنها أنها
هضب ، ولا البيد الحزون حزون
علقت بها يوم الرهان عيون
مرت بجأنتيه وهى ظنون

ابن زيدون

٣٩٤ — ٤٦٢ هـ

نسائه وحياته

ولد أبو الوليد أحمد بن عبد الله بن زيدون بقرطبة سنة ٣٩٤ هـ . وكان أبوه
من وجوه الفقهاء وعيون الأدباء ، فدرس عليه وعلى غيره الأدب والعلوم . ورزق

في الإنشاء قريحة طيبة وطبعاً سليماً . وسمت به كفايته ومكانته إلى أن وزر لأبي
الحزم بن جهور أحد ملوك الطوائف بالأندلس ، فاشتهر أمره وارتفع قدره . وألقى
إليه مقاليد الأمور فديرها وساسها بحذق وكياسة : وكثيراً ما سافر بين مولاه
وملوك الأندلس فأحسن سفارة وفض المشكل . ثم دبت بينهم عتارب السعاية ،
فنهق عليه ابن جهور وسجنه ، ولم يشفع له سالف خدمته ولا سابق حرمة .
فكتب إليه رسالة فريدة يستمطر بها رحمته ، ويستدفع نقمته ، فلم يكن لها ذلك
القلب الجاد . ففر من سجنه واختفى بقرطبة حتى استشفع بأبي الوليد ابن جهور
إلى أبيه فشقعه . وظل في حماية هذا الأمير حتى آل الملك إليه بعداً به فاستصحبه
وقرّبه . ولكن صلاته السياسية بصاحب مالقة أحفظت عليه ابن جهور فنفاه .
فجأ إلى المعتضد عباد صاحب أشبيلية سنة ٤٤١ فاستخلصه إليه ، وعول في أموره
عليه . ثم وزر لابنه المعتمد وقضى في أشبيلية بقية عمره .

فأنت ترى من هذا الجمل أن حياة ابن زيدون العامة كانت مضطربة شاقة ،
ولم تكن حياته الخاصة بأقل منها اضطراباً ولا مشقة . فقد ابتلى وهو في قرطبة
بجب ولادة بنت المستكفي أحد خلفاء بني أمية ، وكانت شهيرة بالجمال والأدب
شاعرة ، سافرة ، تساجل الشعراء وتجادل العلماء وكانت دارها نادياً من أنديّة
قرطبة يفشاه الأمراء والوزراء والأدباء والقادة ، وفي هؤلاء ابن زيدون ، وكانت
فيه خفة روح وحسن دعاية وبراعة أدب ، فسبق المتنافسين إلى قلب ولادة فاحتله .
وبادلتته هي هذا الحب ، فاذا كى هذا القوز نار الحسد في قلوب منافسيه ومزاحميه ،
فسعوا في إفساد ذات بينهما . واشتهر منهم الوزير أبو عامر بن عبدوس وهو عظيم
الحول والطول ، فتزلف إلى ولادة في ساعة من ساعات ملها من ابن زيدون فظفر
برضاها : ثم عاد الحب إلى مجراه الأول فرجعت إلى ابن زيدون ، فكتب
إلى ابن عبدوس رسالة هزلية ضافية الذيل عن لسان ولادة أشبعه فيها تقريباً
وسخرية ، وضمنها كثيراً من الملتح في الأدب والتاريخ .

شعره

شعر ابن زيدون هو الصورة الصحيحة لشعر الأندلس ، لانبجاسه من أعماق فؤاده ، وانبعائه من طبيعة بلاده . فلم يجر جريان ابن هانيء وراء شعراء المشرق يحاكيهم ويحتذيهم . لأنه لم يتخذ الشعر وسيلة من وسائل الرزق ، ولا سبيلاً من سبل الشهرة ، وإنما كان يشعر لنفسه ، ويعبر عن نزوات حسه . وهو آخر شعراء بني مخزوم وأول معاصريه رقة ودقة . تقرأ في شعره أجود ما خصت به الطبيعة الأندلسيين من وصف المناظر ، وشرح العواطف ، وسمو الخيال ، وصفاء الديباجة . وقد تظهر أحياناً على نغره ومدحه علائم الضعف ، إلا أنك لا تجد ذلك إذا تغزل أو تشوق أو استعطف ، فإن طبعه في هذه الأغراض فياض ، وقلمه لشرحها مجيد . وسبب ذلك ما قاساه من ظلم ابن جهور له . وما عاناه من نفور ولادة منه وبعدها عنه .

وقد تضلع ابن زيدون من أشعار العرب وأساليهم في السكتابة والخطاب حتى قيل إنه أصيب في بعض حرمة فقهه للعزاء عنها ، وأقبل الناس على اختلاف طبقاتهم بعزونه ، فما أجاب أحداً بما أجاب به غيره لسعة ميدانه وحضور جنانه . وإنك لتجد أثر هذا الاطلاع بادباً فيما يضمنه نثره وشعره من الأمثال والملاح .

نثره

لابن زيدون نثر أنيق الوشى ، دقيق النسيج ، قليل التكلف والسجع ، كثير الازدواج والإطناب ، شديد الشبه بطريقة الجاحظ ولا سيما في التنوع بحروف الجر . وله من طريقة ابن العميد تضمين الأمثال والملاح ، والتثمل بالشعر في غضون النثر . ومن أجود آثاره رسالتان جدية وهزلية ، بعث بالأولى إلى ابن جهور يستعطفه بها وهو سجين ، وبالأخرى إلى ابن عبدوس عن لسان ولادة ، وهي التي سبق ذكرها . وقد حرص الأدباء على حفظهما وعنى العلماء بشرحهما .

نموذج من كلام

قال مخاطباً بنى جهور :

بنى جهور أحرقتُم بجفائكم فؤادى فما بال المدائح تعبق
نعدوننى كالغدير الورد إنما تفوح لكم أنفاسه وهو يحرق
وقال يشوق إلى ولادة وهى بقرطبة وهو بأشبيلية

أضحى التناؤى بديلاً من تدانينا وناب عن طيب لُقيانا تجافينا
بنتم وبتاً فما ابتلت جوائحنأ شوقاً إليكم ولا جفت مآقينا
يكاد حين تناجيكم ضمائرنا يقضى علينا الأسى لولا تأسينا
حالت لبعدكم أيامنا ففدت سوداً وكانت بكم بيضاً ليالينا
ليسقى عهدكم عهد السرور فما كنتم لأرواحنا إلا رياحيننا
من مبلغ اللبسينا بانتزاحهم حزناً مع الدهر لا يبلى وبيلينا
أن الزمان الذى ما زال يضحكننا أنساً بقربكم قد عاد يبيكننا
غيظ العدى من تساقينا الهوى فدعوا بأن نغصن الدهر آمينا
فأنحل ما كان معقوداً بأنفسنا وانبت ما كان موصولاً بأيدينا
وقد نكون وما يخشى تفرقنا فاليوم نحن وما يرُجى تلاقينا
لا تحسبوا نأيكم عنا يغيرنا إن طال ما غير النأي المحيينا
والله ما طلبت أهواؤنا بدلاً منكم ولا انصرفت عنكم أمانينا
ياسارى البرق غاد القصر فاسق به من كان صرف الهوى والود يسقيننا
ويا نسيم الصبأ بلغ تخيتنا من لو على البعد حياً كان يحميننا
يا روضة طالما أجت لواحظنا ورداً جناه الصبا غضاً ونسرينا
ويا حياة تملينسا بزهرتها مئى ضروباً ولذات أفانينا
لسنا نسميك إجلالاً وتكرمة فقدرك المعتلى عن ذاك يفنينا

كأننا لم نبثُ والوصلُ ثالثاً والسعد قط غضر من أجفانِ واشينا
سرّان في خاطر الظلماء يكتمنا حتى يكاد لسان الصبح يقشينا
يا جنة الخلد أبد لنا بسلسلها والسكوثر العذب زقوماً وَغَثَلِينا
إننا قرأنا الأسي يوم النوى سوراً مكتوبة وأخذنا الصبر تلقياً
وقال يودعها :

ودع الصبرَ بحبٍّ ودعك ذائعٌ من سره ما استودعك
يقرع السنَّ على أن لم يكن زاد في تلك الخطى إذ شيعك
يا أخا البذر سناءً وسنى رحيم الله زماناً أطلعك ا
إن يطل بعدك ليلى فلکمم بتُ أشكو قصر الليل معك
وقال أيضاً :

أما رجا قلبى فانت جميعه ياليتنى أصبحتُ بعضَ رجاك
يدنو بوصلك حين شط مزاره وهمُ أكاد به أقبلُ فاكِ

نموذج من شعره

قال من رسالته الجديدة :

يامولاي وسيدى الذى ودادى له ، واعتمادى عليه ، واعتمادى به ،
وامتدأى منه ، ومن أبقاه الله ماضى حدِّ العزم ، وارى زند الأمل ، ثابت عهد
النعمة سلبتني أعزك الله لباس نعمائك ، وعطلتني من حلى إيناسك ، وأظمأتني
إلى ورد إسعافك ، ونفضت بي كيف حياطتك ، وغضضت عنى طرف حمايتك ،
بعد أن نظر الأعمى إلى تأميلي لك ، وسمع الأصم ننانى عليك ، وأحس الجمد
باستجمادى لك . فلا غرو قد يفص الماء شاربه ، ويقتل الدواء المستشفى به ، ويؤتى
الحذر من مأمنه ، وتكون منية المثنى فى أمنيته . والحين قد يسبق جهد الحريص :
كل المصائب قد تمر على الفتى قتهون غير شماتة الحساد
وإنى لا أنجد ، وأرى الشامتين أنى لريب الدهر لا أتضعع . فأقول : هل أنا

لا بد أدمائها سوارها ، وجبين عض به ! كليته ، ومشرفي ألسقه بالأرض صاقله ،
وسمهرى عرضه على النار مُثَقَّفه ، وعبد ذهب به سيده مذهب الذي يقول :
فقساليزدجروا ومن يك حازماً فليقسُ أحياناً على من يرحم
ومنها : ... وأعود فأقول . ما هذا الذنب لم يسعه عفوك ؟ والجهل الذي
لم يأت من ورائه حلكم ؛ والتطاول الذي لم يستغرقه تطولك ، والتحامل الذي
لم يف به احتمالك . ولا أخلو أن أكون بريئاً فأين المدل ؟ أو مسيئاً فأين
الفضل ؟

إين لا يكن ذنب فعدلك واسع أو كان لى ذنب ففضلتك أوسع
وكلها على هذا الأسلوب الرائع ، والديباجة المشرقة والتضمين المحكم ،
والافتنان الرائع .

وقال في رسالته الهزلية :

أما بعد أيها المصاب بعقله ، والمورط بجبهله ، البيِّن سقطه ، الفاحش غلطه ،
العائر في ذيل اغتراره ، الأعمى عن شمس نهاره ، الساقط سقوط الذباب على
الشراب ، المتهافت تهافت الفراش على الشهاب ، فإن العجب أ كذب ، ومعرفة
المرء نفسه أصوب . وأنت راسلتني مستهدياً من صلتى ما صفرت منه أيدي أمثالك ،
متصدياً من خلتي لما قرعت دونه أنوف أشكالك ، مرسلاً خليلتك مرتادة ،
مستعملاً بحشيتك قوادة ، كاذباً نفسك أنك ستنزله عنها إلى ، وتخاف بعدها على :
ولست بأول ذى همة دعتته لِمَا ليس بالنائل

ومنها :

هجين القذال ، أرعن السبال ، طويل العنق والمعلولة ، مقرط اللحم
والغباوة . بغيض الهيئة ، سخييف الذهب والجيفة ، ظاهر الوسواس ، متين
الأنفاس ، كلامك نمنمه ، وحديثك غغمة ، وبياناتك فهفهه ، وخحكك قهقهه ،
ومسحيتك هرولة ، وغناك مسألة ، ودينك زندقه ، وعلمك محروقة .

مساوٍ لو قُسمنَ على الفواني لما أُمهرن إلا بالطلاق
وكلها على هذا النحو من الاقذاع والفحش والتهمك .

ابن حمد يس الصقلي

٤٧٧ — ٥٢٧ هـ

تسأته وحياته

ولد عبد الجبار بن حمد يس بحزيرة صقلية وعرف في بيثته منذ حداثة بمعالجة
التقرىض ؛ ولكنه ظل مجهول الذكر في أسواق الأدب فلا يسير شهره ولا يُعرف
قدره . حتى استولى النرمنديون على وطنه وهو في ميعه الشباب ، فرأى بعينه
وسمع بأذنه كيف سام الفاصب قومه سوء العذاب ، وكيف جر على بلده شر الخراب ،
فهاجر إلى أسبانيا عام ٤٧١ هـ ، ونزل بأشبيلية يمتاح فضل المعتد بن عباد ، فحجبه
مدة لا يلتفت إليه ولا يعبا به ، حتى قال ابن حمد يس : « قنطت لخبيثي مع فرط
تعبي ، وهممت بالنكوص على عقبي . فإني لسكذلك ليلة من الليالي في منزلي إذ
بغلام معه شمعة ومركب ، فقال لي . أجب السلطان ! فركبت من فوري ودخلت
عليه فأجلسني على مرتبة من فرو الفنك ، وقال لي افتح الطاق التي تليك ،
ففتحتها وإذا بكور من الزجاج على بعد والنار تلوح من بابيه ، وواقده يفتحهما
تارة ويسدها أخرى ، ثم أدام سد أحدها وفتح الآخر ، فحين تأملتهما قال لي :
أجز : انظرهما في الظلام قد نجيا فقلت : كما رفا في الدجنة الأسد
فقال : يفتح عينيه ثم يطبقها فقلت : فعل امرى في جفونه رمد
فقال : فابزه الدهر نور واحدة فقلت : وهل نجمان صروفه أحد؟
فاستحسن ذلك وأمر لي بجائزة سنوية وأزمنى خدمته .

وظل الشاعر يتقلب في نعم الملك حقبة من الدهر حتى أنزله ابن تاشفين عن
دسته ، ونفاه من ملكه ، فتبعه ابن حمد يس إلى منفاه فمات الملك بعد أربع

سنين من نكبته ، وأقام الشاعر في المهديّة قاعدة أفريقية ، ثم انتقل إلى ميورقة فتوفى بها معوجّ القنّة مكفوف البصر .

أضرفه

كان ابن حمد يس صحيح العقيدة ، وقور النفس ، رقيق الشعور ، قوى الملاحظة ظاهر الجذ ، كثير الانقباض ، شديد التشاؤم ؛ ولكنه كان سمح الأخلاق ، حلو المعاشرة ، يحضر مجالس الطرب ، ويخالط أصحاب اللهو ، في عفة نفس وكرم خلق وسلامة عرض ، ويبلغ من وصف ذلك مبلغ الإجادة والإبداع . وهو القائل :

أصف الراح ولا أشربها وهي بالشّدو على الشّرب تدور
كلذى يأمر بالكرّ ولا بصطلى نار الوغى حيث تفور

وهذه الصفات التي ذكرناها إنما استنتجناها من شعره ، ولا ندرى أهي فيه من طبيعة ميلاده . أم هي أثر من آثار نكبته في بلاده .

شعره

شعره مرآة صافية تجلت فيها أخلاقه : فهو عفيف اللفظ ، نبيل الفكرة ، لا يسفُّ إلى المجون ، ولا يتورط في الغى . وقد دعاه ظم الزمان ولؤم الإنسان وعلو السن إلى التبرم بالحياة ، والشكوى من الناس ، والثورة على النفس ، وسلوك مذهب أبي العتاهية في الوعظ والتزهيد والتصوف بلغته الواضحة وأسلوبه المشرق . ثم تأتلق نفسه ويفشرح صدره أحياناً فتفتتح مشاعره لجمال الطبيعة ، ولذات الحياة ، وعجائب الكون ، فيصف النهر والزهر والصيد والخيل والليل وقصور الترف ، ومجالس الطرب ؛ يرسم كل أولئك بلفظ أنيق ، وتصوير دقيق وعبرة بينة . ولعلك تلمس ذلك فيما نختاره لك من شعره ، وكله مجموع مطبوع في بالرم سنة ١٨٧٣ وفي رومية سنة ١٨٩٧ م .

نموذج من شعره

قال في وصف نهر :

ومطُرد الأجزاء يصقل متنه صباً أعلنت للعين ما في ضميره
جريح بأطراف الحصار كلما جرى عليها شكا أوجاعه بخبره
وقال يصف بركة في قصر ابتناه المنصور بن أعلى الناس ببجاية ،
عليها أشجار من الذهب والفضة وأسود من المرمر ، والماء يخرج من أطراف
تلك وأفواه هذه :

وضراغم سكنت عرين رآسة تركت خرير الماء فيه زئيراً
فكأنما غشى النضار جسومها وأذاب في أفواها الباورا
أسدٌ كأن سكونها متحركٌ في النفس لو وجدت هناك مثيراً
وتذكرت فتكاتها فكأنما أقت على أديارها لتثورا
وتخالها والشدس تجلو لونها ناراً وألسنها اللواحس نورا
فكأنما سلّت سيوف جداول ذابت بلا نار فعدن غديراً
وكأنما نسج النسيم لمائه درعاً فمدرّ سردها تقديراً
وبديعة الثمرات تمسبر نحوها عيناى بحر عجائب مسحوراً
شجرية ذهبية نزعت إلى سجر يؤثر في النهى تأثيراً
قد سُرجت أغصانها فكأنما قبضت بهن من القضاء طيوراً
وكأنما تأبى لوقع طيرها أن تستقل بنهضها وتطيرا
من كل واقمة نرى مقارها ماء كسلسال اللجين نيمرا
خرس تمد من الفصاح فإن شدت جعلت تُفرّد بالمياه صفيرا
وكأنما في كل غصن فضة لانف فأرسل خيطها مجروراً
وتريك في الصهريج موقع قظرها فوق الزبرجد لؤلؤا منثورا

ضَحَكَتَ محاسنه إليك كأنما جُعِلَتْ لها زُهر النجوم ثغورا

وقال يبكي ذنوبه ويستغفر ربه :

ياذنوبي ثَقَلَتْ والله ظهري
كلما تبت ساعة عدت أخرى
ثقلت خطوتي وفودي تعرّى
دبّ موت السكون في حرّكاتي
وأنا حيث سرت آكل رزقي
كلما مرّ منه وقتُ بريح
يا رفيقاً بعبسده ومحيطاً
مِلْ بقايجي إلى صلاح فسادي
وأجرني بما جناه لساني

وقال من قصيدة يندب الزمن ويشكو الإخوان :

أتحسبني أنسى وما زلت ذاكرا
تغذى بأخلاق صغيرا ولم تكن
ويا ربّ نبت تعتربه مرارة
عامت بتجريبي أمورا جهلتها
ومن ظن أمواه الخضارم عذبة
ركبت النوى في رحل كل يجيبه
ولما رأيت الناس يرهب شرم

وقال في الغزل :

عذّبت رقة قلبي ظلاماً بقسوة قلبك
وسُمت جسمي سقما وما شفيت بطبك
من لي بصبر جميل على رياضة صعبك ؟

فيا تشوقَ بعدى ا إلى تنسّم قربك ا
ووجنسة غمستها في الورد صنعة ربك
لقد جنحت لسامى كما جنحت لربك
فبالدلال الذى زا د فى ملاحه عجبك
فكى من الأسر قلباً عليه طابعُ حبك
ونعميىنى بستى فقد شقيت بعقبك
ابن خفاجة الأندلسى

٤٥٠ - ٥٣٣ هـ

نساءً وحياته

أبو إسحق إبراهيم بن خفاجة الأندلسى وُلد بمدينة شقراً أو جزيرة شقراً كما
بسميها العرب . والظاهر من شعره أنه عاش معيشة الفنانين خليع العذار طليق
الإسار فلم يَسْم إلى معالى الأمور ، ولم يتول عملاً من الأعمال العامة ، ولم يتعرض
لاستماحة ملوك الطوائف مع تهاقهم الشديد على أمثاله . وإنما أخلى ذرعه من
مشاغل الحياة ووهب نفسه للجمال وفكره للتخيال وحسه للذة ، وكله للطبيعة .
فهو يتنقل بين رباها وخائلها ، ويجول بين مروجها وجداولها ، فيقف عند كل
رائعة ، ويصف كل راقعة ، ثم يعود إلى كأس روية فيحنسها ، أو صورة فاتنة
فيجتليها ، أو ثمرة محرمة فيجتنها . وتنفس به العمر على تلك الحال حتى أتاه
اليقين فى مسقط رأسه سنة ٥٣٣ هـ .

شعره

ابن خفاجة شاعر الطبيعة ومصورها . قد امتلأت نفسه وعينه من جمال
الحياة وجمال الطبيعة ، فراح يبرز هذا الجمال المعنوى فى صور مختلفة من الجمال
اللفظى ؛ فانتقى الأساليب الصافية ، والألوان الزاهية ، ودبجها بزخرف البديع ،

ووشاها بكثير من الجاز والتشبيه ، واستطاع بافتنانه أن يقيك الملل من كثرة
تسكراره ، ووقوفه عند المناظر الحسية في استيحاء أفعاله . أما طلاب الآراء
النضيجة والمعاني العميقة ، والأفكار الفلسفية ، فما أظنهم يرجعون من قراءته
بطائل : ولهذا الشاعر نثر^(١) متكاف سخيف . يؤكد لك مرة أخرى أن إجادة
الصناعيين قلما تتفق لأحد .

نموذج من شعره

قال يصف زهرة :

ومائسة تزُهِى وقد خلع الحيا عليها حلى حراً وأردية خُضرا
يذوب لها ريق الغائم فضة ويجمد في أعطافها ذهباً نضرا
وقال يصف نهيراً ينساب في أحد المروج قد تعرّج مجراه وتعددت مناظره :
لله نهر سال في بطحاء ا أشهى وروداً من كلى الحسناء
متعطف مثل السوار كأنه والزهر يكفنه ، مجرّ سماء
قد رقّ حتى ظنّ قرصاً مُفَرَّغاً من فضة في بردة خضراء
وغدت تحف به الفصون كأنها هدب يحف بمقلة زرقاء
والماء أسرع جريه متحدراً متلوياً كالحيّة الرقطاء
والريح تعبث بالفصون وقد جرى ذهب الأصيل على لجين الماء
وقال يصف بلاد الأندلس :
يا أهل أندلس لله درُّكم ماء وظل وأنهار وأشجار ا

(١) قال من رسالة إلى بعض إخوانه يصل وده به وقال قطعه ، وهي غاية في التكاف
والافتنان : أطال الله بقاء سيدي النبيه أوصافه التزييه عن الاستثناء ، الرفوعة امرته
الكريمة بالإهداء ؛ ما حذفت ياء يرمى للجزم ، واعتلت ويفزو لموضع الصم . كتبت هن ود
قديم هو الحال لم يلحقها اقال ، وعهد كريم هو الفعل لم يدخله اعتلال ، وانه يجعل هائلك
من الأحوال التاجئة اللازمة . ويصم هذا بهذا من الحروف الجازمة ، وأنا أستعنى طوقه
الى تجديد عهدك بمطالمة ألف الوصل ، وتصديه فعل القتل ... الى آخر هذا الغراء .

ما جنة الخلد إلا في دياركم ولو تخرت هذى كنت أختار
وقال أيضاً :

إن للجنة بالأندلس مجتلى عين وربا نفس
فسنا صبحتها من شنب ودجا ليلتها من لمس
فإذا ما هبت الريح صبا صحت : واشوقى إلى الأندلس ا
وقال يصف طيفاً ألمّ به في ليلة طويلة :

ورداء ليل بات فيه مُعانق طيف ألمّ لظبية الوعاء
لجمعت بين رُضابه وشرابه وشربت من ريق ومن صحباء
ولثمت في ظلماء ليلة وفرة شفقاً هناك لوجنة حمراء
والليل مُشمطٌ الذوائب كبيرة خرف يدب على عصا الجوزاء
ثم انثنى والسكر يسحب فرعه ويمجر من طرب فضول رداء
تندى بفيه أفيوانة أجرع قد غازتها الشمس غب سماء
وتيس في أنوابه ريحانة كرعت على ظمأً بجدول ماء
نفاحة الأنفاس إلا أسها حذر النوى خفاقة الأفياء
فلويت معطفها اعتناقاً، حسبها فيه بقطر الدمع من أنواء
والفجر ينظر من وراء عمامة عن مقلة كحلت بها زرقاء
فرغبت عن نور الصباح لنوره أغرى بها يينفسج الظلماء
وقال يصف موقداً هبت عليه ريح فألهبته :

لأعب تلك الريح ذاك الالهب فماد عين الجلد ذاك اللعب
وبات في مسرى الصبا يتبعه فهو لها مضطرم مضطرب
ساهرته أحسبه مُنقشياً يهز عطفه هناك الطرب
لو جاءه منتقد لما درى ألب منتقد أم ذهب
تلم منه الريح خدأً خجلاً حيث الشرار أعين ترتقب

في موقد قد رقرق الصبح به ماء عليه من نجوم حبيب
منقسم بين رماد أزرق وبين حجر خلقه ملتهب
كأنما خرت سماء فوقه وانكدرت ليلا عليه شهب
وقال يصف شاباً جميلاً يسبح :
وصقيل إفرند الشباب ، بطرفه سقم ، وللعضب الحسام ذباب
يمشى الهوينى نخوة ولربما أطرته طوراً نشوة وشباب
شقى الحاسن ، للوضاء ربطة أبدأ عايه ، وللحياء نقاب
ويعمطيه للشيبية منهل قد شف عنه من القميص سراب
عبر الخليج سباحة فكأنما أهوى فشق به السماء شهاب
تطفو لغرته هناك حبابة ويموج من ردف ألف عباب

لسان الدين بن الخطيب

٧١٣ - ٥٧٧٦

شأته وحياته

هو ذو الوزارتين أبو عبد الله لسان الدين المعروف بابن الخطيب : ولد
بغرناطة سنة ٧١٣ في مهد السؤدد والعلم والرياسة ، وتخرج على علماءها في علوم اللسان
والشريعة والفلسفة والطب والرياضة والتاريخ ، و بذق كل ذلك معاصره ومناظره
من أدباء الأندلس . ثم وصلته مائة الشعر والأدب بأبي الحجاج يوسف سلطان
غرناطة (٧٣٣ - ٧٥٥) فاستكتبه ، ثم استوزره وأطلق يده في شئون ملكه
فاتسع نفوذه وضحخم أمره . وما زال في هذا المنصب وتلك الخطوة حتى توفي
أبو الحجاج وخلفه ابنه محمد الخامس فأقر لسان الدين في الوزارة . ولكن عقارب
الوشاية دبّت بين الرجلين فتنسكرك له السلطان ، ففر منه إلى إفريقية فأكرمه
ملوكها . ثم توالى عليه مكاره وخطوب انتهت بتسليمه إلى أعدائه ، فاعتقلوه

بفاس وأغروا جماعة من الفقهاء فأفتوا بإلحاده لاشتغاله بالفلسفة . فنسور عليه السجن بعض الأوشاب فقتلوه خنقاً .

مُزَلَّتْ فِي الْكِنَانَةِ

لسان الدين كاتب مطبوع على السجع ، سائر في صناعته مع الطبع ، يذهب إلى الإطناب في رسائله شأن كتاب الأندلس . وربما ساق الرسالة الضافية كلها على روى واحد . والفخر في الأندلس مبنى على الخيال والصناعة لغلبة الشعر على أهله . وقل أن تجد فيه السائغ المقبول لتكلفتهم السجع ، وتعلمهم التعميق ، وتوخيمهم الإطالة . فهم شعراء بالطبع ، وكتاب بالصنعة ، على غير ما نرى في أهل الشرق .

وله شعر رقيق اللفظ رائق المعنى مقبول الصنعة . وقد انتهت إليه زعامة العلم والأدب في الأندلس ، كما انتهت إلى ابن خلدون معاصره في إفريقية . ولابن الخطيب القدم الراسخة في التاريخ ، ومؤلفاته فيه تبلغ ستين كتاباً ، أشهرها كتاب الإحاطة في تاريخ غرناطة ، وهو معجم تاريخي لرجال غرناطة في ثلاثة مجلدات .

نموذج من كلامه

قال في موشحه المشهور الذي عارض به موشح ابن سهل :

جادك الغيثُ إذا الغيثُ همي يا زمان الوصل بالأندلس
لم يكن وصلك إلا حُلماً في الكرى أو خلسة الختاس

* * *

إذ يقود الدهر أشتات المنى تنقل الخطو على ما ترسم
زُمرأً بين فرادى وُئى مثلاً يدعو الوفودَ الموسم
والحيا قد جلل الروض سنا فثفور الزهر منه تبسم
وروى النعمان عن ماء السما كيف يروى مالك عن أنس

فكساه الحسن ثوباً مُعلماً يزدهى منه بأبهى ملابس

* * *

في ليالٍ كتمت سر الهوى بالدجى لولا شمس القدر
مال نجم الكأس فيها وهوى مستقيم السير سعد الأثر
وطرء ما فيه من عيب سوى أنه ——— كلح البصر
حين لذ النوم منا ، أو كما هاجم الصبح نجوم الحرس
غارت الشهب بنا ، أو ربما أثرت فينا عيون النرجس

أى شيء لامرئ قد خلاصا فيكون الروض قد كُنَّ فيه
تنهب الأزهار فيه الفرصا أمنت من مكره ما تتقيه
فإذا الماء تناجى والحصا وخلا كل خليل بأخيه
تبصر الورد غيراً برما يكئسى من غيظه ما يكئسى
وترى الآس لبيباً فَمَا يسرق السمع بأذنى فرس

* * *

يا أهيلَ الحى من وادى الفضا وقلبي سَكَنَ أنتم به
ضاق من وجدى بكم رحب الفضا لا أبالى شرقه من غربه
فُعِيدُوا عهد أنس قد مضى تُمنَقُوا عانيكم من كربه
واتقوا الله وأحيوا مفرما يتلاشى نَفْساً فى نفس
حبس القلب عليكم كرمًا أفترضون عفاء الحُبْس ؟

وقلبي منكم مقرب بأحاديث المنى ، وهو بعيد
قر أطلع منه المنسرب شقوة المنرى به وهو سعيد
قد تساوى محسن أو مذنب فى هواه بين وعد ووعيد

ساحر القسطة معسول اللعى جال في النفس مجال النفس
سدد السهم وسمى ورمى ففؤادى نهبة المفسدات
إن يكن جار وخاب الأمل وفؤاد الصب بالشوق يذوب
فهو للنفس حبيب أول ليس في الحب محبوب ذنوب
حكم اللفظ نهبا فاحتكما لم يراقب في ضماف الأنفس
منصف المظلوم ممن ظلما ومجازى البر منها والمسى
ما لقلبي كلما هبت صبا عاده عيد من الشوق جديد
كان في اللوح له مكتتبا قوله : إن عذابى لشديد
جلب الهم له والوصبا فهو للأشجان فى جهد جهيد
لا عج فى أضلعى قد أضرما فهى نار فى هشيم اليبس
لم يدع فى مهجتى إلا ذما كبقاء الصبح بعد الناس

ومن قصار رسائله فى الشوق إلى ابن خلدون وهى تمتثل طريقتة فى الكتابة :

أما الشوق فحدث عن البحر ولا حرج . وأما الصبر فسل به أية درج ،
بعد أن تجاوز اللوى والمنعرج ، لكن الشدة تعشق الفرج ، والمؤمن ينشق من
روح الله الأراج . وأنى بالصبر ، على إبر الدبر ، بل الضرب المبر ، ومطاوله اليوم
الشهر ، حتى حكم القهر . وهل للمين أن تسلسوا المقصر ، عن إنسانها المبصر ،
أو تذهل زهول الزاهد ، عن سرها الرائي والمشاهد ، وفى الجسد مضفة يصلح
إذا صاحت ، فكيف حاله إن رحلت عنه ونزحت ؟ وإذا كان الفراق هو
الحلم الأول ، فعلام الممول ؟ أعيت مراوضة الفراق على الراق ، وكادت لوعة
الاشتياق ، أن تفضى إلى السياق .

تركتمنى بعد تشييعكم أوسع أمر الصبر عصيانا

أفرع سنى ندماً تارة وأستمیح الدمع أحياناً

الشعر والكتابة والعلوم والفنون في مصر على عهد الفاطميين

ذهبت ریح العباسيين بعد المتوكل على الله لفساد الحکم وسوء النظام واستبداد الوزراء وتنافس الزعماء ؛ وانتقص الولاية دولتهم من أطرافها ، وغلب الثوار على كثير من أملاكها . وكان الملويون الفاطميون ممن شارك في هذا النهب المقسم ، فاقطعوا منها شمالي إفريقية ثم مصر والشام والحجاز .

قام خليفتهم الأول عبيد الله بن محمد بالقيروان سنة ٤٤٦ هـ ثم أرسل خليفته الرابع المعز لدين الله قائده وكتابه جوهر الصقلي إلى مصر في جيش عرمرم ففتحها بالسيف وملكها بالذهب ، وحفر حيث نزل سنة ٣٥٧ أساس القصر الكبير لمولاه ، وأساس الجامع الأزهر لله . وأنزل طوائف الجيوش حولها في نحو العشرين خطة ضرب عليها سوراً من اللبن فكان من ذلك مدينة القاهرة التي اتخذها الفواطم منذ يومئذ قاعدة لخلافتهم تعاقب على عرشها منهم أربعة عشر خليفة من سنة ٣٥٧ إلى ٤٦٧ هـ حتى غلبهم عليه صلاح الدين .

ظفرت مصر يوم دخول المعز بالاستقلال والخلافة والأزهر ، وخفق العلم الأبيض على القاهرة منافساً للعلم الأسود في بغداد ، وللعلم الأخضر في قرطبة ؛ ووجدت الآداب العربية والحضارة الإسلامية في ظلال هذه الأعلام الثلاثة سبيلاً إلى الانتشار ، ومساعداً على الأزدهار ، ومعيناً على النمو . وكان الفاطميون في مصر والأمويون في الأندلس إنما يتشبهون بالعباسيين في العراق ، يأتمنون بهديهم ، ويسترشدون بوحيمهم ، في السياسة والحضارة والأدب والعلم والفن ، فلم يحدثوا في شيء من ذلك حدثاً يصح أن ينسب إليهم أو يعتمد فيه عليهم ، إلا ما اقتضته طبيعة الإقليم وسياسة التعليم ونظام الاجتماع . ولكن المطاولة بين هذه الخلافات

الثلاث كانت تستلزم المنافسة في تقريب الشعراء ، وتعزير العلماء ، وتشديد المدارس ، وإنشاء المكاتب . فكما اشتهر الرشيد وابنه المأمون في آسية ، اشتهر الناصر وابنه الحكم في أوربة ، والعزير بالله وابنه الحاكم في إفريقية . فقد شغف العزيز بجمع الكتب واقتنائها وإقراءها حتى بلغ ما في « خزائن الكتب » التي ابقناها في قصره زهاء ألف ألف مجلد في الفقه والنحو والحديث والتاريخ والعلوم . وكان لوزيره يعقوب بن كلس اليد البيضاء والقدم السابقة في إنهاض الأدب والعلم في مصر ، فقد كان يندو في داره رجال الأدب والشعر والفقه والصناعة ، فيرقدهم ويرشدهم . وكان يجلس للناس في كل جمعة فيدرسهم ويقبسهم ما يؤلف في القراءات والفقه . وأنشأ الحاكم بأمر الله مكتبة على نسق بيت الحكمة الذي أنشأه المأمون في بغداد سماها « دار الحكمة » ، واستقدم إليها الأدباء والعلماء والفقهاء والأطباء ، وأجرى عليهم الأرزاق ، وأباح دخولها الناس ، فسكثرت فيها المناظرات وألقيت بها المحاضرات ، والحاكم نفسه يحضرها وينصرها ، ويعني بها كما كان يصنع المأمون . وقد بلغ من عناية الفاطميين باللغة العربية وأدبها أن راقبوها في الدواوين وجملوا لها في ديوان الإنشاء أستاذاً يصحح أخطاء الكتاتيب بها ، ويرشد العاجزين إلى طريق أدبها . كابن بابشاذ المتوفى سنة ٥٤٦٩ هـ وابن يري المتوفى سنة ٥٥٨٢ هـ . وأخذ الأزهر يشع نوره في خلافة العزيز بالله ، إذ أمر وزيره يعقوب أن يستقدم إليه ما استطاع من فقهاء العالم الإسلامي لينصروا مذهب الشيعة ، ويؤيدوا دعوى الخلافة ؛ وأن يجري عليهم الوظائف ويشيد لهم المساكن ، فانتقل هؤلاء الفقهاء من القراءة إلى الإقراء ، ومن المدارس إلى الجدل والمرء ، حتى انتهى الأمر بالأزهر إلى أن صار المدرسة الإسلامية الكبرى . وبلغت القاهرة الممزية في أواسط القرن الخامس أوج حضارتها ، وغاية عمارتها ، فقصت برجال الأدب والفنون ، وزخرت بمخلفات الأمم والقرون . وزهت بما افتن فيه الخلفاء والأمراء والوزراء من تشييد المناظر ، وإقامة الدور ،

وتفخيم القصور ، وعقد القباب العجيبة ، وصنع المقرنصات البديعة ، وتزيين ذلك كله بما عرف عن اليد المصرية الصناع من روائع النقش وبدائع الزخرف وجمال الألوان ، وتوشيته بالزجاج الملون ، وتبليطه بالرخام المصقول والكاشاني الجميل ، ورصفه بالنسيفساء المفوفة « مما طاولت به القاهرة بغداد وقرطبة ، وكان نموذجا صادقا لارتقاء فن العمارة والزخرفة أواخر القرن السابع وأوائل القرن الثامن .

وقلما سمع في تاريخ دولة إسلامية ما سمع عن الخلفاء الفاطميين في سرفهم وامتلاء خزائهم بالذخائر والجواهر والأعلاق والأسلحة والسكتب . ولم يقيم في مملكة من الاحتمال ما كان يقوم به خلفاء القاهرة في المواسم والأعياد . وكان للشعر في تلك الحفلات رواج ونفاق ، وللشعراء في ميدانه استئنان واستباق ، فنبتغ في آخر هذه الدولة طائفة من الشعراء المصر بين جرروا على أساليب البغداديين في عصورهم الأخيرة من الميل إلى الصنعة البديعية والحلية اللغظية . وكذلك من نبتغ فيها من السكتاب نهجوا هذه السبيل في شيء من التوفيق والإجادة . وحسبك أن تعلم أن القاضي الفاضل إمام الطريقة الرابعة في الأدب العربي إنما تعلم السكتابة في ديوان القاضي ابن حديد في الإسكندرية ، وكتب في ديوان الظافر بالقاهرة . ووزر لصلاح الدين بن أيوب بعد ذلك . فطريقته من غير شك كانت هي الطريقة الفاشية في مصر على عهد . وقد فصلنا القول فيها أثناء كلامنا عن السكتابة وعن هذا السكتاب ص ٤٢٨ ص ٣١٨ فارجع إليه .

الشعراء في مصر

نبتغ من الشعراء في ربوع النيل أبو علي تميم بن الخليفة المعز لدين الله الفاطمي المتوفى سنة ٣٧٥ ، وقد اشتهر بشعره الغزلي ، وحواره العمري ، وأسلوبه القوي ، ونسجه الدقيق . روى منه صاحب اليقظة نخبة صالحة في الجزء الأول ص ٣٤٧ وله ديوان مطبوع .

وابن وكيع الملقب بالمعاطس ، ولد في قرية قريبة من دمياط وتوفي بها

سنة ٤٩٤ هـ وقد عرف بابتكار معانيه وحسن تصرفه .

وأبو الفتح نصر الله بن قلاؤس الاسكندري الملقب بالقاضى الأعز ، رحل في أعقاب عمره إلى اليمن ومدح بعض حكامها فأغفوه ، ولسكن السفينة التي كانت تحمله وهو عائد إلى مصر غرقت على مقربة من دهلاك فماد إلى اليمن صفر البدين ، ثم سافر إلى صقلية ورجع منها فمات في عيداب سنة سنة ٥٦٧ .

وهبة الله بن سناء الملك الملقب بالقاضى السعيد ، كان من الشعراء المجدودين والرؤساء المعدودين . اتصلت أسبابه بالقاضى الفاضل والعماد الكاتب ، وسميت به كفايته إلى مكان رفيع من الخطوة والثروة . وكان في مصر على عهده جماعة من الشعراء الذين ألف بينهم الأدب فكانوا يجتمعون ويتناشدون ويتسامرون ، وكان هو واسطة فلادتهم ومحل رياستهم . وهو أول من سبق إلى الموشحات وأجادها من شعراء الشرق . وله الموشحة المشهورة التي مطلعها .

كللى ياسعب تيجان الربى بالحللى واجملى سوارك مدمطف الجدلولى
ثم جمال الدين بن مطروح ولد بأسبوط ونشأ في قوص واتصل بخدمة الملك
المصالح الأيوبي حتى جعله ناظراً على الخزانة ثم وزيراً للنائب دمشق ، ثم تقلبت
به الحال من سفر وحضر ورضاً وسخط حتى توفي بالقاهرة سنة ٦٤٩ هـ .
ثم الشاعر الغزلى الرقيق كمال الدين بن النبیه ، وإليك ترجمته .

كمال الدين بن النبیه

المتوفى سنة ٦٩٩ هـ

نشأته وهياته

نشأ هذا الشاعر القدير مجهولة ، وحياته مرت عادية هادئة ، كالجدول
السلسال في الروض الأفيح ، لا تسمع غير أنقاهم وخريره . فلم يلق بنفسه في غمار
السياسة وهو يعج بين يديه ومن خلفه ، واكتفى بمدح بنى أيوب في مصر حتى

اتصل بالملك الأشرف موسى صاحب الجزيرة وخرائط ، فكتب له في ديوان الإنشاء وأقام بنصيبين في خدمته حتى توفي بها سنة ٦١٩ هـ .

شعره

ابن النبيه شاعر غمراً البديهة مليح النادرة ، منسجم الأسلوب ، حسن الوشى مطبوع على البديع ؛ فهو يتوخى الخلية اللفظية ويشدد في طلبها ، ولكن يخيل إليك أنه لا يتلقفها ولا يتكلفها لجمال صياغته وقوة صناعته . وما رأيت شاعراً قبل هذا الشاعر يتكلف بالبديع هذا الكلف ، ويسرف فيه هذا السرف ، ثم يضطرك وأنت تقرأه إلى الرضا عنه والإعجاب به . ذلك لأن أسلوبه قوى الحياة ، شديد الحركة ، كثير التنوع ، مزدهر الألوان ، يستر بقوة طبعه ما يبدو من ضعف صناعته ، كقوله في المدح مثلاً :

فحريق حمرة سيفه للمعتدى ورحيق حمرة سيبه للمعتقى
يا بدر ! تزعم أن تقاس بوجهه وعلى جبينك كلفة المتكلف ؟
يا غيم ! تطعم أن تكون ككفه كلا وأنت من الجهام الخفاف

ولم يكده شعره يخرج عن أغراض ثلاثة أجادها كلها إجادة قل أن تظفر يمثلها في عصره . وهى المدح ، وكله في بنى أيوب إلا قصيدة أو قصيدتين مدح بهما الخليفة الناصر العباسي ؛ والغزل والوصف ، ولا يجيء بهما مستقلين ، وإنما يسوقهما مقدمة لمدحه . فأما مدحه فقد سلك فيه الطريقة المألوفة من ذكر الفتح ولنصر والبأس والجلود . وأما غرله فمن النوع الحسى الشهوانى الذى لا يتعدى جمال الشكل ، من ليل الشعر ، وصبح الوجه ، وسحر الجفون ، وسهام العيون ، ولؤلؤ الثغر ، وياقوت الشفة الخ . أما الإحساس القلبي بالحب والإدراك النفسى للجمال فشىء لا تظفر به فيه . والراجح فى الظن أنه كان يقوله على أنه باب من أبواب الشعر ، لا على أنه فيض من الشهور ، ونور من الإلهام . أما وصفه فأكثره فى الخمر ومجالسها ، وأقله فى الطبيعة ومناظرها .

وعلى الجملة فابن النبيه شاعر عذب الروح ، كثير الافتتان ؛ مفروق في الحجاز
والتشبيهه والبديع . مجيد للمطالع ، محسن للتخلص . وله ديوان طبع في بيروت
وفي مصر .

نموذج من شعره

قال في أول قصيدة يمدح بها الملك الناصر لدين الله العباسي :

باكرُ صبحك ، أهني العيش باكرهُ فقد ترنم فوق الأبك طائرة
والليل تجرى الدراري في مجرته كالروض تطفو على نهر أزاهره
وكوكب الصبح نجاب ، على يده تُخلق تملأ الدنيا بشأره
فأهض إلى ذوب ياقوت لها حَبَبٌ فهل جناها مع العنقود عاصره
ساق تسكوّن من صبح ومن غسق فابيض خداه واسودت غدائره
مهفهف القد يفدى جسمه ترفاً مخصر الخصر عبل الردف وافره
سودّ سوائفه ، لُفس مراشفه ، نفسٌ نواظره ، خرّس أساوره
تعلمتُ بانه الوادي شمائله وزوّت سحرَ عينيه جآذره
خذ من زمانك ما أعطاك مغتماً وأنت ناه لهذا الدهر أمره
فالعمر كالسكّاس تستحلى أوائله لكنه ربما نُجّت أوآخره

وقال في مطلع قصيدة يمدح بها الملك الأشرف :

أفديه إن حفظ الهري أوضيما ملك الفؤاد فما عسى أن أصنما ؟
من لم يذق ظلم الحبيب كظنه حاولاً فقد جهل المحبة وادعى
يا أيها الوجه الجميل تدارك الص بر الجميل فقد عني وتضعضما
هل في فؤادك رحمة لتتيم ضمت جوانحه فؤاداً موجعاً ؟

ومن غزله أيضاً في بعض قصائده :

أجفانه شرّك القلوب كأنما هاروت أودعها فنونَ فنونه

ياقوتته متبسّم عن لؤلؤه خجبات عقود الدر من مكنونه
ساق صميّفة خده ماسودت عبثًا بلام عذاره وبنونه
جمد الذي بيمينه في خده وحرى القذى في خده بيمينه
طاب الربيع كأنما عجن الصبا كافور مزنّته بعنبر طيبه
وتفضضت أزهاره وتذهبت فكأنها طاووس في تلونه
ومن غزله أيضًا :

أمانًا أيها القمر المظل فمن جفنيك أسياف تُسلّ
يزيد جمال وجهك كل يوم ولى جسد يذوب ويضمحل
وما عرف السقام طريق جسي ولكن دَلٌّ من أهوى يدلّ
يميل بطرفه التركي عنى صدقم . إن ضيق العين يحلّ
إذا نشرت ذوائبه عليه ترى ماء يرف عليه ظلّ
أيّا ملك القلوب فتكت فيها وفتكك في الرعية لا يحلّ
قليل الوصل ينفعها فإن لم يُصّبها وابل منه فطلّ
أدر كأس المدام على الندامى فمن خديك لى راح ونقل
بمنظرك البديع تدلّ تيمًا ولى ملك بدولته أدلّ

وله قصيدة الرثاء المشهور التي رثى بها ولد الناصر بالله ومطلعها :

الناس للموت كخيّل الطراد فالسابق السابق منها الجواد .
والله لا يدعو إلى داره إلا من استصلح من ذى العباد
والموت نقاد ، على كفه جواهر يختار منها الجياد
لا تصلح الأرواح إلا إذا سرى إلى الأجسام هذا الفساد

ابن الفارض

٥٧٦ — ٦٣٢ هـ

نشأته وحياته

هو أبو حفص عمر بن علي المعروف بابن الفارض . أصل آبائه من حماة وولّد هو بالقاهرة سنة ٥٧٦ ، وتفقّه في الدين ، وتوسع في اللغة والأدب ، حتى أحرز منهما قسطاً وافراً . ثم وقع في نفسه أن ينهج منهج الصوفية ، فاقننى آثارهم وعرف أسرارهم . وذهب إلى مكة فزار البقاع المقدسة ومكث بها زمناً ثم رجع إلى مصر ف قضى بها بقية عمره بين الإعظام والإكرام حتى توفى بالقاهرة ودفن بسفح المقطم سنة ٦٣٢ هـ .

صفاته

كان ابن الفارض على تقشفه وتصوفه جميل الهيئة ، حسن البزّة ، ظريف المحضر ، محمود المشيرة ، وقوراً ، كثير الورع ، إذا مشى في المدينة ازدحم الناس عليه يلتمسون منه البركة والدعاء . وإذا حضر مجلساً عقدت هيبته ألسنة أهله فلا يتكلمون . فإذا أراد النظم أخذته غيبوبة يطول أمدها أحياناً إلى عشرة أيام كما قيل ، لا يأكل أثناءها ولا يشرب ولا يتحرك ، فإذا أفاق أملى شعره .

شعره

نشأ ابن الفارض في عصر الأيوبيين وهو عصر تنازع النفوس فيه عاملان مختلفان : عامل التصوف والتقوى ، لدوام الحروب وتوالي الكروب من الجماعات والموتان ؛ وعامل الفسوق والمجون ، لانحلال الأخلاق وتحكم الشهوات ، وانتشار المخدرات . واتجه الشعر في مصر وفي غير مصر إلى هاتين الوجهتين . فهو إما أن يراد به الله وإما أن يراد به الشيطان . وابن الفارض قد نشأ نشأة دينية ، وربى

تربية صوفية ، فلم يكن له بد من سلوك طريقة القوم في شعره ، ينظم لإشاراتهم ، ويصف مقاماتهم ، ويكثر من نعت الخمر وذكر الفزل ، مريداً بذلك الذات الإلهية على اصطلاحهم . فكان بذلك مُوجد الطريقة ^(١) الرمزية في الشعر العربي (Sympolisme) وهو أكثر الشعراء تعاملاً للكلام وتكلفاً للبديع ، وولوعاً بالجناس والطباق ، وأسبراً معاصريه شعراً ، لرقته واشتماله على ما يرضى المتصوف الزاهد ، والعاشق الماجن : ذلك بباطنه وهذا بظاهره . فالمتصوفون ينشدونه في مجالس الذكر ، والخلعاء يغنونه في مجالس الخمر . وقد شرح ديوانه جماعة من العلماء واختلفوا في أغراضه ، فمنهم من شرحه على ظاهر اللفظ ولم يتأول شيئاً كالبوريني (١٠٢٤) ومنهم من شرحه وأوله على طريقة الصوفية كالنابلسي (١١٤٣) .

ومن أشهر شعره تائنتاه الكبرى والصغرى ، تبلغ الأولى نحو ٦٠٠ بيت والأخرى نحو ١٠٣ بيت . وقد استوعبتا أغراض الصوفيين وأسرارهم ، ولا يقرأها إلا من رزق الصبر والجلد على حل هذه الرموز ، يقول في مطلع الكبرى :

نعم بالصبا قلبي صبا لأحبتى فيأحيداً ذلك الشذا حين هبت
تذكرني العهد القديم لأنها حديثة عهد من أهيل مودتى
أما سائر شعره فجليٌّ واضح يغلب فيه الحنين إلى الحجاز وأهله ،
والإكثار من ذكر جباله وقراه .

نموذج من شعره

قال في الغزل :

لم أخلُ من حسد عليك فلا تضع سهري بنشيع الخيال المرجف
وأسأل نجوم الليل هل زار الكرى جفنى ؟ وكيف يزور من لم يعرف

(١) ظهرت الطريقة الرمزية في فرنسا في منتصف القرن التاسع عشر نتيجة للطريقة البرناسية (Ecole Parnasienne) ولقد بلغ أربابها بالكثافة والشعر حد التعمية والغمييز . اقرأ ما كتب عنها في كتابنا « دفاع عن البلاغة » .

وقال :

أعدُّ ذكراً من أهوى ولو بلام فإن أحاديث الحبيب مداى
كأن عدوى بالوصال مبشرى وإن كنت لم أطمع برد سلامى
طريحٌ جوى صبُّ جريح جوارح قنيلُ جفون بالودام دواى
صحيحٌ عليلٌ فاطلبونى من الضنى ففيها كما شاء النحول مقامى
وقال فى الحجر وفيها كثير من رموز الصوفية :

شربنا على ذكر الحبيب مدامة سكرنا بها من قبل أن يُخلق الكرمُ
لها البدر كأس وهى شمس ، يديرها هلال ، وكم يبدو إذا طلعت نجم
ولولا شذاها ما اهتديت لحايتها ولولا سناها ما تصورها الوهم
يقولون لى : صفها فأنت بوصفها خير ، أجل عندى بأوصافها علم
صفاءٌ ولا ماء ، ولطفٌ ولا هوا ، ونور ولا نار ، وروح ولا جسم
تقدّم كل الكائنات حديثها قديماً ولا شكل هناك ولا رسم
وقالوا شربت الإثم ، كلا وإنما شربت التى فى تركها عندى الإثم
فلا عيش فى الدنيا لمن عاش صاحياً ومن لم يمت سُكراً بها فاته الحزم
على نفسه فليبيك من ضاع عمره وليس له فيها نصيب ولا سهم

بهاء الدين زهير

٥٨١ - ٦٥٦ هـ

نشأته وحياته

أبو الفضل زهير بن محمد المهلبى وُلد بوادى نخلة على مقربة من مكة ونقل إلى مصر فنشأ بها وتأدب فلما بلغ أشده واستوى فى العلم والجسم ، وبرع فى النظم والنثر والخط ، انصل بالملك الصالح بن الملك الكامل الأيوبى ورافقه إلى الشام والجزيرة . فلما غاب عنه ابن عمه الملك الناصر صاحب الكرك واعتقله على أثر موقعة

بينما خذله فيها قواده ، وتألّبت عليه أجناده ، وانضوا تحت لواء ابن عمه لم ينقض البهاء عهد ملكه ، ودعاه الوفاء ألا يخدم غيره . فأقام بفابلس حتى عاد الماء إلى مجراه ، ونهض الجد بمولاه ، فاسترد الصالح مُلك الديار المصرية فأعاد بهاء الدين إلى خدمته . وعرف له ولاءه ووفاءه ، فأخذ وزيره وموضع سره ، يصدر عن رأيه ويمضى على مشورته . وقد نفع كثيراً من الناس بوساطته وشفاعته . وظل على تلك الحال حتى مات الملك الصالح فلزم داره إلى أن حدث بالقاهرة وباء فمات به سنة سقوط بغداد في أيدي التتار .

شعره

كان بهاء الدين دميث الأخلاق ، رقيق الطباع ، لين الجانب ، حلو الكلام فأثرت تلك الصفات في شعره ، فجاء عذباً رقيقاً يطعم السامع أن يأتي بمثله لسهولة ورقته ، فإذا حاول عجز . فشعره فيض قريحته ، ووحى طبيعته ، وصورة بيئته لم يقلد فيه أحداً ، ولم يطلب من ير شعوره مدداً ، ولم يعبر عنه إلا بلغة المصر بين وأسالبيهم . فلا تجد كلمة غريبة ، ولا جملة معقدة ، وإنما تدرك فيه عذوبة النيل وتدقيقه ، وتلمح عليه جمال جوّه وتألقه وقد أحسن وأجاد في الغزل والعتاب ، وقصر فيما عداها . وليس في معاني البهاء ابتداع ولا تخيل ؛ وإنما هي معان عادية كساها ألفاظاً سهلة ، وبث فيها من روحه الفياض قوة التأثير فسمت إلى أحرار المعاني . وشعره مجموع مطبوع متداول . وقد ترجمه المستشرق الإنجليزي بلنر إلى الإنجليزية نظماً وطبعه في كمبرج سنة ١٨٧٦ في مجلدين وعلق عليه .

مخوِّج من شعره

قال يخاطب المترمّت من صروف الدهر :

لا تمتب الدهر في خطب رماك به إن استرد فقدمًا طالما وهبا
حاسب زمانك في حالي تصرفه تجده أعطاك أضعاف الذي سلبا

والله قد جعل الأيام دائرة فلا ترى راحة تبقى ولا نمبا
ورأس مالك وهي الروح قد سلمت لا تأسفن لشيء بعدها ذهباً
ما كنت أول مفدوح بحادثة كذا مضى الدهر لا بدعاً ولا عجباً
فرب مال نما من بعد مرزأة أما ترى الشمع بعد القطف ملتعباً؟

وله في الغزل :

خليلىّ أما هذه فديارهم - وأما خراى فهو ماترطان
خليلىّ هذا موقف يبعث البسكا فماذا الذى بالدمع تنتظران؟
فإن كنتما لاتسعدانى على الأسي قفنا ودّعانى ساعة ودعانى
فيا ويح قلبى بالغرام أطمئنه ا فملى أراه فى السلو عصاى؟
وإنى وإياه كما قال قائل : رفيقك قيسى وأنت يمانى ا

ومن قوله فى الغزل أيضاً :

إن شكا القلب هجركم مهّد الحب عذركم
لو رأيتم محلكم من فؤادى لسرّكم
قصّروا حدة الجفا طوّل الله عمركم

ومن قوله فى المزاح :

لك يا صديق بفة لست تساوى خردله
تمشى فتحسبها العيون على الطريق مشكله
وتخال مدبرة إذا ما أقبلت مستعجله
مقدار حطوتها الطويلة حين تسرع أمّله
تهتز وهي مكانها فكأنما هي زلزلة
أشبهتها بل أشبهتك كأن بينكما صلة
تحكى صفاتك فى النقا لة والمهانة والبلة

الفصل السادس

العلوم

التريفة والتأليف

لم يكن ما وُضع في عهد بني أمية من العلوم إلا بذراً نما وأثمر في هذا العصر الذي ثابت فيه العقول من غفلتها، وهبّت الفطن من غفوتها. فلقد عنى خلفاؤه وعلماءه بتدوين العلوم وترجمتها ونشرها. وكان أسبقهم إلى ذلك الخليفة الثاني أبو جعفر المنصور، فإنه أنشأ المدارس للطب والشريعة، واستقدم جرجيس بن بختيشوع رأس أطباء جنديسابور ونقرأ من السريان والفرس والهنود، فترجموا له كتباً في النجوم والطب. وكان من ذلك كتاب السندِ هند في الفلك، وكتاب أفليديس في الرياضة. ونقل له ابن المقفع بعض كتب الأدب والمنطق. ثم فترت هذه النهضة أيام الهادي والمهدي حتى قوّاها الرشيد بروح البرامكة، ونشرها في مملكته المتسعة، وضم لإوانه نوابغ العلماء، وأخذ على نفسه بأن يلحق بكل جامع للصلاة جامعة للعلم، وأن يستصحب مائة من العلماء كلما سافر. وكان يجلب العلماء على تباينِ محلهم، فكان أطباءه وتراجمته من السريان المسيحيين كآل بختيشوع وآل ماسويه. وقد ترجم في زمنه ما وجد من كتب الطب والكيمياء والنجوم والحيل^(١) والجبر والنبات والحيوان.

ولما أفضت الخلافة إلى المأمون - وهو في العرب كبريكس في اليونان، وأغسطس في الرومان - استمر أوار هذه النهضة العلمية. فأتى ما بدأ به آباؤه، واتخذ له بطانة من علماء اليونان والسريان والعجم. وتوافد إليه الحكماء والأدباء

(١) علم الحيل فرع من الفلسفة الرياضية يبحث عن نواويس الحركة والموازنة وتطبيقها وهو ما يسميه الفرنج ميكانيك (Mécanique).

من كل حدبٍ ونخلة . وأمر سفراءه وعماله في أرمينية وسورية ومصر أن يبعثوا إليه بما يجدون من كتب في تلك الأصقاع ؛ فكانت الإبل ترى من أن إلى آن داخله بغداد موقرة ظهورها بجلائل الأسفار العبرانية واليونانية والفارسية . وداخل ملوك الروم وسألهم صلته بما لديهم من الكتب الفلسفية فبعثوا بها إليه . وجعل من شرائط صلحه مع ميخائيل الثالث ملك القسطنطينية أن يرسل إليه بمجموعة من الكتب النادرة فلما حصل كل ذلك عنده استخار له خير التراجم فترجم على خير ما يمكن . فلم يبق من كتب الصناعة والعلوم والفنون شيء إلا نقله إلى العربية وأقبل الخلفاء والناس على تلك العلوم درساً وفهماً حتى حلوا رموزها وفتحوا كنوزها ، ورقوها بالتفصيل والتكميل وأصلحوا خطأ المتقدمين من العرب حتى اليونان أنفسهم . ثم بسطوا غير ذلك علوم الشريعة ، وضبطوا قواعد اللسان ، ووضعوا علوم البيان ، ووقموا على علمي العروض والقافية ، وحذا الملوك في الشرق والغرب حذو العباسيين فشدوا المدارس ، وأقاموا المرصد ، وشجعوا العلماء ، حتى أثمرت تلك النهضة وكشف العرب واخترعوا ما لا يحمله العالم ولا ينسكركه التاريخ^(١) ولم تزل سوق العلم نافقة حتى ضعف أمر العرب بتغلب التتر وسلط الترك فسقطت رغبة الملوك فيه ، وانقطعت أسباب الطالب ، ودرست المصنفات ، وكسدت بضاعة العلم ، وظن الناس أن تحصيله سعى باطل ، فاقترضوا على شرح الكتب واختصارها ولم يعنوا إلا بألفاظها . فلما رأت العلوم أن الشرق قد تجهم لها ، وأن الزمان قد أضعف أهلها ، لبست ثياب الحداد وسارت قاصدة أوروبا عن طريق المغرب والشام ، ففتحت لها الغرب صدره ، وفعل ملوكه بالعلوم العربية ما فعله العرب بالعلوم اليونانية . وأخذ ظل العلوم يتقلص من الشرق ويمتد في الغرب حتى آل الأمر إلى ما نحن عليه الآن !

(١) من ذلك كشفهم قوانين لنقل الأجسام مائعا وجامدا ، واخترعهم الساعة الدقاقة كالتي أهداها الرشيد إلى شارلمان ملك فرنسا في عهده . والبندول وبيت الأبرة وهم الذين وضعوا الكيمياء الحقيقية ورقوا علم الجبر وزادوا عليه . وألقوا الأرصاد والأزياج وحسبوا الكسوف والخسوف ، ورصدوا الاعتدالين الربيعي والخريفي ، ونشروا الأرقام الهندسية وسبقوا إلى صناعة الكاغذ ؛ وغير ذلك مما أطال القول فيه مؤرخو الفرنج لا مؤرخو العرب (انظر تاريخ العرب وحضارتهم لسديو (Sedillot) وكتاب (في أصول الأدب) للزيات طبع القاهرة سنة ١٩٥٢ .

العلوم الأدبية

علم الأدب

كان للأدب في عهد بني أمية ما للعلم في عهد بني العباس من سمو المكانة وفرد العناية لحدائفة عهد القوم بالبداوة ، وتمدح رجالاتهم باللسن ، وحاجتهم إلى فصح اللغة وطرف الشعر في استجلاء^(١) غامض السكتاب ، واستيضاح غريب السنة ، والاستشهاد على ضوابط النحو ، واكتساب ملكة اللسان . وكان الأدب إذ ذاك إنما يؤخذ من الأفواه يُحفظ في الصدور وتُضرب إلى مظانّه أكباد الإبل . فلما بزغ هلال العصر العباسي وخامر العرب داء العجمة واستشرى فساد اللحن ، اختص بالرحلة إليه والتلمس له طائفة من العلماء شهروا بالرواة ، كحماد الراوية (١٥٦) والخليل بن أحمد (١٧٥) ، وخلف الأحمر (١٨٠) ، وأبي عبيدة (٢٠٩) ، وأبي زيد الأنصاري (٢١٥) ، والأصمعي (٢١٦) . كانوا يرودون البادية ويداخلون الأعراب ابتغاء لخبر مستمّاح ، أو شعر مستطرف ، أو كلمة غريبة .

وظل الشأن في رواية الأدب للسمع والحفظ ، حتى مست الحاجة إلى التدوين لاستعجام العرب واتساع دولتهم . فأخذ العلماء يدونون ما يسمعون . بدأ بذلك أبو عبيدة والأصمعي ؛ ولكن الجاحظ هو أول من ضم شتيت الأدب ، واستوعب أطرافه بكتايبه البيان والتبيين والحيوان . ثم تتابع العلماء بعده على التصنيف فيه كالمبرد صاحب الكامل ، وابن قتيبة صاحب أدب السكتاب ، وابن عبد ربه صاحب العقد الفريد ، وأبي على القالي صاحب الأمالي ، وأبي الفرج الأصبهاني صاحب الأغاني . هؤلاء هم رجال الأدب ومرآجه ، وكتبهم هي موارد ومشارعه

(١) كان ابن عباس يقول : إذا قرأت من كتاب الله ولم تعرفه فاطلبوه في أشعار العرب . وقال الشافعي : طلبت اللغة والأدب عشرين سنة لأريد بذلك إلا الاستماعة على الفقة .

الادباء

الأصمعي

١٢٣ - ٢١٦ هـ

حياته وعلمه

وُلد أبو سعيد عبد الملك بن قُرَيْب الأصمعي (نسبة إلى جده أصمع) سنة ١٢٣ هـ في بيت عربي عريق في السكّابة ، ونشأ بالبصرة ، وأخذ العربية والحديث والقراءة عن أمّتها. ونقل عن فصحاء الأعراب الذين كانوا يقدون إلى البصرة، وأكثرا الخروج إلى البادية ، وشافه الأعراب وسأكنهم . وربما استفرقت بعض رحلاته سنوات يحج في أنثائها وياتقى بالفصحاء في اللوامح حتى اجتمع له من الأخبار والنوادر والغريب ما لم يجتمع لغيره . وكان معاصراً لأبي عبيدة منافساً له في اللغة والرواية . وقد فاضل أبو نواس بينهما فقال « إن أبا عبيدة لو أمكنوه لقرأ عليهم أخبار الأوّين والآخريين . وأما الأصمعي فلباليل يطربهم بنفاته . وحدث الأصمعي عن نفسه قال : « حضرت أنا وأبو عبيدة عند الفضل بن الربيع فقال لي : كم كتابك في الخليل ؟ فقلت : مجلد واحد . فسأل أبا عبيدة عن كتابه فيها فقال خمسون مجلداً ؛ فقال له قم إلى هذا الفرس وامسك كل عضو منه وسمّه ، فقال : لست بيطاراً ، وإنما هذا شيء أخذته عن العرب . فقال لي قم يا أصمعي وافعل أنت ذلك . فقمتم وأمسكت ناصيته وجعلت أسميه عضواً عضواً ، وأنشد ما قالت العرب فيه إلى أن فرغت منه ؛ فقال خذه فأخذته . وكنت إذا أردت أن أغيظ أبا عبيدة ركبته إليه » وهذه الحكاية مع دلالتها على فرق ما بين الرجلين تدل على قوة ذاكرة الأصمعي وشدة حافظته . فلا بدع إذا قال إنه يحفظ اثني عشر ألف أرجوزة . وكان الأصمعي مع اشتهاره بالثقة في الرواية والتضلع

من اللغة مشهوراً بنقد الشعر أيضاً ، أخذ ذلك عن خلف الأحمر . وله في الشعر والشعراء آراء عالية . وهو على ظرفه شديد الورع كثير الاحتراز في تفسير الكتاب والسنة . فإذا سئل عن شيء منهما كان يقول : العرب تقول معنى هذا كذا ولا أعلم المراد منه في الكتاب والسنة . وما زال نديماً للخليفة الرشيد حتى توفي . فلما ولي المأمون وقامت الفتنة بخلق القرآن خاف على دينه وقبع في كسر بيته ، وحرص المأمون على أن يصير إليه ، فاحتج بكبر سنه وضعفه ، فكان المأمون يجمع المشكل من المسائل ويسيرها إليه ليجيب عنها . ورثي بعد ذلك راكباً حاراً دميماً ، فقيل له : « أبعد براذين الخلفاء تركب هذا ؟ فقال هذا وأملك ديني أحب إليّ من ذاك مع فقده » . وهكذا رضى من العيش بالكفاف حتى توفي سنة ٣١٦ ، وله من العمر تسعون سنة .

مؤلفاته

ترك الأصمعي من المصنفات ما ينيف على اثنين وأربعين مصنفاً أكثرها في اللغة ، ككتاب خلق الإنسان ، وكتاب الأجناس ، وكتاب الخليل ، وكتاب النبات ، وكتاب النوادر ، وكتاب معاني الشعر ، وكتاب الأراجيز ، وأغلبها غير مطبوع .

أبو الفرج الاصبهاني

٢٨٤ - ٥٢٥٦

نسأته وحياته

أبو الفرج علي بن الحسين المرواني ولد بأصبهان ونشأ ببغداد . واختلف إلى العلماء والرواة ، فسمع الحديث والأخبار ، وروى الأنساب والأشعار ، وتوسع في النجوم والسيّر والبيطرة والطب فنبه ذكره وظهر فضله ، والشرق

تتنازعه دول مختلفة ، فاستطاع أن ينقلب بين هؤلاء الخصوم يفيدهم بأدبه ، ويمتصهم بكتبه ، ويستفيد من مالهم ، ويتقوى بنفوذهم . وما كان عطاء ملوك الشرق ليكفيه ، فكان يؤلف الكتب للأمويين بالأندلس سراً فينعمون عليه . وكان يجاهر بالشييع وهو أموي نقيبة للشيعة ومداراة ؛ لأنه في بلادهم نشأ وبفضلهم ظهر .

وكان أكثر الناس حذراً عليه وإثارة له ، الوزير المهلبى وزير معز الدولة ابن بويه . فانقطع إليه ومدحه ونادمه حتى مات ببغداد سنة ٣٥٦ هـ وقد خولط قبل موته .

افضلهم وعلمهم

كان هذا الرجل على ظرفه وأدبه ، سليط اللسان ، مخشى البادرة ، تنقيه الملوك والأمراء لعلمه بالأنساب ومثالب البيوتات . وكان قدر الهيئة رث الثوب لا يغسله ولا يبدله . والوزير المهلبى على تنطسه وترفه كان يحتمل كل هذا منه لعلمه وحسن حديثه . فقد كان كما قدمنا ملماً بأشتات العلوم ، راوياً لمختار المنثور والمنظوم ، ثقة فيما يحدث ، ناقداً لما يسمع . ولم يكن أبو الفرج شاعراً مطبوعاً وإنما كان كاتباً معدوداً ، ومؤلفاً قديراً ، ومصنفاً مجيداً ، وراوية أميناً . وحسبه ميزة وشرفاً كتابه المسمى بالأغانى .

كتاب الاغانى

أجمع المؤرخون على أنه لم يصنف في بابيه مثله ، وأن كل كتاب في الأدب كل عاينه ، ولولا لضع كثير من أخبار الجاهلية وصدر الإسلام وأيام بنى أمية ؛ ألفه في خمسين سنة ، وبناء على مائة الصوت التى اختيرت للرشيد وزيدت للوائق ، وعلى ما تحيره هو من عيون الأغانى ، فترجم بقائلها ومغنيها ، وذكر ما يدخل فيها من حرب وحب وشعر وفكاهة ؛ وحمله إلى سيف الدولة بن حمدان

فأعطاه ألف دينار واعتذر إليه . وكان الصاحب بن عباد إذا سافر حمل كتبه على ثلاثين جملًا . فلما اقتناه استغنى به عنها وهو أجزاء كثيرة طبع منها عشرون جزءاً في سنة ١٢٨٥ هـ ، ثم عثر أحد المستشرقين على جزء آخر في إحدى مكاتب أوروبا فكملت الأجزاء واحداً وعشرين ، وضع لها الأستاذ جويدي الإيطالي فهرساً أجدبياً مطولاً بالفرنسية طبعه في لندن سنة ١٩٠٠م ثم نقل هذا الفهرس إلى العربية في مصر وطبع بها هو والكتاب سنة ١٣٢٢ هـ . وتقوم دار الكتب المصرية الآن بطبعه طبعة متقنة منقحة بمعونة سري من سراة المصريين ولم يتم وقد اختصره أبو الفرج في مجلد واحد فقد مع سائر كتبه .

نموذج من شعره

قال يمدح الوزير المهلبى :

ولما اتجعنا لائذين بظله أعان وما عني ومنّ وما منّا
ورَدُّنا عليه مُفترينَ فرَاشنا ورَدُّنا حماهُ مجْدٍ بين فأخصبنا
وقال يخاطبه من قصيدة :

فداؤك نفسى ، هذا الشتاء علينا بسلطانه قد هجم
ولم يبق من نشبيّ درهم ولا من ثيابي إلا رمم
يؤثر فيها نسيم الهـواء وتخرقها خافيات الوهم
فأنت العماد ونحن العقاة وأنت الرئيس ونحن الخدم

علم النحو

جاء هذا العصر والنحو علم يدرس في المساجد ويدون في الكتب ، وقد أحكت روابطه ، وحُقت ضوابطه ، وأشيع الكلام فيه علماء المصريين : البصرة والكوفة . وإلى الأولين يرجع الفضل في تكوينه وتدوينه . فمنهم أبو الأسود الدؤلى واضعه ، وابن إسحق الحضرمي مُعلِّلهُ ، وهرون بن موسى ضابطه ، وعيسى

ابن عمر أول من ألف فيه ، وسيبويه واضع كتابه ومهذب أبوابه . ولم يشتغل به الكوفيون إلا بعد ذبوعه بالبصرة وما جاورها : أخذوه عن البصريين وجاروهم في تلقيه وتدوينه ، ونافسوه في تحصيله وتفصيله . واشتد الحجاج والحجاج بن الربيع حتى كان لكل منهما مذهب يؤيده وبعضه . ومنشأ الخلاف بينهما أن البصريين يقدمون السماع : فلا يرون القياس إلا في حال تضطربهم ، ويتشددون في الرواية ، فلا يأخذون إلا عن الفصحاء الخالص من صميم العرب لكثرة هؤلاء بالبصرة ، وقرها من عامر البادية . أما الكوفيون فلحلاظهم أهل الأسود والنبط يعتمدون في أكثر المسائل على القياس ، ولا يتخرجون في الأخذ عن أعراب لا يؤمن البصريون بفصاحة لغتهم . فأهل البصرة أوسع دراية ، وأوثق رواية ؛ ولكن العباسيين آثروا الكوفيين عليهم لالتجأهم إليهم ، ولقرب الكوفة من بغداد وتشيعهم لبني هاشم . فانتشر مذهبهم في حاضرة الخلافة . ولولا الغرض السياسي ما كان لهم شأن يذكر ولا قول يؤثر . وظل الجدل بين الفريقين على أشده حتى تحرب المصران ، فجلا علماءهم إلى بغداد ، وشأ مذهب البغداديين خليطاً من المذهبين ، كما نشأ مذهب الأندلسيين حينما عبر النحوي إلى الأندلس . وما ابتدأ القرن الرابع حتى انقرضت فرسان المذهبين ، وضعفت أنصار الفئتين ، فانقطع النزاع ، وانحسم الجدل ، وجرى انؤافون على المذهب البصري فبسطوه وشرحوه واقتصروا من المذهب الكوفي على ذكر الخلاف .

ثم طال الكلام بعدئذ في هذا العلم فتباعدت حدوده ، وتشعبت أطرافه ، حتى جاء المتأخرون فقصروا ذلك الطول واقتصروا على المبادئ كما فعل ابن مالك في التسميل ، والزخشرى في المفصل . على أن هذا العلم ممي بطائفة من فلاسفة النجاة وسعوا الجدل فيه ، فقلّبوا وجوه الألفاظ ، وأحيوا موات اللغات ، وخطبوا الشاذ بالصحيح ، وجاءوا بالتعليلات الباردة والتقديرات الفاسدة والأقوال المتضاربة ، حتى وصلوا بالنحو إلى حال لا يعجز فيها الخطيء عن قول يبرر به وهمه ، وحجة يؤيد بها زعمه .

وها نحن أولاء نترجم بأربعة من نابهي النجاة عدا من تُرجم به منهم في غير هذا الباب ، واقفين عند ذلك جرياً على ما نهجناه لأنفسنا في هذا الكتاب .

النجاة

سيبويه

المتوفى سنة ١٧٧

تُستأثر وهباته

وُلد إمام البصريين أبو بشر عمرو بن عثمان الملقب بسيبويه (رائحة التفاح) ببلاد فارس ونشأ بالبصرة . وكان في بدء أمره يطلب الحديث والفقه ، حتى كان ذات يوم يستملي على حماد بن سلمة ، فأملى عليه قول النبي صلى الله عليه وسلم : « ليس من أصحابي أحدٌ إلا من لو شئت لأخذت عليه ليس أبا الدرداء » ، فقال سيبويه : « ليس أبو الدرداء » فصاح به حماد : لحفت يا سيبويه ؛ إنما هذا استثناء » فقال : « لا جرم لأطلبين علماً لا يلحظني معه أحد » فطلب النحو ولازم الخليل ، وأخذ عن يونس وعيسى بن عمر ، حتى حدّق هذه الصناعة وأحاط بأصولها وفروعها ، ووقف على شاذها ومقيسها . ثم وضع كتابه المشهور سرد فيه ما أخذه عن الخليل وأضاف إليه ما نقله عن نحاة المصريين ناسباً إلى كل منهم قوله . فجاء كتابه فريداً في فنه ، سديداً في منهجه ، ليس وراءه مذهب لطلاب ولا مآخ مستفيد . وقد بلغ من إجلال القوم لهذا المؤلف أن اقتصرُوا في تسميته على « الكتاب » فإذا أطلق هذا اللفظ عند النجاة لا ينصرف إلا إليه . وكان المبرد إذا أراد مرئياً أن يقرأه عليه يقول له : « هل ركبت البحر ؟ » تعظيماً له واستصعاباً لما فيه . وقال أبو عثمان المازني : « من أراد أن يعمل كتاباً كبيراً في النحو بعد سيبويه فليستح » ولولا هذا الكتاب لخل ذكر صاحبه .

ولما آانس سيبويه من نفسه التفوق في النحو وفد إلى بغداد وقصد البرامكة ؛
والكسائي يومئذ بها يعلم الأمين بن الرشيد . فجمع بين الرجلين يحيى بن خالد .
فتناظرا في مجلس أعدّ لذلك . فكان من أسئلة الكسائي لسبويه قوله .
ما تقول في قول العرب « كنت أظن أن العقرب أشد لسعة من الزنبور فإذا هو
إياها » فقال سيبويه « فإذا هو هي ، ولا يجوز النصب » فقال الكسائي « بل
العرب ترفع ذلك وتنصبه » فلما اشتد الخلاف بينهما تحاكما إلى أعرابي خالص
اللهجة ، فصوّب كلام سيبويه ولكن الأمين تعصب للكسائي لأنه معلمه ولأنه
كوفي وضيع الخلفاء كما علمت مع هؤلاء - فأراد الأعرابي على أن يقول
بمقالة الكسائي . فلما أحس سيبويه تحامل الأمراء عليه وقصد بهم بالسوء إليه غادر
بغداد وارتد مغموماً إلى قرية من قرى شيراز تعرف بالبيضاء حيث توفي بالفا
من العمر أربعين سنة ونيفاً .

الكسائي

المتوفى سنة ١٨٩ هـ

سأته ومهاتمه

هو إمام الكوفيين أبو الحسن علي بن حمزة الملقب بالكسائي . نشأ بالكوفة
وأخذ القراءة عن حمزة الزيات ، وتميز بقراءة خاصة فعدّ من القراء السبعة . ولم
يكن له يد في الشعر ، حتى قيل « ليس في علماء العربية أجهل من الكسائي بالشعر »
وبلغه الكبر وهو لا يدري من النحو شيئاً ؛ فأقبل ذات يوم على بعض إخوانه
من طلاب العربية وقال متأوها من مشى طويلاً : « لقد عبيت ا » فقالوا له : تجالسنا
وأنت تلحن ا » فقال كيف لحنت ؟ فقالوا له : « إن كنت أردت من التعب
فقل أعبيت . وإن كنت أردت من انقطاع الحيلة فقل عبيت » فأنف من ذلك
التهجيه ولازم معاذاً الهراء والرؤاسي من نحاة الكوفة حتى حصل ما عندها .

وزار الخليل بالبصرة فأعجب به وسأله : أنى لك هذا العلم ؟ فقال الخليل : من بوادى الحجاز ونجد تهامة . فخرج الكسائى إلى البادية فطاف أحياءها ، وسمع فصحاءها ، حتى استكمل حظه من الرواية ، واستوفى قسطه من اللغة . ولما رجع من البادية استقدمه المهدي واستخلصه لنفسه . ثم أقامه الرشيد مؤد بالولده الأمين . وعظمت مكانته عنده حتى كان يجلسه هو والقاضى محمد بن الحسن على كرسيين متميزين بحضرتيه وبأمرها ألا ينزعجا بقيامه ومجيئه . ومكثا معه على هذه المنزلة حتى خرج إلى الري وها بصحبته ، فاتا في يوم واحد برنّبويه على مقربة من الري فبكاها وقال : دفنت الفقه والعربية بالري . »

مؤلفاته

انتهت إلى الكسائى الزعامة في العربية والقراءة بالكوفة وبنداد وألف فيهما نحواً من عشرين كتاباً . منها كتاب معانى القرآن . وكتاب النحو . وكتاب النوادر ، وكتاب الهجاء ، ورسالة في لحن العامة

الفرّاء

١٤٤ — ٢٠٧ هـ

نشأته وهيبته

ولد أبوزكريا يحيى بن زياد الفراء بالكوفة . ولزم الكسائى حتى استمد منه وتخرج عليه . وشافه الأعراب وأخذ عنهم . ثم نظر في علوم كثيرة من الطبيعة والنجوم وأخبار العرب وأشعارها ، فامتاز بذلك من أستاذه الكسائى . وكان ميالاً إلى مذهب المعتزلة . ويحب النظر في علم الكلام عن غير أن يكون له طبع فيه ، فاكتسب بذلك ملكة النظام والترتيب ، وقوة الاستنباط والتعليل ، ولا يَمَرّف في الكوفيين من خدم اللغة العربية غيره .

قال أبو العباس ثعلب : (لولا الفراء لما كانت اللغة العربية . لأنه حصلها وضبطها ولولاها لسقطت) وقال أبو بكر الأنباري : (لو لم يكن لأهل بغداد والكوفة من علماء العربية إلا الكسائي والفراء لكان لهم بهذا الافتخار على جميع الناس) .
ولما عظم أمره خرج إلى بغداد فهداه الكسائي الإقامة بها وخلفه على درسه بعد موته . فلما ولي المأمون اتصل به ونفق عنده وعهد إليه بتعميم ولديه الأدب . واقترح عليه أن يؤلف ما يجمع أصول النحو وما سمع من العربية . وأمر أن تفرد له حجرة من الدار و وكل به جوارى وخدماء ، وسير إليه الوراقين يكتبون ما يملئ حتى صنف كتاب الحدود في سنتين . ثم خرج للناس فأملئ كتاب المعاني نغزته الوراقون عن الناس ليكتبوا بنسخه كل خمس أوراق بدرهم . فشكا الناس إليه . فلما أبا إخراج كتابه أخذ يملئ كتاباً آخر في المعاني أطول وأوسع نخاف الوراقون ورضوا أن ينسخوا كل عشر أوراق بدرهم . وعظم قدر الفراء في الدولة حتى تسابق ولدا المأمون إلى تقديم نعليه إليه حينما يهيم بالخروج ، ثم اصطلحا على أن يقدم كل منهما فرداً . وبلغ المأمون ذلك فاستدعاه وقال له : « من أعزّ الناس ؟ » فقال « ما أعرف أعزّ من أمير المؤمنين » قال : « بلى ، من إذا نهض تقاتل على تقديم نعليه وإيا عهد للمسلمين » فقال : « يا أمير المؤمنين لقد أردت منعهما عن ذلك ، والكنى خشيت أن أذعهما عن مكرمة سبقا إليها ، أو أكرس نفسيهما عن شريفة حرصا عليها » ؛ فقال له المأمون : « لو منعتهما عن ذلك لأوجعتك لوماً . وما وضع ما فعلاه من شرههما ، بل رفع من قدرهما وبين من حوهرهما . وليس يكبر الرجل وإن كان كبيراً عن ثلاث : عن تواضعه لسلطانه ووالديه ومعلمه » .
وللفراء مؤلفات كثيرة كان يملئها على تلاميذه دون كتاب تقوية حافظته . وكان أكثر مقامه في بغداد ، فإذا كان آخر السنة خرج إلى الكوفة فأقام بها أربعين يوماً بين أهله يفرق عليهم ما جمع حتى توفي سنة ٢٠٧ هـ جريية .

ابن الحاجب

المتوفى سنة ٦٤٦ هـ

نشأته وحياته

ولد أبو عمرو عثمان بن عمر المعروف بابن الحاجب بإسنا من صعيد مصر . وكان أبوه كردبياً يتولى الحجابة للأمير عز الدين موسك الصلاحي فقدم القاهرة صغيراً واشتغل بالقرآن حتى حفظه ، وتفقه في الدين على مذهب الإمام مالك . وتلقى القراءات وشارك في سائر العلوم ، وغلب عليه علم العربية . ورحل إلى دمشق فقرأ بجامعها أمالي في النحو على مواضع من المفصل والكافية . ثم عاد إلى الاسكندرية ففرض بها محبه سنة ٦٤٦ هـ .

مؤلفاته

له من المؤلفات كتابا الكافية والشافية في النحو ، وكتاب المقصد الجليل في علم الخليل في العروض ، والأمالى النحوية ، ومنتهى السؤل والأمل ، في علم الأصول والجدل ، وهو مطول على مذهب الإمام مالك اختصره في كتاب يعرف بمختصر ابن الحاجب ، وكتاب جامع الأمهات في الفقه .

علم الفقه

فسدت ملكة اللسان في الحركات فاستنبط العلماء قوانين لضبطها فما أغنت عن اللغة وما بطأت باللحن . بل تطرق ذلك الفساد إلى مدلولات الألفاظ واستعمالها ، ففرغوا في حفظها إلى الكتابة والتدوين ضناً بكتاب الله ولسان العرب على الجهالة والدروس . بدأ بذلك بعض أئمة العربية فأملوا كتباً صغيرة في الألفاظ الخاصة بخلق الانسان أو الجمل أو الخيل أو النبات . فلما جاء الخليل

ابن أحمد مهد الطريق إلى ضبط اللغة وتدوينها بوضعه كتاب (العين) ، فإنه أحصى ما يتركب من حروف المعجم من الثنائي والثلاثي والرابعي والخماسي بمطابقة حسابية أبانت له عدد المهمل والمستعمل ، ورتبه على مخارج الحروف من الحلق فاللسان فالأسنان فالشفتين ، وبدأه بحروف العلة . وقد اختصره أبو بكر الزبيدي المتوفى سنة ٢٧٩هـ لمشام المؤيد بالأندلس ، وشاع هذا المختصر حتى فضل على أصله ومضى على معجم الخليل أكثر من قرن لم يدون في اللغة غيره ، حتى جاء أبو بكر ابن دريد فاستمد منه ومن غيره كتاب الجهرة ورتبه على حروف المعجم ، وتلاه الأزهرى فصنف كتاب التهذيب على ترتيب الخليل . ثم وضع الجوهري من المشرقين كتاب الصحاح ، وابن سيده من الأندلسيين كتاب المحكم ، وابن فارس كتاب المحمل . وتلك هي أصول المعجمات وأسسها . أما غيرها من العباب والشكلة والنهاية ولسان العرب والقاموس فهي جمع لها أو اختصار منها .

ومما يجمل التنبيه إليه والثناء عليه كتاب فقه اللغة للثعالبي المتوفى سنة ٤٢٩هـ فقد فرق فيه بين الوضع والاستعمال ، وجمع به المعاني المترادفة والمتقاربة في باب واحد ، مبيناً ما بينها من فروق وما نالها من تدرج أو تفرع ؛ وكتاب أساس البلاغة للزمخشري المتوفى سنة ٥٣٨هـ ، فإنه بين فيه ما تجوزت به العرب من الألفاظ والمدلولات . وإنك لتجد في هذين الكتابين من الكشف عن خصائص اللغة ، والفحص عن أسرار العربية ، ما لا غنى عنه لكاتب ، ولا غاية بعده لطالب .

اللغويون

الخليل بن أحمد

١٠٠ - ١٧٤ هـ

نسأته وصيأته

ولد أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي بالبصرة ونشأ بها ؛ وأخذ

النحو والقراءات والحديث عن أئمة العربية وعلية الرواة كأبي عمرو بن العلاء وعيسى ابن عمر . ثم أبدى فسمع الفصيح وجمع الغريب حتى نبغ في اللغة نبوغاً لا يعرفه التاريخ غيره . وأخذ عن سيدييه وعن نفر من الأئمة كالنضر بن شمير ومؤرج السدوسي . وبقي بالبصرة مقبلاً طول حياته على فاقة وتكشف ، نُزوعاً بنفسه عن مواقف الضراعة ، وتجافياً بها عن مطارخ الهوان ؛ حتى قيل إن سليمان بن علي وجه إليه من الأهواز لتأديب ولده ، فأخرج الخليل إلى رسول سليمان خبزاً قفاراً وقال له : « كل » ، فما عندي غيره ، ومادمت أجده فلا حاجة بي إلى سليمان » وانكب ذلك الرجل العظيم على العلم يستنبط ويؤلف ويعلم حتى ذهبت نفسه في سبيله . فقد روى أنه قال : أريد أن أعمل نوعاً من الحساب تضي به الجارية إلى البقال فلا يظلمها . فدخل المسجد وهو يعمل فكره ، فاصطدم في سارية صدمة شديدة ارتج منها مخه رجة أودت بحياته .

علمهم وعمد

كان الخليل غاية في تصحيح القياس وتعليل النحو واستنباط مسأله ؛ وأكثر كتاب سيدييه منقول عنه أو مستمد منه . وكان على معرفة بالموسيقى : وضع أول كتاب فيها على غير إمام بلغة أجنبية ولا علم بآلة موسيقية . وساعده بصره بالنغم على اختراع علم العروض لما بين الإيقاع في الأنغام والتقطيع في الأجزاء من الشبه ؛ فضبط أوزان الشعر الخمسة عشر ، وحصرها في دوائرها الخمس ووقعها على المقاطع والحركات . وشغل بذلك نفسه ووقته حتى كان يقضى الساعات في حجرته يوقع بأصابعه ويحركها . فاتفق أن رآه ولده على تلك الحال فظن به مساً من خبال ، فقال له الخليل :

لو كفت تعلم ما أقول عذرتني أو كنت تعلم ما تقول عذرتك
اسكن جهلت مقالتي فعدلتني وعلمت أنك جاهل فعذرتك

والخليل أول من ضبط اللغة ، وابتكر المعجمات ، ووضع للخط هذا الشكل المستعمل .

مؤلفاته

ألف كتاب للمعين في خراسان وسماه بأول لفظ منه كمادة السلف ووافته المنية دون إتمامه ، فقصده إلى ذلك بعض تلاميذه فقصص عنه ، وجاء الكتاب مضطرباً باختلا وله غيره كتاب النظم ، وكتاب العروض ، وكتاب الشواهد ، وكتاب النقط والشكل ، وكتاب الإيقاع .

ابن دريد

٣٢١ — ٤٢٣

نسأته ومبانيه

أبو بكر محمد بن الحسن بن دريد ولد بالبصرة ونشأ بها وأخذ العلم عن علماءها كالرياشي والسجستاني ، ثم غادرها في فتنة الزنج إلى عمان ، فأقام بها اثنتي عشرة سنة يأخذ اللغة والشعر عن الأعراب . ثم عاد إلى البصرة ومنها شخص إلى بلاد فارس منتجعاً للشاه ابن ميكال وولده ، وها يومئذ على عمالة فارس ، وألف لها كتاب الجهرة في اللغة ، وامتدحهما بالمقصورة ، فقلدها الديوان فكانت تصدر كتب فارس عن رأيه ، ولا ينفذ أمر إلا بتوقيعه . ولما عزل ربنا ميكال عن عمالة فارس وانتقل إلى خراسان قدم ابن دريد إلى بغداد عام ٣٨٠ فاحتفى به الوزير علي بن القرات وأفضل عليه . وعلم الخليفة المقتدر به وبمكانه من العلم فأجرى عليه خمسين ديناراً في كل شهر كفته مؤونة السعي . فانقطع إلى العلم والأدب ، وعكف على التأليف ، حتى أصيب بالفالج فمات سنة ٣٢١ .

أضرفهم وعلمهم

كان ابن دريد مولعاً بآلات الطرب . مدمناً للخمر ، مفيداً للمال ، مبيداً له ، في اللهو والهبات ، حتى أن سائلاً سأله شيئاً فلم يجد ما يعطيه إياه إلا دَنَ نبيذ . فأنكر عليه غلامه أن يتصدق به فقال : ليس عندي سواه . وقرأ قوله تعالى : (لَنْ تَنَالُوا الْبِرَّ حَتَّى تُنْفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ) ثم اتفق أن أهدي إليه بعد ذلك عشرة دنان ، فقال لغلامه : الحسنه بعشر أمثالها . أخرجنا دنًا فجاءنا عشرة .

وقد نبغ ابن دريد في اللغة والأدب والأنساب وقام في ذلك مقام الخليل ابن أحمد . وبرع في الشعر حتى قيل فيه : إنه أفقه الشعراء وأشعر الفقهاء . وقد وضع على العرب أربعمائة حديث سلك فيها مسلك الرواية والحكاية ، وتوخى فيها جمال الإنشاء ، فدل بها على قوة طبعه في الكتابة . وهي منثورة في خلال كتب الأدب لا تكاد تميزها مما يروى عنه من الأخبار والنوادر . ويُظن أنها كانت الماهم الأول لا بداع فن القامات ، وله نظم جزل رقيق يدل على ملكة قوية وقرينة سخية ، خير . مقصوده ، وهي تسعة وعشرون ومائتا بيت ، جمعت كثيراً من أخبار العرب وأمثالهم وحكمهم : وقد شرحها كثير من العلماء ، وعارضها غير واحد من الشعراء : يقول في مطلعها :

إمّا ترى رأسى حاكى لونه طرّة صبح تحت أذيال الدجى
واشتعل المبيض في مسوده مثل اشتعال النار في جزل النضا
ومنها :

والناس كالنبت فنه رائق غضٌ نضيرٌ عوده مرث الجنى
ومنه ما تقتحم العين ، فإن ذقت جنباه انساغ عذبا في اللها
والناس ألف منهم كواحد وواحد كالألف إن أمر عنى
ولافتى من ماله ما قدمت بداه قبل موته لا ما افتنى
وإنما المرء حـديث بعده فسكن حديثاً حسناً لمن وعى

واللوم للحر مقيم رادع والعبد لا يردعه إلا العصا
وآفة العقل الهوى ، فمن علا على هواه عقله فقد نجا
كم من أخ مسخوطة أخلاقه أصفية الود إخلق مرتضى
إذا بلوت السيف محموداً فلا تدمه يوماً أن تراه قد نبا

مؤلفاته

له غير المتصورة كتاب الجهرة في اللغة ، وكتاب الاشتقاق في أسماء القبائل
والمأثور شعرها وفسانها ، وكتاب السحاب والغيث ، وأخبار الرواة وغير ذلك .

علوم البيان

الغالب في الظن أن أول من تسكلم في علم البيان أبو عبيدة في كتابه مجاز
القرآن عقب أن سئل عن معنى قوله تعالى : « طلعها كأنه رؤوس الشياطين »
فأجاب بأنه كقول امرئ القيس :

أيقناني والمشرقي مضاجعي ومسنونة زرق كأنياب أغوال

وانقضى العصر العباسي الأول ولم يدون في علم المعاني إلا ما أثر عن فحول
الكتاب في حد البلاغة جواباً لسؤال أو عرضاً في مقال ، حتى جاء الجاحظ
فألم ببعض أغراضه في كتابه البيان والتبيين . وهذا حذوه قدامة السكاتب
وأبو بكر بن دريد وأبو هلال العسكري ؛ إلا أن هؤلاء وإن تسكلموا فيه
فليسوا واضعياً لقصور كتابتهم وعموم عبارتهم . وإنما يعرف الفضل في وضع
هذا الفن للإمام عبد القاهر الجرجاني المتوفى سنة ٤٧١ هـ ، وللإمام أبي يعقوب
السكاكي المتوفى سنة ٦٤٦ هـ : ذلك اخترع مباحثه وقعد قواعده ، وهذا منحض
زبدته وماز المعاني من البيان فجعلها علمين مستقلين .

أما علم البديع فأول من ألف فيه عبد الله بن المعتز . جمع منه سبعة عشر نوعاً
ووقع معاصره قدامة بن جعفر على عشرين يوارده معه على سبعة منها . ثم اقتفاهما

للناس بالاستخراج حتى بلغت الأنواع في خزانة الأدب لابن حجة الحموي المتوفى سنة ٨٣٧ اثنين وأربعين ومائة نوع ١ .

ولا تزال هذه الفنون بعيدة عن السكال لنشوتها عند استتصاف العرب واستمجام اللغة . والمشاركة أقوم عليها من المغاربة ، لعناية للعجم بها وبعد نظرهم فيها . ولم يُعن المغاربة إلا بالبديع لسهولة مأخذه فألحقوه بفنون الشعر وفرعوا ألقابه وعدادوا أبوابه .

التاريخ

بدأ تدوين التاريخ عند العرب في مستهل هذا العصر . وكان يومئذ مقصوراً على ما يقتضيه الدين من فروع « طالعازى » للوقوف على الأزمنة والأمكنة التي نزلت بها الآيات وقيلت فيها الأحاديث « والفروض » لعلم ما فتح من البلاد صلحا أو عنوة ، فينتظم أمر الخراج والجزية . « والطبقات » للتعريف برواة الشريعة ووعاة الأدب من الصحابة والتابعين . والعرب أسبق الأمم كافة إلى هذا النوع من التاريخ . « والنساب » لتمييز أشرف القرشيين وسادات القبائل ، فتعلم مراتبهم ، وتقدر رواتبهم . « وأيام العرب » لفهم أغراض الشعر بمعرفة أسبابه . وأشهر الكتّاب في هذه الأنواع على الترتيب ابن إسحق المتوفى سنة ١٥١ ، والواقدي المتوفى سنة ٢٠٧ ، وابن سعد المتوفى سنة ٢٣٠ ، والكلبي المتوفى سنة ٢٠٦ ، والأصمعي المتوفى سنة ٢١٦ .

فلم اوقف العرب على ما ترجم من نوارخ الأمم ، وانقضت الحاجة إلى التاريخ الخاص بانقضاء أسبابه ، خطوا في التاريخ خطوة واسعة ، واختطوا فيه خطة جامعة . فكتب عمدة المؤرخين محمد بن جرير الطبري المتوفى سنة ٣١٠ تاريخه العام مرتبة حوادثه على السنين فمنهج المؤرخون طريقته في التصنيف . وفضله

بما أدخلوه في كتبهم بعدُ من المناحيث العلمية والأدبية كأبي زيد البلخي^(١) . صاحب كتاب البدء والتاريخ المتوفى سنة ٣٢٢، والمسعودي صاحب مروج الذهب المتوفى سنة ٣٤٦ ، وابن النديم صاحب الفهرست المتوفى سنة ٣٨٥ وابن مسكويه صاحب تجارب الأمم المتوفى سنة ٤٢١ . ثم عن المؤرخون بتذييل كتب التاريخ المدونة عن التأليف فيه . فتعاقب جماعة منهم على الطبرى بالتذليل والتكميل حتى مدوه إلى سنة ٦١٦ . وجاء خاتمة مؤرخي هذا العصر أبو الحسن علي بن الأثير^(٢) ففصل كتابه الكامل من الطبرى وذيوله وأضفاه إلى سنة ٦٣٧ هـ .

مذهب العرب في التاريخ

للعرب في كتابة التاريخ طريقتان : إما أن يسردوا السنين وما وقع فيهما من الحوادث في أى مكان مُسندة من غير اتصال ولا رابطة ، كما فعل ابن جرير الطبرى وابن الأثير الجزرى وأبو الفداء . وتلك الطريقة على إضجارها القارىء هى الأصيلة عندهم كما يؤخذ من تسميتهم هذا الفن بالتاريخ : أى التوقيت . خلافاً لتسميه اليونان إياه بالحكاية أو القصة لروايتهم الوقائع بأسلوب شائق ونمط بديع . وإما أن يسوقوا الحوادث باعتبار الأمم والدول كما فعل المسعودي وابن الطقطقي وابن خلدون وابن العبري .

على أن أرباب الطريقتين على كثرة ما كتبوا لم يهتدوا إلى طريق الفن ،

(١) كان المعروف أن أبازيد البلخي هو صاحب هذا الكتاب ، ولكن الأستاذ كليمان هيار المستشرق الفرنسى الذى طبهه عن نسخة مخطوطة فذة جلبها من مكتبة بالاستنافة وترجمه إلى اللغة الفرنسية أثبت بعد طبهه الجزء الأول منه أنه للعطير بن طاهر المقدسى المقيم ببيت من أعمال سجستان ، لقرائن وجبهة وأدلة قوية ، ذكرها في مقدمة الجزء الثانى والثالث من الكتاب .

(٢) ابن الأثير هو عز الدين أبو الحسن على بن محمد الشيبانى ولد سنة ٥٥٥ هـ بجزيرة ابن صحر بالجزيرة . ورحل هو وأخوه صاحب النهاية في شريب الحديث ، وضياء الدين صاحب المثل السائر مع أبيهم إلى اللوصل فنخرجوا على علمائها : وطاف هو في بعض بلاد الشرق طلباً لجاه وتحصيلاً لعلم . ثم انقطع في اللوصل إلى الدرس والتأليف فوضع كتابه في التاريخ وكتاب (أسد الغابة في معرفة الصحابة) وتوفى سنة ٦٣٠ هـ .

ولم يوفقوا إلى إتقانه ، لقلّة الوسائل عندهم ، وتأثير الحاكمين فيهم ، فجانبوا سبيل النقد محاباة للخلفاء ومهاوأة للملوك ، وكالوا الحوادث جزافاً دون تحقق من صوابها ، ولا نظر في أسبابها وأعقابها ، وأمسكوا عن الخوض في أحوال الأمة الاقتصادية والاجتماعية والأدبية ، قانعين بأخبار الحرب والفتح والولاية والعزل والولادة والوفاة ، وفاتهم أن تطوّر الأحوال وتغير الميول في طبقات الأمة له أثر عظيم في سياستها . وأعجب الأشياء أن ابن خلدون وهو أسبق علماء الأمم إلى فلسفة التاريخ لم يبرأ من أكثر هذه العيوب .

على أن مؤرخينا العذر في هذا القصور ، فإن فن التاريخ لا يتسنى إتقانه إلا بتوفير وسائله واستكمال علومه : كعلم المسكوكات ، وعلم السجلات ، وعلم العاديات وعلم الاقتصاد ، وعلم الإحصاء ، وعلم النقد ، وجهل العرب بهذه العلوم كلها أو جلها ساقهم إلى الأخذ بظواهر الحوادث ، وعاقبهم عن وضع التاريخ بمعناه الحديث .

العلوم الشرعية

علم الحديث

كان أبو جعفر المنصور بعد عمر بن عبد العزيز أول من عنى بتدوين الحديث مخافة ذهابه بموت أصحابه . فأمر مالك بن أنس بوضع الموطأ فوضعه جامعاً بين الحديث والفقه . ثم تبارى العلماء في تحصيل الحديث توسعاً في الفقه ، وتذرعاً إلى الفضل ، فراجت بضاعته ، وانتشرت روايته . وقضى الله أن يندس بين رجاله كثير من أتباع الضلالة وأشياع الفرق فتقولوا على الرسول وأدخلوا زور الحديث على أغفال الرواة فكثرت المفتريات وعُمّيَ على الناس الحق . فشمّر الأئمة للحديث بالنقد والتحصيل ، وللرواة بالجرح والتعديل . وكان أسبقهم إلى ذلك إسحق بن راهوية المتوفى سنة ٢٣٨ هـ فاز الحديث من الفقه . وتلاه شيخ الحديث البخاري ، وإمام السنة مسلم ، فجمعاً صحاح الأحاديث في كتابيهما . ثم ظهر بعدها أربعة كتب في

عصر واحد تمت بها الستة الصحاح . وهي كتاب أبي عيسى الترمذى ٢٧٩ ،
وكتاب أبي داود السجستاني ٢٧٥ ، وكتاب أبي عبد الرحمن النسائي ٢٧٥ ،
وكتاب أبي عبد الله بن ماجه ٢٧٣ .
وقد أطبق الناس على صحة هذه الكتب فشفلوا بها ما بين جمع وشرح
وتلخيص . وكل كتاب بعدها كمل عليها وراجع إليها .

المحدثون

البخارى

١٩٤ — ٢٥٦ هـ

نشأته وحياته

وُلد أبو عبد الله محمد بن إسماعيل البخارى ببخارى ونشأ بها يتيمًا . حفظ القرآن
وتقف العربية وطلب الحديث فى التاسعة من عمره . ولم يكديباغ الحلم حتى حفظ
منه عشرات الألوف . وفى سنة ٢١٦ خرج إلى مكة حاجًا مع أمه وأخيه . فعاد هذان
وتخلف هو للتوسع فى الحديث فرحل إلى معظم الممالك الشرقية وروى عن علمائها
وأخذ عن فقهاءها حتى أرجعه الجد العائر إلى بلاده فابتلى فيها بفتنة القول بخلق
القرآن ، فأفتى بأنه قديم غير مخلوق ، فأخرج من بخارى مطروداً ، فلاقته المتية
بقرية على ثلاثة فراسخ من سمرقند .

جمع كتابه « الجامع الصحيح » فى ست عشرة سنة وضمنه تسعة آلاف
حديث تنخّلها من ستمائة ألف . وفيها ثلاثة آلاف مكررة بتكرار وجوهها . وقد
أجمع العلماء على أنه أصح كتاب فى الحديث حتى من « صحيح مسلم » :

مسلم بن الحجاج

٢٠٦ — ٢٦١ هـ

هو أبو الحسين مسلم بن الحجاج القشيرى . ولد سنة ٢٠٦ ورحل فى طلب

الحديث إلى الحجاز والعراق والشام ومصر . وقدم بغداد غير مرة ، وأخذ عن البخارى وصادقه ودافع عنه . وروى عن ابن حنبل وابن راهويه ، وجمع صحيحه من ثلثمائة ألف حديث . وهو ثانى صحيح البخارى فى الصحة والمكانة ... ثم ألقى عصا الرحيل بنيسابور ، وعاش بها وادعا فى ظل ثروته ورجح تجارته حتى لقي ربه .

علم الفقه

فى صدر الإسلام كانت نشأة هذا العلم وفى عصر بنى العباس كان تحريره وتدوينه ونضجه . وكانت المدينة حينئذ عس الفقهاء ومقر الحديث وكعبة طلاب الفقه ورواة الحديث . فلما استقر ملك العباسيين فى العراق انتشر الفقه بين أهله ، ونبغ فيه جماعة منهم نهجوا غير سبيل الحجازيين فى التشريع . فقهاء الحجاز لمكانتهم من الرواية وتوسعهم فى الحديث بنوا أحكامهم على النصوص ، فلا يرجعون إلى القياس الجلى أو الخفى ما وجدوا خبراً أو أثراً . وهم أهل الحديث وزعيمهم مالك بن أنس . وقهاء العراق لتشددهم فى الرواية ، وقلة بضاعتهم من السنة ، وتأثير الجنسية الآرية فيهم ، عمدوا إلى القياس فى استنباط الفقه . وهم أصحاب الرأى وزعيمهم أبو حنيفة النعمان . واقتضت سياسة المنصور أن يظهر العراق على الحجاز ، وبغداد على المدينة ، والفرس على العرب ، فاستقدم أبا حنيفة إلى بغداد وأكرمه وعزز مذهبه ، فانتشر بالعراق وفارس وخراسان والهند والصين والترك . واقتصر مذهب مالك على الحجاز والمغرب الأقصى والأندلس . ثم جاء محمد بن إدريس الشافعى وهو أحد أتباع مالك ، فرحل إلى العراق وأخذ عن أصحاب أبى حنيفة مسائل القياس وانفرد بمذهب بين المذاهب . وساعدته الرحلة إلى مصر على تنقيح مذهبه ، فوضعه وضماً جديداً ونشره بها . ثم نبغ من بعده أحمد بن حنبل فقبس الحديث منه والقياس من بعض الحنفية ، واختص بمذهب آخر انتشر فى بلاد نجد والبحرين تقيده فيه بالسنة وتشدد فى الفروع .

وهذه هي المذاهب الأربعة التي قامت على عماد الكتاب والسنة الصحيحة ووقف عندها الاجتهاد وانتهى إليها التقليد في سائر الأمصار .

الفقهاء

ابو حنيفة النعمان

٨٠ - ١٥٠

نشأته وحياته

هو النعمان بن ثابت مولى تيم الله من أهل الكوفة ، وأصل أبيه من فرس كابل . كان أول أمره خزناً ، ثم أقبل على علوم الدين فأخذها عن شافه الصحابة ونقل عنهم . واشتهر بالنبوغ فيها حتى أراده المنصور على أن يلى القضاء فأبى وقال : « اتق الله ولا ترع في أمانتك إلا من يخاف الله . والله ما أنا مأمون الرضا فكيف أكون مأمون النضب ؟ » فقال له المنصور : كذبت ! أنت تصلح . فقال له : قد حكمت لى على نفسك . كيف يحل لك أن تولى قاضياً على أمانتك وهو كذاب ؟ .

فلم يقتنع المنصور وألقاه في السجن فلبث فيه حتى قبضه الله إليه . والراجع أن هذا سبب مقتل ، وما سجنه المنصور إلا لميله إلى العلويين .

صفته وأخلاقه

كان أبو حنيفة ربة في الرجال تعلمه سمرة ، وكان من أحلى الناس نعمة وأجهرهم صوتاً وأطلقهم لساناً . وكان كثير الخشوع ، طويل الصمت ، قليل الدعوى ، بعيداً عن الغيبة ، لا يذكر أحداً بسوء ولو كان له عدواً .

علمه وأدبه

كان راسخ القدم في علوم عصره إلا العربية ، فقد كان يرتضخ لكثرة

أعجمية ولا يقيم لسانه لحنًا . وكان قوى الحججة حتى قال عنه الإمام مالك : « إنه رجل لو كتته في هذه السارية أن يجعلها ذهبًا لقام بحجته » وهو أول من بوّب الفقه وحرر فصوله ورتب قياسه وقال فيه بالرأى لكثرة الوضعين من زنادقة العراق ، وحرصه على ألا يأخذ بالشك في دينه . فلم يصح عنده إلا سبعة عشر حديثًا . تخرج عليه من فقهاء العراق والكوفة القاضي أبو يوسف (١٨٢) ومحمد بن الحسن (١٨٩) وزفر بن الهذيل (١٥٨) وغيرهم . وقد ينسب إليه كتاب الفقه الأكبر في أصول الدين ، وكتاب الخارج في الحيل ، ووصيته لأصحابه في الأصول .

مالك بن أنس

٩٥ - ١٧٩

نشأته وحياته

ولد أبو عبد الله مالك بن أنس الأصبحي بالمدينة ونشأ بها ، وأخذ العلم عن ربيعة الرأي (١٢٦) وتعمق في علوم الدين حتى صار حجة في الحديث وإمامًا في الفقه . قيل إنه أفتى بجمع المنصور ومبايعة محمد بن عبد الله من آل علي ، فأحفظ ذلك جعفر بن سليمان عم الخليفة وأمير المدينة فجرده وضره سبعين سوطًا فما ازداد إلا علاء وشرفًا . وما عثم المنصور أن اعتذر إليه وترضاه وقال له : « لم يبق في الناس أفقه مني ومنك . وقد شغلتنى الخلافة ، فضع للناس كتابا ينتفعون به وتجنب رخص ابن عباس وشداؤد ابن عمرو وشواذ ابن مسعود ووطنه للناس توطئة » فصنف الموطأ . سمعه عليه المهدي ثم الرشيد سنة ١٧٤ وظاهرا عليه ثوب النعمة . وبقي مشرقا لنور العلم ، وقبلة لرواة الحديث ، وعمدة للفتوى حتى أتاه اليقين بالمدينة .

صفته وأخلاقه

كان مالك أشقر شديد البياض ، أصلع كبير الرأس ، حسن البزة وقوراً مهيباً عفيفاً لا يحدث إلا على وضوء ، ولا يركب دابة في دار الهجرة على ضعفه . وكان أميناً على العلم فلا يترفع أن يقول في الشيء لا يعلمه : (لا أدري) .

علمه وفضله

كان مالك من حجج الله على خلقه . لا يحدث إلا عن صحة ، ولا يروى إلا عن ثقة . قد توفر حظه من السنة فبنى مذهبه عليها وانفسح ذرعه في الفقه فانتهت إليه الفتوى . وهو القائل عن نفسه : « قل رجل كنت أتعلم منه مامات حتى يجيئني ويستفتيني » وبذلك سار المثل . « لا يفتى ومالك في المدينة » . له كتاب الموطأ في الحديث وهو أساس المذهب المالكي ، ورسالة في موعظة الرشيد .

محمد الشافعي

١٥٠ — ٨٢٠٤

نسبته وجماله

هو أبو عبد الله محمد بن إدريس القرشي الشافعي نسبة إلى جد جده . ولد بغزة في فلسطين على مهد الفقر ، ونقل بعد عامين إلى مكة ، فنشأ في بني هذيل ودرج بينهم ، وكانت أمه الأيم تعوله مستعينة بهرذوى قرابته من قريش . وما كاد يناهز الإدراك حتى أندر في الذكاء والحفظ . قرأ القرآن ودرس العربية وراى البادية في طلب اللغة والأدب ، وحفظ الموطأ وما أربى عمره على خمس عشرة سنة . ثم رحل في هذه السن إلى مالك فقرأ عليه الموطأ حفظاً . فقال مالك : « إن أحد يفلح فهذا الغلام » ، وفي سنة ١٩٥ وفد إلى بغداد فالتف حوله علماءها

يأخذون عنه ، وفيهم أحمد بن حنبل ، ولقي محمد بن الحسن فبصره بالقياس . ثم دخل مصر عام ١٩٩ فاتخذها دار إقامته ، وسكن القسطنطينية وأملى بجامع عمرو مذهب الجديدي : وعكف على العبادة والإقراء والتأليف حتى اصطفاه الله لجوارحه فدفن بالقاهرة .

صفته وأخلاقه

كان رضى الله عنه طويلاً نحيلاً ، خفيف العارضين ، حسن الصوت ، والسَّمْت ، فصيح المنطق ، راجح العقل قوى الحجّة ، ثقة فى دينه كريماً فى خلفه .

علمه وفضله

كان أفقه الناس فى كتاب الله وسنة رسوله ، وأبصرهم بأصول العلم والفقّه ، وحجّة فى اللغة ، وآية فى الأنساب والأخبار . وقد بلغ من المسكنة فى الأدب والدراية فى اللغة أن قرأ عليه الأصمعي أشعار المهذلين . وقال أحمد بن حنبل : « ما أحد يحمل محبرة إلا وللشافعي عليه منة » .

توسط فى مذهبه بين أهل الرأى وأهل السنة . وكثر أشياعه فى الأمصار فقاسموا الحنفية مناصب التدريس والفتوى . وشجر الخلاف بين أتباع المذهبين ، وتعددت المناظرات ، حتى نشأ من ذلك علم الخلاف والجدل . والراجح أن الشافعي أول من تكلم فى أصول الفقّه وصنف فيه . وقد ذكر له صاحب الفهرست ما يربى على مائة مؤلف ليس فى أيدي الناس منها إلا كتاب الأم فى الفقّه فى سبعة مجلدات ، والرسالة فى أصول الفقّه ، ومسند الشافعي فى الحديث .

أحمد بن حنبل

١٦٤ — ٢٤١ هـ

نشأته وهبائه

أبو عبد الله بن حنبل الشيباني ولد ببغداد ، ونشأ بها يتيماً . وطلب الحديث لست عشرة سنة ، وقد كثرت رواياته ، وعرفت ثقافته ، وتميز صحيحه ، فحجج الأقطار الإسلامية في سبيل تلقيه وجمعه ، حتى حفظ ألف ألف حديث تنخل منها أربعين ألفاً ونيفاً فدونها في كتابه المسند . وهو من أصحاب الشافعي وصفوة تلاميذه ، وقد قال فيه وهو راحل إلى مصر : « خرجت من بغداد وما خلقت بها أتقى ولا أفقه من ابن حنبل » .

استنبط مذهبه من الكتاب والسنة وشابهه بشيء من القياس ، فقل أتباعه لبعده عن الاجتهاد وتمسكه بالرواية . وتصدى هو وشيعته لمجادلة المتكلمين ومناضلة الفلاسفة في عصر الرشيد والمأمون . ودعى إلى القول بخلق القرآن زمن المعتصم فأبى ، فضرب تسعة وعشرين سوطاً حتى تقطر دمه وغاب رشده واعتل جسمه . ولم ينعم باله إلا في عهد المتوكل نصير السنة . وعاش ما عاش حتى نقله الله إلى دار كرامته فشيعة ثمانمائة ألف رجل وستون ألف امرأة . وكفى بذلك شهيداً على رفعة شأنه وعظم خطره .

العلوم العقلية

الفلسفة

كانت حرية الفكر في الإسلام سبباً في تعدد الفرق وظهور المعتزلة . وهم يذهبون إلى تطبيق النصوص الدينية على الأحكام العقلية . وبنو العباس كما علمت

أميل إلى القياس والرأى . فاستفاض فيهم هذا المذهب . وانضوى المأمون إلى أهله وصدع بما لم يصدعوا به فقال بخلق القرآن . وضرّم نار الجدل بين السنة والاعتزال ، وزُين له أن يتذرع بمنطق اليونان لقهر خصومه ، فهب ترجمة الفلسفة وأنضى الركائب في طلبها ، وحدا الناس على النظر فيها والجدل بها : فنشأ من ذلك علم الكلام وكان مبدأ لظهور الفلسفة العربية .

أجل إن الفلسفة العربية طور من أطوار الفكر الإسلامى ، وحدث من تاريخ تمدن العربى ، فكان عدد الفلاسفة قليلاً ، وأثرهم فى الشرق ضئيلاً ، ولكنهم كانوا حلقة اتصال بين الفلسفة القديمة والفلسفة الحديثة ومناراً للأورب العامة يومئذ فى غياب الجهالة ، التائهة فى مجاهل القرون الوسطى ، هداها إلى هذه الحضارة العظيمة وتلك الحياة الراقية .

أتخذ المعتزلة من الفلسفة سلاحاً يقارعون به أهل السنة ، وأنجى هؤلاء بالظمن عليهم وعليها ، وحذروا الناس منهم ومنها ، حتى أصبحت الفلسفة مرادفة للزندقة والقيسوف غرضاً للمقت والسخرية . كان ذلك سرأً فى عهد المأمون والمعتمد والواثق نصراء الفلسفة وظهواء الحكمة ، وجهرأى عهد المتوكل وأخلاقه محيى السنة وميمتى البدعة فإنهم خفّضوا من إشراف الفلاسفة وشدو من شكائهم ، وألجأوهم إلى التستر وعقد الجامع خفية : فكان من ذلك جماعة (إخوان الصفا وخلان الوفا) وهى أشبه بجماعة « الماسون » فى رسومها ورموزها . تألفت بالبصرة فى أواسط القرن الرابع للبحث فى ضروب الفلسفة ، والعمل على نشرها ، فكتبوا خمسين رسالة غفلاً ضمنوها جملة الفلسفة العربية ، وزبدة الحكمة اليونانية . وقد بعثت فى الفلسفة روح الحياة ومهدت لها طريق الشيعوع . ووافق ذلك تغلب البويهيين على بغداد (٣٤٣) وهم شيعيون ، ونصرتهم فى خذلان السنين ، فأخذت الفلسفة تنفق وتذيع ، حتى أصابها ما أصاب سائر العلوم من الضعف والدمور

أما تاريخ الفلسفة في الأندلس فهو أشبه بتاريخها في الشرق . انتقلت إليها زمن عبد الرحمن الأوسط (٢٣٨) وتشيع لها اقتداء بالمأمون لقرب عهده منه . فنشط لدرسها الأندلسيون وازداد إقبالهم عليها وانصرفهم إليها بوصول رسائل إخوان الصفا إليهم على يد أبي الحكم عمرو الكرمانى سنة ٤٥٨ فنبغ منهم الفلاسفة وكثرفيهم الحكماء . ولكن اضطهاد العامة لهم كان أكثر، ووزرايتهم عليهم كانت أشد ؛ فاستبد الملوك بهم مسيطرة للشعب ، وتجباً إلى الدهماء، وقيدوا عليهم أنفاسهم ، فإذا زل أحدهم في كلمة رجموه أو أحرقوه . وناهيك بما فعله أبو يوسف المنصور الموحدى بهم في أواخر القرن السادس من تمزيق شملهم وتمحريق كتبهم .

وهكذا ظل ولاية الأندلس يسوقهم الجهل والاستبداد إلى مطاردة الفلسفة ومحاربتها حتى فرت من وجوههم لائذة بجيرانهم الفرنجة . ولا بدع فلالعوم وأهلها دول تدول وسلطان يزول .

الفلاسفة

أول فيلسوف نعرفه من العرب يعقوب بن إسحق الكندى المتوفى سنة (٢٤٦) وكان معاصراً للمأمون بارعاً في الطب والفلسفة والحساب والمنطق والهندسة والنجوم والألحان . وألف في تلك العلوم واحداً وثلاثين ومائتي كتاب حذا فيها حذو أرسطو . وكان أبرع الناس في الترجمة عن اليونانية . وولييه أبو نصر الفارابى المتوفى سنة (٢٣٩) الملقب بالمعلم الثانى صاحب كتاب السياسة المدنية ، ومخترع القانون في الموسيقى . ثم أبو على بن سينا وأبو حامد الغزالي . وأما في الأندلس فقد نبغ فيها أبو بكر بن باجه المتوفى سنة (٥٣٢) وتلميذه ابن رشد، وابن طفيل المتوفى سنة (٥٨١) صاحب رسالة حى بن يقطان . وبحسبان أن نترجم بثلاثة من أعلامهم

ابن سينا

٣٧٠ - ٤٢٨ هـ

نسبته ومبائه

هو الشيخ الرئيس أبو علي الحسين بن سينا ويسميه الفرنج (avicenne) ولد بقرية من قرى بخارى كان أبوه عاملاً عليها لنوح بن منصور الساماني. ثم انتقل في طفولته إلى بخارى فحفظ القرآن والآداب وشيئاً من مبادئ العلوم . وورد بخارى إذ ذاك أبو عبد الله الناتلي فاقرأه كتاب إيساغوجي، وخرجه في المنطق فبرز عليه فيه ، وبصره بمواضع منه . ثم رغب في علم الطب فتلقى أصوله على أبي سهل المسيحي ، ودرس فروعه وحده حتى انتهت إليه الزعامة فيه . فقصده الأطباء من كل صوب يسيشيرونه ويقتبسون منه . كل ذلك وسنه على ما قيل لم تجاوز ست عشرة سنة . ثم أبرأ الأمير نوح بن منصور الساماني من مرض برح به ، فقربه إليه وأذن له في الدخول إلى دار كتبه ، فقرأ فيها أثنى السكتب وأجلها . ثم اتفق أن أحرق تلك المكتبة فتفرد أبو علي بما فيها . ويقال إنه أحرقها لذلك عمداً .

وفي الثانية والعشرين من عمره توفي أبووه فخرج إلى قسبة خوارزم وأخذ يضرب في الأرض ، فوفد على جرجان وزاول التعليم وصنف كتاب القانون في الطب . ثم انقلب إلى همدان فتقلد الوزارة لشمس الدولة بن بويه ، فما لبث غير قليل حتى ثار عليه الجنود ونهبوا ماله وسألوا الأمير قتله فاكتفى بنفيه . ولم تهادنه المصائب بعد ذلك فاتهم عند تاج الدولة بخيانة منكرة فسجنه في إحدى القلاع أربعة أشهر ولم ينجحه إلا فراره متنكراً إلى علاء الدولة بأصبهان ، فأقام في حماه

وإدع لنفسه أحياناً ؛ ولكن تعاقب الحوادث عليه أو هن عزمه ، واستبداد الشهوة به أنهك جسمه ، فأصيب بداء عياء نكّل عنه تدبيره وطبه ، وتوفى بهمدان .

علمه ومصنفاته

لابن سينا القدم الراسخة في الطب والمكانة السامية في الفلسفة . أخذ بمبادئ أرسطو ولم يفتن عن دينه ، ولم يشك بعد يقينه . إلا أنه كان أبيقورياً مستهتراً . وقد نقل الفرنج عنه أكثر ما عندهم من كتب جالينوس وأبقراط وترجموا أكثر تأليفه إلى اللاتينية واعتمدوا عليها في بناء الفلسفة الحديثة وهي تبلغ مائة مؤلف ، وأشهرها كتاب القانون في الطب ، وكتاب الشفاء في الحكمة ، يقع الأول في أربعة عشر مجلداً ، والثاني في ثمانية عشر .

حجة الإسلام الغزالي

٤٥٠ — ٥٥٥

نشأته وحياته

ولد أبو حامد محمد بن حامد الغزالي بطوس ، وتلقى دروسه الأولية بها ثم قدم نيسابور فتخرج في أمد يسير على إمام الحرمين أبي المعالي ، ولازمه حتى توفى . فوفد على الوزير نظام الملك بالعسكر فاحتفى بقدمه وأعجب بعلمه . وناظر بحضرته جماعة من الأفاضل فظهر عليهم ظهوراً أطار ذكره . ففوض إليه التدريس بالمدرسة النظامية ببغداد وأخذ نفسه بدرس الفلسفة فاشتغل بها وهو يعلم . ثم انقطع عن التدريس سنة ٤٨٨ ليتخصص لها ويتعمق فيها . فتبين له بعد طول البحث أن الفلسفة والذين ضدان : فناصر الفلاسفة العداء وحمل عليهم بأسلحتهم ، وقارعهم بحججهم . فلقلب لذلك حجة الإسلام . ثم سلك

طريق التزهد ، ونهج سبيل التصوف ، فوطده على أساس الحكمة ، وأيده بحقائق العلم . ثم غادر بغداد فورد الشام وأورشليم والحجاز والإسكندرية ؛ وعزم الرحلة إلى مراکش ليلقى الأمير يوسف بن تاشفين ، فجاهه نعيه قبل سفره فعاد إلى طوس واشتغل بالتعليم والتأليف . ثم اضطر أن يمارس التدريس ثانية بالمدرسة النظامية ، ولكنه ما عثم أن يرجع إلى وطنه فابتنى خانقاة للصوفية ومدرسة للعلوم الدينية ، وعكف على العبادة والإفادة حتى مضى لسبيله .

مؤلفاته

ألف الفزالي كتاب البسيط والوسيط والوجيز في فقه الشافعي ، وكتاب إحياء علوم الدين في التصوف ، وهو مرتب على أربعة أقسام : العبادات والعادات والمهلكات والمنجيات . وقد قيل في فضله : « لو ذهبت كتب الإسلام وبقى (الإحياء) لأعنى عما ذهب » وله كتاب تهافت الفلاسفة في الرد على فلاسفة اليونان وأتباعهم ، وقد طبع أخيراً بمصر ، وكتاب مقاصد الفلاسفة في الموضوع نفسه .

ابن رشد

٥٥١ — ٥٩٥ هـ

نسبته وهبته

هو الوليد محمد بن أحمد بن رشد ، ويسميه الفرينج (averroés) ولد بقرطبة من بيت عريق في المجد أصيل في القضاء ، وتخرج على علماء عصره في الفقه والطب والفلسفة ، وانقطع إلى النظر في الحكمة حتى توسط باحثها وشارف غايتها . وفي سنة ٥٤٨ قدمه ابن طفيل إلى أبي يعقوب يوسف بن عبد المؤمن وكان محباً للفلسفة ، فلخص له كتب أرسطو . ثم تولى قضاء أشبيلية سنة ٥١٥ ورجع إلى موطنه بعد عامين ، وشخص منه إلى مراکش بدعوة من أمير المؤمنين ليتخذها طبيباً له ، ولكنه ما لبث أن عاد إلى قرطبة قاضياً . ولما مات أبو يعقوب وخلفه والده

يعقوب المنصور أقر ابن رشد في مقامه ، وبالغ في إكرامه ، ولكن الدهر أبى أن ينعم بالحكيم فسعى به أعداؤه إلى الأمير ورموه عنده بالزندقة والمروق ، فنفاه هو وسائر الفلاسفة من أرضه . ثم عاد الأمير إلى نفسه فاستدعاه إلى سراكش واعتذر إليه ، وظاهر نعمته عليه . ولكن ما لبث أن لقيه حمامه بمراكش .

فلسفته وكتبه

لوصح التناسخ لقلنا إن روح أرسطو تقصت جسم ابن رشد لتجدد عهد الحكمة ، وتفسر غموض الفلسفة . فإن حكيم العرب تعصب لحكيم اليونان ، وزعم أنه وصل بالعلم إلى أبعاد غاياته . فوقف نفسه على شرح فلسفته وتلخيص كتبه . واهتم الأوربيون بما كتب فترجموه وتعلموه ، فكان أساساً لحكمتهم ونبراساً لهمضتهم وقد قال عنه الفيلسوف الفرنسي (إرنست رينان) في كتابه ابن رشد ومذهبه : « إنه أعظم فلاسفة القرون الوسطى ممن تبع أرسطو ، ونهج سبيل الحرية في الفكر والقول » . ومذهب ابن رشد وأشياؤه من تلاميذ أرسطو أقرب إلى مذهب الماديين والقائلين بالحللول : فيزعمون أن المادة أزلية ، وأن الخلق حركة اضطرابية في هذه المادة ، والخالق هو تلك الحركة أو الحرك . ويرون أن الخلوقات تشارك المادة في أزليتها لكونها منها . فإذا تجرد الإنسان العاقل نتحصيل العلم توصل بالتدريج إلى الاستغراق في الله ؛ وأن العقول واحدة العام هو وحده متصل بالله دون العقول الفردية ، فيترتب على هذه الفلسفة أن النفوس تموت مع أجسادها وأن لاخلود إلا للمادة فلا ثواب ولا عقاب ، وأن الخالق لا يعلم إلا كليات الحوادث دون جزئياتها . تعالى الله عما يقولون علواً كبيراً . وقد فند هذا المذهب حجة الإسلام الغزالي وكثير من علماء أوروبا . على أن ابن رشد كان يحرص الحرص كله على التوفيق بين الفلسفة والدين . فكتب

في ذلك كتابه « فصل المقال فيما بين الشريعة والحكمة من الاتصال » ، وكتاب « مناهج الأدلة في عقائد الملة » ، وعُني بارِدَ عَلِي « تهافت الفلاسفة » للغزالي بكتاب سماه « تهافت التهافت » يقول في آخره . « لا شك أن هذا الرجل أخطأ على الشريعة كما أخطأ على الحكمة ، ولولا ضرورة طلب الحق مع أهله ما تسكمت في ذلك » وله غير ذلك مؤلفات كثيرة ككتاب الكليات في الطب ، وفلسفة أرسطو ، وقد فقدت أصول كتبه فلم تبق إلا ترجمتها اللاتينية أو العبرية .

الفصل السابع

القصص والمقامات في الأدب العربي^(١)

القَصَصُ فنٌ من فنون الأدب الجليلة ، يقصد به ترويح النفس باللهو ، وتثقيف العقل بالحكمة . وله عند الفرنج مكانة سرفوعة ، وقواعد موضوعة . أما عند العرب فلا خطر له ولا عناية به ، لانصرافهم عما لا رجح للدين منه ، ولا غناء للملك فيه ؛ وللأسباب التي دعت إلى قصورهم في الشعر القصصي ؛ ولأنه نوع من أنواع النثر ، والفن السكتابي أو النثر الفني ظل في حكم العدم أزمان الجاهلية وصدر الإسلام حتى آخر الدولة الأموية ، حين وضع ابن المقفع الفارسي منهاج النثر وفكر في تدوين شيء من القصص . فكان ما ترجمه هو وأمثاله من نحو كليلة ودمنة ، وهزار أفسانه (ألف خرافة) ودارا والصم الذهب ، حُدَيًّا العرب ونموذجا لهم في وضع ما وضعوه منها .

ولما أترف العرب وحمل الأعاجم عن الخلفاء أعباء الخلافة قطعوا ليايهم بالمنادمة والمسامرة . فتنافس الندماء في حفظ الأفاصيص والأسمار ، وتسابق أدباء القرنين الثالث والرابع إلى وضعها يسامرون بها الخاصة شفاها . واحتاج العامة من أهل الترف والبطالة إلى من يسامرهم كذلك في ديارهم وأملاهم وأعراسهم . واشتدت هذه الحاجة عندما توالى المصائب والحن على العالم الإسلامي في أواخر العصر العباسي وبعده من عسف المتسلطين من السلاجقة ، وعنف المتغلبين من المغول ، وإخلاق الشعب في مصر إلى التبطل والمجون ، وتعاطيه المخدرات من الحشيش والأفيون ؛ فتقدم إليهم القصص والمحدثون ، وهم للسوقة أشبه بالندمان

(١) راجع في هذا الموضوع كتابنا : (في أصول الأدب) .

والمهرحين للملوك فحدثوهم بما جمعوا من أقاصيص الشجعان ، وأخبار الجان ، وأعمال السحرة ، مما تناقلته الأفواه من وراء الأجيال والأزمان ، وشاهده التجار والرحالون في أطراف البلدان . ثم عملت في هذه الأحاديث المبالغة وأعمالها الاختلاق حتى قيض الله لهذه السير من دونها على أسلوب الحديث من غير قاعدة ولا خطة . ثم تنوسيت أسماؤهم لطول العهد كما تنوسيت أسماء مؤلفي القصص الأفرنجية القديمة ، فكان من ذلك قصص عنتره^(١) ، وبني هلال ، وسيف بن ذى وزن ، والأميرة ذات الهمة ، والظاهر بيبرس ، وعلي الزبيق المصرى ، وفيروز شاه . وفي رأبي أن هذه القصص كتبت كلها بمصر في القرون الخامس والسادس والسابع للهجرة ، فبعضها حين نشوب الحروب الصليبية ، وبعضها بعد سقوط بغداد . أما أنها كتبت بمصر فهذا واضح من مواضع وقائعها ، وموضوعات حوادثها ، وأسماء أشخاصها . وأما أنها كتبت في هذه العهود فذلك بين من لفتها المشوبة ، وأساليها المبتذلة ، وخيالها الغريب القوى من أثر الخدرات . وحال الاجتماع يومئذ ، ونشوب الحروب الصليبية ، اقتضيا تدوين هذه القصص في وصف الوغى ، ومدح البطولة ، وتمجيد القادة ، إثارة للنفوس ومحيسا للحنند ، كما كان المسلمون يفعلون في القرن الأول للهجرة^(٢) .

(١) قصة عنتره هي قصة حماسية غرامية تمثل حياة العرب في الجاهلية تمثيلا صادقا ، وتصنف أخلاقهم وحروبهم وصفا ناطقا ، ونبتت في النفس الحمية والتجدة والوفاء والسخاء ، فهي أفضل القصص العربية وأولاها أن تسمى (الباذة العرب) . أسلوبها شائق منسق ، وقد تدرك الركاكة أحيانا . وثرها مسجوع متكلف مطرز بقصائد بعضها مسموع ، وبعضها مصنوع . والراجح في الرأي أنها نعتت بما سار على ألسنة الرواة والمار طوال السنين من أخبار العرب وقائعها ، وتمت بالمناقلة والمبالغة ، حتى انتهت إلى رجل حافظه يدهي يوسف ابن اسماعيل في عهد العزيز باق الفاطمي (٣٦٥ — ٣٧٦) فألفها بأمره الهاء للشعب عن التحدث بريية حدثت في بيته . ثم أصدرها تباهيا في اثنين وسبعين جزءا ، ونسبها إلى الأصمعي إجلالا لقدرها ، واحتيالا لفسرها ،

(٢) ذكر ابن الأثير سنة ٧٧ هـ أن عتاب بن ورقاء سار في أصحابه قبل المازكة يحرصهم على القتال ويقص عليهم . ثم قال أين القصص ؟ فلم يجبه أحد فقال : أين من يروى شعر عنتره فلم يجبه أحد الخ .

ذلك كان مولد القصة في الأدب العربي وهو شبيه بمولدها في الأدب الغربي ؛ فكلتاها ولد على إثر الملاحم ، وكلتاها ابتداءً بأخبار الشجعان ومخاطر البطولة . إلا أن القصة الغربية لاحظت عناية الأدياء ، ورعاية النقد ، واتساع الحضارة ، وتقدم العلم ، فنمت وتقدمت . أما القصة العربية فمنها الفنى المعروف فظلت في حصر الطفولة ومهد الخمول يلمو بها العامة ، ويأنف منها الخاصة ، ويصد عنها الأدياء والكتاب حتى قبروها مُدْرَجَةً في لفائف الميلاذ . وإنما برع العرب في الحكايات والأمثال والمقامات .

الحكايات

ألف ليلة وليلة^(١)

فأما الحكايات فأخذوها عن الفرس . وأبدع ما أترعن هؤلاء منها : كلستان للسعدى ، وأصل ألف ليلة وليلة . وهذان السكتانان لا يزالان نموذج هذا الفن في الشرق والغرب . على أن العرب حينما اقتبسوا هذا الفن من الفرس توافروا عليه وتمكنوا منه حتى جاروهم فيه وحتى شاطروهم الشهرة وجاذبوهم الأولية . ولقد طغى ما أدخلوه في ألف ليلة وليلة على ما نقلوه عن الفرس منه فأخفاه . وأصبح الكتاب عنواناً عربياً من عناوين الأدب العربي وأتراً خالداً من آثار بنييه .

وأصله على الأرجح كتاب صغير للفرس دعوه (هزار أفسانه) وبنوه على حكاية الملك والوزير وابنته شهر زاد وجاريته دنيا زاد . وقد ترجمه العرب من الفهلوية إلى العربية آخر القرن الثالث للهجرة ، ثم دعاهم الإعجاب به إلى توسيعه وتقريره فأضافوا إليه ما شاكله من أساطير العرب والهنود واليهود وأخبار الخلفاء والأمراء والفرسان والأجواد في الجاهلية والإسلام . وبقي بابه مفتوحاً للزيادة عليه حتى القرن العاشر للهجرة ، فتكامل نقصانه واستتم بنياته ، وتضائل ما فيه من

(١) اقرأ عن هذا الكتاب بحثاً هدياً مفصلاً في تاريخه وتحليله في كتابنا: (فصول الأدب) .

وضع الفرس حتى فنى فيما وضع العرب من أفاصيص الجان ومخاطر الشجمان ونجوى الهواتف وأعمال السحرة ، التي تستهوى القلب ، وتشخذ الخاطر ، وتخصب الخيلة .

ومزية الكتاب تمثيله لأخلاق العرب والمسلمين وعاداتهم وأنظمتهم في العصر الإسلامي الوسطى بالعراق ومصر والشام مما يفيد الكاتب الاجتماعي والفيلسوف المؤرخ . ومن ثمّ عنى به الفرنج عناية خاصة فترجموه إلى لغاتهم ، وأفردوه بأبحاثهم . أما إنشاؤه فمختلف باختلاف الأعصر والأقاليم : فأخبار العرب ونوادير الخلفاء وما ترجم في الصدر الأول تغلب فيه الصحة والفصاحة . وأما ما وضعه القصاصون المتأخرون من عامة مصر والشام فركيك العبارة ، عامى الألفاظ ، مبتذل التركيب ، إلا أن مساق الأحاديث جيد ، ورباط الحوادث متين .

الأمثال

كلمة ودمنة

أما الأمثال فنشأها الشرق ؛ لأنه كان موطن الحكم المطلق والاستبداد العنيف . انبعث في صدور الضعفاء المستعبدين صدى خافتا لاحتجاج مكظوم صامت لم يجدوا له متنفسا ولا طريقا إلى آذان الطغاة إلا هذه السكنايات والرموز يسترون وراءها ما يريدون من نصح وعظة . وقد بدأ ظهور هذا النوع في الهند ثم انتقل منها إلى الصين ثم إلى فارس فبلاد العرب فبلاد الإغريق . وأقدم ما عرف منه أمثال لقمان الحكيم ، وإيزوب الرومى ، وبيدبا الهندى . وأشهر من كتب فيه من أدياء العربية ابن المقفع مترجم كلمة ودمنة . وهذا الكتاب من خيرة الكتب في تقويم الأخلاق بالعظة ورياضة العقول بالحكمة : وضعه باللفة السنسكريتية بيدبا الهندى لدبشليم الملك منذ عشرين قرنا ونيقا على السنة البهائم والظيور ، وعقده على اثني عشر بابا ثم ترجم إلى النهلوية ، ونقله عنها إلى

العربية عبد الله بن المقفع ، وصدره بمقدمة بليغة في التعريف بالكتاب والتحريض على مطالعته ، ثم فقد أصله وترجماته إلا العربية ، فإنها بقيت أصلاً تفرعت عنه الترجمات القديمة والحديثة . وزاد الكتاب بتوالي الزمن بما دخله من الأبواب الفارسية والعربية ، حتى بلغت أبوابه واحداً وعشرين باباً .

وقد جاء في دائرة المعارف الإسلامية (وهي موسوعة كبيرة يتولى تأليفها طائفة من المستشرقين وينشر ومنها تباعاً بالفرنسية والألمانية والإنجليزية) أن مؤلف هذا الكتاب برهمي لا يعرف اسمه . ألفه في كشمير حوالي القرن الثالث قبل الميلاد في مقدمة خمسة أبواب وسماه (تنقرة) على ما رواه هرتال Hertal ، وهرتال هذا هو الذي نقله عن السنسكريتية ووضع له مقدمة وعلق عليه حواشي وطبعه في ليبسك وبرلين في مجلدين سنة ١٩٠٩ م .

ولهذا الكتاب نسخة أخرى عنوانها (بنجة تنقرة) ترجمها إلى الفهلوية برزويه طبيب أنوشروان بأمره . وأضاف إليها أبواباً من القصص الهندي ، وعن هذه الترجمة نقل ابن المقفع ترجمته العربية وصدرها بمقدمة من وضعه . والراجح أنه أضاف إلى مقدمة برزويه ما يدل على الشك في الأديان . وأضاف إلى الكتاب باب الفحص عن أمر دمنة وباب الناسك وضيغ . وفي بعض النسخ زيدَ على الكتاب بابان لا يعرف مصدرهما ، وهما باب مالك الحزين والبطلة ، وباب الحمامة والثعلب ومالك الحزين . انتهى .

ومن الناس من يميل به الظن إلى أنه من وضع عبد الله بن المقفع ، وما نسبته إلى علماء الهند إلا أملاً في رواجه وانتشاره ؛ ولكنه في اعتقادنا ظن بعيد الاحتمال لأن حظ النقل والاحتذاء في كل ما كتب ابن المقفع أبلغ من حظ الإنشاء والابتكار . وقد نظمه كثير من شعراء العرب كأبان اللاحق وابن الهبارية ، وعاضه سهل بن هرون بكتاب سماه (ثعلة وعفرة) .

ثم اشتهر بالكتابة في الأمثال أيضاً ابن الهبارية المتوفى سنة ٥٠٢ هـ ناظم

كتاب الصاحح والباغم ، وهو منظومة في ألفي بيت على أسلوب كلية ودمنة . ثم ابن عرب شاه الدمشقي المتوفى سنة ٨٥٤ صاحب كتاب فاكهة الخلفاء ومفاكهة الظرفاء ، وهو مجموعة من الأمثال والحكايات نهج فيها منهج كلية ودمنة وجعلها في عشرة أبواب ، إلا أن أمثالها يعيها التطويل والحشو ، وإنشاءها بضعفه التعمل والتكلف .

المقامات وكتابتها

المقامة حكاية قصيرة أنيقة الأسلوب تشتمل على عظة أو ملحّة . ومعنى المقامة في الأصل المقام أى موضع القيام ، ثم توسعوا فيها فاستعملوها استعمال المجلس والمكان ، ثم كثرت حتى سمو الجالسين في المقام مقامة كما سموهم مجلساً ، إلى أن قيل لما يقام فيها من خطبة أو عظة وما أشبهها مقامة أو مجلس ، فيقال : مقامات الخطباء ، ومقامات القصاص ، ومقامات الزهاد : وقد نشأ هذا النوع من القصص في أواسط الدولة العباسية وهو عهد الترف الأدبي والإنشاء الصناعي الأنيق . وقد أجاده بديع الزمان إجادة أحلته منه محل الزعيم .

وليس الغرض من المقامة جمال القصص ولا حسن الوعظ ولا إفادة العلم ، وإنما هي قطعة أدبية فنية يقصد بها «الفن للفن» وتجمع شوارد اللغة ونوادير التركيب في أسلوب مسجوع أنيق الوشى يعجب أكثر مما يؤثر ، ويلد أكثر مما يفيد . ولم تراعى قواعد الفن القصصى فيما كتب من هذا النوع ؛ فلم يعن كاتبو المقامات بتصوير الحكايات وتحليل الأشخاص ، وإنما صرفوا همهم إلى تحسين اللفظ وتزيينه . وتدور المقامة على حادث عاوى يسند إلى شخص معين هو ما يسمى في اصطلاح الفن القصصى بالبطل ، كأي زيد السروجى في مقامات الحريرى ، وأبى الفتح الإسكندرى في مقامات البديع ؛ وبين هذا البطل وبين رجل آخر صلة وثيقة ومعرفة قديمة ، فهو يراه في كل حادثة ، ويسمعه في كل مجلس ، ويفجأه في كل

سر ، ثم يروى للناس ما عليه من خير أو شر . ذلك هو الراوى ، كعيسى ، ابن هشام في مقامات البديع ، والحارث بن همام في مقامات الحريرى .

أما كتابها فقد علمت أن ابن دريد اخترع أربعين حديثا عرضها عرضاً تصويرياً دقيقاً كانت الطور الأولى لنشوء المقامة . ثم جاء بديع الزمان الهمداني المتوفى سنة ٣٩٨ هـ فأملى أربعاً مائة مقامة في الكندية وغيرها نحلها أبا الفتح الإسكندرى على لسان عيسى بن هشام ولم يعثروا منها إلا على ثلاث وخمسين مقامة . وقد مضى الكلام عنها في ترجمته . ثم جاء بعده الحريرى المتوفى سنة ٥١٦ هـ فكتب خمسين مقامة نسبها إلى أنى زيد السروجى على لسان الحارث بن همام ، ونسجها على منوال البديع وقد تقدم القول فيها أيضا . ثم عالج المقامات بعد هذين النايفين طائفة من الكتاب لم يدركوا شأوها كالمقامات الشرقسطية لابن الأشركونى المتوفى سنة ٣٥٨ هـ وهى خمسون مقامة أسأها بقرطبة عند وقوفه على ما أنشأ الحريرى بالبصرة ، وقد أتعب فيها خاطره وأسهر ناظره ولزم في نثرها لزوم ما لا يلزم . حدث فيها المنذر بن حمام عن السائب بن تمام ومقامات الزمخشرى المتوفى سنة ٥٣٨ هـ وهى مشهورة والمقامات المسيحية لآبى العباس يحيى بن سعيد ابن مارى النصرانى البصرى الطيب المتوفى سنة ٥٨٦ هـ نسجها على منوال الحريرى . ثم مقامات أحمد بن الأعظم الرازى وهى اثنتا عشرة مقامة كتبها سنة ٦٣٠ هـ وجعل الراوى فيها القمعاق بن زنباع وغيره . والمقامات الزينية لزين الدين بن صيقل الجزرى المتوفى سنة ٧٠٩ هـ وهى خمسون مقامة عارض بها المقامات الحريرية . نسبها إلى أبى نصر المصرى وعزا روايتها إلى القاسم بن جربان الدمشقى . ثم مقامات السيوطى وهى بالرسائل أشبه منها بالمقامات .

الباب الرابع

بعد سقوط بغداد

كيف خلفت القاهرة بغداد وفرطية؟

انتسكت فتل العباسيين كما علمت في بغداد بعد عهد المتوكل لتنافس الفرس والترك ، وتحارب الشيعة والسنة ، وذهب جلال الخلافة من النفوس ، فاعتورتها الأرزاء واصطلحت عليها الأعداء ، حتى قوض عرشها هلاكو سنة ٦٥٦ هـ . وتضعض أمر الأمويين في الأندلس بتغلب البربر والموالي على ملكهم ، وتقسيمه بينهم إلى دويلات صغيرة سهل على الفرنج ازديادها قطعة قطعة ، حتى ابتلعوها لقمة سائفة سنة ٨٩٨ هـ . ودالت دولة الفاطميين في مصر والشام فوقعنا في أيدي الأيوبيين ، ثم صارتنا إلى المماليك ، وظلتنا تحت سلطانهم حتى دخلتنا في حكم الأتراك العثمانيين ٩٤٣ هـ . فأنت ترى أن العالم الإسلامي أتى عليه ستون وخمسمائة عام لم يكن للعرب فيها لواء معقود ولا ظل ممدود ، بل أصبحت ديارهم وآثارهم نهبا مقسما بين المغول والترك والفرس والجر كس ثم الأسبان بعد قليل . وضع هؤلاء العجم وهم وحشيون أمثيون أيديهم على ثرات العرب ، فخرّبوا الدور وهتكوا اندور ، ونجّعوا اللغة وآدابها وعلومها بتحريق المكاتب ، وتعطيل المدارس وتقويض المراصد ، وتقيل العلماء . وناهيك بما فعله التتار ببخارى وبغداد ، والصليبيون بالشام ، والفرنج بالأنداس ! فلو أن الزمان عَفَى على اللغة العربية وألحقها بأخواتها السامية لما كان ذلك بدعا من القول ولا حدثا في التاريخ . ولكنها بقيت على مرغمة الحوادث لسانا للدين والعلم ، ولغة للحكومة والأمة ،

في بلاد المغرب ومصر والشام وبلاد العرب والجزيرة . ولولا نُعرة الترك وعصبية
الفرس لكانت لغة المسلمين كافة .

والفضل في بقائها على فناء أهلها إنما كان للذكر الحكيم ، وللأزهر الشريف ،
ولسلاطين مصر والشام من الأيوبيين والمماليك ؛ فقد كانوا لها رداءً ، ولأبنائها
حرزاً ، ولعلمائها وزراً ، من غارة المغول حينما اكتسحوا خراسان وفارس والعراق ؛
لأن الأيوبيين وإن كانوا أكراداً قد تكلموا بلغة العرب وتأدبوا بأدب العرب
ونبع فيهم الشاعر والعالم والمؤرخ ، كالمُلك الأفضل^(١) على بن صلاح الدين المتوفى
سنة ٦٠١ هـ وبهرام شاه صاحب بعلبك المتوفى سنة ٦٢٨ هـ ، والملك المؤيد
عماد الدين أبي الفداء المتوفى سنة ٧٣٣ . وكذلك قل في المماليك فقد نبغ فيهم
أحد السلاطين في الشعر وهو قانصوه الغوري المتوفى سنة ٩٤٢ هـ ، لأنهم اتخذوا
مصر وطناً ، والإسلام ديناً ، والعربية لغة ، وعضدوا العلماء وقرّبوا الأدباء ، وشدوا
أزر المعلمين والمؤلفين حتى نبغ في ظلهم أولئك الأعلام الذين جمعوا شتات اللغة
والعلوم في المجموعات والموسوعات ، وأقبلوا على علوم الأولين بالشرح والتلخيص ،
وهذبوا التاريخ ووضّعوا فلسفته ، وأقاموا للشعر وزناً على قلة العارفين بفضلها ،
والمستمعين إلى أهلها ، كابن منظور صاحب لسان العرب ، والفيروز آبادي صاحب
القاموس ، وابن خلدون منشىء المقدمة ، والقلقشندي جامع صبح الأعشى .

(١) كان الملك الأفضل ضعيف الرأي كثير الغفلة فقلبه عمه العادل أبو بكر وأخوه العزيز
عثمان هل ملك الشام ومصر ، فسكتب إلى الخليفة الناصر العباسي كتاباً يشكو إليه ذلك فيه
وقد بدأه ببيتين من الشعر أجاد في نظمهما كل الإجابة وبها :

مولاي إن أبا بكر وصاحبه عثمان قد أخذنا باليف حق على
فانظر إلى حرف هذا الاسم كيف لقي من الأواخر مـالاق من الأوله
يريد بأبي بكر عمه ، وبعثمان أخاه . فأجابه الخليفة الناصر بقوله :

واق كتابك يا ابن يوسف مغلناً بالصدق يخبر أن اصلك طاهر
فحبسوا هلياً حقه إذ لم يكن بعد النسي له يثير ناصر
فاصر فان غدا عليه حسابهم وابشر فناصرك الإمام ناصر

والشباب الظريف وصفى الدين الحلى ، وابن الوردى ، وابن معتوق ،
والصفدى ، ولسكن هؤلاء أفراد تقسمتهم الأعصر فلم يستطيعوا إنهاض اللغة
الشكلى وقد كبت بينها الجدود العواثر، فأثحت من الهند وخراسان وفارس والعراق
وبلاد الروم والأندلس ، وبقيت في مصر والشام وبلاد العرب بقاء المريض قد
رثقت عليه المنية ولم يبق فيه إلا الدماء .

واقدر كان أسلوبهم في النثر والشعر كأسلوب من تقدمهم من متأخري العصر
العباسى ، ولسكنهم في الغالب لم يحسنوا التقليد ، ولم يصيبوا الغرض ؛ فتبدلوا
في اللفظ ، وتوغلوا في الصنعة ، واستجازوا الخروج عن الإعراب والعبث بالمعنى
إذا حال ذلك دون تورية أو سجمة أو جناس .

فلما أдал الله بنى عثمان من المماليك أصبحت الخلافة عثمانية لا عباسية ،
وصارت عاصمة الإسلام القسطنطينية لا القاهرة ، واللغة الرسمية التركية لا العربية^(١)
ففسا في اللغة الدخيل ، وزاحتها العامية والتركية في الدواوين ، وذهبت أساليبها
من النظم والنثر ، وتمسكن الذل من النفوس نخدمت القرائح ، ونضب معين العلم ،
واطمأنت السكتب في الخزائن، فلم يزعجها إلا اشتعال الأرضة في صفحاتها ،
وضرب الجهل على أبصار الشرقيين فعموا ، وفدحتهم أعباء الذل فرزحوا ، وطلال

(١) عل أن الأتراك في عهدهم الأول كانوا يتعلمون اللغة العربية ويتكلمون بها ويضعون
للؤلؤفات القيمة فيها كالنير وزابادى ، والبركوى المتوفى سنة ٨٩٨ هـ وأبى السعود . والقنارى
وملاخمسرو ، والجامى ، والخيال ، وخوجه زاده ، وحاجى خليفة ، وطاشكبرى ، وابن كمال
ياشاسا صاحب كتاب التنبيه على غلط الجاهل والتنبيه .

وكان ملوك المماليك أنفسهم يدرسون العربية وآدابها كما يدرسون التركية وآدابها ؛
ومنهم من فرض الشعر المرعى ورواه كالسلطان أحمد الأول ، فقد رووا له قصيدة مطلعها :

ظنى يصول ولا وصول إليه جرح الفؤاد بصارى لحظيه

ومنها : يا شعرى فى بصرى ولا فى خده لنى أغانى من النسيم عليه

ولم تضعف عناية علماء الترك بالقسمة العربية إلا في عهد السلطان محمود الثانى وابنه السلطان
هميد المهيبد الأول حين أحبوا اللغة التركية وقربوا مواردها ويسلطوا قواعددها وسموها اللغة
العثمانية (أنظر مجلة المجمع العلمى المرعى مجلد ٦ - ر: ٧ ص ٢٦) .

عليهم الأمد ففسّاهم النعاس ، وخيم عليهم الظلام ، فلم يستيقظوا إلا بمدافع
نابليون على أبواب القاهرة !

أعلام هذه المغازة

أغطشت سماء الأدب العربي في عصر المغول فعميت البصائر وضلت القرائح ،
ومشى الناس في دياجير الجهل حيارى لا يرون مظاهر الحياة حتى يضيئهم شارق
في سماء مصر ، أو بارق في جو الشام . وذلك لأنهما البلدان اللذان حفظا وجود
اللغة ، ورفعما سقوط الأدب ، وجمعا شمل العلم ، ولولاهما لا تقطع ما بين الأديين :
القديم والحديث . وما كان أرواحاً للنفس لو اتسع صدر هذا الكتاب لتراجم
مواطنيَّ وجيرتي ! ولكن البحث محدود والقلم موجز . ومهما يكن من شيء
فلن يفوتنا ذكر أسمائهم مُعقبةً بأسماء معاصريهم في العراق والمغرب ،
اعترافاً لهذه النفوس الكبيرة المطمئنة بالإحسان والفضل .

فن النابغين في الشعر والأدب التلعفري ، وُلد بالموصل سنة ٥٩٣ هـ واتصل
بالمملك الأشرف موسى ، ثم هلك سنة ٦٧٥ هـ فريسة للقمار . والشاب الظريف ،
ولد بمصر وتوفي بها غرض الإهاب سنة ٦٨٨ هـ والبوصيري صاحب البردة
في مدح الرسول ، وُلد وتوفي بمصر سنة ٦٩٥ هـ ، وابن نباتة المصري المتوفى
سنة ٧٦٨ هـ وابن حجة الحموي زعيم الأدياء في عصره وصاحب خزانة الأدب ،
توفي سنة ٨٢٧ هـ ، والقلقشندي المصري جامع صبح الأعشى المتوفى سنة ٨٨٢ هـ ،
ثم صفى الدين الحلبي المتوفى سنة ٨٧٥ هـ ، وابن معتوق المتوفى سنة ١٠٨٧ هـ .
وشعرهم مثقل بقيود الصنعة ، محصور في دائرة التقايد ، تغلب فيه مظاهر
الضعف الخلقى كالجن والملك والشكوى والإغراق والقحجة . إلا أن في بعضه
أثمار من الحسن وبقية من البيان . والنابغون في اللغة وعلمها ابن مالك صاحب
الألفية المتوفى سنة ٦٧٤ هـ ، وجمال الدين بن منظور صاحب لسان العرب المتوفى
سنة ٧١١ هـ وجمال الدين بن هشام صاحب المغني في النحو المتوفى سنة ٧٦١ هـ

والغدير و زابادى صاحب القاموس المتوفى سنة ٨١٧ هـ . وهو لاء قد بسطوا قواعد اللغة واستوعبوا موارد هافى السكتب والمعجات . ونوابغ القاربخ والجغرافية ، ابن أبى أصببمة صاحب عيون الانباء فى طبقات الاطباء المتوفى سنة ٦٦٨ هـ ، وابن خلكان صاحب وفيات الأعيان المتوفى سنة ٦٨١ هـ ، وأبو الفداء المتوفى سنة ٧٣٣ هـ ، وشمس الدين الذهبى صاحب تاريخ الإسلام المتوفى سنة ٧٤٨ هـ ، والمقرزى صاحب كتاب الموائع والاعتبار فى ذكر الخلط والآثار ، المتوفى سنة ٨٤٥ هـ ، ثم ابن الطقطقى صاحب الفخرى المتوفى سنة ٧٠١ هـ ، وابن خلدون منشئ المقدمة المتوفى سنة ٨٠٨ هـ ، واسان الدين بن الخطيب المتوفى سنة ٧٧٦ هـ ، والمقرى صاحب نفح الطيب المتوفى سنة ١٠٤١ هـ ، وطريقةهم فى التاريخ أميل إلى استيعاب الحوادث ، واستنباط العبر ، والحكم بشىء من النقد ، والخوض فى بعض مسائل العلم والاجتماع . فكانوا بذلك خيراً من أسلافهم وأدنى منهم إلى منهج التاريخ القويم .

ونبغ من العلماء أصحاب الأسفار العامة : النويرى صاحب نهاية الأرب فى فنون الأدب المتوفى سنة ٧٣٣ هـ ، وابن فضل الله العمرى صاحب مسالك الألبصار المتوفى سنة ٧٤٨ هـ ، وجلال الدين السيوطى صاحب المؤلفات الجليلة المتوفى سنة ٩١١ هـ ، وكال الدين الدميرى صاحب حياة الحيوان المتوفى سنة ٨٠٨ هـ . وهم أصحاب الفضل جميعاً فى ضم شتيت العلم والأدب فى أسفار أشبه بدوائر المعارف الحديثة . فأنت ترى أن الله جل شأنه لم يشأ أن يصيب لغة كتابه بالمقم حين ألحت عليها أرزاء الدهر ، وتخونتها أعراض الهرم ، حفظاً لكتابه وصوناً لدينه ، فكانت تنجب حيناً بعد حين علماً من أولئك الأعلام يجدد منها ما اندرس ، ويرأب فيها ما انصدع ، وينقذها من يد البلى والعفاء .

نجوم سماء كلما انقض كوكب
بدا كوكب تأوى إليه كواكبه
وها نحن أولاء نترجم بذوى الأثر البارز منهم واقفين الآن عند ذلك

صفي الدين الحلبي

٦٧٧ - ٧٥٠ هـ

نشأته وميانه

ولد صفي الدين أبو البركات عبد العزيز بن سرايا بالحليّة في العراق وبها نشأ وتأدب . ثم دعاه اضطراب السلم واختلال الأمن إلى المهاجرة إلى ماردين بالجزيرة ليلوذ بحمي الملوك من آل أرتق (٦٦٣ - ٧١٢) ؛ فخلو أعقد الخوف عن قلبه ، ونزل منهم في جناب مَرَبَع . فمدحهم بتسع وعشرين قصيدة كل منها تسعة وعشرون بيتاً ، يبدأ كل بيت بحرف من حروف الهجاء ويختم به ؛ وسماها (درر البحور في مدائح الملك المنصور) وهي المعروفة بالأرتقيات .

وفي سنة ٧١٧ هـ ورد مصر فثقل بين يدي الملك الناصر بن قلاوون ومدحه فملاً يديه بجوائزه . وانقلب إلى ماردين ثم ذهب إلى بغداد فتوفى بها .

شعره

لاخلاف في أن صفي الدين زعيم الشعراء في عصره . ولا تزال في شعره بَلَلَةٌ من فصاحة اللفظ وبقيّة من رشاقة الأسلوب . أفتنّ في الصنعة ما شاء ، وأجاد في القصائد الطوال والمقطوعات والموشحات والأزجال ، وغالى في المجون والأحماض ، ودخل في أحد عشر باباً من أبواب الشعر وعقد عليها ديوانه . واخترع في النظم أنواعاً ، منها الموشح المضمن كقوله في تضمين بائية أبي نواس :

وحق الهوى ما حُكَّتْ يوماعن الهوى ولكن نجمي في المحبة قد هوى
ومن كنت أرجو وصله قتلى نوى وأضنى فؤادي بالقطيعة والنوى

ليس في الهوى عجب إن أصابني نصب
(حامل الهوى تعب يستخفه الطرب)

نموذج من شعره

قال في الحماسة :

سل الرياح العوالى عن معالينا
وسائل العرب والأتراك ما فعات
لما سمينا فما رقت عزائمنا
يا يومَ وقعةِ زوراء العراق وقد
بِضُمِّرٍ ما ربطناها مسوِّمة
وفتية إن نقلُ أصغوا مسامعهم
قوم إذا استخصموا كانوا فراعنة
تدرعوا العقلِ جلباباً فإن حميت
إذا ادعوا جاءت الدنيا مصدفة
إنا لقومٌ أبت أخلاقنا شرفاً
بيضٌ صنائعنا ، سود وقائعنا ،
لا يظهر العجزُ منا زون نيل مُنى

وسائل البيض هل خاب الرجافينا؟
في أرض قبر عبيد الله أيدينا
عما نروم ولا خابت مساعينا
ديننا الأعادي كما كانوا يدينونا
إلا لنغزو بها من بات يفزونا
لقواننا أو دعوناهم أجاونا
يوماً وإن حكموا كانوا موازينا
نارُ الوغى خلتهم فيها مجانينا
وإن دعوا قالت الأيام آمينا
أن نبتدى بالأذى من ليس يؤذينا
خُضِرَ مرابعنا ، حمرٌ مواضينا
ولو رأينا المنسايا في أمانينا

ابن منظور

٦٣٠ - ٧١٤ هـ

نشأته وحياته

ولد جمال الدين محمد بن المسكروم بالقاهرة في يوم الإثنين الثاني والعشرون من شهر المحرم سنة ٦٣٠ هـ في بيت من بيوت العلم ، ودرس على شيوخ عصره كعبد الرحمن

أبي الطفيل ومرتضى بن حاتم وابن المقبر حتى نال من العلوم والآداب قسطاً موفوراً جعله أهلاً للعمل في ديوان الإنشاء . والعمل في هذا الديوان يومئذ يقتضى مشاركة في علوم وفنون كثيرة فصلها صاحب صبح الأعشى . ثم ولى قضاء طرابلس الغرب حيناً من الدهر وهو في أثناء ذلك لا يفتزع عن الدرس والتأليف حتى انتقل إلى جوار ربه وله خمسمائة مجلد من تأليفه .

وكان ابن منظور صاحب جدوخلق وإرادة . وقد كان يتشبع في غير رفض كما يظهر من أسلوبه في لسان العرب كلما عرض ما يتصل بذلك . وقد توفى بالقاهرة .

مؤلفاته

لم يكن ابن منظور من أولى الاقتدار على الابتكار ، وإنما كان كجلة العلماء في عصره أميل إلى الجمع أو الاختصار . وقد قال الصفدى صلاح الدين : « ما أعرف من كتب الأدب شيئاً إلا وقد اختصره جمال الدين بن المكرم » . فمن مؤلفاته :

لسان العرب

وهو ذلك المعجم الجامع الذى حوى بين دفتيه تهذيب الأزهرى ومحكم ابن سيده وصحاح الجوهري وجمهرة ابن دريد ونهاية ابن الأثير . وقد رتبته المؤلف على أواخر الكلمات ونسقه تنسيقاً بديعاً لتسهيل الاستفادة منه . وتحرى صحة النقل في مادة اللغة بالمحافظة على نصوص الرواة الأولين وتأبيدها بالشواهد الصحيحة من القرآن والحديث والأمثال والشعر .

وقد ذكر مترجموه ومنهم الصفدى أن النسخة الأولى التى كتبتها بخطه الجيلى من لسان العرب كانت في ملك المقر الأشرف الكمالى ناظر ديوان الإنشاء بمصر ، وهى مجزأة إلى سبعة وعشرين جزءاً . ولكنها طبعت في مصر في عشرين مجلداً سنة ١٣٠٠ هـ .

ومنها (كتاب سرور النفس بمدارك الحواس الخمس) وموضوعه كل ما يقع عليه الحس كالليل والنهار وأوصافهما ، والاصطباح ومدحه ، والهلل وظهوره ، وانبلاج الفجر ، ورقة النسيم وقت السحر ، وتغريد الطيور على الشجر ، والشمس والسكواكب وآراء المنجمين وأهل الفلك الخ . . . وله غير ذلك طائفة من الكتب بين تهذيب واختصار . كاختار الأغاني في الأخبار والتهاني . وهو يطبع اليوم في الدار المصرية للتأليف والترجمة بتحقيق بعض الأدباء ، ومختصر تاريخ بغداد للخطيب البغدادي ، ومختصر مفردات الحيوان للجاحظ ، ومختصر اليتيمة للشعالبي ، ولطائف الذخيرة لابن بسام .

ولقد كان يتعاطى الشعر ويحجده ، ومن ذلك قوله :

ضع كتابي إذا أتاك على الأر ض وقلبه في بديك لـ ما
فلي ختمه وفي جانبيه قبل قد وضعتن توأما
كان قصدي بها مباشرة الأر ض وكفيك بالتثاني إذا ما .

وقوله :

يا لله إن جزت بوادي الأراك وقبلت أغصانه الخضر فاك
هابث إلى المملوك من بعضه فإني والله مالي (سواك)
أبو الفداء

٦٧٢ — ٥٧٢٢

نسأته وحياته

هو الملك المؤيد عماد الدين أبو الفداء اسماعيل بن علي الأيوبي صاحب حماة .
وُلد بدمشق على عهد السراوة والفضل ورُبي في حجر الرخاء والنعمة ، واستكمل
حظه من العلوم وتفوق في التاريخ والهيئة . وكان بطلامقداً . خدم الملك الناصر
ابن قلاوون وهو بالكرك وساعده على محاربة التتر فوعده بحماة ووفى بوعده ،

فأقامه عليها سلطاناً مطلقاً لإرادة حرّ التصرف ، ولقبه بالملك المؤيد وأقدمه إلى مصر وأركبه بشعار السلطنة ، فهشى الأمراء والكبراء في خدمته . وكان أبو الفداء يحمل إليه في كل عام أنحر الهدايا من الخيل والرقيق والجواهر . وعاش ما عاش نصيراً للضعفاء ، ظهيراً للعلماء ، ولوعا بالتأليف ، حتى استخار له الله ما عنده .

مؤلفاته

لأبي الفداء كتابان في التاريخ وتقويم البلدان هما مرجع العرب والفرنج في تحقيق هذين العلمين . فالأول كتاب (المختصر في أخبار البشر) وهو تاريخ عام للأمة العربية يبلغ بها إلى سنة ٧٣٩ ، وقد لخصه من عشرين كتاباً ونيفاً ، وحذا فيه حذو ابن الأثير في ترتيبه على السنين . وتجرى في نقل الحوادث الصدق والنقد ، والآخر كتاب (تقويم البلدان) ، جمع فيه خلاصة ما كتب الأقدمون في الجغرافية والفلك ، وضبط الأسماء ، وحقق الأطوال والأعراض ، وعنى على الخصوص بوصف مصر وسورية وبلاد العرب وفارس . وقد اهتم به الفرنج فترجموه واعتمدوا عليه في الوقوف على الجغرافية العربية .

أبو خلدون

٧٣٢ - ٨٠٨ هـ

نسأته وحياته

هو أبو زيد عبد الرحمن بن محمد المشهور بابن خلدون ؛ ينتهي نسبه إلى وأئل من أقبال كندة . هاجر جده التاسع خلدون إلى الأندلس في أواخر القرن الثالث للهجرة وأقامت عشيرته في أشبيلية . ثم انتقلت إلى تونس حين الجلاء حيث وُلد هذا العالم الكبير سنة ٧٣٢ هـ . ودرج في مهد السراوة والعلم ، وتأدب على أبيه ثم على غيره ؛ فأتقن القرآن وضرب في كل العلوم بسهم ، وبرع في الفقه والعربية

وتبحر في التاريخ فاستجلى غوامضه واستقصى مباحثه ، حتى أصبح فيه قريح دهره ونسيج وحده . وطمحت نفسه في طفولته إلى خدمة السلاطين فاتصل بكثير من ملوك الأندلس والمغرب ، وتقلد الكتابة والحجاجة والقضاء ، إلا أنه كان قليل المكث في كل منصب تقلده لعزته نفسه وصراحة قوله وكثرة حساده .

فلما كانت سنة ٧٦٤ هـ وفد على الأندلس فاهتزله النخى بالله صاحب غرناطة وبعث بخاصته لاستقباله وإكرام وفادته ، وألزمه مجاسه وانفرد به دون وزيره . فحمد عليه هذا حقدأ عرفه ابن خلدون ، فنادر الملك والوزير وشأنهما وعاد إلى وطنه . ثم أخذ يجول في الأرض ويطوف في البلاد حتى بلغ مصر سنة ٧٨٤ هـ فقام بالتدريس في الجامع الأزهر ، واتصل بالسلطان برقوق فعرف حقه وولاه على تمنع منه قضاء المالكية ، فأقام المعدلة ، وحكم المنصفة ، وضرب على أيدي القضاة . فثار به ثائرهم واختلقوا عليه الأكاذيب ورفعوا شكواهم إلى السلطان فلم يقيم لكلامهم وزناً . ولـكن ابن خلدون سُم هذه الحياة المرة ، وضجر من تلك المكائد المستمرة . ووافق ذلك غرق أسرته وهي قادمة إليه من تونس ، فنالت منه هذه الحنة ، فاستمعى من القضاء وأدى فريضة الحج واعتزل في ضيعة له بالقيوم أقطعه السلطان إيها ، وانصرف إلى التدريس والتأليف . ثم عاد ثانية إلى القضاء ومعالجة الخطوط ، فآزال يولى ويعزل ، وينصر ويخذل ، حتى وافاه أجله بمصر سنة ٨٠٨ هـ .

أهمومه

قال فيه لسان الدين بن الخطيب : كان رجلاً فاضلاً ، حسن الخلق ، جم الفضائل ، ظاهر الحياء ، وقور المجلس ، خاص الزى ، عزوفاً عن الضيم ، صعب المقادة ، خاطباً للحظ ، متقدماً في فنون عقلية ونقلية ، سديد البحث ، كثير الحفظ ، بارع الخط ، مُعَرِّى بالتجلة ، حسن العشرة ، إلى غير ذلك من الأوصاف التي تصدقها آراؤه وآثاره .

نثره وشعره

ظهر ابن خلدون في عصر كسدت فيه العلوم ودرست الآداب وأزهقت الصناعة روح الكتابة ، فهداه طبعه إلى الرجوع بالإنشاء إلى عهده والوقوف به عند حدّه . فرغب عن السجع وزهد في البديع وسار باللفظ وراء المعنى . وقد صرح بذلك في كلامه عن كتابته لأبي سالم أحد ملوك الأندلس إذ يقول : « وكان أكثرها يصدر عنى بالكلام المرسل بدون أن يشاركنى أحد ممن ينتحل الكتابة في الأسجاع لضعف انتحالها ، وخفاء المعاني فيها على أكثر الناس بخلاف المرسل ، فانفردت به يومئذ ، وكان مستغرباً عند من هم من أهل هذه الصناعة . ثم أخذت نفسى بالشعر فانتالت علىّ منه بحور ، توسطت بين الإجادة والقصور » . وحكمه على نفسه من الحق والصراحة بحيث لا يحتاج إلى تعليق ولا تعقيب .

كتابه في التاريخ

نظر ابن خلدون في التاريخ فخرر مباحثه ، وعلل حوادثه ، ووضع كتابه المشهور (بالعبر وديوان المبتدأ والخبر) وهو ثلاثة كتب في سبعة مجلدات . يمتاز بما تضمنه من المقدمات الفلسفية في صدور الفصول عند الانتقال من دولة إلى دولة ، والصراحة في القول ، والسداد في الرأي ، والإنصاف في الحكم . على أن فضل الرجل وشهرته إنما هما بالكتاب الأول من هذا التاريخ وهو المعروف بالمقدمة ، لاشتماله على أبحاث مبتدعة متنوعة في الاجتماع والاقتصاد وفلسفة التاريخ ، واستنباط الأسباب والعلل مما طالع أو شاهده في حياته العظيمة ورحلاته العديدة . وتنقسم هذه المقدمة إلى ستة فصول : الأول في النشوء والارتقاء ، والثاني في الاجتماع ، والثالث في السياسة العملية ، والرابع في الهندسة الحربية ، والخامس في الاقتصاد السياسي ، والسادس في تاريخ آداب اللغة العربية ، فهى خزانة علم وأدب فضلاً عن أسلوبها الرشيق المنسق .

والراجح أن ابن خلدون أول إنسان استنبط فلسفة التاريخ وسماها طبيعة العمران في الخليقة . وقد فصلها في مقدمته واستشهد على كل ما كتب بالحوادث التاريخية الصحيحة ، مما دل على سداد رأيه وصدق نظره وانفساح ذرعه في الاستنباط والتعليل . على أن العلماء أخذوا عليه إخلاله بالقواعد التي وضعها لكتابة التاريخ ، ولم يسلم من المآخذ التي أخذها على سابقيه . وسبحان من تفرد بالكمال !

السيدة عائشة الباعونية

المتوفاة سنة ٩٢٣ هـ

نشأتها وحياتها

هي السيدة الفاضلة الناسكة عائشة بنت يوسف بن أحمد الباعوني ، ولدت بالصالحية بدمشق في بيت عريق في العلم والورع ، فقد كان أبوها وعمها وولدها وأخوها من نوابغ العلماء في الفقه والحديث والتصوف والتاريخ والأدب ، فهلت من حياضهم ، وجنت من رياضهم . ثم تلقت الفقه والنحو والعروض على طائفة من شيوخ عصرها كجمال الحق والدين اسماعيل الحوراني ، ومحيي الدين الأرموي ووردت بعد ذلك مصر فتلمذت للعلامة أبي العباس القسطلاني شارح البخاري . ثم عكفت على التدريس والتأليف فانتفع بعلمها وفضلها خلق كثير . ثم انتقلت إلى الدار الباقية بعد ما خلفت من الآثار كتاب الفتح المبين ، في مدح الأمين ، وهو شرح لقصيدتها التي نظمها في علم البديع على منوال ابن حجة ، وكتاب فيض الفضل ، وهو ديوان شعر في المدائح النبوية ، والمورد الأهنى في الموالد الأسنى ، وهو مولد النبي صلى الله عليه وسلم اشتمل على رقائق النثر والنظم .

منزلتها في الشعر والكتابة

يشير عاطفة الإعجاب في المرء أن يرى في هذا العصر المظلم امرأة كالباغونية
تبتذُّ الرجال في العلم والأدب ، ولا يميها أن تكلف بالسجع ، وتتكلف البديع ،
وتُغرَى باللفظ ، وتقصر إلهامها على المدائح النبوية فإن المرء صنيع بيئته . والشعر
الحق مرآة صاحبه وصورة قلبه . وقد علمنا كيف تشبث الشعراء في هذه العصور
بالصناعة اللفظية ، وانصرفوا إلى المعاني الدينية ، فلا بدع إذا تخلقت هي بأخلاق
عصرها ، ونهجت سبيله في نثرها وشعرها .

نحوذج من كلامها

قالت في مقدمة شرح البديعية :

وبعد فهذه قصيدة صادرة عن ذات قناع ، شاهدة بسلامة الطباع ، منقحة
بحسن البيان ، مبنية على أساس تقوى من الله ورضوان ، سافرة عن وجوه البديع ،
سامية بمدح الحبيب الشفيق ، مطلقة من قيود تسمية الأنواع ، مشرقة الطوابع
في أفق الإبداع ، موسومة بين القصائد النبويات ، بمقتضى الإلهام الذي هو عمدة
أهل الإشارات ، بالفتح المبين ، في مدح الأمين .

ومطلع هذه القصيدة :

في حسن مطلع أقمار بذي سلم أصبحت في زُمرّة المشاق كالعلم
أقول والدمع جارٍ جارحٌ مقلّي والجارُّ جارٌ يعدل فيه منهم
ومنها في الجناس :

ياسعدُ إن أبصرت عيناك كأظمة وجئت سلماً فسل عن أهلها القدم
فتمَّ أقمار تمَّ طالعين على سويلع حيتهم وانزل بحيتهم
ومنها في الاستخدام .

واستوطنوا السرمنى فهو موضعهم ولا أبوج به يوماً لغيرهم

ومنها في التفريق :

قالوا هو الغيث، قلت الغيث آونةً يهيمى وغيث نداه لا يزال همى
ومنها في حسن الختام :

مدحت مجدك والإخلاص ملنزمى فيه وحسن امتداحى فيك مختمى

وقالت في جسر الشريعة لما بناه الظاهر برقوق :

بني سلطاننا برقوق جسراً بأمر والأنام له مطيعه
مجاز في الحقيقة للبرايا وأمر بالمرور على الشريعة
ومن نظمها في وصف دمشق :

نزه الطرف في دمشق ففيها كل ما تشتهى وما تختار
هى في الأرض جنة فتأمل كيف تجرى من تحتها الأنهار
كم سما في ربوعها كل قصر أشرفت من وجوهه الأقدار
وتناغيك بينها صادحات خرست عند نطقها الأوتار
كلها روضة وماء زلال وقصور مشيدة وديار

الباب الخامس

العصر الحديث

الفصل الأول

نظرة عامة

ما زال الزمن الجائر ينقص من أطراف الرقعة العربية حتى قصرها في أواخر القرن الثامن عشر على العراق العربي والشام وبلاد العرب ومصر والسودان والمغرب : وفي تلك البلاد بقي النفس الأخير من أنفاس اللغة العربية يتردد في وناء وضعف ، حتى أذن الله لشمس الحضارة أن تشرق ثانية على ربوع النيل ، فإرض عنها الوهنُ وسرت فيها الحياة . ففي مصر كان ملاذها وغياها ، وفي مصر كان بقاؤها وانبعائها !

كانت مصر في ذلك العهد تحت سلطان العثمانيين حكماً ، وتحت سيطرة المماليك فعلاً . وكانت الأهواء المختلفة ، والقوى المتضاربة ، والأجناس المتباينة ، تنخر في هيكل هذه الأمة البائسة ، فكان عددها لا يبلغ ثلاثة ملايين فشت فيهم الأمية . واستولى عليهم الجهل وأصغت عليهم الأوباء والسنون . واستغلمهم الظلم واستعبدهم الحكام . ووقفوا عن السير بأنفسهم ، وتحرك الفلك ، فغزاهم على هذه الحال الألفية نابليون .

غزا نابليون مصر سنة ١٧٩٨ ، وليس من شأننا أن نعرض لهذه الغزوة إلا من جهةها الأدبية . فإن الجماعة العلمية التي صحبت هذا القائد العظيم لم تصدها القلاقل

والحرب عن غرس بذور الحضارة في مصر ، فأنشأوا مدرستين وجريدتين^(١) ومسرحاً للتمثيل، ومجمعاً علمياً^(٢) ، ومكتبة ، ومطبعة ، ومعامل كيميائية ومرصد فلكية ، وسهلوا للناس النظر إليها ، والوقوف عليها . فكان صنيع هذه الجماعة أشبه بالقبس الوضأ سطع في ذلك الغيب الذي احلوك في سماء مصر فبدده ، واستطاع الناس أن ينظروا ؛ ولكن ماذا رأوا ؟ رأوا أنهم في القرن التاسع عشر ، وأن الغرب واقف منهم موقف الإنسان العاقل من الحيوان الأعجم يرميهم بنظرات السخرية وهو دائب في سبيل الحياة الصحيحة ، مجد في تذليل المادة ، فبهتوا ودهشوا .

ولكن محمد علي رأس الأسرة الخديوية لم يدهش ، بل علم أن مافي الغرب من حضارة وعمارة إنما أساسه العلم . وأكبر ما تركه الفرنسيون بمصر من الآثار الصالحة والأبحاث النافعة على اضطراب حالهم وقصر احتلالهم ، وكان في نفسه الطموح إلى الملك ، والاستبداد بحكم مصر والاستعداد له . فأخذ في تعليم المصريين وقد عزز فيهم القارئ ، فأنشأ المدارس المختلفة الدرجات والغايات في المدائن والقري وساق الناس إليها قسراً . واستقدم طائفة من علماء فرنسا للتدريس والتأليف . كالدكتور كلوت بك مؤسس المدرسة الطبية ، وجوما ربك مدير البعثة المصرية . وبعث بمن أنجبت تلك المدارس إلى فرنسا سنة ١٨٢٦ ليستنيدوا ويستزيدوا . فلما عاد أولئك الطلبة وكانوا أربعة وأربعين أخذوا

(١) الجريدتان هما (الأهشور المصري) La Décade Egyptienne وسميت بذلك لأنها كانت تصدر كل أسبوع ، والاسبوع في اصطلاح التقويم الجمهوري الفرنسي كان عشرة أيام . ثم يريد مصر Le courrier d'Egypte وقد كانوا ينشرون بالعربية (التثنية) لإذاعة لهم مما يجري في ديوان القضايا .

(٢) أنشأ بونابرت « المجمع العلمي المصري » في السنة التي دخل فيها مصر بمنزل حسن جركس في الدرب الجديد بحي الناصرية ؛ وألهمه من ثمانية وأربعين عضوا . ربهم للرياضيات وربهم الثاني للطبيعات . والربع الثالث للاقتصاد السياسي ، والربع الرابع للأدب . وجعل رئاسته الاستاذ متج ووكاله نابليون نفسه . وقد قام هذا المجمع بأبحاث قيمة كان ينشرها كل ثلاثة أشهر ، ثم أغلق هذا بخروج الجيش الفرنسي من مصر . وفي سنة ١٨٥٩ فكر جماعة من جالية الفرنسيين ان يعيدوه فأعادوه ، ولا يزال قائما بحي الليرة بالقاهرة .

في الترجمة والتعليم . ثم توالى البعث بعد هؤلاء إلى أوروبا وكلهم من الأزهر الشريف . وتلك يد أخرى لهذا المعهد الجليل على اللغة ساعدتها اليوم على النهوض كما حماها من قبل دون السقوط . وفتحت في القاهرة مدرسة الألسن ودار الترجمة ، وأقيمت المطبعة المصرية على أنقاض المطبعة الأهلية التي جاء بها الفرنسيون إلى مصر وذهبت بذهابهم . وأنشئت الوقائع المصرية وهي أول صحيفة عربية في الشرق ، فكان ذلك كله وقوداً جزئياً للقبس الذي ألقاه نابليون بمصر ونفخ فيه محمد علي فدكا واشتعل وامتد لهيبه إلى الشام وإلى سائر بلاد العرب فأيقظ النيام وبدد الظلام . وحذا الأمير بشير الشهابي في لبنان حذو محمد علي في مصر ، وأعانته على ذلك دعاة النصرانية من الأمريكان والفرنسيين بإنشائهم المدارس والمطابع وتأليفهم الكتب ، وإصدارهم الجلات وتعليمهم التمثيل ، واعتمادهم في كل أولئك على اللغة العربية ، حتى تخرج في معاهدهم صفوة الكتاب والشعراء والمترجمين والصحفيين من أهل لبنان ، فتكاتف القطران على إحياء اللغة والعلوم ، فترجمت الكتب العلمية ، ونشرت المؤلفات العربية ، ودب في اللغة ديب الحياة ؛ إلا أن آدابها وعلومها لم تنزل في يد العفاء ؛ لأن محمداً علياً كان مصر وفاهم إلى ما يعورّه ، كالعلوم الحربية والطبية والصناعية والرياضية ، قانعاً من كتابه وعماله باللسان العامي ، والأسلوب الاصطلاحي . فكانت لغة الدواوين في عهده وعهد أخلافه خليطاً مهماً معجماً من التركية والعربية .

على أن اللغة المضرية لم تقدم في ذلك العصر أنصاراً . فقد كان لها من أمثال الشيخ حسن العطار ، وبطرس كرامة ، السيد علي الدرويش ، ورفاعة بك الطهطاوي ، من حفظوا كيانها وجددوا بيانها .

وأخذت هذه النهضة المباركة تنمو رويداً حتى ولى الأمر عباس ثم سعيد ، نجبا أوارها ، ووقف تيارها ، لرغبة هذين الأميرين عن العلم والتعليم .

فلما جلس إسماعيل على أريكة الخديوية سنة ١٨٦٣ م فتح ما أغلق من
المعاهد وزاد عليها . فأنشأ المدارس للعلوم والهندسة والطب والحرب ، وعاد إلى
إرسال البعث إلى أوروبا ، وأسس نظارة المعارف وعهد إليها أمر التعليم ، وأنشأ
المكتبة الخديوية ، وبنى مدرسة المعلمين ، وبسط يده للمؤلفين ، ونشر ألوية
المدنية والسكينة على ربوع البلاد ، فنزح إليها الأجانب للكسب والتجارة ، وفيهم
العلماء والأدباء ؛ فكان اختلاط هؤلاء بالمصريين ، وكثرة المطابع ، ووفرة
المدارس ، وانتشار الصحافة ، واقتباس التمثيل ، وترجمة العلوم ، والأندية الأدبية ،
والجامع العامية ، وتعلم اللغات الأجنبية ؛ ونقل الحضارة الأوروبية ، والحرية
الشخصية ، كان كل أولئك سبباً في خصب القرائح ، وسعة المدارك ، ونهوض
اللغة ، وحياة الأدب .

ثم دهانا الاحتلال الإنجليزي سنة ١٨٨٢ م وكل شيء يتحفظ لانهوض .
ويتوثب إلى الرقي ، فكأما أقيمت ماء على نار ، أو أقيمت سداً في تيار كانت
الحركة العامية في أواخر عهد إسماعيل واسعة النطاق ، والمدارس وافرة العدد ،
واللغة العربية لسان التعليم ولغة التأليف ، فأخذ الإنجليز منذ اغتصبوا السلطان
يقطعون أسباب النهضة ، ويسرون بالتعليم إلى وجهة أخرى . فأغفلوا البعث ،
وأغلقوا مدرسة الألسن ، وأبطلوا الجانية ، وأهملوا اللغة العربية ، وجعلوا التعليم
كله بالإنجليزية ، وقصروه على تخرج عمال للحكومة لا إعداد رجال للشعب .

ولسكن الأمة المصرية قد استطاعت أن تقف على رجلها ، وأن تسمح عينها
ببديها ، فلم ترض النكوص والعالم يتقدم . فهبّ رجالها يطلبون سيادة لغتهم
في بلادهم . ويقومون هم بتعليم أولادهم ، فمادت اللغة إلى المدارس ، ورجعت
البعوث إلى أوروبا ، وكثرت المدارس الأهلية والأميرية . وشبت ثورة الاستقلال
في وجه الاحتلال سنة ١٩١٩ م وردد العالم العربي صداها ، فأيقظت ما بقي من
شعور خامد ، ودفعت النفوس الخائفة إلى طلب الحرية في الحكم ، والرأى ،

والقول ، والعقيدة . حتى ظفرت مصر من ذلك بقسط موفور في دستورها الذي نالته سنة ١٩٢٣ م .

ثم تابعت الجهاد في سبيل حريتها واستقلالها حتى نالت قسطاً آخر بمعاهدة سنة ١٩٣٦ . ولما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها في عام ١٩٤٥ طلبت مصر من إنجلترا تغيير هذه المعاهدة فجرت بين الحكومتين المصرية والإنجليزية أحداث طويلة لم تؤد إلى اتفاق ، لأن مصر أرادت أن تبني المعاهدة الجديدة على أساسين من وحدة مصر والسودان تحت التاج المصري ، وجلاء الجيش الإنجليزي عن وادي النيل . وعارضت إنجلترا في الأساس الأول فالتجأت مصر إلى هيئة الأمم المتحدة وظاهرتها دول الجامعة العربية . فلما عرضت قضيتها على مجلس الأمن بأمريكا ، وتولى عرضها رئيس حكومتها ، وكان يومئذ المغفور له محمود فهمي النقراشي ، قطع لسان الباطل بالحق ، وفند دعاوى الإنجليز بالحجج الدامغة ؛ ولكن مصانعة الدول لشيخة الاستعمار علق القضية فلم يفصل فيها حتى شبت ثورة الجيش المصري بقيادة الضباط الأحرار في ٢٣ يوليو من سنة ١٩٥٢ فعصفت بالفساد والاستبداد ، وظهرت البلاد من فجور الملك وشرور الحكم وطغيان الغنى فطردت فاروقاً ثم أعلنت الجمهورية وحددت الملكية واضطرت الإنجليز إلى الجلاء عن القناة بعد أن اتفقت الدولتان على أن يقرر السودان مصيره بنفسه . فإما أن يستقل بأمره وإما أن يتحد مع مصر . وقد اختار الاستقلال وأعلن الجمهورية .

وفي شهر فبراير من عام ١٩٥٨ اندمجت مصر وسورية في وحدة تامة باسم الجمهورية العربية المتحدة . وكذلك استقل لبنان وطبق على شعبه النظام الجمهوري وفي الرابع عشر من يوليو من سنة ١٩٥٨ ثار العراق على الملكية وأعان الجمهورية ، ولا تزال فلسطين والجزائر وجنوب الجزيرة العربية يتطلبون الغاية من هذه السبيل ، ويتربحون الإصباح بعد هذا الليل المظلم الطويل .

الفصل الثاني

وسائل النهضة الحديثة

كان من آثار الاحتلال الفرنسي ، ونزعة الاستقلال عند محمد علي ، أن أشرقت من جانب الغرب ومضات من نور المعرفة في آفاق مصر ولبنان فهبت البلاد تسير على ضوئها وتعمل على هداها - تلك الومضات هي الوسائل التي تدرّج بها رأس الأسرة العلوية ووراثته على عرش مصر إلى ترقية الجيش وتنشئة الحكومة وتربية الشعب من طريق غير مباشر ، وأهم تلك الوسائل :

١ - المدارس

لم يجد محمد علي فيما يُعلّم يومئذ بالأزهر من علوم الدين واللسان بغيته من علوم الحرب والطب والرياضة ، فأنشأ المدارس العلمية المختلفة وقسمها إلى ابتدائية وتجهيزية وخاصة ، ووصل بينها وبين أوروبا بجلب العلماء منها وبعث البعث إليها . فلما تعددت درجاتها وتفاوتت أغراضها أنشأ لها إدارة خاصة في سنة ١٨٣٩ سميت ديوان المدارس كانت رياسته الأولى لمصطفى مختار بك من رجال البعثة العلمية الأولى . ومن أقوى المدارس الخاصة أنشأ في النهضة العلمية والأدبية مدرسة الطب ومدرسة الألسن ومدرسة دار العلوم . فاما مدرسة الطب فقد أنشئت لخدمة الجيش سنة ١٨٣٦ في أبي زعبل وأقيم بجانبها مستشفى لتمرين الطلاب ومعالجة المرضى . واستقدم أسانذتها من فرنسا برياسة الدكتور كلوت بك ، واختير طلبتها من المصريين وغيرهم . ثم نقلت في سنة ١٨٣٨ إلى قصر ابن العيني بالقاهرة وإلى هذه المدرسة يرجع أكثر الفضل في إحياء اللغة العربية ووصلها بالثقافة الحديثة ؛ لأن الأساتذة كانوا يلقون دروسهم باللغة الفرنسية ثم تؤدي في الوقت نفسه إلى الطلاب باللغة

العربية ، وكان ذلك يضطر المترجمين من المغاربة واللبنانيين والأرمن إلى البحث عن المصطلحات في المعجمات اللغوية والكتب الفنية القديمة .
وأما مدرسة الألسن فقد أنشأها محمد علي لتخريج المترجمين حين اشتدت الحاجة إليهم في ترجمة الدروس إلى الطلاب ، ونقل الكتب الطبية والعسكرية إلى العربية . وجعل إدارتها إلى المرحوم رفاة بك الطهاوى حتى إذا خربت طائفة من أفاضل المترجمين تألف منهم قلم للترجمة سنة ١٨٤٢ برباسة رفاة بك اضطلع بترجمة كثير من الكتب العلمية الأجنبية في مختلف العلوم الحديثة .
وأما دار العلوم فقد أسسها المرحوم علي مبارك باشا في سنة ١٨٧١ م بأمر الخديو اسماعيل ليتخصص طلابها في العلوم العربية ، ويشاركوا في بعض العلوم الدينية والعقلية ، ويأخذوا بقسط من الثقافة الحديثة ، وليعلموا بعد تخرجهم فيها اللغة والدين في مدارس الحكومة . وكان أسانذتها من نابغى شيوخ الأزهر ، وتلاميذها من متقدمى طلابه . ولهذا المدرسة الفضل العظيم والأثر البالغ في ترقية اللغة وإنهاض الأدب وإشاعة الفصحى على السنة خريجها وأقلامهم في التعليم والتأليف والكتابة والشعر والخطابة . وقد ظلت مستقلة منذ إنشائها تحمل أمانتها وتؤدى رسالتها حتى ألحقت بجامعة القاهرة سنة ١٩٥٦ وسميت كلية دار العلوم .

٢ — الجامعة الأزهرية

الأزهر أول جامع في القاهرة، وأقدم مدرسة في مصر، ومن أعرق الجامعات الكبرى في العالم. بناه جوهر الصقلي بعدما خط القاهرة، لإقامة الشعائر الدينية وتأييد الشيعة العلوية من طريق الدين. وحشد إليه أساطين الفقه ونوابغ العلم من أقطار الأرض، وأدر عليهم أخلاف الرزق، ورفع عنهم أكلاف الحياة، دون حساب ولا تقرير، حتى جاء يعقوب بن كاس وزير العزيز بالله، وهو يهودى قد أسلم وتفقه، فرتب لهم الوظائف وابتنى لهم المساكن على مقربة من الجامع. ثم أخذ هؤلاء الفقهاء يقرأون بمد كل صلاة فقه الشيعة، ويأخذون

في سبيل الوعظ ، ويميلون إلى شيء من البحث ، ويتكلمون في مسائل اللغة والنحو ،
ويعقدون فيه مجلس المناظرة ، حتى دالت دولة الفاطميين ، وغلب على مصر
زعيم الأيوبيين صلاح الدين سنة ٥١٧ هـ وهو من أهل السنة فبايع العباسيين ،
وأحل الفقه الشافعي محل الفقه الشيعي في الأزهر . وقرر فيه كذلك فقه أبي حنيفة
لأنه مذهب الخلفاء في بغداد . ورأى صلاح الدين أن يؤلف قلوب المساهمين كافة
فأجاز تدريس المذاهب الأربعة فيه . وجر ذلك إلى بسط العلوم اللغوية والأدبية ،
والإلمام بالعلوم الرياضية والطبيعية . وزها الأزهر في عهد المماليك بعد سقوط بغداد
وانتقال الخلافة والثقافة إلى مصر ، لحفظ اللغة من الزوال ، وعلومها من الاضمحلال .
وظل وحده يرسل أشعة العلم والدين إلى أنحاء العالم الإسلامي ، لا يخرج عالم إلا
منه ، ولا ينبغ كاتب ولا شاعر إلا فيه وحتى أدركته الغفوة الشرقية العامة في عهد
بني عثمان فتجدد العالم وتقدم العلم وارتقى التعليم وهو جامد على حاله القديم ،
باقى على مذهبه الموروث . ومع ذلك فقد كان رجاله في صدر العصر الحديث عدة
نابليون في تنظيم عمله ، وساعد محمد علي في تحقيق أمه ، وموئل اللغة والدين والآداب
من عصف الحن وطغيان الجباله وتغلب الأمية . ولكن مصر هبت من رقادها ،
ولم تجد الأزهر كما كان كفؤاً لقيادتها وإرشادها ، فوات وجهها شطر الغرب
تكرع من حياضه . وتقطف من رياضه ، حتى اتسعت مسافة الخلف بين التعاليم الجديدة
والتعليم القديم ، وانتشرت في مصر ثقافتان مختلفتان تناهض إحداهما الأخرى .
ثقافة قائمة على السكتب القديمة والطرق العقيمة ، وثقافة مبنية على العلم الغربي
والتعليم الحديث ؛ فلم يكن بد من إصلاح الأزهر ليشترك في النهضة العامة) .
بدأت الحكومة الخديوية ذلك في عهد شيخه الشيخ الانبأى سنة ١٣٠٥ هـ .
فأدخلت فيه بعض العلوم الحديثة بعد لأى ومشقة وفتوى شرعية . ثم تصدى
الإمام الكبير محمد عبده لإصلاحه ، فوضع الأساس ، وحال الأزهر يون بينه وبين
البناء ؛ ولكن السيل جارف والتيار قوى فلم يستطع أهله الوقوف في سبيله ؛ فألقوا

السلاح ، وقبلوا الإصلاح ، ولكن إصلاحه استعصى على المصلحين لعوامل سياسية وأخرى ديوية . فأثروا العافية وفوضوا أمره إلى الزمن .
ثم قسم الأزهر الآن إلى معاهد للتعليم الابتدائي ، وأخرى للتعليم الثانوي ، وجعل التعليم العالي فيه فروعاً ، فكلية للشريعة ، وكلية للغة العربية ، وكلية لأصول الدين : وقد أنشئت لهذه الكليات دور خاصة منفصلة من الأزهر . ونمت موارده حتى بلغت في العام مئات الألوف من الجنيهات ، وزاد طلابه حتى نيفوا على عشرين ألف طالب يساعدهم بالمال والمسكن ومن بينهم العربي والتركي والسوداني والغربي والإيراني والسعودي والعراقي والهندي والباكستاني والإندونيسي والشركسي والأفغاني وكلهم يتعلمون باللغة العربية ويتغذون بالثقافة الإسلامية ، ولهُؤلاء أقيمت مدينة على القرب من الأزهر يجد فيها الطلاب الأعراب الغذاء والمأوى .

٣ — الجامعة المصرية

كان من أثر سوء النية الذي بدا من المحتلين في سياسة التعليم بمصر وحصره في دائرة ضيقة من نواحي الثقافة ، وقصره على تخرج الموظفين للحكومة ، أن صحت عزيمة المصريين الأحرار على أن يقوموا بتعليم أولادهم ، وأن يقيموا للعلم الصحيح وزناً في بلادهم ، فاجتمعت طائفة منهم سنة ١٩٠٦ على إنشاء جامعة أهلية تقضي حاجة البلاد من التعليم . وأهابوا بأبناء مصر أن يعاونوا ببذل المال على إنجاح هذا المسعى الخطير ، فلجى الحسنون النداء وفي طلبتهم الأميرة فاطمة بنت اسماعيل . وفي سنة ١٩٠٨ افتتحت الجامعة المصرية وأسندت رئاسة الشرف فيها إلى الأمير أحمد فؤاد قبل أن يستوى على عرش مصر . فاستقدم إليها طائفة من علماء أوروبا ، واختار لها صفوة من أدباء مصر ، فألقوا على طلبتها من الأزهريين والموظفين محاضرات قيمة في الآداب والفلسفة : وكان من بين العلماء الأوربيين المستشرقون جويدي ونلينو ولتمان فنهجوا للدراسة الأدب العربي وتاريخه المنهج القويم الواضح .

وفي سنة ١٩٢٥ تولتها وزارة المعارف فشادت لها الابنية العظيمة ، واقتبست لها الأنظمة الأوربية الحديثة ، وضمت إليها كليات الحقوق والطب والهندسة والزراعة والتجارة والصيدلة وطب الاسنان ، وكانت من قبل ذلك إنما تتألف من كلية العلوم وكلية الآداب ، ثم سميت بجامعة القاهرة . ولما اشتدت الرغبة في التعليم وازداد عدد الطلاب أنشئت في الاسكندرية جامعة ثانية سميت بجامعة الاسكندرية . وأقيمت في القاهرة جامعة ثانية سميت بجامعة عين شمس : وفي أسيوط جامعة رابعة سميت بجامعة أسيوط . وبما لا ريب فيه أن هذه الجامعات الأربع جامعة الازهر وجامعة دمشق قد آتت ثمار العلم ، ونشرن أضواء الثقافة ، ووصلن الماضي بالحاضر ، وربطن الشرق بالغرب ، وقرنَّ العلم بالعمل ، ووجهن الحضارة العربية الوجهة الصحيحة .

٤ - الطباعة

اخترع الطباعة بالحروف « حنا جوتنبرج » الالماني سنة ١٤٤٠ ، فكان لاختراعه من الأثر في الأدب والحضارة ما كان . وما كادت تشتهر الطباعة بالحروف في أوروبا حتى صيغت منها قوالب للغات الشرقية . وطبع أول كتاب باللغة العربية سنة ١٥١٤ م وأخذت المطبوعات الشرقية ولا سيما العربية تزداد شيئاً فشيئاً حتى صدرت عن أكثر العواصم الأوربية . وكان منها المؤلفات الجليلة كالمعهدين القديم والجديد ، ونزهة المشتاق للأدريسى . وقانون ابن سينا ، وتحرير أصول إقليدس . وما زالت تطبع فيها نفائس الكتب المخطوطة إلى الآن . ثم دخلت الطباعة الشرق عن طريق الأستانة ١٤٩٠ م على يد عالم يهودى طبع بها مؤلفات دينية وعلمية ؛ ولكن الحروف العربية لم تظهر فيها إلا سنة ١٧٠٨ م . ومن أشهر المطابع العربية في الأستانة « مطبعة الجوائب » لأحمد فارس الشدياق ؛ طبع فيها طائفة كبيرة من عيون الكتب الأدبية . أما في البلاد العربية فكان السبق للبنان في استعمال المطبعة بفضل دعاة المسيحية ؛ فقد أسس الرهبان اللبنانيون أول مطبعة ببيروت في أوائل

المقرن السابع عشر . ثم أسست بها المطبعة الكاثوليكية سنة ١٨٤٨م ، ولها الأثر الجليل والفضل الجزيل في نشر المخطوطات العربية القديمة ، وطبع الكتب الأدبية والعلمية ، وإتقان فن الطباعة العربية ، ثم تلت مصر لبنان فدخلتها الطباعة على يد نابليون سنة ١٧٩٨م ، إذ جاء بمطبعة لطبع المنشورات والأوامر بالعربية وسماها « المطبعة الأهلية » ثم ذهبت معه . وأقام محمد علي على أنقاضها المطبعة الأهلية (مطبعة بولاق) سنة ١٨٢١ . وعهد بأدارتها إلى نقولا مسابكي السوري ، وصبت حروفها على أجمل قاعدة نسخية من حجوم مختلفة . ثم صبت ثانية على قاعدة المرحوم جعفر بك كبير الخطاطين في مصر ، وهي المستعملة الآن . وقد طبعت وثلثمائة كتاب في الرياضيات والطب والجراحة مما ترجم عن اللغات الأجنبية ، وطبعت أمهات الكتب الأدبية بفضل (القسم الأدبي) الذي فصل عنها ووصل بدار الكتب المصرية . ومنذ يومئذ إقتصرت مطبعة بولاق على طبع (الوقائع المصرية) والكتب المدرسية والأعمال الحكومية ، وهي الآن أكبر مطبعة عربية في العالم . ثم إنتشرت بعد ذلك المطابع في مصر فسهلت مسبل الأدب وأدنت قطوف العلم ، وساعدت على انتشار القراءة

٥ - الصحافة

الصحف مدارس متجولة في البلدان ، ليست محصورة بين جدران ، ولا يختص بها مكان دون مكان . وهي أوسع دائرة للإرشاد من كل دوائر التعليم : تهذب عقول العامة ، وترتب أفكار الخاصة ، وتنهض الهمم القاعدة ، وتصلح الألسنة الفاسدة ، وتقرب الأمم المتباعدة . وهي سجل الأحبار ووعاء التاريخ وتقوم الزمن . وأول جريدة عربية بالمعنى الفنى المعروف هي الوقائع المصرية ، أنشأها الأمير محمد على سنة ١٨٢٨م بمعونة الأستاذ رفاعة بك الطهطاوى ، وكانت تصدر أولاً بالتركية والعربية ، ثم حررت بالعربية وتولى تحريرها نخبة من أفاضل الكتاب كالشيخ حسن العطار ، والشيخ شهاب صاحب سفينة الملك ، والإمام محمد عبده ،

والشيخ عبد الكريم سلمان ، وسعد زغلول . ولا تزال تصدر عن القاهرة ثلاث مرات في الأسبوع . ثم ظهر بعد ذلك في الشام جريدة مرآة الأحوال سنة ١٨٥٥ م وهي سياسية يحررها رزق الله حسون الحلبي ؛ وحديقة الأخبار سنة ١٨٥٨ م لصاحبها خليل الخورى ؛ والجوائب في الآستانة سنة ١٨٦٠ لأحمد فارس الشدياق ؛ وجريدة الرائد التونسي في تونس سنة ١٨٦١ م .

وفي زمن إسماعيل أصدر محمد علي باشا البقلي (اليسوب) وهي مجلة طبية شهرية بمعونة الشيخ محمد الدسوقي وهي أول مجلة عربية ظهرت في العالم . وفي سنة ١٨٦٦ ظهرت بمصر جريدة سياسية أدبية علمية وهي وادي النيل لأبي السعود افندى ، كانت تصدر مرتين في الاسبوع بالقاهرة . وفي سنة ١٨٦٩ أصدر إبراهيم بك المويلحي ومحمد بك عثمان جلال جريدة (نزهة الأفكار) وكانت أسبوعية شديدة اللهجة فألغاهم الخديو اسماعيل . وفي سنة ١٨٧٠م صدرت مجلة روضة المدارس المصرية وهي مجلة علمية أدبية يحررها نخبة من ذوى المسكنة في العلم والأدب . ثم صدرت الأهرام سنة ١٨٧٦ م وسياستها عثمانية فرنسية ، ثم أصبحت بعد الحرب العالمية الأولى مصرية ، والوطن سنة ١٨٧٧ م وهي جريدة طائفية احتلالية . وعلى مناهجها سارت جريدة مصر ؛ والحروسه لصاحبها أديب إسحق سنة ١٨٨٠ . وبعد الاحتلال ظهرت المقطم سنة ١٨٨٨ م وهي احتلالية . والمؤيد وهي إسلامية خديوية . واللواء وهي إسلامية وطنية . والجريدة والشعب والسياسة والبلاغ والجهاد وكوكب الشرق والمصري والكتلة والزمان والجريدة المسائية . وتلك هي كبرى الصحف اليومية والسياسية وكلها تصدر عن القاهرة . وأكثرها انقطع عن الظهور فلم يبق منها إلا الأهرام والأخبار والجمهورية والمساء . وهناك صحف أسبوعية مختلفة كالمساء والثقافة وأخبار اليوم والمصور وآخر ساعة والتحرير ، وشهرية كالمقتطف والهلل والكتاب ومجلة الأزهر في مصر ، والأديب والآداب في بيروت ، ومجلة مجمع اللغة العربية في القاهرة ومجلة المجمع العلمي العربي

في دمشق. وأكثر الجلات الأدبية الأسبوعية والشهرية قد احتجبت لقلّة العون من الحكومة وضعف الرغبة من القراء .

والبحث في سياسة هذه الصحف وتحريرها وتأثيرها يخرج بنا إلى التطويل .
ومما لا بد من ذكره أن الفضل في تقدم الصحافة ورقى التحرير والترجمة إنما كان
للبنانيين ، لسبقهم إلى معرفة اللغات الأوروبية ، وخلاطهم للأمم الغربية .

٦ - التمثيل

التمثيل بمعناه الحديث لم تعرفه اللغة العربية إلا في أواسط القرن الماضي . وكان
البنانيون أسبق الشرقيين إلى اقتباسه ؛ لتخرجهم في المدارس الأجنبية ،
ودراستهم للآداب الإنجليزية . وأول من فعل ذلك منهم مارون النقاش المتوفى
سنة ١٨٥٥م قدم مثل أول رواية عربية سنة ١٨٤٠م . ولما تبوأ إسماعيل عرش الخديوية
شجع الأدياء ، وعضد العلماء ، وساعد الفنانين . وتم حفر قناة السويس في عهده
فاحتفل بافتتاحها ذلك الاحتفال المشهور . ورأى من كرم الضيافة ألا يحرم
ضيوفه الأوربيين مشاهدة التمثيل أثناء إقامتهم بمصر ، فابتنى دار الأبراء الخديوية
واستقدم لها فرقة أجنبية مثلت رواية (عابدة) بالفرنسية . وورد مصر في أثر
ذلك جماعة من أدياء لبنان وفيهم سليم النقاش وأديب إسحق ، فمثلوا
في الاسكندرية بضع روايات على مسرح زيزنيا سنة ١٨٧١م ففشلوا ، وتخلوا
عن الفرقة لأحدهم يوسف خياط ، فقدم القاهرة واتصل بإسماعيل ففتح له الأبراء
وشهد أولى رواياته ، وكانت روايه (الظلوم) ، فظن أنهم يعرضون به فنفاهم
إلى وطنهم . وأقفلت الأبراء في وجه التمثيل العربي فلم تفتح بعد ذلك إلا لفرقة
سليمان الفرداحي وزميله الشيخ سلامة حجازي .

لم يكن التمثيل في تلك الفترة الماضية شعبياً ، وإنما كان حكومياً أرستقراطياً
لا يحضره إلا الأمراء والحكام ، فلما بنى اسكندر فرح مسرحه في شارع

عبدالمعز بـالقاهرة وضم إليه الشيخ سلامة حجازى أصبح للجمهور. وكان التمثيل حينئذ بعيداً عن الكمال والذوق لا يرجع إلى فن ولا يمتد على قاعدة ، وإنما كان أساسه الفناء والمجون استمالة للعامة وإرضاء للدعاه ، ولغة الروايات كانت سقيمة ملحونة مسجوعة . وأول خطوة خطاها هذا الفن في سبيل الكمال كانت بفضل الفرقة التي ألفها جورج أبيض بعون الخديو عباس حلمى ، وضم إليها صفوة الممثلين الذين خرجهم الزمن وأرشدتهم التجارب . إلا أن هذه الفرقة انحلت بعد قليل لسوء الإدارة وفلة المال وزهادة الجمهور في التمثيل الفنى . وظل التمثيل بعد ذلك يرسب ويظفو تبعاً للحوادث والظروف . على أن حالته الآن وإن لم ترض الباحث من كل وجه لا تدعو إلى اليأس ، فقد انشأت وزارة الثقافة والإرشاد معهداً للتمثيل وألفت فرقة حكومية وقرقا أخرى مختلفة تنفق عليها نرجو أن يكون لها أثر قوى في إنهاض المسرح بعد أن اعتدت عليه السينما وخذله الجمهور .

٧ - المجمع الأدبية

المجمع العلمى العربى بدمشق

كان اخواننا في الجمهورية العربية السورية أسبق الأمم العربية إلى إنشاء المجمع العلمية على ضيق مواردهم وغل سواعدهم ، كما كان اللبنانيون أسبتما إلى الترجمة والصحافة والتمثيل فقد أنشئ المجمع العلمى العربى بدمشق في اليوم الثامن من شهر يونيو سنة ١٩٦١م بعد دخول الأمة السورية في وصاية الدولة الفرنسية إجابة لمقترح الأستاذ محمد كرد على وزير المعارف السورية يومئذ لأغراض كانت إذ ذلك « تدور حول مسائل تعود بأسرها على إنعاش الآداب العربية ، وتلقيق أصول البحث والدرس لنهياء الدارسين . وقد عنى هذا المجمع بوضع ما عرض عليه وضعه من الالفاظ في المصطلحات العامية الحديثة ، وأصلح بعض الأوضاع الإدارية ، وقوم ما أمكن لغة الدواوين ، وصحح بعض أغلاط الكتاب والشعراء والخطباء ، وعاون عدة

من المؤلفين والمترجمين على ما هم بسبيله^(١)» وضم هذا المجمع صفوة العلماء والأدباء في الشام والعراق ومصر وطائفة من علماء للشرقيات في أوروبا. وأصدر مجلة شهرية لنشر دراساته ومحاضراته ومقالاته. وبعد أن أتت مصر وسورية في الجمهورية العربية المتحدة حينما من الدهر أصبح مجمع دمشق وجمع القاهرة مجعاً واحداً ومؤتمر سنوي واحد.

مجمع اللغة العربية بالقاهرة

وفي ١٤ من شعبان سنة ١٣١٥ ٣٥ ديسمبر ١٩٣٢ م صدر مرسوم ملكي بإنشاء مجمع ملكي للغة العربية يكون تابعاً لوزارة التربية والتعليم في القاهرة والفرض منه :

١ — « أن يحافظ على سلامة اللغة العربية ، وأن يجعلها وافية بمطالب العلوم والفنون في تقدمها ، ملائمة على العموم لحاجات الحياة في العصر الحاضر ، وذلك بأن يحدد في معاجم أو تفاسير خاصة ، أو بغير ذلك من الطرق ما ينبغي استعماله أو تجنبه من الألفاظ والتركيب .

٢ — أن يقوم بوضع معجم تاريخي للغة العربية ، وأن ينشر أبحاثاً دقيقة في تاريخ بعض الكلمات وتغير مدلولاتها .

٣ — أن ينظم دراسة علمية لهجات العربية الحديثة بمصر وغيرها من البلاد العربية .

٤ — أن يبحث كل ماله شأن في تقدم اللغة العربية مما يمهد إليه فيه بقرار من وزير المعارف العمومية « وهو مؤلف من «أربعين عضواً عاملاً مختارون من غير تقييد بالجنسية من بين العلماء المعروفين بتبحرهم في اللغة العربية ، أو بأبحاثهم

(١) ما بين القوسين منقول عن التقرير الرابع للمجمع .

في فقه هذه اللغة أو لهجاتها « وخمسة وعشرين عضواً مراسلاً في مختلف البلدان الشرقية والغربية. ومن بين أعضائه العاملين اليوم ثلاثون عضواً مصرياً، وعضوان أوروبيان فرنسي وأنجليزي، وعضو عن المغرب، وعضو عن تونس، وعضو عن المملكة العربية السعودية، وعضو عن العراق. يرأسهم الأستاذ أحمد لطفى السيد. والمجمع يتألف من هيئتين : مؤتمر المجمع ويتسكون من أعضائه جميعاً ويجتمع أربعة أسابيع متوالية في كل سنة. ومجلس المجمع ويتسكون من الأعضاء المصريين ويجتمع مرة في كل أسبوع. والمجمع مجلة تنشر ما يقره من البحوث اللغوية والمصطلحات العلمية صدر منها ستة عشر جزءاً، والمجمع يبذل جهوده اليوم في وضع المعجم اللغوي الكبير، ومعجم ألفاظ القرآن الكريم ومصطلحات العلوم الحديثة. بمد أن وضع المعجم الوسيط في نحو ألف صفحة ونشره على الناس فقايلوه بالثناء وحسن التقدير .

المجمع العلمي العراقي :

تألف في بغداد على غرار المجمع العلمي العربي بدمشق .. ونشاطه مقصور على البحوث والمحاضرات ، ونشر بعض المخطوطات .

الفصل الثالث

النشأة

الكتابة

كان النافق في صدر هذا العصر من كتب السلف كتابان يمثلان مذهبين مختلفين في الكتابة : أحدهما مقامات الحريري، والآخر مقدمة ابن خلدون . فالأول يمثل الأسلوب الصناعي الأجوف الموه ، والثاني يمثل الأسلوب الطبيعي العامر الحكم . وكانت القلوب لا تزال مأخوذة بسحر المقامات لدقة صناعتها، وذيوع طريقتها ، وقصور العقول عن البحث، وعجز القرائح عن التوليد ولكن النابغين من خريجي المدارس المدنية الحديثة الذين وقفوا على آداب الفرنجة آثروا الطريقة الخلدونية على الطريقة الفاضلية، لجريانها مع الطبع، وملاءمتها الروح العصر، ومشابقتها لأساليب الفرنجة ، فظهرت مهذبة فيما كتب قاسم أمين ، وفتحي زغلول، ولطفى السيد ، ومن جرى مجراهم . وانفرد بالأسلوب البديعي رجال دار العلوم ومن يمت بسبب إلى الأزهر من أمثال الشيوخ حمزة فتح الله ، وتوفيق البكري ، وحفني ناصف ، ومن حذا حذوهم وبدت على أساليب هؤلاء مظاهر التكلف فأسرفوا في المحاكاة، وأوغلوا في الصنعة. وتشددوا في القياس، وتصعبوا في استعمال اللغة، كما بدت على أساليب أولئك مظاهر انتظرف فتجوزوا في القواعد وتساحوا في اللغة ، واستخفوا بجمال الصياغة ، وهبطوا إلى مستوى العامية . وفي ذلك العهد نشأت على أقلام عرب لبنان النازحين إلى الأمريكتين طريقة نالته فيها الفكرة والطرافة والحركة والتنوع ، واسكن فيها الركاكة والتساهل والدخيل والمعجمة ؛ فكان من رد الفعل الذي لا بد منه هؤلاء الطرائق الثلاث أن تنشأ طريقة رابعة تأخذ من محاسنها وتخلو من مساوئها وترتضيها الأذواق جميعاً

تلك كانت طريقة إحياء الأسلوب العربي الخالص مكمل النقص . مما فاته من صور البيان لانقطاع أهله عن مسامرة التمدن الفكرى . الحديث . استبانته معالم هذه الطريقة في نثر المنفلوطى ، كما استبانته في شعر البارودى ، ثم نهجها الكتاب الموهوبون والشعراء المطبوعون فتميزت بالرقه والهدقة والسلامة والرصانة والقصد . ثم نبغت طائفة من الكتاب جمعوا بين ثقافة الشرق القديم وثقافة الغرب الجديد فبلغوا بانثر الفنى منزلة لم يبلغها فى عصر من عصوره . فالأسلوب الذى كتب به المنفلوطى والبشرى والرافعى والمازنى ، ويكتب به العقاد وطه حسين هو ثمرة التطور الحديث فى الأدب والعلم والفن والحضارة . وهو وإن اختلف بين الكتاب فى القوة والضعف ، والعمق والضحل ، والدقة والتجوز ، والتركيز والانتشار ، يشترك فى الصفات الجوهرية للغة وهى الصحة والنقاء والمرونة ، وفى الخصائص الأصلية للبلاغة وهى الأصالة والوجازة والتلازم^(١) .

ولقد تعددت الأساليب فى هذا العصر ، فكان لكل طبقة أسلوب ، كالأدباء والفقهاء والمحامين والصحفيين . وتنوعت الأغراض ، فكتبوا فى القانون والسياسة والاجتماع ، ونسجوا على منوال ما ترجموه من القصص والروايات الأوربية . وعلى الجملة فالمنهج الكتابى المعاصر يجمع كما قلت صفات اللغة الجوهرية وخصائص البلاغة الأصلية ، إلى تأثره بالمذاهب الأوربية والعوامل الاجتماعية والمفاحى الثقافية والمعانى الحضرية . والكتاب الذين يتزعمونه اليوم أو يتبعونه نفر من الأدباء الكهول ، وطائفة من الأدباء الشباب ، توفرحظهم جميعاً من علوم اللسان ومفردات اللغة ، واستنزفوا الشباب فى تحصيل الأدب ومعاناته ، حتى وقفوا على أطواره وكشفوا عن مخبأته . ويمتاز زعماء هذا المذهب بقسط عظيم من الثقافة الحديثة والاطلاع الواسع والبراعة العجيبة فى التوفيق بين القديم المنبعث والحديث المتولد ، والتأليف بين الشرق المتخاف والغرب المتطرف ، حتى ليقرأهم القارئ البصير بمذاهب الكلام فلا يرجع أساليبهم إلى مذهب من مذاهب العرب

(١) انظر تفصيل ذلك فى كتابنا (دقاع عن البلاغة) .

ولا إلى مذهب من مذاهب الفرنجة ؛ إنما هي أساليب مستقلة تتسم بالشخصية وتمتاز بالأصالة وتنفرد بمكان ظاهر بين أسلوب السلفيين الذي جمد ، وأسلوب المتطرفين الذي ماع^(١) .

ولا بأس أن نشير هنا إلى أن هناك طائفة من ضعة الكتاب قديهم وهن السليقة وقلة الاطلاع عن مجارة البلاغ ، فأخذوا يدعون إلى العامية باسم المذهب الجديد . ليس هؤلاء «المتكاتبين» رأى موفق نجلة ، ولا مذهب مؤيد مناقشه ، وإنما هم يفكرون ويكتبون بأسلوب أعجمى في لفظ عربى يتعثر بين اللحن والركاكة . فحسبنا أن نسجل هذه الظاهرة دون تعليق عليها ولا بيان لها .

الفن القصصى والروائى

سبق القول في حظ العرب من هذا الفن ، وقاننا إن قصورهم فيه كقصورهم في الشعر القصصى لأسباب واحدة ودواع متفقة . فلما أثمرت بواكير النهضة الحديثة اقتبس أدباؤنا فيما اقتبسوا من أدب الغرب القصة الأفرنجية بقواعدها ومفاهيمها وموضوعاتها . وكان أول من فعل ذلك اللبنانيون لسبقهم إلى مخالطة الأوربيين والأخذ عنهم ، كفرنسيس مراه الحماجى المتوفى سنة ١٨٧٢ ، وسام البستانى المتوفى سنة ١٨٨٤ م وجرجى زيدان المتوفى سنة ١٩١٤ . ثم عاجلها الكتاب المصريون بعد ذلك علاج الحماكة لما قرأوا من تلك القصص . وكان أول مظهر طائفة من القصص وأقاصيص المترجمة . بعضها كان أشبه بالاقتباس لبعده عن أصله بالحذف أو بالزيادة أو بالتعبير كفنص البان لنجيب الحداد ، والفضيلة لمصطفى المنفلوطى . والبؤساء لحافظ ابراهيم ، وبعضها دقيق الترجمة شديد المطابقة كمرعريت للدكتور أحمد زكى ، وابن الطبيعة لابراهيم عبد القادر المازنى ، وآلام فرتر ورفائيل وأقاصيص من الأدب الفرنسى لصاحب هذا الكتاب . وقد كانت هذه القصص المنقولة على علاتها أساساً للنهضة القصصية الحديثة فى الشرق العربى احتذاها الشباب واستوحاها الكتاب ، لأن المدرسة العربية فى مصر وفى غير مصر

(١) أنظر كتابنا (دفع عن البلاعة) .

ظلت على أساليب البلاغة القديمة فلم يدخل في برامجها الأدبية تعليم الفن القصصى والروائي على الطريقة المرسومة في المدرسة الأوربية . فلما ارتقى الفن الكتابي في الأسلوب الذي علمته في الفصل السابق ، وأخذت القصة العربية تتميز بطابعها وتستقل بموضوعها ظهرت طائفة من القمص الغنية القوية كزئب لمحمد حسين هيكل ، والأيام لطله حسين ، وإبراهيم الكاتب للمازني ، وسارة للعقاد ، وأهل الكهف لتوفيق الحكيم ، و بداية ونهاية لنجيب محفوظ .

أما المقامات فقد انقضى أمرها وذهب عصرها بذهاب الصنعة اللفظية من الأدب الحديث . وكان آخر من قلده الحريري فيها الشيخ ناصيف اليازجي ، وتقولوا المتركة من الكتاب اللبنايين . أما المصريون فقد اقتبسوا الطريقة ، ولكنهم وسعوا الحادث ونوعوا الموضوع ، كما فعل محمد المولى يحيى في حديث عيسى بن هشام ، وحافظ إبراهيم في ليالي سطيح ، فقد احتفظا بالمنهج والأسلوب ، وأسهبوا في الموضوع بالاستنباع والاستطراد حتى أصبح عملهما وسطاً بين المقامة والقصة .

تلك حال الفن القصصى . وأما الفن الروائي أو المسرحي ، فظل غربياً عن الأدب العربي لا يألفه ولا يعرفه حتى علمه من الأدب الغربي عن طريق المشاهدة والنقل . فهبت طائفة من الذين درسوا الآداب الغربية أوزاروا البلاد الأجنبية زاولونه بالحكاية والاحتذاء دون أن يتجهزوا له بجهازه ، ويستعينوا عليه بأداته ، فالتوى عليهم وأعضل حتى كاد يسممهم بالعجز عنه . اللهم إلا ما كان من أمر شوقي فقد حاول أن يسد الفقص الموروث في الشعر العربي فاستحدث الشعر التمثيلي وخطابه في طريق السكال خطوة موفقة بنظمه روايات : على بك الكبير ، وكهوبطرة ، ومجنون ليلى ، وقمبيز، وعنقرة . والست هدى . ثم توفاه الله قبل أن يبلغ به الغاية . وعلى نهجه المعهدسار الشاعر عزيزاً باظله في رواياته قيس ولبنى والعباسة، والناصر وشجرة الدر . وقد أخذت الجمهورية العربية المتحدة تهيبء للفن القصصى والروائي أسباب الوجود بمكافأة الكتاب ومساعدة الممثلين فعمسى أن يسفر أملها عن وجه النجاح فتتم بداءة الخديو إسماعيل ، في إيجاد هذا الفن الأدبي الجميل .

الفصل الرابع

أساطين النهضة الحديثة

في مصر والشام والعراق والمغرب

من نبغ من المصريين في هذا العصر وقوى هذه النهضة بروحه وروحه ،
الشيخ عبد الرحمن الجبرتي صاحب التاريخ المعروف باسمه ، درس في الأزهر
دراسة كاملة ، ثم اتصل بالفرنسيين أيام احتلالهم مصر فاستكتبوه في الديوان .
ثم انقطع للتأليف فصنف كتابه عجائب الآثار في التراجم والأخبار ، ثم توفي
سنة ١٨٢٥ م . ثم الشيخ محمد المهدي شيخ الجامع الأزهر وأحد أعضاء الديوان
الخصوصى لنابوليون ، ولد قبلياً ثم أسلم ودرس في الأزهر حتى رأسه . ألف
كتاب تحفة المستيقظ الآنس ، في نزهة المستنيم الفاعس ، وهو أشبه ألف ليلة
وليلة ، وكانت وفاته سنة ١٨١٥ م . ثم الشيخ حسن العطار وهو ناظم نثر ، ولد
بالقاهرة ثم تعلم بالأزهر واتصل بالفرنسيين ورحل إلى الشام فأخذ ذلك من فهمه
وزاد في علمه . ثم تولى التدريس في الأزهر ورقى إلى أن صار شيخاً له ، وتوفي
سنة ١٨٣٢ م . ثم السيد على الدرويش شاعر الأُمير عباس الأول ، نشأ في القاهرة
وعاش موفور الكرامة بشعره . وقد جمع شعره أحد تلاميذه في ديوان سماه :
الإشمار بحميد الأشعار . وكانت سنة ١٨٥٣ م . ثم الشيخ شمس الدين
صاحب سفينة الملك ، ولد بمكة ثم وفد إلى مصر ليتعلم في الأزهر فنبغ في الأدب
وألّم بالحساب والهندسة والموسيقى ، ثم اشتغل بالتحرير في الوقائع والتصحيح
في مطبعة بولاق حتى توفي سنة ١٨٥٧ م . ثم رفاعة بك الطمطاوى أحد أركان
النهضة العلمية ، ومدير المدرسة التجهيزية ، ومنشئ الوقائع المصرية ، ولد بطمطاو تعلم
في الأزهر ، وأرسله محمد على فيمن أرسل إلى فرنسا فأتته دراسته ثم عاد فمكف
على التحرير والترجمة والتأليف والتعليم حتى وافاه حماته سنة ١٨٧٢ م . ثم

الشاعر محمود صفوت الساعاتى نشأ فى القاهرة وتوفى بها سنة ١٨٨٠ م . ثم الشيخ عبد الهادى نجا الإبيارى الشاعر المطبوع واللغوى الحجة والمؤلف النابه ، ولد فى أبيار من أعمال الغربية ثم ثقف العلم بالأزهر واتصل باسماعيل فجعله إمامه ومفتيه . ثم أتاه اليقين سنة ١٨٨٨ م . ثم العلامة الشيخ حسين المرصفى شيخ المعلمين وعمدة المؤلفين وصاحب الوسيلة الأدبية فى العلوم العربية . تخرج فى الأزهر وعلم به . ورزق مايرزقه مكفوفوالبصر من لطف الحس وذكاء الفؤاد . توفى سنة ١٨٨٩ . ثم الأديب الشاعر عبد الله باشا فكرى ناظر المعارف فى عهد إسماعيل ، ومؤلف الفوائد الفكرية للمكاتب المصرية . توفى سنة ١٨٨٩ م . ثم المصلح الكبير على مبارك باشا منظم المدارس المصرية ، ومنشئ المكتبة الخديوية (دار الكتب) ، ومؤلف الخطط التوفيقية ، وقصة علم الدين . شارك فى علوم كثيرة ، وتقلب فى مناصب خطيرة ، منذ ولاية محمد على إلى عهد توفيق . ثم توفى سنة ١٨٩٣ م . ثم الأديب القدير السيد عبد الله نديم خطيب الثورة العربية ، وله ترجمة خاصة . ثم المترجم البارع محمد عثمان بك جلال ناقل أمثال لافوتتين فى كتابه العيون اليواقظ ، ومترجم تروف و بول وفرجينى إلى العامية ، ومؤلف السياحة الخديوية فى الأقاليم المصرية ، توفى سنة ١٨٩٨ م . ثم السيدة الفاضلة عائشة التيمورية ، نبغت فى الشعر العربى والتركى وخلفت فى كل منهما ديوانا . ولها غيرهما كتاب نتائج الأحوال فى الأدب . ولدت بمصر سنة ١٨٤٠ م ، وتوفيت بها سنة ١٩٠٢ . ثم الاجتماعى الألمعى والسكاتب المفكر قاسم بك أمين محرر المرأة المصرية ، وأحد رسل الإصلاح الاجتماعى ، ومؤلف كتابى تحرير المرأة ، والمرأة الجديدة ، وأثرهما فى النهضة النسائية معروف . توفى سنة ١٩٠٨ . ثم الخطيب المصدع ، والسياسى المجرب ، والوطنى الصادق ، والصحافى البارع ، مصطافى باشا كامل ، وله ترجمة خاصة . ثم الفقيه المحقق ، والمترجم البارع ، فتحنى باشا زغلول ، شارح القانون المدنى ، ومؤلف كتاب الحاماه ، ومترجم

كتب جوستاف لوبون، ومحرر القوانين المصرية، توفي سنة ١٩١٤ م. ثم الكاتب الرشيقي السيد مصطفى المنفلوطي، وله ترجمة خاصة. ثم العبقري الفذ والحامي المدرّس والأصولي البارع، والخطيب المصقع، والكاتب الفايغ والسياسي المحنك، سعد باشا زغلول وله ترجمة خاصة. ثم الفزوي المؤرخ المحقق أحمد باشا تيمور صاحب الخزانة التيمورية. ومعجم اللغة العامية، والمؤلفات القيمة، والمقالات المتمعة في اللغة والتاريخ. توفي سنة ١٩٣٠ م. ثم الكاتب الناقد الرقيق محمد بك الموليحي صاحب حديث عيسى بن هشام، توفي سنة ١٩٣٠ م. وله ترجمة خاصة. ثم أمير الشعراء وخليفة المقنبي أحمد بك شوقي وله ترجمة خاصة. ثم شاعر النيل، وأديب الشعب، محمد حافظ بك إبراهيم وله ترجمة خاصة. ثم الأديب المطمع والمثقف الفايغ أحمد زكي باشا صاحب الخزانة الزكية، وعجبي المؤلفات العربية، وناشر الثقافة الإسلامية، توفي سنة ١٩٢٤.

وعن نبغ من اللبنانيين والسوريين الملم الشاعر بطرس كرامه الحمصي مادح الأمير بشير الشهابي ومعلم ولده وموضع ثقته. جمع شعره في ثلاثة دواوين ولم يطبع إلا واحد منها. توفي سنة ١٨٥١. ثم الفليسوف الشاعر فرنسيس مراث الحلبي أقدم دعاة الحديث، وأول رسل التجديد، ومؤلف طائفة من الكتب المفيدة. توفي ضرراً سنة ١٧٨٣ م. ثم الصحفي المنشئ أديب اسحق، رئيس قلم الإنشاء في نقارة المعارف المصرية على عهد توفيق، ولد يدمشق ودرس فيها ثم رحل إلى مصر فلقى جمال الدين، وكان له أثر ظاهر في النهضة الأدبية الحديثة، توفي سنة ١٨٨٥ م. ثم المصلح الاجتماعي والكاتب السياسي الشيخ عبد الرحمن السكواكي صاحب كتابي (طبائع الاستبداد) (وأم القرى)، جاب أكثر الممالك الإسلامية، ثم ألقى عصاه بمصر سنة ١٩٠٢ م. ثم الكاتب الأديب جميل المدور صاحب حضارة الإسلام في دار السلام، ولد ببيروت وتوفي فيها سنة ١٩٠٧ م. ثم الأديب الكبير، والصحفي البارع، والمترجم القدير، الشيخ نجيب الحداد، امتاز بكثرة ما نقل ووضع من الروايات التمشيلية، ثم توفي في ريعان شبابه سنة ١٨٩٩ م.

ثم العلامة المؤرخ الحجة والاعزى الثبت الشيخ طاهر الجزائري عالم دمشق وأديبها
توفى سنة ١٦٢٥ م . ثم المؤرخ النابه ، والصحفي النابغ ، والقصصى المبدع ،
جرجى بك زيدان ، منشىء الهلال ، ومؤلف طائفة من الكتب القيمة
فى التاريخ والأدب، واللغة والاجتماع، ورائد الفن القصصى التمازىخى فى الشرق . توفى
سنة ١٩٥٤ م . ثم الفيلسوف المحقق ، والصحفى المجدد ، الدكتور يعقوب صروف
منشىء المقتطف وأحد رسل العلم الحديث ، توفى سنة ١٩١٧ م .

ومن نبغ فى العراق آل الألوسى ، وأشهرهم العلامة الفقيه شهاب الدين
الألوسى صاحب التفسير الشهير الموسوم بروح المعانى فى تسعة مجلدات . توفى
ببغداد سنة ١٨٥٤ م . ثم حفيده السيد محمود شكرى الألوسى أديب العراق
ومؤلف كتاب بلوغ الأرب فى أحوال العرب فى ثلاثة مجلدات، توفى سنة ١٩٢٣ م .
ثم الشاعر الرقيق عبدالغفار الأخرس المتوفى سنة ١٨٧٣ م . ثم الشاعر الفيلسوف
جميل صدقى الزهاوى المتوفى سنة ١٩٣٧ م ، وله ترجمة خاصة . ثم الشاعر الاجتماعى
معروف الرصافى المتوفى سنة ١٩٤٥ م وله ترجمة خاصة . ثم العلامة الاعزى الأب
أنستاس مارى الكرملى عضو مجمع اللغة العربية بالقاهرة المتوفى سنة ١٩٤٧ م .
ومن نبغ فى المغرب الكاتب السياسى المصلح محمد بيرم مؤلف الرحلة
الموسومة بصفوة الاعتبار بمستودع الأمصار ، فى خمسة أجزاء . وفد إلى مصر
فأنشأ بها جريدة « الأعلام » وأخذها مقامه حتى توفى سنة ١٨٨٦ م . ثم الوزير
العالم خير الدين باشا صاحب كتاب أقوم المسالك فى معرفة أحوال الممالك ، وهو
من خير ما كتب فى بابيه . سمى به كفايته إلى أن تقلد الوزارة فى تونس ،
والصدارة العظمى فى الآستانة ، وتوفى سنة ١٨٩٠ م . ثم الفقيه السياسى المصلح
السيد عبد الحميد باديس الجزائرى المتوفى سنة ١٩٤٠ م . ثم الشاعر الشاب للتأثر
الحر أبو القاسم الشايبى التونسي المتوفى سنة ١٩٣٤ م .
ثم بقيت طائفة من نابغى الكتاب والشعراء والأدباء والخطباء ، آثرنا
أن نخصهم بشيء من التفصيل والتحليل .

الكتاب

جمال الدين الأفغانى

حياته وأعماله

ولد السيد محمد جمال الدين بن السيد صفتر بقرية أسد آباد من أعمال كابل ببلاد الأفغان فى بيت كريم الأصل يجمع إلى جلالة النسب إلى الحسين سؤدد الإمارة على بعض الأقاليم الأفغانية . ثم درج فى بيئة تعزز بطباع البداوة من حرية وحمية وأريحية وأنفة . ثم تحول أبوه إلى كابل وهو فى الثامنة من عمره فتلقى فيها مبادئ العلوم العربية والأدبية والشرعية والمقلية على منهاج محيط شامل . ثم حذق فى مراحل حياته ومواطن رحلاته اللغات العربية والأردية والفارسية والتركية والفرنسية، وألم بالإنجليزية والروسية ، فاتصل منها بثقافة الشرق والغرب فى القديم والحديث . ثم أخذ يطوِّف ما شاء الله أن يطوِّف فى أقطار الهند وإيران والحجاز ومصر وتركية وإنجلترا وفرنسا وروسيا فازداد بصراً بأحوال الدول وأخلاق الشعوب . ثم كان رضى الله عنه متواضع النفس لأنه عظيم ، جرىء الصدر لأنه حر ، ندى الراحة لأنه زاهد ، ذرب اللسان لأنه قرشى ، أنى الضمير لأنه أمير ، حاد الطبع لأنه مرهف ، صريح القول لأنه رجل . ولم يبتغ من وراء هذه الصفات — كما قال --- إلا سكينَةَ القلب . وكان يحمداً لله على أن آتاه من الشجاعة ما يعينه على أن يقول ما يعتقد وينعمل ما يقول^(١) . ومن امتزاج هذه السمائل وتلك الوسائل فيه اتسعت حوله الأرض ، وامتد أمامه الأفق ، وانصرف همه البعيد عن الدار والزوجة والمشيخة إلى الوطن الإسلامى كله ، بالشرق الإنسانى

(١) خاطرات جمال الدين ص ٢١ .

كله ، فجعل قصده ووكده أن يدعو إلى إنهاضهما بالوحدة الإسلامية لتدفع غائلة المستعمر ، وبالحوكمة الدستورية لتتمتع شرسة المستبد .
وقد آمن بهذه الدعوة إيمانه بالله حتى رأى في سبيلها السجن رياضة والنفي سياحة والقتل شهادة^(١) .

وكان الذين يقفون من سيرة الأفغانى على الهامش يظنون أنه قصر جهده فى تحقيق هذه الدعوة على الكتابة والخطابة . والواقع الذى لاشك فيه أنه فكر ثم قدّر ثم دبر ، ولكن الوحدة كانت من الشتات بحيث لا تلتئم ، والاستبداد كان من الثبات بحيث لا ينهزم .

تولى الوزارة وهو فى ريق شبابه لأمنير الأفغان محمد أعظم ، فجمع نفسه على الاستقلال ، ودار أمره على الشورى ، فأوجس الإنجليز خيفة من هذه النزعة ، فأرسلوا ذهابهم إلى منافسه فأضرم الثورة وفرق الكلمة وطرد الأمير . وخرج السيد إلى الهند بيتنى السكنية عند تاجر صديق ، فاستقبله الإنجليز على الحدود ، وأنزلوه بالإكراه ضيقاً على الحكومة . فسألهم الإقامة شهرين ، ولكنهم حين رأوا إقبال الناس عليه ، وإصغاءهم الشديد إليه ، قصّروا هذه المدة وأمسوه بالخروج . وكادت الأعصاب الهندية المخدرة تثور حين قال زعماء المهود وهو راحل :

« وعزة الحق وسر العدل ، لو أن ملايينكم مسخت ذباباً لأخرجت الإنجليز بطنينها من الهند . ولو انقلبت سلاحف وخاضت البحر إلى الجزر البريطانية لجذبتها إلى القاع » ا

وفى الآستانة استقبله الصدر الأعظم استقبال التجارة ، وأحله أعيان الدولة محل الكرامة . ثم عين عضواً فى مجلس المعارف ، فرأى فى التعليم رأياً وخطب فى الصناعة حطبة ، أحفظا عليه أعوان الجهل من رجال العلم وإخوان الضلال من شيوخ الدين . وتولى قيادة الإرجاف شيخ الاسلام لحاجة فى نفسه ، فافتدى على الرجل الأباطيل ، وبس حوالبه التمام ، فلم يجد الأفغانى بدأ من النزوح إلى القاهرة

(١) خاطرات جمال الدين ص ٣٣ .

وهنا وجد الصدر الأرحب في رياض باشا ، فتجلت عمق ريته في التعليم والتنبيه والتوجيه . وأوقد بالزيت المقدس شعلته الوهاجة في البيت وفي القهوة . فعمشا على ضوءها الهادي طلاب المعرفة وعشاق الحسكة من علماء وأدباء وساسة وقادة . ثم اتخذ من المحفل الماسوني الذي أنشأه منارة لهذه الشعلة ، فقسم الإخوان العاملين فيه شعباً لكل وزارة من وزارات الدولة شعبية . فشعبة الحرية تنظر في ظلامه الضباط المصريين ، وتنذر (ناظر الجهادية) أن ينصفهم من الضباط الجراكسة . وشعب الحقانية والمالية والأشغال تنذر وزراءها أن يساوا المصريين بغيرهم في العمل والمرتب . وراع أولى الأمر ما قرأوا في تقارير الشعب ، وما سمعوا من لفظ الموظفين ، وما رأوا من قلق المثقفين ، فاستدعاه الخديو توفيق وفاوضه في ذلك فقال له فيما قال : « إن سبيل الإصلاح أن يشترك الشعب في حكم البلاد عن طريق الشورى » . ثم ازداد جمال الدين إمعاناً في حملته ، وانتقل الأدب كله أصداء لأحاديثه وأبواقاً لدعوته ، حتى انتهى الأمر — بعد جهاد ثمانى سنوات إلى أن ضاق الأنجليز بسمة نفوذه ، فزينوا للخديو أن يخرج من مصر فأخرجه . وانتقلت الشعلة إلى باريس ، وسطعت في (العروة الوثقى) ، وظلت ألسنتها ثمانية عشر شهراً تومض في جنبات الشرق كما تومض المنارة في ظلمات المحيط ، حتى دلت على أوكار الطغيان وعمت بأسرار القرصنة ، فاستقدمه شاه العجم واستوزرة ، فلما أشار عليه بالشورى أشاح بوجهه عنه . واستزاره قيصر الروس واستخبره ، فلما نبأه بحديث الشورى نفر منه . واستدعاه خاقان الترك واستشاره ، فلما نصح له بالشورى وتقسيم الإمبراطورية إلى عشر خديويات يتولاها أسراء عثمانيون زوى عبد الحميد ما بين عينيه ؛ ولكنه ألطف الجواب للحكيم الشجاع ، وظل على إكراه واحترامه أربع سنين حاول فيها أن يكبله بقيود المنصب والزواج فلم يستطع ، ولكن الموت استطاع أن يكبل الثائر الحر ليبلغ الاستبداد أجله المقدر فرض بالسرطان في الآستانة وتوفى به في اليوم التاسع من شهر مارس سنة ١٨٩٧م

نموذج من نثره

كتب إلى عبد الله باشا فكري يفتب عليه وقد بلغه أن رجلاً ذمه أمام الخديو على مسمع منه ، فسكت ولم يدافع عنه :

مولاي ! إن نسبتك إلى هوادة في الحق وأنت — تقدرت جبهتك — فطرت عليه وتخوض الغمرات إليه ، فقد بعث يقيني بالشك . وإن توهمت فيك حيداً على الرشد ، وجوراً عن القصد وأنا موقن أنك ما زلت على السداد غير مفترط ولا مفترق فقد استبدلت على بالجهل . ولو قلت : إنك من الذين تأخذهم في الحق لومة لائم ، وتصدم عن الصدق خشية ظالم ، وأنت تصدع به غير وان ولا ضجر ، ولو آتب الباطل السكوارث المردية ، وأجرى عليك الخطوب الموبقة لسكذبت نفسى وكذبى من يسمع مقالتي ، لأن العالم والجاهل والظن والغبي كلهم قد أجمعوا على طهارة سجيتك ، ونقاوة سيرتك ، وانفقوا على أن الفضائل حيث أنت ، والحق معك أينما كنت ، لا تفارق المسكابين واواضطرت وأنت مجبول على الخير لا يحوم حولك شر أبداً ؛ ولا تصدر عنك نقيصة قصداً ، ولا تنه في قضاء حق ، ولا تنه عن شهادة صدق — ومع ذا وهذا وذاك إنك مع علمك بواقع أسرى ، وعرفانك بسيرتى وسرى ، أراك ما ذدت عن حق كان واجباً عليك حمايته ، ولا صنت عهداً كانت عليك رعايته ، وكتمت الشهادة وأنت تعلم أنى ما أضمرت للخديو ولا للمصريين شراً ، ولا أسررت لأحد في خفيات ضميرى شراً . وتركتنى وأنياب النذل اللئيم (فلان) حتى نهشني نهش السبع الهرم العظيم ، ضعيفة منه على السيد إبراهيم اللقاني وإغراء من أعدائى أحزاب (فلان) ! ما هكذا الظن بك ، ولا المعروف من رشك وسدادك؛ ولا يطاوعنى لسانى — وإن كان قلبى مدعناً بمظم منزلتك في الفضائل ، مقرراً بشرف مقامك في السكالات — أن أقول : عفا الله عما سلف ، إلا أن تصدع نالقي ، وتقيم الصدق ، وتظهر الشهادة إزاحة للشبهة ، وإدحاضاً للباطل ،

وإخزاء للشر وأهله . وأظنك قد فعلت أداء لفريضة الحق والعدل . ثم إنى
يا مولاي أذهب الآن إلى لندن ومنها إلى باريس مسلماً عليكم ، وداعياً لكم —
والسلام عليكم وعلى أخى الفاضل الب. أمين بك .

الاستاذ الإمام محمد عبده

١٢٦٦ — ١٣٢٣ هـ (١٩٠٥ م)

نشأته وهيبته

وُلد محمد عبده بن عبده بن حسن خير الله بمحلة نصر من إقليم البحيرة بمصر
ونشأ نشأة الأوساط من القرويين ، فاستظهر القرآن في كتاب القرية ، وأرسل
في طلب العلم إلى الجامع الأحمدي فالأزهر الشريف ، ولسكنه مئى في أول دراسته
بمعلمين غير أكفاء لقنوه المسائل من غير تفهيم فسثمها وفرّ . فلما ذاق حلاوة العلم
صبر على سمرارة التعلم ، واستغرق وسعه في الدرس حتى نال في قليل من الزمن
كثيراً من العلم . ولم يكن منهاج التعليم الأزهرى في ذلك العهد كفيلاً بتفخريج
الطالب كما كان الإمام صحيح الحكم ، وثيق الحجّة ، ساهر البيان ، عزيز العلم ،
كريم الخلق ، ثابت البصيرة ؛ ولسكن السيد جمال الدين الافغانى حكيم الشرق
وفيلسوف الإسلام هو الذى جملة بهذه الصفات وكله بتلك العلوم . ورد ذلك
الحكيم مصر في عهد إسماعيل فورد شرعته أذكيااء للطلاب، فكانوا دعاة النهضة
الحديثة وهداتها . وكان الإمام آثرهم عنده وأوفرهم حظاً منه ، حتى قال فيه وهو
مفارق مصر : « إنى خلقت في مصر خيراً كثيراً في علم الشيخ محمد عبده » .
فلما رحل عن مصر جمال الدين استأنف الاستاذ النظر في العلوم واستقى الدين
من مشارعه الصافية حتى أصبح إماماً في العلوم العقلية والنقلية واللسانية ، فنال
درجة العالمية سنة ١٣٩٤ هـ . ثم اختير مدرساً للأدب والتاريخ بدار العلوم

ومدرسة الألسن ، وأسندت إليه بمد ذلك رياسة تحرير الوقائع الرسمية وإصلاح اللغة العربية .

ثم أخذت مبادئ الأفغانى تزكو فى القلوب وتهفو بالنفوس ، حتى أفضت إلى الثورة العربية ، وكان الاستاذ ممن شايح وبائع وأفقى بجمع الخديو توفيق حكيم عليه بالنفى . فقصده سورية ولبث فيها ست سنين شرح فى أثناءها كتابى نهج البلاغة ومقامات البديع . ثم غادرها إلى باريس حيث كان جمال الدين ، فأنشأ معها جريدة (العروة الوثقى) ونشر فيها دعوة الدين والعلم والادب والإصلاح ، فاهتزت لها القلوب الطيبة فى العالم الإسلامى ، ولكنها لم تدم طويلا . واستهوى الاستاذ ما رأى وسمع من حضارة الغرب وعلومه فطمعت نفسه إلى الاخذ منها بنصيب ، فابتغى الوسيلة إلى ذلك بتعلم اللسان الفرنسى فتعلمه فى بضعة أشهر . ثم شمله العفو الخديوى فعاد إلى وطنه نير القلب غزير العلم محنك السن ، وعين مستشاراً فى محكمة الاستئناف ، وعنى بتدريس البيان وتفسير القرآن بالأزهر . فكان درسه مجمماً لرجال القانون والادب والصحافة والتعليم . وتولى منصب الإفتاء فظل فيه حتى توفاه الله بالسرطان فى الإسكندرية ودفن بالقاهرة .

صفاء وأفلاقه

كان الاستاذ ربع القامة ، أسمر اللون ، قوى البنية ، حاد البصر ، بليغ العبارة ، فصيح اللسان ، ذكى القلب ، شديد العارضة ، قوى الحافظة . وكان أشبه بابن خلدون فى كبر نفسه ، وصفاء عقله ، وبعد نظره ، وقوة جأشه ، وكرم خلقه ، وصراحة قوله ، حتى فى خصوصية زيه . وقد كابد مثله فى رضا الحق ومحاربة البدع سخط الخاصة وغضب العامة ، شأن زعماء الإصلاح فى كل أمة .

أثره فى اللغة والادب

كانت اللغة فى عهده فريسة العجمة رهينة البلى نجاهد فى إنقاذها وإحيائها

حق جهاده : كان وهو محرر الجريدة الرسمية يراقب ما ينشر في الصحف ويكتب في الدواوين ، ويدمج الفصول في نقد الأساليب وخطأ التراكيب ، وينشر نماذج من تلك الكتابات السقيمة العقيمة ويدل على عيوبها ، ويكتب غيرها في موضعهما تعليماً للكتاب وتدريباً للناشئة . ثم سلك في التدريس غير سبيل الأزهريين ، فقرأ كتابي عبد القاهر في البلاغة بأسلوب يملك الاسماع والقلوب ، وفسر كتاب الله بلسان رسوله . فكان في درسه خطيباً جزل المنطق قوى المعارضة لا تدرّكه حُبسة ولا يرهقه حصرٌ . فأفاد الطلاب ببيانه مثل ما أفادهم بتبيينه . وهو الذي ساعد على إحياء الكتب العربية ، وسن في الأزهر تدريس الادب فاعتضد في الأول بالإمام محمد محمود الشنقيطي ، واعتمد في الثاني على أستاذنا سيد بن علي المرصفي .

أمره في العلم والرياسة

غام أفق الدين بسحب البدع والأضاليل ، فأطاع الأستاذ من فكره وعلمه نيراً بدد غيوم الباطل ، وجدد رسوم الحق . ورأى العلم قد أخذ ينفِضُ إلى الدين رأسه ، فوقف بينهما موقف المؤلف الموفق ، كما فعل ابن سينا وابن رشد من قبل ، وأخذ يفسر القرآن بلسان العلم والعقل ، وكتب رسالته في التوحيد بقلم عبد القاهر فقرب العقائد من الأفهام ، وحسر عنها ظلال الابهام . وسمع السنة المبشرين والمستعمرين تمتد إلى جوهر الإسلام بالإفك ، فقطعها بالأدلة النواهض والحجج الملمزة . وكتاب (الإسلام والنصرانية) ورد على هانو تو الفرنسي من تلك الأسلحة التي أجهزت على تلك الشبهة المدفوعة .

وجملة القول أن الإمام محمداً كان من أولئك الأعلام المجتهدين والعلماء المحققين الذين يصطفينهم الله من خلقه لنصرة حقه ، فيجددون حبل الدين ، ويشيدون أركان العلم ، ويدفعون عن الأرض الفساد .

أسلوب

للأستاذ في الترسل أسلوب خاص كأنه قطع الرياض ، تقرأه في الردود والمقالات : وقد ينحو في رسائله نحو ابن العميد فيتكلف السجع ويكلف بالصفة ؛ ويقصد قصد الجاحظ في تأليفه ، فتسارق أغراضه ، وتترافف فقره . فهو متصرف في أنواع الكلام يلبس كل معنى ما يلائمه من الأساليب . أما الشعر فما علمناه يقرضه . ولكن الناس رووا له أبياتاً قالها في سياق الموت وهي :

ولست أبالي أن يقال محمدٌ أبلّ أو اكتظت عليه المآتم
ولكن ديناً قد أردت صلاحه أحاذر أن تقضى عليه العائتم
فيارب إن قدرت رُجمي قريبة إلى عالم الأرواح وانفض خاتم
فبارك على الإسلام وارزقه مرشداً رشيداً يضيء السهج والليل قائم

نموذج منه نره

كتب إلى بعض علماء الشام جواباً عن كتاب هناك فيه بمنصب الافتاء ، وقد شكاه فيه الإمام ما كابدته من عنت الشيوخ في سبيل الاصلاح :

أنصفني قومك إذسروا بنيلي الافتاء ، وامل ذلك لشعورهم بأنني أغير الناس على دين الله ، وأضرام بالدفاع عن حماه ، وأدراهم بوجوه الفرص عند سنوحها ، وأحذقهم في انتهازها لإبلاغ الحق أمله ، أو يبلغ الكتاب أجله . على أنهم مني بحيث لا يفسد نفوسهم الحسد ، ولا يتقاذف بأهوائهم اللدد ؛ وكل ذي دين يشتهي أن يرى لدينه مثل ما أحت إليه عزيمتي ، وأخلص له في العمل لتحقيقه نيتي ، خصوصاً إن كنى فيه القتال ، ولم يكلف بشد رجال ولا بذل أموال .

أما قومي فأبعدهم عن أشدهم قرباً مني . وما أبعدهم الانصاف منهم ! يظنون بي الظنون ، بل يقر بصون بي ريب المنون ، تسرعاً منهم في الأحكام ، وذهاباً مع

الأوهام ، وولعاً بكثرة الكلام ، وتلذذاً بلك الملام . أقول فلا يسمون ، وأدعو فلا يستجيبون ، وأعمل فلا يهتدون ، وأريهم مصالحهم فلا يبصرون ، وأضع أيديهم عليها فلا يحسبون ، بل يفرون إلى حيث يهلكون . شأنهم الصياح والمويل ، والصخب والتحويل ، حتى إذا جاء حين العمل صدق فيهم قول القائل في مثلهم :
لكن قومي ولئن كانوا ذوى عدد ليسوا من الشرفى شىء وإن هانا
وأقول ولا فى الخير .

ولئنما مثلى فيهم مثل أخ جهله إخوته ، أو أب عفته ذريته ، أو ابن لم يحن عليه أبواه وعمومته ، مع حاجة الجميع إليه ، وقيام عمدهم عليه . يهدمون منافعهم بايذائه ، ولو شاءوا لا سبقوا باستبقائه ، وهو يسعى ويدأب ، ليطعم من يلوو ويلعب . على أنه أحمد الله على العسر ، وسنة العسر ، إذا ضاق الأمر ، وقوة العزم ، وثبات الحلم . وإن كنت فى خوف من حلول الأجل ، قبل بلوغ الأمل ، خصوصاً عندما أرى العمل فى أرض مهيئة لو ذابت عليها السماء مطراً ، لما أنبتت زرعاً ولا أطلعت شجراً . أفزع لذكرى ذلك وأجزع ، ويكاد قلبى يتقطع . ثم أرجع إلى الله فأعلم أنه مع الصابرين ، وأنه لا يضيع أجر العاملين ، فيتلج صدرى وأمضى فى جهادى الدائم . ولعل الله يحدث بعد ذلك أمراً . . .

وليتنى كنت أشكو إلى الله جهل العاملين وحمق المعلمين ، فى مثل هذه الجاهلية التى بعث النبى صلى الله عليه وسلم لحو أحكامها ، وإزالة أيامها . تلك جاهلية كان الضلال فيها بعيداً ، ولكن كان فهم القوم حديداً لذلك عندما لاح لهم ضوء الهدى أبصروه ، وعندما قرع أسماعهم صوت الداعى أجابوه . كان القرآن يصدع أفئذتهم فيلين من شدتهم . ويفل من شرهم ، ويفجر من صخر القسوة ينابيع الحنان والرحمة . وما كان أهل العناد فيهم إلا قليلاً عرفوا الحق فأنكروه ، وطائفة كانوا يفرون منه خوف أن يعرفوه . ولو سمعوا لفهموا ، ثم لم يجدوا بداً من ينصروه وإن الجحود مع الفهم كاليقين مع العلم ، كلاهما قليل فى بنى آدم . أما اليوم فإنما أشكو من قلة الفهم ، وضعف العقل ، واختلال نظام

الادراك ، وفساد الشعور عند الخاصة ، فلا تجذبهم فصاحة ولا تبلغ منهم بلاغة .
وغاية ما يطلبون أن يحمدا بما لم يفعلوا ، وأن يوصفوا بالعلم وإن لم يعقلوا ،
وأن تقضى حاجاتهم إذا سألوا ، وأن ترفع مكانتهم وإن نزلوا . ولئن استعداد
السامع للفهم يستدرك المقال ، ويسدد الفكر للنضال في الجدل ، أما عيشك
فيمن لا يفهم فإنه ينضب منك بنوع الكلام ، ويطمس عين الفكر ،
ويزهق روح العقل .

الشيخ علي يوسف

١٢٨٠ — ١٣٣١ هـ (١٩١٣ م)

سأته وهياته

ولد هذا السياسي النابه والصحفي النابغ في بلدة بلصفورة من أعمال مديرية
جرجان من أسرة زكية المغربس رقيقة الحال ، ولم يكد يحول على مولده الحول حتى
بجعه الموت في أبيه ، فارتحلت به أمه إلى أخواله في بني عدى من أعمال منفلاوط
حيث درج وشب وحفظ القرآن وشداشيثاً من مبادئ العلوم . وفي عام ١٣٩٩ هـ
بعثوا به إلى الأزهر ، فطلب العلم على طائفة من صفوة الأشياخ بضع سنين ألم
فيها بالفقه والنحو والصرف والبلاغة والمنطق والتوحيد ومبادئ الفلسفة ، إلا أنه
أحس في نفسه السمو والطموح ، ورأى في الأزهر الجمود والجمود ، فصدف عن
حياة الأزهريين ووصل أسبابه ببعض أبناء السراة يساهرم ويسامرهم ويقول
الشعر فيهم ، حتى هبط مصر المرحوم أحمد فارس الشدياق صاحب الجوائب
وأنشأ جريدة (القاهرة الحرة) فاتصل به الشيخ علي وأعانه على تحريرها فكسبه
ذلك ملكة الذوق الكتابي ، وأسرار الفن الصحفي ، فأخرج صحيفة سماها
(الآداب) ظلت تصدر حتى سنة ١٣٠٧ هـ . ويومئذ أراد الله لهذه النفس الغلابة
والهمة الوثابة أن تحطم القيود وتتجاوز الحدود وتمتجّل القدر ، فصحت عزيمته

الشيخ على أن يصدر هو والشيخ أحمد ماضي أحد رفقاءه في الأزهر جريدة يومية سياسية دعاها « المؤيد » .

ظهر العدد الأول من هذه الصحيفة في ربيع الآخر سنة ١٣٠٧ هـ أو في أول ديسمبر سنة ١٨٨٩ م ولا عدة لها من مال ، ولا ناصر لها من حكومة ، ولا عون لها من حزب ، ولا مشجع لها من جمهور فلقى الرجل في سبيلها برحاً شديداً وجهداً باهراً حتى أسمفه الله حينئذ بصحبة المحامي المدره سعد افندي زغلول . والكاتب الأملعي إبراهيم افندي اللقاني وأضراهما ، فأمدوه بالمال والكتابة ؛ ولكن الخلاف دب ديبه بين الشريكين فلم يتفقا إلا على أن يكون المؤيد خالصاً للشيخ على إذا أدى لشريكه مائة جنيه عيناً . فكاد يصبح الأمر فوت يده لولا أن تلك اليد البيضاء يد سعد زغلول امتدت إليه ثمانية في أحلك ساعات اليأس ، فألفت إليه بصرته فيها المال كله . وسار المؤيد بعد ذلك في طريق النجاح مسدد الخطى مؤيد العزيمة يحذوه (رياض) رئيس الحكومة بنفوذه ، ويمده أعيان البيان بالمقالات الممتعة ، كسعد بك زغلول . والشيخ محمد عبده ، والشيخ عبد الكريم سلمان ، والسيد توفيق البكري ، وفتحى بك زغلول ، وإبراهيم بك المويلحي ؛ وقاسم بك أمين ، وإسماعيل باشا أباطه ، ومصطفى لطفى المنفلوطى . فانتشر في العالم الإسلامى انتشاراً لم تعرفه صحيفه قبله . وبلغ ما يطبع منه في اليوم ، وعهده عهد أمية وجهالة ، ثمانية آلاف نسخة ، وأبلى في الدفاع عن الإسلام والديار عن العرش بلاء أرضى عن صاحبه الخليفة والحديو والأمة ، فجلوا اسمه بالألقاب ، وزينوا صدره بالأوسمة ، وعطروا ذكره بالثناء . ولكن تجار الفساد أرحموا بينه وبين الأجانب فرموه بالتمصّب ، واستعدوا عليه القناصل ، فكان يتغلب على هذه العراقيل والباطيل بصدق عزيمته وقوة حزمه .

ثم أصره إلى آل السادات من الصوفية فكان لهذا الصهر قضية وشهرة ، ولكنه انتهى على ما عوده الله بالفالج والظفر فاسترد الزوجة ، واغتصب السجادة الوفاية

وعُرف الشيخ على بالولاء للقصر والإخلاص في خدمة العرش حتى حل من الخديو عباس محل الناصح الأمين . وآل أمر صحيفته إلى أن أصبحت من القصر سدانه المسلول ولسانه للناطق . وعاش هذا الرجل العصامي النابغ على كثرة حاسديه وقوة منافسيه وُلِدَ مخالفيه موفور الكرامة رفوع المسكانة جليل الخطر في نفوس الجميع حتى اختاره الله إلى جواره في يوم السبت ٢٥ من أكتوبر سنة ١٩١٣م .

أخلاقه وفضله

كان الشيخ على حظ عظيم من نبل الخلق وفي ذلك سر نجاحه . كان دمث الطبع ، متواضع النفس ، رحب الصدر ، جم المروعة ، شديد الوفاء ، مرهف الذهن ، سريع الفطنة ، شديد الانكفاء على نفسه ؛ وكان بعيد الحور ، فرماه خصومه ، بالمكر والفس ، واسع الأناة في السياسة فرموه بالغلول والخيانة . وكان سباقاً إلى المفضل دعاءً إلى الخير لا ينسى الناس له أثره في إنشاء الجمعية الخيرية الإسلامية ، وجعل التلاميذ في المدارس باللغة العربية ، ولا يزالون يذكرون في ذلك قوله : « إن تعليم الأمة بلغتها ينقل العلم إليها ، أما تعليمها بلغة أخرى فإنما ينقل أفراداً منها إلى العلم » .

أسلوبه وعلمه

لم يجر الشيخ في دراسته الأزهرية إلى الغاية ، فلم يتعمق في علم ، ولم يتبسط في أدب ، ولم يبرز في فن من فنون الحياة ، ولا في لغة من لغات الناس ؛ ومع ذلك كان أكتب الصحفيين جميعاً ، كان له أسلوب خاص لا تميزه صنعة ، ولا تمويه صبغة ، ولا يجمله وشى ، وإنما يسحرك بإطف مدخله ، وحسن ترسله ، وسداد بحشه ، ووثيق حجته ، وقوة أسره ، وكان من الكتتاب الجدليين (Polémiste) الذين أوتوا قوة الحجاج وشدة المعارضة وصدق النظر ، ولكم وقف من الكتتاب موقف جرير من الشعراء يجادلهم وحده حتى يفرعهم بالحق .

وقد عالج الشعر في صدر شبابه فلم تسترِض له قوافيه ، ولم يعدْ شأو الأزهرين فيه . وقد جمع ما نظمه في ديوان سماه نسمة السحر نشره سنة ١٣٠٣ هـ

نموذج صه شره

قال من رده على خطبة اللورد كرومر عميد الدولة البريطانية في مصر على مهده وهي التي ألقاها على مسرح الأبرار في حفلة وداعه :

تقفون والملك الحرك دأتر وتقدرون فتضحك الأقدار !

وقف الخطباء مساء السبت الماضي موقف الممثلين في دار التمثيل الكبرى (الأوبرة الخديوية) يحكمون على الماضي والمستقبل حكم الأقدار في الكائنات ، ويرمون وينقضون ، ويرفعون ويخفضون ، والناس يسمعون مختارين أو مكرهين لأن فرسان ميدان الخطابة كانوا ثلاثة لا يزيدون ولا ينقصون ، ولو أن الموقف كان حراً لكل قائل لسمعوا ما يكرهون كما قالوا ما يحبون .

قلنا إنهم وقفوا موقف الممثلين لأنهم كانوا كذلك في حقيقة الواقع . وقد مثلوا آخر فصل من رواية كثيرة الحوادث عديدة الفصول طويلة الزمان ، بطل وقائعها وفارس معمعانها ذلك الذي كان آخر الخطباء في الحفلة كلاماً وأشدهم إبلاماً وأكثهم آلاماً .

وقف ليمثل آخر سلطة له في هذه الديار ولسان حاله يقول :

« ما في وقوفك ساعة من باس »

مثلها في مكان هو أليق ما كان عظة لقائل ، ومظهيراً لسلطان راحل ، ومجد زائل ، وأصدق ما ضرب له الأمثال : « لكل مقام مقال » .

وضربها : أما الاحتفال نفسه فلم يكن مظاهرة سياسية لإكرام الرجل عند رحيله كما أرادوا ، ولسكنه انقلب بما جرى فيه مظهراً عداً ثيامن اللورد لم ير الرايون ولم يرو الرايون مثله في مقام وداع كهذا المقام ! .

دعنا من كون رئيس الاحتفال أخطأ في أنه لم يكن المتكلم الأول وما عرف حتى الآن أن رئيس احتفال ورئيس وزارة معاً يقدم عليه سواء في الكلام . ودعنا من كونه خطب بالفرنساوية ولم يجعل للغة البلاد نصيباً من كلامه في احتفال كهذا . ودعنا من زعمه أنه يمثل مع الحكومة في موقفة السواد الأعظم من الأمة المصرية ، والسواد الأعظم يخالفه في الرأي والقول . ودعنا من قول الكونت دى سريون إنه يتكلم عن فئة من الأوربيين بما تشعر من حسرات الاحتلال عليها ، وهو أراد لإنجاح السفارة الإنكليزية بباريس في وساطة له لدى حكومة الجمهورية بعد ما حالت هذه الحكومة دون إنعام ملك أسبانيا وكل إنعام تلاه من الدول الأجنبية عليه فهو ينتظر اللحيون دى تور بصبر نافذ .

دعنا من كل هذا وانظر إلى خطبة اللورد السياسية التي جعلها بمثابة وصيته الأخيرة وخاتمة أعماله في مصر .

فبينما كانت الأمة المصرية وافقة موقف الأمل منتظرة من ذلك الراحل العظيم والشيخ الحكيم أن يصلح ما فرط منه نحو الشريعة الإسلامية بما قضى عليها من الجلود الأبدى ، ونحو الأمة المصرية بما وصفهاته من العقم السرمدى ؛ بينما هي ترجو من جنابه أن يتهمز هذه الفرصة السائحة ليأسو الجراح التي جرحها ويضمد الكوم التي فتحتها في جسمها بما تقدم وبما أراد أن يجعل وطنيتها أعجوبة بين الوطنيات ، وجامعتها كشكولا بين الجامعات . وبينما كان سمو أمير البلاد يتمطف ويتلطف وبيالغ في إكرام الراحل عند رحيله متناسياً الحزازات السياسية التي طالما كان اللورد مهاجماً فيها غير عادل ولا متلطف ، وبينما كان كل هذا إذا بركان « البيروقراطية » التي نشأ عليها اللورد ومارسها كل حياته حتى برز فيها أكثر من كل مبرز في تواريخ الحكومات المطلقة قد انفجر بركانه وقذف بلظاه على الأحياء والأموات .

وقف اللورد خطيباً وهو يدافع كيد السقام ، ويحاذب داعى الخصام ، فجال في خاطره أنه مفارق قصر أبحرى من تحته الأنهار ، وملك خضع له فيه الليل

والنهار ، وتارك خصوصاً قد يتوهمون أنهم نازعوه فغلبوه ، أو يتوهم هو أنه
حالمهم فأغضبوه .

وقف اللورد وله نفسان : نفس نزاعة إلى حب البقاء ، وأخرى تقول كيف
البقاء بعد الاستعفاء ؟

وقد ذكر أصدقاءه القليلين كما يعلم ، وأعداءه الكثيرين كما يتوهم ، فسر
وساء ، وترخص وتثدد ، وعدد وندد ، ووعد وتوعد ، وأرغى وأزبد ، وحذر
وأبذر ، وحكم وقدر .

ربما أخرج الحزين جوى الحزن ن إلى غير لائق بالسداد
مثلاً فانت الصلاة سليماً ن فأخى على رقاب الجياد^(١)

إبراهيم المويلحي

١٧٦٢ - ١٣٢٣ هـ

نشأته ومهنته

ولد هذا الكاتب الكبير في بيت من بيوت التجارة الوطنية من أسرة ناعمة
تعيش وأسعة الثروة موصولة الجاه بالأسرة الخديوية المالكة ، فتدرب منذ إيفاعه
على شئون التجارة وتمرس في فنونها ، إلا أن طبعه القلق اللجوج ، ونفسه المتوثبة
الطموح ، لم يطاوعاه على الرضا بالرجح المشروع فقذف بماله في وجوه (المضاربات)
فما ارتد إليه منه غير صفقة المغبون . فعاش عيشة الكفاف والتعفف حتى هبت
عليه نفحة من جود اسماعيل فجدله قاضياً في محكمة الاستئناف . ولكنه اختلف
هو ورئيسه اختلافاً لم ينته إلا باستقالته . فقلده الخديو عملاً آخر فناله فيه ما ناله
في التجارة والقضاء . وجاءت وزارة شريف تريد أن تضع الدستور الأول فكان

(١) نشرت بالزيد في ٧ مايو من سنة ١٩٠٧ عدد ٥١٧٥ .

المويلحي ممن اختيروا لوضع (اللائحة الوطنية)؛ ولكن آماله كانت تسفر له دائماً عن وجوه الفشل فابتغى الوسيلة إلى الرزق في الكتابة والنشر فأنشأ (جمعية المعارف) لطبع الكتب القيمة وإذاعتها في مطبعة اشتراها لنفسه . ثم اتفق مع المغفور له محمد بك عثمان جلال مترجم مُدير وصاحب العميون اليوانظ ، على إنشاء جريدة (نزهة الأفكار)؛ ولكن الخديو إسماعيل خشى شرها فألغها . فلما كانت سنة ١٣٩٦ هـ وخرج الخديو مخلوعاً من ملكه إلى إيطاليا أرسل في طلب إبراهيم ليتخذه كاتب رسائله ، فقام له بهذا العمل بضع سنين أنشأ في خلالها وهو في إيطاليا جريدتي «الاتحاد» و«الأنباء» فلم تمتعا بالحياة غير قليل . ثم رحل إلى الآستانة سنة ١٣٠٤ فأكرم عبد الحميد وفادته وجعله عضواً في مجلس المعارف فلبث فيه تسع سنين اتصلت فيها أسبابه برجال (المابين) ورؤساء الحكومة . ثم ارتد إلى مصر وقد خيط الشيب في رأسه ، ونالت الأيام من جسمه ، فأنشأ (مصباح الشرق) وهي صحيفة أسبوعية كان يديجها باللفظ الرشيق والأسلوب الأنيق ويرسلها بالسهم النافذة في الاجتماع والنقد والسياسة . فقضت حاجة في نفوس الأدباء ، ونهجت لهم الطريق السوي في الإنشاء ، ووطأت له هوأ كنف الرؤساء والكبراء . واستمر على إصدارها حتى طويت صحيفة حياته .

أسلوبه

كانت الكتابة في عهد المويلحي لا تزال ترسف في أغلال الصنعة ، وتكابد أعراض الوهن ، فلم يستطع قلمه أن يخرج عن ساطان البديع ، ولا أن يبرأ من تكلف الخلية الظاهرة . إلا أن تصرفه في الأمور ، وتقلبه في البلاد ، واختلاطه بألوان الناس ، واتصاله برجال البلاد ، ومغامرته في السياسة ، وتمرسه في الصحافة ، فتقت قريحته ، وذلت معانيه ، وسهلت أسلوبه وأمكنته من عفان البلاغة فصرّفها حيث شاء ولا سيما في الرسائل ، فقد تفنن في جميع ضريرها وأحسن في سائر مناحيها . والمويلحي على ما به من ضيق المضطرب في المعاني ، وضعف

السليقة في الابتكار ، أشبه بالبارودي في الشعر : جدد ما درس من أساليب الكتابة ؛ وبين ما طمس من معالم البيان ، وكان ركناً شديداً من أركان هذه النهضة المباركة .

آثاره

جل ما أثر عنه مقالاته السياسية والاجتماعية التي نشرها فيما أنشأ من الصحف كنهضة الأفكار والاتحاد والأنباء ومصباح الشرق ، أو فيما أعان عليه منها كضيء الخافقين في إنجلترا والعروة الوثقى في فرنسا . وله غير ذلك كتاب « الفرج بعد الشدة » في وزارة رياض باشا ، وكتاب « ما هنالك » وصف فيه حال الآستانة ورجال المايين قبل الدستور العثماني .

حفنى ناصف

١٢٧٢ - ١٣٣٧ هـ

نشأته وهيبته

وُلد محمد حفنى ناصف بن الشيخ إسماعيل ناصف عام ١٢٧٢ للهجرة في ضاحية من ضواحي القاهرة تدعى بركة الحج يتيماً فقيراً ، فكفله خاله وجدته لأبيه . ثم دخل كتاب القرية فتعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ جزءاً من القرآن . ثم فر إلى الأزهر في الحادية عشرة من عمره فسكث فيه ثلاث عشرة سنة ؛ ثم سلك نفسه في الداخلين (دار العلوم) فتثقف علومها وعين أستاذاً للغة العربية في المدارس الأميرية . ثم اختير للتدريس في مدرسة الحقوق فوقع في نفسه أن يشرك طلبتها في دروسهم . فدرس القانون وترك التدريس وانتخب كاتب سر للنائب العمومي . ثم عين فاضياً سنة ١٨٩٢ م في المحاكم الأهلية . وبلغ من أمره في القضاء أن صار وكيلاً لمحكمة طنطا الأهلية . وفي غضون ذلك انتدب لتدريس

الأدب العربي في الجامعة المصرية وهي أهلية ، فألقى فيه محاضرات ممتعة جمعت في كتاب خاص . ولما أقعد الشيخ حمزة فتح الله مفسح اللغة العربية الأكبر في وزارة المعارف خلفه الأستاذ حفي بك ، فازهرت دولة الأدب واعتز جانب اللغة . وقضى هذه الفترة القصيرة في التنقيب والتنقيح حتى شارف الستين فأحيل على المعاش وما عمر بعد ذلك إلا ثلاث سنين . ثم وافاه أجله في أواخر نوفمبر من سنة ١٩١٩ م ودفن في مقبرة الشافعي .

أضيقه

كان رحمه الله فكه الحديث ، مليح النادرة ، حاضر البديهة ، سريع الجواب ، كثير الدعاية ، رضى الخلق ، مشاركاً في كل علم وفن ، جاريًا مع القديم والحديث .

شعره وشعره

حفي بك ناصف ركن من أركان النهضة الأدبية الحديثة . أحيائها بأبحاثه ومؤلفاته ، وقواها بقصائده ومقالاته . وهو ضليح في فنون اللغة ، خبير بقواعد لسان ، بصير بأسرار الكلام ونقده . وأسلوبه في الرسائل يجرى على منهاج لتأخرين من كتاب العصر العباسي في السكف بالسجع والقصد إلى البديع . وله أسلوب مرسل في المقالات يجرده من زخرف الصنعة فيسيل رقة وسلاسة . شعره فنمط من الأسلوب النثرى المنظوم ، تسكث فيه الملح والحسنات اللفظية يظهر الضعف في تراكيبه أحياناً ، إلا أنه على الجملة سلس مطبوع .

مؤلفاته

له مع غيره سلسلة في قواعد اللغة العربية كانت تدرس في المدارس المصرية ، كتاب (مميزات لغة العرب) قدمه إلى مؤتمر المستشرقين الذي أقيم في فيينا ١٨٨٦ م وقد كان كاتب سر الوفد الذي مثل مصر في هذا المؤتمر ، وكتاب

« حياة اللغة العربية » وهو مجموع محاضراته التي ألقاها في الجامعة المصرية ، وكتاب القطار السريع في علم البديع ، ورسالة في البحث والمناظرة ، وأخرى في المنطق ، وكتاب الأمثال العامية ، وبديع الالفة العامية . وأكثر كتبه غير مطبوع .

نموذج من شعره

قال يخاطب أحد الرؤساء :

أحييت آمالي وكنت أميها
أدلى بإخلاصي لهم وأذود عن
مخضتهم ودى فلما أيسروا
حسبي من الدنيا صديق ثابت
من طول مالاقيت من إخواني
أعراضهم بجوارحي ولساني
كانت بداية أمرهم نسيان
فرد فكنته ولا احتياج لثان
وقال أيضاً :

أتقضى معي إن حان حينى تجارنى
ويحزنى ألا أرى لى حيلة
إذا ورت المأثورن أبناءهم غنى
وما نلتها إلا بطول عناء ؟
لإعطائها من يستحق عطائى
وجاهاً ، فما أشقى بنى الحكماء

ومن ثمره رسالة عزى بها الشيخ على يوسف فى ولده :

خفف الله لوعتك ، وأرقأ دمعتك ، وجنبك الجزع ، ووقاك الملح ، وأهملك
العسر ، وأجزل لك الأجر ، ورزقك من البنين ، فى مستقبل السنين ، ماتقربه
عينك ، ويقوى به عناك . وأنت والحمد لله فى قوة ، وبقية من الفتوة ، تمكثك
من الأبوة ، نخير البنوة . على أن لك فى عالم السياسة ، وضروب الكياسة ،
فى هذه البلاد ، ألوانا من الأولاد ، وآثاراً كبرى ، تضمن لك الذكرى ، وتجعل
لك على مدى السنين ، لسان صدق فى الآخرين . والسلام عليك ورحمة الله .

باحثة البادية

١٨٨٣ — ١٩١٨ م

نشرها وحياتها

هي السيدة الفاضلة مَلَك ناصف بنت الشاعر السكاتب حفنى بك ناصف .
وُلدت بالقاهرة يوم الاثنين من شهر ديسمبر سنة ١٨٨٦ وتلقت مبادئ العلوم
في مدارس أولية مختلفة . ثم دخلت المدرسة السنوية في أكتوبر من سنة ١٨٩٣ م
ونالت منها الشهادة الابتدائية سنة ١٩٠٠ م وهي أول سنة تقدمت فيها الفتيات
المصريات إلى نيل هذه الشهادة . ثم انتقلت إلى قسم المعلمات من هذه المدرسة
فنالت منها إجازة التدريس ومارست بعد ذلك التعليم في مدارس البنات الأميرية .
وفي سنة ١٩٠٧ م بنى بها عبد الستار الباسل وهو سرى من سراة قبيلة الرماح
بالفيوم ، فتركت التدريس وعكفت على الكتابة والتأليف ، وعاشت مع زوجها
عيشة الزوجة الخلصة البرّة حتى توفيت بالحجى الإسبانية في أكتوبر من سنة
١٩١٨ م وهي في زهرة العمر ونصرة الشبيبة .

مطاميرها في العلم والأدب

أظهر ماتدل عليه كتابة الباحثة من أخلاقها عذوبة الروح وسراوة الخلق
وذكاء الطبع وصحة الدين والرغبة في الإصلاح . تعهدا والدها الكريم منذ طفولتها
فبذاها بأدبه ، ونمت فيها من روحه ، فأخذت تعالج القريض وهي في الحادية عشرة
من عمرها . ثم توافرت على صناعة الإنشاء فبلغت منها مكانة تحسدها عليها
الرجال . عنيت بإنهاض المرأة المصرية بعد قاسم أمين ، فكانت أول مصرية
مسلمة جاهرت بالدعوة العامة إلى هذا العمل في بيئة لاتزال رجعية . ألقت في هذا
الموضوع سلسلة من المحاضرات في إدارة الجريدة التي كان يصدرها حزب الأمة

ويرأس تحريرها الأستاذ أحمد لطفي السيد ، وكتبت عنه طائفة من المقالات في هذه الصحيفة بإمضاء « باحثة البادية » فصار لقباً غلب عليها .

جمعت هذه المقالات في كتاب عنوانه « النسائيات » ونشرت منه جزءاً الأول . ثم شرعت في آخر حياتها تؤلف كتاباً مطولاً سمته « حقوق النساء » أنجزت منه ثلاث مقالات ثم حالت المنية عن إتمامه .

نموذج من كلامها

من قولها في كتاب النسائيات :

ما أتقى الهواء ، وأعذب الماء ، وأصفي السماء في القرى اوما أكذب الحياة وأقرب الوفاة في المدن ! القرى جميلة لأنها على الفطرة . أما المدن فلا تعدم أثراً للتسكف والرياء . أين دوى السكرباء ، من خري الماء ، والمدخان المتعاقد فوق المداخن ، من جولا ترى فيه إلا تحليق الصقور وإلارءوس النخل الباسقات ؟ وأين وحل الشارع وعتيرها من أرض كسيت ببساط النبات ؟ وأين الراحة المنبمئة من مقاذيز المنازل وروث الدواب من شذى أزهار الخقول ؟ بل ما أضل البصر يريد الجولان فيرده من هنا جدار ومن هناك سور ، من نظر تسرحه حيث شئت فلا تجد إلا اللانهاية في الفضاء !

ومن قصائدها في حال المرأة قسيمة مطلعها :

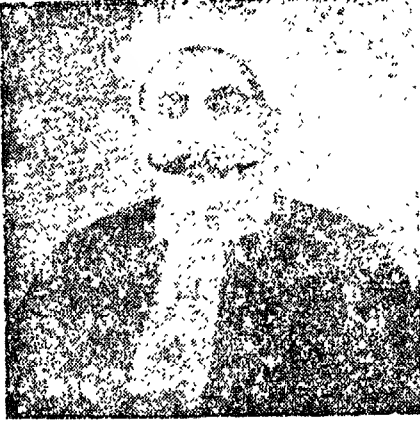
| | |
|---|--|
| أَعْمَلْتُ أَفْلَاحِي وَحِينَا مَنْطِقِي | فِي النَّصْحِ وَالْمَأْمُولِ لَمْ يَتَحَقَّقِ |
| أَيْسُوؤُكُمْ أَنْ تَسْمَعُوا لِبَنَاتِكُمْ | صَوْتًا يَهْزِ صَدَاهُ عَطْفَ الْمَشْرِقِ ؟ |
| أَيْسِرْكُمْ أَنْ تَسْتَمِرَّ بَنَاتِكُمْ | رَهْنُ الْأَسَارِ وَرَهْنُ جَهْلِ مَطْبِقِ ؟ |
| هَلْ تَطْلُبُونَ مِنَ الْفِتَاةِ سَفُورَهَا ؟ | حَسَنٌ ، وَلَكِنْ أَيْنَ بَيْنَكُمْ التَّقَى ؟ |
| لَا تَتَّقِي الْفَتَيَاتُ كَشْفِ وَجُوهِهَا | لَكِنْ فَسَادِ الطَّبَعِ مِنْكُمْ تَتَّقِي |
| تَخْشَى الْفِتَاةُ حَبَائِلًا مَنْصُوبَةً | غَشِيَتْموها فِي الْكَلَامِ بَرُونِي |

لا تظفروا بل أصلحوا فتياتكم وبفاتكم وتسابقوا للأليق
ودعوا النساء وشأنهن فإنما يدري الخلاص من الشقاوة من شق
ليس السفور مع العفاف بضائر وبدونه فرط التعجب لا يقي

مصطفى لطفى المنفلوطى

١٨٧٦ — ١٩٢٤ م

نشأته وحياته



ولد السيد مصطفى لطفى

بمنفلوط من أعمال مديرية أسيوط

سنة ١٢٩٣ هـ — ١٨٧٦ م ونشأ

في بيت كريم بالدين جليل بالفقه

توارث أهله قضاء الشريعة ونقابة

الصوفية قرابة مائتى سنة . ونهج

المنفلوطى سبيل آبابه فى التمساة

حفظ القرآن فى المكتب . وتلقى

العلم بالأزهر ، ولكنه كان على الكره من ورع قلبه ورعاية أبيه لا يلتقى باله
كثيراً لغير علوم اللسان وفنون الأدب . فهو يحفظ الأشعار ويتصيد الشوارد
ويصوغ القريض وينشئ الرسائل ، وتسير له شهرة فى الأزهريين بذكاء القرينة
وروعة الأسلوب فيقربه الأستاذ محمد عبده ، ويرسم له الطريقة المثلى إلى الغاية من
الأدب والحياة . ثم يستفيد المنفلوطى من قربه إلى الإمام صائته بسعد باشا زغول ،
ومن زلفاء لدى هذين العظميين نفوقه لدى صاحب (المؤيد) ، وهؤلاء الثلاثة كانوا

أقوى العناصر في تكوين المنفلوطى الأديب بعد استعداد فطرته وإرشاد والده .
وفي أثناء طلبه في الأزهر نسب إليه أنه هجا الخديو عباس حلمى الثانى بقصيدة
نشرها في إحدى الصحف الأسبوعية لحكم عليه من أجلها بالحبس وقضى في السجن
مدة العقوبة . ولما قبض الله الإمام إلى رحمته جزع المنفلوطى فيه على رجائه وسنده ،
وارتد مقطوع الرجاء إلى بلده . ثم نعث الله عاثر أمه بعد فترة من الزمن ، فهب
يبتغى في جريدة (المؤيد) الوسيلة والنجاح . ثم صارت إلى سعد باشا وزارة
المعارف فعينه محرراً عربياً لها . ولما تحول إلى وزارة الحقانية (الممدل) حوله معه
وولاه فيها مثل هذا المنصب . ثم انتقل الحُكم إلى غير حزبه فنقل من عمله ،
حتى إذا قام البرلمان عينه سعد باشا فى وظيفة كتابية بمجلس النواب ظل فيها حتى
توفاه الله وهو فى العقد الخامس من عمره .

أهم صفاته

كان المنفلوطى قطعة موسيقية فى ظاهره وباطنه ؛ فهو مؤلف الخلق ، متلائم
الدوق ، متناسق الفكر ، متسق الأسلوب ، منسجم الزى ، لا تلاح فى قوله
ولا فى فعله شذوذ العبقرية ولا نشوز الغدامة . كان صحيح الفهم فى بطاء ، سليم
الفكر فى جهد ، دقيق الحس فى سكون ، هبوب اللسان فى تحفظ . وهذه الخلال
تظهر صاحبها للناس فى مظهر العبق الجاهل ، فهو لذلك كان يتقى المجالس وابتجنب
الجدل ويكره الخطابة : ثم هو إلى ذلك رقيق القلب عف الضمير سليم الصدر
صحيح العقيدة نفاع اليمدوم زرع العقل والفضل والهوى بين أسرته ووطنيته وإنسانيته .

أسلوبه وأدبه

كان المنفلوطى أديباً موهوباً ، حظ الطبع فى أدبه أكثر من حظ الصنعة ؛
لأن الصنعة لا تخلق أدباً مبتكراً ولا أديباً ممتازاً ولا طريقة مستقلة . وكان الشعر
الهنئ على عهده لوناً حائلاً من أدب القاضى الفاضل ، أو أثر أمانتلان بن خلدون ؛

ولكنك لا تستطيع أن تقول إن أسلوبه كان مضروباً على أحد القالبين ، إنما كان أسلوب المنفلوطى فى عصره كأسلوب ابن خلدون فى عصره ، بديعاً أنشأه الطبع القوى على غير مثال

عالج المنفلوطى الأقصوصة أول الناس وبلغ فى إجادتها شأواً ما كان ينتظر من نشأة كنشأته فى جيل كجيله . وسر الذبوع فى أدب المنفلوطى أنه ظهر على فترة من الأدب اللباب ، وفاجأ الناس بهذا القصص الرائع الذى يصف الألم ويمثل العيوب فى أسلوب ظلى وبيان عذب وسياق مطرد ولفظ مختار . أما صفة الخلود فيه فيمنع من تحققها أسران : ضعف الأداة وضيق الثقافة . أما ضعف الأداة فلأن المنفلوطى لم يكن واسع العلم بلغته ولا قوى البصر بأدبها . لذلك تجدى فى تعبيره الخطأ والفضول ووضع اللفظ فى غير موضعه . وأما ضيق الثقافة فلأنه لم يتوفر على تحصيل علوم الشرق ، ولم يتصل اتصالاً مباشراً بعلوم الغرب . لذلك تلمح فى تفكيره السطحية والسذاجة والإحالة . وجملة القول أن المنفلوطى فى النثر كان كالبارودى فى الشعر : كلاهما أحيا وجدد ، ونهج وعبد ، ونقل الأسلوب من حال إلى حال .

مؤلفاته ومترجماته

له كتاب (النظرات) فى ثلاثة أجزاء جمع فيه ما نشره فى المؤيد من الفصول فى النقد والاجتماع والوصف والقصص . وكتاب (العبرات) وهو مجموعة من الأقاصيص المنقولة والموضوعة . ثم (مختارات المنفلوطى) من أشعار المتقدمين ومقالاتهم . وقد ترجم له بعض أصدقائه عن الفرنسية : تحت ظلال الزيزفون (مجدولين) لأفونس كار ، وبول وفرجينى (الفضيلة) لبرناردى سان بيير ، وسيرانو دبرجراك (الشاعر) لأدمون رستان ، فصاغها بأسلوبه البليغ الرصين صياغة حرة لم يتقيد فيها بالأصل ، فأضافت إلى ثراء الأدب العربى ثروة ، وكانت للفن القصصى الحديث قوة وقدوة .

عمودج من ثمره

الغنى والفقير

مررت ليلة أمس برجل بأس ، فرأيتُه واضعاً يده على بطنه كأنما يشكو
ألماً ، فرثيت لحاله ، وسألته ماله ، فشكا إلى ألم الجوع ، ففتأته عنه ببعض ما قدرت
عليه ، ثم تركته وذهبت إلى صديق لي من أرباب الثراء والنعمة فأدهشني أنى
رأيتُه واضعاً يده على بطنه ، وأنه يشكو من الألم ما يشكو ذلك البائس الفقير ،
فسألته عما به ، فشكا إلى البطنة ، فقلت « يا للعجب ! لو أعطى ذلك الغنى ذلك
الفقير ما فضل عن حاجته من الطعام ماشكا واحد منهما سقماً ولا ألماً . لقد كان
جديراً به أن يتناول من الطعام ما يشبع جوعته ويطنى غلته ؛ ولكنه كان محبباً
لنفسه مغالياً بها فضم إلى مائدته ما اختلسه من صحفة الفقير ، فعاقبه الله على
قسوته بالبطنة ؛ حتى لا يهني للظالم ظلمه ، ولا يطيب له عيشه ، وهكذا يصدق
المثل القائل . « بطنة الغنى انتقام لجوع الفقير » .

ماضنت السماء بمائها ، ولا شحت الأرض بنباتها ، ولكن حسد القوى
الضعيف عليهما فزواهما عنه واحتجتهما دونه ، فأصبح فقيراً معدماً ساكياً متظاماً ،
غرمائه المياسير الأغنياء ، لا الأرض والسماء .

ما أظلم الآقوياء من الإنسان ، وما أقسى قلوبهم ! ينام أحدهم ملء جفنيه
على فراشه الوثير ولا يقلقه في مضجعه أنه يسمع أنين جاره ، وهو يرعد برداً وقرأ ؛
ويجلس أمام مائدة حاكلة بصنوف الطعام ، قديده وشوائه ، حلوه وحامضه ،
ولا ينفص عليه شهواته علمه أن بين أقربائه وذوى رحمه من تتوائب أحشائه
شوقاً إلى فترات تلك المائدة ، ويسيل لعابه تلهفياً على فضلاتها ؛ بل إن بينهم
من لا تخالط الرحمة قلبه ، ولا يعقد الحياء لسانه ، فيظل يسرد على مسمع الفقير
أحاديث نعمته ، وربما استعان به على عد ما تشتمل عليه خزائنه من الذهب ،
وصناديقه من الجواهر ، وغرفه من الأثاث والرياش ، ليكسر قلبه وينفص عليه
عيشه ، ويبغض إليه حياته ؛ وكأنه يقول في كل كلمة من كلماته وحركة

من حركاته : « أنا سعيد لأني غني . وأنت شقي لأنك فقير » .

لا أستطيع أن أتصور أن الإنسان إنسان حتى أراه محسناً ، لأني لأعتمد فضلاً صحيحاً بين الإنسان والحيوان إلا الإحسان . وإني أرى الناس ثلاثة : رجل يحسن إلى غيره ليتخذ إحسانه إليه سبيلاً إلى الإحسان إلى نفسه ، وهو المستبد الجبار الذي لا يفهم من الإحسان إلا أنه يستعبد الإنسان . ورجل يحسن إلى نفسه ، ولا يحسن إلى غيره ، وهذا الشره الذي لو علم أن الدم السائل يستحيل إلى ذهب جامد لذبح في سبيله الناس جميعاً ، ورجل لا يحسن إلى نفسه ولا إلى غيره ، وهذا البخيل الأحمق الذي يجيع بطنه ليشبع صندوقه .

أما الرابع الذي يحسن إلى غيره ويحسن إلى نفسه فلا أعلم له مكاناً ، ولا أجد إليه سبيلاً ، وأحسب أنه هو الذي كان يفتش عنه الفيلسوف اليوناني ديوجين الكلابي حينما سئل ما يصنع بمصباحه وكان يدور به في بياض النهار فقال : « أفتش عن إنسان » .

عبد العزيز شاويش

المتوفى سنة ١٩٢٩ م

نشأته وهباته

ولد عبد العزيز بن خليل شاويش في الاسكندرية من أسرة مغربية الأصل تشتغل بالتجارة . ثم تعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن في أحد الكتاتيب ، ثم طلب علوم الدين والعربية في جامع الشيخ بالاسكندرية فشد شيئاً منها أهله إلى أن يفد إلى القاهرة ويدخل الجامع الأزهر . وكان أذكيا الأزهرين يومئذ يعدون أنفسهم إلى الدخول في (دار العلوم) لأنها كانت أقصر الطرق إلى التعليم والحمامة ، وأنجع الوسائل إلى التجدد والرفاهية ، فدخلها الشيخ عبد العزيز ، واشتهر بين لداته بالجد والاستقامة ، والغيرة على الدين والكرامة .

ولما نال إجازتها تولى التدريس في مدرسة الناصرية رداً من الدهر ، ثم اختير في بعثة إلى إنجلترا ليتخصص في التربية والآداب ، فتعلم اللغة الإنجليزية واطلع منها على الآداب الأوربية فازداد علمه واكتمل بيانه وتنوعت ثقافته . ثم رجع إلى مصر فعين مفتشاً بوزارة المعارف . وعاد ثانية إلى إنجلترا ليعلم اللغة العربية في جامعة (أكسفورد) ثم انتهى أمره إلى أن يعود إلى مصر ويرجع إلى التفتيش وكان بينه وبين زميله المرحوم عاطف بركات منافسة في الطلب وفي الوظيفة ؛ وكان بين عاطف بركات وبين وزير المعارف وهو يومئذ سعد باشا زغلول قرابة واشجعة ، فظن الشيخ عبد العزيز أن لهذه القرابة أراً في تقديم منافسه عليه فاستقال من العمل في وزارة المعارف سنة ١٩٠٨ وانضوى إلى لواء الحزب الوطني . ثم أصبح بعد موت الزعيم مصطفى باشا كامل رئيساً لتحرير (اللواء) . ثم جرّت عليه صراحته في التحرير وشجاعته في الحق وحماسته في السياسة ، متاعب صكثيرة منها الحكم عليه بالحبس ثلاثة أشهر في جريمة من جرائم الرأي . فلما خلوا سبيله رحل إلى أربيا . وشبت الحرب العالمية الأولى فشق عليه الرجوع فظل هناك يقاسى مكاره القرية من فراق الأهل وإلحاح الفقر وخذلان الصديق ، حتى وقفت رحا الحرب فعاد إلى وطنه مضبضع الآمال خائر القوى ، فتجهمت له بعض الوجوه ، وانقبضت عنه أكثر الأيدي ، وحاول أن يعود إلى السياسة من طريق البرلمان فلم يفلح ، فأنصرف إلى اكتساب الرزق من ناحية الصحافة حتى أدركته رعاية الملك فؤاد فعين مراقباً للتعليم الأولى في وزارة المعارف ؛ فاضطلع بأعباء هذا المنصب المرهق بضع سنين . ثم أصابته علة القلب فتوفاه الله في يوم الجمعة الخامس والعشرين من شهر يناير من سنة ١٩٣٩ .

أمه رقم

كان رحمه الله جميل السمات حسن الشارة متواضع النفس حلوا الحديث لطيف الروح شديد الحياء ندى الراحة ، جريئاً في الدفاع عن دينه ، شجاعاً في الأيداد

عن وطنه ، صريحاً في الإبانة عن رأيه . سباقاً إلى كريم الساعى ، فشارك في كثير من الأعمال الخيرية كتأسيس جمعية المواسة الإسلامية بالإسكندرية ، وإنشاء المدرسة الإعدادية الثانوية بالقاهرة . وقد كان في طبعه حدة تظهر على قلمه وألسانه إذا أودى في كرامته أو وطنيته أو عقيدته .

أسلوبه

كان أسلوبه خطابياً يؤثر بالعاطفة أكثر مما يؤثر بالمنطق . وكان يجري فيه مجرى الأسلوب المنسوب إلى الإمام على في نهج البلاغة . وهومن الكتاب القلائل الذين اطلعوا على آدب القرنجة وتأثروا بها . وكانوا وسطاً بين المذهبين القديم والحديث . كان من علماء العربية وفقهاء الدين وأعلام الصحافة فعالج الموضوعات الدينية والسياسية بالأسلوب الجزل والصنعة المقبولة ، إلا أنه كان كأكثر معاصريه قليل العناية باختيار اللفظة المناسبة والاقتصار على الجملة الدالة .

مؤلفاته

من مؤلفاته التي نعرفها كتاب (غنية المؤدين) في التربية العلمية والعملية ؛ وكتاب (الإسلام دين الفطرة) في الدفاع عن الدين وبيان بعض أحكامه . وكتاب (أسرار القرآن) فسرفيه بعض آى الذكر الحكيم تفسيراً ملائماً لروح العصر .

موضوع من نشره

قال في فاتحة مقالاته في جريدة اللواء يوم استقلال من وزارة المعارف :
« بعونك اللهم قد استدبرت حياة زادها الجبن وخور العزيمة ، ومطيتها الدهان والتلبيس . في أسواقها الناققة تشتري نفيسات الفوس ، بزوف للفوس ، وتباع الدمم والسراير بالابتسام وهز الرموس . وبيمينك اللهم أستقبل فاتحة الحياة الجديدة ، حياة الصراحة في القول ، حياة الجهر بالرأى ، حياة الإرشاد

العام ، حياة الاستماتة في سبيل الدفاع عن البلاد العزيزة . أستقبل هذه الحياة بعد أن قضيت في سابقها ثمانى حجج ، بلغت فيها ذلك المنصب الذى كنت فيه ما بين محسود عليه ومرجو فيه . أستقبل هذه الحياة المحفوفة بالمخاطر ، منبرياً في ميدانها ، فإلى الصدر ، وإما إلى القبر . موقفاً بما أعد الله لعباده العاملين الخالصين ، من الظفر والفتح المبين » .

ومن مقاله بعنوان « مدرسو اللغة العربية للمصريون في بلاد الإنجليز » :
« نصح إلى المستر دنلوب أيام سافرت إلى أكسفورد ، أن أقتدى بما أراه من الأخلاق الفاضلة في تلك الأمة العظيمة ، فإذا جرى ؟ ذهبت إلى تلك الديار فوجدت الناس متمسكين بدينهم فزادوني تمسكا بدينى . رأيتهم شديدي الحرص على لقبهم فزادوني حرصاً على لغتى . أبصرتهم يتفانون في الدفاع عن بلادهم ويحرمون على الأجانب الاستيلاء على بعض شئونهم أو التصرف في أموالهم ورقابهم فأخذت أحاسنهم في هذه البلاد السيئة الحظ . بالاحتلال وأشياعه . رأيتهم يحبون الصراحة ، ولا يخشون معتبة ، ولا يتهيبون متعبة ، مادام الحق لهم فأخذت أحاسنهم في تلك الفضائل التى نصح بها إلى عميدهم بنظارة المعارف العمومية ! أبصرتهم يحبون العمل ويكرهون الكسل ، ويحضون على الفضيلة ، فعدت إلى بلادى ، ثم صرت أشتغل بهمة لا تعرف الملل ولا الانقطاع ، فكان حقاً على الإنجليز أن يرفعوا عقيرتهم ، ويقوموا خطباؤهم وشعراؤهم بالإفاضة والإسهاب في مدح من نجح في تقليدهم ومحاكاتهم في فضائلهم ، ممن يرحلون إلى بلادهم من المصريين ! » .



الأدباء

ناصريف اليازجى

١٨٠٠ - ١٨٧١ م

نشأته وحياته

ولد ناصريف بن عبدالله اليازجى بكفر شيا من قرى لبنان ونشأ فى بيت فضل وعلم وأدب ، وبدأ يتعلم الهجاء على أحد القساوسة ، ومبادئ الطب على أبيه ، وصبت نفسه إلى الآداب فطفق يطلها ويحصلها ، والكتب يومئذ نادرة وتجارها بائرة ومطلبها بعيد . فكان إذا وقع فى يده مخطوط حفظه أو نسخه أو لخصه ، حتى غزرت مادته ، وكلت آلته ، وبلغ حظه من المنثور والمنظوم ، فاستكتبه الأمير بشير الشهابى وهو فى أوج عزه فكتب له ولزمه اثنتى عشرة سنة حتى أخرج من بلاده سنة ١٨٤٠ ، فنزل الشيخ بأهله إلى بيروت وانقطع إلى المطالعة والتأليف والتدريس ومراسلة الأدباء ومساجلة الشعراء حتى مئى فى أعقاب عمره بفالج نصفى عطل شطره الأيسر . ثم فجع فى بكر أولاده الشيخ حبيب ، فضعضمت هذه الفاجعة قواه وهدت ركنه ولم يعيش بعده إلا يسيراً .

نثره وسنمه

ترسم الشيخ خطوات الحريرى وانتهج نهجه ، فأولع بالبديع ، وافتن فى الصنائة ، وكلف بالغيرب . وعالج المقامات فأنشأ منها ستين مقامة أجاد فيها التقليد وأتقن الاحتذاء وبلغ من الحلية اللفظية انفاية . وأعجب بالمتنبى فى الشعر كما أعجب بالحريرى فى النثر ، ولكن تقليده لأبى الطيب كان أضعف ، وتخالفه

عن مجاراته كان أظهر . فجاء شعره على طول معالجته له وقوة طبعه فيه أشبه بشعر
الحريري وأضرابه ، وبخاصة تلك القصائد التي تكلف فيها التاريخ الشعري ، فقد
غالى في ذلك وأسرف حتى كان يضمن البيتين ثمانية وعشرين تاريخاً أو ينظم
القصيدة فيلتزم في كل شطرة من شطراتها تاريخاً كقصيدته في تهنئة إبراهيم باشا
بفتح عكاء ، أو ينظم القصيدة كلها من الحروف المهمة كقوله :

حول در حل ورد هل له للحر ورد

على أن له قصائد تهيب عليك من خلال أبياتها نفحات أبي الطيب فيجزل
لفظها ويقوى أسلوبها وتفيض بالمعاني المبتكرة والحكم البالغة والأمثال السائرة .

علمهم ومؤلفاتهم

آثار اليازجي تدل على مادة غزيرة في اللغة ، واطلاع واسع في الأدب ،
وإتقان عجيب لعلوم اللسان . فله كتاب مجمع البحرين وهو مجموع مقاماته الستين
التي قلدها الحريري . وله (الجمان) (وجوف الفرا) وها أرجوزتان أولاهما
في الصرف وأخراهما في النحو ، و (فصل الخطاب) وهو مختصر في النحو والصرف ،
(وعقد الجمان) في علم البيان ، (ونقطة الدائرة) في العروض والقوافي ، (وقطب
الصناعة) في المنطق . ثم دواوين شعره وهي (نفحة الريحان) و (فاكهة الندماء
في مراسلة الأدباء) و (ثالث القمرين) . وأكثر كتبه مؤلف هي نمط مدرسي
ولا تزال تدرس في معظم المدارس اللبنانية المسيحية .

نموذج من كلامه

قال من قصيدة يمدح بها أسعد باشا قائد جيش البلاد العربية :

بساء العلى بين القنا والبوارق على صهوات الخيل تحت البوارق
ولله سرّ في العباد وإبنا قليل محل السر بين الخلائق
يقلب هذا الدهر أحوالنا كما تقلب فينا لا حقاً إثر سابق

ولولا اختيار الدولة ابن سريرها لما اعتمدته في المعاني الدقائق
كريم تولى الأمر يصلح أمره كفتق تولته أنامل رائق
أقام السرايا ينفر الموج خيلها بكل لواء فوق لبنان خافق
يحدث أهل الغرب في كل ليلة مما فعلت غاراته في المشارق
فيعجب من أفعاله كل عاقل ويثنى على أفضاله كل ناطق
تضيق بحار الشعر عنه وتستحي يبهر لها في بحر كفية غارق

أحمد فارس الشدياق

١٨٠٤ - ١٨٨٧ م

نسأته وحياته

ولد هذا الكتاب اللغوي في عشقوت من أعمال لبنان من أسرة مارونية. ثم دخل مدرسة عين ورقة فتلقى مبادئ القراءة، وشدا شيئاً من اللغة والنحو على أخيه أسعد. وبدأ يقرض الشعر وهو في العاشرة من عمره. وصغت نفسه منذ طفولتها إلى حفظ المفردات والمترادفات فحصل منها قسطاً وفيراً ظهر أثره بعد في خطبه وكتبه. وحدث أن أخاه أسعد وهو وليه وصفه ترك مذهب والديه واعتقد المذهب الإنجيلي فاضطهدته عشيرته وكهنته حتى مات مقهوراً في محبسه. فشق ذلك على فارس فخرج مغاضباً إلى مصر تحت حماية المرسلين الأمريكيين ورعايتهم، ف قضى بها حقبة من الدهر بين تعلم وتعليم. ثم بعث به الأمريكان سنة ١٨٣٤ إلى مالطة ليصحح ماخرجه مطبعتهم فيها. وأرسلت في طلبه وهو هناك جمعية التوراة بلندن ليحضر ترجمتها العربية فرحل إليها وأقام بلندن ما أقام ثم انصرف عنها إلى باريس، وكان يزورها يومئذ أحمد باشا باي تونس فاتصل به الشدياق ومدحه ففتق لديه، وظاهر الأمير نعمه عليه، حتى قال الشاعر: «ما كنت

أحسب أن الدهر ترك للشعر سوقاً ينفق فيها « ثم اعتقد الإسلام وهو في تونس وسعى نفسه أحمد . وظل يكتب في الرائد التونسي ويتقلب في نعمة الباي ، وفضله يظهر وذكره بذيغ حتى طلبته الصدارة العظمى فرحل إلى الأستانة وأنشأ جريدة « الجوائب » وأودع فيها من فنون النثر وعيون الشعر وضرور السياسة ما رواه لسان الحمد ، وتناقلته بُردُ الشرق والغرب . وكان في سياسة الشرق مرجعاً وحجة . فسعى إليه المجد والثراء ، وخطب وده الأمراء والعلماء ، وكافأته الدولة العلية بالألقاب والأوسمة . ثم تخلى عن إدارة الجوائب لولده سليم وهو في أعقاب عمره ، فما زالت تصدر عن براعة ولباقة وقوة حتى عطلت سنة ١٨٨٤ على أثر الحوادث السودانية . ثم ورد الشدياق ، حصر وقد تنفس به العمر وخذ وجهه السكبر ، فأحسن المصريون وأميرهم لقاءه ووفادته ، وأكرموا مثواه وإقامته ، ثم ارتد إلى الأستانة فوافته بها منيته .

نُمره وشعره

كان الشدياق متضلماً من فنون الأدب ، متصرفاً في فنون الإنشاء من هزل ومجون ووعظ وأدب وسياسة . حافظاً لمفردات اللسان ، بصيراً بمذاهب البيان ، يحميد النظم والنثر . وكان أسلوبه منسجم التراكيب ، متساق المعاني ، موفور الازدواج ، شديد الإطناب ، كثير الاستطراد ، ظاهر المبالغة . أما شعره فأدنى رتبة وأقل جودة وأضعف ابتكاراً من نثره . فهو في النثر مجدد وفي النظم مقلد وفي كليهما بالنسبة إلى أهل عصره سابق مجيد .

مؤلفاته

له غير الفصول التي نشرتها الجوائب في ثلاث وعشرين سنة كتب قيمة تدل على سعة اطلاعه وطول باعه . وأشهرها :
كتاب (سر الليال في انقلب والإبدال) وهو كتاب لغوي تحليلي يشتمل

على سرد الأفعال المتداولة والأسماء المستعملة واستدراك ما فات صاحب القاموس من لفظ أو مثل أو إيضاح عبارة أو تنسيق مادة . وقد طبع بالآستانة سنة ١٢٨٤ هـ ثم كتاب (الساق على الساق فيما هو الفاريق) . والفاريق كلمة نحتها من فارس الشدياق وأطلقها على نفسه . أنشأ هذا الكتاب الضعيف أثناء سياحته في أوروبا فوصف فيه أسفاره وأخباره وما كابدته في صدر حياته ، وندد برجال الكنيسة أخذاً منهم بثأر أخيه . ثم أورد الألفاظ المترادفة في كل موضع على حدة كأصناف المأكول والمشروب والمشوم والحلى والجواهر ، وذلك أجل ما في الكتاب . وقد يؤخذ على المؤلف جرأته على الأدب وتطرفه في المجون واستعماله من الألفاظ ما لا يصدر عن مثله ، ولا يليق بفضله .

ثم كتاب (الجاسوس على القاموس) جمع فيه المآخذ التي أخذها على قاموس الفيروز آبادي . ثم (كشف الخبيصا عن أوروبا) وهو وصف شامل لسياحته في البلاد الأوروبية . و (الواسطة في أحوال مالطة) وهو وصف لهذه الجزيرة أراضيها وأهلها وحاضرها وماضيها .

نموذج من كرامه

من الناس من يبالغ في مدح وطنه ، ونحن إليه حنينه إلى سكنه ، فيصف مروجه ورياضه ، وبروجه وحياضه ، ووهاده وجباله ، وتلاعته وتلاله ، وربوعه ودياره ، ونباته وأشجاره ، وبقوله ونماره ، ودوحه وأطيابه ، وطيب هوائه ، ولذته مائه ، ويزعم أن فصوله كلها كالربيع حسناً ، وأن جميع أقطاره تتدفق بركة ويمنا ، وأن شهراً فيه خير من ألف عام في غيره ، وأن كل بلد مستمد من خيره ، ومحتاج إلى ميره ، ثم يزفر زفير الهائم الخيران ، ويصرخ صراخ الوهلان : ألا إن حب الوطن من الإيمان . لقد جبت السهول والحزون ، وركبت الدلول والأمون ، وطوفت في الأمصار ، وجولت في الأقطار ؛ وضربت في مناكب الأرض مستقصياً ، واختبرت أحوال من عليها مستفتياً ؛ فلم أجد عيشاً هنيئاً إلا في بلادى . هى البلاد

التي تنزلت بها الشعراء ، فقال فيها فلان أبيتاً ، وقال فيها فلان قصيدة غراء ،
واسم ما قيل في جداولها ونواعيرها ، وبلايلها وعصافيرها ، وخائلها وأزاهيرها ،
وصروحها وقصورها ، ومصانمها ودورها ، وظبائنها ومراتمها ، وزكاتها ومواقمها ،
وفى أريج آفاقها ، وبهيج أشفاقها ، ونضرة حدائقها ، وبهجة شقائقها ، فإذا
قلت له : كيف جارك الأذى ؟ لعله كان لك عوناً وخذناً ! قال : ويلى إنه
شرّ جار ، وهو على البلاد عار وشنار . فكيف جاره الذي يليه ؟ عسى أنه
من توائفه وتصافيه ! قال ويلى إنه شر من أخيه . فكيف أهل الحارة طراً ؟
قال : ويلى إنهم كانوا كلهم على شراً ، ولم أجد منهم إلا ضرراً . فكيف
أهل المدن والأمصار ؟ قال : ويلى إنهم أولوغبن وغش وتغريب وإخفار ،
ما تعامل منهم من أحد إلا ويمنيك بالكمد والنكد والخسار . هذه حالة
سكان البلاد ، الحاضر منهم والباد ، فلان كثرت من السؤال ، ولا يحظرن
ببالك غير هذه الحال . فإن شئت قلت له . ولكن كيف اشتملت بلادكم
على تلك المحاسن ، وأهلها على هذه المساوىء الشوائن ؟ قال : إن أهلها الأولين
كانوا من الخيرين ، فخرثوها وزرعوها ، وعمروها وأمرعوها ، ثم فسد الزمان
فجاءت خلفاتهم فاسدة ، لكن بقيت تلك المحاسن فيها فائدة . ولكن
مامعنى الزمان ؟ وهو لم يكن صالحاً قط منذ خلق الإنسان ، والتواريخ على ذلك
شاهدة ، ونصوصها عليه متساندة متعاضدة . ثم فكيف فسدت الناس وأنت
بقيت من بينهم صالحاً ، ترى كل من سواك طالحاً ، ولو كنت من الصالحين ،
لما رأيت في غيرك خلقاً يشين . فإنما ينظر في عيوب الناس من كان
أسوأ منهم حالاً .

ومن يك ذا فمٍ مرثٍ مريضٍ يجد مرثاً به الماء الزلالا
كذلك قال الشاعر الحكيم : فما أنت في طعنك على جنسك إلا ملهم .
وإن امرأ يحسب جميع أهل بلاده دونه ، لجدير بأن يشيعوا فتونه ويذيعوا جنونه .

بطرس البستاني

١٨١٦ — ١٨٨٣ م

نسأته وهياته

ولد العالم الضليع واللغوى المحقق بطرس بن بولس البستاني المارونى بقرية من قرى لبنان تسمى الدبية على عهد الأمير بشير. ثم أدخل مدرسة عين ورقة فلبث فيها عشر سنين تعلم فى أنثائها العربية والسريانية واللاتينية والإيطالية ، وتفق فى الفلسفة واللاهوت والفقہ ، وتبحر فى التاريخ والجغرافية والحساب ؛ ووقع فى نفسه أن يخدم الكنيسة ، ولكن بدا له فأحجم وانصرف إلى التعليم . ثم وفد إلى بيروت واتصل بدعاة المذهب الإنجيلي من الأمريكان فدرس على بعض أساتذتهم الانجليزية والعبرية واليونانية وبعض العلوم الحديثة ، ثم دخل فى محلّتهم ودعا بدعوتهم وساعدهم على ترجمة التوراة . ثم أنشأ فى سنة ١٨٦٣ مدرسة عالية سماها (المدرسة الوطنية) نالت بحسن إدارته وعظيم عنايته شهرة مستفيضة ، فتقاطر إليها الناس من الشام ومصر والآستانة واليونان والعراق . ثم تخلى عن رياستها لابنه سليم البستاني وتفرغ هو للمطالعة والكتابة والتأليف ، ففرغ فى عام ١٧٦٩ من تأليف معجمه المحيط . وفى سنة ١٨٨٠ أنشأ مجلة علمية أدبية سياسية دعاها الجنان وعهد بإدارتها وكتابتها إلى ابنه سليم ؛ ثم عززها بعد بصحيفة اللجنة وجريدة الجنيّة . وشرع بعد ذلك فى وضع (دائرة المعارف) وهو عمل خطير يُعجز الفرد وينوء بالجماعة فى قبيل كقبيله وجيل كجيله . ولكن حذقه لأشهر اللغات ، واعتصامه بالصبر والثبات ، ذللا له العقاب وسهلا عليه الصعاب ، فأصدر منها ستة مجلدات . ونزل به موت الفجاءة وهو يعمل فى السابع فقام به من بعده بنوه وفقد الشرق بموته ركنا من أركان نهضته وعلما من أعلام هداة .

علمهم وفضدهم

نبغ البستاني في عصر فشت فيه الجهالة وغشى الناس الظلام فحمل المصباح وأثار الطريق ، ونصب نفسه لهداية والدعاية فألف الكتب ، وأصدر الصحف ، وأنشأ المدارس ، وملاً حياته النافعة بجليل الآثار وخطير الأعمال ، وفي ذلك دليل على نفس عبقرية وعزيمة فتيية وإرادة قوية . فمن تلك الآثار الخالدة : محيط المحيط ، وهو معجم لغوى على النمط الحديث استوعب فيه قاموس الفيروزابادى وصحاح الجوهري ورتبه على حروف المعجم باعتبار الحرف الأول من الثلاثى المجرد ، وجمع فيه كثيراً من الكلمات العامية وما يقابلها من اللغة الفصيحة ، وكشف عن أصول كثيرة من الكلمات الأعجمية التي لم تعرف من قبل ، ووضع طائفة من المصطلحات للعلوم الحديثة . وقد استخرج منه لطلاب المدارس مختصراً سماه قطر المحيط . ومنها دائرة المعارف ، وقد أصدر منها كما علمت ستة مجلدات وأتم ابنه سليم السابع والثامن وقضى نحبه في التاسع ، فأتمه بنوه الباقون بمعونة ابن عمهم سليمان البستاني مترجم الألباظة ، ثم وقف عملهم عند ذلك . فلما وفد إلى القاهرة سليمان البستاني أراد أن يتم هذا العمل الجليل فأصدر هو ورجلان من بنى عمومته الجزأين العاشر والحادى عشر ، ثم حال نقص الأداة دون التمام .

وللبستاني غير هذين الأثرين العظيمين كشف الحجاب في علم الحساب ، ومفتاح المصباح في الصّرف والنحو ، وعدد عديد من المقالات والرسائل .



إبراهيم اليازجي

١٨٤٧ - ١٩٠٦ م

نشأته ومبائه

وُلد العلامة اللغوي الناقد الكاتب الشيخ إبراهيم بن ناصيف اليازجي ببيروت عام ١٨٤٧ م في بيت معمور بالفضل ، مشهور بالأدب ، وتلقى العلم عن أبيه الشيخ ناصيف عميد الأسرة اليازجية . ثم عكف على كتب اللغة والأدب ، فأتقن علوم اللسان ، وعرف مطارح الإساءة والإحسان ، وحفظ كثيراً من جيد المنثور والمنظوم . ثم قام بتدريس اللغة العربية في المدرسة البطريركية . حتى إذا قام الآباء اليسوعيون على ترجمة التوراة منافسة للترجمة الأمريكية التي قام بها المرسلون الأمريكيون عهدوا إليه بضبط ألفاظها وتنقيح عباراتها فقضى في هذا العمل تسع سنين كان في أثناءها يعالج النظم والنثر والبحث والنقد ، وينشر ما يريد من ذلك في المجلات التي شارك في تحريرها كالمصباح والطبيب في بيروت . ثم هاجر إلى القاهرة في عام ١٨٩٤ م ، وأنشأ مجلة البيان سنة ١٨٩٧ مع الدكتور بشاره زلزل . ثم استقل بمجلة أخرى دعاها (الضياء) وظل يصدرها إلى أن انتقل إلى دار القرار سنة ١٩٠٦ .

أدبه وعلمه

كان الشيخ إبراهيم علياً بأسرار العربية ، عارفاً بمفرداتها وفرائدها ، حافظاً لنوادرها وشواردها ، واقفاً على صحيحها وفاسدها . فكان يتعقب الكتاب والشعراء في مجلتيه البيان والضياء ، يدلهم على الخطأ ويرشدهم إلى الصواب . وكثيراً ما كان يحتدم الجدل بينه في الضياء وبين الشنقيطي في مصباح الشرق ، لتحرير لفظة ، أو تصحيح رواية ، أو تنقيح نص : وبفضل هذا التعقب شعر

الأدباء بمراقبة النقد فأخذوا أنفسهم بالتدقيق والتروية والمراجعة . واستفاد المعلمون بما أحصاه من الأخطاء الشائعة في لغة الصحف والكتب ، فأشاعوا تصويبها في مؤلفات الأساتذة وكراسات التلاميذ . ورأى اليازجى محصول المنشئين والصحفيين من اللغة قليلا فاختر لهم طائفة من التعابير البليغة المأثورة في كتاب سماه (نجمة الرائد في المترادف والمتوارد) كجامع ما أحصاه من الأغاليط المتداولة على ألسنة الأدباء في كتاب سماه (لغة الجرائد) والشيخ إبراهيم بمثل ذلك طوبل الباع في الصناعتين ، له شعر جزل محكم ، ونثر مطبوع رائع .

نموذج من كلامه

كتب يعزى بعض أصدقائه :

من علم أن القضاء واقع ، وأن الأعمار رهائن المصارع ، فلم يصحب دهره على غرة ، ولم يفتر من الأقدار بفترة ؛ لم تسكبر عليه الرزية إذا اغتالت ، ولم يطمئن إلى السلامة وإن طال ، فإن للدهر رقدة وهبة ، وإن الليالي كمنة ووثبة . ومثلك من أدرك مبادئ الأمور ومصايرها ، وعرف موارد الحياة ومصادرها ، وإنما الموت طور من أطوار الوجود ، وآخر أعمال الحياة في الوجود . ولا أزيدك علما بالسكون وشرائعه ؛ والكائن وطبائعه ، إنما هي ذكرى لمن نجأ الرزء فشغله ، وحل بساحته القضاء فأذهله . وحسبي من التعزية علمي بما عندك من موارد العلم المتاح ، ومن التأسية ما تعلمه من حال مخاطبك وهو سائل الجراح . وما أخلقني بأن أقول : إن رزءك هذا قد زادني شجنا على أشجاني ، ونسأ ما تماثل من فرحة أحزاني . ولسكني قد صيرني الدهر إلى حال ، لا تعمل فيها حال ، ولا أبالي معها بسلم ولا قتال ، فكأنما إياي عنى أبو الطيب حيث قال :

رماني الدهر بالأرزاء حتى فؤادي في غشاء من نبال
فصرت إذا أمابتي سهام تكسرت النصال على النصال

حمزة فتح الله

١٨٤٩ - ١٩١٨ م

نشأته ومبانيه

ولد الأستاذ اللغوي الشيخ حمزة فتح الله بالاسكندرية عام ١٨٤٩ ونشأ بها نشأة الأوساط ، حفظ القرآن ودرس العلوم الشرعية واللسانية ، ثم عزم الرحلة إلى تونس فلبث فيها بضع سنين حرر في أثنائها جريدة الرائد التونسي . ثم عاد إلى الأسكندرية واتصل بالخدوي توفيق ، فأوحى إليه أن يحرر جريدة الاعتدال عام الثورة العرابية زياداً عن عرشه وتأييداً لسياسته ، فما حال عليها الحول .

وفي سنة ١٨٨٦ مثل الحكومة المصرية في مؤتمر المستشرقين الذي انعقد في فيينا كما مثلها مرة أخرى في هذا المؤتمر نفسه حين اجتمع في استكهولم سنة ١٨٨٩ . ثم رأى أن يزاوّل التعليم بعد الصحافة فعين سنة ١٨٨٨ مدرساً بمدرسة الألسن فدار العلوم . ثم انتقل إلى التفتيش فكث به إلى أن أحيل على المعاش سنة ١٩١٢ م فعكف على البحث والقراءة حتى وافاه أجله في إبريل من سنة ١٩١٨ م وقد كف بصره .

أهم أقرانه وعلمه

كان رحمه الله سليم الصدر ، كريم الخلق ، غيوراً على اللغة ، ولوعاً بالأدب مُعْرِياً بالبحث ، فسرت هذه الصفات إلى أكثر تلاميذه ، فرفعوا شأن اللغة ، وأحيوا موات الأدب . ألف كتاب (المواهب الفتحية في علوم اللغة العربية) أثناء تدريسه بدار العلوم . ثم كانت له اليد الطولى في تنقيح كتب الدراسة بالمعارف . عالج النظم على طريقة المتقدمين ، والنثر على طريقة المتأخرين ، فكان وسطاً في الحالين ، كما يتضح لك ذلك من هذين النموذجين :

نموذج من كلامه

خير ما أثر عنه من الشعر قصيدة أنشدها في مؤتمر المستشرقين يقول
في مطلعها :

حمد السرى يا أخى العود والنباب أنساك وعناء إغباب وإخباب
ومنها في الحكم :

ومن يرد نيل مجد وهو في دعة فقد بنى من صفاة درّ أحلاب
والمرء في موطن كالدر في صدف والتبر في معدن والنبع في غاب
والسيف مثل العصا إن كان معتمداً وزامر الحى لا يحظى بإطراب
وأزهد الناس في علم وصاحبه أدنى الأجرة من أهل وأحباب
وكتب إلى السيد عبد الحميد البكرى معترفاً :

مولاي : أما الشوق إلى رؤيتك فشديد ، وسل فؤادك عن صديق حميم ،
وود صميم ، وخلة لا يزيد بها تعاقب الملوّين ، وتألّق النّيرين ، إلا ونوقاف العرا ،
وإحكاماً في البناء ، ونماء في الغراس ، وتشبيهاً في الدعائم . ولا يظنن سيدي أن
عدم ازديارى ساحته الشريفة ، واجتلائي طلعتة المنيفة ، لتقاعس أو تقصير ، فإن
لني في ذلك معذرة اقتضت التأخير . والسيد أطال الله بقاءه أجدر من قبل معذرة
صديقه ، وأغضى عن ريث استدعته الضرورة . وبعد فرجأني من مقامكم السامى
ألا تكون معذرتي هذه عائناً لكم عن زيارتي ، فكلم منة طوقتمونيها ، ولكم
فيها فلل البداءة وعلى دوام الشكران والسلام .



الخطابة والخطباء

ظلت الخطابة في أول هذا العصر على ما كانت عليه في آخر العصر العباسي لا تعتمدى الجوامع والبئع ، ولا يقوم بها إلا فئة جاهلة ناقلة . فلما دعا داعى الثورة العراقية ظهرت الخطابة السياسية على السفة زعمائها ، وأشهرهم السيد عبد الله نديم والشيخ محمد عبده وأديب إسحق والقانى . ثم مرّ عليها كثير من الوعاظ والأدباء وأقاموا الجماع الأسبوعية للخطابة فى الأخلاق والدين والاجتماع والسياسة ولكن الخطابة لم تجل عنها أعقاب العلة المزممة إلا فى عهد الزعيم الوطنى الكبير مصطفى باشا كامل المتوفى سنة ١٩٠٨ م ، فقد كانت له أمضى سلاح فى جهاده . وأقوى معين فى إيقاظ بلاده . ومنذ قيامه بالدعوة الوطنية، ونهوضه بالحركة الاستقلالية، أخذ شبابنا ولا سيما الحامين يتدربون عليها حتى نبغ منهم الآن طائفة صالحة . ولعل الشرق لم يشهد فى عصر من عصوره خطيباً حافل القريحة ، قوى المعارضة ، جهورى الصوت ، قبل المغفور له سعد باشا زغلول . وإنا ننتوقع للخطابة فى عهد نظامنا الدستورى رقيماً سريعاً ؛ فإن الحرية السياسية ، والمنافسات الحزبية ، والمناقشات البرلمانية ، من أبلغ العوامل أثراً فى رقى الخطابة . ولولاها ما كان ديمستين فى اليونان ، ولا شيشرون فى الرومان ، ولا على فى العرب .

عبد الله نديم

المتوفى سنة ١٨٩٦ م

نساءته وحياته

ولد السيد عبد الله بن مصباح بن إبراهيم فى الاسكندرية ، ونشأ بها نشأة الأوساط فتعلم مبادئ القراءة والكتابة وحفظ القرآن فى الكتاب وهو يومئذ

المدرسة الأولى لأبناء الشعب . ولما أيفع دخل معهد الاسكندرية في جامع الشيخ فأدرك قسطاً موفوراً من علوم الدين واللسان . وطمى ميله الأدبي على ميوله الأخرى لفظ الأشعار وروى الأخبار وعالج النظم والنثر . ثم داخل العلماء وطارح الأدباء حتى شغله ذلك عن المكوف على الدرس . وأعجبه طلب الرزق عن متابعة الطلب في المعهد فانصرف عنه إلى تعلم فن البرق (التلغراف) فتعلمه وتكسب عن طريقه حيناً من الدهر في (تلغرافات الحكومة) ، ثم فصل عن هذا العمل فتعاطى التجارة في مدينة المنصورة فلم تربح تجارتها ولم يسلم رأس ماله ، فعاد إلى الاسكندرية وكان أولو الفضل قد أسسوا في ذلك الحين جمعية إسلامية خيرية لإنشاء المدارس للبنين والبنات فشارك النديم في هذا العمل وتولى نظارة المدرسة الأولى لهذه الجمعية . وأمدته الحكومة بالمكان والمال على ألا تكون مقصورة على المسلمين ؛ ثم جعلها الخديو توفيق تحت رعايته . وكانت هذه الجمعية من الحاربي السياسية والاجتماعية يجتمع فيها الناس ليلا ليسهبوا الخطب في مختلف الشؤون من أمثال عبدالله نديم ، وأحمد سمير ، وأديب إسحق ، وإبراهيم اللقاني .

ثم ألف السيد عبدالله رواية تمثيلية عنوانها (مصر وطالع التوفيق) مثابها طلاب هذه المدرسة ، كان مغزها الأسي على تقهقر مصر وتحكم الأجنبي بها . ثم أخذت آراء الأفغانى تهفو بالنفوس وتعصف بالراءوس ، فشنغل النديم عن الجمعية والمدرسة وأنشأ جريدة (التنكيت والتبكيكيت) وهي أسبوعية كانت تلبس الجند ثوب الهزل . ثم استبدل بها (الطائف) فكانت بوقاً من أبواق الثورة العراقية ، وميداناً من ميادين الحركة الوطنية . وكان هو خطيب الثورة الصارم اللسان الجريء الجنان القوي الأثر . ولما خبت نارها وقبض مشعلوها اختفى عبدالله نديم عشر سنين قضاها متنسكراً في كل زى ، متنقلاً في كل بلد ، حتى قبض عليه فحبس أياماً وعفا عنه الخديو على أن يخرج من مصر إلى حيث شاء . فأقام في فلسطين حقيباً من الزمن عاد بعدها إلى القاهرة مطلق السراح ، فأنشأ بها مجلة أدبية سماها (الأستاذ) انتشرت في مختلف البيئات والجهات انتشاراً عجيماً أقض مضاجع

الحكومة فنفته مرة أخرى من البلاد . فرحل إلى الأستانة ونفق عند السلطان
فعين مفتشاً للطبوعات ، في الباب العالي وظل في منصبه إلى أن قبضه الله إليه .

أهواره ومواهب

كان السيد عبد الله نديم خطيباً موهوباً ذلق اللسان ، فصيح العبارة ،
حاضر البديهة ، سريع النكتة ، شديد التمسك ، عاضه الله من قلة العلم وضيق
الاطلاع سلامة الطبع في الأدب وسماحة القريحة في الكتابة وغزارة البحر
في الخطابة . ثم تقلبت به الأحوال السياسية والاجتماعية فاتصلت أسبابه برجال
الحكم ، وطال اختلاطه بقيادة الشعب ، وكثر اضطرابه في مختلف الأرض .
وتخالط طبقات الناس فبلا أخلاقهم وسير أهواءهم . وكان لذلك كله أثر بالغ
في علمه بمخبات الضمائر ، ومقتضيات الأحوال ، وأخذ به بأعنة الكلام بصرفه
في أي معنى شاء ، حتى قال فيه السيد جمال الدين الأفغاني : « مارأيت طول
حياتي مثل النديم في توقد الذهن وصفاء القريحة وشدة العارضة ووضوح الدليل
ووضع الألفاظ وضعاً محكما بإزاء معانيها إذا خطب أو كتب » .

نموذج من كلامه

قال من رسالة له عهد فيها أن يقتبس الفاصلة الثانية من القرآن :

لا حول ولا قوة إلا بالله ، اشتبه المراقب باللاه ، واستبدل الحلو بالمر ، وقدم
الريق على الحر ، وبيع الدر بالخزف والخز بالخشف ، وأظهر كل لثيم كبره ، إن
في ذلك لعبرة . سمعاً سمعاً ، فالوشاة إن سعوا لا يعلوا ، ويحبون أن يمدوا بما
لم يفعلوا ، فكيف تشترون منهم القار في صفة العنبر ، وقد بدت البغضاء من
أفواههم وما تخفي صدورهم أكبر . عجيب لهم وقد دخلوا دارنا وهم عنها
معرضون . فلما أحسوا بأسنا إذا هم منها يركضون . وأنت يا عزيز العليا ، ووحيد
الدنيا ، قد بينت لك فعلهم ، فيما رحمة من الله لنت لهم . ولكنهم ظمعوها في عميم
طورك ، ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك .

مصطفى كامل

١٨٧٤ — ١٩٠٨

نشأته وحياته



ولد زعيم النهضة المصرية بموقف الروح الوطنية ، مصطفى كامل بالقاهرة سنة ١٨٧٤م في بيت اشتهر بكرم الأصل وعفة النفس وصحة الدين ، ثم تلقى شروسه الابتدائية والثانوية في المدارس المصرية ، ثم دخل مدرسة الحقوق فنال إجازتها وسنه لم تتجاوز التاسعة عشرة . وكان في أثناء الطلب قد اشتهر

بين الطلاب والكتاب بقوته في الكتابة وقدرته على الخطابة ، فنشر كثيراً من المقالات السياسية في صحيفتي الأهرام والمؤيد ، وأصدر مجلة أدبية شهرية سماها (مجلة المدرسة) أشرفت فيها نفسه الكريمة إشراق النفس الزعيمة ، فتهافت على ضوئه طلاب المدارس العليا يؤيدون دعوته ويرددون كلمته ويترنمون خطاه . ولما نال شهادة الحقوق لم يتجه إلى العمل في القضاء ولا في المحاماة ، وإنما توجه إلى خدمه وطنه من طريق السياسة والصحافة ، فسافر إلى أوربا مسرراً يدعو إلى مصر بالكتابة في صحفها والخطابة في محافلها . وداخل رجال السياسة في فرنسا وإنجلترا يستمد منهم التوجيه والعون ، ومن هؤلاء أمه الروحية السيدة جولميت آدم الفرنسية التي يقول لها في بعض رسائله : « إنني لا أزال صغيراً ، ولسكن لي أملاً كبيراً . أريد أن أوقف في مصر الشيخة مصر الفتاة . هم يقولون إن وطني لا وجود له ، وأنا

أقول إنه موجود بدليل ما أشعر له في نفسي من الحب الشديد الذى سيتغلب على كل حب سواه .

ثم أنشأ (الواء) فى ثلاث نسخ : بالعربية والإنجليزية والفرنسية ، فدافع بها عن بلاده ، وجاهد فى سبيل حريتها حق جهاده ، حتى أدرك ، هو فى طرارة الشباب زعامة الأمة وثقة العرش ورضا الخلافة وخصومة المحتل . وكان فى مقدوره إذا شاء أن يستغل هذه القوى العظيمة فى سبيل الثراء والحكم ، ولكنه زهد فى ذلك كله زهادة الحكيم ، فعاش للمبدأ والفكرة ، ومات للقذوة والعبرة . ولما بلغ هذا الجهاد المتصل وهذا الجهد المرهق من جسده الفاحل ألف (الحزب الوطنى) ليحمل عنه الأمانة ويبلغ بعده الرسالة ؛ واسكن المنية لم تمهله بعد ذلك إلا أياماً فاخترته رضى الله عنه وهو دون السابعة والثلاثين من عمره .

مصطفى كامل الخطيب

كان مصطفى كامل خطيباً طلق البديهة ، رائق المنطق . ندى الصوت ، عذب النبرة ، أنيق اللهجة ، لا يتكأ ولا ياجن ولا يتاعثم . وكان كاتياً حلو اللفظ رقيق الأسلوب ، قوى الروح ، صادق الفكرة ، نبيل الغرض ، وبهذه المزايا الموهوبة والمكسوبة ، استطاع أن يحيى الموات ، ويجمع الشتات ، وينعش خمود الشعب بالآمال المطمعة ، ويقارع طغيان المحتل بالحجج الملزمة .

نموذج من خطبه

قال من خطبة له ألقاها بالإسكندرية فى ٣٢ أكتوبر من سنة ١٩٠٦ :

بلادى ا بلادى الك حبى وفؤادى ، لك حياتى ووجودى ، لك دى ونفسى ا لك عقلى واسانى ، لك لى وجنانى ، فأنت أنت الحياة ، ولا حياة إلا بك يا مصر ا يقول الجاهل والفقراء فى الإدراك إنى متهور فى حبها ! وهل يستطيع مصرى ألا يتهور فى حب مصر ؟ إنه مهما أحبها ، فلا يبلغ الدرجة التى يدعو إليها جمالها وجلالها وتاريخها والعظمة اللانقة بها .

ألا أيها اللأمون ! انظروها وتأملوها ، وطوفوها ، واقرأوا صحف ماضيها ،
واسألوا الزائرين لها من أطراف الأرض : هل خلق الله وطناً أعلى مقاماً ،
وأسمى شأناً ، وأجمل طبيعة ، وأجل آثاراً ، وأغنى تربة ، وأصفى سماء ،
وأعذب ماء ، وأدعى للحب والشغف من هذا الوطن العزيز ؟

اسألوا العالم كله يجيبكم بصوت واحد : إن مصر جنة الدنيا ، وإن شعبها
الذي يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب إذا أعزها ، وأكبرها جناية عليها وعلى
نفسه إذا تسامح في حقها ، وسلم أزمتهما للأجنبي :

إني لو لم أولد مصرياً لوددت أن أكون مصرياً !

سعد زغلول

المقوفى سنة ١٩٢٧ م

نشأته وحياته



ولد سعد زغلول في (إبيانة) من
أعمال مديرية الغربية وتلقى في كتاب
القرية مبادئ الثقافة العامة وأولها
حفظ القرآن الكريم : ثم أرسله أبوه
إلى الأزهر فدرس علوم الدين واللغة
والمنطق ثم صار له في الجدل والمناظرة
شهرة . وأصل بالسيد جمال الدين
الأفغانى حين هبط مصر فلزمه وأخذ
عنه وتأثر به وكان سعد بقطرته مجبولاً
على مناصرة الحق ومجاهدة الباطل
ومحاربة النقص . عين بعد أن ترك

الأزهر محرراً في الوقائع المصرية مع أستاذه الإمام فكان يكتب في الاستبداد

والشورى والأخلاق ، وينتقد الأحكام التي كانت تصدرها يومئذ (المجالس المملعة) ثم عين ناظراً لقلم قضايا الجيزة ، وكان حكمه حكم القاضى الجزئى فنزل الحق من عدله وعقله فى حى أمين . ثم أصغى لقضية الحق فى الثورة العرابية ففصل من وظيفته وسجن فى (الضبطية) سبعة أشهر . ولما أطلق من سجنه زاول المحاماة ، ولم يكن يشترط فى مزاولتها حينئذ إلا أداء امتحان فى المحكمة فكان أول محام أقرته المحاكم الأهلية فى مصر .

ثم أختير نائب قاض فى محكمة الاستئناف . ويومئذ درس الفرنسية ونال إجازة الحقوق ، فبرع القضاة الأوربيين بالذهن الفواض والدرس المحيط والاستنباط الدقيق والحكم الموفق . وفى سنة ١٩٠٦ م عين ناظراً للمعارف العمومية وكانت العلوم كلها تدرس فى اللغة الإنجليزية فجعلها تدرس فى اللغة العربية ، وكان من ذلك أن ترجمت العلوم وألفت الكتب واتعمشت الثقافة . ثم عين ناظراً (للحقانية) فجد فى إصلاح نظم القضاء وتنقيح مواد القوانين لتلائم العصر وتسد الحاجة . ثم أقيل من الوزارة فانتخبته الأمة نائباً عنها فى (الجمعية التشريعية) فسكان بحججه الملزمة وأجوبته المفحمة رهبة الوزراء ودهشة النواب ومنتججه الأفتدة .

ولما أعلنت الهدنة فى الحرب العالمية الأولى ووضعت قضية العالم كله على مكاتب الغالبين فى (فرساي) تحركت مصر للمطالبة بحقها فى تقرير مصيرها ووكلت عنها وفداً يقدم مطالبها ويحقق رغائبها برياسة سعد باشا زغلول ، فنفته السلطة العسكرية الإنجليزية فى نفر من صحبه إلى جزيرة مالطة ، فنار الشعب المصرى ثورته المعروفة سنة ١٩١٩ . وكان من آثارها أن أطلق للمعتقلون وخلق بينهم وبين مؤتمر الصلح فى باريس .

وفى سنة ١٩٢٠ م دعتة الحكومة البريطانية إلى لندن لتفاوضه الرأى فى المطالب المصرية فشخص إليها مع بعض أعضاء الوفد . ولكن المفاوضات لم تسفر عن تحقيق الأمانى القومية فقطعها وعاد إلى مصر فقابلته الأمة بمقابلة الفاتح الظافر . واستأنف

الجهاد على الخطة التي رسمها فأقضى مضاجع الانجليز فنفوه مرة أخرى إلى جزيرة سيشل مع نفر من أصحابه فلبثوا فيها مدة ، ثم نقل هو إلى جبل طارق . وأطاق سراحهم جميعاً بعد ذلك ، فشيخص سعد باشا إلى فرنسا من فوره فظل فيها حيناً ثم ارتد إلى مصر . وكانت الحكومة البريطانية قد أعلنت من جانبها تصريح ٢٨ فبراير من سنة ١٩٢٢ بتخفظاته الأربعة ، فأعلن لملك فؤاد الأول استقلال البلاد وأصدر الدستور في سنة ١٩٢٣ . وأسفر الانتخاب عن فوز الوفد بالكثرة فتولى سعد رئاسة الوزارة في أوائل سنة ١٩٢٤ م ، ثم اعتزلها في السنة نفسها وتولى رئاسة مجلس النواب وظل فيها حتى اختار الله له ما عنده .

مسرته في الخطابة

لم ير التاريخ المصرى ، بل الشرقى ، قبل سعد خطيباً ، بلبل اللسان ، رفيع الصوت ، حافل البديهة ، دامغ الحججة ، أنيق اللهجة رائع البيان ، حسن السميت ، يزوج بين المنطق والشعر ، ويعاقب بين الاقناع والامتعاض ، ويراوح بين الجد والهزل ، ويتصرف في فنون القول تصرف الشاعر برقة الأسلوب ، والفيلسوف بدقة الفكر ، والموسيقى بحال الإيقاع .

ذلك لأن سعداً كان رجل جلا وجدل . تمرس منذ الحداثة بشدائد الحياة ومكاره العمل ، وراض نفسه منذ الدراسة على أدبى اللسان والقلم ، وتنفس به العمر في ميادين الحق . فتكملت عبقريته الموهوبة بالمعرفة ، وتثقلت بالتجربة ، وتقوت بالمرانة ، حتى كان منه ذلك الخطيب المرتجل الذى يهضب^(١) بالكلام أربع ساعات متواليات ، لا يتسكأ ، ولا يتعاجز ، ولا يتسكثر باللغو ، ولا يستعين بالتكرار ، ولا يطرد نشاط السامع . وكان مع ذلك يخطب كما يكتب ، ويكتب كما يخطب ، متوحياً في الأمرين براعة التفكير ، وبلاغة الأداء ، وجمال الأخيلة وابتكار التعابير ، وصحة الأقيسة ، وقوة الأدلة .

(١) فلان يهضب بالشعر أو بالخطب : يسج بها سجاً .

نموذج من نشره

وجه رحمه الله هذا الغداء إلى الأمة المصرية عقب عودته إلى مصر في صدر
سنة ١٩٢١ م :

رحبت الأمة بعودته نوابها ترحيباً فاق كل ترحيب ، وأعجز وصف كل
كاتب وخطيب ، فقد أتى أفرادها من كل ناحية بدافع من ضمائرهم النيرة ،
وباعث من شعورهم الحى ، ترتعش أعصابهم حماسة ، وتحقق قلوبهم بالوطنية
الصادقة ، اللاتفاف حول رمز اتخذه رمز أمانتهم ، وعنوان مبادئهم .
ولقد رأيت آيات الحكمة والكرامة والثبات تتجلى فيما استقبلنا به من مظاهر
الفرح الباهر — تلك الصفات التى تضمن للشعوب تقدمها وللأمم سعادتها .
وشعرت من قبيلات الترحيب التى غمرونا بها بحرارة قلب يخفق فى جسم
شعب عظيم . وقد اشترك الأموات والأحياء فى أن يملوا على المجموع وكل فرد
واجبه نحو الوطن العزيز ، وأجمع الكل على مطالبتنا بمواصلة السير فى الطريق
الذى سنه الحق القويم . وإن الشرف والكرامة والإخلاص لوطننا المقدس لمأ
يوجب علينا طاعة هذا الأمر الكريم ، والتزام هذا الطريق المستقيم .

إننا نشكر البلاد جميعها ، قريتها وبعيدها ، على حلة الثقة التى زينتنا بها ،
ونقسم بالوطن وشعائره المقدسة — ويشاركنا فى هذا القسم العظيم أصحابنا
المخلصون فى جهادهم — إننا لاندخر شيئاً من وسعنا لتحقيق هذه الثقة الغالية ،
ولا نتحول لحظة واحدة عن الغرض الذى وضعناه نصب عيوننا حتى نصل إليه .

إننا لم نعد إلا لنقوى بعزائم مواطنينا الكرام عزائمنا ، ونشدأزرننا باتحادهم
المتين، وتتمتع بمراحم بعد طول هذه الغيبة ، وتبدأ كدمن أن الاشتراك فى المفاوضات
الرسمية التى دعتنا الوزارة الجديدة له متفق مع المبادئ التى وضعتها الأمة ،

وعاهدناها على احترامها ، ومع الخطة التي رسمتها وتعهدنا بمتابعتها .
ولا شيء أحب إلى قلوبنا من أن نخدم بلادنا بالاتفاق مع كل هيئة مستعدة لأن
تسترد بإرادة الأمة ، وعاملة على تحقيق غايتها السامية .

لم يبق علينا إلا أن يعود كل منا إلى عمله ، ويقبل على شأنه ، فالتلميذ إلى
مدرسته ، والفلاح إلى مزرعته ، والصانع إلى مصنعه . والتاجر إلى متجره ،
والسكاتب إلى مكتبه ، والمرأة إلى إدارتها بيتها . وعلى الكل من غنى وفقير
أن يبشر عمله ، مراقباً أعمالها ، واضعاً نصب عينيه المقصد الأسمى ، وأن يعتقد
أنه يزيد بما يعمل في كنوز الوطن كنزاً ، ويضم إلى قواه قوة .

إلى العمل جميعاً ، لنرفع منار الوطن ، ونعلق كلمته ، ولتحي مصر !

الفصل الخامس الشعر

لم ينل الأدب من عناية الأمراء العلويين ما نال العلم . فظل الشعر -- على ندرته -- كما كان في العصر الماضي أسير التقليد والصنعة . ثم أدركته نفحة من الهبة العامة في عهد الخديو اسماعيل ، فتردد ذكره على ألسنة شعرائه وندمائيه ، كالسيد علي أبي النصر^(١) والشيخ علي اللبني^(٢) . وأخذت هذه الحركة تطرد بالإقبال على أمهات كتب الأدب الباقية ، والرجوع إلى منابع الشعر الصافية . وكان البارودي أول من أقام عمود الشعر وجدد دارس القريض ، فترسم خطى الفحول من شعراء العباسيين ، وحاكاه الناشئون من شعراء العصر ، وابتغوا الوسيلة إلى ذلك بحفظ المختار من أشعار الجاهليين والإسلاميين ، فأخصبت القرائح ، وأدركت السلائق ، وصحت الأذواق ، وجرى الشعر جزل اللفظ ، بحكم النسيج ، متين القافية ، مشرق المعاني ، متخففاً من أثقال البديع وأوزار الصنعة . ثم نزع الشعراء إلى الاستقلال والحرية والتجديد بتأثير الحضارة الأوروبية ، وتعلم اللغات الأجنبية ، ونشاط الحركة العلمية . وقصدوا إلى اكتناه النفوس وتحليل الأشخاص ، وتعليل الأشياء ، ومناجاة الطبيعة وحاد أكثرهم عن الأساليب العتيقة كالاستهلال

(١) ولد السيد علي أبو النصر في منقلاوط ، ونبغ في عهد إسماعيل ، ونال المظوة لديه وعاش على جوائزها ، ورافقه في أسفاره . ثم كانت وفاته سنة ١٨٨٠ م وله ديوان شعر مطبوع بمصر .

(٢) كان الشيخ علي اللبني لطيف للمناجزة فدكاً المحاضرة ، خفيف الروح ، فقربه الخديو إسماعيل ، وجعله شاعره ومساحره ومسايره . توفي سنة ١٨٩٦ م دون أن يدون شعره في كتاب .

بمقدمة خارجة عن الموضوع في الغزل أو غيره تحتاج إلى تخلص ؛ ونظروا إلى القصيدة كلها كأنها كائن حتى تساعد أجزاؤه على غرض معين ؛ ونفروا من الأغراض القديمة كالمدح والفخر والهجاء والمجون ، لتغير البيئة واختلاف التربية . وجرت ألسنتهم بالمعاني العامة ، كرثاء مجد منقود ، وانتقاد عيب موجود ، وطلب استقلال منشود . ولكن تقدم الشعر في الجملة كان أبطأ من تقدم النثر ، لأن الثقافة العملية في مصر أسبق من الثقافة الأدبية ، ولأن الشعر لا يزال من ضروب السكال التي لاتعد في وسائل الكسب ولا تدخل في صميم الحياة .

ومما يملأ النفس أسفًا ودهشة أن شعراء اليوم منوا بالجمود والأذهان ثائرة ، وأصيبوا بالإصغاء وأسباب القول وافرة ؛ فالشعب مضطرم الشعور تأثر الفكر يجاهد في سبيل وجوده وحرية بدمه وماله ، وهم قاعدون تحت الجدر ينثاء بون ويتمطون على دفء الشمس تاركين الجيش من غير موسيقى ! اللهم إلا صدحات من أمير الشعراء شوقي وشاعر النيل حافظ ، يرسلانها الحين بعد الحين فتجلو صدأ الخواطر ، وتحيي موات القلوب . فلما توفي الله في سنة ١٩٢٢ حافظًا وشوقي ، وكان أسماهما علمين على الشعر في العهد الأخير ، تسابقت القرائح الشابة إلى ملء مكانيهما ، فنشط في مصر القريض . وتجاوبت الأفراخ النواهي بالأغاريذ ، وشرقت الصحف والمجلات بفيض هذه القرائح ، ولكن أصواتها الناعمة الرخوة لم تملأ الأسماع ولم تطرد الوحشة . ولاحت في لبنان المهـاجرة مواهب النبوغ ودلائل القيادة ؛ ولكن البعد يبدد الصوت القوي ، والاعتراب يوهن الجهد الجميد . والزمن الذي يحص الأشياء فينبغي البهرج الزائف ، ويثبت الحق الصريح ، هو الذي يعرف مكان هذه الجهود ، من عالم الفناء أو من عالم الخلود .

الشعراء

محمود سامى البارودى

المتوفى — ١٩٠٤ م

نشأته ومبائه

هو ابن حسن بك حسنى مدير دنقلة وبربر على عهد محمد على باشا . وُلد بالقاهرة وسُبل في نعمة أبيه . ولم يكديحجو للسابعة حتى فجعه الموت فيه بدنقلة فعُنى بتأديبه بمض أهله : وأدخلوه المدرسة الحربية فتعلم الفنون العسكرية وخرج منها ضابطاً . وكان وهو غرض الحدائة مولعاً بحفظ الشعر وإنشاده ، ولا نعلم مصدر هذا الميل فيه . فأخذ نفسه بدرس دواوين الفحول من شعراء العرب حتى شب فصيح اللسان ، مطبوعاً على الإعراب دون علم بالنحو . ثم فاض ما حفظ على لسانه فانطلق برائق الشعر في الأغراض المختلفة . وسافر إلى الأستانة فدرس اللغتين التركية والفارسية ، وتضلع من آدابهما حتى عدّ من شعرائهما . واتصل هنالك بالخديو إسماعيل عام ١٢٧٩ هـ ، فألحقه بحاشيته وعاد به إلى مصر ، فتدرّج في الرتب الحربية حتى سما سنة ١٢٩٤ هـ إلى (لواء) . ورحل في أثناء ذلك إلى فرنسا وإنجلترا ، فزاد قوة في أدبه ، وخبرة في فنّه . وكان أحد ضباط الحملة المصرية التي ساعدت الدولة العلية أثناء ثورة البلقان وإقربطش ، فأبلى فيها بلاءً حسناً . فلما عاد إلى مصر نقل إلى المناصب الإدارية فوُلّى مديراً للشرقية ثم رئيساً للضبطية . وفي عهد توفيق تقلد نظارة الأوقاف ووصل إلى رتبة (فريق) وتولى نظارة الجهادية قبيل الثورة العربية . ورأس النظاره بعد شريف باشا ، فما لبث غير قليل حتى ثار نفع الثورة واستطار شرر الفتنة . وأكثرُ الناس على أن البارودى أول من فتح بابها وتدرّع جلبابها ، وأسكن شعره يبرئه من ذلك كما سيحىء .

وسكنت الثورة باحتلال الإنجليز وادى النيل وقبض على منيرى الفعقة
وحُكِّم عليهم بالفنّى إلى جزيرة سرنديب (سيلان) وفيهم الشاعر. فلبث في منفاه
سبعة عشر عاماً وبعض عام تعلم في أثنائها اللغة الإنجليزية ، ونظم بدائع
شعره في العربية . ثم وسعته رحمة الخديو عباس الثانى فعفاه سنة ١٣٣٧ هـ
ومنحه التمتع بالحقوق المدنية فلم يعيش بعدها إلا خمس سنين قضاه في سكون
الشيخوخة وادعاً قائماً بين مطالعة الكتب ، ومحادثه الصعب ، ومعالجة
القرىض . وقد كف بصره قبيل موته .

شعره

إن كان لامرئ القيس فضل في تمهيد الشعر وتقصيده ، ولشار في ترقيته
وتجويده ، فللبارودى كل الفضل في إحيائه وتجديده . كان الشعر في عهده
صورة مشوهة من آثار القرون الأخيرة المظلمة ؛ نظمٌ مرتبكٌ ، ونسكاف باد ،
وصناعة فاشية ، ومعنى سقيم . فجلاه في خاطره وصقله على لسانه ، فجاء منضد
اللفظ نقيّ المستشف . تقصص البارودى شعر ابن المعتز وأبى فراس والرضى
والطغرائى وأمثالهم من الفحول ، فارتسم شعرهم على لوح قلبه ، وانتقش في صفحة
ذهنه ؛ وصادف ذلك منه شعوراً فياضاً وذوقاً سليماً ، فاستخرج من مجموع تلك
الأساليب أسلوبه الرائق الفخم . لذلك تحس وأنت تقرأ قصيدة من نظمة أن
أرواح أولئك الفحول تحوم حول روحه ، وتحلق فوق أبياته^(١) .

ما كان البارودى مبتكر معان ولا مبتدع أساليب ، ولكنه كان رائض
فواف وصائغ قرىض . قد كلف بالنعمة ؛ وانصرف إلى الصنعة ، فأثر المعنى
الضئيل في اللفظ الجزل ، على المعنى البليغ في اللفظ الغث ، وقد أجاد وأبدع
في الفخر والحماسة والوصف .

(١) إشارة إلى أن البارودى كثيراً ما يقيم على معانى هؤلاء الشعراء وألفاظهم دون أن
يعبر لكثرة محفوظه .

مؤلفاته

له كتاب (مختارات البارودي) في أربعة أجزاء وهو مجموع ما اختاره الثلاثين شاعراً من شعراء العصر العباسي في أغراض مختلفة . وقد نهج في اختياره طريقتيه في نظمه ، فأثر حسن اللفظ والمعنى ، وحسن اللفظ ، على حسن المعنى وقبح المعنى . وله (ديوان شعر) في جزأين قد طبع في مصر .

تموزج منه شعره

قال في الحماسة والفخر :

ونقع كنج البحر خضت غماره
صبرت له والموت يحمر تارة
فما كنت إلا الليث أنهضه الطوى
صؤول وللأبطال همس من الونى
فما مهجة إلا ورعى ضميرها
وقال يرث زوجته :

ولا معقل إلا المناصل والجرد
وينقل طوراً في العجاج فيسود
وما كنت إلا السيف فارقه الغمد
ضروب وقلب القرن في صدره يعدو
ولا لبة إلا وسيفي لها عقد
وقال يرث زوجته :

لا لوعتي تدع الفؤاد ولا يدي
يادهر فيم جمعني بجليلة
إن كنت لم ترحم ضنای لبُعدها
ومن البلية أن يسام أخو الأمي
هيات بمدك أن تقر جوانحي
ولهي عليك مصاحب لمسيرتي
فإذا انتبهت فأنت أول ذكرتي
وقال من قصيدة أخرى يتشوق :

هل يعود سواد اللمة البالي !
ردواعلى الصبي من عصرى الخالي

من يدُر من بات مسروراً بلذته
يا غضبين علينا هل إلى عِدَّة
أتى بنار الأسى من هجره صالى
غبم فأظلم يوحى بعسد فرقةكم
بالوصل يوم أناغى فيه أقبالى ؟
فاليوم لآرسنى طوعُ القياد ولا
وساء صنعُ الليالى بعد لإجمالى
أبيتُ منفرداً فى رأس شاهقة
قلبى إلى زهرة الدنيا بميال
مثل القطامى فوق المرأب العالى
وقال يخاطب مؤججى الثورة العرابية :

نصحت قومي: قلت الحرب مفعمة
نخائفون وشببوها مكابرة
وربما تاج أمر غير مظنون
تأتى الأمور على ما ليس فى خلد
وكان أولى بقوى لو أطاعونى
حتى إذا لم يعد فى الأمر منزعة
ويخطىء الظن فى بهض الأحابن
أجبت إذ هتفوا باسمى ومن شيمى
وأصبح الشراً مراً غير مكنون
صدق الولاء وتحقيق الأظانين
وقال من قصيدة بعد عودته من المنفى ، وسروره بقصر الجزيرة فتذكر
عهد إسماعيل :

هل بالحى عن سرير الملك من يزع
هذى الجزيرة فانظر هل ترى أحداً
هيئات قد ذهب المتنوع والتبع
أصحت خلاء وكانت قبل منزلة
ينأى به الخوف أو يدنو به الطمع
فلا يجيب يرد القول عن نبأ
للملك منها لو فد العز مرتبع
ولا سمع إذا ناديت يستمع
وضربها :

زالوا فما بكت الدنيا لفرقتهم
والدهر كالبحر لا ينفك ذا كدر
ولا تعطلت الأعياد والجمع
لو كان للمرء فكر فى عواقبه
ولإنما صفوه بين الورى لمع
ما شاب أخلاقه حرص ولا طمع

إسماعيل صبري

١٨٥٤ — ١٩٢٣ هـ

نشأته وحياته

وُلد هذا الشاعر الفنان ودرّج على ضفاف النيل ، وشب في عهد إسماعيل عهد الحضارة والعمارة والآدب ، فادخل المدارس النظامية الحديثة ، وتنقل في مدارجها من (للمبتدیان) إلى (التجهيزية) إلى (مدرسة الإدارة) حتى شارف الثامنة عشرة من عمره . وكانت بواكير النهضة الأدبية قد بدأت في (روضه المدارس) وهي مجلة للطلاب ينشئها صفوة الكتاب في ذلك العهد كرفاعة بك ، والشيخ حسين المرصفي أستاذ البارودي ، وعبد الله فكري ، وصالح مجدي ؛ وكانت تصدر مرتين في الشهر حافلة بمختلف الموضوعات والمنتخبات من نثر ونظم ، فكان صبري يديم النظر فيها ، ويحاول الاقتباس منها والاقتداء بها ، وله من ذات نفسه ملكة قوية تدفعه ، وقريحة سخية ترفده ، وذوق سليم يرشده ، فنظم بعض القصائد تهنئة للتخديو نشرها في هذه المجلة وعمره إذ ذاك ستة عشر عاماً . ثم رحل إلى فرنسا مع البعثة المصرية يستكمل حفظه من العلوم في جامعة «إكس» فنال منها إجازة الحقوق سنة ١٨٧٨ م ، لابس أثناء ذلك الحضارة الأوربية ، وتذوق الآداب الفرنسية ، وصادفت مواهبه الغريزية هناك ريباً من الجمال والعلم والفن فازدادت نمواً وخصباً . فلما رجع إلى مصر انسلت في طريق القضاء فقطع مراحلها واحدة فواحدة حتى أشرف منه على الغاية . فخرج إلى الإدارة فتولى محافظة الاسكندرية ثم نقل منها إلى وكالة الحقانية فشغلها حيناً من الدهر ، ثم نفّض يده جملة من خدمة الحكومة سنة ١٩٠٧ م لبلوغه سن التقاعد . ولزم داره يدارس أصحابه الأدب ويساجلهم القريض ، ويرسل عواطف قلبه وخواطر فكره أنغاماً موقعة على قيثارة شعره . وكانت داره منتدى للشعراء ومثابة للأدباء ،

يفدون إليها للسمر فينشدونہ أشعارهم فينقدها نقد العيرف، ويهذبها تهذيب المعلم، حتى نعتوه بالأستاذية، وأقروا له بالأولية. وظل على هذه الحال إلى أن مُنى بداء القلب، فعالبه بضع سنين ثم صرعه سنة ١٩٢٣ وهو في التاسعة والستين من عمره

شعره

عَدُّنا بالشعراء الوجدانيين ينبغون في زهرة الشباب وربيع العمر حين تكون العواطف مشبوبة، والشاعر مضطربة، والآمال موفورة، والحياة منضورة؛ ولكن صبرى وهو شاعر وجداني محض لم ينبغ إلا وهو آخذ بمخنق الأربعين. فلم تندفق قريحته في صباح كالبارودي، وإنما حفلت على مرور الزمان وطول المرانة وإدمان النظر. لم يكن شعره في الشباب إلا تقايداً لم يُحكّم، وتفكيراً لم ينضج، ومحاولة لم تتم. ولكن الله قد رزقه أذناً موسيقية وذوقاً سليماً^(١) وطبيعة نائمة، فصاغه من الألفاظ المتخيرة. والمعاني المبكرة، وسار وراء البحترى ينشد الحب والموت والجمال والصدافة، ويهزج بتلك المقطوعات الغنائية التي شفت عن روحه، وكشفت عن طبعه، وأحلتها من أنداده محل الزعيم. كان صبرى كما قال مطران أكثر ما ينظم لخطرة تخطر على باله من مثل حادثة يشهدها، أو خبر ذى بال يسمعه، أو كتاب يطالعه. وكان شديد النقد لشعره، كثير التبديل والتحويل فيه، حتى إذا استقام على ما يريده ذوقه السليم من رقة اللفظ وفصاحة الأسلوب أهمله ثم نسيه. وكان يظلم المعنى الذى يعرض له في بيتين عادة إلى أربعة إلى ستة. وقلماً يزيد على هذا القدر إلا حيث يقصد قصيدته وهو نادر.

(١) قال الأستاذ الرامى في مجلة للفتاف: لم يكن في مصر من يحسن ذوق البيان ويميز أقدار الألفاظ بعضها من بعض وألوان دلالتها كالبارودي وصبرى وإبراهيم اللويجى والشيخ محمد عبده رحمهم الله جميعاً، فالبارودي يذوق بالسليقة، وصبرى بالاعاطفة واللويجى بالظرف والشيخ بالبصيرة النفاذة. وذلك شيء ركبته الله في طبيعة صبرى ولم يحصله بالدرس أكثر مما حصله بالحس، ومن أجله كان يفضل البحترى على غيره.

موزج صه شعره

قال في الغزل ويقال إنه في الآنسة (مى) .

يا لواء الحسن ، أحزاب الهوى
فرقتهم في الهوى ناراتهم
إن هذا الحسن كالماء الذي
لا تذودى بمعضنا عن ورده
أنت يم الحسن فيه ازدحت
يقذف الشوق بها في مأج
شدة تمضى وتأتى شدة
ساعف آمال أنضياء الهوى
وتجلى واجعلى قوم الهوى
أقبلى نسـتقبل الدنيا وما
واسفرى ، تلك حلى ما خلقت
واخطرى بين الندامى يخلقوا
وانطقى ، ينثر إذا حدثتنا
وابسمى ، من كان هذا نغرم
لا تخافى شططا من انفس
راضت النخوة من أخلاقنا
فلو امتدت أمانينا إلى
أنت روحانية ، لا تدعى
وازعى عن جسمك الثوب بين
وأرى الدنيا جناحى ملك
وقال في ساعة الوداع :

أبقظوا الفتنة في ظل اللواء
فاجمى الأمر وصونى الأبرياء
فيه الأنفس رى وشفاء
دون بعض ، واعدلى بين الظماء
سفن الآمال يزجيهما الرجاء
بين لجين : عناء وشقاء
تقتفيها شدة ، هل من رجاء
بقبول من سجايك رخاء
تحت عرش الشمس بالحكم سواء
ضمنته من معدات الهناء
لتوارى بلثام أو خبـاء
أن روضاً راح في النادى وجاء
ناثر الدر علينا ما نشاء
يملاً الدنيا ابتساماً وازدهاء
تعثر الصبوة فيها بالحياء
وارتضى آدابنا صدق الولاء
ملك ما كدرت ذاك الصفاء
أن هذا الشكل من طين وماء
للملا تسكوين سكان السماء
خلف تمثال مصوغ من ضياء

أزرى أنت خاذلى ساعة التو ديع ياقلب فى غد أم نصيرى
ويك ! قل لى متى أراك بجبى راضياً عن مكانك المهجور
ساعة البين قطعة أنت قدت المحبين من عذاب السعير
لأتحينى ، روحى الفداء لما حيك غداً من صحيفة المقدور
وقال :

أقصر فؤادى فما الذكري بنافعة ولا بشافعة فى رد ما كانا
سلا الفؤاد الذى شاطرته زمناً حمل الصباة فاحقق وحدك الآننا
وقال :

تمسى تذكرنا الشباب وعهده هيفاء مرهفة القوام فيتذكر
تنب القلوب إلى الرؤوس إذا بدت وتطل من حدق العيون وتنظر
وقال فى الصداقة :

إذا خاننى خِلٍ قديم وعقنى وفوقت يوماً فى مقاتله سهمى
تعرض طيف الود بينى وبينه فكسر سهمى فالتنتيت ولم أرم
وقال :

ياموت خـذما أبقت الـ أيام والساعات منى
بينى وبينك خطوة إن تخطها فرجت عنى
وقال يناجى الله :

يارب أين ترى تقسام جهنم للظالمين غداً وللأشرار
لم يبق عفوك فى السموات العلى والأرض شبراً خالياً للنار
يارب أهلى لفضلك واكفنى شطط العقول وفتنة الأفكار
ومسر الوجود يشف عنك لى أرى غضب اللطيف ورحمة الجبار
يا عالم الأسرار حسبي محنة علمى بأنك عالم الأسرار
أخلق برحمتك التى تسع الورى ألا تضيق بأعظم الأوزار

أحمد شوقي

المتوفى سنة ١٩٣٢ م

نُسأته وحياته



ولد أحمد شوقي بن أحمد شوقي بالقاهرة ونشأ بها . أما أصله فقد سمع أباه « يردده إلى الأكراد فالعرب ويقول إن والده قدم هذه الديار يافعاً يحمل وصاة من أحمد باشا الجزائر إلى والى مصر محمد على باشا فأدخله في معيته ، وظل يتقلب في المناصب السامية حتى أقامه سعيد باشا أميناً للجمارك المصرية^(١) .

ولقد كان أبوه متلافاً فأهلك ماورث عن أبيه فكفلته في المهدي

جدته لأمه وكانت إحدى وصائف القصر في عهد إسماعيل . ولما بلغ الرابعة من عمره ، أدخل في مكتب الشيخ صالح في حى الخنفي . ثم تلقى بعد ذلك دروسه الابتدائية والثانوية وتقدم إلى مدرسة الحقوق في سن باكرة ففضى بها عامين . ثم عدل إلى قسم الترجمة الذى أنشئ فيها ففضى به عامين آخرين نال بعدها شهادتها النهائية . ثم ضممه الخديو توفيق إلى معيته وأشخصه إلى فرنسا على نفقته ليدرس الحقوق والآداب فدرس عامين في (منبلييه) وعامين في باريس . ثم عاد إلى منصبه في المعية الخديوية . وظل يتدرج في المناصب حتى تولى رئاسة

(١) مقدمة الطبعة الأولى لبوان (الشوقيات) .

القلم الأفرنجى فى عهد الخديو عباس الثانى . ونفق لى هذا الأمير حتى كانت شفاعته عند ذوى الحكم لآترى وإشارته لآتحالف . ولما شبت الحرب العالمية الأولى خلعت انجلترا بقوة الاحتلال الخديو عن عرش مصر . ورأى أولو الأمر يومئذ أن يغادر شوقى البلاد ، فأختار برشلونة من أعمال أسبانيا مقراً له ولأسرته ولم يعد إلى مصر إلا بعد أن عاد السلام إلى العالم . ولكن صلته الوثيقة بالنظام القديم ، ومدائح المرورية فى الخديو المنفى ، مازالت توهى بينه وبين القصر أسباب الثقة والتقريب . فانصرف الشاعر بإلهامه وأنغامه إلى الشعب ، يذود عن حوضه ، ويهتف بمجده ، ويعرب عن شعوره ، وينقل عن طبعه ، ويتغنى بجهاده ، حتى حدث له مصر والعرب هذه اليد ، فأقاموا له فى دار الأبرار الملكية مهرجاناً عاماً لتكريمه اشترك فيه رجال مصر وأقطاب الدول العربية برعاية صاحب الجلالة الملك فؤاد الأول . ولم يزل شوقى مهبط الوحي والإلهام ، وموضع الإكبار والإكرام ، حتى انتقل إلى جوار الله فى سنة ١٩٣٣ ، فأقامت له وزارة المعارف وطائفة من أعيان الفضل والأدب ، حفلة تأبين بدار الأبرار الملكية دعت إليها أقطاب العلم والأدب فى الأقطار العربية ورعاها الملك بنائب عنه .

شوقى الشاعر

يكاد النقاد يجمعون على أن شوقى كان تعويضاً عادلاً عن عشرة قرون خلعت من تاريخ العرب بعد المتنبي لم يظهر فيها شاعر موهوب يصل ما انقطع من وحي الشعر ، ويجدد ما اندرس من نهج الأدب . كان شوقى ينقل شعره عن طبع دقيق ، وحس صادق ، وذوق سليم ، وروح قوى ، فيأتى به مطرد السلك محكم السبك لا يشوبه ضعف ولا لنو ولا تجوز ولا قلق . وهو كالمتنبي فى أنه تصرف بين الناس فلاس أولياءهم ، وخالط دماءهم ، حتى عرف كيف يصف طبائعهم ، ويصور منازعهم . وهومثله فى إرسال البيت النادر ، والمثل السائر ، والحكمة العالية ، مستخلصاً ذلك مما

يسوق من معانى المدح أو الوصف أو الرثاء ، دون أن يتوخاه أو يقصد إليه — وهو كذلك مثله في أن بيته يفيض بالمعنى البعيد المبتكر فيضاً يفرق فيه الذهن أحياناً ، فلا يصل إلى قاع ، ولا يرسى إلى ساحل . أما معانيه فكثيرها مخلوق وقليلها مطروق . وأما ألفاظه فأعاط من القول تختلف مادة وصنعاً باختلاف المواقف ، وأكثرها عليه رونق طبعه ، وسمة ظرفه ، وعضوبة روحه . وقد يعنى طبعه أحياناً فيرسل شعره كما يجيء فيأتى بما لا يتفق مع فضله .

وشوقى محافظ في دينه ولغته وفنه ، يكثر التردد لأسماء الأنبياء والخلقاء والكتب المنزلة ، والأماكن المقدسة ، ويؤثر النسيج على منوال الفحول من شعراء بنى العباس ، والنظم في البحور الطويلة . وقلماً ينظم في الأوزان المستعديثة أو ينوع القافية في القصيدة . على أن هذه المحافظة لم تمنعه من تكميل نقص الشعر العربي ، فقد ظل شعرنا إلى عهد غنائياً (Lyrique) يستمدد الشاعر من طبعه ، وينقله عن قلبه ، حتى جاء هو فنظم ما يشبه الشعر القصصي (Epique) في طول النفس ووطنية الموضوع وعمومية الحادث ، كأرجوزته (دول العرب) وقصيدته في (وادي النيل) .

ثم عالج الشعر التمثيلي ، فنظم رواياته المعروفة : مصرع كليوبطرة ، ومجنون ايلي ، وقهيز ، وعلى الكبير ، وعنترة ، والست هدى ، فكان بهذا التجديد الشاعر العربي الكامل . وقد جمع شعره في ديوان يقع في أربعة أجزاء . وله غيره في الشعر كتاب (عطاء الإسلام) وجملة من القصائد للأطفال والأغاني . ولشوقي نثر مسجوع لا يختلف عن الشعر إلا في الوزن ، جمع طائفة كبيرة منه في كتاب سماه (أسواق الذهب) . وله من النثر المرسل قصص منها : لاياس ، وورقة الآس ، ومذكرات بثناءور ، وأميرة الأندلس :

نموذج من شعره

قال من قصيدة يصف فيها دمشق :

أمّنت بالله واستثنيت جنته دمشق روح وجنات وريحان

قال الرفاق وقد هبت خمائلها الأرض دار ، لها (الفيحاء) بستان
جرى وصفق يلقانا بها (بردى) كما تلقاءك دون الخلد رضوان
دخلتها وحواشيتها زمردة والشمس فوق لجين الماء عقيان
والحور في (دمر) أو حول (هاستها) حور كواشف عن ساق وولدان
و (ربوة) الواد في جلاباب راقصة الساق كاسية والنجر عريان
والطير تصدح من خلف العيون بها وللعيون كما للطير ألحان
وأقبلت بالنبات الأرض مختلفاً أفواهه فهو أصباغ وألوان
وقد صنى (بردى) للريح فابتدرت لدى ستور حواشيهن أفغان
ثم اثنت لم يزل عنها البلال ولا جفت من الماء أذبال وأردان

وقال يصف رحلته إلى الأندلس من قسيمة طويلة :

اختلاف النهار والليل ينسى اذكرا لى الصبا وأيام أنسى
وصفا لى ملاوة من شباب صورت من تصورات ومس
عصفت كالصبا اللعوب وصرت سِنة حياوة ولذة خاس
وسلامصر : هل سلا القاب عنها أو أسا جرحه الزمان المؤسى
كلا مرت الليالى عليه رق والعهد فى الليالى تقسى
مستطار إذا البواخر رنت أول الليل أو عوت بسد جرس
أحمرام على بلانه الدو ح حلال للظير من كل جناس
ومنها :

كل دار أحق بالأهل إلا فى خبيث من المذاهب رجس
ومنها :

وطنى لو شغلت بالخلد عنه نازعتنى إليه فى الخلد نفسى
شهد الله لم يغب عن جفونى شخصه ساعة ولم يحل حسى

محمد حافظ إبراهيم

١٨٧٠ — ١٩٣٢ م

نشأته وهياته

ولد محمد حافظ إبراهيم في ديروط من أعمال مديرية أسيوط حوالى سنة ١٨٧٠ إذ كان أبوه إبراهيم فهمي من المهندسين المشرفين على بناء قناطرها. ولما كان عمره سنتين توفي أبوه فقيراً في ديروط فانتقلت به أمه إلى القاهرة فكفله خاله وأدخله (المدرسة الخيرية) فمدرسة المتديان فالمدرسة الخديوية. ثم انتقل خاله إلى طنطا فنقله معه؛ فقضى فيها بضع سنين متبطلاً يزجى فراغه بالقراءة، و يدفع ملاله بالقرىض.

ولم يستطع خاله لسبب ما أن يجلو عنه غمة اليأس وذلة اليتيم، فكان لا يفتأ متبرماً بالعيش، متأففاً بالناس، متجنباً على القدر، لا ينشئ الشعر إلا في ذلك. ثم دفعته الحاجة إلى مكاتب المحامين فتبلغ بالعمل فيها حيناً، حتى أسدفته الفرص فدخل المدرسة الحربية، وخرج منها ضابطاً بالجيش. ثم نقل إلى الشرطة، ثم أعيد إلى الجيش، وأشخص إلى السودان في الحملة المصرية بقيادة كوشنرفيقي هناك زمناً كان لا ينفك فيه متبرماً متمرداً، يلح في العودة إلى مصر. فلما أخفق مساعاه ثار مع فئة من الضباط سنة ١٨٩٩، فحوك وأحيل إلى الاستيداع، ومنه إلى المعاش.

عاد حافظ كما كان يضطرب في الحياة المهمة، لا يستريح لعمل، ولا يستقر على أمر، ولا يتشوف إلى غاية، وإعما يضطرب نهاره من قهوة إلى قهوة، ويتقلب ليله من مجلس إلى مجلس، وبقيء إلى ظل الإمام محمد عبده فينتفع بجاهه ويميش على رفته، ويفشى مع ذلك أبهاء النعمة، يأسرها أهلها بمذب حديثه، وينادهم برقيق شعره. وفي سنة ١٩١١ عينه أحمد حشمت باشا وزير المعارف

يومئذ رئيساً للقسم الأدبي بدار السكتب المصرية ، ثم وكيلاً للدار ، وظل في هذا المنصب حتى خرج إلى التقاعد في صدر سنة ١٩٣٢ وتوفي صيف السنة نفسها .

حافظ الأديب

عاش حافظ بحكم طفولته الشاردة المهمة عيش الكسل والتبطل ، لا يميل إلى علم ، ولا ينشط إلى عمل ، كدأب الناس قديماً من أضراب مسلم بن الوليد ، وأبي نواس ، ممن عاشوا صنائع الملوك ، وحائل عَلى الجوائز ، ووسائل للهو . كان مبدأه الأدبي مبدأ اليوم ، كما كانت حياته المادية حياة الساعة . رأى الآمال تنهافت حيناً من الدهر على أريكة الخديوية في مصر وعرش الخلافة في الآستانة ، فخرى لسانه بالشعر المطبوع ، في مدح عباس ، وتمجيد عبد الحميد . ثم اتصل بالإمام محمد عبده وشيعته من سرارة البلاد ، وشيوخ الأمة ، ولهم يومئذ في الإنجليز رجاء موصول وظن حسن ، فصدرت عنه في هذه الفترة قصائد في رثاء الملكة فكتوريا ، وتنويج الملك إدوارد السابع ، ووداع اللورد كرومر ، عبر بها عن الرأي الأرستقراطي في ذلك الحين . ثم خلس للشعب . فلا بس دهاء ، وخالط زعماءه ، واندفع بقوة الوطنية الدافقة الشابة إلى لواء مصطفى كامل فزج شكواه بشكوى البلاد ، وضرب على أوتار القلوب أناشيد الجهاد ، ونظم أماني الشباب من حبات قلبه ، وترجم أحاديث النفوس ببيان شعره .

عكف منذ شب على دواوين الشعر ، وأجزاء (الأغاني) ينتحلها ويمثلها ويمارود النظر فيها ، حتى بلغ من مختار الرواية ومصطفى الكلام ما لا غاية بعده . ثم قنع من فروع الثقافة الأخرى بنتف من المسائل الأولية ينقلها عن السماع ويأخذها من الصحف إذا ظن أنها تدخل بوجه من الوجوه فيما يعنيه من ابتكار الأسفار وصوغ القريض .

حافظ الشاعر

صياغة حافظ هي موهبته الأولى ومزيبته الظاهرة . وهو في ذلك ثاني الخمسة^(١) الذين تيقظت على دعوتهم نهضة الشعر ، وتجددت على صنعتهم بلاغة القصيد . ولعله انفرد عن هؤلاء جميعاً بالصدق في تعبيره عن هموم قلبه ، وتفسيره لأمانى شعبه ، وتصويره لساوى عصره . أما الروح والموضوع فأصداء منبثقة من الماضى في فردياته ، وآراء مقتبسة من الحاضر في اجتماعياته . كان إذا تهيئ للشعر عمد إلى الآراء التي تختلج حينئذ في النفوس ، وتستفيض في الجامع ، وتردد في الصحف ، فيجملها في باله ، ويديرها في خاطره ، ثم يكون همه بعد ذلك أن يصوغها فيحسن الصوغ ، ويسبكها فيجيد السبك ، وتقرأ بعد ذلك أو تسمع فإذا نطق مطرد وأسلوب سائغ ، وشيء كأنك سمعته من قبل ولكن عليه طابع حافظ ووسمه^(٢)

نموذج من شعره

قال على لسان اللغة العربية تنمى حظها بين أهلها .

| | |
|-------------------------------|-----------------------------|
| رجعت لنفسى فأنهت حصائى | وناديت قومي فاحتسبت حياتى |
| رمونى بعقم فى الشباب وليتنى | عقمت فلم أجزع لقول عدائى |
| ولدت ولما لم أجد لعرائسى | رجالاً وأكفاء وأدت بنائى |
| وسمت كتاب الله لفظاً وغاية | وما ضقت عن آى به وعظماى |
| فككيف أضيق اليوم عن وصف آله | وتنسيق أسماء لمخترعات |
| أنا البحر فى أحشائه الدر كامن | فهل ساءلوا الفواص عن صدقاتى |
| فيا ويحكم أبلى وتبلى محاسنى | ومنكم وإن عز الدواء أساتى |

(١) البارودى وصبرى وشوق وحافظ ومطران .

(٢) راجع ما كتبناه عنه فى وحى الرسالة الجزء الأول وفى أصوله الأدب (شوق وحافظ)

فلا تكلوئي للزمان فإنني
أرى لرجال الغرب عزاً ومنمةً
أتوا أهلهم بالمعجزات تفنناً
ومن خرياته :

أوشك الديك أن يصيح ونفسي
يا غلام ! المدام والسكاس والطا
أطلق الشمس من غياهب هذا الـ
وأذن الصبح أن يلوح لعيني
وادع ندمان خلوتي وانقناسي
واسقنا يا غلام حتى ترانا
خرة قيل إنهم عصروها
وقال من قصيدة (غادة اليابان) :

لا تلم كفي إذا السيف نبيا
رب ساع مبصر في سعيه
مرحباً بالخطب يبلوني إذا
عقني الدهر ولولا أني
إيه يا دنيا اعبسي أو فابسي
أنا لولا أن لي من أمي
أمة قد فت في ساعدها
تمشق الألقاب في غير العلاء
وهي والأحداث نستهدفها
لا تبالي لعب القوم بها
صح مني العزم والدهر أجي
أخطأ التوفيق فيما طلبنا
كانت العلياء فيه السببا
أوثر الحسنى عقلت الأدبا
لا أرى بركك إلا خلب
خاذلا ما بت أشكو النوبا
بفضها الأهل وحب الغربا
وتفسي بالفقوس الرتبـ
تمشق اللهو وتهوى الطربا
أم بها صرف الليالي لعبا

جميل صدق الزهاوى

١٨٦٣ - ١٩٣٦ م

نشأته وحياته

ولد جميل صدق الزهاوى فى يوم الأربعاء الثامن عشر من شهر يونيو سنة ١٨٦٣ م ببغداد لأبوين كرديين كريمين ، ثم نشأ فى أسرة تميزت بالدين والفقہ والأدب . فقد كان أبوه محمد فيضى الزهاوى مقتياً لدار السلام وأخوه فقيهاً من فقهاءها . وكان أخوه - كما حدثنى جميل - لا يتذوق الأدب ، فكان يذوده عن رواية الشعر ، ويصده عن دراسة اللغة ، ويبنى عناده هو ، وتسامح أبيه ، إلا أن يدينم النظر فى الأدب ، ويروض القرينة على القريض . كان هم أخيه وأمل أبيه أن يستقيم على عمود أسرته فىكون صاحب قضاء وفقه ، ولكنه استقام على محتوم طريقته فـ كان صاحب شعر وفلسفة . وكان العراق أيام الزهاوى تركى السلطان سنى الحكومة ، فالتعليم الدنى فيه كان تابعاً فى لغته وطريقته وغايته لسياسة الأجنبي وهواه ؛ فلم يخرج إلا رجال جيش أو رجال إدارة . أما التعليم الدينى فظل فى صحون الجوامع ، عربى اللسان ، حر النزعة ، طليق الفكر ، فتتقف الزهاوى بهذه الثقافة . تنفست على أعصابه الشاعرة أمواج العروبة تسلسها على بغداد البوادية الملهمة . ثم نزع عرق العم والخال من الكردية فجاهد وجالد وغامر . ثم ابتلى وهوى الخامسة والعشرين من عمره بداء فى اللخاع الشوكى لازمه بقية حياته . ورعى بمد ذلك بالشلل فى رجله فبرم واكتأب وتشام . ثم منى فى عصره بنساذ السلطان ، واستطالة الجهل ، وانحلال الخلق ، فدفعته هذه العوامل كلها إلى مواقف المصلحين من الإنذار والنصيحة .

لم يخلد الزهاوى إلى التبطل كأكثر أهل الشعر ، وإنما غامر فى خطير الأمور ، فعين فى بغداد عضواً فى مجلس المعارف ، ثم مديراً للمطبعة الحكومة ، ثم محرراً بالجزيرة

الرسمية ، ثم انتخب عضواً في محكمة الاستئناف . ودعا الخليفة حين نبه ذكره إلى الاستانة فحرك فيها لسان النقد وأقضى مهامها ضامع التجسس ، فانتقض أمره وساء مقامه . ولما أعلن الدستور العثماني عين رئيساً لقسم الفلسفة الإسلامية في (المكتب للملكي) ثم مدرساً للآداب العربية في (دار الفنون) ، ثم عاد إلى بغداد فعين أستاذاً للشريعة في مدرسة الحقوق . ثم انتخب نائباً عن العراق في (مجلس المبعوثان) ، وهو في خلال ذلك كله لا يفتر ليله عن الشعر والقراءة ، ولا يكمل نهاره عن الحديث والكتابة . - حتى غاب الترك في الحرب العالمية الأولى وقام عرش فيصل في العراق فكان الشأن لأصحاب الجيش وأقطاب السياسة أما الزهاوي وأمثاله من رجال الفكر والشعر فآخذوا طريقة هم على الهامش ، اللهم إلا زمناً يسيراً عينه فيه الملك فيصل الأول عضواً بمجلس الأعيان العراقي ، ثم تخلى عنه لجرأة شعره وصراحة رأيه ، فكان لا يفتك شاكياً ذلك الحرمان متحاملاً على نفسه مع انسراق القوى واستحكام العال ، حتى توفاه الله ببغداد في أوائل فبراير من عام ١٩٣٦ .

الزهاوي العالم

كان الزهاوي في صدر شبابه ينظر في العلوم الطبيعية والفلسفة ، ووسيلته إلى ذلك ما تُرجم من المقالات في الكتب والمجلات ، لأنه لم يعرف من اللغات إلا العربية والفارسية والتركية والكردية ، وكما لا اتصل ففكر الإنسان بالثقافة الحديثة . ومع ذلك استبطن دخائل هذه العلوم بعقله النافذ حتى ألف كتاب (الكائنات) في الفلسفة ، وكتاب (الجاذبية وتعايلها) في الطبيعة ذهب فيهما مذهباً خاصاً خالف به أقطاب العلم وجها ذة النظر كقوله : إن علة الجاذبية ليست جذب اللاد للمادة ، وإنما هي دفعها إياها بسبب ما تشعه من الالكترونات وسواء أنهض دليله أم دحض فإنه يدل على النظر الثاقب والفكر المستقل .

الزهاوى الشاعر

الزهاوى شاعر من شعراء الفكرة ، له البصيرة الناقدة ، والفطنة النافذة ، وليس له الأذن التي تمسق ، ولا القرينة التي تصنع . فاللفظ قد لا يختار ، والوزن قد لا يتسق ، والأسلوب قد لا ينسجم ، والسكن الفكرة الحية الجريئة تمج بين الأبيات المتخاذلة مجيج الأمواج المزبدة بين الشواطئ المنهارة : وكان الزهاوى كشوقى حريصاً على متابعة العصر ومسايرة التطور . ومنشأ هذا الحرص فيهما طبع مرن يطلب التجدد ، وحس مرهف يأنف التخلف . ويزيد الزهاوى أن الفخر يزهاه والتهيه يذهب به فيحب الثناء ويبغض النقد ، فهو لفرقة من صفة القدم يسبق الشباب إلى التجديد ، ولنفور من معرفة الجلود يذهب بالرأى إلى التطرف ، ولطمعه في نباهة الذكر يجارى ميول الخاصة ويمارض هوى العامة . ومن ثم كان أكثر شعره تشنيعاً على الاستبداد بمهاجمة أهل الحسك ، ووزارة على الجلود بمحاربة أهل الدين ، وتحقيراً للتأخر بمصادمة مألوف الأمة .

نموذج من شعره

قال من قصيدة بعنوان الجهل والعلم :

| | |
|-------------------------------|--------------------------------|
| يريد أناس فرقة الشعب جهدهم | فلا عطست باليمن تلك المماطس |
| ونحن الألى ما فرق الدين بيننا | وإن كثرت بعض الأوان الدسائس |
| فمشنا وعاشت من عصور كثيرة | جوامعنا فى جنبهن الكنائس |
| ولا يعدم الإنسان طول حياته | صديقاً يواسى أو عدواً يعاكس |
| ولسكننا عشنا جميعين أعصراً | كلانا أخو صدق كلانا مؤانس |
| وإنا سنحجبا والعمائم عندنا | لها حرمة محمودة والقلائس |
| سنحجبا نعم فى وحدة عربية | لها العلم نظام لها العدل سائس |
| وتغرس فى قلب الشبيبة جزاة | على الصدق حباً أن تطيب الغرائس |

نساعداً فيما نحاول دولة
قول لشعري أيها الشعر صل وجل
أغاظك أن الجهل في الناس جاهر
يمارس شعري اليوم إصلاح أمة
ستحميكم يا شعري فأندر حكومة
حكومة عدل مهد الأرض حكمها
وليس لها في المغربين معارض
ومن خطراته :

إن الصراحة تغني
أخو الحجا قبل أن يح
وعند من هو غر
كم جامع لـكنوز
وقد تموت فتاة
لا تجبن فليس الـ
إنا نعيش بعصر
ماليس تغني الرموز
مل الأداة يروز
يجوز ما لا يجوز
يفنى وتبقى الـكنوز
ولا تموت عجوز
جبان شيئاً يجوز
فيه الجسور يفوز

* * *

لقد مشيت بليل
فما بمدت كثيراً
من لي بماء براد
طلبت شيئاً قليلاً
وكم صحبت خليلي
كل الأحبة أعدا
لا خير لي من بلادى
داج بغير دليل
حتى ضللت سبيلي
به أبل غليلي
فلم أفز بالقليل
فكان غير خليلي
نبي عند خطب جليلي
وأسرتني وقبيلي

خاتمة

في الاستشراق والمستشرقين

يراد بالاستشراق اليوم دراسة الغربيين لتاريخ الشرق وأهمه وأماه وأدابه وعلومه وعاداته ومعتقداته وأساطيره ؛ ولكنه في العصور الوسيطة كان يقصد به دراسة العبرية لصلتها بالدين ، ودراسة العربية لعلاقتها بالعلم ؛ إذ بينما كان الشرق من أدناه إلى أقصاه مغموراً بما تشهه مناظر بغداد والقاهرة من أضواء المدينة والعلم ؛ كان الغرب من بحره إلى محيطه يعمه في غياهب من الجهل الكثيف والبربرية الجوح ، وكان حظه من الثقافة يومئذ ما تضمنه حصون الأمراء المتوحشين من المكتب ، وما يعلمه بعض الرهبان للسالكين من قشور العلم . وانقضى القرنان التاسع والعاشر للميلاد وأولئك الأمراء في قصورهم يتبجحون بالأمية ويرتعون في الدماء ، وهؤلاء الرهبان في دورهم يحجون الكتابة من روائع المكتب لينسخوا على صفحاتها الممحوّة كتب الدين . حتى أزال الله الغشاوة عن بعض العميون ، فرأوا من وراء هذا الظلام الداخي بقعة من المغرب تسطع فيها شمس المشرق . فلما تبينوا أن البقعة هي جزء من أسبانيا ، وأن النور قبس من نور بغداد ، استيقظ في نفوسهم طموح السكّال الإنساني ، فطلبوا العلم فلم يجدوه إلا عند العرب .

في سنة ١١٣٠م أنشئت في طليطلة مدرسة للترجمة تولاها الأسقف ريموند ، أخذت تنقل جلائل الأسفار العربية إلى اللاتينية ، وأعانهم على ذلك اليهود ، فبعثت هذه الترجمة في أوروبا النخامة شعوراً أليفاً ، وروحاً طيبة . وتضافرت على هذا المجهود النبيل قواعد أخرى للترجمة طوال القرون الثاني عشر والثالث عشر والرابع عشر ، حتى بلغ ما ترجموه من العربية يومئذ ثلاثمائة كتاب كما أحصاها الدكتور (سكلارك) في كتابه تاريخ الطب العربي ، وأحصاها غيره أربعائة . وكان أكثر ما ترجم

في هذه العهود كتب الرازي وأبي القاسم الزهراوي وابن رشد وابن سينا ، وما نقل إلى العربية من اليونانية لجالينوس وأبقراط وأفلاطون وأرسطو وأقليدس الخ . . وظلت هذه الكتب المنقولة منهاجاً للتعليم في جامعات أوروبا خمسة قرون أو ستة ، واحتفظ بعضها بقوته وقيمتها حتى القرن التاسع عشر .

قال المؤرخ الإنجليزي ملر في كتابه فلسفة التاريخ: «إن مدارس العرب في أسبانيا كانت هي مصادر العلوم ، وكان الطلاب الأوربيون يهرعون إليها من كل قطر يتلقون فيها العلوم الطبيعية والرياضية وما وراء الطبيعة . وكذلك أصبح جنوبي إيطاليا منذ احتله العرب ، واسطة لنقل الثقافة إلى أوروبا . ومن تلك المناهل الراهب (جريوت الفرنسي) ، فإنه بعد أن تقف علوم اللاهوت في (أورباقي) مسقط رأسه جاب عقاب البرانس والوادي الكبير حتى ورد أشبيلية ، فدرس فيها وفي قرطبة الرياضيات والفلك ثلاث سنين . ثم ارتد إلى قومه ينشر فيهم نور الشرق وثقافة العرب فرموه بالسحر والكفر ، ، ولكنه ارتقى إلى سدة البابوية سنة ٩٩٩م باسم سلفستر الثاني . كذلك تخرج على علماء قرطبة (شأنجه) ملك ليون وأستوريا ، وأولع بعض علماء إيطاليا بالعربية ، وعدوها لغة الأدب العالي ، وأوصى قومه الراهب روجر بيبكون الإنجليزي بتعلم اللغة العربية وقال : « إن الله يؤتي الحكمة من يشاء ولم يشأ أن يؤتيها اللاتين ، وإنما آتاها اليهود والإغريق والعرب » .

على أن الاستشراق لم يبق محصوراً في دائرة الانتفاع بعلوم العرب ومدنية الشرق . وإنما خرج عنها إلى أغراض تجارية أو استعمارية أو دينية ، فأقبلت الأمم الأوربية القوية بحكم هذه الدوافع تتنافس في تعرف الشرق وارتياح أقطاره ، وكشف آثاره ، وفتح كنوزه ، وإحياء أدبه ، وطبع كتبه ، وإبراز فنه ، ثم صار الاستشراق فناً قائماً بنفسه ، يطلب به الوقوف على لغات الشرق ميتها وحيها ، والاطلاع المباشر على آدابها وفنونها . وفي سبيل ذلك أسسوا المطابع^(١)

(١) من أول ما طبع في العربية (المجموع المبارك) والتاريخ لابن العميد المعروف بالمسكين ، وكتاب (تاريخ الدول) لابن العبري و (نظم الجواهر) لسعيد بن البطريق ، ثم تارخ أبي الفداء ومقامات المريرى :

وأنشأوا المكتبات^(١) وأنفوا الجمعيات^(٢) وأقاموا المؤتمرات^(٣) وأصدروا
المجلات ، وجمعوا المخطوطات ، ونشروا نفائس الكتب ، وعاقوا عليها الحواشي
وذيلوها بالفهارس المختلفة للأسماء والوضوعات والأمكنة ، ثم كتبوا البحوث
القيمة في تحقيق الألفاظ ، وتحرير الأصول ، وتصحيح الأخطاء ، وكشف المجهول
على الأسلوب العلمي الصحيح ، والمنهاج المنطقي الحديث ، فكانوا في ذلك قدوة
لمعلمي اللغة ومؤرخي الأدب من العرب ، في تحضير المادة ، وتنظيم البحث ،
وتوخي الدقة ، وتجرى الصواب ، وتقصى الفروع .

أشهر المستشرقين

اشتهر من المستشرقين الفرنسيين فبتيه، Veter المتوفى ١٦٦٧ ، وهو طبيب
الدوق دورليان ، نقل إلى الفرنسية تاريخ ابن المسكين ، وتيمورلنك لابن عربشاه ،
وعلم المنطوق ، والأمراض العقلية لابن سينا ، واللامية للطغرائي وهربلوت Herblot

(١) كان في مكتبات أوروبا ، مطلع القرن التاسع عشر ، مائتان وخمسون ألف عمل ،
موزعة في خزائن: لينجراد وباريس وبرلين ولندن ولينيز ومونيخ وفينا وليفن واكسفورد
وأدمبرج ودبلن وكترج والاسكربال ، وميلانو ورومة ، وبرستون الخ .
(٢) هي الجمعيات الآسيوية وأقدمها الجمعية الآسيوية التي أنشئت في بتافيا عاصمة ساوة
سنة ١٧٨١ ثم الجمعية الآسيوية البنغالية التي أسسها السير رليم جونز في كلكتا عام ١٧٨٤
ونشرت مجلته من عدة مجلدات ظهرت فيما بين سنة ١٧٨٨ ، وسنة ١٨٣٦ ، ولها (مجلة
الجمعية الآسيوية للديفالي) صدر عددها الأول سنة ١٨٣٢ : ولاتراله تصدر .
وفي ١٥ من مارس ألفت في لندن جمعية لتشجيع الدراسات الشرقية يرهاها ملكة إنجلترا .
ومن أعضائها النابيين مرجليوث ، وبراون ، وذنس روس ، وتيكسون ، وجب ، وفرمر .
وفي سنة ١٨٢٠ أنشأ المستشرقون الفرنسيون الجمعية الآسيوية تحت رعاية الدوق دورليان
وسلفستر دساي واتخذوا لها مجلة عنوانها (الجريدة الآسيوية) Le Journal Asiatique
نشرت فصولا قيمة في العرب والعربية . وكذلك حذت أمريكا وروسيا والنمسا وإيطاليا
وبالجيك وهولندا والدنمارك وحذو إنجلترا وفرنسا فأنشأوا الجمعيات وأصدروا المجلات ، وتسكانفوا
حيما على إظهار فضائل الإسلام وإعلان مفاخر العربية راجع كتاب (المستشرقون) الأستاذ
صبيب العتيق .

(٣) أقام المستشرقون تسعة عشر مؤتمرا في أمهات مدن الغرب أولها أهم في باريس
سنة ١٨٧٣ ، وآخرها أقيم في باريس سنة ١٩٠٨ ، وكانوا يدعون إلى كل مؤتمر أقطاب
الآداب الشرقية في أقطار العالم يدلون فيها بما أعدوا من البحوث الأدبية والتاريخية والأثرية
فبها ، وكان يعر حظ موفور من شهود هذه المؤتمرات وجهودها .

المتوفى سنة ١٦٩٦ كان أميناً لسر لويس الرابع عشر وأستاذاً للعربية في معهد فرنسا ، ألف (المكتبة الشرقية) وهو معجم جامع لما في الشرق من فلسفة وأدب واجتماع . وسيريو Sédillot . المتوفى ١٨٣٢ كان متخصصاً في علم الفلك عند العرب وقد نشر نبذة في الهندسة لابن الهيثم ١٨٣٤ و (علم الرياضيات وجامع المساويء والغايات) في الآداب الفلكية لأبي الحسن علي . وكوسمين دي برسنال I deparcéval ; المتوفى ١٨٣٥ نقل تاريخ صقلية تحت حكم المسلمين ، ونشر المعلقات السبع وأمثال لقمان . وطبع الجداول الفلكية من الزيج الحاكمي ، ومقامات الحريري ، وترجم الجزء الناقص من ترجمة جلال لألف ليلة وليلة . وسافتر دساسسي المتوفى سنة ١٨٣٨ ، برع في اللغتين العربية والعارسية وتخرج عليه فيها طائفة من أعلام الاستشراق في الغرب . ألف في العربية كتاباً سماه (الأندلس المفيد للطلاب المستفيد) اختار فيه صفوة من المنظوم والمنثور ، وكتب شرحاً جيزاً على مقامات الحريري ، ونشر كلية ودمنة وألفية ابن مالك ورحلة عبد اللطيف البغدادي . ثم ألف ثلاث مذكرات قدمها إلى الجامع عن مصر الإسلامية إلى الاحتلال الفرنسي . ومارسيل : المتوفى سنة ١٨٥٤ كان مترجم الحملة الفرنسية في مصر ، ألف كتاباً في وصف مصر واختار طائفة من الشعر العربي ، وله مقالات قيمة عن ابن ميمون ، وابن سينا ، والضامري ، والقزويني . نشرها في المجلة الآسيوية ، وكثير من المتوفى سنة ١٨٤٧ أخذ العربية عن دساسسي ، وانتخب عضواً في الجمع اللغوي الفرنسي ثم محرراً في المجلة الآسيوية . نقل إلى الفرنسية بعض كتاب السلوك لامة قرظي ، ونشر مقدمة ابن خلدون في ستة أقسام فرنسية عربية . ومنتخبات من أمثال الميداني ، وكتاب الروضتين لابن شامة . وله أبحاث في المجلة الآسيوية عن النبطيين والعباسيين والفاطميين . وكتاب الأغاني ، وذوق الشرقيين في السكتب ، وحياة المسعودي وآثاره . ومن أشهر المستشرقين الألمانيين فريبتاغ المتوفى سنة ١٨٦٦ تلقى العربية عن دساسسي ، وعين أستاذاً لها في كلية بونه . نقل ديوان الحماسة لأبي تمام بشرح التبريزي ، وزبدة الطلب في تاريخ حاب لابن النديم ، وفاكهة الخلفاء لابن

عربشاه . وقد وضع معجماً عربياً لاتينياً في أربعة أجزاء . وهو ستاف فلوجل المتوفى سنة ١٨٧٠ نشر كشف الظنون ، والفهرست لابن الفديم ، ومؤنس الوحيد للثعالي ، وطبقات الحنفية اقطوبغا ، والقرآن . وفلبشر والمتوفى ١٨٨٨ ، ألف في الآداب الشرقية كتباً كثيرة ، ونشر تفسير البيضاوي والمفصل للزنجشري . وفررنايه وسفيلر المتوفى سنة ١٨٩٠ ، نشر طبقات الحفاظ للذهبي ، وسيرة ابن هشام ، ووفيات الأعيان لابن خلكان ، ومعجم البلدان لياقوت . ونلدكي المتوفى سنة ١٩٣١ ألف في الألمانية تاريخ القرآن ، وتاريخ عروة بن الورد ، وبحثاً في الشعر الجاهلي ، وبحثاً في المعلقات السبع وغير ذلك .

ومن اشهر من الإنجليز أدورديوم المتوفى سنة ١٨٧٤ عاش بمصر صدر شبابه ثم وضع كتاباً في وصف مصر ، وكتاباً آخر في عادات المصريين وشمائلهم تُرجم أكثره في مجلة الرسالة وطبع مجموعاً في مطبعتها سنة ١٩٤٩ ، ومعجماً عربياً إنجليزياً ، ثم ترجم ألف ليلة وليلة إلى الإنجليزية . ووليم صوبر المتوفى سنة ١٩٠٥ ومن مؤلفاته حياة النبي ، والتاريخ الإسلامي ، وتاريخ الخلافة ؛ وهي من المراجع المعتمدة في الجامعات الإنجليزية والهندية .

ومن اشهر من الإيطاليين رافير سنطالونا المتوفى سنة ١٩٣١ . ولد في تونس ودرس في رومة ، وكان له بالمدب المالكي والشافعي سلم واسع . عين في سنة ١٩١٠ أستاذاً للفلسفة بالجامعة المصرية ، فألقى بها محاضرات قيمة . وبلغني المتوفى سنة ١٩٣٨ ، وقد دعى في سنة ١٩٠٩ لإلقاء محاضرات في تاريخ أدب اللغة العربية فأفاد بجزته وطريقته كثيراً من الناس . وقد عنى بالمسائل الجغرافية والفلسفية عند العرب . واغناطيوس جويمري المتوفى سنة ١٩٣٥ وقد انتدبته الجامعة المصرية كذلك سنة ١٩٠٨ لتدريس فيها فألقى دروسه باللغة الفصحى . وإذا أردت استقصاء هذا الموضوع فاقراً كتاب (المستشرقين) للأستاذ نجيب العقبي فقد ألم بتاريخ الاستشراق إلماًما ينفع الغلة ويغني عن المزيد .

ذيل

في تفسير ماورد في الكتاب من الألفاظ الغريبة والتراكيب الغامضة

| صفحة | صفحة |
|------|---|
| ٣ | كثف افة : حرزه ورحمته . عرك الخطوب : شدتها وأذاها . النجلة : المذهب والديانة . اللسن : الفصاحة . |
| ٧ | النفربالسكون : الجماعة يتقدمون في الأمر |
| ٩ | القطر : المطر . يسمونها : يرعونها . أخلفت السماء : أطعمت في الغيث ولم تطر . القرابة الواشجة : المشتبكة . الظمينة : الزوجة . البناء بالمرأة : التزوج منها . |
| ١١ | الاستقراء : تقبم الحوادث بالملاحظة لتسكون منها حكما . الأنواء : حم نوء وهو سقوط نجم في الغرب وطلوع نجم بحمالة من ساعته في الشرق كل ثلاثة عشرين يوما ، وكانوا يضيفون أفاعيل الطبيعة من المطر والرياح إلى الساقط منها فيقولون مطرنا بنوء كذا |
| ١٤ | العرم : السدود تبنى في الوادي لحبس الماء خلفها وهي الخزانات . وسيل العرم سيل عظيم هدم عرما كان أهل سأ في اليمن قد بنوه فأغرقهم ومزقهم في البلاد . |
| ١٦ | المدانة : المحاكاة في الحسب والنسب |
| ١٨ | شن : اسم رجل ، وطبقة : اسم امرأة |
| ١٩ | اللحمة : ما نسج عرضا ، والسدى : ماد من خيوط الثوب طولاً : القندح المعلي : أكبر الانصبة في الميسر . الدمار : ما يلزمك حمايته والدفاع عنه . ذات البين : العداوة والبغضاء على رأى والنسب والصدقة على رأى آخر . الأقيال : جمع قيل وهو الملك الصنمير . يشد أزرها : يقويها ويؤيدها والأزر الظهير . الخناصر : العصي . والصفاح : السيوف . النشز : المرتفع من الأرس . حسن الشارة . جميل الهيئة . |
| ٢٠ | صدف عن الدنيا : زهد فيها |

- ٢١ داج : مظلم . وساج : ساكن والأبراج
اثنا عشر برجاً تقابلها الشمس في طريقها
طوال السنة ، للدخول المدخولة على
خلاف القياس وهي المبسوطة
البصائر : جمع بصيرة وهي العلم والخبرة
ورد الماء : اناه لبشرب ، وسدرعنه :
رجع ، ومعناه هنا الموت وعدم الرجوع
منه ، الغابر : المقيم . العملة . الفقر .
أجدكنا منصوب على نزع الباء ، ومعناه
أيجد منكنا هذا ؟ أو منصوب على
المصدر ومعناه مالسكنا ؟ أجد منكنا
هكذا ؟ الكرى : النوم . والصدى :
الصوت والمقار . الحجر . العولة : البكاء
٢٢ الأشلاء : الأعضاء بعد البلى والتفرق :
والصهباء : الحجر . واستهتر في اللهو :
أمن فيه واسترسل . النجمة : طلب
الكلأ في موضعه . الارتباد : البحث
عن المسكان المناسب للاتباع . وهفو
الرأى : عاجله . واكتظم بأدرتنا
اغفر زلتنا ، والبادرة ما يبدو منك
عند الغضب . الوقص : الكسر .
والصفاة : الحجر ، والقضم : كسر
الشيء بأطراف الأسنان . والمضم :
الظلم . القلمس : الفرس المشرف الطويل
القوائم . والمانق السكاهل . والنجاد :
حالة السيف .
٢٣ السابقة : الفرع . وعداء عاندى :
فرس طويل شديد . والنهد : الفرس
الجميل الجسم المشرف . والشطب :
جمع شطبة : وهي طريقة السيف في منته .
الجلقة : جمع جليل وهي النظام من الأبل .
والنيب : حسم ناب وهي الناقة المسنة
٢٤ تمشأ : تسكاف الجشاء وهو إخراج
صوت مع ريح من فم عند الشبع
- صفحة
- « تكرع » .
الحشف : أردأ التمر . راش السهم : أنرق
عليه الريش . الريث : البطء . الحوبة الذئب
٢٥ سدة بيته : خزائه والقائمون عليه .
الحرص : الدهر . والخور : الصنف .
التواكل : أن يتشكل كل على الآخر .
أحدث الدهر : نواتبه . الغرض :
الهدف . تاوره . تتداوله .
٣٠ يزدهيم : يستغفم . عفوا البيهية وفيض
الخطار : ارتجالاً من غير روية المأاد :
المعوج ، أصادى . أداهى وأخاتل .
٣٢ وعوثة الصحراء : صعوبتها ونوعها :
السمة . العلامة .
٢٧ الحلبة : ميدان السباق . القباطى هي
المتسور والأنواب والطنانفس التي
اشتهرت مصر بصنعها قبل الإسلام
وبهده ، مفردها قبطية وقد وردت
بهذا اللفظ في قول زهير بن أبي سلمى
ليأنيك مى منطق فدع .
باق كجا دنس القبطية الودك .
٣٤ الثيث هنا : البقل والمرعى والوسمى :
أول مطر الربيع . والرائد : من يبعثه
أهله في طلب المرعى : الأسعج هنا :
السحاب الأسود اللون . العجازة :
الفرس الشديد العضل . أترز الجرى
لحمها : أبيضه وأضمره . الأكرع ، جمع
كراع : أطراف القوائم . الحال الثوب
الناعم من ثياب الين .
٣٥ الصوار : القطيع من بقر الوحش .
الجزى : نوع من المدو . الاجلال ،
جمع جل : وهو ما يوضع فوق ظهر
الفرس سائراً له . القرب : الطويل

الضخم من الثيران . القرا : الظهر
الروقي : القرن . الأخنس : منخفض
قصية الأنف . الذيال : طويل الذيل .
فعايت منه ، عادي بين الصيدين تابه
المدو في طلق واحد . فتخاء الجناحين :
لبذهما في طول . اللقوة . السريعة التي
تختطب كل شيء . طسأطاً فرسه :
وخزه وحركة العدو . الشمال : السريعة
الخفيفة . الأنيمة وأورال : موضعان .
الجزان : جم خزن بالضم والفتح :
ذكر الأرانف . حجرت : اختفت في
أحجارها . أبيت الماس : كلمة يدعى
بها للبلوك ، أي حففت مما تلمن به .
نستك : تضيق ، الأفارع : بنو قريم
ابن عوف وكانوا قد وشوا به إلى
السمان ، تحادع . تشام : الخوامع جم حامة ،
وهي الغل في البسد الأمة الدين
والاستقامة لاصاف ونبرة : ماء ان على
طريق مكة ؛ والألال : جبل . السمام :
طائر أكبر من الخطاف سرير الطيران .
خوصاً عيونها : ضيقات . رذايا :
جم رذية ، وهي المطروح المتروك من
الإبل المالك في أثناء الطريق .

٣٦ الحني : جم حنية ، وهي القوس . المر :
داء جلدي يصيب الإبل في مشافرها
وقوائمها .

الضالم : الحائر المذنب . السيب :
المطاء . التصريد : الشرب دون الري
كنع المسك بالئىء : تراكم ولزق .
رث الجبل : بلى ، والمراد العهد
متم الضحى : بلغ آخر غايته . العصبة
بتح فسدون : الشجرة تعلق في شيء
عال فتكون كالخيمة عليه ، وهو الشجر
المنسلق كالآباب مثلاً . مذود . اسم
جبل . الأناب : شجرة العم : العظيم .

المحسرم : المنوع قلم سوقه .
كابه : موضع . لم تخبط : لم
تمصب فروجه وتضرب بالعصى وتكسر .
لم يتمضد . لم تقطع . عارض : اسم أخ
للشاعر . رهط بنى السوداء أصحاب
أخيه عبد الله .

٣٧ الأحاليف : المتحالون على نصرة بعضهم
لبعض . قبلا : عاناً ومقابلة . غزبة :
حى من بى حطم .

القمعد : الجبان يقعد عن نصر قومه .
الصياصي جم صصاة . شوكة يسوى
بها الحائك نسجه . المو : ولد الناقة
أو البقرة يحشى جلده تبدأ فتجد رائحته
فيه فتندر اللبن له . البرم . من لا يدخل
مع القوم في الميسر ضنا بالجزورء وكانوا
يطعمون لحومها للفقراء تناوحت الرخ :

همت من كل ناحية ، وذلك زمن الشتاء .
العضاة : الشجر الشائك . الضريع :
تبات خبيث لا تقربه الدواب . المعضد :
المقطم . كيش الأزارء قصيره ، وذلك
كناية عن العفة والتجدة . طلاع أنجد :
كناية عن اقتحام الصعاب . السيد
العمرد : الدب المشرس في هسلانه ،
يريد به فرسه . الشظى : اعظم اللازق
بالساعد أو الساق . العبل : الضخم
الشوى : الأطراف النسا . عصيب يجرى
في الفخذ والساق . والشنق : القبض ،
المنقبض . المقلد : المنق .

٣٨ المصدر : الأسمد . الجبيل فهمد .
موضعان . طعابه قلبه . ذهب به كل
مذهب . شط وليها : بعد وصلها . القمر
من الرجال : المحقق الذى يستجمله الناس .
ما أنت أم ما ذكرها ؟ ما استفهامية
للتعجب ، وأم اللاضرب بمعنى بل أي
ما شأنك ، بل ما الداعي لذكرها إياك

وهي من ربيعة وأنت من تميم
القليب . البئر : الجسرة : الناقة القوية :
الرداف : كل شيء يسكون خلف
الراكب . الخبيب : السير السريع
الوجيب : خفقان القلب .

٣٩ التهدة : الفرس الحسن الجسم . البواء
السواء والسكنف . شمصها : ضربها
ونفسها . العادية : القوم يمدون وكذلك
الحيل . سوم الجراد انتشاره في طلب
المرعى . وزفتها : كفتها ومنعتها سبأ
الخر : اشتراها . الايسار : الذين
يضربون القداح في القامرة .

أقلبه : أبغضه . شالت نعمتنا : نفرغنا
واختلفنا : الهامة : فيما يزعم العرب طائر
كالبوم يخرج من قعر القتل إذا لم
حذ بثأره فلا يزال يصيح ويقول
أسقوني حتى يثأره .

٤٠ لاه ابن عمك : أصله لله ابن عمك
فحذفت اللام الخافضة في لحن الكلام .
الديان القائم بالأمر ، للسفبة : المجاعة
العزاء الضيق والشدة .
زيد على مائة : زيادة عليها .

٤١ سفوان : اسم مكان . والكامة الفرسان
جمع كمي . الحدثان : الحوادث .
المتاديم : جمع مقدم . والمراد بالروح
هنا الحرب . وأبيض فياس : تقى من
العيوب كريم والمتفون طالو المعروف .
ما تقب فواضله : ما تنقطع عطاياه .
المقامات : جمع مقامة وهي الجماعة في
علاس واحد . والانتباب : التصد إلى
الموضوع . المكثرون : الأغنياء . ومن
يعترهم : يقصدهم من الفقراء . لم يلعبوا :
لم يقموا في القوم . ولم يألوا لم يقصروا
الخطى : الرمح نسبة إلى الخط وهي
جزيرة في البحرين شهرت بعمل الرماح

والوشيح : شجر الرماح ، ومعنى المثل لا يلد
السكريم إلا السكريم ، . لاح الشيء :
لحمه وأبصره . والبقاع : التلال .
والمقرر : من أصابه البرد . يصطلبانها
يستدثانها .

٤٢ والأسعد المداجي : الليل الشديد السواد .
وكف مبيدة : متلفة . الهجات :
البيهن السكرام من الأبل ، يستوى فيه
المدكر والمؤنث والجسم . الأوارك .
جمع أركبة ، وهي التي رعت الآراك .
المومة : المفازة . جديشا : فريداً .
والمتخرق : السريع . الشد : العد .
حاس عينيه السكري : خاطبها على
الاستعارة . الشيهان : الثيور على حرمة .
الربضة : الطليعة . ناج : اسم مكات
وما تمر وما تحلى : أي لا تنفر ولا تنصر
وأحساب نبتن مم البقل : أحساب غير
أنيلة أحدثها الفنى .

٤٣ والواصل . الطالب الراغب من الله .
تصفر منها الأامل : كناية عن الموت .
الحصائل جمع حصيلة : وهي ما كسبه
المرء من حسنات وسيئات . يقسم
أمره : يديره . هبلته أمسه : نسكته
وفقدته . والوائل : الناجي . والموائل
المجى . تزهد العوازل : تكفك
الحوادث . الخابور نهر بين رأس عين
والفرات . والسكاس ما يبى به من
النورة وأحلالها : الخورنق والسديرة
فصران عريان جاهليان : والصبيا :
الريح الشرقية . الدبور : الريح الغربية .
وألوت به : ذهبت به
السكسكل : الصدر . أنجل : انكشف
الإصباح : الصبح . وأمثل : أفضل . مفار
القتل : محكمه . وينذل جبل في نجد

| صفحة | صفحة |
|---|---|
| ٤٦ | ٤٤ |
| شام البرق : نفلر . | الوكينات . الأعشاش . والمنجرد : |
| والقال : الجبال والجل هنا : الحفسير | القصير الشعر . والأوابد : الوحوش |
| ٤٧ | ومعنى قيد الأوابد أنه يلحقها فيمنعها من |
| فصل بالجنود : رحل بها . تهرأ لجه : | القرار فكأنه قيدها . |
| تقطع وسقط . وجفنة مشفجرة : قصبة | والهيسكل : الضخم . والمسكر : كثير |
| ملأى . وطمنة مسخفرة : سريرة . | السكر . والمفر : شديد القر . الاطلاق : |
| ٤٨ | الحاصر تان . والارشاء : العبرى . |
| مساجلة الشعراء : أن يتناشد الشاعران | والسرحان : الذئب . والتقريب : العدو |
| بيتاً فبيتاً أو شطراً فشطراً يبدأ الأول | والنتفل : الثعلب |
| ويكمل الثاني . | الحدوج : جم حدج وهو مركب النضام |
| المها : بقر الوحش . سقط اللوى : | كالخفة . والحلایا : السفن العظام . |
| منقطع الرمل : والفخول وحومل : | والتواصب : مسايل المساء وبجاره في |
| موضمان في بلاد العرب ، | العيال . وود : اسم مكان . |
| أزمنت : نويت أجملي : ترفق . أعشار | عدولية : نسبة إلى عدول ، رجل كان |
| القب . أجزاءه مقسمة إلى عشرة . | مشهوراً بصنع الثمن . وابن يامن : |
| الغليقة : الطبع . وسلي ثيابك الخ | رجل ملاح كان يتخذ السفن الكبار |
| كناية عن المفارقة . | الحياب : الموج . والحيزوم : الصدر |
| ٤٩ | والمقال : لاعب الفيال وهي لعبة كان |
| كذلك جدى : حظى . | يلعبها صبيان الأعراب ، يحبون الشيء |
| جمال وأعفر : موضمان بالشام . | في التراب ثم يقسمونه بأيديهم ويقولون : |
| وحوران : كورة من أعمال دمشق . | أين هو ؟ |
| والآل : السراب ، واللبانات : الحاجات | النطفة : الماء الذي لا كدورة فيه |
| المنوبة . وحماة وشبزر : بلدان بالشام . | والمزن السحاب . والجودي : اسم |
| والدرب : باب السكة الواسع وكل مدخل | جبل . ودامس : مظلم |
| إلى بلاد الروم . درب الماء النافع القوي | الاصاب جم لصب . وهي شقوق في |
| لا يتقطر . السراة وذوو المثالة . أشرف | الجبل ، والقارس . البارد . السكواكب |
| القوم وكبارهم نأطأ من إشرافه : خفض | ما طال من النبات ، والنبات العميم : |
| تماليه . طلال الخفض : السعة والنمير . | المسكتهل التام . والأصل جمع أصيل |
| درج بالتممة بينهما : سمى بها . | آخر النهار . |
| ٥١ | صغر خده : تاه ونكبر . والعراين : |
| كلمني : دعيني . وهم ناصب : متعب . | الأنوف . اليمس : أثر الوسم وهو |
| وطء الكواكب : كناية عن طول الليل | السكى . استقاد : اقتبس الشجاع : الحية |
| أراح : رد . وعازب : بعيد الأشائب : | صمم : عض وثيب |
| الأخلاق من الناس . | ٤٥ |
| البيض : الديوف . القلول : التلوم : | يتضحون عنهم : ينافون . عهد الثقافة : |
| القراع : الحبالدة . الأحلام : العقول | عهد التلمذة والتدرج . |
| غير هوازب ، غير ذاهلة ولا غائبة . | |
| رطاق النعال : كناية عن الترف | |
| والحجزات جم حجزة : وهي مقعد الأزاز | |

- صفحة
- طيب الحجرة . كناية عن العفة ، ويوم
السباسب عيد الشمانين ، وكان من عادة
العسائين أن يحبوا ملوكهم فيه برفق
أغصان الریحان . ضربة لازب . أى
شىء ثابت لازم
- ٥٢ الجدة : المعنى ، ورحب الأناة : حلیم
وراجح الحصاة : وافر العقل .
اللهط الحوشى : ما يتجاشاه الكتاب
لقرابته أو نقله وهجر الحديث فاحشه
وتعمل الشعر تكافه .
- ٥٤ السحيل . المقتول فتلا واحداً : والمبرم
المقتول على قوتين ، وهما مستعارات
للضعيف والقوى . منشم اسم امرأة
عطارة اشترى منها قوم عطراً وتخالفوا
على قتال عدوهم : وجعلوا آية الخلف
شمس الأيدي فى ذلك العطر وقتلوا حتى
قتلوا . فضرب المثل فى الشؤم بعطر
منشم . التلاد : المال الموروث . والأفال
والمزئم المشروط الأذن
- ٥٥ خيط عشواه : تسير على غير هدى
كالناقة التى لا تبصر أمامها . يفره :
يحفظه .
- ٥٦ نقب الشعر : تعلقه وأنفته . ابيضت
عيناه : كناية عن العمى .
- ٥٧ الفرق : الخوف . المألسة : الرسالة .
وتأتسكل : نحتق من القصب الأثلة :
واحدة الأثل ، شجر عظيم صلب
وتحت الأثلة : كناية عن القذف
والغيبه . وأطت الإبل : أنت وحنث .
الوعل : لبس الجبل . قتل جمع فتول :
وهو لكثير القتل .
- الأرمد : من به رمد فى عينه والسليم :
المدوخ ، سمي بذلك تفاؤلاً برمته .
- صفحة
- والمسهد ، الساهر . الخلة : الصداقة
ومهدد : اسم امرأة
تردد الدهر : تغير وتقلب :
- ٤٨ السكلاة : التعب ؛ والضمير فى لها يعود
على ناقته . والوجى : وجع الخنق
ورقته من كثرة السير
تراحى : تستريح . والفواضل :
المطايا . مانع ما تنقع . أغربة العرب :
مدودانها . مسهر حرب : مضرمها
ومسملها . المصر : شد ضرع الناقة حتى
لا يرضعها ابنها :
- ٥٩ ترين على القلوب : نشيها . يتذاكرون :
يحبض بعضهم بعضاً على القتال .
- ٦٠ الأشطان : الحمال التى يرفع بها الماء
من البئر . والبان . الصدر . والأدم
انفوس الأسود . بثقرة نحره : أعلاه .
أزور : مال . التجمج : حنين الفرس
ليرق له صاحبه . وبك : اسم فعل
مضارع بمعنى أتعبج والكاف للحطاب
الشيظمة : الفرس الطويل والأجرد
قصير الشعر . الحنتف : المسوت ألقى
حياءك : أرميه .
- لا أبالك : جملة يراد بها التنبيه لا
التعنيف . تلاحظوا : نظر بعضهم بعضاً
بمؤخرمينه من شدة الهول . معم مخول :
كريم الأعمام والأخوال . ساهمة الوجود
طابسة . والعلوى : والجوع
- ٦١ الحباء . العطاء . أخذ وجهه : سارنى
طريقة . حاد البادرة : سريع الغضب . خولة :
اسم امرأة
- ٦٢ هوجاء مرقال : ناقة شديدة السرعة .
العتاق : الجوارح من الطير والنجائب
من الخيل . الوظيف : مستند الذراع
والساق من الخيل والإبل وغيرها .

- صفحة
- ٦٧ ليقيد منها : ليقنص منها . استل من قلبه السخيمة أخرج الضغن منه . الأرقام : بطون من تغاب . ويقلون : يبغنون . ولحفاء : الخلاج .
- ٦٨ رفش الكلام : زروه وزخرفه . لا يخلعا على عرائك : أى لا تظن أنا تحفل بأغرائك ، ملك مقسط : عادل . الخصلة . الامر . والألاء : الجماعات والمفرد ملاء . الطايخ : التكبير والتعاشى : التعامى : الحاب : المحالفة . والكفلاء : جمع كافل وهو الضامن . الجناح : الذنب . وكندة : قبيلة . الرضاء . صوت البعير . والنجاء : الإسراع فى السير . والوائل : الهارب الفزع . والحرة : الأرض ذات الحجارة السود : والرجلاء النابضة الشديدة . واللود : الجبل . المعترين : الفقراء .
- ٩٦ مشيع القلب : شجاع . الأزاز : من يازم الشيء ويعتمد عليه فيه والجشام : المتكلف للامور ، والمفئذم : المتضوب فى همه . لا يطعمون : فلان يطعم إذا لم يكن له نفاذ فى مسكارم الأمور . والبوار . الفساد .
- ٧٥ أظفمت العشيبة : أصيبت بأمر فظيع .
- ٧١ لا تلبق مما تملك شيئاً : لا تبقى . آليت : حلفت
- ٧٢ احتفروه : طلبوا منه القربى وهو طعام الضيف ، صرف الحديث : الملتقى المزور . السنة : الحجة . اشممرت الأرض : تقبضت من عدم المطر .
- صفحة
- المورد المعبد : الطريق المرطوب المستوى . العشون : شعرات طوال عند مذبح المير . وصهايبية : نسبة إلى صهاب وهو شبل مشهور . موجدة القرا : قوية الظهر . الوخذ : سمة الخطوب . موارة البدن : سهولة السير سريرته . الأناز : العنق الطويل . التلاع : بحارى المياه من رءوس الجبال إلى الأودية . استرفند : طاب الرمد وهو المعونة . الحانوت : حانة الخمار . الطريف : المال المكسوف والتلد : المال الموروث . البعير المعبد : المظلى بالقطران . بنوخراء : كناية عن الفقراء . الطراف : القبة من الجلد
- ٦٣ الدجن : لباس القيم الأرض وأقطار السماء . البهكينة : المرأة الفضة . الخنث من الخيل : للضعف العظام ، وذلك مدح له . سيد النضى : الذئب يعتام الكرام : يصطفيه ، والعقيلة : كرام المال . الطول : الجبل الذى يطول للداوة فترعى فيه ، والثنيان : طرفاه ، الموت أعداد النفوس : أى بمدنها ، فليشكل نفس موته ، طريقة قومه : كبيرهم ورؤسهم .
- ٦٥ غمر اليدبية : فيان القريحة أظفرتنا : أمهلنا . الخاريق : جمع مخراق وهو سيف من خشب يلعب به الصبيان والجهل : مناه الشدة والسفة . لين القاة : كناية عن الذل ، اللغصف : الظلم والموان
- ٦٦ ارتجلبا هفوا الساعة : أنشدوا ارتجالاً . ينضح من قومه : يدافع عنهم .

| صفحة | صفحة |
|--|---|
| ٩٨ | ٧٤ |
| النبت : المنقطع عن أصحابه في السفر : | حدبا حدابير : ناقة حدباء : وحدبار : |
| الطور : الدابة . الجمل لأنف : لخزوم : | يدت حرافها من الهزال . ليلة صبير : |
| تشدق الرجل : لوى شدقه لاتفصح . | باردة . تهورت النجوم : أى ولى أكثر |
| تفيهق في كلامه : توسم وتنطم . الفرس | الليل . كسرت البيت : جانبه |
| الشموس : الذى لا يمكن أحداً | وجأليته : نحو عنقه |
| من ظهره ، وضده الذلول | ٧٤ ينهنه الزجر : يكفه . الصدى : الجسد |
| ٩٩ الصفق في الأسواق : اليم والشراء | من الإنسان بعد موته |
| ١٠٢ أنفض رأسه إليه . حرره تعجبا | ٧٥ ترق . تموذ . الأني : الحلم . العوراء : |
| واستهزاء | السكامة أو الفملة الفيصة ، الأود : |
| ١١٠ الفرزما : أول عهد الشاعر بصنم الشعر | الأعوجاج . |
| أشرف على الخطر : أشرف عليه | المسوح : نيساب الرهبات . سقط في |
| ١١٤ المزاء (بالضم) : اسم للخمر اللذيذة | يده : ندم |
| الطعم . السكر (يفتح السين والكاف) : | ٧٦ أوماق المنية : حبالها . نابي القافية : |
| نبيذ يتخذ من التمر والتوت | قلقها . |
| ١١٥ القطين جمع القاطن . وهم أهل الحدرا | ٧٧ اليانم : الفلام إذا ترصرع وشارف |
| ١٦ القوارب : جمع غارب ، وهو الكاهل . | البلوغ . وتدل : تسقى المرة بعد المرة . |
| المسطار : الخمرة الصارحة لشاربها . | وتنهل : تشرب أول القرب . |
| الفتاة الخفرة : الحبية | المطروق : المصاب |
| ١١٧ الآتن : جمع أتان . أثنى الحمار . الأهيار : | ٨٠ الحميم المكثوم : الماء الحار المحبوس . |
| جمع عبر ، وهو الحمار . | الأيلاف : رحلتان تجاريتان لقريش في |
| ١١٩ رجل ترعيسة : يحميد رعارية الإبل | الشتاء ليمن وفي الصيف لموران |
| المراش : الخصام والقتال ، وهو | ٨١ بورتون النار : يشملونها |
| مستعار من هراش السكلاب . القلف : | ٨٢ الجزع بالفتح : الخرز اليماني والصيني |
| عدم الاختتان | فيه بياض وسواد . منجبا : مفرقا |
| ١٢١ القرمل : شجر ضعيف لاشوك له | جزءا على حسب الحوادث |
| وينفضخ إذا وطئ . الفياش : فخر | ٨٩ المصادع جمع مصدع : وهو البليغ القوى . |
| الرجل بما ليس عنده . صفى البيت : | السكات والحصر : العى والمجز |
| مال وخضع . اللامة : الدرغ | ٩٠ أحلامأطافية : عقولا طائشة |
| ١٢٣ ابن الليون : ولد الناقة إذا استكمل | ٩٢ المسب جمع عسيب . وهو جريدة النخل |
| العام الثاني . لزي قرن : شدق في جبل | قد نزع خصوصها : واللغاف : حجارة |
| الزل : جمع بازل وهو البير انفق نايه | بيض رواق |

| صفحة | صفحة |
|---|--|
| ١٤٩ | يدخوله في السنة التاسعة . القناعيس |
| ١٥٠ | جمع قنناس : وهو العظيم من الإبل |
| أشرفهم | ١٢٥ كسمة : ضرب دبره بصدر قدمه |
| ١٥١ | وطرده . النفل (بالفتح) : الفنيحة |
| تعرقي الدهر : من قولهم تعرق العظم | ١٢٦ كأس الديقان : السم |
| نذ ما عليه من اللحم نهماً بأسنانه | ١٣٧ طارت نفسه شامها : تبددت من |
| الخز : الحرير . والبز : الكتان | الخوف أو نحوه . لن تراهي : لن |
| ١٥٣ مغلاة : رسالة . عبد الدار : قبيلة . | تفزعى . والخنخ : الذل . واليراع : |
| ١٥٤ لا يطبعون : لا يفسدون . جلق : | الجبان . يمتيط . يموت من غير ملة |
| اسم دمشق . وشم الأنوف : كناية | سقط المتاع : رديته |
| عن الشهامة . | ١٣٨ الشليل : الدرع . أجم المعروف : |
| ١٥٦ العنكب : الغريب . يمتحي وامراسي | كرمه . والعوراء : الكائمة القبيحة |
| للأتمح : إخراج الماء من البئر . وأمرس | وكره : نتابه . للندى والسدى : |
| البيكرة : أعاد حبلمها إلى مجراه . | رطوبة الجوى . والمراد بهما المعروف . |
| الآسى الطيب . الأرماس : القبور . هرتة | والخود : المرأة الناعمة . وهبة القدر : |
| السكراب : نبعته . العرف : المعروف | ما بقي فيها من المرق وذلك كناية عن |
| ١٥٧ الحفيظة : الفضب . خلا ذرعها : | الجذب . العفن : الفصن . والورفاء : |
| فرغ باله | الحامة . |
| ١٥٨ العوانق : الأرانس . نوتلة : تعلق | ١٣٩ تخرموا : هلكوا . الرورة : الحجر |
| ١٥٩ تبع نساء : بزور النساء ويتبعهن . | ١٤٠ يفغنى : يسد خياشيمي . فشاوول |
| يحصم : يبرد | يقبس : دافع بهم ومارس |
| ١٦٠ نوات : طلعت النجاة . أرتك : | ١٤٣ صبة الحب : أوله وأصله . والغماء : |
| بمعنى خبرنى . تقور النجم : أذل . | الشدة . المناوح : المفاوز |
| السكراب : الفتاة الناهد . والمعصر | ١٤٥ لا طباخ لهم : لا فائدة ولا قوة . والدندن : |
| من بلغت شبابها . المشاش : رؤوس | أصل الصليان وهو من البقول . |
| العظام | البوادر : الشدة |
| ١٦١ سايط اللسان : بذئبه | ١٤٦ منوا بدها السياسة : أصيبوا به ، |
| ١٦٢ المارم : الشدي . والذكرد : الشديد | ١٤٧ كأسا روية : ملائى . وبب فريك ، |
| القتال . حشد على الحق : سراع الإجابة | الويب كالويل وزناً ومعنى . أمأ لك : |
| هند النداء . عيانو الخنا : كارهون | دعاء للمأثر لينفض |
| للقعش . أنف : أباة الضيم . شمس | ١٤٨ فوز : مات . الآلة المدياء : النمش |

| صفحة | صفحة |
|--|---|
| الفرة : رونق الشباب • والبياس : الشيب | العداوة : ألداء الخصام • عملة : عمدة • المساحى : الفؤوس |
| ١٧٥ تنوص : تتحرك • صيدحي الضحى : الصياح الرفيم الصوت الأباس : فقيد السبتنة : الجريئة من كل شيء وغرضه الداقة • أمارت : أسالت • الكراس بالسكسر : الفجل • الفوداء : دلوية الظهور والعنق • انفجت بالبناء للمجهول : رفعت • الزحاليق : جمع زحلوقة وهي المكان المنحدر الملس • الضعيف : المستوى من الأرض • الدخاس جمع دخس وهو المزلق • الأحفاء : جمع حفص وهو السير الضعيف : استماره هنا للجبان التأي : الصدع • ورأيه : اصلحه | ١٦٥ مقذع : مفعش • نكباء حرجف : ريج باردة شديدة الهبوب • الصقيع : الثاج • سروات النيب : ظهور الجبال : |
| ١٧٦ العين الماء الجارى • لوث العماة : لعوا وتكويرها | ١٦٦ ونطف الرجل : أنهم بريبة • والمعيط اللحم • القماء : العزة • المصير ، واحد المصران : الأمام • والألق : الجنون أو شبهه • بمجرا الفروع : تار القرى • يتكشاف : يتكشف • والقم : الفبار |
| ١٧٧ ظم • حياته • من يوم ولادته إلى يوم وفاته يحبو للسائسة : بقارها • | ١٦٧ صعر خذه : أماله عن الناس كبراً • الأخاداع • جمع أخدع وهو شعبية في العنق من الوريد |
| ١٧٨ أحلى درعا : أمرغ باله • النكل : الماء | ١٦٨ يرامى قرنه عن كذب : ينازل خصمه من قرب |
| ١٧٩ المربوع والريبه : الرجل بين الطول والقصر • المشذب : الشدب الطول في نحافة لشعر الرجل : الذي كأنه مشط فتسكسر قليلا ليس بسبط ولا جمده • الفيقة : شعر الرأس والمراد لمن انفردت من ذات نفسها فرقها وإلا تركها معقوصة • الحاجب الأرج : المقوس الطويل الوافر الشعر • القرن : اتصال شعر الحاجبين وضده البلج • أقى المرين : سائل الأنف مرتفع الوسط • الأدعج : العديد سواد | ١٦٨ اللقحة : النادة والرشاء : جمع راع • أرث النار أو الحرب : أضرهما • ١٦٩ المفرف : النذل ومن أبوه غير عربى • والوزار : كثير الإنم |
| | ١٧٠ كيش الجعفل : قائد الجيش • نقض مرة : وهن قوة • النطوى : الخدم والحشم والأنباع • السميت : هيثة أهل الخير |
| | ١٧٢ الضراعة : النذل |
| | ١٧٣ السكرابيس : جمع كراس وهو الثوب الغثن الغليظ من القطن • رغب العين : طماع |
| | ١٧٤ العنجيسة : الجفوة والخشونة • الاعتراس : صموية لقراس • ريق |

| صفحة | صفحة |
|------|--|
| ١٨٣ | الدهاء : عابة الناس . الغاس : ظلام الليل . الدبال : جمع سبلة وهي طرف الشارب |
| ١٨٤ | آس بين الناس : ساو بينهم . الغلق : الضجر والقصد |
| ١٨٥ | اقدموا القوس : كفوها وارادعوها . ناورس الجرة ثم سالها : الجرة خشبة في رأسها كفة تصاد بها الطيلاء . وناوصها تنبي . حابذا ومارسها . يضرب هذا المثل لمن يتألف القوم عن رأيهم ثم يرجع إلى قولهم ويضطرب إلى الوفاق . استوثق الأمر : أمكن وانتطم |
| ١٨٧ | الراء الدوى : الدفين الذي لا يطب له والزرعة : جمع نارع وهو : رافع للاء من الثمر . الأشيطان الحبال . والركن : بئر غير مطوية اللقاح : النياق مرهت عينه : ابرست حماليتها . هض الأيدي : كناية عن ندم . يسى لسكم طرقة : عهدها . خيل شمس : جمع شمس وهو الذي يتبع طوره ولا يكاد يستقر . وتثلل جمع ذلول وهو المروء الطيب |
| ١٨٨ | ركلها : رقدتها برجله |
| ١٨٩ | ضربت فيه بمرق أشب . أى ذى التباس ونسبه غير صريح |
| ١٩٠ | الراى الجميم : الحازم . واللسان الدرب : الحساد . لم الشمت : جم المتفرق |
| ١٩١ | دلج لابل : سير آخر الليل للقارة . كذس كنوساً : تغيب واستتر . ومكاس الرب : محال المنسكر . |
| | الحدقة . كث اللحية : كثيفها . ضليح الفم : واسعه . الأشذب ذو المشذب وهو رونق الأسنان وماؤها . والمفاج : فرق بين الثنايا . المسربة : خيط الشعر الذي بين الصدر والبصرة . الدمية : المصورة من العاج . البادن . دو اللجم : المماسك الذي يمسك بهمه بعضا . السكراديس رهوس العظام . شش السكرافين ، والقسمين : غليظهما ولحميهما . سائل الأطراب : طول الأصابع . خصان الأحسين : متجاف أخص القدم . والأخس هو الموضع الذي لاناله الأرض من وسط القدم . مسج القدمين : أملسهما . التقاع : رفع الرجل بقوة . التيكفو : الميل إلى سنن المثلث وقصده . الهون : الرفق والوقار . ذريع المشية . واسع الخطو من صيب : من علو يخته بأشدائه . يستعمل جميع فه للتسكلم لا يقصر على تحريك الشفتين |
| | ١٨٠ يند : ينفرد ويشرد |
| | ١٨٦ مات حنث أنفه . مات على فراشه لأن العرب يزعمون أن روح المريض تخرج من أنفه فإن جرح خرجت من جرحه . همى الوطيس . اشتدت الحرب ، والوطيس : التنور أو المعركة هدنة على دخن : سكون لمة لا لصالح والدخن : الحقد . رفقاً بالقوارير : جم فارورة . وهي المرأة تشبهها لها بالزجاج لضعفها . الختن : زوج الفت أو زوج الأخت . لحنه أخته : لامته |
| | ١٨٧ شأهت الوجوه : قبيحت |

| صفحة | صفحة |
|--|---|
| لا تنمسا : نفس عليه خيرا : حسده عليه ولم يره له أهلا . تتسلطون لوأذا : تهربون خفية . | جعلت ذلك دبر أذن : لم أصغ إليه ولم أهرج عليه . |
| ٢٠٢ الظلم : ذكر النعام . أجرها وأسودها : مجعها وعربها . تفنو : تخضع . وتجب القلوب : تخفق . داخرين له : أدلاء . | ١٩٤ تنسكب قوسه : حملها على منكبه . ذيم : اسم فرس أو ناقة . لغها . جمها . حطم : مسرع . الوضم : خفية يقطم عليها اللحم . العصا : الشديد الأروع : الذكي . الدوى : الصحراء . والمروج منها كناية عن الخبرة والصبر والجلادة : كقولهم : طلاع الثنايا . العرد : المشديد . البسك : الفئ من الإبل . الشناك : جمع شن وهو الجلد اليابس يعلق في الجباء فإذا دنت الإبل منه حرك فنفت من صوته (أي لا يخاف مما لا يخيف) فررت : أي اختبرت فوجدت ذكياً : الكنانة : جمعة السهام . عجم عيادها : عضها لينظر أيها أصلب . أمرها : أقواها |
| ٢٠٤ الجريرة : الذنب : فسودوا كباركم : اجعلوهم سادة لكم . المسألة : سؤال الناس استجداء . | ١٩٥ الإيضاح : نوع من السير : السلامة : شجرة الفرط تعصب ثم تخبط بالأرض أو بالصصى ليسقط ثمرها . ومعنى الجملة أنهم كهذه الشجرة لا ينتفع منها إلا بالشدة . غرائب الإبل تضرب أشد الضرب عند الحرب . وعند الغلاط لا أخلق : لا أقدر ولا أفصل . فريت : قطعت |
| ٢٠٥ ضم نشرهم : جمع متفرقهم : | ١٩٧ الألوية السود : أعلام العباسيين |
| ٢١٠ يندون : ينتسبون . وقسرا : فصياً وقهراً . نل : هدم | ١٩٨ تجور : ترجم |
| ٢١١ آرية نسبة إلى الآريين وهم قدماء الجنس الهندي الأوربي | ١٩٩ الأفاويق : جم فيقة وهي اللبن . رحمتنا : رفسنتنا الطير . بارحة : كناية عن سوء الحال . الأسار : القيد . |
| ٢١٣ الفالج : النصر السكبت : الإذلال . | ٢٠١ أوسخضم داراً : كناية عن السؤدد والشرف : |
| ٢١٤ الجنة : طائفة من الجن | |
| ٢١٦ فع : قهر ودل . تلسكأ : أبطأ وتوقف . | |
| ٢١٧ المزوجة : اتفاق الكلمات وزناً لا روياً . الملح جم ملححة وهي ما حسن من الأحاديث . | |
| ٢٢٠ العظام : السمائد . والسفائم : الضفائن . اشكيناك : أزلنا شكايك واعتيناك : قبلنا عتابك . | |
| ٢٢١ الحفيظة : الغضب والوجدة . هروة هذا القميس : يريد الضلالة . خيء الغمد : السيف . | |

| صفحة | صفحة |
|---|--|
| يجادل . وينازع . وبذ : غلب . وعاديا : وائياً . وبدلى : يحضر ويحجج | العرفج : شجر سهل وهو القتاد . المهوك المرأة التي لا تملك نفسها عن زوحها . |
| ٢٣٠ أثيراً : مقرباً . الفالج : داء يحدث في أحد شقي البدن فيبطل إحساسه . | ٢٢٢ الآن : ظرف متعلق بأمن أى الآن أمن الأحمر والأسود . |
| ٢٣٠ تباغت به العلة : اشتدت حماة : مزاح وهزل : | ٢٢٤ باب الأبواب : ثغر من ثغور بحر قزوين وكانت مدينة شهيرة تعرف الآن بدر بند . الغارب : الروح . تهوذ : تسوق . وما سكتنا البحر : توسطناه . تابجرين : البحر والمطر |
| ٢٣١ قل : نلم وشاة : حد . على رسلى برفق وتؤدة . | ٢٢٥ الثمال : من بهول عليه . وسروات : جمع الجمع لسرى وهو السخى ذو المروءة . وسريات جمع سرية وهي الرقيقة القدر . القلب . العسكر . والظفر : الدابة . واليد : |
| ٢٣٢ لساجلتك . باريتك وعارضتك . المصارمة : المقاطعة . يدبيل : أدال أقفة فلاناً من فلان جعل له الكرة عليه القلبي : البهض . | النعمة . والأعضاء : الأعوان . والجوارح : الأعضاء . والحاجب : الحادم . والعين : الذهب . والراحة ضد التعب . صلد الزند : كناية عن الخيمة . العين : القوة : واليسار : |
| ٢٣٢ الجادة : وسط الطريق . البنيات . الطرق الصغار تشعب من الجادة . الجهارة : حسن القد والمنظر . يتنيل : يتشبه بالنبله . | الفنى . المرافق ما يرتفق به . الثامة الفتية من النوق . والناب : النافقة المنسنة . العيش الأخضر : كناية عن المديشة الطيبة والمحجوب الأصفر : الذهب . فودى : جانب رأسى . والعدو الأرزق : الشديد العداوة . والموت الأحمر : القتل بالسيف . |
| ٢٣٤ المبارج : الطرق . يتوقل : يتصمد اضطلم بكذا : احتمله ونهض به عشارها : جمع المشراء للناقعة مضمي على حملها عشرة أشهر . القولنج : مرض مؤلم من أمراض المعدة . النقرس داء يأخذ في أصبع الرجل . الديباجة هنا حصن الأسلوب . الوشى : نقش الثوب من كل لون . القرار : المثال القوي تضرب عليه النصال لتصلح | ٢٢٦ احتجن المال . ضمه إلى نفسه . تقففت : تقبضت . الحلة : الحاجة والنقص |
| ٢٣٥ يث : مت إلى فلان بكذا وصل إليه وتوسل . غلول : خيانه . استقتصالك : أستطامك . حابيت شطريها : مربك خيرها وشرها . ظل ذو ثلاث شهب : دخان جهنم على وجه النشيبه . | ٢٢٩ الإساود جمع أسود : وهو العظيم من الحيات . الفادح : الثقيل . والمنياء الذي لا يبرأ منه . يبارى : |
| ٢٣٦ حلى بصدرك : أعجبك . سمرج : معجل | |

| صفحة | صفحة |
|--|---|
| الكلمة المغلقة يتعاجى الناس بها . | الحشاشة والدماء : بقية الروح في |
| ٢٤٧ التنويل : العطاء . الاحتمار : التقصد | جسم المريض : البرحاء : شدة الأذى |
| والزيارة : | والهفنة . |
| ٢٤٨ للسفينة : الجوع | أعضائهن : عضل المرأة حسبما عن |
| ٢٥٠ مؤاناة : مساعدة . الأخبية المطبقة : | الزواج . |
| الحيام الضرورية . | ٢٣٩ الفلواء : السرعة والذهاب إلى الغاية . |
| ٢٥٢ يتقبلون : يتشبهون . تجرم : تقضى . | منى : أصيب . |
| عييت : عجزت . مهلهلة النسيج : | ٢٤٠ شام البرق : نظره . الايمانس : البريق |
| سخيفته | ٢٤١ عوارف : جمع عارفة وهي الصنيع |
| ٢٥٤ أشرع الريح : شهره . البنود : | والجميل |
| الأعلام | ٢٤٢ ألق عصاه : كناية عن الإقامة بعد |
| ٢٥٥ الكعامة : الأبطال . | الظعن . عفو الساعة : بسرعة من |
| ٢٥٦ حسبة : إداخراً عند الله . الأطهار : | غير كلفة . ابن مجدتها : العالم بالشيء |
| التياب البالية . | المتفن له . والبجدة باطن الشيء . |
| ٢٥٧ الآبقى : الهارب . النواطير : جمع | ٢٤٣ السكدية : التسول . السماط : الشيء |
| ناطور وهو حافظ الكرم والنخل . | المصطف وما يوضع عليه الطعام . |
| يتمن : امتلأت بطونهن . الصيد : | الأشرط : العلامات . |
| جمع أصيد وهو الشريف العزيز . | ٢٤٤ المقفة : المحبة . دخلة الرجل : نيته |
| جدا كل جيس : عطاء كل بخيل | ومذهبه . النحلة : النوع أو المذهب . |
| ذئء : بلغ . جمع بلغة وهي ما يقبلغ | الأزر : الظهر والقوة . التولب : |
| به من العيش : صباية العيش : بقيته | الخنزير : ألقى حياهك : الزميه . خزأ |
| وأخرته . طففتها : نقصتها . | ويزأ : حريراً وكتاناً . مطارف : |
| ٢٥٨ ارجل هنا : المنزل . وحضرت | جمع مطرف وهو رداء صريع من الغز |
| الهدوم رحلى : طارقتني . للمدائن : | في طرفيه هلمان . تغزى : تنسب . |
| مدائن كسرى وهي إلى جنب بغداد | العاقون . جمع هاف وهو طالب |
| الأبيض : ايون كسرى . والعفس . | الرزق |
| الناقة الصلبة . درس : قفر . | ٢٤٥ خضرة الدمن : ما نبت في المزلبة من |
| حافضون في ظل عال : منعمون | العشب . المعيدى : رجل من معد |
| في قصر مشيد . يحسر العيون | يضرب به المثل في حسن الصيت |
| ويخسى : يرداها حاسرة خاسئة | وقبح المرأى . |
| لارتفاهه . خلاط ومكسي مكانان . | ٢٤٦ الفلائل : جمع غلالة وهي الثوب |
| | الرفيق . الأحاجي : جمع أحجية وهي |

| صفحة | صفحة |
|---|---|
| ٢٦٢ قد حالق : تغير . الطارق : لاء خوضته الإبل وبولت فيه . اللسنة : العجمة والعي . الرق (بالضم) : الخر | حائل : جم حلة ، وهي مكان النزول والقربة . الإساس : الففار . عفس قبيلة من اليمن : والبحترى طائي يعني . غدون أفضاء ليس : صرن باليات . الدرفس : راية الفرس إهياض جرس : سكوت . الشيخ : البطل . يتلى ارتياي : يزداد . وتنقراهم تفحصهم ، أبو الفوت : ابن البحترى . ولم يصرد : أي لم يستق دون الرى : والعسكران : مكان . الليخس : أخذ الشيء في نهمزة ومخالفة أضواً الليل : أضاءه . |
| ٢٦٥ الذقم الغبار . الرجعة : الرجوع إلى الدنيا بعد الموت . نافقة : راحة ٢٦٧ نفسى : فرجى وخفى | ٢٥٩ الحوب : السكاون والمكان الطوى وأرعن جاس : جبل شاقق . يتظنى الخ ... يظنه القادم عليه إنسانا مزعجا بفران حبه أو بتطبيق زوجه . الدمقس : الحرير . ورضوى وقدس : جبلان البرس : القطن النكس : الوضع . ووقوف : جم واقف . وخنس : مستترون . القيان : المغنيات . يرجعن : |
| ٢٦٧ صرخده : أماله من الناس من كبر . السليقة : الطليمة . الأون : أخدود الجيار والجصاص . | يفنين وحو ولعس : جمع حواء ولعساء لسوداء الشفة ، وكانت صفة مستحسنة . غير نعى لأهلها هند أهلى : يشير إلى قصة سيف بن ذى يزن وأستمناته بكسرى في طريق أرباط ملك الحبشة من اليمن بعد أن ملكها ، والبحترى كما نعلم يعني . السنخ : الأصل . |
| ٢٦٩ الوظيفة : للرتب من مال أو طعام . وفرة جمدة : الوفرة ما سأل على الأذنين من الشعر ، والجمدة ما كان فيها التواء وتقضب | ٢٦٥ ٢٦٥ الصهباء : الخمر . الأصطباح : شرب الخمر صباحا |
| ٢٧١ اليم : البحر . الآل : السراب تحيف : تعظم مخايل : دلائل على النجح | ٢٦٥ ٢٦٥ المها : جمع مهاة ، وهي البقرة الوحشية . تدرها : تحتلها . الفلاس : جمع قلنسوة وهي من أغطية الرأس . كالقبة . نهمز بالذلو : ضرب بها |
| ٢٧٣ نفق عنده : حظى لديه . دالة : جراءة | ٢٦٥ ٢٦٥ الشلال : الناقة السريعة . لم أعمده أى لم أعمده . |
| ٢٧٤ ضرب على وتره : جرى على طريقه . الذن : وعاء الخمر الكبير . اللطف (بالفتح) : الرفق | |
| ٢٧١ اليم : البحر . الآل : السراب تحيف : تعظم مخايل : دلائل على النجح | |
| ٢٧٣ نفق عنده : حظى لديه . دالة : جراءة | |
| ٢٧٤ ضرب على وتره : جرى على طريقه . الذن : وعاء الخمر الكبير . اللطف (بالفتح) : الرفق | |
| ٢٧٥ ٢٧٥ الصهباء : الخمر . الأصطباح : شرب الخمر صباحا | |
| ٢٦٥ ٢٦٥ المها : جمع مهاة ، وهي البقرة الوحشية . تدرها : تحتلها . الفلاس : جمع قلنسوة وهي من أغطية الرأس . كالقبة . نهمز بالذلو : ضرب بها | |
| ٢٦٥ ٢٦٥ الشلال : الناقة السريعة . لم أعمده أى لم أعمده . | |

| صفحة | |
|------|---|
| ٢٨٤ | الغلالة : الثوب الرقيق |
| ٢٨٧ | المهندس الظلام. المنجل : آلة الحصاد حائث : منعت . |
| ٢٨٧ | أسرار الوجه : الخطوط التي في الجبهة الجمادى : الزعفران . نسبة إلى الجادية قرية بالشام . أعطاط : جمع نمط وهو ضرب من البسط . الاستبرق : غليظ الديباج . النشزات الأمكنة المرتفعة . الفيصل : اللسان مجازاً . أهني : طويل شامخ . |
| ٢٨٨ | مأله عليه « ساعد . المعال : الخلو من الزينة . شمرع : سواء . رأد الضحى أوله الطفل : قبيل النروب . الرسم : نوع من سير الإبل . الأنيق : جمع ناقة |
| ٢٨٩ | المحمد الأصل . المحتمدى : طالب العطاء . اكبت : أذل . الغضاضة المنقصة . فكأن قد . كأنها قد زالت . |
| ٢٩١ | الأرهم الأدراس : المنازل المقفرة المهككة : السكوة غير النافذة . النبراس : المصباح |
| ٢٩٢ | حصف عقاله : قوى . السكاف : شيء يملأ الوجه كالسمسم . أجباد السكواعب : رقاب الحسان |
| ٢٩٣ | القتاد : شجر شائك . الوفر : لللال الكثير . مخلق لديباجته : مبل لصفتي وجهه ، وذلك كناية عن الأنتدال سرمد : دائم بفتح : يثقل . فجاج : جمع فجع وهو الطريق الواسع بين جبلين . |

| صفحة | |
|------|---|
| | في الماء لتتلى . أسمت : أرعيت . السراج : الماشية السائمة |
| ٢٧٦ | السراة : جم سرى وهو الشريف السخى . الطيرة : ما يشاء به من القال الردى . |
| ٢٧٧ | المهرجان : عيد الفرس . القيان : جمع قينة وهي المنغية ، الذكينة : القطعة البيضاء في الأسود الغصان : الضال من الأخذان يستوى فيه الواحد والجماعة يلجون : يلومون |
| ٢٧٩ | الأذريون : زهر أصفر في وسطه خل أسود وهو هباد الشمس . الغالية : أخلاط من الطيب . الكن : جمع أدكن ، وهو المائل إلى السواد . الخود : المرأة الشابة . يدجو : يبسط قوراء : متسمة . الرشاء : الجبل |
| ٢٨٠ | رنت ، مستعار من رنق الطائر إذا خفق بجناحيه ولم يطر الورس : نبات كالسمسم أصفر يزرع باليمن ويصنع به . مززعج : محرك : شول : نقص . تششم العور : تقضى إلا أقله صور : جم صوراء ؛ وهي المائلة للثفتة . روان : فواظر . بين هنا : بمعنى تبين أى ظهر . ومنه المثل (قد بين الصبح لذي عينين) مششم : مخلوط بعضه ببعض . أذكى : عطر . ريمان ظله : وارف ظله . ربى : نسبة إلى الربيع . حثت : حرك . الصنج : صفيحة مدورة من الصفر يضرب بها على أخرى للطرب . شدوات : تزييد . |

| صفحة | صفحة |
|--|--|
| مصبوغ بالعصفر وهو نبت أصفر يصبغ به . عاج : مال | ٢٩٥ يتزاور : يموج ويميل |
| ٣١١ العير حمار الوحش . ساف : شم . الخزاي : نبت طيب الرائحة . العود المن من الإبل | ٢٩٦ الفث من السلام . النافه . الحبيك الطرق، جمع حبة . الجوانسن : الدروع . ريق الفث : أوله |
| أديم الأرض : سطحها . الرمان : ما بلى من العظام | ٢٩٧ لجب : ذولجب وهو الصوت . تدهى : تلتسب . العثير : الغيار |
| ٣١١ الفرقدان : كوكبان متلازمان . المدلج : السائر آخر الليل . الثمري مأسدة جانب القرات . الصلال : جم مرسل وهو الحبة الغبيثة | ٢٩٨ الحدود . الأحكام الشرعية ٢٩٩ عقود عمره : عقد المدد عشرة . يتجشم : يتسكف الصعب . الرواض مذلول الخيل ومملو ركوبها . أقمم وطابه : ملأ وعاءه . أخلاف : جم خلف وهو حاملة ضرع النافه أشلى عليه السكاب : أفراه به . لم يقم له وزناً : لم يحفل به . |
| ٣١٢ المسودة : هم العباسيون لانقاذهم السواد علماً وشعاراً | ٣٠١ يطيش سهمه . يضيخ . الإحالة : التسكام بالحمال . الثقلان : الإنس والجن . تنيمة : تذله وتخضعه . كمت الحجر : ما فيها سواد وحرة |
| ٣١٦ الفلق : الصباح . الأرق ، السهاد والسهر . السدف : شدة الظلام . تبرها : تستدرها . | ٣٠٢ يسيبه : يفتنه : قرن الشمس : قرصها |
| ٣١٧ القيان : المغنيات . اللاهوات : جم لهاة وهي أقصى سقف القم . ذواتون : بونس هليه السلام . والنون الحوت . الجداء جم جدى . السراحين : جم سرحان وهو الذئب . | ٣٠٣ لصطنه لنفسه : أختص به لواعج : جم لاعج وهو الهوى المحرق |
| ٣١٨ ميقوم النداء : لم يفصح عما يريد بأسو الجرح : يضمده | ٣٠٤ المرار : آخر الشهر وهو المحاق الإسار : القيد . الإهاب : الجلد . الحسو : الشرب شيئاً بعد شيء الطنبور : آلة للطرب ذات عنق طويل وستة أوتار من نحاس لا يركو به : لا يلبق به . يز مصون شعره : يبتذله . |
| ٣١٩ أخفاف : مخلفون خاسوا : نسكسوا وغدروا . اتهاش نهش . انيجاس : انفجار . هم الدمع : سكب . الريم : الفزال | ٣٠٥ العراء : الفضاء |
| ٣٢٣ الجانة : حبة من فضة على شكل الؤلؤة . الرشأ : الفزال الأبيض | ٣٠٦ المباب : مظم الماء . مصفر : |
| ٣٢٤ الرديني : رمح منشوب إلى ردينة، | |

| صفحة | صفحة |
|---|--|
| ٣٤١ الشنب: بريق الأسنان، واللبس : سمرة في الشفة . الوعاء : رابية من رمل ليثة . الرضاب : الريق . الليل مشط الذوائب: لاح خيره . الجوزاء : برج من أبراج السماء | وهي امرأة كانت تثقب الرماح . الشناب : خطوط السيف ٣٢٨ الصوادي : العطاش . يعلى : يستهو |
| ٣٤٢ أنكدت الشمب: هوت: وتساقت الأفرند : جوهر السيف ووشيه . الربطة : الملاة | ٣٢٩ شوازيا : مرتفعات . خزرأ : جمع أخزر وهو ضيق العين . حشرة آذانها : لطيفة صغيرة . قب الأبطال ضامرات البلون والحصور . الأنسر جمع نسر وهي لحمة في باطن حافر الفرس من أعلاه الخلق : الطيب . الشلو : بقية الجسم المأكول . القصور : الأسد |
| ٣٤٣ همي القيث : سقط . الحيا : للطر ٣٤٤ الثوب المعلم : المنقوش ، كمن فيه : ستر . برما : ضجرا . العفاء : الهلاك والبي | ٣٣٠ ذات بينهما : الصلة والقربة ضافية الذيل ، طويلته |
| ٣٤٥ الدبر : جماعة النحل . الضرب الهبر أن ينقطع منه اللحم لشدته . السياق : الفرع والاحتضار | ٣٣٢ التأمي : التجلد أنبت : انقطع النسرين : ورد أبيض عطر قوي الرائحة . |
| ٣٤٩ الاسننان : من اسننان الفرس وهو قصه وعدوه ونشاطه | ٣٣٣ الرقوم : شجرة في النار يطعم منها أهلها . والفولين : ما يسبل من جلود أهل النار . السناء : الرفعة والسنى للضوء . القندال : مؤخر الرأس . العلاوة : أعلى الرأس أو العنق . |
| ٣٥٢ المسبوح : الشراب صباحاً . الأيك : الشجر المتلف الكثير . الخلق : المطر بالخلق الجآذر : جمع جؤذر وهو ولد البقرة الوحشية . الظلم (بالفتح) : الريق | ٣٣٥ يتاح فضله : أتاه يطلبه . الفنك : دابة يفترى جلودها أي يلبس فروا |
| ٣٥٥ الشذا : الرائحة | ٣٣٧ مسجور : ملآن . سرجت أغصانها : امتدت وطالت |
| ٣٥٦ الإثم : الخمر مجازاً | ٣٣٨ تفرى : تكشف . الخضارم : البغار |
| ٣٥٨ المرزأة : المصيبة | ٣٤٠ اللي : الريق الحجر : نجوم كثيرة لا ترى بمجرد البصر ، وإنما ينتشر ضوؤها فبهي كأنه خط أبيض |
| ٣٥٩ الغفوة : النوم . الروح (بالفتح) المساعدة . الإيوان : الصفة العظيمة . الأوار : الذهب | |
| ٣٦٠ موقرة : محلة تجهيم لها : استقبلها بوجه كربه يتقاص : يغزوى ويتراجع | |
| ٣٦١ اللسن : الفصاحة ، خامره الماء ، | |

- صفحة
- الأوراق الرسمية. المعاديات. الأشياء
القدمية نسبة إلى عاد. أغفال الرواة :
جم غفل لقبير المحرب . المفتريات :
مختلفات الأحاديث . الجرح والتعديل
في الحديث : تنقس الراوى أو تركيته
٣٨٠ كل عليهما : هبء . الجدد العائر :
الحظ السىء
- ٣٨٢ الربهة : لا بالطويل ولا بالقصير .
يرئضخ : ينزع إلى المعجم في ألفاظ
من ألفاظهم
٣٨٣ أحفظ : أخضب . ما عتم : ما لبث .
اليقين : ثلاث
- ٣٨٤ حسن البرة : حسن الهيئة . أنفسح
درعه : طال باعه ، أنذر : أنى بالنادر
- ٣٨٥ السم : هيئة أهل الخير
- ٣٨٧ أنضوى إليه : انضم . صدح . جاهر
أمضى الركائب في طلبها . أطال السفر
في البحث عنها . حدها إلى كذا ،
دعاه إليه . العامية : الحائرة . ظهراء
نصراء . لإشراف : تعال . يشكأم :
الشكيمة الحديثة المعارضة في فم
الفرس . غفلا : لم يدم واضهوها
الدور : الدروس
- ٣٨٨ الدهاء : جماعة الناس ، ولا بدع :
لا غرابة
- ٣٩٠ انكل منه : نكس وجين . أبيقورى :
شهوأتى نسبة إلى أبيقور أحد فلاسفة
اليونان ، مستهتر : لا يبالي بما فعل
٣٩١ خانقاه : مكان الصوفية . توسط
باحثها وشارف غايتها : كنايةتان
عن التضلع منها . شخص : ذهب
٢٩٢ التناسخ : انتقال النفس الناطقة من
بدن إلى بدن آخر . تمصت : انتقلت
- صفحة
- خالط جوفه ، استشمى الفساد :
تماقم وعظم . للمعارض : ووارد
الشاربين .
- ٣٦٣ قيم في كسريته : انزوى واحتبس
براذين : جمع برذون وهو دابة دون
الفرس وفوق الحمار
- ٣٦٤ حياء : عطاء . تقية : مداراة .
حدبا عليه : عطا عليه . سلبط
الاسان : طويله وحديده التنطس :
التأنيق في كل شىء .
- ٣٦٥ عفى : كلف العناء . من عليه : عدد
له ما أعطاه . راش : أغنى : النشب :
المال
- ٣٦٦ السواد : ما بين البصرة والكوفة
وما حولهما من القرى . التبط :
جيل من المعجم ينزلون بالبطائح من
المراقين وقيل أنهم عرب .
يتجرجون : لا يرورون به حرجاً ولا بأس
- ٣٦٧ لأخذت عليه : أخذته . مراغ :
مذهب
- ٣٦٨ أراد على كذا . حله عليه . التجبيه :
المقابلة المكروه
- ٣٧٧ الخبز القفار ؟ غير المأدوم . السارية :
العمود
- ٣٧٥ النضا : شجر عظيم من الأثل . غض :
طرمه . الجنى : الثمر . تنجمه العين :
تزدريه : انساخ : سهل دخوله في
الحلق . الإلهام : سم لهاة لما بين مقطع
أصل اللسان إلى أقصى الحلق
- ٣٧٨ أضفاه : أسبته وأطاله
- ٣٧٩ مهاواة للبلوك : مسابرة لهم .
المسكوكات : النقود . والسجلات :

| صفحة | صفحة |
|------|---|
| ٤١٧ | أولبست . الحلولية : فرقة من |
| ٤١٦ | المنصوفة تفول إن الله حال في |
| ٤١٨ | كل شيء متجدد بكل جزء وتجوز |
| | أن يطلق على كل شيء أنه الله |
| | ٤٠١ انتسكت لله : انتة من أمره . الأرزاء : |
| | المصائب ، عني على اللغة : محاما |
| ٤١٩ | ٤٠٢ النعمة : الخيلاء والكبر ، الرد : |
| | العون ، الوزر : الملجأ |
| ٤٣٠ | ٤٠٣ رفقت عليه المنية : رفرفت عليه |
| | كاطائر ، والذماء : بقية الروح |
| ٤٣٧ | الأرضة : دويبة تأكل الخشب |
| | والكتب وزحوا : هلكوا من الإهياء |
| ٤٣٨ | ٤٠٤ أغطشت . أظلمت ، دياجر : جم |
| | ديجور وهو الظلام . شارق : |
| | كركب ، بارق : برق ، ما كان |
| | أروح : ما كان أسر |
| | ٤٠٥ تخونتها : تنقصتها |
| | ٤٠٦ بلة الفصاحة : قليل منها : الإحاص : |
| | الانتقال من الجدل إلى المزل |
| | ٤٠٩ السراوة المروعة والسخا- |
| | ٤١٠ أقال : جمع قيل وهو الملك . من |
| | ملوك حمير |
| ٤١٧ | انتالت على : تباينت وكثرت |
| ٤١٦ | ارفض عنها الوهن : زال الضعف |
| ٤١٨ | ذكا : اشتعل . العفاء : البلى . |
| | خبسا : خمد ، الأريكة : سرير |
| | منجد مزين ، خبا أو ارها : ضعف |
| | شأنها |
| ٤١٩ | ٤١٩ الخائعة : القليلة |
| ٤٣٠ | ٤٣٠ النافق : الرائج |
| ٤٣٧ | ٤٣٧ تجلوع عنها أمقاب الله : تبرأ من بقاياها |
| ٤٣٨ | ٤٣٨ دعتين : أخطب الناس في اليونان ولد |
| | سنة ٣٨٤ وتوفي سنة ٣٢٧ قبل الميلاد |
| | شيشرون : أفصح خطباء الرومان ولد |
| | سنة ١٠٦ وتوفي سنة ٤٣ قبل الميلاد |
| ٤٣٩ | ٤٣٩ الاصفاء ، أصفى الشاعر : انقطع شعره |
| ٤٤٠ | ٤٤٠ شبل في نعمة أبيه : ربي محبوب |
| | للسابحة : يناهزها |
| ٤٤٤ | ٤٤٤ أضراهم : أجرأهم ، يبلغ الكتاب |
| | أجله : يبلغ الحسك أمده . اللدد : |
| | الخصومة الشديدة |
| ٤٥٢ | ٤٥٢ رجال المابين . موظفو البلاط العثماني |
| | أيام الخلافة . |

رقم الأيداع : ٨١ ١٥٩٢
الرقم الدولي ISBN ٩ ٧ ٧٢٧٩ - ٢٧ - ٢

مطبعة نخضة مصر
١٨ شارع كامل صدق بالعجالة - القاهرة
ت ٩٠٣٣٩٥ - ٩٠٨٨٩٥